

A portrait of Charles Boudier, a man with long, wavy, light-colored hair, looking slightly to the right. He is wearing a dark, high-collared coat. The background is a deep blue with a subtle, swirling pattern.

شارل بودييه

الأعمال
الشعرية
الكاملة

ترجمة: رفعت سلام

دار الشروق

شارل بولمیر

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٥٧٩٧/٢٠٠٩

ISBN 978-977-09-2635-9

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩ (٢٠٢) +

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

شارل بوديسير

الأعمال
الشعرية
الكاملة

ترجمة وتقديم
رفعت سلام

دار الشروق

المحتويات

<p>الشؤم..... ١٤٩</p> <p>الحياة السابقة..... ١٥١</p> <p>ارتحال العجر..... ١٥٣</p> <p>الإنسان والبحر..... ١٥٥</p> <p>دون جوان في الجحيم..... ١٥٧</p> <p>عقاب الغطسة..... ١٥٩</p> <p>الجَمال..... ١٦١</p> <p>المِثال..... ١٦٣</p> <p>العملاقة..... ١٦٥</p> <p>القناع..... ١٦٧</p> <p>ترنيمة إلى الجمال..... ١٧٠</p> <p>عطر غرائبي..... ١٧٢</p> <p>خصلة الشعر..... ١٧٤</p> <p>مثل حشد من الديدان..... ١٧٧</p> <p>أيها الخزي السامي..... ١٧٨</p> <p>بلا إشباع..... ١٨٠</p> <p>امرأة عقيم..... ١٨٢</p> <p>الأفعى الراقصة..... ١٨٤</p> <p>جثة..... ١٨٧</p>	<p>شاعر الشر الجميل..... ١٥</p> <p>ألبوم الصور..... ٥٠</p> <p>بودلير: سيرةٌ ما..... ٦١</p> <p>موقف بودلير، بقلم بول فاليري..... ٩٩</p> <p style="text-align: center;">أزهار الشر (طبعة ١٨٦١)</p> <p>إهداء..... ١١٥</p> <p>إلى القارئ..... ١١٧</p> <p style="text-align: center;">سام ومثال</p> <p>بركة..... ١٢٣</p> <p>طائر القطرس..... ١٢٨</p> <p>سُمو..... ١٣٠</p> <p>تجاوبات..... ١٣٢</p> <p>العصور العارية..... ١٣٤</p> <p>الفنارات..... ١٣٧</p> <p>ربة الشعر العليلة..... ١٤١</p> <p>ربة الشعر الدنيئة..... ١٤٣</p> <p>الراهب الفاسد..... ١٤٥</p> <p>العدو..... ١٤٧</p>
--	--

٢٥٠	أغنية الخريف	١٩١	من الأعماق صرخت
٢٥٢	إلى عذراء	١٩٣	مصاصة الدماء
٢٥٥	أغنية الأصيل	١٩٥	كجثة ممددة
٢٥٨	سيزينيا	١٩٧	ندم متأخر
٢٦٠	فرانثيسكا ماي لود	١٩٩	القط
٢٦٣	إلى سيدة خلاسية	٢٠٠	مبارزة
٢٦٥	حزينة وتائهة	٢٠٢	الشرفة
٢٦٧	الطيب	٢٠٤	الممسوس
٢٦٩	سوناتا الخريف	٢٠٦	طيف
٢٧١	حزن القمر	٢١٠	كظل أثر زائل
٢٧٣	القطط	٢١٢	نفس الشيء دائما
٢٧٥	البوم	٢١٤	كلها
٢٧٧	الغليون	٢١٦	طيفها يتراقص كشعلة
٢٧٩	الموسيقى	٢١٨	الشعلة الحية
٢٨١	قبر	٢٢٠	تعاكس
٢٨٣	نقش خيالي	٢٢٢	اعتراف
٢٨٤	الميت المبتهج	٢٢٥	الفجر الروحي
٢٨٦	برميل الكراهية	٢٢٧	تناغم المساء
٢٨٨	الجرس المشروخ	٢٢٩	قارورة العطر
٢٩٠	سأم ١	٢٣١	السُّم
٢٩٢	سأم ٢	٢٣٣	سماء غائمة
٢٩٤	سأم ٣	٢٣٥	القط
٢٩٦	سأم ٤	٢٣٨	السفينة الجميلة
٢٩٨	وسواس	٢٤١	الدعوة إلى السفر
٣٠٠	مذاق العدم	٢٤٤	بلا تكفير
٣٠٢	كيمياء الألم	٢٤٨	محادثة

٣٧٨	خمر المنعزل	٣٠٤	رعب متعاطف
٣٨٠	خمر المحبين	٣٠٦	المعذب نفسه
	أزهار الشر	٣٠٨	بلاد دواء
٣٨٥	الدمار	٣١١	ساعة الحائط
٣٨٧	شهيدة		نوحات باريسية
٣٩١	نساء ملعونات	٣١٥	مشهد طبيعي
٣٩٤	الشقيقتان الطيبتان	٣١٧	الشمس
٣٩٦	ينبوع الدم	٣١٩	إلى متسولة صهباء الشعر
٣٩٨	صورة رمزية	٣٢٣	البجعة
٤٠٠	بياتريس	٣٢٧	الشيوخ السبعة
٤٠٢	رحلة إلى سيثيريا	٣٣١	العجائز القصيرات
٤٠٦	الحب والجمعمة	٣٣٧	العميان
	تمرد	٣٣٩	إلى عابرة
٤١١	إنكار سان-بيير	٣٤١	الهيكل العظمي الكادح
٤١٤	هايل وقايل	٣٤٤	غسق المساء
٤١٧	ابتهالات الشيطان	٣٤٧	المقامرة
	الموت	٣٤٩	رقصة جنائزية
٤٢٥	موت المحبين	٣٥٣	عشق الكذب
٤٢٧	موت الفقراء	٣٥٥	لم أنس
٤٢٩	موت الفنانين	٣٥٦	الخادمة ذات القلب الطيب
٤٣١	نهاية النهار	٣٥٨	ضباب وأمطار
٤٣٣	حلم شخص فضولي	٣٦٠	حلم باريسي
٤٣٥	الرحلة	٣٦٤	شفق الصباح
			الخمر
	البقايا	٣٦٩	روح الخمر
٤٤٧	تنبيه من الناشر	٣٧١	خمر جامعي الخرق
٤٤٩	غروب الشمس الرومانتيكية	٣٧٤	خمر القاتل

قصائد مدانة

محدوفة من «أزهار الشر»

ليسيوس.....	٤٥٣
نساء ملعونات.....	٤٥٨
ليثيه.....	٤٦٥
إلى تلك المبتهجة للغاية.....	٤٦٧
الجواهر.....	٤٧٠
تحولات مصاصة الدماء.....	٤٧٣

غزليات

النافورة.....	٤٧٧
عينابرت.....	٤٨٠
ترنيمه.....	٤٨١
وعود في وجه.....	٤٨٣
الوحش.....	٤٨٥
فرانشيسكا ماي لود.....	٤٩٠

نقوش

أبيات لبورترية.....	٤٩٣
لولادي فالونس.....	٤٩٥
عن «لوتاس سجيناً».....	٤٩٦

قصائد متنوعة

الصوت.....	٥٠١
غير المنتظر.....	٥٠٣
الفدية.....	٥٠٧
إلى امرأة من مالابار.....	٥٠٩
هزليات	
عن بدايات أمينة بوشتي.....	٥١٣

بقية «أزهار الشر»

فتات.....	٥٥٩
-----------	-----

قصائد الشباب

١- (عاليًا هناك).....	٥٦٥
٢- (ليست لديّ كعشيقه).....	٥٦٧
٣- (إلى سانت-يف).....	٥٧٠

إضافة الطبعة الثالثة من

(أزهار الشر- طبعة ١٨٦٨)

نبذة لكتاب مدان.....	٥٢٣
إلى تيودور دي بانفيل.....	٥٢٥
غليون السلام.....	٥٢٧
صلاة وثني.....	٥٣٣

الغطاء.....	٥٣٥
اختبار منتصف الليل.....	٥٣٧
غزلية حزينة.....	٥٣٩
النذير.....	٥٤٢

العاصي.....	٥٤٤
بعيداً عن هنا.....	٥٤٦
الهاوية.....	٥٤٨
نواح إيكاروس.....	٥٥٠
تأمل.....	٥٥٢
القمر المهان.....	٥٥٤

٥٧٥.....	٤- (أيتها المرأة النبيلة).....
٥٧٦.....	٥- (يا كنة الفُجُور).....
٥٧٧.....	٦- في ألبوم السيدة إميلي شوفاليه.....
٥٧٨.....	٧- (إلى هنرى إينار).....
٥٨٠.....	٨- (أليس صحيحًا).....
٥٨١.....	٩- (كان يحب رؤيتها).....
٥٨٢.....	١٠- (للأسف!).....
٥٨٤.....	١١- (أختي العزيزة).....
٥٨٦.....	١٢- (هناك كلمات عفيفة).....
٥٨٨.....	١٣- نقش على قبر.....
٥٨٩.....	١٤- (أرى).....
٥٩٠.....	١٥- (المشروع المُغوي).....
٥٩١.....	١٦- مونسلية بأيّار.....
	سام باريس
	«قصائد نثر صغيرة»

٦٢٥.....	سام باريس: تاريخ.....
٦٢٩.....	إلى أرسين هوساي.....

قصائد بلجيكية

٥٩٥.....	فينوس بلجيكية.....
٥٩٦.....	نظافة أنسات بلجيكا.....
٥٩٧.....	النظافة البلجيكية.....
٥٩٨.....	هاوي الفنون الجميلة في بلجيكا.....
٦٠٠.....	ماء ناجع.....
٦٠٢.....	البلجيكيون والقمر.....
٦٠٤.....	نقش.....
٦٠٥.....	حورية نهر السّن.....
٦٠٦.....	رأي السيد إيتزل في البيرة البلجيكية.....
٦٠٧.....	اسم يبعث على التفاؤل.....
٦٠٨.....	الحكم البلجيكي.....
٦٣١.....	الغريب.....
٦٣٢.....	يأس المرأة العجوز.....
٦٣٣.....	صلاة اعتراف الفنان.....
٦٣٤.....	مهرج.....
٦٣٥.....	الغرفة المزدوجة.....
٦٣٨.....	لكل شخص مسخه.....
٦٤٠.....	المعتوه و«فينوس».....
٦٤١.....	الكلب وقارورة العطر.....
٦٤٢.....	بائع الزجاج السيئ.....
٦٤٥.....	في الواحدة صباحًا.....

أفضال القمر.....	٧١٣	الزوجة الوحشية والعشيق الصغيرة.....	٦٤٧
من الحقيقة؟.....	٧١٥	الجمهور.....	٦٥٠
حصان أصيل.....	٧١٦	الأراميل.....	٦٥٢
المرأة.....	٧١٧	البهلولان العجوز.....	٦٥٦
الميناء.....	٧١٨	الجاتوه.....	٦٥٩
صور لعشيقات.....	٧١٩	ساعة الحائط.....	٦٦١
الرامي اللطيف.....	٧٢٤	نصف الكرة الأرضية في خصلة شعر.....	٦٦٣
الحساء والسحب.....	٧٢٥	دعوة إلى السفر.....	٦٦٥
ساحة الرماية والمقبرة.....	٧٢٦	لعبة الفقير.....	٦٦٨
فقدان الهالة.....	٧٢٨	هبات الجنيات.....	٦٧٠
الآنسة «بستوري».....	٧٢٩	الإغواءات.....	٦٧٣
أي مكان خارج العالم.....	٧٣٣	غسق المساء.....	٦٧٧
فلنصرع الفقراء.....	٧٣٥	العزلة.....	٦٧٩
الكلاب الطيبة.....	٧٣٨	المشروعات.....	٦٨١
		دوروتيه الجميلة.....	٦٨٣
		عيون الفقراء.....	٦٨٥
		موت بطولي.....	٦٨٧
		العملة الزائفة.....	٦٩١
		المقامر الكريم.....	٦٩٣
		الحبل.....	٦٩٧
		إلهامات.....	٧٠١
		الصولجان.....	٧٠٥
		فلتسكروا.....	٧٠٧
		فعلا.....	٧٠٨
		النوافذ.....	٧١٠
		شهوة الرسم.....	٧١١

ملاحق ووثائق

ملاحق «أزهار الشر»

مشروعات مقدمة «أزهار الشر».....	٧٤٥
مشروعات خاتمة «أزهار الشر».....	٧٥١
وثائق محاكمة «أزهار الشر».....	٧٥٤

ملاحظات بودلير إلى محاميه

شيه ديستاتج.....	٧٥٨
مرافعة السيد بينار.....	٧٦١
مدافعة الدفاع.....	٧٦٩
الحكم.....	٧٧٦

رسالة بودلير إلى الإمبراطورة..... ٧٧٨	إضاءات..... ٨٠٥
ملاحق «سام باريس»	قاموس المصطلحات والأعلام
مشروعات، خطط، عناوين..... ٧٨١	المصطلحات..... ٨٦٩
قصائد سهلة الإنجاز..... ٧٨٨	الأعلام..... ٨٧٧
شهادات..... ٧٩٤	للمترجم..... ٩٢١

شاعر الشرّ الجميل

أغبياء البرجوازية الذين يتشدقون دائماً بكلماتٍ من قبيل «لا أخلاقي»، «لا أخلاقية»، «الأخلاق في الفن» وغيرها من الحماقات، يُذكّرُوني بـ«لويز فيلديو»، وهي عاهرة بخمسة فرنكات، رافقتني ذات يوم في زيارة إلى اللوفر، وكانت تلك أول مرة تزور فيها هذا المتحف، فاحمَرَّ وجهها وراحت تغطيه بكفِّها وتجذبني من كُم السترة، متسائلةً أمام اللوحات الخالدة: كيف أمكن عرض كل هذه العَوَرَات على الناس؟!

بودلير، قلبي عارياً

بعد حوالي قرن ونصف القرن من صدور الطبعة الأولى من «أزهار الشر»، يظلّ هذا الديوان الصّغير أكثر فعاليةً وحضوراً في الشعرية الفرنسية والعالمية من كل معاصريه. ويظل بودلير أكثر حياةً وتأثيراً من شعراء قرنه اللامعين.

لم يكن أحد ليستطيع التنبؤ بذلك، بل لعلّ الاستخفاف نفسه لم يكن غائباً عن بعض كتابات معاصري بودلير إزاء صدور الديوان، إن لم نرصد التشفّي والعدائية - التي تصل إلى حدّ الغل - لدى بعض الصحفيين ضيّقي الأفق. وبالفعل كانت «المعاصرة» - بالنسبة لزمان بودلير - أكثر من «حجاب» يُعمي البصر ويُسوّش على البصيرة.

فخلال حياته، كان معاصروه يميلون عموماً إلى وضعه جانباً، في الركن؛ عقاباً له، باعتباره «ولداً خبيثاً»، أو كشخص «غريب الأطوار».

فالقرن التاسع عشر هو قرن فيكتور هوجو ولامارتين وشاتوبريان وجوتيه ودي موسيه ودي فيني، كقمامات إبداعية شاهقة هيمنت على النصف الأول من القرن هيمنةً

ساحقة. وفي ظل تلك الهيمنة، صدرت الطبعة الأولى من «أزهار الشر» (٢٥ يونيو ١٨٥٧)، في ١١٠٠ نسخة.

فكيف كان لمعاصريه - شعراء ونقادًا وصحفيين - أن يدركوا أن هذا الديوان الصغير - للشاعر الذي لم يتجاوز عمر الشباب - سيكون ألمع ما أنتجه القرن، بما انطوى عليه من فتوحات لا تُستنفَد؟

لن يدرك ذلك سوى فيكتور هوجو - ببصيرته الخارقة - حين كتب له: «إنك تخلق رعشةً جديدةً في الشعر الفرنسي».

وبعد وفاته - في الثانية والأربعين من عمره - كان اعتقاد الأجيال التالية أنه إنما عاش في الجحيم، حيث يشهد مصيره على استمرارية رهبة للعذاب طوال حياته. ولحظة الوفاة، لم يكن لديه سوى كلمة وحيدة، «سُحْقًا!»، وصورة الشاعر الملعون التي يحملها معه إلى النهاية.

(١)

حياةٌ بائسةٌ عاشها بودلير في قلب القرن التاسع عشر، على الصّعيد الشخصي، فيما بين ٩ أبريل ١٨٢١، تاريخ ميلاده، و ٣١ أغسطس ١٨٦٧، يوم وفاته. حياةٌ مرتبكةٌ، قلقَةٌ، متوترةٌ، متخبطَةٌ وعصبيةٌ، تبدأ بوفاة أبيه وعمر بودلير ٦ سنوات، لتتزوج أمه - بعد عام واحد من الترمُّل - بأحد العسكريين اللامعين، الصارمين، ضيّقي الأفق.

لم يكن الرجلُ معاديًا للطفل المشاكس، لكنّه لم يكن يعرف سوى التربية العسكرية، باعتبارها المثل الأعلى لكل تربية وسلوك، والمستقبل العسكري أو البيروقراطي، باعتباره المستقبل المأمول الذي ينبغي لابن زوجته أن يعمل من أجله.

أما شخصية بودلير، فتتكشف مبكرًا مضادةً - بطبيعتها الأولى - لهذا النمط من التفكير والحياة والسلوك، والنفور العميق من «المؤسسة» على إطلاقها: المدرسة، والمنزل البرجوازي، والزواج، والوظيفة، وبقية المؤسسات، لا بحثًا عن مؤسسة بديلة، بل عن التحرر من كل مؤسسة.

وفي المواجهة الأولى، يتم طردُ بودلير من المدرسة. شخصيةٌ مضادة،

مناقضة، معاكسة. ومجتمع يقوم على مؤسسات مترتبة، وقواعد وقوانين وأخلاق وأعراف ما أنزل الله بها من سلطان.

* * *

يبدأ الصّراع بين الشّاعر والجنرال بحصول بودلير على شهادة البكالوريا. ويخطّط الجنرال لابن زوجته مستقبله كدبلوماسيّ؛ اعتمادًا على نفوذه لدى السلطات العليا. لكن بودلير يصمّم على تكريس نفسه للأدب. يعيش حياة بوهيمية، ولا يحضر أية محاضرات بكلية الحقوق المسجّل بها. عالمه الأثير هو عالم الشخصيات الأدبية لتلك الفترة، والعاهرة سارة، التي سيكتب عنها قصيدته «ليست لديّ كعشيقه لبؤة». أما العائلة، فيشتعل قلقها من تراكم ديونه، وحياته البوهيمية، وعدم اكتراثه بالارتباط بوظيفة.

ويقرّر الجنرال وضع الخطة «الإصلاحية» لهذا الناشز، ويتم دفعه إلى القيام برحلة «تربوية» بحرية طويلة، يقيم خلالها في جزيرة موريشيوس، بعد تعرض الباخرة لعاصفة واضطرارها إلى الرسو بالجزيرة. لكنه يقرر عدم استكمال رحلته، والعودة إلى الوطن: «لا أظن أنني أعود والتعقل في جيبي».

لكن هذه الرحلة «التربوية» الإيجابية الفريدة ستصبح مصدرًا للعديد من القصائد الهامة اللاحقة، وستمنح شعر بودلير مذاقًا «استوائيًا» لاذعًا. لكنها - خارج هذا الإطار الشعريّ - ستبدو بلا جدوى «تربوية». فمؤسسة الأسرة - التي تبنت فكرة «إصلاح» الابن الضال - لم تدرك المفارقة: أن الابن «الضال» مضادّ لكل «إصلاح» بالمعنى البرجوازي التقليدي، ولكل أخلاق رائجة، وأنه - على النقيض - يبحث عمّا يتجاوز هذه القيم، أو ما يهدرها، أو ينفیها.

*

والكراهية الأعمق - في حياة بودلير الشخصية - ستوجه إلى أوبيك، زوج أمه العسكريّ اللامع، الذي كان كل حدث مناسبةً لترقيته إلى رتبة أعلى، شارةً على إخلاصه وتفانيه في خدمة النظام. كراهية تأسست - منذ البدء - على التعارض بين نمطين في التفكير وتصورات الحياة.

فالوقائع والوثائق تثبت أن الرجل لم يُكنْ كراهيةً خاصّةً لبودلير، طوال وجوده

في حياته؛ بل كان يسعى إلى «مصلحته» القائمة على «الاستقامة» و«الاحترام» و«الانضباط» الحياتي والأخلاقي، بمعايير ذلك الزمن الرائجة المعتمدة. هي تلك المعايير التي التزم بها - هو نفسه - كضابطٍ خاض معارك النمسا وأسبانيا وواترلو والجزائر، فضلاً عن قيادة المواقع العسكرية الحساسة في المدن الفرنسية لحظات التمرد الاجتماعي الفاصلة، وأثبتت فعاليتها، فنال الأوسمة الحربية الرفيعة، وسبواصل التزامها ببقية حياته - من موقع عسكري إلى آخر - فينال الأوسمة والنياشين والترقيات، ويعقبها بوظائف رفيعة في السلك الدبلوماسي الفرنسي، كسفير في القسطنطينية ومدير، إلى أن يبعث الإمبراطور ممثله إلى جنازته ليواريه الثرى، في النهاية.

ف عندما يُلحق الطفل بودلير بالمدرسة، يقدمه إلى مدير المدرسة بفخر: «سيدى، هذه هدية أقدمها لك. هذا تلميذ سوف يُشرف مدرستك». ولن تكون الرحلة «التربوية» الإلجارية - في مرحلة أخرى - سوى محاولة مخلصه منه لمنع بودلير من «الضياع المطلق»، حسب وصفه. وفي مرحلة لاحقة، سيؤنب أويك ابن زوجته على علاقته مع جين دو فال (عشيقتة)؛ لأنها تختلس أمواله وتخونه. وهو ما سببت الوقائع والأحداث صحته، فيما بعد.

كان الرجل مخلصاً في محاولاته اعتراض طريق بودلير إلى ما يعتبره «الضياع المطلق»؛ وستكون كل معاركه التالية - الصّاخبة أو المكتومة - مع ابن زوجته منطلقاً من هذا الهدف المعلن منذ البداية. لكن هذا الإخلاص المتعصب - الذي لم يفتر طوال حياة الرجلين - كان متسقاً مع المُثل الرائجة، سياسياً، في تلك الحقبة البرجوازية/ الاستعمارية؛ حيث يمكن الادعاء بضرورة «تحضير» الآخر - الشعوب المتخلفة - بالغزو والقوة المسلحة والمجازر (وقد شارك أويك في حملة «الجزائر» عام ١٨٣٠، وعاد منها مكللاً بالغار والترقية من جديد؛ الحملة نفسها التي تمنى الطفل بودلير ألا يعود منها حياً؛ فهل يعود العسكريون من الحروب؟!).

لكنه الإخلاص المحكوم بضيق أفق وتعصب يُعمي بصيرة الضابط المتميز الذي لا يقبل إلا بالطاعة العمياء من مرءوسيه، بلا مناقشة أو حوار، والإيمان بقدرته الرفيعة المطلقة على اتخاذ القرار الصائب، الذي لا يحتمل الشك أو التردد، فضلاً عن الخطأ. ضيقُ أفق وتعصبُ أبٍ ذلك الزمان والطبقة، الذي لا يقبل المعارضة،

فضلاً عن العصيان والتمرد من ابنه، مع الاقتران بإرادة متصلة لا تلين حقاً، كأنه في معركة عسكرية، أو معركة إرادات أبدية.

ولن نجد في وثائق بودلير إلا الكراهية العميقة لهذا الرجل، منذ أن أصبح طرفاً في حياته، إلى اللحظة التي شيع فيها جثمانه متصدراً كبار رجال الدولة. ففي أبريل ١٨٤٢، يترك بودلير إلى أمه رسالة هروب من المنزل: «من المستحيل أن أكون مثلما يريدني زوجك؛ وبالتالي، فإني سأسرقه إن بقيت عنده فترة أطول؛ وأخيراً، فلا أجد من اللائق أن يعاملني كما يبدو أنه يريد من الآن فصاعداً. لاشك أنني سأضطر إلى أن أعيش حياة قاسية، لكنني سأكون أفضل حالاً..». ولن يعود بودلير إلى المنزل العسكري مرة أخرى. وسيصل اعتراضه إلى كل شيء، حتى ما يشربون: «إنهم لا يشربون سوى البوردو عند أمي، وأنا لا أستطيع الاستغناء عن البورجون!».

✱

لكن التعارض الجذري بين الاثنين يمتد إلى ما هو أبعد؛ فالرجل العسكري الطموح، الملتزم، هو أحد أدوات النظام، يقود له معاركه في الخارج، والداخل، فيكافئه النظام بالأوسمة والترقيات. شارك في معاركه الخارجية، فالداخلية: فهو قائد الفرقة العسكرية السابعة في ليون ١٨٣١، لقمع «ثورة الجوع» التي ترفع شعار «الحياة ونحن نعمل أو الموت ونحن نقاتل»، فيما كان بودلير يقف في الضفة المقابلة. وبين الموقفين مسافات وفجوات شاسعة وعميقة، لا تقبل الوساطة ولا الوسطية.

وفي فبراير ١٨٤٨، يشارك بودلير في الانتفاضة الشعبية، ويصدر مع اثنين من أصدقائه نشرة ذات طابع اشتراكي، «الخلاص العام» التي يصدر منها عددان؛ لكن الجنرال كان يقف في الضفة الأخرى، يقود عملية القضاء على الانتفاضة، واستعادة النظام.

تعارض وتناقض خلقي بين الاثنين، بلا إمكانية تعايش. وكل لقاء مشاجرة وخصام عنيف. قطبان متنافران، وشخصيتان متضاربتان، لا ينتج عن لقاءهما، أو تماسهما، سوى العنف والفظاظة.

أما الأم، فهي علامة الاستفهام الشائكة في حياة بودلير الشخصية. لقد ظلّ زواجها الثاني شوكة في حلقة، لم يتكيف معها أو ينساها: «عندما يكون للأم ابن مثلي، فهي

لا تتزوج مرة ثانية أبداً»، ليصبح زواجها الثاني - بالنسبة له - خطيئتها «الأصلية» التي لا تقبل الغفران. ويضممر لها - طوال حياته - خليطاً من العواطف المتناقضة: الحنان والمرارة، الحب والظلم، العتاب والحزن، الفظاظة والعذوبة، والكثير من الشكوك.

إنها ظلّ الزوج، المتوافقة - على نحوٍ ما - مع موقفه من ابنها (لن يستطيع أحد الجزم بما إذا كانت متوافقة حقاً، أم راضخةً لسطوة الزوج العسكري). وثمة مسافة تحكم العلاقة مع ابنها المتمرد، الذي يكتب إليها: «لا أستطيع أن أصف لك الأثر الكئيب والعنيف الذي يتركه فيّ ذلك البيت الكبير، البارد والفارغ.. إني لا أدخله إلاّ بحذر، ولا أخرج منه إلاّ بتلصص؛ لقد أصبح ذلك أمراً لا يُطاق بالنسبة لي».

*

فإلى المعركة الأخيرة مع العائلة.

يبلغ الحادية والعشرين من عمره، سنّ الرشد القانونية، ويحصل على بضعة آلاف من الفرنكات الذهبية، كجزء من نصيبه من ميراث أبيه.

يهرب من المنزل. وينتقل للسكنى بغرفة في جزيرة سان لويس وسط باريس. يضاعف من مصروفاته بصورة زائدة. ويعيش حياة بوهيمي ثري، مع الحشيش والأفيون. يشارك في حضور اجتماعات «نادي الحشاشين». وحوالي خمس عشرة قصيدة - ستتحذ مكانها فيما بعد في «أزهار الشر» - كانت قد كُتبت حتى ذلك الحين. لكن نصف ميراثه تم إنفاقه في عامين.

هنا، يجتمع مجلس للعائلة، وترفع أمّه دعوى قضائية تطالب بوضع ما تبقى من ميراثه تحت رقابة وصي قانوني تعينه المحكمة. والمحكمة تقضي بتعيين الوصي، فلا يمنحه إلاّ مبلغاً محدداً كل عام. ويقضي بودلير بقية حياته في التهرب من الدائنين، والتوسل إلى الوصي وأمه ليقدما له «دفعات مسبقة» من مستحققاته الخاضعة للحراسة.

هكذا جندت الأسرة مؤسسات الدولة: القانون والقضاء، ضد الابن العاصي. ولن يستطيع بودلير مواجهة القرار القضائي، وسيعاني منه حتى لحظة وفاته. لكنه - في الوقت نفسه - لن يغير شيئاً من طبيعته المتأصلة: ضد أي قيد أو قمع أو قسر. ولا

إذعان. وسيظل طوال حياته القصيرة - نسبيًا - يدفع غاليًا ثمن هذا القرار «التربوي»، لكن دون خضوع أو تنازل.

معركة استنزفت بودلير طول الوقت. هروب دائم من الدائنين، وتغيير متواصل للإقامة حتى لا يتوصلوا إليه، واستجداء دائم لبضع فرنكات من أمه، وكتابة محمومة أحيانًا من أجل الحصول على النقود، وقلق يسكن الروح يمنعه أحيانًا من الكتابة وإنجاز مشروعات مقررة لمقالات وكتب وقصائد. ضريبة باهظة يدفعها من أجل امتلاكه لحياته التي لن تطول، واعتصام - حتى النهاية - باختياراته الشخصية للحياة بلا هوادة. فحتى معركة «أزهار الشر» القادمة - التي وصلت إلى حد المحاكمة، والتشهير، وإصدار حكم قضائي ضده - ستبدو، بالمقارنة مع هذه المعركة العائلية، محدودة التأثير عليه، وعابرة، على المستوى الشخصي والحيوي، في مقابل حفزها الناري لقواه الروحية والإبداعية لمزيد من الإبداع.

صراع بين نموذجين للحياة: النموذج البرجوازي (حياة مستقرة، ووظيفة معتبرة، وتأسيس أسرة ذات زوجة وأولاد، والتزام بأخلاقيات البرجوازية المناقضة للبائسة... إلخ)، ونموذج الفنان الحر الذي يقرر أخلاقيات ومعايير حياته بنفسه، حتى لو تعارضت مع أخلاق ومعايير المجتمع، ويتمسك بها حتى اللحظة الأخيرة، ويدفع ثمنها حتى الموت.

معركة بطول الحياة وعرضها، وحياء في شكل صراع دائم لا ينتصر فيه طرف على الآخر؛ لكن بودلير - في المقابل - ينتصر بموته دون خنوع أو استسلام، على الرغم من كل شيء.

※

وسيكون لمعركة «أزهار الشر» أن تكشف أبعادًا أخرى.

ففي ٢٥ يونيو ١٨٥٧، تصدر الطبعة الأولى من «أزهار الشر». وبعد أيام، تنشر جريدة «لو فيجارو» مقالاً يحرض على ملاحقة الديوان قضائيًا. وبعد يومين فحسب من نشر المقال، يتم بالفعل تقديم بودلير وناشره: بوليه - مالاسي ودبرواز، إلى المحاكمة بتهمة انتهاك الأخلاق العامة وانتهاك الأخلاق المسيحية. وتطالب النيابة

العامه بحذف ١٠ قصائد، ست منها بدعوى إهانة الأخلاق العامة، وأربع بدعوى إهانة الأخلاق المسيحية.

وتقضي محكمة الجنح بأن بودلير وناشريه «مذنبون»، وتغريم بودلير ٣٠٠ فرنك، وكل من الناشرين ١٠٠ فرنك، مع حذف القصائد الست المتهمة بإهانة الأخلاق العامة، وعدم الاعتداد بتهمة إهانة الأخلاق المسيحية^(١)

لكن بودلير يكتب إلى أمه: «إنني سعيد تقريباً لأول مرة في حياتي. فالكتاب جيد تقريباً، ولسوف يبقى، هذا الكتاب، شهادة على قربي وحقي على جميع الأشياء». فهو لم يعنه من الحكم سوى أمرين: بنية الديوان - الصارمة فنياً - التي اهتزت بفعل حذف ست قصائد، والغرامة الباهظة التي لم يكن بمقدوره سدادها، «وتتجاوز قدرات الفقر مضرب الأمثال للشعراء»، كما كتب في رسالته إلى الإمبراطورة. أما بعض مقالات التشهير والنميمة الصحفية، التي سبقت وصاحبت وأعقبت المحاكمة، فلم تستوقفه طويلاً، على الرغم من غيظه منها.

والمفارقة أن الأم لم تهرع لنجدة ابنها مالياً، المهدد بالحبس لمدة عام إن لم يدفع الغرامة. كم هي بعيدة بعيدة، في تلك اللحظة. كما لم ينجده الوصي على أمواله، بدفع الغرامة من ميراثه الواقع تحت سلطانه، ليضطر بودلير إلى مخاطبة الإمبراطورة نفسها، لتخفيض الغرامة إلى مبلغ معقول. فعليه أن يخوض المعركة وحيداً إلا من الدعم المعنوي والثقافي لعدد محدود من الأصدقاء الكتاب.

لكن الحكم كان حافزاً - في المقابل - على إصلاح الخلل البنيوي للديوان، بالانكباب على الكتابة من جديد، بما يسد الفراغ البنيوي بعد حذف القصائد الست المدانة. وفي بضعة شهور، كتبت «الرحلة»، «البجعة»، «رقصة جنائزية»، «العجائز السبع»، «خُصلة الشعر»، «القناع»، «الهيكل العظمي الكادح».. بما يكشف عن أن الفراغ البنيوي قد تم تجاوزه بزلزلة داخلية أكثر عمقاً؛ فهذه القصائد ليست - فحسب - الأكثر رحابة في أزهار الشر، بل - أيضاً - الأجمل في الديوان، وربما في الشعر الفرنسي.

(١) فلنلاحظ أن المدعي العام لم يطالب بمصادرة الكتاب، بل بحذف القصائد التي اعترض عليها، فحسب. ولنلاحظ أن المحكمة استبعدت إحدى التهمتين، وأنها حكمت بحذف ٦ قصائد فحسب، لا مصادرة الكتاب ككل؛ ثم إن القضاء الفرنسي سيلغي هذا الحكم من بعد، بعد وفاة بودلير، حتى لا يظل الحكم وصمة في تاريخه.

وأيضًا، كشف الحُكم عن اتساع وعمق الهُوَّة الفاصلة بينه وبين العالم المحيط؛ هُوَّة لا يمكن القفز عليها، أو ردمها، أو التغاضي عنها.

ولا أوهام لديه في ذلك، ولا رغبة في إقناع أحد بشيء، أو تفسير شيء، أو تبرئة نفسه من شيء. حالة من الرواقية الواعية والغريزية في آن: «قال بعضهم لي إن هذه الأشعار يمكنها أن تؤذي؛ فلم أبتهج بذلك. وآخرون، من ذوي الأرواح الطيبة، قالوا إنها قد تفعل خيرا؛ وذلك لم يحزني». لا بهجة، ولا حزن.

إنه إيمانه العميق والنهائي بأن «فرنسا تمر بمرحلة من السوقية. فباريس، مركز وإشعاع الحماقة الكونية»، وأن «الفرنسي حيوان قن، مُدجَّنٌ إلى حد أنه لا يجرؤ على عبور أي حاجز. انظروا إلى ذوقه في الأدب والفن. إنه حيوان من السلالة اللاتينية، لا تُزعِجه القذارة في بيته، وفي الأدب هو آكل بُراز. إنه مولعٌ بالغائط».

وسيكون على معاصريه أن ينتظروا وفاته، ليعثروا في أوراقه على تصوره لدور الأديب في الحياة: «الأديب هو عدو العالم»؛ ولهذا فـ «الأمم لا تنجب العظماء إلا مُرغمة. فلن يكون المرء عظيمًا - إذن - إلا إذا انتصر على أمته كلها».

وسيكون عليهم أن يدركوا - بعد وفاته - جدية صورته عن نفسه، ليست صورةً بقدر ما هي كشف ذاتي لأعماق شخصيته التي حيرتهم: «إنني أتمتع بإحدى الشخصيات المحظوظة التي تستمد البهجة من الكراهية، والتي تتمجد في الاحتقار. ومزاجي المولع - بصورة شيطانية - بالحماقة يجعلني أجد ملذات خاصة في تحريف البهتان. طاهرًا كما الورق، بسيطًا كالماء، مدفوعًا إلى الورع مثل مقدمة القربان، غير مؤذٍ كضحية، لن يزعجني أن أُدعى ماجنًا، سَكَّيرًا، مُلحدًا وقاتلاً».

(٢)

لعل أخطر ما أسفر عنه الحكم القضائي ضد «أزهار الشر» هو تدمير بنية الديوان المحسوبة بدقة (فلنتأمل العدد الرمزي للقصائد - ١٠٠ قصيدة)، نتيجةً للحذف الذي تنجم عنه فجواتٌ بنيوية خطيرة، بالنسبة لشاعر مشغول - تمامًا - بالمعمار الفني لديوانه.

ونقرأ في ملاحظاته إلى محاميه بشأن محاكمة الديوان: «ينبغي تقييُم الكتاب في كُلِّه، وما ينجم عنه بالتالي من أخلاقية مرعبة (..) أكرر إن أي كتاب ينبغي تقييمه في كله». فتكامل العمل - بالنسبة لبودلير - هو مسألة «تأليف Composition»، أو معمار، لا مسألة أخلاقية. فنسق ترتيب القصائد يحدّد الشكل الخاصّ للديوان، ويؤسّس المعنى الذي سيستمدّه القارئ، فيما يؤدّي الحذف إلى تغيير الشكل والمعنى معًا (ليس الديوان «تجميعًا» عشوائيًا لما كُتِب خلال فترة سابقة، بل هو عمل إبداعيّ محكوم ببنية فنيّة، تصبح فيها القصائد عناصر داخلية محكومة بهذه البنية ومُنتجة - في آن - لها).

ولهذا، فقد كانت المهمة الطارئة، المستعجلة لبودلير هي كتابة ٦ قصائد تحل محل القصائد المستبعدة، لاستعادة البنية المتوازنة للديوان. ونتيجة العمل المحموم الدءوب، فسرعان ما تجاوز العدد المطلوب من القصائد، لتصل القصائد الجديدة في الطبعة الثانية من «أزهار الشر» - في فبراير ١٨٦١ - إلى ٣٥ قصيدة (ويصل إجمالي القصائد إلى ١٢٧ قصيدة). وهي الطبعة الأخيرة التي أشرف بودلير بنفسه على إعدادها وترتيب قصائدها، وتشكيلها في بنية يرصّي عنها.

وللمقارنة بين الطبعتين، لا بد من ملاحظة أن الطبعة الثانية تضم قسمًا إضافيًا يحمل عنوان «لوحات باريسية». وإذا ما كان هذا القسم يسترد ٦ قصائد من قسم «سأم ومثال»، فإن هذا القسم الجديد يفرض - في آن - توازنًا جديدًا في الشكل الكلي (من بين القصائد الجديدة، نرصد قصائد بأهمية «البجعة» و«الشيوخ السبعة» و«العجائز القصيرات»، و«رقصة جنائزية»)، ويغير مركزة الأفكار: فتجربة «الحداثّة» المرتبطة بارتياذ العاصمة الباريسية تدخل إلى قلب رؤية تتخذ طبيعتها الشخصية سمة أكثر كونية أو - على الأقل - حضرية. كما نلاحظ أن توزيع القصائد داخل «سأم ومثال»، شأن نسق ومادة الأقسام الستة، يفرض معنى أكثر خطورة.

ففي الطبعة الأولى، يحقق القسم الأول ذاته - من خلال ٧٧ قصيدة - عبر ثلاث قصائد («حزن القمر» و«الموسيقى» و«الغليون»)، كانت سمتها الهادئة نسبيًا تخفف من تأثير سلسلة القصائد المكرسة مباشرة للسأم. وفي الطبعة الثانية، خضعت هذه القصائد الثلاث لإعادة ترتيب إلى ما قبل قصائد السأم التي تتخذ ثقلًا مخيفًا، فتبدو مضافةً إلى نصوص يائسة من قبيل «مذاق العدم» و«كيمياء الألم» و«رعب تعاطفي»

وخاصة «ساعة الحائط». والحركة التي ترسم هذا القسم الأول هي حركة السقوط، سقوط المثل إلى سأم بلا نهاية: الكلمات الأخيرة للقسم: «فَلْتَمُتْ، أَيُّهَا الْجَبَانُ الْعَجُوزُ! فَاتَ الْأَوَّانُ!»، التي تعلنها ساعة حائط تحولت إلى «إِلَيْهِ مَشْتُوم» بإصبع متوعد لا يفضي إلى أي أمل.

والتعديلات التي جرت على اضطراد الأقسام تتم في الاتجاه نفسه. ففي الطبعة الأولى، كان القسم الذي يحمل عنوان «الخمر» يسبق مباشرة القسم الأخير «الموت»، الذي تقلص إلى ثلاث قصائد فحسب، وينتهي بتمني أن يقوم الموت «الَّذِي يُحَوِّمُ مِثْلَ شَمْسٍ جَدِيدَةٍ، بِدَفْعِ أَزْهَارِ عُقُولِهِمْ [الفنانين] إِلَى التَّفَتُّحِ!». وهذا التحويل يمثل «الفردوس الاصطناعي» الذي نجم عن الخمر، فتتخفف الرؤية إلى نهاية مُعَزِّية؛ حيث يبدو الموت - بالنسبة لهؤلاء المحبين والفقراء والفنانين - نوعاً من الخلاص.

وفي الطبعة الثانية، أعيد ترتيب قسم «الخمر» بصورة أكثر منطقية بكثير، في أعقاب «لوحات باريسية»، حيث تقع القصيدة الثانية من قصائده «في قلب ضاحية قديمة» توصف بأنها «الْقَيِّءُ الْغَامِضُ لِبَارِيسِ الصَّخْمَةِ»؛ ليسبق بالتالي قسم «أزهار الشر»، و«تمرد» وقسم «الموت» الذي كُبر بالثقل الواضح لقصيدة «الرحلة». وتتخذ باقي الأقسام شكل اضطراد في نسق الشر.

وبالتالي، فإن توزيع قصائد وأقسام الديوان يمضي بالقارئ من التأكيد الاستهلاكي للقصيدة الأولى «إلى القارئ»، حيث: «الْحَمَاقَةُ، وَالْخَطَأُ، وَالْفُجُورُ، وَالشُّحُ/ تَحْتَلُّ أَرْوَاحَنَا وَتَسْتَوْلِي عَلَى أَجْسَادِنَا»، إلى التقرير البصير لقصيدة «الرحلة»: «رَأَيْنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَدُونَ الْبَحْثِ عَنْهُ،/ مِنْ أَعْلَى حَتَّى أَسْفَلِ السَّلْمِ الْقَاتِلِ،/ الْمَشْهَدَ الْمُمِلَّ لِلْفُجْرِ الْأَبْدِيِّ». وإذا ما كان الموت موضع ابتهال، هنا أيضاً، كموقع للخلاص، فإن هذا الخلاص لا يسمح للحلم إلا بقبول ما هو أسوأ: «فِي قَاعِ الْهَوَايَةِ، أَوْ الْجَجِيمِ، أَوْ السَّمَاءِ، مَا الْفَرْقُ؟»، بما يعني البحث عن «الجديد».

وذلك ما دفع باربي دورفيي - ببصيرة نافذة - إلى تقرير أن «كل شعر في كتاب السيد بودلير يمتلك قيمةً بالغة الأهمية للكُلِّ وللموقف، ينبغي ألا نتركها للضياع، باجتزائها. وسيدرك الفنانون.. جيداً أن ثَمَّةَ هنا معماراً سرّياً، تخطيطاً محسوباً من قبل الشاعر، قصدياً وموضع تأمل»؛ وهو معمار لا يقوم إلا باكتساب مزيد من الأهمية

في الطبعة الثانية. وهو ما كان بودلير يعيه جيداً، وهو يكتب إلى فيني بمناسبة صدور الطبعة: «إن الثناء الوحيد الذي ألتسمه لهذا الكتاب هو إدراك أنه ليس مجرد ألبوم خالص وأنه ينطوي على بداية ونهاية. وكل القصائد الجديدة قد كُتبت لتتوافق مع إطار فريد قُمتُ باختياره».

كتاب ذو بداية ونهاية، وأقسامه تم اختيارها قصدياً واحدة وراء الأخرى، في إطار محدد. كتاب تتحد فيه القصائد أحياناً في «دوائر»، فيما تتخذ عناصر أخرى قيمة ترجع إلى الترابط أو التضاد، مثلما في التجاور البسيط. وهذا «المعمار السري» يفسر لنا اعتبار إيف بونفوا أزهار الشر «سيد الكتب في شعرنا».

وذلك ما يطرح الأسئلة حول الطبعة الثالثة، التي صدرت بعد وفاته، متضمنة ٢٥ قصيدة إضافية (ليصل إجمالي قصائد هذه الطبعة إلى ١٥٢ قصيدة). فذلك المعمار السري - الذي يحدّد توجهات ونتائج القراءة والفاعلية الخاصة بالديوان، والتي كان يُعوّل عليها بودلير ويهتم بها كثيراً - هي ما يخفي في الطبعة الثالثة التي يتحمل مسئوليتها شارل أسيلينو وتيودور دي بانفيل، بعد وفاة بودلير.

(٣)

منذ اللحظة الأولى، سيدرك بودلير أن «شعراء مشهورين تقاسموا منذ أمد بعيد أكثر الأقاليم ازدهاراً في المجال الشعري».

لابد أنه كان مؤمناً - منذ بدايات وعيه - بأنه إنما وُلد فتياً في قرن بالغ الشيخوخة، وأنه كان يردد على نفسه جملة «لا بروبير»: «كل شيء قد قِيل». فخلال الأعوام العشرين الأخيرة - قبل صدور «أزهار الشر» - تقدم الرومانتيكية عدة دواوين للامارتين، وفكتور هوغو، وأيضاً لسانت - ييف وفيني وموسيه وتيوفيل جوتييه وآخرين.

ولا بد أن بودلير قد راقب هذا الازدهار بعين يقظة، وقرأ كل ما كُتب خلال هذين العقدین. يكتب إلى أمه في ٣ أغسطس ١٨٣٨: «لم أقرأ سوى أعمال حديثة؛ لكن من تلك الأعمال التي يتحدثون عنها في كل مكان، ولها سمعة، ويقرؤها كل الناس..؛ آه حسناً، كل ذلك زائف، مبالغ فيه، ومهووس، ومفتعل.. إنني متفرّج من كل ذلك: ليس هناك سوى مسرحيات وأشعار فيكتور هوغو وكتاب لسانت - ييف (شهوة) التي

أمتعتني. إنني قرآن تمامًا من الأدب؛ وفي الحقيقة، فمنذ عرفت القراءة، لم أعر بعد على عمل يمتعني تمامًا، ويمكن أن أحبه من أوله إلى آخره^(١). وتنطوي الرسالة على إحباطٍ ما. فكل شيءٍ قد قيل، برداءةٍ قليل، ولكنه قليل.

إذن، فهي الضرورة المطلقة للعثور على جديد.

فأي إقليم شعريّ ظل بكرًا، مُهملاً من الأسلاف القريبين؟ لقد بث سانت - بيغ - من خلال عمله «أدوات الدفاع الصغيرة..» - في بودلير: «كل شيءٍ قد تم الاستيلاء عليه في مجال الشعر.

لامارتين استولى على السماوات. واستولى فيكتور هوجو على الأرض، وما هو أكثر من الأرض. ولا براد استولى على الغابات. واستولى موسيه على العاطفة والعردة الباهرة. واستولى آخرون على البيت، والحياة الزراعية، ... إلخ. استولى تيوفيل جوتييه على إسبانيا وألوانها الرفيعة. فما الذي تبقى له؟ ما استولى عليه بودلير».

وذلك ما سيستعيده بودلير في أحد مشروعات مقدمة «أزهار الشر»: «شعراء مشهورون تقاسموا منذ أمدٍ بعيد أكثر الأقاليم ازدهارًا في المجال الشعري. لقد بدا لي ذلك سارًا، بل وممتعًا أكثر لأن المهمة كانت أصعب، وهي استنباط الجمال من الشر»: «الوعي في الشر»، «لأنني أريدُ البَحْثَ عَنْ خُلَاصَةِ الشر»، كما يقول في إحدى قصائده.

فهذه القامات الكبرى في الشعر الفرنسي كانت قد وصلت بالرومانتيكية إلى منتهاها، إلى اكتمالها الختامي، في أعمال باهرة تستكشف كل احتمالات الفن من أجل التعبير عن نشوات وفورانات القلب والروح، والإعلاء من الفانتازي، والبحث عن الهرب والنشوة في الحلم، عن المَرَضِي والسامي، عن الغرائبي والماضوي. وهو أيضًا الإحساس بخسارة عميقة لأبعاد العالم السابق على الثورة، في مجتمع تسيطر عليه - في زمنها - النقود والشهرة أكثر من الشرف. حالة من خواء العالم، بعد أن سرقت العقلانية والحضارة من الإنسان أوهامه، مما يؤدي إلى الكآبة واختلاط المشاعر والإحساس بالفقدان والخسارة والضياع.

(١) سيكتب رامبو - أيضًا - شيئًا من هذا القبيل فيما يُسمّى برسالة الرائي. وسيستثني من الكتاب بودلير، الذي سيعتبره «ملك الشعراء».

تصبح الذات «الأنأ» مركز العالم، فيما يصبح العالم تجلياً للذات في حالاتها المتعددة، المشبوبة أبدأً، بلا استقلال أو انفصال. وتصبح «العاطفة» أو «الشعور» قُطب الذات الفاعل بصورة مطلقة، شمولية، ليحل «الخيال» بديلاً لـ«العقل» ذي القدرات الشمولية لدى الكلاسيكيين. ويصبح «الإلهام» هو الطاقة السماوية التي تحل بالشاعر في اللحظة القَدَرية فتنهمل القصيدة بفعل الخيال والحساسية المرفهة، الاستثنائية، بما يصل إلى اعتماد وجود العالم وشكله كلياً على بصيرة الخيال الفردي، الذي يتيح النفاذ إلى ما وراء الحقيقة السطحية في اتجاه المثل الجوهرى.

يصبح الشعر «التعبير عن الخيال»، حسب شيللي، فيما يعتبره وردزورث «من أعمال الخيال والعاطفة»، ليكتب كيتس «أنا أصف ما أتخيل». إنه الخيال الخلاق، المعيار والمرجع والوسيلة في آن.

والشاعر الرومانتيكيّ هو نبي العصر الحديث، الذي اصطفته السماء، وحَبَّته بالكشوف والرؤى والبصيرة النافذة التي تكشف ما لا يراه الآخرون الفانون، ويختصر - في ذاته - التواريخ والأحاسيس والحكمة والمعرفة؛ ما كانت أو ما ستكون. هدية السماء إلى البشر المعذَّبين، المتخبطين، الضالين.

ولأن الأرض كاسدة، والبشر فاسدون، فمصيره الوحدة والعزلة في البرية والقفار، يوجه رسالته إلى الكون والأبدية، يحادث الأشجار والأطيّار والأنهار ونجوم السماء، مريديه وحواريه، بنبوءاته الغرائبية. وكالأنبياء، فهو الطريد، المرجوم، باعتباره الخارج على السياق والمجتمع، الرافض لفساده وعفنه، المطالب بالنقيض الغامض.

هكذا، تصبح القصيدة الرومانتيكية مزيجاً - في آنٍ - من الهجاء للراهن والرثاء للماضي والذات. راهن يمثل نفيًا لإنسانية الإنسان، وإهداراً لطاقاته الحقيقية الإبداعية والرفيعة؛ وماضي كان تحقيقاً لشهوات الإنسان وأحلامه في حياة مزدهرة، سعيدة ومكتملة؛ وذات ضائعة ضالة مُهدّرة، محكومة بقيم مادية فظة لا إنسانية، إلى حد الانحطاط والابتذال.

من هنا، تنبثق الكآبة والتشاؤم في النصّ الرومانتيكيّ، بفعل اكتشاف خواء العالم، وعدائيته، وانفصاله العميق عن «روح» الإنسان، وتحول الطبيعة - مع العصر الصناعي - إلى «شيء» خارجيّ منفصل عن الإنسان، وأداة استغلالية للحركة الصناعية المتنامية، لتفقد بدورها تكاملها «الروحي» مع جوهر الإنسان الداخليّ الحميم.

إنها القصيدة الغنائية التي تحررت من القوالب الكلاسيكية الصّارمة، لتتمحور على صوت بالغ الفردية، يكتشف العالم ونفسه انطلاقاً من خياله الذاتي، حيث يحل المثالي في الواقعي، والتعبير عن الداخلي والمجرد بالخارجي والملموس. وتحولت وظيفة الصورة بشكل جذري - من موقعها الكلاسيكي كنوع من الزينة - إلى مكانة مسيطرة، كناقل فاعل للمعنى.

كانت الرومانتيكية ثورة هائلة ضد القوالب الكلاسيكية، امتدت إلى جميع مجالات الإبداع الإنساني، مكتسحة القارة الأوروبية جمعاء على يد مبدعين ومفكرين رفعوا «الذات» فوق العالم.

*

هذه الضرورة لاكتشاف الجديد هي ما عاناه بودلير طوال حياته الشعرية، خلال تأليف «أزهار الشر»، وحتى «سأم باريس»، الذي سيمثل مرحلة أخرى مغايرة في هذا الاكتشاف الدءوب المشبوب: «استنباط الجمال من الشر». ذلك ما تبقى له، وما لم يخطر على قلب أحد.

والعناوين الأولية لـ«الأزهار» القادمة تصور جيداً هذا المفهوم المختلف. فعلى أغلفة كتابه «صالون ١٨٤٦» وكتب الأصدقاء، يعلن بودلير - منذ أكتوبر ١٨٤٥ إلى يناير ١٨٤٧ - عن صدور «السحاقيات»، فيما يحل «الأعراف»، ابتداءً من نوفمبر ١٨٤٨، محل «السحاقيات»؛ والناشر الآن موجود: ميشيل ليفي، وتاريخ الصدور محدد في ٢٤ فبراير ١٨٤٩ (أي في ذكرى ثورة ١٨٤٨): «الكتاب»، «الذي سيصدر قريباً للغاية»، «مُكرّس لتقديم احتياجات وكآبات الشباب الحديث»؛ الكتاب «مقرر لإعادة اقتفاء الاحتياجات الروحية للشباب الحديث». ومنذ بدايات ١٨٥٢ إلى الأول من يونيو ١٨٥٥ يتم تجاهل عنوان الديوان.

كان «السحاقيات» عنوان «فرقة»، باستخدام مصطلح بودلير نفسه، عنواناً طريفاً، لامتعا. وكان عليه أن يتوافق لا مع قصائد النساء الملعنات فحسب، بل أيضاً مع قصائد أخرى كثيرة. وقد نجم اختياره عن إرادته القصدية لصدم البورجوازيين، هؤلاء الذين سبق لبودلير أن وضع فيهم ثقته، في إهداء «صالون ١٨٤٦»: «أنتم الأغلبية - في العدد والذكاء - إذن فأنتم القوة التي هي العدل».

ويمثل «الأعراف» عنوانًا غامضًا، ملغزًا. فثمة دلالة للكلمة في طبوغرافيا الكاثوليكية. ويمكن بالتأكيد لبعض القصائد أن تتعلق بفكرة اشتراكية ما، مثل «الفدية»، وخاصة مقطوعتها الأخيرة، المحذوفة فيما بعد ١٨٥٢^(١). لكن من المستحيل أن نمد هذه اللمسة الاشتراكية على مجموع القصائد التي كانت تشكل «الأعراف».

وبعد بداية ١٨٥٢، لم يعد بودلير قادرًا على قبول معنى «الأعراف». لكن المؤكد أن غالبية القصائد العظمى - من تلك القصائد التي ستدخل طبعة ١٨٥٧ - كانت قد كُتبت، عندما نشر بودلير الإعلان - عام ١٨٤٧ - عن الصدور الوشيك لديوانه. ومنذ عام ١٨٥٠، كان ديوان «أزهار الشر» القادم قد تم ترتيبه، حتى لو كانت بعض القصائد الأجل - وخاصة القصائد المكتوبة إلى السيدة ساباتييه - كانت تنتظر الكتابة.

هكذا، كان على بودلير أن يقوم بقفزه إلى خارج السياق، وخارج غابة القامات الشاهقة، مدرّكًا - كما كتب - «أن الرومانتيكية بركة من السماء أو من الشيطان. وقد تركت فينا جروحًا لا تندمل».

(٤)

يرصد مؤرّخو الأدب - لأسباب تاريخية وأدبية - تأخر الحركة الرومانتيكية الفرنسية عن نظيراتها في ألمانيا وإنجلترا، حيث نشر لامارتين أول مجموعة شعرية رومانتيكية عام ١٨٢٠ بعنوان «تأملات شعرية»، فيما لم تصعد الرومانتيكية إلى المسرح الفرنسي إلّا مع «هرناندي» لهوجو عام ١٨٣٠

لكن سيكون لبودلير أن يعيد الاعتبار إلى الأدب الفرنسي إزاء الآداب الأوروبية. فانطلاقًا منه، أصبح الشعر الفرنسي محط اهتمام الأوساط الأدبية بالقارة، ليصبح الرائد الذي تقتفي خطاه - بفعل كشوفاته واكتشافاته الشعرية والنظرية - حركات وأصوات شعرية على امتدادها، فضلًا عن فرنسا، متخطيًا «الجروح التي لا تندمل» بفعل الرومانتيكية، منتقلًا بالشعر - بصورة حاسمة ونهائية - إلى «الحداثة».

في مقالته «رسام الحياة الحديثة»، يستخدم بودلير مصطلح «الحداثة» لأول مرة

(١) راجع المقطوعة المحذوفة في الملاحظات الختامية المتعلقة بقصيدة «الفدية».

في الكتابات النقدية، في حديثه عما يميز الفنان الحديث (وكأنه يتحدث عن نفسه): «هكذا يمضي، يجري، يبحث. فعمَّ يبحث؟ بالتأكيد، هذا الرجل، كما وصفته، هذا المنعزل الموهوب خيالاً نشطاً، الرِّحَال دائماً عبر صحراء البشر العظيمة، إلى غاية أكثر سموًا من غاية متسكع خالص، غاية أكثر عمومية، غاية غير المتعة العابرة للمناسبة. إنه يبحث عن ذلك الشيء الذي سنسمح لأنفسنا بتسميته الحداثة؛ لأنه لا تتوفر كلمة أفضل للتعبير عن الفكرة الحالية.. وهو ما يعني - بالنسبة له - أن يستخلص من الحالة.. الشعريّ من التاريخي، وأن يستمد الأبدّي من الانتقالي».

ويزيد المصطلح - الذي لم يكن معهودًا - تحديدًا: «الحداثة، هي العابر، الهارب، العارض». ولأن المفهوم جديدٌ تمامًا، فإنه يُضطر للدفاع عنه: «هذا العنصر العابر، الهارب، الذي تتكرر أشكاله المتحولة، ليس لديكم الحق في ازدرائه أو تجاهله. فبالغائه ستقعون لا محالة في خواء جمالٍ مجرد ومُبهم، مثل جمال المرأة الوحيدة قبل الخطيئة الأولى».

إنها الحياة في صحراء المدينة الكبيرة - المزدحمة بالبشر والحركة العارمة المحمومة المتضاربة، كخلية نحل - التي سيطرت عليها الصناعة والتجارة، فلا يرى الفنّان فحسب سقوط الإنسان، بل يحس أيضًا بنوع من الجمال الغامض الذي لم يسبق اكتشافه.

في مشروع خاتمة «أزهار الشر»، يخاطب بودلير مدينته باريس:

إِنِّي اسْتَخْلَصْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ الْجَوْهَرَ،
أَعْطَيْتَنِي طِينِكَ فَصَنَعْتُ مِنْهُ الذَّهَبَ.

وفي موضع آخر، يكرر الفكرة بطريقة شبه كاملة:

عَجَنْتُ الطِّينَ وَصَنَعْتُ مِنْهُ الذَّهَبَ.

ولم يكن هذا «الطين» سوى ركام المدينة، الماديّ والإنسانيّ، أطلالها الحجرية والبشرية. حانات القاع، والمقابر، والدعارة، والمسوخ، والمقعدون، والموتى. فالمدينة تمارس على المتجول فيها فعلاً يتخذ شكل الصدمة.

وثمة ظواهر موازية: فبودلير قد تأمل بعمق مفهوم اللغة الشعرية، محررًا للمرة

الأولى البُعد الموسيقي كقرين لاختيار المكان الحضري، كمكان «جديد» للشعر. والاستقلال النسبي للكلمات المختارة من الآن فصاعدًا - بناءً على طاقتها الموسيقية لا قدرتها الدلالية - سيتجاوب مع تجزؤ المتجول الباريسي في نظرة ملحة، بصورة فظة غالبًا، بفعل المظاهر الألف للمدينة وانسحاب، أليم غالبًا، إلى عالمه الداخلي.

واختيار المدينة هذا، الذي يتأكد مع مقدمة قسم «لوحات باريسية» - في الطبعة الثانية من «أزهار الشر» - هو بالتأكيد أحد مفاتيح الحداثة البودليزية. وهو ما سيؤكد ت. إس. إليوت بعد قرابة قرن: «أعتقد أنني قد تعلمتُ من بودلير (..) المظاهر الشائنة للمدينة الحديثة بالذات، وإمكانية انصهار الواقعية الأكثر قذارة فيها والرؤى الخارقة، إمكانية تجاوز المبتذل والخيالي. منه، كما من لافورج، تعلمت أن المادة التي توفرتُ عليها، والتجربة التي توفرتُ عليها، كمراهق، في مدينة صناعية بالولايات المتحدة، كان يمكن أن تكون مادةً شعرية؛ وأن منبع الشعر الجديد كان يمكن أن يكون اكتشافًا فيما يمكن اعتباره حتى الآن كواقع عصبي، عقيم، لا شعري بصورة لا تُرد».

هو قاع المدينة والانتباه الرءوف إلى تلك «الجماهير المريضة»، إلى «النَّاسِ الْمُنْهَكِينَ بِالْهُمُومِ الْمُنْزِلِيَّةِ،/ الْمَطْحُونِينَ بِالْعَمَلِ، الْمُعَذِّبِينَ بِالزَّمَنِ،/ الْمُزْهَقِينَ الْمُحْنِيِّينَ تَحْتَ رُكَامِ الْأَنْقَاضِ،/ الْقِيءِ الْعَامِضِ لِإِبَارِيسَ الضَّخْمَةِ»، فيما يتكشف عن الوعي بالمظالم الاجتماعية، حتى لو كان هذا الوعي - بالاختلاف مع هوجو - لن يقوده أبدًا إلى تبني عقيدة التقدم الاجتماعي.

لكنها مدينةٌ موسومةٌ أيضًا بالشيخوخة. فمن «الشيوخ السبعة» إلى «العجائز القصيرات»، من «لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الذِّكْرِيَّاتِ كَأَنِّي عِشْتُ أَلْفَ عَامٍ» إلى «عَاهِرَاتُ عَجَائِزٍ»، ومن «قَارُورَةَ عِطْرِ قَدِيمَةٍ» إلى «الْخِدْعُ الْقَدِيمَةُ» التي يتهمك عليها الشياطين، يُضَاعَفُ الديوان من إشارات الوهن التي تسم «الشيايا الأثمة» لـ «العاصمة العتيقة» شأن جباه سكانها. والمفارقة أن هذا الوعي بالشيخوخة هو - بالفعل - أحد مفاتيح جِدة الديوان. ففي قصيدة «بياتريس»، بعدما تذكر بودلير تهكم الشياطين المفعم بالسخرية، يستحضر رد الفعل الذي يمكن أن يقوم به، رد فعل الشعراء الرومانتيكيين، أسلافه، القائم على كِبَرِيَاء «بَارْتَفَاعِ الْجِبَالِ/ يُشْرِفُ عَلَى الْغَيْمَةِ وَصُرَاخِ الشَّيَاطِينِ»، إلى «أَنْ أُدِيرَ رَأْسِي السَّامِيَّةَ بِسَاطَةِ». وهذا السمو هو بالتحديد ما فقده العجائز،

«أَنْقَاضُ إِنْسَانِيَّةٍ نَاصِجَةٍ مِنْ أَجْلِ الْأَبَدِيَّةِ»، تلك «الأطلال» التي قال عنها إنها «عائلته». وفجأة، مع هذا فقدان لـ «وهم» السمو، يفتح الفصل الأليم للاغتراب والتعاسة.

ولاشك أن الأدب الأوروبي قد شهد نزوعاً نحو الحزن والكآبة بما يمثل إحدى سمات الرومانتيكية. غير أن هذا الحزن وتلك الكآبة لا علاقة وثيقة لهما بما سيتحقق لدى بودلير. فالرومانتيكيون - يحتفظون في حزنهم أو كآبتهم - بنوع من الكمال الداخلي، الذي ينجحون في الحفاظ على حد أدنى من الوحدة فيه، الوحدة المثالية. ولا شيء من ذلك لدى بودلير، فالكمال نفسه هو الذي يصبح موضع سؤال. فقصائد السأم تنطوي على برهان أول. ففي مقابل المثال، فالسأم هو - في آنٍ - النقيض والعبوس. إنه قريب - دلالياً - من مصطلح جعلته القصيدة الافتتاحية بديهيًا: «الضجر»، الذي يتخذ دلالةً لاهوتيةً إضافيةً مستمدةً من مصطلح *acedia* في العصور الوسطى (الحزن الكتيب).

فمنذ «سأم ١»، فإن القارئ مدعوٌ إلى مسرح حزن أو جفاف داخلي. والحضور الوحيد لـ «أنا» في هذه القصيدة هو ضمير ملكية (قطعي)، الذي يقابل - إلى جانبه - جمعاً من الأشياء غير الشخصية ذات القيمة الرمزية التي تحيط به: «بلوفواز» الذي «يُصَبُّ مِنْ جَرَّتِهِ بَرْدًا مُظْلِمًا» على الموتى إلى «رُوح شَاعِرٍ عَجُوزٍ تَهَيَّمُ فِي أَنْبُوبِ تَضْرِيْفِ الْمَاءِ»، إلى «جرس ينوح» إلى «وَلَدَ الْقَلْبِ» إلى «سَيِّدَةِ الْبُسْتُونِي» التي تتحدث «بِنَبْرَةٍ شُومٍ عَنْ عِلَاقَاتِيْهِمَا الْعَرَامِيَّةِ الْغَايِرَةِ»، تميل السوناتا إلى رسم صورة موضوعية متشبهة لدرجة عدم القدرة على الإشارة إلّا إلى لسان حال العناصر غير الذاتية. وتكشف السوناتا عن داخل مَرَضِيٍّ تقول رموزه المعزولة التجزؤ.

وتمضي قصيدة «سأم ٢» شوطاً أبعد: فدون اكتفاء بالمغامرة في لعبة التشبيهات الذاتية الأكثر تشيؤًا، فإن الفاعل لا يتردد في التساؤل بكلمات «الْمَادَّةُ الْحَيَّةُ»: «مِنْ الْآنَ، أَيُّهَا الْمَادَّةُ الْحَيَّةُ!، لَنْ تَكُونِي/ سِوَى قِطْعَةٍ جَرَانِيَّتٍ مُلْتَفَّةٍ بِرُغْبٍ غَامِضٍ». وذلك ما يشهد على درجة التحجر التي بلغها الفاعل في حديثه إلى نفسه. وتلاشى كل كمال داخلي هنا لصالح «أبي هول عتيق»، «منسي» و«المزاج الضاري» الذي ما يزال يُعْنِي، ولكنه «لَا يُعْنِي إِلَّا فِي أَشِعَّةِ شَمْسٍ غَارِبَةٍ».

فقصائد السأم تصور بالأساس حالة روح معذبة في إحساسها بنفسها، وذلك من

خلال العلاقة بين هذه الروح والآخر، والتي يمكن خلالها أن نرى - بطريقة أكثر وضوحًا - شارات الاغتراب.

*

وبودلير شاعر عظيم للحب. لكنه الحب الذي لا يكف عن إثبات تناقضاته. وقد يتلقّى - في «عطر غرائبي»، في «خصلة الشعر» أو في «الشرفة» - انطباعًا بنشوة عاشقة. لكن السعادة - في القصيدة الأخيرة - ليست سوى نوع من الاستعادة، من التذكر، إلى حد أن المقطوعة الأخيرة لا تملك سوى التساؤل عن إمكانية أن تولد من جديد «هَذِهِ الْعُهُودُ، هَذِهِ الْعُطُورُ، وَهَذِهِ الْقُبَلَاتُ اللَّائِنَهَائِيَّةُ»، مرةً أخرى، من «هَآوِيَّةٍ لَا نَسْبِرُ أَعْوَارَهَا».

وبصورة أكثر عمومية، فالحب يقع تحت شارة التعارض. هكذا، على سبيل المثال، في تأثير للتجاور كاشف، فالقصيدة التي تسبق «الشرفة» هي «مبارزة»، التي تصف العلاقة العاشقة كصراع قاتل يترجم «غَضَبَ الْقُلُوبِ النَّاضِجَةِ الْمَجْرُوحَةِ بِالْحُبِّ».

وثمة قصائد أخرى تشهد على تمزقات أكثر عمقًا؛ ففي «إلى عذراء» - على سبيل المثال - فإن الحركة المزدوجة للإذلال الذاتي المازوخي للشاعر إزاء هذه العشيقة المتحولة إلى معبود/ صنم، ثم انقلاب هذا الإذلال إلى احتياج سادي وقاتل يسم الحب بـ«الوحشية». فالعشيقة عذراء ذات خطايا سبع ومنذورة للموت. ويعلن الشاعر بوضوح:

أَنَا الْجُرْحُ وَالسَّكِينُ!

أَنَا الصَّفْعَةُ وَالْخَدُ!

أَنَا الْأَعْضَاءُ وَالْأَلَّةُ التَّعْذِيبُ

وَالضَّحِيَّةُ وَالْجَلَادُ!

وفكر بودلير واضح في ربط الحب بالألم. وثمة ملاحظة في «سهام نارية» (Fusées) تقول بسخرية أليمة: «ذات مرة، تم التساؤل أمامي عما يشكل أكبر متعة في الحب؟ أجاب أحدهم بصورة طبيعية: «في الأخذ»، وآخر: «في العطاء». وهذا

قال: «متعة الكبرياء!» - وقال ذلك: «شهوة المذلة!» كل هؤلاء البذيئين كانوا يتكلمون كتقليد ليسوع المسيح. في النهاية كان ثمة شخص طوباوي أكد أن أعظم متعة في الحب هي تأهيل مواطنين من أجل الوطن. أما أنا فقلت: «إن شهوة الحب الفريدة والسَّامية تكمن في اليقين بارتكاب الشر. ويعرف الرجل والمرأة منذ الميلاد أن في الشر تكمن كل شهوة».

وهذا الارتباط بين الحب والألم - المتعارض مع المفهوم المسيحي، ومع مثالية واحد من قبيل فيكتور هوجو - هو المسئول عن اللوحات التي صدمت كثيراً بعض معاصريه. والتعارض الذي يجعل من الكراهية الرفيق اللصيق للحب، والذي يقود العاشق إلى الإحساس بعاطفته كعبء لا يُحتمل، يُغذي رغبة لا تتحقق إلا في تخيل عقاب قاس بصورة سادية. فإلى هذه «المَحْنُونَةُ الَّتِي جُنِنْتُ بِهَا»، والتي يُسر لها «أَكْرَهُكَ بِقَدْرِ مَا أُحِبُّكَ!»، يعلن الشاعر: «هَكَذَا أُرِيدُ، ذَاتَ لَيْلَةٍ،/عِنْدَمَا تَدُقُّ سَاعَةُ الشَّهْوَةِ،/ أَنْ أَرْحَفَ بِلَا صَوْتٍ، كَجَبَانٍ،/ نَحْوَ كُنُوزِ جَسَدِكَ،/ لِأَهْدَبَ جَسَدِكَ الْمُبْتَهَجِ،/ لِأَجْرَحَ صَدْرِكَ الْمُتَسَامِحِ،/ وَأَرْتَكِبَ فِي خَضْرِكَ الْمَذْهُولِ/ جُرْحًا كَبِيرًا وَغَائِرًا،/ وَعَبْرَ هَذِهِ الشَّفَاهِ الْجَدِيدَةِ،/ الْأَكْثَرَ صَخْبًا وَجَمَالًا،/ أَيْتُهَا الْعُدُوبَةُ الْمُدَوَّخَةُ!/ أَبْتُ فِيكَ سُمِّي، يَا أُخْتِي!»

ف«السُّم» رمز للسام أو للكآبة، والرغبة لا تنكشف إلا في نزوع تدميري هو - بالتحديد - أحد أشكال الألم^(١). وخارج القسوة، تكشف قصيدة «إلى تلك المبتهجة للغاية» مقومًا آخر للروح البودليرية: السخط، لا كتعبير متفاقم عن استنارة مُعَدَّبَةٍ، بل إشارة يأس ميتافيزيقي. ففي قصيدة «شهيدة»، يكشف المشهد الرئيس التدخل الغريب والمفاجئ للراوي الذي يبدو، لحظة مساءلته للجنة، أنه يضاعف - في النعمة التي تعثره على الافتراض الذي يصوغه - من الإيماءة القاتلة، المغيظة للزوج القاتل:

وَالرَّجُلُ الْمُتَتَقِمُ الَّذِي لَمْ تَسْتَطِيعِي، وَأَنْتِ حَيَّةٌ،

أَنْ تُشْبِعِيهِ، رَغْمَ كُلِّ الْحُبِّ،

(١) ينطوي عنوان الديوان نفسه على معنى «الألم» و«الوجع» الكامن في كلمة Mal، حيث يمكن ترجمة العنوان إلى «أزهار الألم»، فضلاً بالطبع عن الترجمة الشائعة «أزهار الشر»، التي اعتمدها كما هي. فالكلمة تنطوي على المعنيين معاً: «الشر» و«الألم».

هَلْ أَشْبَعَ بِجَسَدِكَ الطَّيْعَ الْهَامِدَ
شَهْوَتَهُ الشَّاسِعَةَ؟

أَجِيبِي، أَيَّتُهَا الْجُثَّةُ الْأَيِّمَةُ! وَمِنْ ضَفَائِرِكَ الْخَشِينَةِ
وَهُوَ يَرْفَعُكَ بِذِرَاعٍ مَحْمُومٍ،
قُولِي لِي، أَيَّتُهَا الرَّأْسُ الرَّهِيْبَةُ، أَعْلَى أَسْنَانِكَ الْبَارِدَةِ
الْلَّصَقَ قُبَلَاتِ الْوَدَاعِ الْآخِرَةِ؟

تتكشف النعمة هنا باعتبارها احتجاجاً ميتافيزيقياً على الفجوة بين لانهائية الشهوة ونهائية الجسد. وإذا استرجع غضب العاشق، فإن الشاعر يكرر القتل خلال تأويله له، مؤكداً هنا أن رهان المشهد ليس سوى المأساوي الذي يتخلل كل حب حقيقي.

وتأسيس الحب - أو الشهوة - على الألم إنما يعني الارتباط بالموت: «الْفُجُورُ وَالْمَوْتُ فَتَاتَانِ مَحْبُوبَتَانِ». وهو ارتباط قديم، لكنه يتخذ - لدى بودلير - دلالةً مختلفة. فالارتباط بينهما - في العصر الرومانتيكي - يقوم على إدراك الموت باعتباره المعيار الوحيد الحقيقي للحب، واللانهاثي. أما لدى بودلير، فالارتباط يقوم على أن الوعي العاشق يتجلى في نهاية الجسد المنذور للموت القادم. وتصدر «حادثة» بودلير من هذا الشكل للوعي. وعلى نقيض المثالية الروحية للرومانتيكيين، فحادثة بودلير لا تكف عن تأكيد الواقع القاطع للموت الفيزيقي. وكما كتب بونفوا: «لقد اختار بودلير الموت»، باعتبار الموت أحد أشكال الوعي.

وفي «رقصة جنائزية»، يمنح بودلير الخطاب إلى الموت، فيقرر الطريقة التي يقرن بها رؤيته، ويوحّد الشاعر نفسه بالتمثال الرمزي، فاضحاً عمى «القطيع» الذي «يَتَقَافَرُ وَيُئْمِنُ فِي الْبَهْجَةِ»، دون أن يرى «ثَقَبَ السَّقْفِ» الذي ينفذ من خلاله «بوق» ملاك الموت «كَمَوْهَةٍ بُنْدَقِيَّةٍ سَوْدَاءَ».

لكن الموت - وبصورة مناقضة - هو موضوع حلم قلق باعتباره موقع فخر محتمل. فإذا ما كان التحذير بنهاية الجسد يغير من الوعي الشعري، بجعله أكثر حساسيةً بصورة لانهائية، فسنجد - كتعويض لدى بودلير - التعبير عن عذاب أن الموت لن

يكون سوى وهم، وأن الحياة ما بعد الموت لن تكون سوى ديمومة للحياة، سوى امتداد الانتظار الذي حُكِمَ به على الأحياء:

كُنْتُ مَيِّتًا بِلاَ مُفَاجَأَةٍ، وَالْفَجْرُ الرَّهيبُ

كَانَ يُلْفَنِي. وَمَاذَا! أَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ؟

كَانَتْ السَّتَارَةُ قَدْ رُفِعَتْ وَكُنْتُ مَا أَرَا أُنْتَظِرُ.

حيث تتكشف قصيدة «حلم شخص فضولي» عن كابوس: ففيما وراء الموت «بلا مفاجأة» لن يكون سوى بداية «الفجر الرهيب» ليوم بلا نهاية. ولا شك أن النبوة التهكمية لهذه القصيدة تخفف من فظاظة الحالة. صحيح أن بودلير ليس أول من تناول هذه الفكرة - فهناك هايني وجوتيه - لكن ليس هناك من اتخذها بجديّة بودلير، ولا أحد تأمل بعمق كبودلير هذه الفرضية بمثل هذا القلق:

أَتُرِيدُونَ (كَرْمِزٍ وَاضِحٍ رَهيبٍ

لِمَصِيرٍ بَالِغِ الْقَسْوَةِ!)

أَنْ تَكْشِفُوا أَنَّ النَّوْمَ الْمَوْعُودَ

لَيْسَ مَضْمُونًا حَتَّى فِي الْقَبْرِ؛

وَأَنَّ الْعَدَمَ خَائِنٌ لَنَا؛

وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْمَوْتِ، يَخْدَعُنَا،

وَأَنَّنَا دَائِمًا أَبَدًا

رُبَّمَا سَيَكُونُ عَلَيْنَا، وَاسْفَاه!

أَنْ نَحْرُثَ الْأَرْضَ الْقَاسِيَةَ

فِي بَلَدٍ مَا مَجْهُولٍ

وَنَغْرِسَ فِيهَا مِعْرَقَةً ثَقِيلَةً

تَحْتَ قَدَمِنَا الْعَارِيَةِ الدَّائِمَةِ؟

وبصورة مختلفة أيضًا، يتخذ الموت معنى فضاء آخر. وباعتباره أملًا كخلاصٍ ما، فإنه يتخذ ألوان الحلم:

هُوَ مَجْدُ الْإِلَهَةِ، وَمَخَزَنُ الْغِلَالِ الرُّوحِيِّ،

هُوَ كَيْسُ نَقُودِ الْفَقِيرِ وَمَوْطِنُهُ الْقَدِيمِ،

هُوَ الرُّوَاقُ الْمَفْتُوحُ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَجْهُولَةِ!

وكملاذٍ أخير إزاء «المعرفة المريرة» التي يستمدّها من الرحلة مَنْ لم يَزُرْ الأرض إلاّ ليشاهد فيها «المَشْهَدَ الْمُحِلَّ لِلْفُجْرِ الْأَبْدِيِّ»، ومعاناة قوة الزمن الساحقة، «الْعَدُوُّ الْيَقِظُ الْمُمِيتُ»، يتكشف الموت باعتباره الأداة الوحيدة لزعزعة النفس، والطريق الوحيد الذي يُفْضِي إلى المجهول. والتساؤل المثير للإعجاب الذي يرمز للموت بقبطان سفينة الحياة يشير إلى أية درجة يُخَفِّق اجتياز الوجود في العثور على نظير موضوعي متوافق مع شهوة اللانهايي التي تسكن المتكلم:

أَيُّهَا الْمَوْتُ، أَيُّهَا الْقُبْطَانُ الْعَجُوزُ، هُوَ الْوَقْتُ! فَلْتَرْفَعْ الْمِرْسَاةَ!

هَذِهِ الْبِلَادُ تُضْجِرُنَا، أَيُّهَا الْمَوْتُ! فَلْتُبْحِرْ!

فَإِذَا مَا كَانَتْ السَّمَاءُ وَالْبَحْرُ سَوْدَاوَيْنِ كَالْجَبْرِ،

فَقُلُوبُنَا الَّتِي تَعْرِفُهَا مَلِيئَةٌ بِالْأَشْعَةِ!

فَلْتَسْكُبْ لَنَا سُمَّكَ لِتُنْعِشَنَا!

فَنَحْنُ نُرِيدُ - وَهَذِهِ النَّارُ تُحْرِقُ عُقُولَنَا -

أَنْ نَعُوصَ فِي قَاعِ الْهَآوِيَةِ، أَوْ الْجَحِيمِ، أَوْ السَّمَاءِ، مَا الْفَرْقُ؟

فِي قَاعِ الْمَجْهُولِ لِنَعْتُرَ عَلَى الْجَدِيدِ!

* * *

وإذا كان الرومانتيكيون قد أنشدوا مدائح للرب، فإنه قدّم «ابتهالات الشيطان». وإذا أشادوا بالحب «الطاهر»، فإنه يعكف على الشهوة الجسدية. وفيما قدموا ورود الحياة لنشمها، سيقترح هو عفونة الجثث. لقد سعوا إلى جمال الجميل، فيما توصل إلى جمال البشع، جمال شيطاني حقيقي. وإذا تمت قبله زراعة كل أنواع الورد، فإنه سيكتفي بتفتيح النباتات المهجورة للشر والموت في المخالب الخائفة لبستاني كتيب.

فالقصيدة البودليرية ليست تعبيراً عن ذات الشاعر، ولا تأريخاً لمسيرته الروحية. فالانفصال صارمٌ بين الشعر والشاعر كذاتٍ فردية شخصية، لتبدأ مع بودلير تلك المسافة المباعدة بين القصيدة وصاحبها، بحيث تصبح القصيدة نتاجاً إبداعياً، له وجوده الموضوعي المستقل.

فالأذات - لدى بودلير - ليست ذات الشاعر، الشخصية، الفردية، بل هي ذات «عامة» بصيرة، ذات «إنسان» ذلك العصر المتخبط في ظواهر المدينة الحديثة، التي فاجأته دون استعداد أو تأهيل، ودون قدرة على مواجهتها أو ردّها، لكن - أيضاً - دون القبول بها، بما هي ظواهر سلبية في عمومها، مُدمرة لماهية الإنسان.

و«الأنثا» - الواردة في القصائد - هي «أنا» غير ذاتية، غير شخصية، لشخص «موضوعي»، أو قريب من ذلك. شخص يرى، ويقدم لنا ما يراه، دون أن يُقحم نفسه - مشاعره، ورغباته، وذاتيته الضيقة الشخصية - في تحديد عالم القصيدة. هي ما تكتشفه تلك الذات «العامة» في العالم من خبايا وأسرار، ما يتخفى وراء السطح الزلق المصقول من أطلال وركام وأشلاء، وما يكمن وراء تفاصيل اليومي من عمومي مأساوي.

ولهذا، فهي قصيدة لا عاطفية (ليس الشعور - أو القلب - هو الفاعل في العملية الإبداعية؛ كما أنه ليس العقل؛ بل الخيال المحكوم - أو المكبوح - بدرجة من العقلانية والفكر). لا آهات ولا دموع. لا أناشيد أو مراثي. لا حُزن ولا بهجة.

هنا، يستعيد العالم الخارجي استقلاله وموضوعيته التي فقدتها في الخيال الرومانتيكي. فهو - لدى بودلير - قائم خارج الإنسان الخيالي، واضحاً، قاسياً، صلباً، بلا إمكانية لدمجه أو إغواء حضوره المادي، وفاعليته الفظة. لكن حضوره سلبي (بلا إسقاطات ذاتية عليه)، لا يُنتج سوى «العَفَن السَّقِيم» و«الصَّجَرِ وَالْأُخْزَانِ الْكَبِيرَةِ» و«المُسُوخ النَّائِحَة عَلَى ثِيَابِهَا» و«الفُجُورِ» و«الرَّذِيلَة الْأُمُومِيَّة».

«ما من احترام إنساني، ولا أي حياء زائف، ولا أي توافق، ولا أي قبول عالمي باستطاعته أن يرغمني على الكلام بلهجة هذا العصر الفريدة، ولا على خلط الحبر بالفضيلة». «لقد وضعت في هذا الكتاب البشع كل قلبي، كل رقتي، كل ديني (المنتكّر)، وكل حقدتي».

ولدى بودلير، فإن الواقع محسوس كآلم مُبرِّح: «سَرَعَانَ مَا سَتَنْغَرِسُ الْآلَامُ النَّابِضَةُ/ فِي قَلْبِكَ الْمُفْعَم بِالرُّغْبِ مِثْلَمَا فِي الْهَدَفِ»؛ حيث تقول هذه الأبيات - من قصيدة «ساعة الحائط» - الحالة التي ينبغي عليها أن يتحمل الفاعلُ الواقع. وينجم عن ذلك ما يمكن أن نسميه معرفةً بفعل الألم الذي يعيد شخصية المجهول الذي تحدث عنه باربي دورفي: «على اختلاف مع عدد كبير للغاية من القصائد الغنائية الراهنة، المشغولة للغاية بذاتيتها وانطباعاتها الصغيرة البائسة، فإن شعر السيد بودلير لهو أقل كشفًا عن الشعور الفرديّ من مفهوم بالغ الصرامة لعقله.. إن شاعر «أزهار الشر» هو - في العمق - شاعر درامي.. وكتابه الراهن هو دراما مُجهَّلةٌ ممثّلها الكوني هو».

فهناك إذن في غنائية الديوان تجاوز لـ «الشعور الفرديّ» بالانكسار الذاتيّ الذي سيتخذ مكانًا في «مجهولية» الدراما. فهذا «الصوت المجهَّل»، أو صوت «الممثل الكوني»، هو - في الوقت نفسه - صوتٌ ذو نبرات أكثر شخصانية، أكثر ذاتية مما حدث في الشعر من قبل. ويكمن السبب في ذلك في أن هذا الممثل - الفاعل الغنائي البودليري - يقع في موقف من «السلبية»، بل من الضعف الذي يعوقه عن احتمال الفعل (المدمر) لواقع (خارجي، لكنه أيضًا داخلي) بطريقة لن تغطي تخفّي حساسيته.



في عام «أزهار الشر» (١٨٥٧) يتجلّى مشروع «سام باريس». ولا بد أنه قد تشكل فيما قبل، لكن بودلير لم يُعان الحاجة إلى التعبير عنه إلا في اللحظة التي صدر فيها الديوان المنظوم.

ولدى نشر القصائد الأخيرة، استقبلها سانت - ييف بحرارة، حيث اعتبر «الأرامل» و«البهلولان العجوز» بمثابة «دُرَّتَيْن». لكن بعد نشر مجموعة أخرى في «لا بريس» (La Presse)، سيكتب تيودور دي بانفيل: «لقد وقع حدث أدبيّ حقيقيّ، أقصد نشر

«قصائد نثر» شارل بودلير (..) هذه الروائع القصيرة المنجزة فنيًا، حيث إنها متحررة من كل حبكة، بل يمكن القول من كل تركيب مادي، تبدد الفكرة الحرة، الرشيقة، في عريها الباهر، دون أن تملك سوى التجلي لتدفع بحشد الجبارة المدعين والخواوين إلى السقوط في التراب (..) ولا تنخدعوا فيها، ففي اختيار النثر المستخدم في هذه المؤلفات، هناك أيضًا برهان هام. فها هي ثلاثون عامًا، ماذا أقول؟ ها هي ألف عام ونحن نكرر بشفقة: «ماذا ستكونون بدون النظم، بدون الإيقاع، بدون القافية، بدون تلك المفاتن المادية التي تؤكدون تواطؤها مع أحاسيسنا، تهدد الروح في نشوة موسيقية وتخفي تحت ثراء وشيها بساطة أفكاركم الفقيرة؟» فحسنًا! إن قصائد نثر شارل بودلير ترد على ذلك أيضًا (..) أيها البلهاء الغرباء بتخيلكم أن في أرجحة معينة للمقاطع اللفظية، في تعليق للمعنى، في العودة المنتظمة لأصوات معينة مُنح الامتياز الخارق لإنجاب مخلوقات!..»

لقد دخل بودلير عالم قصيدة النثر كما يدخل غابة مجهولة، عذراء تقريبًا، مليئة بالفخاخ، بالمهابة والمخاطر، بقدر ما هي مغوية. ولعل قراء كتابه «صالون ١٨٥٩» لم يلحظوا - وسط الخطاب المتعلق بالفن التشكيلي - هذه الخاطرة التي تشبه الحديث الذاتي: «خطرة كسعر النثر» (la poésie en prose). لم تكن نذيرًا، على النقيض، بالعمل المطروح، لأنه كان هناك عامان على الأقل قد مرّا على صياغة وتشكيل قصيدة النثر (حتى لو اعترفنا بأن بودلير لم ينظر إلى هذه القصائد الأولى كتدريبات منفصلة).

ولكنه سيكرر: «خطرة كالحرية المطلقة»، كصدى لما قال عن قصيدة النثر، وعن أنها «بداية مطلقة».

لكن ما هي «الحرية المطلقة»؟ فإذا ما كانت الحرية التي لا تستمد قوانينها إلا من الذات، فهي حرية شاعر النثر. وهنا يكمن بالتحديد الخطر الرئيس الذي أدركه؛ هذه القوانين المستمدة من الذات، والتي لا يعرفها أحد مقدمًا، ولن يتعرف عليها بالتالي أحد.

وفيما كان يكتب «أزهار الشر»، كان مشغولاً في الوقت نفسه بفتح طريق آخر، لم تطأه قدم من قبل، يمنح خلاله التعبير الشعري شكلاً جديداً؛ أو بالأحرى اختراع شعر آخر؛ لكنه يمثل - في الوقت نفسه - محاولة لـ «التجاوب» مع نفسه، لاستعادة موضوعاته الكبرى، في نمط غريب.

يعرف محققو أعمال بودلير - والمتخصصون في شعرية - أن ما يصطلح على وصفه بـ «الأعمال الشعرية الكاملة» إنما ينقسم إلى قسمين كبيرين: القصائد المنظومة وقصائد النثر. وهو التقسيم الذي كان بودلير يعتمد به نفسه، دون خلط بين الشكلين الشعريين.

وقد درج محققو أعمال بودلير - خلال قرابة القرن ونصف القرن من عملهم المتواصل على أشعاره المنشورة خلال حياته أو بعد الوفاة - على إدراج القصائد المنظومة تحت ذلك العنوان العام «أزهار الشر»، دون أن يعني ذلك أنها كانت كلها جزءاً من ذلك الديوان الذي أصدر بودلير طبعته الأولى عام ١٨٥٧، وطبعته الثانية عام ١٨٦١

فهم يوردون عادةً كل ما أصدره بودلير خلال حياته، وما اكتشف بعد وفاته، من قصائد منظومة تحت هذا العنوان العام - «أزهار الشر» - الذي بدأ في الظهور بشكل رسمي في الأول من يونيو ١٨٥٥، بمجلة «روفي دي دو موند» (Revue de deux mondes)، حين نشرت تحته ثماني عشرة قصيدة تصدرها هذا المقتطف:

يَقَالُ إِنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ إِغْرَاقِ الْأَشْيَاءِ الْمَقِيَّةِ
فِي آبَارِ النَّسِيَانِ وَالْقَبْرِ الْمُسَوَّرَيْنِ،
وَإِنَّ الشَّرَّ الْمُسْتَتَارَ مِنْ جَدِيدٍ يَفْعَلُ الْكِتَابَاتِ
سَيُصِيبُ أَخْلَاقَ الدُّرِّيَّةِ؛
لَكِنَّ الْمَعْرِفَةَ لَيْسَتْ أَبَدًا أُمَّ الرِّذِيلَةِ
وَالْفَضِيلَةِ لَيْسَتْ ابْنَةَ الْجَهْلِ.

(ث. أجريبا دوبيني،

المأساويون، الكتاب الثاني)

لكن الكتلة الأساسية التي ترد تحت ذلك العنوان العام «أزهار الشر» إنما

تستند - في جوهرها، بالفعل - على قصائد الديوان، الذي صدر - خلال حياة بودلير - في طبعتين:

١- الطبعة الأولى عام ١٨٥٧: أزهار الشر، بوليه - مالا سي ودي برواز، باريس. يضم الغلاف وصفحة العنوان المقتطف السابق. وقد صدر الكتاب يوم ٢٥ يونيو ١٨٥٧، محتويًا ١٠٠ قصيدة - من بينها ٥٢ قصيدة غير منشورة من قبل - تتوزع على خمسة أقسام: سأم ومثال، أزهار الشر، تمرد، الخمر، الموت. وقد حكمت المحكمة السادسة للجُنج بحذف ٦ قصائد من الديوان^(١). ودفعت ضرورة كتابة قصائد جديدة لملء الفراغات التي تتخلل - بهذا الحذف - معمار الأزهار، فضلاً عن البيع المتسارع للنسخ - على الرغم من أو بفضل الحُكم - إلى تفكير بودلير في طبعة جديدة.

٢- الطبعة الثانية من ديوان «أزهار الشر»، بوليه - مالا سي ودي برواز، باريس، ١٨٦١ فلم تُنضَب الطبعة الأولى معين الشاعر؛ فالقصائد الستُ المطلوب إضافتها - محل القصائد المحذوفة - قد تضاعفت. وفي الأسبوع الأول من فبراير ١٨٦١، صدرت الطبعة الثانية من الأزهار في ١٥٠٠ نسخة، وهي تضم ٣٥ قصيدةً جديدة، إذا ما اعتبرت قصيدة «طيف» بمثابة أربع سوناتات، وهي تحمل بورترية للمؤلف من رسم وحفر براكمون.

ولا تضم هذه الطبعة - في الواقع - سوى قصيدة واحدة غير منشورة، هي «نهاية النهار»، حيث سبق لبودلير نشر البقية في الصحف فيما بين ١٨٥٧ إلى الأيام الأولى من عام ١٨٦١. وتضم الطبعة قسمًا جديدًا إضافيًا يحمل عنوان «لوحات باريسية».

وكان من المقرر أن تصدر هذه الطبعة مع مقدمة يوضح فيها بودلير «ألاعيه» و«انتحالاته»، فيما كان يريد الانتقام فيها من تهجم لوي فيو عليه في ١٤ مايو ١٨٥٨ في «لوروفي» (Le Réveil)، والتعريض بأنه قد وقع في نزاع مع القضاء من أجل «شيء تافه»؛ لكن هذه المقدمة لم يقدر لها النشر، لا في هذه الطبعة ولا في الثالثة، وستخذ - في تراث بودلير - شكل أربعة مشروعات لمقدمة غير منشورة.

(١) راجع ملفات القضية، وتحديد القصائد المحكوم بحذفها، في القسم الخاص بالمحاكمة، فيما يلي من ملاحق ووثائق «أزهار الشر»، في نهاية هذا الكتاب.

ويضيف المحققون - في طبعاتهم التالية من «أزهار الشر» - إلى قصائد الطبعة الثانية:

١- ديوان «البقايا»؛ وهو كُتِب شعري نُشر في بروكسيل في فبراير ١٨٦٦، على يد بوليه - مالا سي. ويضم القصائد المحذوفة - بحكم المحكمة - من الطبعة الأولى، بعد نشرها في بروكسيل في صحيفة «بارناس ساتيريك» (Parnasse satyrique du dix-neuvième siècle). وقد صدر الديوان في ٢٦٠ نسخة، مع لوحة غلاف رمزية من أعمال فيليسيان روب.

٢- أزهار شر جديدة نُشرت في «لو بارناس كونتومبوران» (Le Parnasse contempo-rain)، في ٣١ مارس ١٨٦٦؛ وتضم قصائد: نبذة لكتاب مُدان، امتحان منتصف الليل، غزلية حزينة، إلى امرأة من مالا بار، الفدية، ترنيمة، الصوت، العاصي، النافورة، عينا برت، النذير، بعيدًا عن هنا، تأمل، الهاوية، نواح إيكاروس.

٣- القصائد الإضافية المستمدة من الطبعة الثالثة لـ «أزهار الشر»، ميشيل ليفي، باريس، ١٨٦٨. وكان بودلير قد وقع - عام ١٨٦٣ - عقدًا مع هيتزل لنشر طبعة ثالثة، مزيدة، من «أزهار الشر». وظل أمل رؤية هذه الطبعة يهدد الشاعر حتى لحظاته الأخيرة، دون تحقق. وفي عام ١٨٦٨، نشرت هذه الطبعة، التي سُدَّ عَى النهائية، برعاية دي بانفيل، باعتبارها الجزء الأول من «الأعمال الكاملة لبودلير»، يتصدرها بورترية محفور للشاعر من أعمال ا. نارجو مع «ملاحظة» لتيوفيل جوتييه. وتضم هذه الطبعة ١٥١ قصيدة، تنظم في ستة أقسام، شأن الطبعة الثانية التي ترد كاملة. وقد أضيفت إليها قصائد «البقايا» الاثنتا عشرة، وبعض القصائد التي لم تكن معروفة في ذلك الحين إلا كأعمال أولى منشورة في بعض الصحف. والقصيدة الوحيدة غير المنشورة - التي ضمتها هذه الطبعة - هي سوناتا «إلى تيودور دي بانفيل». كما تضم الطبعة ملحقةً يجمع «مقالات الإثبات» التي أعدها بودلير عام ١٨٥٧ لتقديمها للقضاء، ورسائل سانت - بيغ وكوستان وإميل ديشا.

وتتفاوت الطبعات التي تحمل عنوان «أزهار الشر»، فيما عدا ذلك. فثمة طبعات تتوقف عند هذه الحدود. وثمة أخرى تضيف إلى ما سبق قسمًا خاصًا بالقصائد

المنظومة التي كتبها بودلير في شبابه، دون أن يُقدم على نشرها في حياته (وهو قسم يتفاوت بدوره - في عدد القصائد - من طبعة إلى أخرى، ومن محقق إلى آخر).

أما القصائد المنظومة، التي كتبها بودلير فيما يتعلق برحلته إلى بلجيكا، فلا تُرد ضمن هذه الطبعات المنفردة من «أزهار الشر»، بل في طبعات الأعمال الكاملة، وغالبًا ضمن كتاباته المتعلقة ببلجيكا، أي خارج نطاق الأقسام «الشعرية».

وتلتزم ترجمتنا العربية هذه بذلك الحد الأقصى المتاح - فرنسيًا - من قصائد بودلير المنظومة.

أما قصائد النثر، فلا اجتهادات أو اختلاف ذي بال فيها. فتاريخها أكثر تحديدًا ومباشرة، دون أن يطرأ على بنيتها أي تغيير على مدى السنوات اللاحقة لوفاة بودلير.

وشأن «أزهار الشر»، فما سيصبح «سأم باريس» (ذلك أنه حمل أسماء متتالية سابقة على صدوره النهائي، شأن الأزهار)، سيُنشر مجزئًا في الصحف والدوريات، تحت أول عنوان له: «قصائد ليلية».

وعلى الرغم من ذلك، فلن يصدر الكتاب خلال حياته. فبعد عامين من وفاته، صدر الكتاب في يونيو ١٨٦٩، لدى ميشيل - ليفي، مشكلاً، مع «الفرايس الاصطناعية»، الجزء الرابع من «الأعمال الكاملة»، بعنوان «قصائد نثر قصيرة».

ولن تشهد الطبعات اللاحقة من «سأم باريس» - حتى الآن - أية إضافة، فيما عدا بعض الملاحق المتعلقة بعناوين مشروعات قصائد كان يزعم بودلير كتابتها، أو مقاطع غير مكتملة، أو ملاحظات تمهيدية، دون اكتشاف أية قصيدة مكتملة - غير منشورة - ضمن أوراقه الشخصية. وهو ما يعني أن قصائد الطبعة الأولى من «سأم باريس» لم تطرأ عليها إضافة شعرية منذ صدورها لأول مرة.

والاختلاف الوحيد الذي يمكن رصده بين الطبعات المختلفة من «سأم باريس»، هو تلك القصيدة «المنظومة» التي ترد في ختام الديوان، في بعض الطبعات، دون بعضها الآخر. وقد بدا لنا منطقيًا موقف بعض المحققين الفرنسيين من أنها لم تكتب أصلاً لـ «سأم باريس»، بل لاختتام «أزهار الشر»، استنادًا إلى رأي «بوليه - مالا سي».

صديق بودلير وناشر أعماله الشعرية. فلم يكتب بودلير «مفتتحًا» منظومًا للقصائد النثرية، فلماذا يختتمها بقصيدة منظومة؟

*

وقد استندنا في ترجمة القصائد «المنظومة» على:

Baudelaire, **Les Fleurs du Mal**, Édition de Claude Pichois, (folio classique), Gallimard, Paris 1996.

واعتمدنا هذه الطبعة كمصدر أول لترجمة «أزهار الشر»، وترتيب القصائد والأقسام، وضبط البنية العامة للأزهار؛ وهي أمور تختلف فيها طبعات «أزهار الشر»، استنادًا إلى مكانة كلود بيشوا كعميد لمُحقِّقي أعمال بودلير.

Baudelaire, **Les Fleurs du Mal**, Édition établie par John E. Jackson, Le Livre de Poche, Librairie Générale Française, 2001.

تزيد هذه الطبعة - فضلًا عن المصدر التالي - عن طبعة «بيشوا» السابقة في عدد القصائد الواردة بقسم «قصائد الشباب». ففيما يورد «بيشوا» ٥ قصائد، تورد هذه الطبعة وطبعة الأعمال الكاملة التالية ٩ قصائد، وهو ما دفعنا إلى ترجمة قصائد القسم بالاعتماد على المصادر الأكمل.

Baudelaire, **ŒUVRES COMPLÈTES**, Édition Robert Laffont, Paris 1999.

وتنفرد هذه الطبعة - دون الطبعات المختلفة من أعمال بودلير التي اعتمدنا عليها، أو حتى اطلعنا عليها دون اعتمادها مصدرًا للترجمة - بقسم خاص بما أسمته القصائد المنسوبة إلى بودلير والقصائد المشتركة، لكن مُحقق الأعمال لم يستطع تقديم مبررات قوية لنسبة هذه القصائد إلى بودلير، وبدا - حتى هو نفسه - مُشكِّكًا في نسبتها إليه، أو - في الحد الأدنى - غير متأكد. وذلك ما دفعنا إلى تجاهل ترجمة هذا القسم الذي لم يجد تأييدًا من مُحققَي أعمال بودلير، ولقي تشكيكًا قويًا إلى حد النفي التام. ويبدو أن المحقق قد أورد هذا القسم إمعانًا في «الشمولية»، أو «من باب الاحتياط». كما أن هذه الطبعة تحتوي على القصائد «البلجيكية» التي كتبها بودلير، دون أن توردها أي من المصادر الأخرى التي اعتمدناها.

Baudelaire, **Les Fleurs du Mal**, choix de poèmes, par Adrien Cart et S. Hamel, Edition Remise à Jour, Librairie Larousse, Paris 1972.

أما قصائد النشر ، فقد استندنا في ترجمتها على :

Baudelaire, **Le Spleen de Paris** (Texte de 1869), Le Livre de Poche, Paris 1964.

Baudelaire, **Le Spleen de Paris**, Edition établie présenté et commentée par Yves Florenne, Le Livre de Poche Paris 1998.

Baudelaire **Le Spleen de Paris (ŒUVRES COMPLÈTES** Édition Robert Laffont Paris 1999).

وفيما يتعلق بالأعمال التكميلية (مقال «موقف بودلير» لبول فاليري، السيرة الشعرية والذاتية لبودلير، مشروعات المقدمة والخاتمة، وثائق المحاكمة، الإضاءات)، فلم نعتمد فيها على مصدر واحد، بل رجعنا بشأنها إلى المصادر السابقة، فضلاً عن مراجع أخرى متفاوته.

رفعت سلام

القاهرة: ٢٥ فبراير ٢٠٠٧

مراجع المقدمة

Baudelaire, **Les Fleurs du Mal**, Édition de Claude Pichois, (folio classique), Gallimard, Paris, 1996.

Baudelaire, **ŒUVRES COMPLÈTES**, Édition Robert Laffont, Paris, 1999.

Baudelaire, **Les Fleurs du Mal**, choix de poèmes, par Adrien Cart et S. Hamel, Edition Remise à Jour, Librairie Larousse, Paris, 1972.

John E. Jackson, **INTRODUCTION**, Les Fleurs du Mal, Édition établie par John E. Jackson, Le Livre de Poche, Librairie Générale Française, 2001.

سوزان برنار، قصيدة النثر من بودلير حتى الآن، ترجمة راوية صادق، مراجعة وتقديم رفعت سلام، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٨ / ٢٠٠٠. (والفصل المتعلق ببودلير - بالتركيز على تجربة قصيدة النثر لديه - هو أهم ما نُشر بالعربية في هذا الخصوص).

د. عبد الغفار مكاوي: ثورة الشعر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢؛ وللكتاب طبعة ثانية في مجلد واحد، دار أبوللو، القاهرة ١٩٩٨ (وهو من أهم الكتب العربية عن تجربة الحداثة الشعرية الأوروبية؛ والفصل الخاص ببودلير ربما كان أهم ما كُتب عن الشاعر الفرنسي بالعربية، على الرغم من إغفاله تجربة «سأم باريس»).

فرانسوا بورشه: بودلير، ترجمة الدكتور فؤاد أيوب، دار بيروت، بيروت ١٩٥٨

موسوعة المصطلح النقدي، ترجمة الدكتور عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد، بغداد ١٩٨٢

أَلْيَوْمُ صَوْر

١ - وجوه بودلير



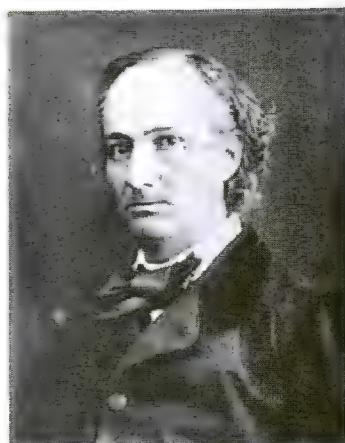
بودلير (١٨٥٤)



بودلير (١٨٥٤)



بودلير من تصوير نادار



بودلير من تصوير نادار



بودلیر (۱۸۵۵)



بودلیر (۱۸۵۵)



بودلیر (۱۸۶۰)



بودلیر (۱۸۵۵)



بودلير، من أعمال كارجا (١٨٦٣)



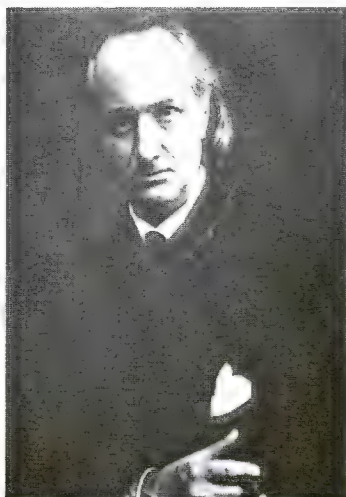
بودلير (١٨٦٢)



بودلير (١٨٦٤)



بودلير (١٨٦٤)



بودلير (١٨٦٤)



بودلير من تصوير نادار



بودلير (١٨٦٦)

۲- رسوم بودلیر



رسوم بودلیر، پریشته



بودلير تحت تأثير الحشيش
بريشته (١٨٤٤)



بودلير تحت تأثير الحشيش



بودلير، من رسم نادار



بودلير، بريشته



بودلير، من أعمال مانيه



بودلير، من أعمال مانيه



بودلير، من أعمال براكمون



بودير، من أعمال كوربيه



فانتان - لاتور، تكريم ديلاكروا
يظهر بودير يمين اللوحة



بودلیر، من رسم ماتیس



بودلیر، من أعمال مانيه

بودلير: سيرة ما

١٨٢١: ٩ أبريل؛ ميلاد شارل بيير بودلير، في ١٣ شارع هوتفيي بباريس، بمنزل ستم إزالته في نهاية الإمبراطورية الثانية، مع شق طريق سان جيرمان. أمه - كارولين أرشينبو - دوفايي - في السابعة والعشرين من عمرها، ووالده - جوزيف - فرانسوا بودلير - في الواحد والستين من عمره. لكن جوتيه سيكتب - فيما بعد - أنه ولد في ٢١ أبريل، فيما والدته ستؤكد - في رسالة إلى آسيلينو - على أنه وُلد في ٧ أبريل. و٩ أبريل هو التاريخ المُسجَل بشهادة ميلاده الرسمية. ٧ يونيو؛ التعميد في كنيسة سان سوليس.

مولد جوستاف فلوير، وشارل نوديه (مؤلف «سمارًا»)، ووالتر سكوت، ودي كوينسي (مؤلف «اعترافات مدمن أفيون»). وفاة نابليون.

١٨٢٧: ١٠ فبراير؛ وفاة فرانسوا بودلير، والد شارل، الرئيس السابق لمكتب البرلمان، عن ٦٧ عامًا. كان أيضًا رسامًا، وقام بدراسات للفلسفة وعلوم الدين بجامعة باريس. تزوج - في المرة الأولى - في ٧ مايو ١٧٩٧ - من جين جوستين روزالي جاسمان، وأنجب منها ولدًا، كلود ألفونس، شقيق بودلير الوحيد. بعد تَرمُلها في الثالثة والثلاثين من عمرها، تترك السيدة بودلير - «كارولين أرشيمبو - دوفايي» - شارع هوتفيي إلى ٥٨ شارع سان أندريه ديزار، ثم إلى ٣٠ ميدان سان أندريه ديزار.

في الصيف؛ الإقامة في نُويي، قرب غابة بولوني، في منزل ريفي صغير يقع في شارع ديباركادير (تمت إزالة المنزل عام ١٩٣٠).

فيكتور هوجو يصدر «كرومويل». أنجر: لوحة «تمجيد هومير».

وفاة بتهوفين. معركة حول مذهب التحول (Transformisme)، وهو مذهب يرى عدم ثبات الأنواع الحية، لأنها في حالة تحول دائم.

حل البرلمان الفرنسي. نتائج الانتخابات البرلمانية الجديدة تصب في صالح المعارضة.

حرب الاستقلال اليونانية: معركة نفارين.

١٨٢٨: ٨ نوفمبر؛ السيدة بودليير تتزوج بالرائد جاك أويك، وهو في التاسعة والثلاثين. عسكري لامع، خاض معارك النمسا وإسبانيا وواترلو، ونال عدة أوسمة حربية رفيعة. ويتنظره مستقبل لامع. لكنه رجل ذو إرادة متصلبة وأفق ضيق، لن يتوافق معه بودليير أبدًا.

١٨٣٠: يُرسل أويك في مهمة عسكرية إلى الجزائر، وباريس مسرح لثورة ١٨٣٠. يتهج الطفل بودليير لسفر غريمه، لاعتقاده أن العسكريين لا يعودون من الحروب. لكن الرجل يعود مكلاً بالغار مرة أخرى، وتتم تربيته من جديد.

١٨٣٢: الانتقال إلى ليون التي كانت شوارعها تضج بأصداء العصيان الأخير، الذي سُمّي في ١٨٣١ «ثورة الجُوع»، تحت شعار «الحياة ونحن نعمل أو الموت ونحن نقاتل». تم تعيين أويك - الذي رقي إلى رتبة مقدم - قائدًا للفرقة السابعة العسكرية هناك. ويتم وضع شارل في بنسيون ديلورم.

وسيكتب - عن تلك الفترة - فيما بعد: «يستحيل على المرء، مهما يكن الحزب الذي ينتسب إليه، ومهما تكن الأوهام التي تغذي بها، ألاّ يرتعش لمشهد الجماهير المريضة التي تتنفس غبار المصانع، وتبتلع القطن، وتشرب الأسيداج، والزئبق، وسائر السموم الضرورية لخلق الآثار الرائعة،

وتنام في القاذورات، في أعماق الأحياء حيث أكثر الفضائل تواضعًا وعظمة
تقيم جنبًا إلى جنب أقصى الشرور...»

١٨٣٣: العودة إلى باريس، حيث عُين العقيد أوبيك قائدًا للفرقة العسكرية الأولى،
بعد ترقّيته من جديد.

١ مارس؛ التحاق شارل بالقسم الداخلي لمدرسة لوي لوجران. أوبيك
يقدمه إلى مدير المدرسة: «سيدي، هذه هدية أقدمها لك. هذا تلميذ سوف
يُشرف مدرستك». لكن الصراع الداخلي بين الطفل والجنرال يتصاعد.

١٨٣٦: يونيو؛ «كثير من الطيش؛ اعتياد محدود على اللغات القديمة. افتقار للطاقة
لتصحيح أخطائه»، يكتب أستاذه أشيل شودان. «تزوير، أكاذيب. أساليب
فروسية أحيانًا وأحيانًا صادمة من فرط الافتعال».

١٨٣٧: يحصل على الجائزة الثانية في الشعر اللاتيني في المسابقة السنوية العامة.

١٨٣٨: «لديه القدرة على الابتكار عندما يريد، وعلى الإجادة. وليس لديه ما يكفي
من الجدية للقيام بدراسات قوية وجادة»، هذا ما يكتبه عنه الأستاذ ديفورج.
رحلة في جبال بيرنيس، خلال موسم الإجازات، بصحبة العقيد أوبيك
وأمه.

١٨٣٩: فبراير؛ «اتخذ بودلير منذ بضعة أيام سمات بالغة الغرابة. إنه تلميذ مزعج إلى
حد أنه، بعد أن كان قد اتخذ الطريق القويم منذ بداية العام، يستمتع بأن يكون
مثالاً سيئًا»؛ الأستاذ أشيل كارير.

١٨ أبريل: يتم طرد بودلير من المدرسة. الأستاذ ج. بييرو يوجه رسالة
إلى زوج أمه أوبيك: «سيدي، إذ أنذر ابنكم من قبل نائب المدير بأن يعيد
منشورًا كان أحد زملائه سيقوم بدسه، فقد رفض تسليمه له، وقام بتقطيعه
إلى قصاصات وابتلعها. وأعلن، لدى استدعائه عندي، أنه يفضل أي عقاب
على تسليم سر زميله، وأصرَّ على الشهادة لصالح هذا الصديق، [...] وكان
يجيب عليّ باستهزاء لا ينبغي عليّ تحمل وقاحته. إنني أرسل إليك - إذن -
هذا الشاب الذي كان يتمتع بإمكانات جيدة، لكنه خرب كل شيء بفعل عقله
الشرير...»

يُطرد من المدرسة بسبب العصيان. يستكمل استعداداته لامتحان البكالوريا في بنسيون لوفيك بايلي، حيث يرتبط باثنين من الشعراء الشبان المحليين: جوستاف لافافاسير وإرنست براروند.

١٢ أغسطس؛ يحصل على شهادة البكالوريا. وترفّي الكولونيل إلى جنرال، ويخطط لابن زوجته مستقبلة كدبلوماسي، اعتمادًا على نفوذه لدى السلطات العليا. وبودليير يصمم على تكريس نفسه للأدب.

١٨٤٠: يعيش بودليير حياة بوهيمية لطالب مسجل بكلية الحقوق، لكنه لا يحضر أية محاضرات. أولى لقاءاته ببعض الشخصيات الأدبية لتلك الفترة. يقيم علاقة - في الحي اللاتيني - مع العاهرة سارة، التي يسميها أقرباؤها لوشيت. وهي التي سيكتب عنها قصيدته «ليست لديّ كعشيقَة لبؤة».

١٨٤١: أولى العلاقات في الوسط الأدبي: إدوارد أورلياك، جيرار دي نرفال، بلزاك. وقلق - في أوساط العائلة - من تراكم ديونه، وحياته البوهيمية، وعدم اكترائه بالارتباط بوظيفة.

١ يناير؛ «لو كورسير» (Le Corsaire) تنشر أنشودة تهكمية، بدون توقيع. الأنشودة إنتاج مشترك لبودليير ولافافاسير.

أوبيك يكتب إلى ألفونس بودليير، شقيق الشاعر: «سيدي العزيز بودليير، لقد حانت اللحظة التي ينبغي عمل شيء ما فيها لمنع أخيك من الضياع المطلق. إنني في النهاية على الإمام، على الأقل، بوضعيته، وأحواله وسلوكياته. إن الخطر كبير. وهناك، في رأيي، ورأي بول ولايبه، ضرورة عاجلة لانتزاعه من بلاط باريس الزَّلِق. وأفكر في دفعه إلى القيام برحلة بحرية طويلة، إلى هندٍ أو أخرى، على أمل انتزاعه، بتغريبه على هذا النحو، من علاقاته الشائنة، وإزاء كل ما سيكون عليه درسه، سيستطيع العودة إلى الطريق القويم ويعود إلينا شاعرًا ربما، لكن شاعرًا يتوفر على إلهاماته من مصادر أفضل من بالوعات باريس...»

٩ يونيو: على متن «باخرة بحار الجنوب» المتجهة إلى الهند، يقوم برحلة «تربوية» بحرية طويلة، لإبعاده عن نمط الحياة والوسط الذي يعيش فيه،

نزولاً على نصيحة العائلة التي اجتمعت بناءً على طلب الزوجين أوبيك،
اللذين حذرا من الحياة الفوضوية لبودليير، ورغبته في ألا يكرس نفسه إلا
للأدب.

٩ - ١ سبتمبر؛ يقيم في جزيرة موريشيوس، بعد تعرض الباخرة لعاصفة
واضطرارها إلى الرسو بالجزيرة. يكتب قصيدة «إلى خلاسية»، إلى زوجة
مضيفه بالجزيرة، ويرسلها إليه بعد عودته إلى فرنسا.

أكتوبر؛ يقيم في جزيرة بوربون. يقرر عدم استكمال رحلته، والعودة إلى
الوطن. والكثير من القصائد اللاحقة ستكون مستلهمة من هذه الرحلة
الإجبارية المجهضة.

٢٠ أكتوبر ١٨٤١: «جزيرة بوربون، ٢٠ أكتوبر ١٨٤١، سيدي العزيز أوتار،
كنت قد طلبت مني بضعة أبيات أرسلها إلى موريشيوس من أجل زواجك،
ولم أنسكم. فكم هو جيد، ورقيق، ولطيف أن تمر أشعار، كتبها شاب إلى
سيدة، من خلال يدي زوجها قبل الوصول إليها، فأنت من أرسلها إليه، من
أجل ألا تريها لها إلا إن أعجبتك. منذ أن غادرتكم، كثيراً ما فكرت فيكم
وفي أصدقائكم الممتازين. ولن أنسى بالتأكيد الصباحات الجميلة التي
منحتموها لي، أنتم والسيدة أوتار، والسيد ب. ولو لم أكن أحب باريس ولو
لم أكن لأندم كثيراً عليها، لبقيت أطول وقت ممكن بجانبكم، ولأجبرتكم
على حيي، وعلى أن تجدوني أقل غرابة مما أبدو. وقد يكون من المحتمل
إلى حد ما أن أعود إلى موريشيوس، إلا إذا كانت السفينة التي تقلني إلى
بورديو (لالسيد) لن تجد مسافرين. ها هي سوناتاتي: إذن، فسأنتظركم
في فرنسا. تحياتي المحترمة إلى السيدة أوتار».

ألفريد دي موسيه: ذكرى (قصيدة). بلزاك: كاهن القرية. جوجول: الأرواح
الميتة.

١٨٤٢: ١٥ فبراير؛ بودليير يقلع إلى بورديو: «لا أظن أنني أعود والتعقل في جيبي».
يقيم - في باريس - علاقات أدبية جديدة مع تيوفيل جوتييه وتيودور دي
بانفيل وسانت - بيف وفكتور هوجو.

يبدأ علاقته مع جين دو فال، «فينوس السوداء»، فتاة خلاسية تمثل في أحد المسارح الصغيرة بالحي، التي سيرتبط بها في علاقة عميقة وعاصفة في نفس الوقت حتى ١٨٥٦

٩ أبريل؛ يبلغ الحادية والعشرين من عمره، سنّ الرشد القانونية، ويحصل على آلاف الفرنكات الذهبية، كجزء من نصيبه من ميراث أبيه.

يهرب من المنزل، ويترك لأمه كلمة صغيرة: «إنني أرحل، ولن أعاد الظهور إلا في حالة فكرية ومالية أفضل. إنني أرحل لأسباب عديدة. فأنا - بادئ ذي بدء - عرضة لهزال وخمول رهيبين، ولا بد لي من كثير من الوحدة حتى أسترد قواي قليلاً وأعاد سيرتي الأولى. وثانياً، فإنه من المستحيل أن أكون مثلاً يريدني زوجك.. لا شك أنني سأضطر إلى أن أعيش حياة قاسية، لكنني سأكون أفضل حالاً» إن قراري راسخ ونهائي ومعقول، ولذا فلا ينبغي أن تشكي، بل أن تفهميه».

يتنقل للسكنى بغرفة في جزيرة سان لويس وسط باريس. يضاعف من مصروفاته بصورة زائدة. ويعيش حياة بوهيمي ثري، مع الحشيش والأفيون.

ألويزيوس برتران: جاسبار الليلي (بعد عام من وفاة الشاعر). إ. سو: أسرار باريس.

نهاية حرب الأفيون في الصين.

١٨٤٣: يشارك بودلير إرنست برارون في تأليف دراما شعرية، لن تكتمل أبداً.

أبريل؛ الانتقال إلى مسكن جديد بشارع فانو.

أكتوبر؛ العودة إلى جزيرة سان لويس، بفندق بيمودان. وأحد ساكنيه هو الرسام فرينان بواسار، الذي يجد بودلير في مرسومه جوتيه، ويلتقى - ربما للمرة الأولى - بالآنسة ساباتيه^(١)

(١) سيتخذها رجل أعمال بلجيكي عشيقاً له فيما بعد، ويصبح بيتها قبلة كبار المثقفين والمبدعين الفرنسيين، ومن بينهم بودلير وموسيه ونرغال وسانت - بيف وفلوير والموسيقار بيرليوز. وسيطلق عليها «جوتيه» لقب «الرئيسة».

يشارك في حضور اجتماعات «نادي الحشاشين».

نوفمبر/ ديسمبر؛ ترفض «لوتتamar» (Le Tintamarre) و«لا ديموقراطيّ باسيفيك» (La Démocratie Pacifique) نشر مقالات لبودليير، باعتبارها مفرطّة في الجرأة. حوالي خمس عشرة قصيدة - ستخذ مكانها فيما بعد في «أزهار الشر» - كانت قد كتبت حتى ذلك الحين.

١٨٤٤: نصف ميراثه تم إنفاقه في عامين. مجلس للعائلة يجتمع، وترفع أمه دعوى قضائية تطالب بوضع ما تبقى من ميراثه تحت رقابة وصي قانوني تعينه المحكمة. المحكمة تقضي بتعيين الموثق نارسيس - ديزيريه أنسيل وصيًا قانونيًا على أمواله، لا يمنحه إلا مبلغًا محددًا كل عام.

بعد أن أثقل بالديون، بودليير يقضي بقية حياته في التهرب من الدائنين، والتوسل إلى أنسيل وأمه ليقدما له «دفعات مسبقة» من مستحقّاته الخاضعة للحراسة.

مارس؛ يُنشر - لدى مؤسسة كازيل - عمل صغير مُغفل المؤلف، «أسرار طريفة لمسارح باريس»، وهو مجموعة من الحكايات واللمحات الساخرة التي شارك في إعدادها بودليير.

١ ديسمبر؛ تنشر «لارتيست» (L'Artiste) - بتوقيع بريفا دانجلمنون - سوناتا «إلى السيدة دي باري»، التي قد يكون بودليير مؤلفها الحقيقي.

ألفريد دي فيني: منزل الراعي. الكسندر دوماس: الكونت دي مونت كريستو.

إنشاء أول تلغراف كهربائي على يد مورس.

١٨٤٥: يناير، مايو، أغسطس؛ تنشر «لارتيست» ثلاث سوناتات، اثنتان منها بتوقيع بريفا دانجلمنون، والثالثة مغفلة المؤلف، ويمكن أن يكون بودليير مؤلفها الأصلي. ويحكي أرسين هوساي - الذي كان يدير «لارتيست» في ذلك الحين - في كتابه «اعترافات»، أن بريفا قد وقع أمامه وأمام بودليير على سوناتات كتبها بودليير.



بودلير (١٨٣٣)



شهادة ميلاد بودلير



جاك أويك



السيدة أوتار دي براجار

أبريل؛ الناشر جول لابيت ينشر «صالون ١٨٤٥» باسم «بودلير-دوفايي» في كتيب يقع في ٧٢ صفحة. والاسم تركيب من الاسم العائلي لأبيه والاسم العائلي الأصلي لأمه قبل الزواج الثاني.

٢٥ مايو؛ «لاريتست» تنشر سوناتا «إلى خلاسية» باسم بودلير-دوفايي.

٣٠ يونيو؛ محاولة انتحار بودلير بالسكين، بعد كتابته وصية يوصي فيها بأن تتول جميع ممتلكاته إلى عشيقته الآنسة جين لوميه (اسم آخر لجين دوغال). يكتب إلى آنسيل الوصي القانوني عليه - في ٣٠ يونيو ١٨٤٥: «عندما تُسلمك الآنسة جين لوميه هذه الرسالة، سأكون ميتاً. إنها تجهل ذلك. وتعرف وصيتي. فعدا النصيب المحجوز لأمي، فينبغي أن ترث الآنسة لوميه كل ما سأتركه، بعد تسديدك بعض الديون المرصودة في القائمة المرفقة بهذه الرسالة.

إنني أموت في حالة قلق مرعب. فلتتذكر حديثنا بالأمس. إنني أرغب، أريد أن تُنفذ أفكارى بدقة. وهناك شخصان يمكنهما التهجم على وصيتي، أمي وشقيقي - ولن يستطيعا التهجم عليها إلا بحجة الخلل العقلي (...). إنني أنتحر - بلا حزن - ... لأنني لا أستطيع أن أستمّر في الحياة، ولأن تعب يومي وتعب يقظتي لا يُحتملان. إنني أنتحر لأنني غير مفيد للآخرين - وخطر على نفسي. إنني أنتحر لأنني أعتقد أنني خالدة، وآمل في ذلك... لا أعرف شقيقي إلا قليلاً - فهو لم يعيش داخلي ولا معي - إنه ليس بحاجة لي... وأمّي، التي سممت حياتي كثيراً ودائماً عن غير قصد، لم تعد بحاجة إلى هذه النقود. فلديها زوجها، وتملك كائناً إنسانياً، وعاطفة، ومحبة. أما أنا، فليس لديّ سوى جين لوميه... فلتطلعها على مثالي المخيف - وكيف أن فوضى العقل والحياة أفضيا بي إلى يأس كتيب أو إلى فناء تام».

طعن نفسه في صدره، فنُقل إلى مركز الشرطة أولاً، ثم إلى دار غريمه زوج أمه، وتم تسديد ديونه.

على ظهر غلاف كتاب لبير دوبون، إعلان عن الصدور القريب لديوان «السحاقيات» (Les Lesbiennes) لبودلير دوفايي.

يوليو؛ بودلير يقيم لدى أمه، بالمقر العسكري لباريس، الذي يرأسه أويك، زوج أمه. خصومات جديدة وقطيعة أخرى مع زوج الأم. يرحل الشاعر للإقامة بفندق دنكرك: «لقد غادرتُ عائلتي من جديد. لم يكن ذلك ليستمر. إنهم لا يشربون سوى البوردو عند أمي، وأنا لا أستطيع الاستغناء عن البورجون».

٢٤ نوفمبر؛ تُنشر بدون توقيع - في «لو كورسير - ساتان» (Le Corsaire-Satan) فانتازيا عن بلزاك بعنوان «كيف يسدد ديونه مع افتقاره إلى العبقريّة». وسيعترف بودلير بكتابته هذه المقطوعة عندما يعيد نشرها - بعد بضعة شهور - مقتربةً باسمه، في صحيفة أخرى.

تيوفيل جوتييه: إسبانا، كوميديا الموت. ميريميه: كارمن. دوميه: رجال العدالة. فاجنر: تانهاوزر.

١٨٤٦: يناير/أبريل؛ التعاون مع «لو كورسير - ساتان» و«لِسبري بيبليك» (L'Esprit Public). يقدم للثانية - كنص من تأليفه - «الشاب الساحر»، الذي ليس سوى ترجمة قاصرة لقصة إنجليزية نشرت عام ١٨٣٦ تنقلات كثيرة في السكّنى.

مايو؛ ينشر - لدى ميشيل ليثي - كتيبًا بعنوان «صالون ١٨٤٦»، ويتضمن الإعلان عن صدور لاحق لديوان شعري بعنوان «السحاقيات» (وهو ما سيصبح - بعد إحدى عشرة سنة - «أزهار الشر»)، و«عقيدة المرأة المحبوبة» الذي لن يطبع أبدًا، ويبدو أنه لم يكتب أصلاً.

الإعجاب بأعمال ديلاكروا - الذي تبدّى في «صالون ١٨٤٥» - يتأكد بقوة في «صالون ١٨٤٦».

٦ سبتمبر؛ ينشر في «لارتيست» قصيدة «السادر» التي ستصبح - في «أزهار الشر» - «دون جوان في الجحيم».

سبتمبر؛ بداية تعامل - بدون توقيع - مع «لوتنتامار» (LeTintamarre)، لن ينتهي إلا في مارس ١٨٤٧

١٣ ديسمبر؛ ينشر في «لارتيست» قصيدة «إلى هندية» التي ستُنشر - في «أزهار الشر» - بعنوان «إلى امرأة من مالابار».

١٨٤٧: يناير؛ جمعية الأدباء الشبان تنشر نصه السردي «فانفارلو»، الذي يقدم فيه بودلير نفسه - بدرجة أو أخرى - في شخصية صامويل كرامر، بطل النص.

خلال العام، تتفاوت أحواله بصورة حادة. يقيم مع جين دوغال. ويُغرم بممثلة أخرى صغيرة في العشرين من عمرها.

يقرأ ترجمة «القطعة السوداء» لإدجار آلان بو، التي ستشكل أول تماس له بعالم بو.

كورييه يرسم له البورتريه الشهير (متحف مونبوليه حاليًا).

١٤ نوفمبر؛ يعيد شامفلوري - في «لو كورسير - ساتان» - نشر سوناتا لبودلير (السوناتا الشهيرة «القطط»).

ديسمبر؛ بودلير ينتقل للإقامة في منزل جديد. يكتب إلى أمه: «لو كان بمقدوري أن أعيش، خلال خمسة عشر يومًا أو عشرين، حياةً منتظمة، فإن ذكائي سيجد خلاصه. تلك محاولة أخيرة، تلك مقامرة. غامري على المجهول، يا أمي العزيزة، أرجوك... فعندما تكرمت في المرة الأخيرة فأعطيتني خمسة عشر فرنكًا كنت قد قضيت يومين دون طعام، ثماني وأربعين ساعة».

١٨٤٨: التعاون مع «لو كورسير - ساتان».

نهاية فبراير؛ ليلة ٢٤ فبراير تنطلق الرصاصات الأولى في الانتفاضة الشعبية بباريس. لويس فيليب المذعور يتنازل عن العرش ويهرب في عربة عادية، فيما الثوار يجتاحون قصر التويليري ويستولون عليه.

بودلير يشارك في الانتفاضة الشعبية، المرتبطة بالجمعية الجمهورية المركزية، التي أسسها بلانكي، ويُصدر مع اثنين من أصدقائه - شامفلوري وتوبان - نشرة ذات طابع اشتراكي، «الخلاص العام»، تختفي بعد صدور عددها الثاني.

يلتقي جول بويسون مع بودلير، في المساء، بأحد الميادين، وبندقية في يده، وهو يصرخ في الشارع: «لا بد من الذهاب لإطلاق الرصاص على الجنرال أوبيك» (زوج أمه).

وسيكتب: «إن في كل تبدل شيئاً سافلاً ولذيذاً في آن، شيئاً مستمداً من الخيانة والارتحال. وهو ما يكفي لتفسير الثورة الفرنسية».

أبريل/ مايو؛ يعمل سكرتيراً لتحرير جريدة «لا تريبين ناسيونال» (Tribune La National)، فيما لا يبدو متوافقاً مع التوجهات المحافظة للجريدة. السيدة أوبيك وزوجها يسافران إلى القسطنطينية، حيث أرسل زوجها كوزير مفوض. قبل رحيلهما بأيام، يؤنب أوبيك - ابن زوجته على علاقته - مع جين دوغال، التي تختلس أمواله وتخونه. خصام كامل بين بودلير وأمه.

٢٢ - ٢٥ يونيو؛ الشاعر يشارك في الانتفاضة العمالية المسلحة.

١٥ يوليو؛ ينشر - في «لا ليبرتيه دي بونسيه» (La Liberté de Penser) - ترجمته الأولى لأحد أعمال إدجار آلان بو بعنوان «رؤيا عجيبة».

أكتوبر؛ يتوجه إلى شاتورو ليصبح رئيس تحرير صحيفة أسبوعية جديدة، ذات ميول محافظة. في نهاية الأسبوع، يعود إلى باريس بعد أن أصاب بالهلع أصحاب الجريدة، بفعل مواجهتهم بمجموعة من «المصادرات» غير المتوقعة والأحكام المحيرة.

نوفمبر؛ ينشر قصيدة «خمر القاتل». ويتم الإعلان عن نشر ديوان شعري له - لدى ميشيل ليفي - في فبراير ١٨٤٩ - بعنوان «الأعراف» (وهو ما سيصبح فيما بعد «أزهار الشر»، بعد التخلي عن العنوان السابق، «السحاقيات»).

ألكسندر دوما الابن: سيدة الكاميليا. وفاة شاتوبريان. إملي برونتي: مرتفعات وذرنج.

ثورة فبراير؛ حركات ثورية في أوروبا.

١٨٤٩: فترة كثيفة من حياة بودلير. يُغرم بموسيقى فاجنر، التي لن يسمع بها الباريسيون إلا عام ١٨٥٠. يُجمّع ديواناً من أشعاره، كتبه بخط اليد كاتب عمومي.

٣ ديسمبر؛ يتوجه إلى ديجون. لا يُعرف ما الذي كان ينوي فعله في هذه المدينة، حيث كان يتوقع أن يقيم فيها لمدة طويلة. يقرر - أثناء إقامته بفندق بالمدينة - استئجار شقة صغيرة وأثاث.

وفاة إدجار آلان بو، عن أربعين عامًا.

١٨٥٠: ٩ يناير؛ جين دو فال تلحق به في ديجون. في الربيع، العودة إلى باريس، بعد متاعب صحية (أعراض ثانوية لمرض الزهري الذي كان قد أصيب به منذ سنوات). يستأجر مسكنًا خاصًا به.

مايو/يوليو؛ ينشر في مجلة «لو ماجازان دي فامي» (Le Magasin des Familles) قصيدتين: «عقاب الغطرس» و«خمر الشرفاء» (التي أصبحت فيما بعد «روح الخمر»).

١٨٥١: مارس؛ ينشر في «لو ميساجيه دي لاسمبلي» (Le Messager de l'Assemblée) دراسته «عن الخمر والحشيش باعتبارهما أداتين لتعددية الفردية»، وهي المشروع الأول لـ «الفراديس الاصطناعية».

٩ أبريل؛ تحت العنوان العام «الأعراف» تنشر «لو ميساجيه» إحدى عشرة قصيدة، ستُنشر فيما بعد ضمن «أزهار الشر».

بداية يونيو؛ لدى العودة من القسطنطينية، يقضي الجنرال أوبيك وزوجته بضعة أيام في فندق الدانوب، قبل أن يتوجه سفيرًا إلى مدريد. السيدة أوبيك تعثر على ابنها في حالة عوز تام.

يوليو؛ يتعاون مع «لو ريببليك دي بيل» (Le République du Peuple)، وهي نشرة ديموقراطية. ترفض جريدة «لو بَي» (Le Pays) اقتراحه بكتابة سلسلة من المقالات حول فن الكاريكاتير.

أغسطس؛ ينشر دراسته حول الشاعر بيير ديون.

١٥ أكتوبر؛ يطلب من لندن الأعمال الكاملة لإدجار آلان بو.

٢٧ نوفمبر؛ ينشر في «لا سومين تياترال» (La Semaine Théâtrale) مقالاً
عن «الدراما والرومان الشرفاء».

انقلاب ٢ ديسمبر يثير فيه الرعب.

١٨٥٢: ٢٢ يناير؛ ينشر في «لا سومين تياترال» مقالاً عن «المدرسة الوثنية».

١ فبراير؛ تنشر «لا سومين تياترال» قصيدتين لبودليير.

مع بعض أصدقائه، وخاصة مونسلية شامفلوري، يقرر بودليير إصدار جريدة
أسبوعية فلسفية، لكن المشروع سرعان ما يتم التخلي عنه.

مارس/ أبريل؛ مجلة «لا روفي دي باريس» (La Revue de Paris) تنشر
دراسة لبودليير «إدجار آلان بو، حياته وأعماله». وهو أول نص هام في فرنسا
عن الشاعر الأمريكي. ويكتب إلى أمه، في ٢٧ مارس: «لقد عثرت على
مؤلف أمريكي آثار داخلي تعاطفاً لا يصدق، وقد كتبت عن حياته ومؤلفاته
مقالين، كتبتهم بحمية، لكنك ستجدين فيهما بلا شك بعض السطور التي
يطغى عليها انفعال زائد غير عادي. وتلك نتيجة الحياة الأليمة والمجنونة
التي أعيشها... وأنا مجبر على العمل ليلاً حتى أحصل على الهدوء وأتجنب
المضايقات التي لا تُحتمل، هذه المضايقات التي تُسببها المرأة التي أعيش
معها».

٧ أبريل؛ بودليير يترك مسكنه، إلى مسكن آخر، وينفصل عن «جين دوغال».
يكتب إلى أمه: «لقد أصبحت جين عائقاً ليس في سبيل سعادتي فحسب...
بل في سبيل استكمال فكري أيضاً.. في الماضي كانت تتمتع ببعض
الصفات - لكنها فقدتها - وأنا كسبت البصيرة. فأن تعيشي مع كائن لا يعترف
بأي من جهودك، بل يعاكسها بخراقة أو خبت دائمين، ولا يعتبرك إلا مثل
خادمه وملكيته، ويستحيل عليك أن تتبادلي معه كلمة واحدة في السياسة
أو الأدب، كائن لا يريد أن يتعلم شيئاً، على الرغم من أنك اقترحت عليه
بنفسك أن تعطيه دروساً، مخلوق لا يُعجَب بي، ولا يُعنى حتى بدراساتي،
بل يمكن أن يلقي بمخطوطاتي في النار إن كان ذلك سيعود عليه بمال أكثر
من نشرها، ويطرد قطي وقد كان تسلّيتي الوحيدة في البيت، ويُدخل إلى

هذا البيت كلاباً لأن رؤية الكلاب تؤذيني، ولا يعرف أو لا يريد أن يفهم أن اللجوء إلى اقتصاد شديد خلال شهر واحد سيسمح لي - بفضل راحة مؤقتة - أن أنهى كتاباً كبيراً - أخيراً، أياكون ذلك ممكناً، أياكون ممكناً؟...». لكن العلاقة لن تنقطع بشكل نهائي، وسيكون حريصاً على تدبير نقود لها بين الحين والحين، على الرغم من ديونه التي لا تنتهي.

أكتوبر؛ ينشر في «لا روفي دي باري» قصيدتين وإحدى ترجماته لبو، وينشر ترجمة أخرى لبو في «لو ماجازان دي فامي».

٩ ديسمبر؛ يهدي ويرسل أول قصيدة إلى أبولوني ساباتييه، بدون توقيع، تحمل عنوان «إلى امرأة مبتهجة للغاية». وستصبح هذه القصيدة - تحت عنوان «إلى تلك المبتهجة للغاية» إحدى ست قصائد من «أزهار الشر» سيتم منع نشرها بحكم قضائي.

١٨٥٣: ١٠ يناير؛ بموجب عقد تم توقيعه منذ بضعة شهور، يقدم بودليير إلى الناشر فيكتور لوكو مخطوط ترجمة «حكايات عجيبة» لبو، ويتسلم ثمنه. لكنه يقرر - بفعل عدم رضائه عن الترجمة - طلب وقف نشره، متحماً أن يتحول إلى مدين بالأجر الذي كان قد تسلمه من قبل وأنفقه.

٤ فبراير؛ نشر ترجمته لبو في جريدة «باريس» (Paris).

١ مارس؛ ترجمة أخرى لبو (الغراب) تنشر في «لارتيست». الإفلاس والإحباط يمنعان بودليير من الاستجابة إلى إلحاح «روبولان» مدير الأوبرا على تأليف عمل له، وعروض أحد مديري المسارح بكتابة عمل درامي.

٨ مارس؛ الجنرال أويك يصبح عضو برلمان.

٢٧ مارس؛ نشر ترجمة لبو في «لو موند ليتيرير» (Le Monde Littéraire).

١٧ أبريل؛ في الجريدة نفسها، ينشر مقالة مهمة: «أخلاقيات اللعبة».

مايو؛ الانتقال إلى فرساي، ومجموعة قصائد جديدة، مجهولة التوقيع، ترسل إلى السيدة ساباتييه.

١٣/١٥ نوفمبر؛ ترجمة لبو تنشر في صحيفة «باريس».

١٨٥٤: يناير؛ يخطط لكتابة عمل درامي في خمسة فصول، بعنوان «السَّكَّير» الذي تبدَّى فكرته في عدد من قصائده. لكنه لا يكتبه.

فبراير؛ مجموعة جديدة من القصائد - بلا توقيع - تصل إلى السيدة ساباتييه. يلجأ إلى الإقامة في فندق «يورك» لمدة ما بين عشرة وخمسة عشر يوماً، للتهرب من دائنيه.

٧ فبراير؛ يكتب إلى السيدة ساباتييه: «لا أظن، سيدتي، أن النساء، عموماً، يعرفن كل مدى قوتهن، سواء في الخير، أم في الشر. ولا ينبغي لي - بلا شك - أن أكون حصيفاً بتعليمها لهن كلهن على السواء. لكن، معك، فلا مخاطرة؛ فروحك بالغة الثراء والطيبة بحيث تفسح مكاناً للغرور والقسوة. ومن ناحية أخرى، فلقد ارتويت - بلا أي شك - وتشبعت من الإطراءات، إلا من شيء وحيد يمكن ربما أن يُطريك مع ذلك، هو تعلم أن تفعلي الخير، في حياتك، حتى بدون معرفته.. أما بالنسبة لهذا الخور مجهول المصدر، الذي قلت لك عنه، فأني عُذر سأتعلم به، سوى أن خطي الأول يؤدي إلى كل الأخطاء الأخرى، وأن الطبع قد غلب عليّ. فلتفترضني - إن شئت - أنني - أحياناً - تحت ضغط كآبة عنيدة، لم أستطع إيجاد السلوى إلا في متعة كتابة قصائد لك، وأن أُجبر بعد ذلك على موافقة الرغبة البريئة في إطلاعك عليها مع الخوف الرهيب من أن تزعجك. ذلك ما يفسر الخور. إنها تمضي أمامي، هذه العيون الاستثنائية...؛ أفليس حقيقياً أنك تفكرين، مثلي، في أن الجمال الأكثر عذوبةً، في أن الكائن الأكثر رفعةً والأكثر محبةً، - أنت نفسك، على سبيل المثال، - لا يستطيع، كإطراء أسمى، إلا اشتهاه التعبير عن العرفان بالخير الذي فعله؟»

مايو؛ ينتقل إلى الإقامة في فندق «مراكش» بشارع السين.

٢٥ يوليو؛ تبدأ جريدة «لو بيبى» (Le Pays) في نشر ترجمة بودلير «حكايات عجيبة» لبو. ويستمر النشر بصورة متقطعة حتى أبريل ١٨٥٥

نهاية يوليو؛ يعود بودلير إلى لقاء الممثلة ماري دوبران.

ديسمبر؛ بفعل إلحاح المؤجرين - الذين لا ينالون حقوقهم إلا متأخرًا، وعلى أقساط صغيرة - يخبر أمه أنه ينوي «العودة في الحال إلى العلاقات غير الزوجية»، سواء بالعثور على جين دوغال، أو بالإقامة «لدى الأخرى»، ماري دوبران أو الغامضة ج. جي. ف، التي سيهدي إليها «الفراديس الاصطناعية». يرتبط - في هذه الفترة نفسها - بباربي دورفني.

١٨٥٥: مارس/ أبريل؛ ٦ تنقلات بين الفنادق خلال شهر، فيما الجنرال أوبيك يشتري منزلا صغيرا في «أونفلير» أمام البحر.

مايو؛ تنشر «لو بيي» (Le Pays) دراسة له عن المعرض العالمي الذي افتتح مؤخرا في قصر الفنون الجديد. انتحار جيرار دي نرغال شنقا.

١ يونيو؛ بودلير ينشر ١٨ قصيدة في «روفي دي دو موند» (Revue de deux mondes) واسعة الانتشار والتأثير، تحت عنوان «أزهار الشر»، الذي يظهر للمرة الأولى.

الممثلة ماري دوبران - عشيقة بودلير - تصبح أهم صديقاته. يلتقي بالسيدة ساباتييه، التي سيقوم معها علاقة صداقة أفلاطونية لعدة سنوات. وتظهر فيما بعد آثار دوبران وساباتييه في القصائد اللاحقة لبودلير.

٨ يوليو؛ صحيفة «لو بورتفوي» (Le Portefeuille) تنشر دراسته «عن جوهر الضحك والفكاهي في الفن التشكيلي».

٣ أغسطس؛ يعد - مع ميشيل ليقي - مسألة طبع ترجمته لـ «حكايات عجيبة» و«حكايات عجيبة جديدة» لإدجار آلان بو في جزئين.

تنشر «لو بورتفوي» الجزء الثاني من دراسته «المعرض العالمي ١٨٥٥»، ويتعلق بالفنان إنجر، والتي رفضت «لو بيي» (Le Pays) نشرها كاملة.

١٤ و ١٩ أغسطس؛ بودلير يكتب إلى جورج صاند ليوصيها على ماري دوبران التي تسعى إلى الارتباط بأحد المسارح.

النشر الأول لقصائد نثر قصيرة، في ديوان مشترك بعنوان «فونتانبليو» (Fontainebleau).

٤ نوفمبر؛ تكتب «لو فيجارو» (Le Figaro)، في تعليقها على القصائد المنشورة من «أزهار الشر» في يونيو الماضي - في «روفي دي دو موند» (Revue de deux mondes) - أن هذه القصائد قد دمرت «سمعة الدهشة» التي أحدثها بودلير، وهبطت بمنزلة كاتبها إلى مستوى «الفواكه المجففة في الشعر المعاصر».

ألكسندر دوما الابن: عالم الغانيات. كوربيه: لوحة «ورشة العمل».

تحالف أنجلو فرنسي ضد روسيا: حملة القرم. تأسيس شركة قناة السويس.

١٨٥٦: مارس؛ صدور الجزء الأول - لدى ميشيل ليفي - من ترجمة بودلير لبو تحت عنوان «حكايات عجيبة»، بسعر فرنك واحد للنسخة.

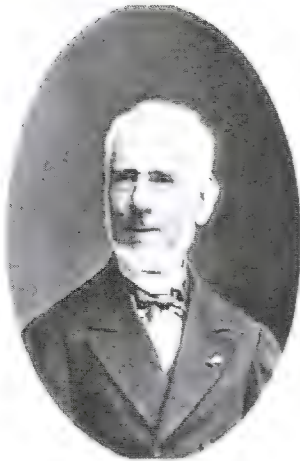
مايو؛ يعود بودلير إلى الإقامة بأحد الفنادق، فندق فولتير، لمدة عامين.

أغسطس، أو بداية سبتمبر؛ قطيعة نهائية مع جين دوغال. يكتب إلى أمه في ١١ سبتمبر: «علاقتي، علاقة أربعة عشر عامًا، بجين قد قُطعت... هذه المرأة كانت تسلتي الوحيدة، ولذتي الوحيدة، ورفيقي الوحيد. وعلى الرغم من ما انتاب علاقتنا العاصفة من هزات باطنة فإن فكرة الانفصال النهائي لم تخطر ببالي إطلاقًا. وأنا أفاجئ نفسي حتى الآن وأنا أفكر، عندما أرى شيئًا جميلًا، أو منظرًا فائقًا، أو أي شيء لطيف: لماذا ليست معي الآن؟»

٣٠ ديسمبر؛ الاتفاق مع بوليه - مالا سي على نشر «أزهار الشر»، ومع ميشيل لبثي على طبع ترجماته لإدجار آلان بو.

١٨٥٧: ما الذي كان يجري عام ١٨٥٧، عام «أزهار الشر»؟

كان لوي - نابليون بونابرت (١٨٠٨-١٨٧٣) يحكم فرنسا منذ ١٨٥٢، باسم نابليون الثالث. في ١٨٥٦، وقّعت معاهدة باريس، التي أنهت حرب القرم. وفي ١٨٥٧، وقعت أزمة مالية فادحة في فرنسا. وحملة فرنسية إنجليزية في الصين.



المحامي أنسيل



جين دوغال، رسم بودلير



السيدة ساباتييه



جين دوغال، رسم بودلير

وفي الآداب، وفاة هنريش هايني. وفاة المغني بيرانجييه، وألفريد دي موسيه، وأوجست كونت.

ألفريد دي فيني يعيش معتزلاً العالم، ويكمل الأجزاء الأخيرة من «الأقدار». فيكتور هوجو - المنفي في جورنيسي - ينشر، عام ١٨٥٦، «تأملات»، ويجهز الجزء الأول من «أسطورة القرون» (١٨٥٩). تيودور دي بانفيل ينشر «قصائد غنائية صغيرة» عام ١٨٥٦، و«أناشيد» في ١٨٥٧ لكونت دي ليل يقدم - عام ١٨٥٨ - الطبعة الثالثة من «قصائد» قديمة. ينشر فلوبيير - في ١٨٥٧ - «السيدة بوفاري». المؤرخ ميشليه يعكف على «تاريخ عصر النهضة والأزمان الحديثة» (١٨٥٥-١٨٦٧)، ويكتب «الطائر» (١٨٥٦)، و«الحشرة» (١٨٥٧).

في الفنون: عام ١٨٥٧، يدخل ديلاكروا المجمع؛ ويعمل بكنيسة «سانت - آنج». كورويعرض لوحة «حفلة موسيقي ريفي»؛ وكورييه - الذي رسم عام ١٨٥٥ «ورشة العمل» التي يظهر فيها بودليير - يعرض «الآنسات على شاطئ السين». بدايات الرّسام والحفّار ويستلر في باريس، حيث سيحظى برعاية بودليير.

بناء القاعات المركزية لباريس من ١٨٥٤ إلى ١٨٦٦ تنظيم جديد لباريس على يد الحاكم هوسمان. برليوز يكتب أوبرا «الطرواديون» من ١٨٥٥ إلى ١٨٦٣. وجونو سيحقق انتصاراً كبيراً في الأوبرا بـ «فاوست» ١٨٥٨

٤ فبراير؛ تسليم مخطوط «أزهار الشر» إلى بوليه - مالاسي عبر مراسله الباريسي؛ حيث يقيم مالاسي في ألسون التي يدير فيها مطبعة عائلية بمشاركة دي برواز.

مارس؛ نشر الجزء الثاني من ترجمته لبو تحت عنوان «حكايات عجيبة جديدة». والنسخة تباع بفرنك واحد.

٢٠ أبريل؛ «لا روفي فرانسيز» (La Revue Française) تنشر عددا من القصائد التي ستظهر لاحقا في «أزهار الشر».

٢٨ أبريل؛ الجنرال أوبيك يتوفى في مسكنه. يتقدم بودليير جنازة الجنرال،

سفير فرنسا وعضو مجلس الشيوخ، وخلفه ممثل الإمبراطور وأعضاء مجلس الشيوخ وبقية المشيعين. ولم يترك الجنرال لزوجته سوى دخل سنوي محدود، لتوافق الحكومة - بطلب منها - على تقديم منحة سنوية لها قدرها ٦ آلاف فرنك.

١٠ مايو؛ «لارتيست» تنشر قصائد من «أزهار الشر» الذي يجري طبعه.

٢٥ يونيو؛ صدور «أزهار الشر»، في ١٣٠٠ نسخة، وبيع بثلاثة فرنكات للنسخة.

٥ يوليو؛ تعود «لو فيجارو» إلى شن الهجوم على بودلير، وتدعو إلى ملاحقة الديوان قضائياً. وفيها يكتب جوستاف بوردان عن «أزهار الشر»:

«لم يشهد المرء أبداً إهداراً - بمثل هذا الجنون - لمثل هذه القدرات الرفيعة. فثمة لحظات يتشكك المرء فيها بالحالة العقلية للسيد بودلير؛ ولحظات أخرى لا يعترى المرء فيها أي شك: إنه، في معظم الأوقات، التكرار الرتيب والعمدي للألفاظ نفسها، وللأفكار نفسها.. والقيح في ذلك يقترن بالدنيء؛ والمنفر في ذلك يبلغ النتن. فلم ير المرء قَضماً قط بل مضغاً، لكل هذه الأثداء في مثل هذه الصفحات القليلة؛ أبداً لم يشهد المرء استعراضاً مماثلاً للشياطين، والأجنّة، والأبالسة، واليرقان، والقطط والهوام.

فهذا الكتاب مستشفى مفتوحة لكل العاهات العقلية، وكل انحلالات القلب؛ وليت ذلك كان من أجل علاجها، لكنها مستعصية.

وكان ممكناً فهم أن خيال شاعر في الثانية والعشرين من عمره قد انساق إلى مثل هذه الموضوعات، لكن لا يمكن أبداً التماس العذر لرجل تجاوز الثلاثين من عمره على نشره كتابا يحمل مثل هذه الفظاعات».

يكتب إلى أمه: «إني سعيد تقريباً لأول مرة في حياتي. فالكتاب جيدٌ تقريباً، ولسوف يبقى، هذا الكتاب، شهادةً على قرفي وحقدي على سائر الأشياء».

٧ يوليو؛ يتم تقديم بودلير وناشريه - بوليه - مالا سي ودبرواز - إلى المحاكمة بتهمة انتهاك الأخلاق العامة. وتطالب النيابة العامة بحذف ١٠ قصائد، ست

منها بحجة إهانة الأخلاق العامة: الجواهر، ليشيه، إلى تلك المبتهجة للغاية، ليسبوس، نساء ملعونات، تحولات مصاصة الدماء؛ وأربع بحجة إهانة الأخلاق المسيحية: إنكار سان بيير، هابيل وقايل، ابتهالات الشيطان، خمر القاتل.

١١ يوليو؛ بودلير يكتب إلى بوليه - مالا سي لينبهه إلى المصادرة الوشيكة لنسخ «أزهار الشر»: «أسرع، فلتخبي، لكن فلتخبي جيداً، كل الطبعة؛ [...] فلتبق فحسب على ٥٠ نسخة لتغذية الحارس الشرس، العدالة..»

١٤ يوليو؛ إدوار تييري ينشر مقالاً في «لومونيتور» (Le Moniteur) يخصه لمديح ديوان بودلير. يلجأ سانت - بييف إلى التزام الصمت الكامل، ولا يخط حرفاً لصالح بودلير، على الرغم من مكانته المؤثرة وعلاقته الوطيدة بالشاعر.

١٨ أغسطس؛ للمرة الأولى، يكتب بودلير إلى السيدة ساباتييه رسالة بتوقيعه الشخصي، يرجو فيها تدخلها إلى جانبه بحكم علاقاتها ببعض الشخصيات الهامة: «كانت الإمبراطورة تقف إلى جانب فلوبيير. وأنا بحاجة إلى امرأة؛ ويعترف لها «كل القصائد الواردة بين صفحتي ٨٤ و ١٠٥» (في الديوان المصادر) تتعلق بك».

٢٠ أغسطس؛ بعد مرافعة ممثل النائب العام إرنست بينار (الذي سبق أن ترافع - كممثل للدعاء - ضد «السيدة بوفاري» لفلوبيير، في بداية العام نفسه)، ودفاع المحامي شيه ديستانج، تقضي محكمة الجنج بأن بودلير وناشريه «مذنبون».. وتغريم بودلير ٣٠٠ فرنك، وكل من الناشرين ١٠٠ فرنك، مع حذف ٦ قصائد من تلك المذكورة في عريضة الاتهام (ليسبوس، نساء ملعونات، ليشيه، إلى تلك المبتهجة للغاية، الجواهر، تحولات مصاصة الدماء).

٢٤ أغسطس؛ بعنوان «قصائد ليلية»، تنشر «لو بريزو» (Le Présent) ست قصائد نثر قصيرة لبودلير.

٣٠ أغسطس؛ من دي جيرنيسي هوجو يكتب إلى بودلير: «أزهارك تشع

وتتألق كالنجوم.. ولسوف تتلقى أحد الأوسمة النادرة التي يمنحها النظام الحقيقي.. وما يقال من أن القضاء قد أدانك باسم ما يقال إنه الأخلاق لهو إكليل إضافي لك».

٣١ أغسطس؛ في فندق صغير بشارع روسو الضيق، تأتي إليه ساباتيه بلا ورقة توت. ويعجز بودلير عن تحويل العلاقة الخيالية، الأفلاطونية، إلى علاقة جنسية. يكتب لها: «قلت لك بالأمس «ستسينيني، ستخونيني؛ فمن يُمتلِك سيضجرُك. [...] فمنذ بضعة أيام، كنت إلهة، وهو ما كان مريحًا للغاية، ما كان جميلًا للغاية، ما كان منيعًا. وها أنت الآن امرأة...». وستظل علاقته بها - فيما بعد - في حدود الصداقة.

١ و ١٥ أكتوبر؛ تنشر «لو بريزو» مقالات بودلير التي تحمل عنوان «بعض رسامي الكاريكاتير الفرنسيين والأجانب».

١٨ أكتوبر؛ ينشر في «لاريتست» دراسته عن فلوبيير و«السيدة بوفاري».

٦ نوفمبر؛ بودلير يكتب إلى الإمبراطورة يلتمس منها تخفيض الغرامة التي حكم عليه بها بسبب «أزهار الشر».

١٥ نوفمبر؛ «لو بريزو» تنشر قصائد جديدة لبودلير، ستجد مكانها من بعد في الطبعتين الثانية والثالثة من «أزهار الشر».

٣١ ديسمبر؛ بودلير يلتمس معونة مالية من وزير المعارف العمومية.

يكتب إلى أمه: «يأس عظيم وإحساس لا يُطاق بالعزلة، وخوف أبدي من كارثة غامضة، وشك كامل بقواي، وانعدام تام للرغبات، واستحالة العثور على أية تسلية. إن النجاح الغريب الذي لقيه كتابي وما أثاره من أحقاد قد أثارت اهتمامي برهة من الزمن، ثم عدت فسقطت بعد ذلك.. ولا شك أنني عندما أتذكر أنني تعرضت من قبل لحالات مماثلة ونهضت منها فإني لا أقلق كثيرًا؛ لكنني لا أتذكر أيضًا أنني تدهورت أبدًا إلى هذه الدرجة، وتجرجرت مثل هذا الزمن الطويل في الضجر».

جوستاف فلوبيير: السيدة بوفاري. ج. كوربيه: لوحة «الآنسات على شاطئ

السين». كورو: لوحة «حفل موسيقي ريفي». فاجنر يؤلف - في فينيسيا -
«تريستان وإيزولده».

خضوع منطقة القبائل الجزائرية للقوات الفرنسية. انتفاضة في الهند ضد
الإنجليز.

١٨٥٨: يناير؛ آلام في الساقين، يسير بصعوبة، اختناقات، ومتاعب في الهضم.

١٨ يناير؛ وزير المعارف العمومية يوافق على منح بودلير إعانة بمبلغ ١٠٠
فرنك، باعتباره مترجم «حكايات عجيبة جديدة».

٢٠ يناير؛ غرفة الجنج السادسة تقوم بتخفيض الغرامة المفروضة على مؤلف
«أزهار الشر» إلى ٥٠ فرنكا، بعد رسالته إلى الإمبراطورة.

نهاية فبراير، بودلير يحتد على آنسيل، الوصي القضائي عليه، الذي تتصادم
رقابته الرعناء مع كبرياء بودلير. أبلغ أمه بنيته إهانة آنسيل.

٢٠ مارس/ ٤ أو ٥ أبريل؛ بودلير يقيم في كوربي، لتصحيح مسودات الجزء
الثالث من ترجمته لبو التي يصدرها ميشيل ليقي في هذه المدينة.

نهاية أبريل؛ صدور ترجمة «مغامرات آرثر جورودون بيم» لبو.

١٩ سبتمبر؛ «لارتيست» تنشر سوناتا «مبارزة».

٣٠ سبتمبر؛ «لا روفي كونتومبرين» (La Revue contemporaine) تنشر
دراسته عن الحشيش (الجزء الأول من «الفرايس الاصطناعية»).

نهاية أكتوبر، يقيم لدى جين دوغال، التي لم تقطع علاقته بها تمامًا، رغم
العديد من القرارات بالقطيعة.

يكتب في ١٠ نوفمبر إلى كالون: «أزهار الشر» الجديدة بدأت (...).
فالمحكمة لا تطلب إلا استبدال ست قصائد. ربما سأضع عشرين. والأساتذة
المحتجون سيكتشفون بألم أنني كاثوليكي غير قابل للتقويم. وسأحاول أن
أكون مفهومًا تمامًا: تارةً بالغ الهبوط وتارةً بالغ السمو. وبفضل هذا النهج،



جين دوغال، حبيبة بودلير، من أعمال مانيه

LES

FLEURS DU MAL

CHARLES BAUDELAIRE

Il est un peu d'été dans les rues de Paris
Il est un peu d'été dans les rues de Paris
Il est un peu d'été dans les rues de Paris
Il est un peu d'été dans les rues de Paris
Il est un peu d'été dans les rues de Paris
Il est un peu d'été dans les rues de Paris
Il est un peu d'été dans les rues de Paris
Il est un peu d'été dans les rues de Paris

Chapman & Co. 10, rue de la Harpe, Paris



PARIS

POULET-MALASSIS ET DE BROISE

LIBRAIRES-ÉDITEURS

4, rue de Buci.



بوليه - مالاسي

غلاف الطبعة الأولى من «أزهار الشر»

سأستطيع الهبوط حتى العواطف المقرزة. ولن يكون هناك سوى ذوي سوء النية المطلقة الذين لن يدركوا لاشخصانية شعري المقصودة».

١٨٥٩: في هذه الفترة، فيما يبدو، بدأ بودلير كتابة ملحوظات بهدف إصدار كتاب لن يكتمل، وستنشر شذراته ومقطوعاته، بعد وفاته، تحت عنواني «صواريخ» و«قلبي عاريًا».

٩ يناير؛ «لارتيست» تنشر مقالاً لبودلير عن مجموعة قصصية لشارل أسيلينو.

٢٠ يناير؛ «لا رووفي فرانسيز» (La Revue Française) تنشر قصيدتين لبودلير («الممسوس» و«مذاق العدم»).

فبراير؛ وزير المعارف العمومية يوافق على منح بودلير «مكافأة» جديدة على ترجمته «حكايات عجيبة جديدة» لبو.

٢٣ فبراير؛ من أونفلير-التي يقيم فيها الآن- يرسل إلى مكسيم دي كام قصيدة «الرحلة» التي يهديها إليه، والتي ستظهر في الطبعة الثانية من «أزهار الشر».

١٠-١٢ مارس؛ ترجمة جديدة لبو تنشر في «لا رووفي فرانسيز».

١٣ مارس؛ «لارتيست» تنشر دراسته عن تيوفيل جوتييه.

١٥ مارس؛ «لا رووفي كونتومبرين» تنشر قصيدته «رقصة جنائزية».

٥ أبريل؛ جين دوغال تصاب بالشلل، وتنقل إلى المصحة. ويتولى بودلير تدبير نفقاتها العلاجية.

١٠ أبريل؛ ثلاث قصائد تنشر في «لا رووفي فرانسيز» (سيزينيا، الرحلة، طائر القطرس).

٢٠ أبريل؛ «لا رووفي فرانسيز» تنشر ترجمة أخرى لبو.

١٩ مايو؛ جين دوغال تخرج من المصحة.

٢٠ مايو؛ «لا رووفي فرانسيز» تنشر قصيدة «خصلة الشعر».

١٠ يونيو/ ٢٠ يوليو؛ بالمجلة نفسها، بودلير ينشر «رسالة عن صالون ١٨٥٩».

سبتمبر؛ «لا روفي إنترناسيونال» (La Revue internationale) تنشر قصيدتي «الشيوخ السبعة» و«العجائز القصيرات».

أكتوبر؛ «لا روفي إنترناسيونال» - التي تصدر شهرياً من جنيف - تبدأ في نشر ترجمة جديدة قام بها بودلير لأحد أعمال بو: إيوريكا (Eureka)، وسيتواصل النشر حتى يناير ١٨٦٠

نوفمبر- يوليو؛ الناشر بوليه - مالاسي ينشر، في كتيب، دراسة بودلير عن تيوفيل جوتييه، مسبوقة برسالة من فيكتور هوجو أشاد فيها بشاعر «أزهار الشر» لأنه خلق «عرشة جديدة» في الشعر الفرنسي.

٣٠ نوفمبر؛ ثلاث قصائد لبودلير تنشر في «لا روفي كونتومبرين» («القناع»، و«أنشودة الخريف»، و«سوناتا الخريف»).

فيكتور هوجو: أسطورة القرون (الحلقة الأولى). داروين: أصل الأنواع. جونو: فاوست.

حفر قناة السويس.

١٨٦٠: ١ يناير؛ بودلير وبوليه - مالاسي يوقعان عقدًا بنشر أربعة أعمال (طبعة جديدة من «أزهار الشر»، و«الفراديس الاصطناعية»، و«طرائف جمالية»، وكتاب من الملاحظات الأدبية)، على أن يطبع من كل عمل ١٥٠٠ نسخة مقابل ٣٠٠ فرنك للمؤلف عن كل كتاب، يُدفع نصفها مع تسليم المخطوط إلى الناشر، والنصف الآخر مع التوقيع على أمر الطباعة.

١٥- ٣١ يناير؛ «لا روفي كونتومبرين» تنشر مقال بودلير «مدمن أفيون» (الجزء الثاني من «الفراديس الاصطناعية»).

٧ فبراير؛ إعانة جديدة لبودلير بمبلغ ٣٠٠ فرنك من وزير المعارف العمومية عن مقالاته عن الفن.

١٧ فبراير؛ يكتب إلى فاجنر - بعد حضوره عددًا من حفلاته بباريس قدمت خلالها «تانهاوزر» و«لوينجرين» - ليعرب له عن «أعظم متعة موسيقية أحس بها على وجه الإطلاق».

مايو؛ صدور «الفرايس الاصطناعية» في ١٢٠٠ نسخة بدلاً من ١٥٠٠ نسخة، المنصوص عليها في العقد مع بوليه - مالا سي.

١٥ مايو؛ «لا روئي كونتومبرين» تنشر ٥ قصائد لبودلير.

١٥ أكتوبر؛ «لارتيست» تنشر ٨ قصائد لبودلير («كيمياء الألم»، «رعب متعاطف»، «ساعة الحائط»، «العميان»، «إلى عابرة»، «طيف»، «أغنية الأصيل»، «ترنيمه إلى الجمال»).

١٥ نوفمبر؛ وزير المعارف العمومية يوافق لبودلير على «إعانة أدبية» بمبلغ ٢٠٠ فرنك.

هيبوليت تين: لافونتين وخرافاته. إ. لايش: رحلة السيد بيريشون. بيرتوليه: كيمياء عضوية.

لينكولن رئيسًا للولايات المتحدة.

١٨٦١: بداية فبراير؛ صدور الطبعة الثانية من «أزهار الشر» في ١٥٠٠ نسخة، بدون القصائد الممنوعة، وبإضافة ٣٥ قصيدة جديدة، وبمبلغ ٣ فرنكات للنسخة.

في مارس، يكتب إلى بوليه - مالا سي: «منذ أمد بعيد وأنا أقف على حافة الانتحار. وما يمنعني هو سبب بعيد عن الجبن وحتى عن الأسف. إنها الكبرياء التي تمنعني من أن أترك قضايا معقدة لم تُحل بعد. ولسوف أترك ما يكفي لتسديد الديون... وأنت تعرف أنني لست بكأء ولا كاذبًا. لكنني وقعت منذ شهرين بشكل خاص في بلادة ويأس يبعثان على القلق. أحسست نفسي مصابًا بنوع من المرض على غرار جيران (دي نرفال)، وهو الخوف من عجزني من الآن فصاعدًا عن التفكير أو كتابة سطر واحد. ومنذ أربعة أو خمسة أيام فقط توصلت إلى التحقق من أنني لم أمت من هذه الناحية. وذلك أمر عظيم».

ويكتب إلى أمه: «آه، يا أمي العزيزة، أئمة وقت بعدُ للسعادة؟ لا أجرؤ على تصديق ذلك؛ أربعون سنة، ومجلس وصاية، وديون ضخمة، وأخيرًا - وذلك أسوأ شيء - إرادة ضائعة مفسدة. من يدري ما إذا كان الفكر نفسه قد فسد؟ لا أدري شيئًا، ولا أستطيع أن أدري بعد الآن، ما دمت قد فقدت حتى القدرة على الجهد (...) إذا ما كان ثمة رجل قد عرف، وهو شاب، السأم وروح التشاؤم، فذلك الرجل هو أنا بالتأكيد. ومع ذلك فلديَّ رغبة في الحياة، وأريد أن أعرف الأمان قليلاً، والمجد، والرِّضا الذاتي. لكن ثمة شيئاً رهيباً يقول لي: أبداً؛ ومع ذلك، فثمة شيء آخر يقول لي: جَرِّبْ». لكنه لم يجد الجرأة الكافية على إرسال الرسالة، لتبقى في أوراقه.

١ أبريل؛ «لا روفي أوروبيين» (La Revue européenne) تنشر دراسة هامة لبودليير عن فاجنر، ثم تنشر - في مايو - له «ريتشارد فاغنر و«تانهاوزر» في باريس».

٣ أبريل؛ الكونت والفسكي، وزير الدولة، يوافق لبودليير على إعانة بمبلغ ٣٠٠ فرنك.

أبريل - مايو؛ الوضع المالي لبودليير في غاية الصعوبة، وحالته النفسية في الحضيض، وتفكير في الانتحار.

يكتب إلى أمه، في ٦ مايو: «أنا موجودٌ أبداً، دون أن تُشكِّي في ذلك، على حافة الانتحار (...) نحن مقدر علينا بكل تأكيد أن يحب بعضنا بعضاً، أن نعيش الواحد للآخر.. ومع ذلك، ففي ظل هذه الظروف الرهيبة التي أقع حالياً تحت وطأتها، تواتيني القناعة بأن أحداً سيقتل الآخر، وأنا سنقتل بعضنا بعضاً في نهاية المطاف.. إني وحيد، دون أصدقاء، ودون عشيقة، ودون كلب أو قط. فلمن أشكو أمري؟ ليست لديَّ سوى صورة أبي الأخرس أبداً»

١٥ يونيو؛ «لا روفي فانتايزيست» (La Revue fantaisiste) تبدأ في نشر سلسلة من ملاحظات بودليير التي تستهدف تكوين أنطولوجيا شعرية، تحت

عنوان «تأملات في بعض المعاصرين لي»، تخصص الحلقة الأولى لفيكتور هوجو.

يوليو؛ بودلير يقرر ترشيح نفسه للأكاديمية الفرنسية.

يوليو - أغسطس؛ «لا روئي فانتازيست» تنشر مقالات بودلير عن ثمانية شعراء معاصرين، من بينهم جوتييه وهوجو ولوكونت دي ليل وبانفيل.

١٥ سبتمبر؛ «لا روئي أوروبين» تنشر ٤ قصائد لبودلير، و«لا روئي فانتازيست» تنشر مقاله عن الرسوم الجدارية لديلاكروا.

١٥ أكتوبر، «لا روئي فانتازيست» تنشر مقالاً له عن «الشهداء الحمقى» لليون كلاديل.

١ نوفمبر؛ «لا روئي فانتازيست» تنشر ٩ قصائد نثر لبودلير.

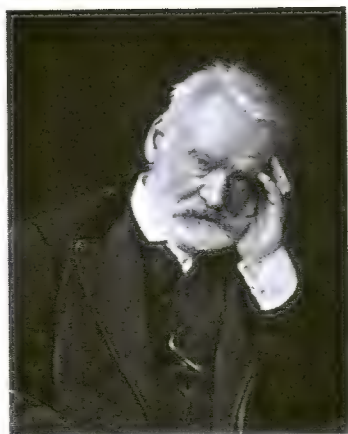
١١ ديسمبر؛ بودلير يخبر السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية بترشحه لشغل أحد المقاعد الشاغرة، طمعاً في احتلال كرسي لاكوردير المتوفى حديثاً. حاول سانت - بيغ وموسيه إقناعه بالعدول عن الفكرة. ويقوم بزيارات تقليدية قبل نهاية العام إلى فيني ولامارتين وفيينيه وفيلمان وباتان.

الأخوان جوناكور: الأخت فيلومين. تنازلات محدودة من نابليون الثالث للمجلس التشريعي.

١٨٦٢: النصف الثاني من يناير؛ بودلير ينشر مقالاً بدون توقيع في «روئي أنيكدوتيك» (Revue anecdotique) بعنوان «إصلاح الأكاديمية».

في الفترة نفسها تقريباً، بودلير يكتشف «واقعة بشعة»، لا يريد البوح بها لأحد. والاحتمال الأقرب إلى الواقع أنه اكتشف أن الشقيق المزعوم الذي يعيش مع جين دو فال ليس سوى «حبيب القلب».

٢٣ يناير؛ بودلير يكتب في مذكراته: «لقد غذيت هيسيريته بالبهجة والرعب. واليوم، خضعت لإنذار فريد، أحسست بريح جناح الحمامة تمر عليّ».



فيكتور هوغو



فیرلین

١ مارس؛ «لارتيست» تنشر العديد من قصائد بودلير.

٢٠ أبريل؛ بودلير ينشر في «لو بولفار» (Le boulevard) مقالاً عن «البؤساء» لفكتور هوجو.

بداية أغسطس؛ صدور الجزء الرابع من «شعراء فرنسيون» ليوجين كريبيه، وفيه سبع مقالات قصيرة لبودلير وسبع قصائد له مصحوبة بمقال لجوتيه.

١٢ سبتمبر: يتم القبض على بوليه - مالا سي، ناشر «أزهار الشر» لعجزه عن تسديد ديونه، فيلجأ فيما بعد إلى بلجيكا.

٢٦ أغسطس - ٢٤ سبتمبر؛ «لابريس» (La presse) تنشر عشرين «قصيدة نثر قصيرة» لبودلير (من بينها ١٤ قصيدة جديدة).

لوكونت دي ليل: قصائد بربرية. فيكتور هوجو: البؤساء. دورانتي: قضية جيوم الجميل. فيي دي ليل - آدام: إيزيس. فوكو يقيس سرعة الضوء.

حملة المكسيك. محاولة غاريبالدي ضد روما. بسمارك يصبح رئيس الحكومة.

١٨٦٣: ١٣ يناير؛ بودلير يمنح الناشر هيتزل الحق الحصري - ولمدة خمس سنوات - لكتاب شعري (طبعة ثالثة، مزيدة أيضاً، من «أزهار الشر»)، وديوان من قصائد النثر (سأم باريس). يقضي العقد بأن يتم طبع ألفي نسخة من كل منهما؛ على أن ينال المؤلف - عن كل كتاب - ٦٠٠ فرنك يتسلمها لدى توقيع العقد (لكن هيتزل لا يتسلم أبداً العملين).

١ نوفمبر؛ ميشيل ليفي يحصل - مقابل ألفي فرنك - على الحقوق الكاملة لترجمات بودلير لأعمال إدجار آلان بو (ثلاثة أجزاء منشورة، وجزءان على وشك الصدور).

قصائد النثر تُنشر في عدد من الصحف والمجلات على مدى العام.

يكتب إلى أمه، بخصوص «قلبي عارياً» الذي ما يزال مشروعاً تحت التنفيذ: «إيه حسناً! نعم، هذا الكتاب الذي حلمتُ كثيراً به سيكون كتاباً من الأحقاد. (...) إنني أريد أن أدفع إلى الإحساس بلا هوادة بأنني أشعر كغريب على

العالم ومعتقداته. سأواجه ضد فرنسا كلها موهبتي الحقيقية في التضارب. إنني بحاجة إلى الانتقام مثلما يكون الرجل المُرْهَق بحاجة إلى استحمام».

١٨٦٤: ٧ - ١٤ فبراير؛ الفيجارو تبدأ نشر «سأم باريس»، لكنها تقطع النشر بعد ٦ قصائد. كتبرير لذلك، مدير الصحيفة يخبر بودلير أن قصائده قد «أصابَت العالم كله بالسأم».

٢٤ أبريل؛ يتوجه بودلير إلى بروكسيل، لإلقاء سلسلة من المحاضرات.

٢ - ٢٣ مايو؛ يقدم ٥ محاضرات للوسط الأدبي والفني عن ديلاكروا وجوتيه والمنبهات. لا حضور في المحاضرات الثلاث الأولى، بما يدفع إدارة «حلقة الفنون»، صاحبة الدعوة، إلى وقف السلسلة وإرسال مائة فرنك إليه بدلاً من ثلاثمائة.

١٢ مايو؛ «عزيزي مانيه، أشكرك على رسالتك الودودة. فلتقدم محبتي إلى أمك وزوجتك، وإذا ما كان لك أن تبلغني بأشياء طيبة عن مصير لوحاتك، فلتكتب لي. إنني أرد على تهانيك. البلجيكيون أغبياء، كذبة ولصوص. لقد كنت ضحية للخداع الأكثر وقاحة. هنا، الغش هو قاعدة ولا يُشِينُ أبداً. إنني لم أتصدَّ بعدُ للمسألة الكبيرة التي جئتُ من أجلها، لكن كل ما يحدث لي هو شؤمٌ تاماً، - [...] لا تصدق أبداً ما سيُقال لك عن طيبة القلب البلجيكية. مكيدة، ريبة، حفاوة زائفة، فظاظة، احتيال، نعم...»

نهاية مايو؛ رحلة خاطفة إلى نامور البلجيكية، لمقابلة فنان الحفر فيليسيان روب.

٢٣ يونيو؛ الناشران لأكروا وفيربويشهوفين - المقيمان في بروكسيل - يرفضان الأعمال التي اقترحاها عليهما بودلير.

أغسطس؛ يقوم بجولة لزيارة المدن الكبرى البلجيكية لتوثيق كتابه «بلجيكا البائسة!».

بداية ديسمبر؛ يقيم لدى روب في مدينة نامور.

ألفريد دي فيني: الأقدار (بعد الوفاة). أ.رودان: الرجل ذو الأنف المكسورة.

ماكسيميليان إمبراطوراً على المكسيك. تأسيس الأممية. حرب بروسية ضد الدانمرك.

١٨٦٥: يناير؛ «لو موند اليلستريه» (Le Monde illustré) تنشر ترجمة بودلير لعمل بو «نظام الدكتور جودرون والأستاذ بليم»، لكن الحقوق المالية تتول إلى ميشيل ليقي الذي سبق أن اشترى جميع حقوق ترجماته لبو.

٣ يناير؛ «أمي العزيزة، لست بحاجة إلى أبهة هذا اليوم، بالغ الكآبة وسط كل أيام السنة، كي أفكر فيك، وأفكر في واجباتي وكل المسؤوليات التي راكمتها على نفسي منذ أعوام كثيرة. واجبي الرئيس، بل الوحيد، سيكون أن أجعلك سعيدة. إنني أفكر في ذلك بلا انتهاء. ألن يكون ذلك مسموحاً لي؟ أفكر أحياناً، برعشة، أن الله يمكنه أن يسترد مني فجأةً هذه الإمكانية. إنني أعدك أولاً بأن هذه السنة... إنني أتخرج خجلاً عندما أفكر في كل المخصصات التي فرضتها عليك. أعدك أيضاً أنه لن يمر يوم في السنة بلا عمل. بالتأكيد، لا بد للمكافأة أن تكون في النهاية. فلديّ العقل المفعم بأفكار كثية. وكم هو صعب أن يقوم المرء بواجبه طول الوقت، بلا أي انقطاع! كم هو صعب، لا التفكير في كتاب، بل الكتابة بلا إعياء؛ وفي النهاية، امتلاك الشجاعة، طول الوقت! لقد حسبت أن كل ما كان لديّ في رأسي - منذ وقت طويل - لن يكبدني سوى خمسة عشر شهراً من العمل، فيما لو عملتُ بدأب. كم مرة قلتُ لنفسي، على الرغم من أعصابي، على الرغم من الأوقات السيئة، على الرغم من الدائنين، على الرغم من الضجر والوحدة؛ فلنرَ، فلا تشجع...! والنتيجة المثمرة ربما ستأتي... كم مرة منحني الله بالفعل رصيد خمسة عشر شهراً! وعلى الرغم من ذلك، فكثيراً ما قطعْتُ، كثيراً جداً، حتى الآن، تنفيذ كل مشروعاتي. فهل سيكون لديّ الوقت (بافتراض أنني سأمتلك الشجاعة) لإصلاح كل ما ينبغي عليّ إصلاحه! لو كنتُ متأكدًا، على الأقل، من امتلاكي لخمس أو ست سنوات أمامي! لكن مَنْ على يقين من ذلك؟ هناك، بالنسبة لي الآن، فكرة ثابتة، هي فكرة الموت، غير المصحوبة برعب ساذج، - لقد عانيتُ كثيراً حتى الآن، وتم عقابي كثيراً إلى حد أنني أعتقد أن كثيراً من

الأشياء يمكنها أن تكون غفرانًا لي، لكنه علي الرغم من ذلك مقيت، لأنه سيحيل كل مشروعاتي إلى عدم، ولأنني لم أنفذ بعد ثلث ما عليّ أن أفعله في هذا العالم. لقد تنبأت بلا شك برعبي من عبور باريس بلا نقود، من البقاء في باريس، جحيمي، ستة أو سبعة أيام وحيدًا، دون تقديم ضمانات معينة إلى بعض الدائنين. لقد علمني منفاي عبور كل الأخطاء الممكنة. تنقصني الطاقة الضرورية للعمل غير المنقطع. وعندما أتوفر عليها، سأكون فخورًا وأكثر سكينه. عندي أمل طيب. وتعرفين كل ما سأنشر. وا أسفاه! كم من أشياء متأخرة!...

١ فبراير؛ شاعر شاب، ستيفان مالارميه، ينشر في «لارتيست» «سيمفونية أدبية» تكرس - في جانب منها - لبودلير.

منتصف مارس، ميشيل ليقي يصدر الجزء الخامس من أعمال بو، من ترجمة بودلير: «حكايات ساخرة وجادة».

٤ - ١٥ يوليو؛ العودة إلى باريس من بروكسيل، بعد عام من الغياب عن باريس.

أكتوبر؛ بودلير يرثي لحالته «الخاملة» التي تدفعه إلى التشكك في قدراته. فمند ١٤ شهرًا، لم يستطع إنجاز أي عمل مما كان قد وعد بتسليمه.

نوفمبر - ديسمبر؛ بول فيرلين ينشر في «لار» (L'Art) مديحا لبودلير.

ديسمبر؛ آلام عصبية عنيفة، أفيون، وغيره.

١٨٦٦: يناير؛ حالات دوار، وآلام عصبية، وغثيان. وكيله الأدبي - المسئول عن التفاوض بخصوص أعماله - لا يحقق أي شيء. بودلير يطلب من الوصي القضائي أنسيل أن يتصل باسمه بنشرين مختلفين.

٥ مارس؛ بعد معرفته متأخرًا بالمدائح التي وجهها إليه الشبان غير المعروفين، مالارميه وفيرلين، يكتب بودلير إلى جول تروبا، سكرتير سانت - بييف: «هؤلاء الشبان يبشون فيّ الخوف من الكلاب. لا أحب سوى البقاء وحيدًا».

١٥ مارس؛ يتوجه إلى نامور بصحبة روب وبوليه - مالا سي. في اليوم التالي،

تظهر عليه متاعب في المخ. يصطحبه صديقه إلى بروكسيل؛ يصاب جانبه الأيمن بالشلل، ويصبح حديثه صعبا ومشتتا.
٢٠ مارس؛ الرسالة الأخيرة بخط يد بودلير.

٣١ مارس؛ تحت عنوان «أزهار الشر الجديدة»، تنشر «بارناس كونتومبوران» (Parnasse contemporain) ١٦ قصيدة جديدة لبودلير، تالية للطبعة الثانية من «أزهار الشر».

٣- ١٩ أبريل؛ العجز عن الكلام والتعبير يتزايد. بودلير يعالج في مصحة بيروكسيل. يقوم بزيارته الوصي القضائي آنسيل وأمه التي تبلغ الثانية والسبعين.

نهاية أبريل - يونيو؛ ينتقل إلى فندق جراند ميروار، ويداوم على زيارته بوليه - مالا سي والرسام جوزيف ستيفنس. بوليه - مالا سي يقوم بنشر كتيب شعري لبودلير في بروكسيل، تحت عنوان «البقايا» في ٢٦٠ نسخة، فيما كان بودلير ما يزال قادرا على تصحيح مسودات الطباعة. الكتيب يضم ٢٣ قصيدة، من بينها القصائد الست المدانة عام ١٨٥٧ الغلاف من رسم روب، وبودلير «تتملكه فرحة الأطفال لرؤيته الكتيب».

٢ يوليو؛ بودلير يغادر بروكسيل إلى باريس في صحبة أمه وخادمتها والرسام جوزيف ستيفنس.

٤ يوليو؛ بعد قضاء يومين في الفندق، يتم نقل بودلير إلى مصحة الدكتور إيميل دوغال للعلاج بالماء.

الصيف؛ بناء على عريضة بادر بها أسيلينيو ووقعها بانفيل وشامفلوري ولوكونت دي ليل وميريميه وسانت - بييف وساندو، يوافق وزير المعارف العمومية على المشاركة في نفقات إقامة بودلير في مصحة دوغال. زوجته بول موريس وإدوار مانيه تأتيان لتعزفأله ألحان فاجنر على البيانو.

العدد الأول من «البارناسي المعاصر». فيرلين: قصائد زحلية. فيكتور هوجو: عمال البحر. دستوفسكي: الجريمة والعقاب.

هزيمة النمسا في موقعة سادوفا من بروسيا المتحالفة مع إيطاليا.

١٨٦٧ : ٣١ أغسطس؛ يتوفى بودلير في الحادية عشرة صباحًا، بعد عذاب طويل. في اليوم نفسه، تبدأ «روفي ناسيونال» (Revue nationale) في نشر المجموعة الأخيرة من قصائد نثر قصيرة.

٣ سبتمبر؛ إقامة الطقوس الدينية، ودفنه في مقبرة مونبارناس. بانقيل وآسيلينو يلقيان كلمتين أمام قبره.

إميل زولا: تيريز راكان. كارل ماركس: رأس المال.

١٨٦٨ : ٦ مايو؛ محكمة الجنح بمدينة ليل تحكم على بوليه - مالاسي - ناشر «البقايا» - بالسجن عامًا، وغرامة ٥٠٠ فرنك، وتأمير بإتلاف النسخ المضبوطة من الكتيب المنشور في بلجيكا منذ عامين.

ديسمبر؛ ميشيل ليقي يصدر الطبعة الأولى من «طرائف جمالية» والطبعة الثالثة من «أزهار الشر»، بمقدمة لتيوفيل جوتييه، وتضم ١٥١ قصيدة.

١٨٦٩ : ميشيل ليقي ينشر الطبعات الأولى من «الفن الرومانتيكي» و«قصائد نثر قصيرة». شارل آسيلينو ينشر دراسة ممتازة في السيرة الذاتية والنقد: شارل بودلير، حياته وعمله.

١٩٤٩ : ٣١ مايو؛ إلغاء حكم الإدانة على «أزهار الشر» بصورة رسمية من محكمة فرنسية.

Ch. Daubigny

توقيع بودلير

موقف بودلير

بقلم بول فاليري

بودلير في قمة مجده.

إن الكتاب الصغير، «أزهار الشر»، الذي لا يزيد عن ثلاثمائة صفحة، يفوق في القيمة، بالمعيار الأدبي، أكثر الأعمال ضخامةً وشهرة. لقد تُرجم إلى غالبية اللغات الأوروبية. وهي حقيقة سأتوقف عندها برهةً، لأنها - فيما أعتقد - بلا سابقة في تاريخ الأدب الفرنسي.

فالشعراء الفرنسيون عمومًا محدودون في الشهرة والتقدير في الخارج. فنحن - بسهولة أكبر - رواد في النثر بالإجماع؛ لكن التفوق الشعري لا يُمنح لنا إلا على مضض. إن النظام والتصلب اللذين هَيَّمَا على لغتنا منذ القرن السابع عشر، وبَرَّنا الفريد، وعروضنا الصارم، ونزعتنا للبساطة والوضوح المباشر، وخوفنا من المغالاة والعبثية، كنوع من التواضع في تعبيرنا والنزعة المجردة لفكرنا، قد أفضت إلى شعر يختلف بصورة كبيرة عن شعر الأمم الأخرى، ويجعله صعبَ المنال بالنسبة لهم. فلا فونتين يبدو بلا طعم بالنسبة للأجانب. وراسين كتابٌ مغلق. وتناغماته مفرطة في البراعة، وحبكته مفرطة في النقاء، ولغته مفرطة في الأناقة، مفرطة في الامتلاء بالضوء والظل، حتى لتبدو بلا حيوية لمن لا يمتلك معرفةً حميمةً بلغتنا. بل إن فيكتور هوغو نفسه ليس معروفًا بالكاد في الخارج إلا برواياته.

لكن مع بودلير، فإن الشعر الفرنسي يجتاز أخيرًا حدودنا. إنه يُقرأ عبر العالم؛

يحتل مكانه باعتباره الشعر المميز للحدادة؛ يشجع على التقليد، ويثري أذهاناً فوق الحصر. فأشخاص مثل سوينبرن، وجابريل دانونزو، وستيفان جورج ينطوون على شهادة رائعة على التأثير البودليري في البلدان الأجنبية.

ولهذا فيمكنني القول إنه بالرغم من احتمال وجود شعراء فرنسيين أعظم وأقوى موهبةً من بودلير، فلا أحد أهم منه.

فمن أين تأتي هذه الأهمية الاستثنائية؟ كيف كان لرجل بالغ الفردة، انفصل عن العادي إلى هذا الحد، أن يكون قادرًا على توليد مثل هذه الحركة واسعة الانتشار؟

هذه الشعبية العظيمة بعد الوفاة، هذا الثراء الروحي، هذا المجد الأسمى، لا بد أنه لا يعتمد فحسب على قيمته الخاصة كشاعر، لكن أيضًا على ظروف استثنائية. فالذكاء النقدي المرتبط بالكفاءة الشعرية هي هذا الطرف. فبودلير مدينٌ لهذا التحالف النادر باكتشاف رئيسي. لقد وُلِدَ حسبيًا ومُدَقَّقًا؛ كان يتمتع بحساسية قادته ضروراته إلى تحقيق أرهف التجارب الشكلية؛ لكن هذه المواهب كان لها أن تجعله غريمًا لجوتيه أو فنائًا باريبيًا ممتازًا، إن لم يُقَدِّه فضوله العقلي إلى اكتشاف عالم ثقافي جديد في أعمال إدجار آلان بو. شيطان الاستبصار، عبقرى التحليل ومبدع الأجد، تلك التوليفات الأكثر إغواءً بين المنطق والخيال، بين الصوفية والحساب، والمحلل النفسي للاستثنائي، المهندس الأدبي الذي درس واستفاد من كل ينابيع الفن - لهذا تجلَّى بوله، وأفعمه بالإعجاب. رؤى كثيرة أصيلة ووعود خارقة سحرته؛ بها تشكلت موهبته، وتغير بصورة رائعة مصيره.

وسأعود بعد قليل إلى تأثيرات هذا التماس السحري بين عقليين. لكنني الآن لا بد أن أتأمل الطرف الثاني اللافت للانتباه في تشكيل بودلير.

لقد بلغ الرجولة فيما كانت الرومانتيكية في ذروتها؛ جيل مبهر يهيمن على إمبراطورية الأدب. لامارتين، هوجو، موسيه، فيني كانوا سادة الوقت.

فلتضع نفسك في موقف شاب بلغ سن الكتابة في ١٨٤٠ لقد تربى على الكتاب الذين كانت غريزته تأمره - بصورة مستبدة - بأن يُزيلهم. ووجوده الأدبي الذي استثير

وتغذّي عليهم، وارتعش من شهرتهم، وتحدد بأعمالهم، محكوم بالضرورة - على الرغم من ذلك - بنفيهم، بالإطاحة بهم، وإزاحة هؤلاء الأشخاص الذين بدوا له محتلين لكل المواقع الملائمة للشهرة ومنكرين له: الأول: عالم الأشكال. الثاني: عالم المشاعر. الثالث: التصويرية. الرابع، العمق.

كانت القضية تكمن في تمييز نفسه بأي ثمن عن مجموعة من شعراء عظام جمّعهم ضربةٌ مصادفةٌ ما - بصورة استثنائية - بكامل الفاعلية في الفترة نفسها.

لعل مشكلة بودلير آتخذ، ربما كان لا بد لها أن تتحدد هكذا: «حتى تكون شاعرًا عظيمًا فينبغي ألا تكون لامارتين ولا هوجو ولا موسيه». ولا أقول إن هذه الكلمات قد قيلت بصورة واعية، لكن الفكرة لا بد أنها وُجدت داخل بودلير. بل إنها بالضرورة هي بودلير. كانت «المصلحة العليا» له. ففي مجالات الإبداع، وهي أيضًا مجالات الكبرياء، فإن الحاجة إلى تمايز المرء لا يمكن أن تفصل عن الوجود ذاته. لقد كتب بودلير في مشروع مقدمته لأزهار الشر: «إن شعراء مشهورين تقاسموا منذ أمدٍ بعيد أكثر الأقاليم ازدهارًا في المجال الشعري. لقد بدا لي ذلك سارًا، بل ممتعًا أكثر لأن المهمة كانت أصعب...»^(١)

باختصار، فقد انقاد مجبرًا، بفعل حالته الروحية ومحيطها، بصورة متزايدة الوضوح، إلى معارضة النسق، أو غياب النسق، المسمّى بالرومانتيكية.

ولن أحدد هذا المصطلح. فلمحاولة فعل ذلك سيكون من الضروري فقدان كل معنى للدقة. ومهمتي الحالية تكمن فحسب في إعادة صياغة ردود الفعل والحدوس الأكثر احتمالاً لدى شاعرنا «في حالة الميلاد»، عندما جُوبه بأدب عصره. ومنه تلقى بودلير انطباعًا معينًا يمكن لنا إعادة صياغته بلا عناء كبير. حقًا، بفضل سياق الزمن والتطورات الأدبية الأخيرة - بل بفضل بودلير، بفضل عمله ونجاحه - فإننا نمتلك أدوات مؤكدة وبسيطة لتقديم تحديد صغير لفكرتنا الضبابية بالضرورة، المقبولة أحيانًا، والاعتباطية تمامًا أحيانًا أخرى، عن الرومانتيكية. يكمن هذا النهج في ملاحظة ما تلى الرومانتيكية، وفيه اختلف، وصحح وتناقض معها، وفي النهاية احتل مكانها. ويكفي أن نتأمل الحركات والأعمال التي نتجت بعدها وضدها، وأيًا

(١) راجع التّصوّص الكاملة لمشروعات مقدمة «أزهار الشر» في قسم «الملاحق»، في نهاية هذا الكتاب.

منها كان استجابةً دقيقةً، آليةً، حتميةً لما كانته. ولهذا، فقد اعتُبرت الرومانتيكية، آنئذٍ، ما ناقضته الطبيعية، وما جمّعت البارناسية قواها ضده؛ كانت ما حدد نزعة بودلير الخاصة. لقد كانت هي التي حفزت ضد نفسها - في آنٍ واحدٍ غالبًا - إرادة الكمال، وصوفية «الفن للفن» - تلك الحاجة إلى الملاحظة والرصد غير الشخصي للأشياء؛ باختصار، الرغبة في مادة أكثر صلادةً وشكل أكثر نقاءً ورهافة. ولا شيء يلقي الضوء على الرومانتيكية أكثر من مجموع برامج ونزعات خلفائها.

أيمكن أن تكون مثالب الرومانتيكية هي فحسب التساهلات غير المنفصلة عن الثقة بالنفس؟... إن مراهقة الأشياء الجديدة هي دائمًا - إلى حدٍّ ما - مُدَّعية. ولا تتبدّى الحكمة، والدقة، وباختصار الكمال، إلّا عندما يتم الاقتصاد في القوة.

وأياً ما قد يكون ذلك، فقد بدأت مرحلة الشك مع شباب بودلير. كان جوتيه قد احتج فعلاً واتخذ رد فعل ضد رخاوة الشروط الشكلية، وفقر أو هلامية اللغة. وسرعان ما كان كل واحد بطريقته، سانت - بيف وفلوبير ولوكونت دي ليل، يشهر السلاح ضد السهولة مشبوبة العاطفة، والتنافر الأسلوبى، والإفراط في السذاجة والغرابة... لقد قَبِل البارناسيون والواقعيون بخسارة ما كسبوه في العمق، وفي الحقيقة، وفي القيمة التقنية والثقافية، من خلال الكثافة الظاهرية، والوفرة، والآلية الخطائية.

والخلاصة، فإنني سأقول إن حلول «مدارس» متنوعة محل الرومانتيكية يمكن اعتباره حلولاً للفعل التأملى محل العفوى.

إن التناج الرومانتيكي - بصورة عامة - لا يساعد على قراءة بطيئة غير متعاطفة من قِبَل قارئ صعب ومثقف.

وبودلير كان هذا القارئ. كانت لبودلير المصلحة العظمى - مصلحة حيوية - في التقاط، ولفت الانتباه، والمبالغة في نقاط ضعف ورَلَّات الرومانتيكية التي تم رصدها عن كُثْب في أعمال وشخصيات رجالها العظام. الرومانتيكية في أوجها، كان يمكن أن يقول، ولذا فهي قاتلة؛ وكان قادراً على اعتبارهم آلهة وأنصاف آلهة ذلك اليوم، على نحو ما كانت تنظر عيون تاليران وميترينخ المتشككة، حوالي ١٨٩٧، إلى سادة العالم...

هكذا نظر بودلير إلى فيكتور هوجو، وليس من المستحيل أن نحس ماذا كان يفكر فيه. كان هوجو مهمناً؛ لقد امتلك - فوق لامارتين - مزية مواد عمل أكثر قوة وتحديداً

بصورة لانهائية. فالمدى الشاسع لمعجمه، وتنوع إيقاعاته، والغزارة المفرطة لصوره، قد سحقت كل شعر غريم. لكن عمله أحياناً ما قدم تنازلات إلى السوقي، وفقد نفسه في بلاغة نبوية ومناجيات لانهائية. تعابث مع الجمهور، وانغمس في حوارات مع الله. وبساطة فلسفته، وتفاوت وتنافر السياقات، والتباينات الكثيرة بين أعاجيب التفصيـلة وهشاشة الموضوع، وتنافر الكل - كل شيء، باختصار، الذي يمكن أن يصدم فيعلم بالتالي ويوجه مراقباً شاباً عديم الرحمة نحو فنه الشخصي المستقبلي - كل هذه الأشياء كان لبودلير أن يرصدها داخله، ويفصلها عن الإعجاب المفروض عليه بفعل مواهب هوجو السحرية، البذات، والوقاحات، والنقاط القابلة للطعن في عمله - أي إمكانات الحياة وفُرس الشهرة التي خلفها فنان عظيم ليم التقاطها.

وبعض المكر وبراعة أكثر قليلاً من اللازم، فسوف يكون مغرياً أن نقارن شعر هوجو بشعر بودلير، بهدف تبيان كيف كان الأخير استكمالاً للأول. ولن أقول أكثر من ذلك. فمن الواضح أن بودلير كان يسعى إلى تحقيق ما لم يحققه هوجو؛ وأنه أحجم عن كل الفعاليات التي كان هوجو منيعاً فيها؛ وأنه عاد إلى عروض أقل حريةً ومتنول بصورة مدققة من النثر؛ وأنه سعى، ودائماً ما توصل في الغالب إلى سحر لا يتكسر، تلك القيمة عصية المنال وشبه المتعالية لبعض القصائد - لكنها القيمة التي لا نلقاها إلا نادراً، وقلماً في حالتها الصافية، في العمل الضخم لهوجو.

وفضلاً عن ذلك، فلم يُدرك بودلير، أو أدرك بالكاد، فيكتور هوجو الأخير، مبدع الأخطاء القصوى والروائع الرفيعة. لقد صدرت «أسطورة القرون» بعد عامين من صدور «أزهار الشر». أما بالنسبة لأعمال هوجو الأخيرة، فلم تُنشر إلا بعد وفاة بودلير بوقت طويل. وفيها تكمن أهمية تقنية أرفع بصورة لانهائية من كل قصائد هوجو الأخرى. وليس ذلك هو الموضع، كما أنني لا أملك الوقت، لتوضيح هذه الفكرة. فلن أقدم إلا مُسودةً لاستطراد مُحتمل. فما يدهشني - لدى فيكتور هوجو - هو طاقته الحيوية التي لا نظير لها. والطاقة الحيوية هي طول العمر والقدرة على العمل متحدتين - طول العمر مضاعفاً بالقدرة على العمل. فخلال أكثر من ستين عاماً، كان هذا الرجل الاستثنائي يجلس إلى مكتبه من الخامسة صباحاً حتى الظهر يومياً! كان يسعى بلا هوادة إلى تحقيق تركيبات لغوية جديدة، وأن يفرضها، ويلح عليها ويحس بالرضا لدى سماعه لاستجابتها. لقد كتب مائة أو مائتي ألف بيت

من الشعر، واكتسب بذلك المراس غير المنقطع نهجاً غريباً في التفكير قدّره النقاد السطحيون بأفضل ما استطاعوا. لكنه هوجو، خلال عمله الطويل هذا، لم يكل قطّ عن تحقيق وتدعيم نفسه في فنه؛ ولا شك أنه أخطأ أكثر فأكثر في الانتقاء، وفقد أكثر فأكثر الإحساس بالتناسبات، وأعاق شعره بألفاظ هلامية، غامضة ومتقلبة، رصّعها بسهولة وغزارة كبيرتين بـ«الهاوية» و«اللانهاية» و«المطلق»، إلى أن فقدت هذه الكلمات الرهيبة حتى مظهر العمق الذي أسبغها عليها الاستخدام. ومع ذلك، فإيا لها من قصائد مذهلة كتبها في الفترة الأخيرة من حياته - قصائد بلا نظير في الامتداد، في التنظيم الخارجي، في الجرس، في الكمال! في «وتر الفولاذ»، و«الله»، و«نهاية إبليس»، وقصيدته عن وفاة جوتيه، فإن الفنان ذا السبعين عاماً - الذي شهد كل غرمائه يموتون، ورأى جيلاً كاملاً من الشعراء يُولد منه، بل إنه سيستفيد من الدروس عصية المنال التي يلقتها التلميذ للأستاذ إذا ما عاش الأستاذ - بلغ ذروة القوة الشعرية ونبالة معرفة نظم الشعر.

لم يكف هوجو أبداً عن التعلّم بالممارسة؛ لكن بودلير - الذي يتجاوز مدى حياته بالكاد نصف عُمر هوجو - تطور بطريقة أخرى تماماً. ويمكن القول إنه كان عليه تعويض قِصر والقصور المنتظر للمدى الزمني المحدود الذي كان عليه أن يعيشه، بتوظيف ذلك الذكاء النقدي الذي سبق أن تحدثتُ عنه. إن حساب السنين قد سمح له ببلوغ قمة كماله، وأن يكشف مجاله الشخصي، ويحدد شكلاً وتوجهاً معينين سيحملان ويحفظان اسمه. كان ثمة افتقار للوقت ليحقق طموحاته الأدبية بتجارب متعددة ونتاج كثيف من أعماله. وكان عليه أن يختار الطريق الأقصر، وأن يحدّ من نفسه في تلمس طريقه، وأن يكون مقتصدًا في التكرارات والتشعبات. ولهذا، كان عليه أن يبحث بأدوات التحليل عن نفسه، وعمّا يستطيع أن يفعل، وعمّا يريد أن يفعل؛ وأن يتوحد - داخله - مع الفضائل العفوية للشاعر، الشكوكية، والانتباه، والقدرة الاستنباطية للناقد.

ذلك هو السبب في أن بودلير، على الرغم من أنه رومانتيكي في الأصل، بل رومانتيكي حتى في الذوق، يبدو أحياناً كلاسيكياً. وثمة طرق لانهاية لتحديد مفهوم الكلاسيكي، أو محاولة تحديده. لكننا سنتبنّى اليوم هذا المفهوم: الكلاسيكي هو كاتب يحمل داخله ناقداً ويوحده بصورة عميقة بعمله. فثمة بُوالو داخل راسين.

ومع ذلك، فما الذي كان يمكن اختياره من الرومانتيكية، وكيف كان يمكن التمييز فيها بين خير وشر، زائف وحقيقي، مثالب وفضائل، إن لم يكن على المرء أن يتعامل مع كتاب النصف الأول من القرن التاسع عشر على نحو ما تعامل رجال لويس الرابع عشر مع كتاب القرن السادس عشر؟ إن كل كلاسيكية تتحل رومانسية مُسبقة. وكل المميزات التي أُسيغت على الفن «الكلاسيكي»، وكل الاعتراضات التي وُجّهت إليه، مرتبطة بهذه البديهة. فجوهر الكلاسيكية يكمن في أنه يأتي لاحقاً. نظام يتحل الفوضى ليهزمها. تكوين، هو البراعة، يعتمد هيوكل بدائية معينة من الحدوس والتجليات الطبيعية. والنقاء هو نتاج عمليات لانهاية في اللغة، والسعي وراء الشكل ليس سوى إعادة تنظيم تأملية لأدوات التعبير. فالكلاسيكي ينطوي بالتالي على القصدي، تلك الأفعال المُدبّرة التي تُحور النتائج «الطبيعي» وفقاً لمفهوم واضح وعقلاني للإنسان والفن. لكننا، كما علمتنا العلوم، لا يمكننا إتجاز عمل عقلاني ومركب بطريقة منظمة إلا من خلال مجموعة من التقاليد. ويتم إدراك الفن الكلاسيكي بوجود، ووضوح، وإطلاقية هذه التقاليد. وسواء ما إذا كان الأمر متعلقاً بالوحدات الثلاث، أم بالمبادئ العروضية، أم القيود اللفظية، فإن هذه القواعد الاعتبارية فيما يبدو هي ما تشكل قوته وضعفه. فالقليل الذي تم إدراكه اليوم ويصعب الآن الدفاع عنه، ومن المستحيل تقريباً رصده، إنما يصدر - مع ذلك - عن إدراك قديم، ومرهف، وعميق لشروط المتعة الثقافية الخالصة.

ويُذكرنا بودلير، في منتصف الرومانتيكية، بالكلاسيكي، لكنه يُذكرنا فحسب لا أكثر. لقد توفي شاباً، وعاش - فضلاً عن ذلك - في ظل الانطباع المقيت الذي أعطاه لأناس زمنه البقاء البائس على قيد الحياة للكلاسيكية القديمة للإمبراطورية. لم تكن أبداً مسألة نفخ الحياة فيما هو ميت بوضوح، بل ربما مسألة التوصل - بوسائل أخرى - إلى الروح التي لم تعد تسكن الجسد.

لقد تجاهل الرومانتيكيون - بصورة عملية - كل شيء يطالب بالفكر المركز. لقد بحثوا عن تأثيرات الصدمة، والحماسة، والتباين. فلا المعيار، ولا الدقة، ولا العمق قد أرقهم كثيراً. كانوا يمقتون تجريد الفكر والاستنباط - لا في أعمالهم فحسب، بل أيضاً في إعداد أعمالهم، وهو ما كان أكثر خطورة بصورة لانهاية. وبدا الفرنسيون

كانهم قد نسوا مواهبهم التحليلية. وجدير بالذكر أن نلاحظ أن الرومانتيكيين قد ثاروا ضد القرن الثامن عشر بأكثر مما ضد السابع عشر، وكالوا الاتهامات بالسطحية لأناس كانوا أكثر ثقافة بكثير منهم هم أنفسهم - أكثر حرصًا على معرفة الحقائق والأفكار، أكثر اهتمامًا بالدقة وبالفكر بالمعنى الأوسع.

ووقت أن كان العلم على وشك إنجاز تطورات استثنائية، أبدت الرومانتيكية حالة عقلية مضادة للعلم. فالعاطفة والإلهام اقتنعا بأنهما مكتفيان ذاتيًا.

لكن، تحت سماء مغايرة تمامًا، وسط أناس مشغولين بكليتهم بتطورهم المادي، وما يزالون لامبالين بالماضي، فيما يرتبون مستقبلهم ويمنحون الحرية الأكمل للتجارب من كل نوع، هناك ظهر - في الوقت نفسه تقريبًا - رجل كان له أن يتأمل أشياء العقل بوضوح، بتعقل، باستبصار لم نصادفه قط إلى هذه الدرجة في عقل موقوف على الإبداع الشعري. ومن بين هذه الأشياء الإنتاج الأدبي. فقبل بُو، لم يتم أبدًا بحث مشكلة الأدب في مقدماتها المنطقية، وإرجاعها إلى مشكلة سيكلوجية، والتعامل معها بأدوات تحليلية يتم خلالها توظيف منطق وآليات الوقائع بصورة مدروسة. فللمرة الأولى تتضح العلاقات بين العمل والقارئ، وتُقدّم باعتبارها أسس الفن الإيجابية. وهذا التحليل - وهذا الظرف يؤكد لنا قيمته - ينطبق ويتم إثباته بوضوح في كل مجالات الإنتاج الأدبي. والملاحظات نفسها، التحديدات نفسها، الرصد الكمي نفسه، الأفكار الموجّهة نفسها تكيف نفسها بالتساوي مع الأعمال المقرر أن تؤثر بقوة وقسوة على العواطف - لتغلب على جمهور يحب العواطف القوية والمغامرات الغريبة - وأرهف أنماط الأدب والتنظيم الدقيق لإبداعات الشاعر.

والقول بأن هذا التحليل يصلح للقصة القصيرة، شأن القصيدة، وأنه قابل للتطبيق على بنية التصوري والخيالي، شأن تقديم وإعادة تشكيل الممكن، إنما يعني أن عموميته جديرة بالملاحظة حقًا. وخصيصة ما هو عام هي خصوصته. فلبلوغ نقطة يسيطر المرء منها على مجال نشاط بكامله، فمن الضروري إدراك مجموعة من الاحتمالات والمجالات غير المستكشفة، والطرق الواجب اتباعها، والأراضي الواجب استغلالها، والمدن الواجب بناؤها، والعلاقات الواجب إقامتها، والمناهج

الواجب توسيعها. ولهذا، فلا يدهشنا أن يكون بو - وقد امتلك مثل هذا المنهج الفعال والراسخ - مبدعاً لمنوعات مختلفة عديدة، وأن يكون قد قدم المثل الأول والأكثر إدهاشاً للقصة العلمية، وللقصيدة الحديثة عن نشوء الكون، ورواية التحقيق الجنائي، ومقدمة لأدب الحالات النفسية المَرَضية، وأن يَنِم كل هذا العمل - في كل صفحة - عن ذكاء تتم ملاحظته إلى درجة بلا مثيل في أي عمل أدبي آخر. وكان لهذا الرجل العظيم أن يُنسى اليوم تماماً، لو لم يقدمه بودلير إلى الأدب الأوروبي. فلنلاحظ أن مجد بو العالمي ضعيف، أو ليس موضع نقاش إلا في بلده الأصلي وإنجلترا. فهذا الشاعر الأنجلوساكسوني قد أهمله بنو جنسه.

وثمة ملاحظة أخرى: إن بودلير وبو قد تبادلا القِيم. فكل منهما منح الآخر ما لديه، وتلقَّى منه ما ليس لديه. لقد أوصل الأخير (بُو) إلى الأول (بودلير) نسقاً كاملاً من الفكر الجديد والعميق. لقد أناره، وأثراه، وحدد أفكاره عن جملة موضوعات: فلسفة التأليف، نظرية المُصطنع، إدراك وإدانة الحديث، أهمية الاستثنائي والغريبة، النزعة الأرستقراطية، الصوفية، النزوع إلى الأناقة والدقة، حتى السياسة.. لقد تخصَّص بها بودلير، وألهم، وتعمَّق.

لكن، في مقابل ما أخذ، منح بودلير لفكر بُو اتساعاً لانهائياً. لقد قدمه إلى المستقبل. وقد كان سلوك بودلير، وترجمته، ومقدماته هي ما فتح ذلك الاتساع الذي - بكلمات مالارميّة العظيمة - يغير الشاعر في ذاته، ويضمنه لَعُزلة الشاعر التعتيس.

ولن أبحث ما يدين به كل هذا الأدب لهذا المبدع الرائع. فسواء ما إذا أخذنا جول فيرن وذريته، أو جابوريو ونظراءه، أو تأملنا - ضمن أساليب أرقى بكثير - إنتاج ديستوفسكي، فمن السهل أن نرى أن «مغامرات ج. جوردون بيرن» و«سر شارع مورج» و«ليجيا» و«القلب الواشي» كانت بالنسبة لهم نماذج تم تقليدها كثيراً، ودُرست بصورة شاملة، ولم يتم تجاوزها قط.

وأساءل فحسب عما قد يدين به شعر بودلير، والشعر الفرنسي عامةً، لاكتشاف أعمال بو. فبعض قصائد «أزهار الشر» تستمد إحساسها ومادتها من قصائد بُو. وبعضها يتضمن أبياتاً تمثل نقلاً دقيقاً؛ لكنني سأتجاهل هذه الاستعارات الخاصة التي لا تعدو أهميتها أن تكون - بمعنى ما - محلية. وأستبقي فحسب الاستعارات

الجوهرية التي تمثل الفكرة الحقيقية التي كَوَّنَهَا بُو عن الشعر. فمفهومه، الذي أعلنه في مقالات متعددة، كان العامل الرئيس في تغيير أفكار بودلير وفنه. إن اختمار نظرية التأليف في عقل بودلير، والدروس التي استخلصها منها، والتطويرات التي تلقتها من أسلافه الثقافيين - وخاصةً قيمتها الجوهرية العظيمة - تفرض علينا التوقف برهةً لتمحيصها.

ولن أخفي حقيقة أن أساس فكر بُو مرتبط بنسق ميتافيزيقي شخصي معين. لكن هذا النسق، إذا ما كان يوجه ويهيمن ويوحى بهذه النظريات، فإنه لا محالة يخترقها.

وقد تم التعبير عن أفكار بُو عن الشعر في مقالات متعددة، أهمها (لكنها تتعلق - على الأقل - بتقنية النظم الإنجليزي) تحمل عنوان «المبدأ الشعري». وقد فُتِن بودلير بعمق بهذه المقالة، وتلقى منها انطباعاً بالغ الكثافة، إلى حد أنه اعتبر محتواها - ليس المحتوى فحسب، بل الشكل نفسه - ملكيةً خاصةً به.

ولا يستطيع المرء أن يحول دون استحلال ما يبدو أنه بالضبط قد صُنع من أجله، رغمًا عن نفسه، فيعتبره قد صُنع بواسطته... إنه يميل - بصورة لا تُقاوم - إلى اقتباس ما يوافق شخصيته الخاصة بصورة حميمة؛ واللغة نفسها تنشر - باسم الملكية - فكرة ما قد تكيّف مع شخصٍ ما ويُشبعه تمامًا، مع فكرة ملكية هذا الشخص...

وعلى الرغم من أن بودلير قد استنار بنظرية «المبدأ الجمالي» واستحوذت عليه - أو بالأحرى لأنه استنار بها وتملكته - فلم يُضمّن ترجمته لهذه المقالة في أعمال بُو، لكنه قدم الجزء الأهم منها - بلا تغيير تقريباً - في مقدمة ترجمته لـ «حكايات عجيبة». وكان لهذه النزعة الانتحالية أن تكون محل نقاش، لو لم يلفت الكاتب نفسه - كما سنرى - الانتباه إليها: ففي مقالة عن تيوفيل جوتييه، أعاد بودلير إنتاج كل الجزء الذي نتحدث عنه، ليسبقه بهذه السطور المدهشة بالغة الوضوح: «من المسموح به أحياناً، فيما أعتقد، أن نقتبس من شخصٍ ما لتحاكى إعادة صياغة الشخص نفسه. وبالتالي سأكرر...». ثم يلي الجزء المستعار.

فماذا كانت إذن آراء بُو عن الشعر؟

سألخص باختصار آراءه. فهو يحلل الشروط السيكلوجية للقصيدة. ومن بينها، يضع في المقام الأول القصائد التي تعتمد على أبعاد الأعمال الشعرية. ويمنح أهميةً

استثنائيةً لاعتبار طولها. ويتقصّى - فضلاً عن ذلك - المفهوم الحقيقيّ لهذه الأعمال. ويثبت بسهولة أن هناك عددًا كبيرًا من القصائد تتعلق بأفكار كان يمكن للنشر أن يكون أداةً كافيةً لها. فلن يكسب التاريخ، ولا العلم، ولا الأخلاق من جراء نشرها في لغة الروح. وعلى الرغم من أن أعظم الشعراء قد بجلوا وكرسوا الشعر التعليمي، والشعر التاريخي أو الأخلاقي، إلا أنه يوحد بغرابة مادة المعرفة المنطقية أو التجريبية بإبداعات الكينونة الداخلية والقوى الانفعالية.

لقد أدرك بودلير أن على الشعر الحديث أن يتوافق مع نزوع عصرٍ يقيم تمايزًا حادًا متزايدًا بين الأشكال ومجالات النشاط. أدرك أنه يمكن أن يطالب بتحقيق هدفه وإنتاج ذاته، في حالة نقية، إلى حدٍّ ما.

وهكذا، بتحليل شروط المتعة الشعرية، وتحديد «الشعر المطلق» بـ«الاستنزاف»، أوضح بُو طريقةً وعلمَ مذهبًا صارمًا وفاتنًا، وحَدَّ فيه نوعًا من الرياضيات بنوع من الصوفية.

وإذا ما نظرنا الآن إلى «أزهار الشر»، وتكبدنا عناء مقارنة هذا الكتاب بأعمال شعرية أخرى من نفس المرحلة، فلن يدهشنا أن نجد عمل بودلير متسقًا - بصورة ملحوظة - مع مفاهيم بُو، ومختلفًا بالتالي عن منتجات الرومانتيكية. فأزهار الشر لا يتضمن قصائد تاريخية ولا أسطورية؛ ولا شيء ينبنى على قصة. لا تحليق إلى الفلسفة. ولا ظهور هنا للسياسة. والوصف نادر ودائمًا وثيق الصلة بالموضوع. لكن كل شيء فاتن، الموسيقى والحسية القوية المجردة... «نِظَامٌ وَجَمَالٌ، تَرْفٌ، وَسَكِينَةٌ وَسَهْوَةٌ»^(١)

في أفضل أشعار بودلير، ثمة توحيد بين الجسد والعقل، ومزيج من الفخامة والحرارة والمرارة، من الأبدية والحميمية، وتضافرٌ نادر للغاية بين الإرادة والتناغم، وهو ما يميزها بوضوح على الشعر الرومانتيكي بقدر ما يميزها بوضوح عن الشعر البارناسي. ولم يكن بارناسوس عطوفًا إلى حدٍّ بعيد على بودلير. وأنبه لوكونت دي

(١) من قصيدة «الدعوة إلى السفر»، لبودلير. راجع ترجمتها الكاملة فيما يلي.

ليل على العُقم. لقد نسي أن الخصوبة الحقيقية للشاعر لا تكمن في عدد قصائده، بل في مدى تأثيراتها. ولا يمكن الحكم عليها إلا في سياق الزمن. فنحن نرى اليوم - بعد أكثر من ستين عامًا - صدى عمل بودلير الفريد والبعيد عن النسخ ما يزال يملأ العالم الشعري، وما يزال مؤثرًا، مستعصيًا على التجاهل، مدعمًا بعدد كبير من الأعمال التي تُستمد منه، دون أن تكون محاكاة، بل كثمار له. وبالتالي، وحتى نكون منصفين، فمن الضروري أن نضم إلى المجموعة النحيلة - «أزهار الشر» - أعمالاً عديدة من المستوى الرفيع، وعدداً من أعمق وأرهف التجارب التي قام بها الشعر. إن تأثير «قصائد عتيقة» و«قصائد بربرية»^(١) لهو أقل تنوعاً وأقل إدهاشاً.

ومع ذلك، فلا بد من إدراك أن هذا التأثير نفسه، لو كان قد مُرس على بودلير، لربما أثناه عن الكتابة، أو الاحتفاظ ببعض القصائد بالغة الضعف التي يمكن العثور عليها في ديوانه. فمن بين الأبيات الأربعة عشر لسوناتا «خشوع»، وهي إحدى القصائد الأكثر سحرًا، ثمة خمسة أو ستة أبيات، بالنسبة لدهشتي التي لا تنتهي، ضعيفة بصورة لا تُنكر. لكن البيت الأول والأخير من هذه القصيدة بَلَّغًا من السحر حد أننا لا نشعر بسخافة الجزء الأوسط، ومستعدون تمامًا لاعتباره عدمًا أو فراغًا. فلا يستطيع أن يحقق معجزة من هذا النوع إلا شاعر عظيم.

منذ برهه، تحدثت عن إنتاج «سحر»، والآن نطقت بكلمة «معجزة». فلا شك أن ثمة مصطلحات ينبغي استخدامها بصورة مقتصدة بسبب تشديدات معانيها والسهولة التي يمكن بها استخدامها؛ لكني لا أدري كيف يمكن استبدالهما إلا بمترادفين طويلين وجدالين... وسأظل مبهمًا، مقتصرًا على اقتراح ما يجب أن يكون. فلا بد من توضيح أن اللغة تنطوي على منابع شعورية ممتزجة بخصائصها العملية، الدالة بصورة مباشرة. ومسئولية، وعمل، ووظيفة الشاعر تكمن في استخراج وتفعيل قوى السحر تلك، منبهات الحياة الشعورية والحساسية العقلية تلك، التي تمتزج معًا في اللغة الاستعملية بإشارات وأدوات اتصال الحياة السطحية العادية. بذلك، يكرّس الشاعر نفسه ويستهلك ذاته في مهمة تحديد بناء لغة داخل اللغة؛ وهذه العملية، الطويلة والمرهفة، التي تتطلب تنوعًا في القدرات العقلية لا ينتهي، تنحو إلى تأسيس خطاب

(١) من أعمال لوكونت دي ليل، الشاعر الرومانتيكي الفرنسي (١٨٦٢).

الشخصية بصورة أكثر نقاءً، وأقوى وأعمق في أفكارها، وأكثر كثافةً في حياتها، وأكثر أناقةً ولباقةً في الحديث من أي شخص واقعي. وهذا الخطاب الاستثنائي يتجلى ذاتياً ويتم التعرف عليه بالإيقاع والتناغمات التي تغذيه، والتي لا بد أن ترتبط - بعمق وحتى بغموض - بأصلها، إلى حدٍّ ألاَّ يعود ممكناً أن ينفصل الصوت عن المعنى، متجاوبين مع بعضهما البعض بصورة لانهائية في الذاكرة.

ويدين شعر بودلير بديمومته والرقى الذي ما يزال يمتلكه إلى الكمال والصفاء غير العادي لجُرْسِه. أحياناً ما يتراجع هذا الصوت إلى البلاغة، على نحو ما تكرر - إلى حدٍّ ما - كثيراً في حالة شعراء تلك الحقبة؛ لكنه يحتفظ ويُثَمِّي - بصورة تدعو إلى الإعجاب - خطأً نغمياً صافياً وجَرَساً راسخاً بصورة خالصة تُمايزه عن كل نثر.

وفي ذلك، فقد اتخذ بودلير - سعيًا - ردَّ فعله ضد الاتجاه إلى الأسلوب النثري، الذي كان ملحوظاً في الشعر الفرنسي منذ منتصف القرن السابع عشر. وبلغت الانتباه أن الرجل - الذي ندين له بعودة الشعر إلى جوهره - هو أيضاً أحد الكتاب الفرنسيين الأوائل المهتمين بشغفٍ بالموسيقى. إنني أذكر هذا توجهه، الذي تجلَّى بالمقالات الشهيرة عن «تانهاوزر» و«لوينجرين»، بسبب التطور الأخير لتأثير الموسيقى على الشعر... «فما عمَّد الرمزية يتلخص ببساطة تامة في النية الشائعة لدى العديد من عائلات الشعراء لاسترداد ما ينتمي إليهم من الموسيقى».

ولأجعل محاولتي تفسير أهمية بودلير اليوم أقل تعميماً وأقل نقصاً، فلا بد أن أُمْتدعي الآن ما كانه كناقِد فني. لقد عرف ديلاكروا ومانيه. وسعى إلى تقييم مزايا أنجر وغريمه، مثلما قارن بين واقعتي كوربيه ومانيه بالغتي الاختلاف. أما بالنسبة لدوميه العظيم، فقد أكنَّ له إعجاباً شاركته فيه الأجيال التالية. ربما بالغ في قيمة قسطنطين جيز. لكن أحكامه، على العموم، التي يحفزها ويرافقها أكثر الاعتبارات وهافةً وجوهريةً في الرسم، تظل نماذج في مجالها، سهلةً بصورة بالغة، ولهذا فهي بالغة الصعوبة.

لكن المجد الأعظم لبودلير، على نحو ما أوضحْتُ في البداية، يكمن في أنه ألهم - بلا شك - شعراء عظاماً كثيرين. فلا فيرلين، ولا مالارمييه، ولا رامبو كان لهم أن يكونوا ما كانوا لو لم يقرأوا «أزهار الشر» في السَّن الفاصل. وسيكون من السهل

الإشارة - في هذه المجموعة - إلى قصائد ألقى شكلها ووحيتها ظلاً على قصائد معينة لفيرلين ومالارميه ورامبو. ولكن ذلك بالغ الوضوح إلى حدٍّ ألاَّ أدخل في التفاصيل. وسأقتصر على الإشارة إلى دلالة المزيج القلق، الحميم والقوي، للعاطفة الصوفية والتوقد الحسي الذي تنامي لدى فيرلين؛ وسُعار الهروب، ونفاد الصبر الذي استثاره الكون، والوعي العميق بالأحاسيس ورنينها المتناغم الذي يجعل إنتاج رامبو، المختصر والعنيف، مُفعماً بالطاقة والحيوية، حاضراً ويمكن تمييزه بوضوح لدى بودلير.

أما بالنسبة لستيفان مالارميه، الذي يمكن لقصائده الأولى أن تُعتبر أكثر أزهار الشر جمالاً وإحكاماً، فقد اتبع في أرهف خلاصاتها التجارب الشكلية والتقنية التي قام بو بتحليلها، وأوصلت إليه مقالات بودلير وتعليقاته عليها وعلمته أهميتها. ففيما اتبع فيرلين ورامبو بودلير في نظام الشعور والأحاسيس، دفع مالارميه أعماله قُدماً في إقليم الكمال والصفاء الشعري.

بول فاليري

Variétés, II, 1930.

Je me fends d'abord qu'il vaudrait mieux laisser
un peu toute la dédicace, de manière qu'il des se-
trouvât au milieu de la page, j'y laisse d'ailleurs
cela à votre goût. — ensuite, j'ai cru qu'il ferait

Je

AU POÈTE IMPECCABLE

bien de mettre

AU PARFAIT MAGICIEN DE LA LANGUE FRANÇAISE

Fleurs en

italiques, —

A MON TRÈS-CHER ET TRÈS-VÉNÉRÉ

en capitales

penchés, pour-

que c'est une

tête-callenbour.

MAÎTRE ET AMI

THÉOPHILE GAUTIER

Enfin, bien

que chacune

de ces lignes est

de G. lettres joint

dans de bonnes

proportions (chaque

relativement aux

autres) j'y trouve

toutes vos grosses;

AVEC LES SENTIMENTS

DE LA PLUS PROFONDE HUMILITÉ

JE DÉDIE

Le j'ai écrit
par le corps

CES FLEURS MALADIVES

C. B

Je crois que l'ensemble paraîtra en élégance si vous
prenez un peu un peu plus petit pour chaque ligne,
toujours en gardant l'importance proportionnelle.

Le C. B. seul un peu plus petit. —

— Il a remarqué que votre signature n'expliquait
pas le titre et le faux titre. C'est encore une chose
à laisser à votre goût — vous avez l'habitude de me
renvoyer la bonne feuille — je vous donne à biller, la

Bon à tirer Ch. Baudelaire.

إهداء
إلى الشاعر المعصوم

إلى السّاحر الرفيع في الأدب الفرنسي
إلى مُعلِّمي وصديقي الأعز والأجل

تيوفيل جوتييه

مع مشاعر
التواضع الأعماق
أهدي
هذه الأزهار العليّة
ش ب

إلى القارئ

الْحَمَاقَةُ، وَالْخَطَا، وَالْفُجُورُ، وَالشُّحُّ
تَحْتَلُّ أَرْوَاحَنَا وَتَسْتَوْلِي عَلَى أَجْسَادِنَا،
وَتُغْذِّي نَدَامَاتِنَا الْمَحْبُوبَةَ،
مِثْلَمَا يُغْذِّي الشَّحَادُونَ هَوَاهُمُ.

خَطَايَانَا عَنِيدَةٌ، وَنَدَمُنَا بَلِيدٌ؛
وَنَدْفَعُ ثَمَنًا بَاهِظًا لَاعْتِرَافَاتِنَا
وَنَعُودُ مُبْتَهِّجِينَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُوَحِّلِ،
مُعْتَقِدِينَ أَنَّ دُمُوعًا زَهِيدَةً تَغْسِلُ أَوْسَاحَنَا.

عَلَى وَسَادَةِ الشَّرِّ إِبْلِيسُ الْمُعْظَمُ
الَّذِي يُهْذِلُ طَوِيلًا أَرْوَاحَنَا الْمَسْحُورَةَ،
وَمُعْدِنُ إِرَادَتِنَا النَّفِيسِ
تَبَخَّرَ تَمَامًا عَلَى يَدِ هَذَا الْكِيمِيَائِيِّ الْعَلِيمِ.

هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يُمْسِكُ بِالْخُيُوطِ الَّتِي نَحْرُكُنَا!
فَنَجِدُ الْفِتْنَةَ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَقِيَّتَةِ،
وَنُنَحِّدِرُ كُلَّ يَوْمٍ خُطْوَةً إِلَى الْجَحِيمِ،
بِلَا هَلَعٍ، عَبْرَ الظُّلُمَاتِ الْآسِنَةِ.

هَكَذَا كَفَاجِرٍ بَائِسٍ يُقْبَلُ وَيَلْتَهُمُ
الثَّدْيِ الشَّهِيدَ لِعَاهِرَةِ عَتِيقَةٍ،
نَخْتَلِسُ - فِي الطَّرِيقِ - لَذَّةً مُحَرَّمَةً،
نَعْتَصِرُهَا بِقُوَّةٍ كَبِيرُ ثِقَالَةٍ قَدِيمَةٍ.

مُتَرَاصِبِينَ، مُتَرَاحِمِينَ، كَمِلْيُونِ دُودَةٍ مَعْوِيَةٍ،
يُعَرِّبُدُ فِي عُقُولِنَا حَسَدٌ مِنَ الْجِنِّ،
وَعِنْدَمَا نَتَنَفَّسُ، يَنْحَدِرُ الْمَوْتُ إِلَى رِثَائِنَا،
نَهْرًا خَفِيًّا مَعَ الْأَنَاتِ الصَّمَاءِ.

وَإِذَا مَا كَانَ الْاِغْتِصَابُ، وَالسُّمُّ، وَالْخِنْجَرُ، وَالْحَرِيقُ،
لَمْ تُوشَّ بَعْدُ بِرُسُومِهَا الْهَازِئَةِ
اللَّوْحَةَ التَّافِهَةَ لِمَصَائِرِنَا الْبَائِسَةِ،
فَلَأَنْ أَرْوَاحَنَا - لِلْأَسَفِ - لَا تَمْلِكُ الْجُرْأَةَ الْكَافِيَةَ.

لَكِنَّ بَيْنَ أَتْنَاءِ آوَى، وَالْفُهُودِ، وَكِلَابِ الصَّيْدِ،
وَالْقُرُودِ، وَالْعَقَارِبِ، وَالْعُقَابِ، وَالْأَفَاعِي،
وَالْوُحُوشِ الْعَاوِيَةِ، وَالنَّابِحَةِ، وَالْمُزْمَجِرَةِ وَالزَّاحِفَةِ،
فِي مَعْرِضِ الْوُحُوشِ الشَّائِنِ لِحَطَايَانَا،

هُنَاكَ مَا هُوَ أَكْثَرُ بَسَاعَةً، وَفَطَاطَةً، وَقَدَارَةً!
على الرغم من أَنَّهُ لَا يُصْدِرُ حَرَكَاتٍ وَاضِحَةً وَلَا صَرَخَاتٍ فَادِحَةً،
وَيُمْكِنُهُ أَنْ يُحِيلَ الْأَرْضَ إِلَى أَطْلَالٍ
وَيَبْتَلِعَ فِي إِحْدَى ثَنَائُوبَاتِهِ الْعَالَمَ؛

إِنَّهُ الضَّجَرُ! - تِلْكَ الْعَيْنُ الْمَغْرُورِقَةُ بِدَمْعٍ لَا إِرَادِي،
تَحْلُمُ بِالْمَسَانِقِ وَهِيَ تُدَخِّنُ النَّارَ جِيلَةً.
تَعْرِفُهُ، أَيُّهَا الْقَارِئُ، هَذَا الْوَحْشَ الرَّهِيْفَ،
- أَيُّهَا الْقَارِئُ الْمُتَأَفِّقُ، - يَا شَبِيهِي، - يَا شَقِيقِي!

سَامُ وَمِثَالُ

بِرْكَه

عِنْدَمَا تَجَلَّى الشَّاعِرُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الضَّجِرِ،
 بِقَرَارٍ مِنَ الْقُوَى الْعُلْيَا،
 أَشْهَرَتْ أُمُّهُ الْمَذْعُورَةَ الطَّافِحَةَ بِالتَّجْدِيفِ
 قَبَضَتْهَا نَحْوَ الرَّبِّ، الَّذِي يُشْفِقُ عَلَيْهَا:

- «آه! لِمَ لَمْ أَضَعُ حَشْدًا مِنَ الْحَيَّاتِ
 أَفْضَلَ مِنْ إِرْضَاعِ هَذَا الْمَسْخِ!
 فَالْلَعْنَةُ عَلَى لَيْلَةِ الْمَلَذَّاتِ الْعَابِرَةِ
 الَّتِي حَمَلَتْ فِيهَا بَطْنِي كَفَّارَتِي!

«وَطَالَمَا أَنَا أَخْتَرْتَنِي مِنْ بَيْنِ كُلِّ النِّسَاءِ
 لِأَكُونَ مَوْضِعَ اشْمِئزَازِ زَوْجِي الْحَزِينِ،
 وَلَا تَنِي لَا أَسْتَطِيعُ رَمِي هَذَا الْمَسْخِ الضَّامِرِ
 فِي النَّارِ، مِثْلَ رِسَالَةِ حُبٍّ،

«سَأَصُبُّ كَرَاهِيَتَكَ الَّتِي تُثْقِلُنِي
عَلَى الْأَدَاةِ اللَّعِينَةِ لِشُرُورِكَ،
وَسَأَقْطَعُ تَمَامًا هَذِهِ الشَّجَرَةَ الْبَائِسَةَ،
فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْمُوَ بِرَاعِمِهَا الْمَوْبُوءَةِ!»

هَكَذَا تَبْتَلِعُ زَيْدَ كَرَاهِيَتِهَا،
وَإِذَا لَا تَعْيِي الْأَقْدَارَ الْأَبَدِيَّةَ الْمَرْسُومَةَ،
تَرْوَحُ تُعَدُّ بِنَفْسِهَا فِي قَاعِ الْجَحِيمِ
الْمُحَرَّقَةِ الْخَاصَّةِ بِالْجَرَائِمِ الْأُمُومِيَّةِ.

لَكِنْ، تَحْتَ حِمَايَةِ مَلَائِكِ خَفِيَّةٍ،
يَسْكُرُ الطِّفْلُ الْمَحْرُومُ بِالشَّمْسِ،
وَفِي كُلِّ مَا يَشْرَبُ وَيَأْكُلُ
يَجِدُ الرَّحِيقَ وَمَاءَ الْحَيَاةِ الْوَرْدِي.

يَلْعَبُ مَعَ الرِّيحِ، يَتَكَلَّمُ مَعَ الْغَيْمِ،
يَتَشَبَّهِ بِالْإِنْشَادِ لِطَرِيقِ الصَّلِيبِ؛
وَالرُّوحُ الَّتِي تَتَّبَعُهُ فِي طَوَافِهِ
تَبْكِي مِنْ رُؤْيَايَتِهِ سَعِيدًا مِثْلَ عُصْفُورِ الْعَابَةِ.

أَمَّا مَنْ كَانَ يَهْفُو إِلَى حُبِّهِمْ فَيُرَاقِبُونَهُ بِوَجَلٍ،

أَوْ مُجْتَرِّينَ عَلَى سَكِينَتِهِ،
يَنَحْنُونَ عَمَّا يَدْفَعُهُ إِلَى الْعَوِيلِ،
وَيُمَارِسُونَ عَلَيْهِ وَحْشِيَّتَهُمْ.

وَفِي الْخُبْزِ وَالْخَمْرِ الْمَرْصُودِ لِقَمِهِ
يَمَزْجُونَ الرَّمَادَ وَالْبَصَاقَ الْقَذِرَ؛
وَبِنْفَاقٍ يَزُمُونَ كُلَّ مَا يَلْمَسُ،
وَيَلُومُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى وَضْعِ أَقْدَامِهِمْ عَلَى خُطَاهِ.

وَتَضْرُحُ زَوْجَتُهُ فِي السَّاحَاتِ الْعَامَّةِ:
«طَالَمَا يَرَانِي جَمِيلَةً إِلَى حَدِّ الْجَدَارَةِ بِالْعِبَادَةِ،
فَسَأَتَّخِذُ مِهْنَةَ الْمَعْبُودَاتِ الْقَدِيمَةِ،
وَمِثْلَهُنَّ، أُرِيدُ أَنْ أَتَحَلَّى بِالذَّهَبِ؛

«وَسَأَسْكُرُ بِالنَّارِ دِينَ وَالْبُخُورِ وَالْمُرِّ،
بِالرُّكُوعِ، بِاللَّحُومِ وَالْخُمُورِ،
لَأَعْرِفَ قُدْرَتِي - وَأَنَا صَاحِبَةٌ - عَلَى اغْتِصَابِ
الْقَرَابِينِ السَّمَاءِيَّةِ مِنَ الْقَلْبِ الْمُعْجَبِ بِي!

«وَعِنْدَمَا أَضْجَرُ مِنْ هَذِهِ الْهَزْلِيَّاتِ الْكَافِرَةِ،
سَأَضْعُ عَلَيْهِ يَدَيِ الْهَشَّةِ الْقَوِيَّةِ؛

وَأَظْفِرِي الشَّيْبَهُ بِأَظْفِرِ الْخَفَافِيشِ،
سَتَشُقُّ طَرِيقَهَا حَتَّى قَلْبِهِ.

«وَمِثْلُ عُصْفُورٍ صَغِيرٍ يَرْتَعِشُ وَيَرْتَجِفُ
سَأَنْتَزِعُ هَذَا الْقَلْبَ الْأَحْمَرَ مِنْ صَدْرِهِ،
وَلَأُشْفِي غَلِيلِي الْغَيْبِي،
سَأُزِمِيهِ لَهُ عَلَى الْأَرْضِ بِإِزْدِرَاءٍ!»

إِلَى السَّمَاءِ، حَيْثُ تَرَى عَيْنُهُ عَرْشًا رَائِعًا،
يَرْفَعُ الشَّاعِرُ الْوَادِعُ ذِرَاعَيْهِ فِي وَرَعٍ،
وَالْبُرُوقُ الشَّاسِعَةُ لِرُوحِهِ الصَّافِيَةِ
تَحْجُبُ عَنْهُ مَرَأَى الْحُشُودِ الْهَائِجَةِ:

- «مُبَارَكُ أَنْتَ، يَا رَبُّ، يَا مَنْ تَمْنَحُ الْأَكْمَ
كَثْرِيًا قِ سَمَاوِيٍّ لِقَدَارَاتِنَا
وَكَالْجَوْهَرِ الْأَنْقَى وَالْأَرْقَى
الَّذِي يُهَيِّئُ الْأَقْوِيَاءَ لِلْمَلَكَّاتِ الْقُدْسِيَّةِ!

«أَعْرِفُ أَنَّكَ تَحْفَظُ بِمَكَانٍ لِلشَّاعِرِ
فِي صُفُوفِ الْأَبْرَارِ مِنَ الْأَفْوَاجِ الْمُقَدَّسَةِ،
وَأَنَّكَ تَدْعُوهُ إِلَى الْحَفْلِ الْأَبَدِيِّ

لِلْمَلَائِكَةِ، وَالْفَضَائِلِ، وَالسِّيَادَةِ.

«أَعْرِفُ أَنَّ الْعَذَابَ هُوَ التُّبْلُ الْفَرِيدُ
الَّذِي لَنْ يَأْكُلَهُ أَبَدًا التُّرَابُ وَلَا الْجَحِيمُ،
وَلِكِي أَضْفُرُ إِكْلِيلِي الرُّوحِي
لَا بُدَّ مِنْ تَغْرِيمِ الْأَزْمَانِ وَالْأَكْوَانِ.

«لَكِنَّ الْمُجَوَهَرَاتِ الضَّائِعَةَ لِبَالِمِيرَا^(١) الْقَدِيمَةِ،
وَالْمَعَادِنَ الْمَجْهُولَةَ، وَلَالِي الْبِحَارِ،
الَّتِي أَعَدَّتْهَا يَدُكَ، لَنْ تَسْتَطِيعَ الْوَفَاءُ
بِهَذَا التَّاجِ الْجَمِيلِ، الْبَاهِرِ الْوَهَّاجِ؛

«لَأنَّه لَنْ يُصْنَعَ إِلَّا مِنْ نُورٍ صَافٍ،
مُسْتَقَى مِنْ نَارٍ مُقَدَّسَةٍ لِلْأَشِعَّةِ الْأُولَى،
وإِذَا هِيَ لَنْ تَكُونَ الْعُيُونُ الْفَانِيَّةُ، عَلَى رَوْعَتِهَا الْكَامِلَةِ،
سِوَى مَرَايَا مُعْتِمَةٍ نَائِحَةٍ!»

(١) بالميرا (مدينة النخيل): مدينة سورية قديمة، تحمل اسم «تدمر». كانت قوية وبالغة الثراء، حيث أُسِّسَتْ فيها الملكة «زنوبيا» مملكة قوية وشهيرة.

طائر القطرس

كثيراً ما يصيدُ البحَّارَةُ، لِلتَّسْلِيَةِ،
 طُيُورَ الْقَطْرَسِ، الطُّيُورَ الْبَحْرِيَّةَ الْهَائِلَةَ،
 الَّتِي تَتَّبِعُ، كَرَفَاقٍ سَفَرٍ كَسَالِي،
 السَّفِينَةَ الْمُنْسَابَةَ عَلَى اللَّجَجِ الْمَرِيرَةِ.

وَمَا إِنْ يَرْمُوا بِهِمْ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ،
 حَتَّى يُجْرَجَرَ مُلُوكُ السَّمَاءِ هَؤُلَاءِ، الْحَمَقَى الْخَائِبُونَ،
 أَجْنَحَتَهُمُ الْكَبِيرَةَ الْبَيْضَاءِ إِلَى جَانِبِهِمْ
 بِشَكْلِ يُرْتَى لَهُ، مِثْلَ الْمَجَازِيفِ.

هَذَا الْمُسَافِرُ الْمُجَنِّحُ، كَمْ هُوَ أَخْرَقَ وَضَعِيفُ!
 هُوَ، الْجَمِيلُ مُنْذُ قَلِيلٍ، كَمْ هُوَ مُضْحِكٌ وَقَبِيحُ!
 أَحَدُهُمْ يُشَاكِسُ مِنْقَارَهُ بِغُلْيُونِ،
 وَالْآخَرُ يُقْلَدُ، وَهُوَ يَعْرُجُ، الْعَاجِزَ الَّذِي كَانَ يَطِيرُ!

وَالشَّاعِرُ شَيْبُهُ بِأَمِيرِ الْغُيُومِ
يَغْشَى الْعَاصِفَةَ وَيَهْزَأُ بِالسَّهَامِ؛
مَنْفِيًّا عَلَى الْأَرْضِ وَسُطَّ صَيْحَاتِ السُّخْرِيَّةِ،
تَعُوْقُهُ أَجْنَحَتُهُ الْعِمْلَاقَةُ عَنِ الْمَسِيرِ.

سُمُو

فَوْقَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ، فَوْقَ الْوُدَيَانَ،
وَالْجِبَالِ، وَالْغَابَاتِ، وَالْغُيُومِ، وَالْبَحَارِ،
فِيمَا وَرَاءَ الشَّمْسِ، فِيمَا وَرَاءَ الْأَثِيرِ،
فِيمَا وَرَاءَ حُدُودِ الْأَفْلَاكِ الْمُرْصَعَةِ بِالنُّجُومِ،

تَنْسَابِينَ، يَا رُوحِي، بِرِشَاقَةٍ،
وَمِثْلَ سَبَاحِ بَارِعٍ يَنْتَشِي بِالْمَوْجِ،
تَشْقِينَ بِيَهْجَةٍ أَغْوَارَ الْفَضَاءِ
بِشَهْوَةٍ رُجُولِيَّةٍ فَوْقَ الْوُضْفِ.

فَلْتُحَلِّقِي بَعِيدًا عَنِ هَذَا الْعَفَنِ السَّقِيمِ،
وَلْتَتَطَهَّرِي فِي الْأَثِيرِ الْأَعْلَى،
وَلْتَشْرَبِي - مِثْلَ شَرَابِ صَافٍ وَسَمَاوِي -
النَّارَ الْمُنِيرَةَ الَّتِي تَعْمُرُ الْفَضَاءَاتِ النَّقِيَّةَ.

وَرَاءَ الضَّجَرِ وَالْأَحْزَانِ الْكَبِيرَةِ
الَّتِي تَنْوُءُ بِوُطْأَتِهَا عَلَى الْوُجُودِ الصَّبَابِيِّ،
مَسْعِيدٌ مَنْ يَسْتَطِيعُ، بِجَنَاحِ قَوِي،
الانْطِلَاقَ إِلَى الْحُقُولِ الْمُضِيئَةِ السَّاكِنَةِ!

مَنْ تَقُومُ أَفْكَارُهُ، مِثْلَ الْقُبَرَاتِ،
بِانْطِلَاقِ حُرٍّ فِي الصَّبَاحِ إِلَى السَّمَاوَاتِ،
- مَنْ يُحَلِّقُ فَوْقَ الْحَيَاةِ، وَيَعْبِي بِلَا عَنَاءٍ
لُغَةَ الزُّهُورِ وَالْأَشْيَاءِ الصَّامِتَةِ!

تَجَاوِبَات

الطَّبِيعَةُ مَعْبَدٌ فِيهِ أَعْمَدَةُ حَيَّةٌ
تُصْدِرُ أَحْيَانًا كَلِمَاتٍ مُبْهِمَةً؛
هُنَاكَ يَمْضِي الْإِنْسَانُ خِلَالَ غَابَاتٍ مِنْ رُمُوزٍ
تَرْقُبُهُ بِنَظَرَاتٍ وَادِعةٍ.

وَكَأَصْدَاءٍ مَدِيدَةٍ تَمْتَرِجُ فِي الْبَعِيدِ
فِي وَحْدَةٍ مُعْتَمَةٍ وَعَمِيقَةٍ،
شَاسِعَةٍ مِثْلَ اللَّيْلِ وَالضُّيَاءِ،
تَتَجَاوَبُ الْعُطُورُ، وَالْأَلْوَانُ، وَالْأَصْوَاتُ.

هُنَاكَ عُطُورٌ نَدِيَّةٌ مِثْلَ أَجْسَادِ الْأَطْفَالِ،
رَهِيْفَةٌ كَالْمَرَامِيرِ، وَخَضِرَاءُ كَالْبَرَارِيِّ،
- وَأُخْرَى مُتَهَتِّكَةٌ، خِصْبَةٌ وَمُفْجِئَةٌ،

لَهَا أَرْيَجُ الْأَشْيَاءِ اللَّائِنَهَائِيَّةَ،
كَالْعَنْبَرِ، وَالْمِسْكِ، وَاللَّبَّانِ وَالْبَخُورِ،
الَّتِي تُغْنِي فَوَرَاتِ الرُّوحِ وَالْحَوَاسِ.

العُصُورِ العَارِيَّةُ (*)

أَحِبُّ ذِكْرِي تِلْكَ الْعُصُورِ الْعَارِيَّةِ،
 عِنْدَمَا كَانَ يَحْلُو لِفُؤْيُوسٍ ^(١) أَنْ يَطْلِيَ التَّمَائِيلَ بِالذَّهَبِ.
 آنَذَاكَ كَانَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ فِي حَيَوِيَّةٍ
 يَسْتَمْتِعَانِ بِلَا زَيْفٍ وَلَا قَلَقٍ،
 وَفِيمَا السَّمَاءُ الْعَاشِقَةُ تَرَبَّتْ عَلَى ظَهْرَيْهِمَا،
 كَانَا يَخْتَبِرَانِ صِحَّةَ آلَتِهِمَا النَّيْلَةِ.
 وَسَيِّيلٍ ^(٢) حَيْثُذِ، الْخِصْبَةُ فِي كَرَمِ الْإِنتَاجِ،
 لَمْ تَكُنْ تَجِدُ أَبْنَاءَهَا عَيْنًا بَاهِظًا أَبَدًا،
 لَكِنَّهَا، كَذِئْبَةٍ قَلْبُهَا مُفْنَعٌ بِالْحَنَانِ الْعَمِيمِ،
 كَانَتْ تُرَضِّعُ الْكَوْنَ مِنْ ثَدْيَيْهَا الْأَسْمَرَيْنِ.
 وَالرَّجُلُ، رَشِيقًا، مَفْتُولًا وَقَوِيًّا، كَانَ يَحِقُّ لَهُ

(*) القصيدة أصلاً بدون عنوان والعنوان من اختيارنا (المترجم).

(١) اسم آخر للإله «أبوللو»، إله الشعر والفنون.

(٢) زوجة ساتيرن، وأم جوبيتر، إلهة الأرض والخصوبة..

أَنْ يَفْخَرَ بِاللَّوَانِ الْجَمَالِ الَّتِي نَصَبْتَهُ مَلِكًا عَلَيْهَا؛
قَوَاكِهِ صَافِيَةً بِلاَ شَائِبَةٍ وَنَقِيَّةً بِلاَ خَدَشٍ،
وَلُبُّهَا الْأَمْلَسُ الْجَامِدُ يَدْعُو إِلَى الْقَضْمِ!

وَالشَّاعِرُ الْيَوْمَ، عِنْدَمَا يُرِيدُ تَصَوُّرَ
هَذِهِ الْعَظَمَةِ الْفِطْرِيَّةِ، فِي الْأَمَاكِنِ
الَّتِي يَرَى فِيهَا عُرْيَ الرَّجُلِ وَعُرْيَ الْمَرْأَةِ،
يُحِسُّ بِبُرُودَةٍ مُعْتَمَةٍ تَغْشَى رُوحَهُ
إِذَا هَذِهِ اللَّوْحَةُ السَّودَاءُ الْمُفَعَّمَةُ بِالرُّغَبِ.

أَيُّهَا الْمُسَوَّخُ النَّائِحَةُ عَلَى ثِيَابِهَا!
أَيُّهَا الْخُصُورُ الْمُضْحِكَةُ! وَالْجُدُوعُ الْجَدِيرَةُ بِالْأَقْنَعَةِ!
أَيُّهَا الْأَجْسَادُ الْبَائِسَةُ الْمُلتَوِيَّةُ، الضَّامِرَةُ، الرَّخْوَةُ أَوْ ذَاتُ الْكُرُوشِ،
الَّتِي لَفَّهَا إِلَهُ الْمَنْفَعَةِ، الصَّارِمُ الْهَادِي،
كَأَطْفَالٍ، فِي أَقْمَطَتِهِ الْفُؤَادِيَّةِ!
وَأَنْتَنَ، أَيُّهَا النِّسَاءُ، وَآسَفَاهُ! سَاحِبَاتُ كَالِ الشُّمُوعِ،
يَنْخُرُكُنَّ وَيَغْتَذِي بِكُنَّ الْفُجُورُ، وَأَنْتَنَ، أَيُّهَا الْعَذَارَى،
تُجَرِّجِرْنَ مِيرَاثَ الرِّذِيلَةِ الْأُمُومِيَّةِ
وَكُلَّ بَشَاعَاتِ الْخُصُوبَةِ!

نَحْنُ الْأُمَمُ الْفَاسِدَةُ تَمْلِكُ، حَقًّا،

أَنَوَاعًا مِنَ الْجَمَالِ مَجْهُولَةً لِلشُّعُوبِ الْقَدِيمَةِ:
وُجُوهٌ نَخَرَتْهَا قُرُوحُ الْقُلُوبِ،
وَمَا يُسَمِّيهِ الْمَرْءُ جَمَالِيَّاتِ الْفُتُورِ؛
لَكِنَّ هَذِهِ الْمُخْتَرَعَاتِ لِرَبَّاتِ شِعْرِنَا الْمُتَأَخَّرَةِ
لَنْ تَمْنَعَ أَبَدًا الْأَجْنَاسَ الْمَرِيضَةَ
مِنَ الْاعْتِرَافِ الْعَمِيقِ بِفَضْلِ الشَّبَابِ،
- الشَّبَابِ الْمُقَدَّسِ، بِسِيمَائِهِ الْبَسِيطَةِ، بِجَبِينِهِ الْعَذْبِ،
وَعَيْنِهِ الرَّائِقَةِ الصَّافِيَةِ كَمَاءٍ مُنْسَابِ،
وَالَّذِي يَنْشُرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، خَلِيَّ الْبَالِ
مِثْلَ زُرْقَةِ السَّمَاءِ، وَالطُّيُورِ وَالزُّهُورِ،
عُطُورِهِ، وَأَغَانِيهِ وَحَرَازَتِهِ الرَّهِيْفَةِ!

الفنارات

رُوبنز^(١)، نَهْرُ نِسْيَانٍ، حَدِيقَةُ لِكْسَلٍ،
وَسَادَةُ لَحْمٍ طَرِيٍّ لَا يُمَكِّنُ الْحُبُّ عَلَيْهَا،
لَكِنَّ الْحَيَاةَ تَنْسَابُ فِيهَا وَتَخْتَلِجُ بِلاَ انْتِهَاءٍ،
مِثْلَمَا الْهَوَاءُ فِي السَّمَاءِ وَالْبَحْرُ فِي الْبَحْرِ؛

ليُونَارْد دِي فِينِشِي^(٢)، مِرَاةٌ عَمِيقَةٌ مُعْتَمَةٌ،
فِيهَا مَلَائِكَةٌ سَاحِرُونَ، بِإِيتِسَامَةٍ عَذْبَةٍ
مُفَعَّمَةٍ بِالْغُمُوضِ، يَتَجَلَّوْنَ فِي ظِلِّ
رُكَّامِ الْجَلِيدِ وَالصُّنُوبِرِ الَّتِي تُحِيطُ بِبِلَادِهِمْ؛

رُمْبِرَانْت^(٣)، مُسْتَشْفَى كَثِيبَةٍ مَلِيئَةٍ بِالْهَمِّهِمَاتِ،

(١) رُوبنز: فنان فلمنكيّ (١٥٧٧ - ١٦٤٠).

(٢) ليُونَارْد دِي فِينِشِي: فنان إيطاليّ (١٤٥٢ - ١٥١٩).

(٣) رُمْبِرَانْت: فنان هولنديّ (١٦٠٦ - ١٦٦٩).

لَا يَزِيْئُهَا سِوَى صَلِيبٍ كَبِيرٍ،
حَيْثُ الصَّلَوَاتُ الدَّامِعَةُ تَصَاعَدُ مِنَ الْقَادُورَاتِ،
وَيَخْتَرِقُهَا فَجَاءَةٌ شِعَاعُ شَتْوِي؛

مَايْكِلْ أَنْجِلُو^(١)، مَكَانُ ضَبَائِي نَرَى فِيهِ شُخُوصَ هِرْقَلِ
تَمْتَرِجُ بِشُخُوصِ الْمَسِيحِ، وَأَشْبَاحًا قَوِيَّةً
تَنْيِقُ مُتَتَصِبَةً فِي الْغَسَقِ
فَتَمَزُّقُ أَكْفَانَهَا وَهِيَ تَفْرُدُ أَصَابِعَهَا؛

فَيَا غَضَبَةَ الْمَلَائِكِمْ، يَا سَفَاهَةَ الطُّغْمَةِ،
لَقَدْ نَجَحْتَ فِي التَّقَاطِ جَمَالِ الْأَنْدَالِ،
قَلْبُ كَبِيرٍ مُفْعَمٌ بِالْكَبِيرِيَاءِ، وَإِنْسَانٌ وَاهِنٌ مُضْفَرٌ،
هُوَ بُوْجِيهِ^(٢)، الْإِمْبِرَاطُورُ الْكَيْسِبُ لِلْمَحْكُومِينَ بِالْأَشْعَالِ الشَّاقَّةِ؛

وَأَتُو^(٣)، هَذَا الْمِهْرَجَانُ الَّذِي تَهَيَّمُ فِيهِ مُتَوَهِّجَةٌ
قُلُوبٌ مُبْرِقَشَةٌ، مِثْلَ الْفَرَاشَاتِ،
رَخَارِفُ نَدِيَّةٍ رَشِيقَةٍ تُضِيئُهَا الثَّرِيَّاتُ
الَّتِي تَصُبُّ الْجُنُونَ عَلَى هَذَا الْمَرْقَصِ الدَّائِرِ؛

(١) مايكل أنجلو: رسام ونحات إيطالي (١٤٧٥-١٥٦٤).

(٢) بوجيه: نحات فرنسي (١٦٢٠ - ١٦٩٤).

(٣) واتو: رسام فرنسي (١٦٨٤ - ١٧٢١).

جُويَا^(١)، كَابُوسٌ مَلِيٌّ بِالْأَشْيَاءِ الْمَجْهُولَةِ،
 بِأَجَنَّةٍ تُظْهِى فِي مَحَافِلِ السَّحَرَةِ،
 بِعَجَائِزٍ أَمَامَ الْمَرَايَا وَأَطْفَالِ عُرَاةٍ،
 لِإِغْوَاءِ الشَّيَاطِينِ الَّتِي تُحْكِمُ جَوَارِبَهَا؛

دِيلَاكُرُوَا^(٢)، بُحَيْرُهُ دِمَاءٌ تَغْشَاهَا مَلَائِكَةُ شَرِّيرَةٍ،
 تُظِلُّهَا غَابَةُ صُنُوبٍ دَائِمَةً الْخَضِرَارِ،
 حَيْثُ تَمُرُّ فَرْقٌ مُوسِيقِيَّةٌ غَرِيبَةٌ، تَحْتَ سَمَاءٍ كَثِيبَةٍ،
 مِثْلَ تَنْهِيدَةٍ مَكْتُومَةٍ لِغَيْبِ^(٣)؛

هَذِهِ اللَّعْنَاتُ، وَهَذَا التَّجْدِيفُ، وَهَذِهِ الْأَنَاتُ،
 هَذِهِ الشَّوَاتُ، وَالصَّرَخَاتُ، وَالذُّمُوعُ، وَصَلَوَاتُ الْحَمْدِ لَكَ،
 هِيَ صَدَى يَتَرَدَّدُ فِي أَلْفِ مَتَاهَةٍ؛
 هِيَ أَفْيُونٌ إِلَهِيٌّ لِلْقُلُوبِ الْفَانِيَةِ!

هِيَ صَرْخَةٌ يَرَدَّدُهَا أَلْفُ حَارِسٍ لَيْلِيٍّ،
 أَمْرٌ يُبْلَغُهُ أَلْفُ بُوقٍ؛
 فَتَارَةٌ مُضَاءَةٌ فَوْقَ أَلْفِ قَلْعَةٍ،

(١) جويَا: رسام إسباني (١٧٤٦ - ١٨٢٨).

(٢) ديلاكروا: رسام فرنسي (١٧٩٨ - ١٨٦٣)، كان بودليير شديد الإعجاب بأعماله.

(٣) فيبر: موسيقار ألماني (١٧٨٦ - ١٨٢٦).

وَاسْتِغَاثَةُ صَيَّادِينَ صَالِّينَ فِي الْغَابَاتِ الْكُبْرَى!

لَأَنَّ أَفْضَلَ شَهَادَةٍ حَقًّا، يَا رَبِّ،

نَسْتَطِيعُ تَقْدِيمَهَا عَلَى كَرَامَتِنَا

هِيَ هَذَا الزَّفِيرُ الْمُتَقَدُّ الْمُنْسَابُ مِنْ عَصْرِ إِلَى عَصْرِ

لِيَأْتِيَ فَيَمُوتَ عَلَى شَاطِئِ أَبَدِيَّتِكَ!

رَبَّةُ الشَّعْرِ الْعَلِيلَةِ

يَا رَبَّةَ شِعْرِي الْعَلِيلَةَ، وَأَسْفَاهُ! مَاذَا جَرَى لَكَ هَذَا الصَّبَاحَ؟
عَيْنَاكَ الْغَائِرَتَانِ مُفْعَمَتَانِ بِالرُّؤَى اللَّيْلِيَّةِ،
وَعَلَى سِخْتِكَ يَتَشَبَّهُ، وَاحِدًا وَرَاءَ الْآخَرِ،
الْجُنُونُ وَالرُّغْبُ، وَالْبُرُودَةُ وَالسُّكُوتُ.

فَهَلْ صَبَّتِ الشَّيْطَانَةُ الْخَضِرَاءُ وَالْعَفْرِيتُ الْوَرْدِي
عَلَيْكَ الْخَوْفَ وَالْحُبَّ مِنْ جِرَارِهِمَا؟
هَلْ أَغْرَقَكَ الْكَابُوسُ، بِقَبْضَةٍ مُسْتَبِدَّةٍ عَاصِيَةٍ،
فِي أَعْمَاقِ «مِيتُورِن»^(١) خُرَافِيَّةٍ؟

كَمْ أَوْدُ أَنْ تَغْشَى الْأَفْكَارُ الْقَوِيَّةَ دَائِمًا
صَدْرَكَ الَّذِي يَفُوحُ بِأَرْيَجِ الْعَافِيَةِ،

(١) مُسْتَفْعَ بجنوب روما.

وَأَنْ يَنْسَابَ دَمُكَ الْمَسِيحِيُّ فِي دَفَقَاتِ إِيقَاعِيَّةٍ

مِثْلَ الْأَصْوَاتِ الْمُوقَّعَةِ لِلْمَقَاطِعِ الْقَدِيمَةِ،
الَّتِي يُهَيِّمُنُ عَلَيْهَا بِالتَّنَاوُبِ أَبُ الْأَغَانِي
فُويُوس، وَبَانَ الْعَظِيمُ^(١) سَيِّدُ الْحَصَادِ.

(١) هو الإله «بان»، إله الرّيف والموسيقى.

رَبَّةُ الشَّعْرِ الدَّنِيَّةِ

يَا رَبَّةَ قَلْبِي، يَا عَاشِقَةَ الْقُصُورِ،
عِنْدَمَا يُطْلَقُ يَنَايِرُ الْعِنَانِ لِرِيَاكِ الشَّمَالِيَّةِ،
خِلَالَ الضَّجَرِ الْأَسْوَدِ لِلْأُمُوسِيَّاتِ الثَّلْجِيَّةِ،
هَلْ سَتَمْلِكِينَ جَمْرَةً لِتُدْفِئِي قَدَمَيْكَ الْبَنَفْسَجِيَّتَيْنِ؟

هَلْ سَتَبْعَثِينَ إِلَيَّ الْحَيَاةَ كَتَفَيْكَ الرُّخَامِيَّتَيْنِ
فِي الْأَشْعَةِ اللَّيْلِيَّةِ الَّتِي تَخْتَرِقُ الْمَصَارِيحَ؟
وَإِذْ تُحْسِنِينَ بِكَيْسِ نُقُودِكَ خَاوِيًا شَانَ قَصْرِكَ،
هَلْ سَتَحْصِدِينَ الذَّهَبَ مِنَ الْقَبَابِ اللَّازُورِدِيَّةِ؟

فَعَلَيْكَ، لِتَكْسِبِي قُوْتَ يَوْمِكَ كُلِّ مَسَاءٍ،
مِثْلَ طِفْلِ فِي الْجُوقَةِ، يَلْعَبُ بِالْمُبْخَرَةِ،
أَنْ تُنْشِدِي لَكَ الْحَمْدُ الَّتِي لَا تُؤْمِنِينَ بِهَا أَبَدًا،

أَوْ، كَبِهْلَوَانِ جَائِعٍ، تَعْرِضِينَ مَفَاتِنَكَ
وَصَحَحْتَكَ الْمُبَلَّلَةَ بِالدُّمُوعِ الَّتِي لَا يَرَاهَا أَحَدٌ،
مِنْ أَجْلِ تَسْلِيَةِ الرَّعَاعِ.

الرَّاهِبُ الْفَاسِدُ

كَانَتْ الْأَذْيَرَةُ الْقَدِيمَةُ تَعْرِضُ فِي لَوْحَاتِ
عَلَى الْأَسْوَارِ الْهَائِلَةِ، الْحَقِيقَةُ الْمُقَدَّسَةِ
الَّتِي كَانَ تَأْثِيرُهَا، الْمُلْهَبُ لِلْقُلُوبِ الْوَرِعَةِ،
يُخَفِّفُ مِنْ بُرُودَةِ زُهْدِهَا.

فِي تِلْكَ الْأَزْمَانِ حِينَ كَانَ مَسِيحٌ يُزْهِرُ مَوَاسِمَ الزَّرْعِ،
كَانَ أَكْثَرُ مِنْ رَاهِبٍ شَهِيرٍ، قَلِيلًا مَا يَرُدُّ لَهُ الْآنَ ذِكْرٌ،
يُمَجِّدُ الْمَوْتَ بِبَسَاطَةٍ،
مُتَّخِذًا مِنْ مَجَالِ الْجِنَازَاتِ وَرَشَةَ عَمَلٍ لَهُ.

- رُوحِي مَقْبَرَةٌ، أَسْكُنُ فِيهَا وَأَطُوفُ،
كَرَاهِبٍ فَاسِدٍ، مُنْذُ الْأَزَلِ؛
وَلَا شَيْءَ يُزَيِّنُ جُذْرَانِ هَذَا الدَّيْرِ الْبَشِعِ.

أَيُّهَا الرَّاهِبُ الْكَسُولُ! مَتَى سَأَسْتَطِيعُ إِذْنَ
الْقِيَامِ بِعَرْضِ حَيِّ لِبُؤْسِي الْكَثِيبِ،
مَا تَفْعَلُهُ يَدَايَ وَتُجِبُهُ عَيْنَايَ؟

الْعَدُوّ

لَمْ يَكُنْ شَبَابِي سِوَى عَاصِفَةٍ مُظْلِمَةٍ،
تَقْطَعُهَا هُنَا وَهُنَاكَ شُمُوسٌ بَاهِرَةٌ؛
تَسَبَّبَ الرَّعْدُ وَالْمَطَرُ فِي ذَلِكَ الْخَرَابِ
الَّذِي لَمْ يَبْقَ فِي حَدِيقَتِي إِلَّا عَلَى الْقَلِيلِ مِنَ الثَّمَارِ الْمُتَوَرِّدَةِ.

وَهَا أَنَذَا الْآنَ قَدْ لَامَسْتُ خَرِيفَ الْأَفْكَارِ،
وَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْجَارُوفِ وَالْجَرَافَاتِ
لِإِعَادَةِ تَوْحِيدِ الْأَرْضِ الْمَغْمُورَةِ بِالْمِيَاهِ مِنْ جَدِيدٍ،
الَّتِي يَحْفَرُ الْمَاءُ فِيهَا فَجَوَاتٍ كَبِيرَةً كَالْقُبُورِ.

وَمَنْ يَذَرِي، مَا إِذَا كَانَتْ الزُّهُورُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي أَحْلُمُ بِهَا
مَسْجِدُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمَغْسُولَةِ مِثْلَ رَمَالِ السَّاحِلِ
الْغِذَاءَ الرُّوحِيَّ الَّذِي يَمْنَحُهَا الْحَيَوِيَّةَ؟

أَيُّهَا الْأَكْم! أَيُّهَا الْأَكْم! الزَّمَنُ يَلْتَهُمُ الْحَيَاةَ،
وَالْعَدُوُّ الْغَامِضُ الَّذِي يَقْضُمُ مِنَّا الْقَلْبَ،
يَنْمُو وَيَقْوَى بِمَا نَفَقَدُ مِنْ دِمَاءٍ!

الشُّوم

لِرَفْعِ عِبٍّ ثَقِيلٍ، يَا سِزِيفُ^(١)،
يَحْتَاجُ الْمَرْءُ إِلَى شَجَاعَتِكَ!
وَحَتَّى لَوْ اِمْتَلَأَتِ الْجَسَارَةُ فِي الْعَمَلِ،
فَالْفَنُّ طَوِيلٌ وَالزَّمَنُ قَصِيرٌ.

بَعِيدًا عَنِ الْجَبَّانَاتِ الشَّهِيرَةِ،
وَالِإِلَى مَقْبَرَةٍ مَعْزُولَةٍ،
فَلْتَمَضِ، يَا قَلْبُ، مِثْلَ طَبَلٍ مَبْحُوحٍ،
وَأَنْتَ تَدُقُّ الْأَلْحَانَ الْجِنَانِيَّةَ.

- جَوَاهِرُ كَثِيرَةٌ تَرَقُّدُ مَدْفُونَةٌ
فِي الظُّلُمَاتِ وَالنَّسْيَانِ،

(١) شخصية أسطورية يونانية، حُكم عليها بدفع حجر دائئاً إلى قمة جبل. وما إن يبلغ القمة حتى ينحدر الحجر إلى الأسفل، فيعود إلى دفعه إلى القمة من جديد.

بَعِيدًا عَنِ الْمَعَاوِلِ وَالْآلَاتِ الْحَفْرِ؛

وَزُهُورٌ كَثِيرَةٌ تُرِيقُ عَلَى مَضَضٍ

أَرِيحَهَا الْعَذَبَ مِثْلَ سِرٍّ

فِي الْغُزْلَةِ الْعَمِيقَةِ.

الحياة السابقة

أَقَمْتُ طَوِيلًا تَحْتَ أَرْوَاقِ شَاسِعَةٍ
كَانَتْ الشُّمُوسُ الْبَحْرِيَّةُ تُلَوِّنُهَا بِأَلْفِ نَارٍ،
وَأَعْمَدَتُهَا الضَّخْمَةُ، الْمُسْتَقِيمَةُ الْمَهِيَّةُ،
تَجْعَلُهَا، فِي الْمَسَاءِ، شَبِيهَةً بِالْكُهُوفِ الْبَازِلِيَّةِ.

وَالْأَمْوَاجُ، الَّتِي تَتَدَخَّرُ عَلَيْهَا صُورُ السَّمَاوَاتِ،
كَانَتْ تَمْزِجُ بِطَرِيقَةٍ جَلِيلَةٍ وَرُوحِيَّةٍ
التَّنَاعُمَاتِ الْهَائِلَةِ لِمُوسِقَاهَا الْغَنِيَّةِ
بِالْوَانِ الْغُرُوبِ الْمُنْعَكِسَةِ فِي عَيْنِي.

هُنَاكَ عِشْتُ فِي الشَّهَوَاتِ الْهَادِثَةِ،
وَمِنْطَ اللَّازِزِ وَرْدٍ، وَالْأَمْوَاجِ، وَالرَّوَائِعِ
وَعَبِيدِ عُرَاةٍ مُشْبَعِينَ بِالْعُطُورِ،

كَأَنُّوا يُرَطَّبُونَ جَبِينِي بِمَرَاوِحِ السَّعَفِ،
وَلَا هَمَّ لَهُمْ سِوَى اكْتِشَافِ
السِّرِّ الْأَلِيمِ الَّذِي يَدْفَعُنِي إِلَى الْفُتُورِ.

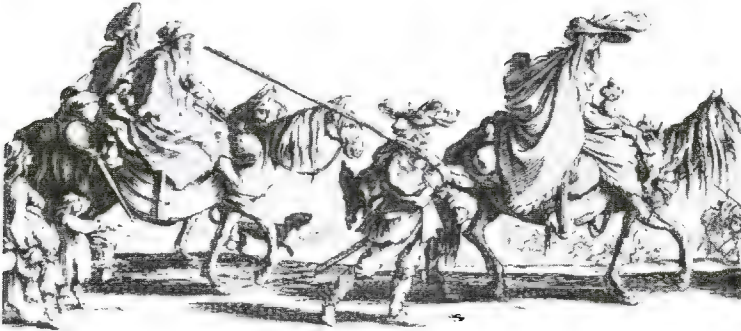
ارْتَحَالُ الْفَجَرِ

الْقَبِيلَةُ الْمُتَنَبِّئَةُ ذَاتُ الْعُيُونِ الْمُتَقَدَّةُ
 انْطَلَقَتْ بِالْأُمْسِ، حَامِلَةً أَطْفَالَهَا
 عَلَى ظُهُورِهَا، أَوْ مُسْلِمِينَ لِشَهِيَّتِهِمُ الْمُتَمَنِّعَةِ
 الذَّخِيرَةَ الْجَاهِزَةَ دَائِمًا لِلْإِثْدَاءِ الْمُتَهَدِّلَةِ.

يَمْضِي الرِّجَالُ مُتَرَجِّلِينَ تَحْتَ أَسْلِحَتِهِمُ اللَّامِعَةِ
 بِجِذَائِ الْعَرَبَاتِ الَّتِي تَكْدَسَتْ عَائِلَاتُهُمْ فِيهَا،
 وَهُمْ يَجُولُونَ بِأَبْصَارِهِمُ الْمُرْهَقَةِ فِي السَّمَاوَاتِ
 بِأَسَى كَثِيبٍ عَلَى الْأَوْهَامِ الضَّائِعَةِ.

وَمِنْ أَعْمَاقِ مَكْمَنِهِ الرَّمْلِيِّ، يُضَاعِفُ الصُّرْصَارُ،
 حِينَ يُشَاهِدُهُمْ يَمْرُونَ، مِنْ أُنْشُودَتِهِ؛
 وَسَيْبِلَ، الَّتِي تُحِبُّهُمْ، تُزِيدُ مِنْ خُضْرَتِهَا،

تَجْعَلُ الْحَجَرُ يَتَفَجَّرُ بِالمَاءِ، وَتُزْهِرُ الصَّحَرَاءُ
أَمَامَ هَؤُلَاءِ الرُّحَلِ، الَّذِينَ انْفَتَحَتْ لَهُمُ
الْمَمْلَكَةُ الْمَعْهُودَةُ لِلظُّلُمَاتِ الْقَادِمَةِ.



الإنسان والبحر

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْحُرُّ، دَائِمًا مَا سَتَعَشَّقُ الْبَحْرُ!
 الْبَحْرُ مَرَاتِكَ؛ وَأَنْتَ تَتَأَمَّلُ نَفْسَكَ
 فِي تَعَاقِبِ أَمْوَاجِهِ اللَّائِنِهَائِي،
 وَرُوحَكَ لَيْسَتْ هَاوِيَّةً أَقَلَّ مَرَارَةٍ.

تَسْتَمْتِعُ بِالْغَوْصِ فِي قَلْبِ صُورَتِكَ؛
 تُعَانِقُهَا بِعَيْنَيْكَ، وَذَرَاعَيْكَ. وَقَلْبُكَ
 يَسْهُو أحيانًا عَنْ دَقَائِهِ الْمُتَنَظِّمَةِ
 فِي صَخَبِ هَذَا الْأَيْنِ الْجَامِحِ الْوَحْشِيِّ.

أَنْتُمَا مُظْلِمَانِ وَكُتُومَانِ:
 فَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ، مَا مِنْ أَحَدٍ سَبَرَ أَعْوَارَ هَاوِيَاتِكَ؛
 وَأَيُّهَا الْبَحْرُ، مَا مِنْ أَحَدٍ يَعْرِفُ كُنُوزَكَ الْحَمِيمَةَ،
 وَمَا أَشَدَّ غَيْرَتَكُمَا عَلَى الْاِحْتِفَاطِ بِالْأَسْرَارِ!

وَمَعَ هَذَا، فَهِيَ قُرُونٌ بِلاَ حَضَرٍ
وَأَنْتُمَا تَتَصَارَعَانِ بِلاَ رَحْمَةٍ وَلَا نَدَمٍ،
لِفَرْطِ مَا تَعُشَقَانِ الْمَذْبَحَةَ وَالْمَوْتَ،
أَيُّهَا الْمُقَاتِلَانِ الْأَبْدِيَانِ، أَيُّهَا الشَّقِيقَانِ اللَّدُونَانِ!

دُون جُوان في الجحيم

عِنْدَمَا نَزَلَ دُونُ جُوانَ إِلَى بَحْرِ الْأَعْمَاقِ
وَبَعْدَمَا أُعْطِيَ عُمَلَتَهُ التَّقْدِيَةَ إِلَى شَارُون^(١)،
قَبَضَ عَلَى الْمَجَازِيفِ شَحَاذُ كَيْيَبٍ، ذُو نَظَرَةٍ مُتَعَالِيَةٍ،
مِثْلَ أَنْتَسِتِينَ^(٢)، بِذِرَاعٍ قَوِيَّةٍ مُنْتَقِمَةٍ.

كَانَتْ نِسَاءٌ أَثْدَاؤُهُنَّ الْمُتَهَدِّلَةُ مَكْشُوفَةٌ وَيَتَابُهُنَّ مَفْتُوحَةٌ،
يَتَلَوْنَ تَحْتَ السَّمَاءِ السَّوْدَاءِ،
وَمِثْلَ قَطِيعِ كَبِيرٍ مِنْ ضَحَايَا الْقَرَايِينِ،
كُنَّ يُجَزِّجْنَ وَرَاءَهُ عَوِيلاً طَوِيلاً.

(١) «شارون»: الملاح الذي يسمح لأرواح الموتى بعبور نهر «ستيكس»، أحد أنهار الجحيم، في الأساطير اليونانية، مقابل قطعة نقدية.

(٢) فيلسوف يوناني (٤٤٤ - ٣٦٥ ق.م)، مؤسس مدرسة تحتقر النقود والخيرات المادية. وقد التزم بالعيش حياة فقيرة ليتوافق مع مبادئه.

رَاحَ سَجَانَارِيلُ ^(١) يُطَالِبُهُ بِأَجْرِهِ ضَاحِكًا،
فِيمَا كَانَ دُونَ لُوي ^(٢) يُرِي بِإِصْبَعٍ مُرْتَعِشٍ
الابْنَ الْوَفَّاحَ الَّذِي هَزَأَ بِشَيْبِهِ
لِكُلِّ الْمَوْتَى الْهَائِمِينَ عَلَى السَّوَاطِيءِ.

وَمُرْتَعِشَةً فِي حِدَادِهَا، كَانَتْ الْفِير ^(٣) الطَّاهِرَةُ النَّحِيلَةَ،
إِلَى جَوَارِ الزَّوْجِ الْخَائِنِ الَّذِي كَانَ عَشِيقَهَا،
تَبْدُو مُسْتَجِدِيَّةً مِنْهُ لَا بَيْتَسَامَةَ أَحْيَرَةَ
تَوَهَّجَتْ فِيهَا عُذُوبَةٌ قَسَمِهِ الْأَوَّلِ.

مُسْتَصَبًا فِي دُرُوعِهِ، كَانَ رَجُلٌ حَجَرِيٌّ عِمْلَاقٍ ^(٤)
يُمْسِكُ بِالْدَفَّةِ وَيَقْطَعُ الْمَوْجَ الْأَسْوَدَ؛
لَكِنَّ الْبَطْلَ الْهَادِيَّ، مُنْحَنِيًا عَلَى سَيْفِهِ،
كَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَثَرِ الْقَارِبِ دُونَ أَكْثَرَاتٍ بِأَنْ يَرَى.

(١) خادم «دون جوان» في مسرحية موليير.

(٢) والد «دون جوان».

(٣) الزوجة الأخيرة لدون جوان.

(٤) إشارة إلى تمثال حجري لفارس كان «دون جوان» قد قتله قبل شهر، وأقامته له ابنته عند قبره.

عَقَابُ الْغَطْرَسَةِ

فِي تِلْكَ الْأَزْمَانِ الرَّائِعَةِ الَّتِي ازْدَهَرَ فِيهَا اللَّاهُوتُ
 بِأَقْصَى طَاقَةٍ وَحَيَوِيَّةٍ،
 يُحْكِي أَنَّ أَحَدَ الْأَخْبَارِ الْعُظَمَاءِ
 - بَعْدَ أَنْ نَفَذَ إِلَى الْقُلُوبِ اللَّامْبَالِيَّةِ،
 وَهَزَّ أَعْمَاقَهُمُ الْحَالِكَةَ؛
 وَيَعْدُ أَنْ اجْتَاَزَ إِلَى الْأَمْجَادِ السَّمَاوِيَّةِ
 طُرْقًا فَرِيدَةً لَمْ تَخْطُرْ لَهُ عَلَى بَالٍ،
 وَرُبَّمَا لَمْ تَطَّأَهَا قَبْلَهُ سِوَى الْأَرْوَاحِ الْخَالِصَةِ،
 وَمِثْلَمَا يَرْتَقِي الْإِنْسَانُ إِلَى ذُرَى شَامِخَةٍ، فَيَتَمَلَّكَ الرُّعْبُ،
 صَرَخَ، مُهْتَاجًا بِغَطْرَسَةٍ شَيْطَانِيَّةٍ:
 «يَا يَسُوعَ، يَسُوعَ الصَّغِيرَ! لَقَدْ رَفَعْتُكَ إِلَى الْأَعَالِي!
 لَكِنِّي، لَوْ أَرَدْتُ مُهَاجِمَتَكَ عَارِيًا مِنَ الدَّرُوعِ،
 فَسَوْفَ يَتَسَاوَى عَارُكَ مَعَ مَجْدِكَ،
 وَلَنْ تُصْبِحَ أَكْثَرُ مِنْ شَخْصٍ مُثِيرٍ لِلسُّخْرِيَةِ!»

فِي الْحَالِ فَقَدْ عَقَلَهُ.

وَصَوءٌ تِلْكَ الشَّمْسِ اخْتَجَبَ بِسِتَارَةٍ سَوْدَاءٍ؛

وَاجْتَنَحَ هَذَا الْعَقْلُ الْعَمَاءَ،

بَعْدَ أَنْ كَانَ مَعْبُدًا حَيًّا، عَامِرًا بِالنِّظَامِ وَالرِّخَاءِ،

وَتَحْتَ سُقُوفِهِ تَتَوَهَّجُ الْعِظَمَةُ.

حَلَّ عَلَيْهِ الصَّمْتُ وَالظَّلَامُ،

مِثْلَ قَبْوٍ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ.

مُذْ ذَاكَ أَصْبَحَ شَيْبَهَا بِحَيَوَانَاتِ الشَّوَارِعِ،

وَعِنْدَمَا كَانَ يَهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ، دُونَ أَنْ يَرَى،

عَبْرَ الْحُقُولِ، دُونَ تَمْيِيزِ الصَّيْفِ مِنَ الشِّتَاءِ،

قَدَرًا، بِلَا نَفْعٍ وَقَيْحًا مِثْلَ شَيْءٍ مُسْتَهْلَكٍ،

كَانَ يُحَقِّقُ لِلْأَطْفَالِ الْبُهْجَةَ وَالسُّخْرِيَّةَ.

الجمال

أَنَا جَمِيلَةٌ، أَيُّهَا الْفَانُونَ! مِثْلَ حُلْمٍ مِنْ حَجَرٍ،
وَصَدْرِي، الَّذِي تَهَالِكُ عَلَيْهِ الْجَمِيعُ وَاحِدًا وَاحِدًا،
مَخْلُوقٌ لِإِلْهَامِ الشَّاعِرِ
يُحِبُّ أَبَدِيَّ صَامِتٍ مِثْلَ الْمَادَّةِ.

أَتَبَوَّأُ عَرْشَ اللَّازِزِ وَرَدٍ مِثْلَ أَبِي هَوَلٍ غَامِضٍ؛
وَأَوْحِدُ بَيْنَ قَلْبٍ مِنْ ثُلُجٍ وَبَيَاضِ الْبَجَعِ؛
أَكْرَهُ الْحَرَكَةَ الَّتِي تُزِيحُ الْخُطُوطَ،
وَأَبْدًا لَا أَبْكِي وَلَا أَضْحَكُ أَبَدًا.

وَأَمَامَ أَوْصَاعِي الْعَظِيمَةِ،
الَّتِي اسْتَعْرَتْهَا فِيمَا يَبْدُو مِنَ الصُّرُوحِ الشَّامِخَةِ،
مُسَيِّفُ الشُّعْرَاءِ أَيَّامَهُمْ فِي دِرَاسَاتٍ صَارِمَةٍ؛

لأنَّ لي - كي أفْتِنَ هُوَ لاءِ العُشَّاقِ الطَّائِعِينَ -
مِرَاتَيْنِ صَافِيَتَيْنِ تَجْعَلَانِ كُلَّ شَيْءٍ أَجْمَلَ،
عَيْنَايَ، عَيْنَايَ الْوَاسِعَتَانِ الْمُفْعَمَتَانِ بِالنَّصَارَةِ الْأَبَدِيَّةِ!

المثال

لَنْ تَكُونَ أَبَدًا جَمَالِيَّاتُ الزَّخَرَفَةِ،
وَتِلْكَ الْمُتَتَجَاتُ الْفَاسِدَةُ، وَلِيدَةُ قَرْنٍ تَافِهٍ،
وَتِلْكَ الْأَقْدَامُ ذَاتُ الْأَخْفَافِ، وَالْأَصَابِعُ ذَاتُ الصُّنُوجِ،
هِيَ مَا تُشْبِعُ قَلْبًا مِثْلَ قَلْبِي.

أَتَرَكُ لِحَافَارِنِي^(١)، شَاعِرِ الْأَنِيمِيَا،
قُطْعَانَهُ الْمُغَرَّدَةَ مِنْ جَمَالِيَّاتِ الْمُسْتَشْفَى،
لَأَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ الْعُثُورَ فِي هَذِهِ الْوُرُودِ الشَّاحِبَةِ
عَلَى زَهْرَةٍ تُمَازِلُ لَوْنِي الْأَحْمَرَ الْمِثَالِي.

فَمَا يَحْتَاجُهُ هَذَا الْقَلْبُ الْعَمِيقُ كَهَاوِيَةٍ،
هُوَ أَنْتِ، يَا لِيَدِي مَاكِثِ^(٢)، النَّفْسُ الْقَادِرَةُ عَلَى الْجَرِيمَةِ،

(١) وسام فرنسي (١٨٠٤-١٨٦٦).

(٢) بطلّة مسرحية «ماكِث» لشيكسبير.

يَا حُلْمَ إِسْخِيل^(١) الْبَاذِخَ فِي مَنَاخِ الرِّيَّاحِ الْجَنُوبِيَّةِ؛

أَوْ بِالْأُخْرَى أَنْتِ، أَيُّهَا اللَّيْلَةُ^(٢) الْعَظِيمَةُ، ابْنَةُ مَايْكِلَ أَنْجِلُو،
الَّتِي تَلْوِينَ بِسَكِينَةٍ، فِي وَضْعٍ غَرِيبٍ،
مَفَاتِنِكَ الْمَجْبُورَةَ مِنْ أَجْلِ أَفْوَاهِ الْعَمَالِيقِ!

(١) أعظم مؤلفي الدراما في اليونان القديمة.

(٢) إشارة لتمثال «الليلة» الذي أنجزه مايكل أنجلو بقبر جوليان بكنيسة آل مديتشي بفلورنسا.

العملاقة

وَقَتَّ أَنْ كَانَتْ الطَّيْبَةُ فِي ذُرْوَةِ عُنُقَوَانِهَا
تَحْبِلُ كُلَّ يَوْمٍ بِأَطْفَالٍ خَارِقِينَ،
كَانَ لِي أَنْ أُحِبَّ الْعَيْشَ إِلَى جَانِبِ فَتَاةٍ عَمَلَاةٍ،
كَفْطَةٍ شَهْوَانِيَّةٍ عِنْدَ أَقْدَامِ مَلِكَةٍ.

وَكَانَ لِي أَنْ أُحِبَّ رُؤْيَا جَسَدِهَا يَتَفَتَّحُ مَعَ رُوحِهَا
وَيَنْمُو حُرًّا فِي أَلْعَابِهَا الرَّهِيبةِ؛
وَأُحْمَنُ مَا إِذَا كَانَ قَلْبُهَا يَنْطَوِي عَلَى لَهَيْبِ قَاتِمٍ
مِنَ الضَّبَابِ اللَّيْلِ الَّذِي يَغُومُ فِي عَيْنَيْهَا؛

وَأَجُولُ وَقَتَّ الْفَرَاحِ فِي أَشْكَالِهَا الرَّائِعَةِ؛
أَرْحَفُ عَلَى مُنَحْدَرِ رُكْبَتَيْهَا الْهَائِلَتَيْنِ،
وَأَحْيَانًا - فِي الصَّيْفِ - عِنْدَمَا تَكُونُ الشُّمُوسُ مُؤَذِيَةً،

أَمَدُّهَا - وَهِيَ مُرْهَقَةٌ - عَبْرَ الرَّيْفِ،
وَأَنَامُ بِلَا مُبَالَاةٍ فِي ظِلِّ تَذْيِينِهَا،
مِثْلَ نَجْعِ هَادِيٍّ عِنْدَ سَفْحِ جَبَلٍ.

القناع

تمثال رمزي بأسلوب عصر النهضة

إلى الممثل إرنست كريستوف



فَلْتَأَمَلْ هَذَا الْكَنْزَ مِنَ الْمَفَاتِيحِ الْفُلُورِنِسِيَّةِ؛
فَتَقِي تَضَارِيسَ هَذَا الْجَسَدِ مَفْتُولِ الْعَضَلَاتِ
تَتَوَقَّرُ الرَّشَاقَةُ وَالْقُوَّةُ، الشَّقِيقَتَانِ الْإِلَهِيَّتَانِ.
هَذِهِ الْمَرْأَةُ، الْعَمَلُ الْمُعْجِزُ حَقًّا،
الْقُوَّةُ بِصُورَةِ إِلَهِيَّةٍ، وَالنَّحِيلَةُ بِصُورَةِ رَائِعَةٍ،
مَخْلُوقَةٌ لَاعِتِلَاءٍ أَسْرَةٍ بَادِخَةٍ،
وَفَتْنَةٍ كَاهِنٍ أَوْ أَمِيرٍ فِي أَوْقَاتِ الْفَرَاغِ.

- وَلْتَرَوْا أَيْضًا هَذِهِ الْبَسْمَةَ الرَّهِيْفَةَ الشَّهْوَانِيَّةَ
حَيْثُ الْغُرُورُ يَجُولُ فِي نَشْوَتِهَا؛
وَهَذِهِ النَّظْرَةُ الطَّوِيلَةُ الْمَاكِرَةِ، الْفَاتِرَةُ السَّاخِرَةُ؛
وَهَذَا الْوَجْهَ الْمُدَلَّلَ، الْمُحَاطَ بِغُلَالَةٍ شَفَافَةٍ،
وَكُلُّ مَلْمَحٍ فِيهِ يَقُولُ بِسَيِّمَاءِ ظَافِرَةٍ:

«الشَّهْوَةُ تَدْعُونِي وَالْحُبُّ يُتَوَّجُنِي!»
وَلْتَرَوْا آيَةً فِتْنَةٍ مُثِيرَةٍ تَمْنَحُهَا اللَّطَافَةُ!
فَلْتَقْتَرِبْ وَلْتَدْرُ حَوْلَ جَمَالِهِ.

يَا لَتَجْدِيفِ الْفَنِّ! أَيَّتُهَا الْمُفَاجِئَةُ الْقَاتِلَةُ!
فَالْمَرَأَةُ ذَاتُ الْجَسَدِ الرَّبَّانِيِّ، الْوَاعِدِ بِالسَّعَادَةِ،
تَنْتَهِي فِي الْأَعْلَى إِلَى وَحْشٍ بِرَأْسَيْنِ!

- كَلَّا! فَذَلِكَ لَيْسَ إِلَّا قِنَاعًا، زُخْرَفَةٌ خَادِعَةٌ،
ذَلِكَ الْوَجْهُ الَّذِي تُضَيِّئُهُ تَكْشِيرَةُ سَاحِرَةٍ،
وَانْظُرْ، هَا هِيَ، مُتَشَنِّجَةٌ بِوَحْشِيَّةٍ،
الرَّأْسُ الْحَقِيقِيُّ، وَالْوَجْهُ الصَّادِقُ
مَقْلُوبٌ بَعِيدًا عَنِ الْوَجْهِ الْكَاذِبِ.
أَيُّهَا الْجَمَالُ الْعَظِيمُ الْبَائِسُ! فَالْنَهْرُ الرَّائِعُ
لِيَدْمُرْ عَلَيْكَ بِنَسَابٍ إِلَى قَلْبِي الْمَهْمُومِ؛
كَذَّبْتُ يُسْكِرُنِي، وَرُوحِي تَرْتَوِي
مِنَ الْأَمْوَاجِ الَّتِي يُفَجِّرُهَا الْأَلَمُ مِنْ عَيْنِكَ!

- لَكِنْ لِمَادًا تَبْكِي؟ هِيَ، الْجَمَالُ الْكَامِلُ،
الَّتِي كَانَ لَهَا أَنْ تَضَعَ عِنْدَ قَدَمَيْهَا الْجِنْسَ الْبَشَرِيَّ مَهْزُومًا،
أَيُّ شَرٍّ عَامِضٍ يَنْخُرُ فِي خَصْرِهَا الرِّيَاضِي؟

- تَبْكِي، أَيُّهَا الْأَحْمَقُ، لَأَنْتَ عَاشْتَ!
وَلَأَنْتَ تَعِيشُ! لَكِنَّ أَكْثَرَ مَا تَأْسَى لَهُ،
وَمَا يَذْفُعُهَا إِلَيَّ الْإِزْنَعَادِ حَتَّى الرُّكْبَتَيْنِ،
هُوَ أَنَّهَا فِي الْغَدِ، وَاسْفَاهُ! عَلَيْهَا أَيْضًا أَنْ تَعِيشَ!
غَدًا، وَبَعْدَ غَدٍ، وَأَبَدًا! - مِثْلُنَا!

تَرْنِيمَةٌ إِلَى الْجَمَالِ

أَتَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ الْغَائِرَةِ أَمْ تَصْعَدُ مِنَ الْهَاطِئَةِ،
 أَيُّهَا الْجَمَالُ؟ نَظَرْتُكَ، الشَّيْطَانِيَّةُ وَالْإِلَهِيَّةُ،
 تَنْشُرُ - فِي فَوْضَى - الْخَيْرِ وَالْجَرِيمَةِ،
 وَلِهَذَا يُمَكِّنُ تَشْبِيهَكَ بِالْخَمْرِ.

تَحْتَوِي فِي عَيْنِكَ الْغُرُوبَ وَالْفَجَرَ؛
 وَتُبْعِثُ الْعُطُورَ مِثْلَ مَسَاءٍ عَاصِفٍ؛
 قُبْلَاثُكَ سَرَابُ الْمَحَبَّةِ وَفَمُكَ قَارُورَةُ
 تَدْفَعُ الْبَطْلَ إِلَى الْجُبْنِ وَالطُّفْلَ إِلَى الشَّجَاعَةِ.

أَتَصْعَدُ مِنْ لُجَّةِ سَوْدَاءٍ أَمْ تَهْبِطُ مِنَ النُّجُومِ؟
 وَالْقَدْرُ الْمَفْتُوحُ يَتَّبِعُ أَذْيَالَ ثَوْبِكَ مِثْلَ كَلْبٍ؛
 تَبْذُرُ كَيْفَمَا اتَّفَقَ الْبَهْجَةُ وَالْكَوَارِثُ،
 وَتُهَيِّجُ عَلَى الْكُلِّ بِلَا مَسْئُولِيَّةٍ عَنْ شَيْءٍ.

تَخْطُو فَوْقَ الْمَوْتَى، أَيُّهَا الْجَمَالُ، الَّذِينَ تَهْزَأُ بِهِمْ؛
وَمِنْ بَيْنِ مُجَوَّهَرَاتِكَ لَيْسَ الرُّعْبُ أَقْلَهَا فِتْنَةً،
وَالْقَتْلُ، إِحْدَى حُلِيِّكَ الصَّغِيرَةِ الْأَثِيرَةِ،
يَتَرَاقِصُ بِوَلِّهِ فَوْقَ بَطْنِكَ الْمُتَعَجِّرَةِ.

الْفَرَّاشَةُ الْمُبْهُورَةُ تَطِيرُ نَحْوَكَ، أَيُّهَا الشَّمْعَةُ،
تَفْرِقُ، تَخْتَرِقُ وَتَقُولُ: مُبَارَكٌ هَذَا اللَّهَبُ!
وَالْعَاشِقُ اللَّاهُثُ الْمُنْحَبِي عَلَى حَبِيبَتِهِ
لَهُ سِيْمَاءٌ مُحْتَضِرٌ يُرَبِّتُ عَلَى ضَرِيحِهِ.

مَا أَهَمِّيَّةٌ أَنْ تَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ أُمُّ الْجَحِيمِ،
أَيُّهَا الْجَمَالُ! أَيُّهَا الْوَحْشُ الْهَائِلُ، الْمُرْعِبُ، الْبَرِيءُ!
إِذَا مَا فَتَحْتَ لِي عَيْنُكَ وَابْتَسَمْتُكَ وَقَدَمْتُكَ الْبَابَ
إِلَى لَانِهَائِي أَحِبُّهُ وَلَمْ أَعْرِفْهُ أَبَدًا؟

مِنَ الشَّيْطَانِ أُمُّ اللَّهِ، مَاذَا يَهُمُّ؟ مَلَكَ أُمُّ حُورِيَّةٍ بَحْرٍ،
مَاذَا يَهُمُّ، لَوْ - كَجَنِّيَّةٍ ذَاتِ عَيْنَيْنِ مِنْ مَحْمَلٍ،
وَأَيْقَاعٍ وَعِطْرِ وَإِسْرَاقٍ، آهَ مَلِكَيْتِي الْفَرِيدَةِ!
جَعَلْتَ الْكَوْنَ أَقَلَّ دِمَامَةً وَاللَّحْظَاتِ أَقَلَّ وَطْأَةً؟

عطر غراشي

عِنْدَمَا أُنْشِقُ عَيْبَرَ ثَدِيكَ السَّاحِنِ،
مُغْمَضُ الْعَيْنَيْنِ، فِي أُمْسِيَةِ خَرِيفِيَّةٍ حَارَّةٍ،
أَرَى مَبْسُوطَةً أَمَامِي شَوَاطِيَّ سَعِيدَةٍ
مَبْهُورَةً بِنِيرَانِ شَمْسٍ ثَابِتَةٍ؛

جَزِيرَةٌ كَسُولَةٌ تَمْنَحُهَا الطَّبِيعَةُ
أَشْجَارًا فَرِيدَةً وَثَمَارًا شَهِيَّةً؛
وَرِجَالًا أَجْسَادُهُمْ نَحِيلَةٌ وَقَوِيَّةٌ،
وَنِسَاءٌ عُيُونُهُنَّ مُذْهِلَةٌ بِصَرَاحَتِهَا.

مُنْقَادًا بِعَيْبِيرِكَ نَحْوَ مَنَاحَاتٍ سَاحِرَةٍ،
أَرَى مِينَاءَ مُزْدَحِمًا بِالْأَشْرَعَةِ وَالصَّوَارِي
الْمُرْهَقَةِ مَا تَرَأَى مِنَ الْمَوْجِ الْبَحْرِيِّ،

فِيمَا أَرِيحُ شَجَرَ التَّمْرِ الْهِنْدِيِّ الْأَخْضَرَ،
الَّذِي يَتَشَبَّهُ فِي الْهَوَاءِ وَيُفَعِّمُ أَنْفِي،
يَمْتَرِجُ فِي رُوحِي بَغْنَاءَ الْبَحَّارَةِ.

خُصْلَةُ الشَّعَرِ

أَيُّهَا الْخُصْلَةُ، الْمُجَعَّدَةُ حَتَّى الْعُنُقِ!
 أَيُّهَا التَّجْعِيدَاتُ! أَيُّهَا الْعَبِيرُ الْمُفْنَعُمُ بِالْفُتُورِ!
 أَيُّهَا النَّسْوَةُ! كَيْ أَعْمُرَ الْمَخْدَعُ الْمُعْتَمَ هَذَا الْمَسَاءَ
 بِذِكْرِيَّاتٍ نَائِمَةٍ فِي هَذِهِ الْخُصْلَةِ،
 أُرِيدُ أَنْ أُلَوِّحَ بِهَا فِي الْهَوَاءِ كَمِنْدِيلٍ!

فَأَسَيَا الْكَسْلَى وَإِفْرِيقِيَا الْمُتَّقِدَةَ،
 عَالَمٌ كَامِلٌ بَعِيدٌ، وَغَائِبٌ، شَبَهَ مَيِّتٍ،
 يَحْيَا فِي أَعْمَاقِكَ، أَيُّهَا الْغَابَةُ الْعَطِرَةُ!
 وَمِثْلَمَا تُبْجِرُ أَرْوَاحُ أُخْرَى فِي الْمَوْسِقَى،
 فَرُوحِي، يَا حُبِّي! تَسْبُحُ فِي عَبِيرِكَ.

سَآمُضِي إِلَى هُنَاكَ، حَيْثُ الشَّجَرُ وَالْإِنْسَانُ، الْمُتَرَعَانِ بِالنَّسْغِ،
 مُخَدَّرَانِ طَوِيلًا تَحْتَ وَقْدَةِ الْمَنَاخِ؛

فَلتَكُونِي - أَيُّهَا الصَّفَائِرُ الْقَوِيَّةُ - الْمَوْجَةَ الَّتِي تَحْمِلُنِي!
فَأَنْتِ تَنْطَوِينَ - يَا بَحْرَ الْأَبْنُسِ - عَلَى حُلْمٍ بَاهِرٍ
بِالْأَشْرَعَةِ، وَالْمُجَذِّفِينَ، وَالنَّيْرَانَ وَالصَّوَارِي:

مِينَاءُ بَاهِرٌ يُمَكِّنُ فِيهِ لِرُوحِي أَنْ تَعْبَ
فِي دَفَقَاتِ هَائِلَةِ الْعَبِيرِ وَالصَّوْتِ وَاللَّوْنِ؛
حَيْثُ السُّفْنُ، الْمُنْسَابَةُ فِي الذَّهَبِ وَالنَّسِيجِ الْمُتَمَاجِ،
تَقْتَحُ أَذْرَعَتَهَا الشَّاسِعَةَ لِتُعَانِقَ مَجْدَ سَمَاءٍ صَافِيَةٍ
يَنْبِضُ فِيهَا الدَّفْءُ الْأَبَدِي.

صَاغَمُرُ رَأْسِي الشَّغُوفَةَ بِالسُّكْرِ
فِي هَذَا الْمُحِيطِ الْأَسْوَدِ الَّذِي يَسْجُنُ مُحِيطًا آخَرَ؛
وَفَكْرِي الثَّاقِبُ الَّذِي يُدْغِدُهُ الْمَوْجُ
صَيَغَمُرُ عَلَيْكَ مِنْ جَدِيدٍ، أَيُّهَا الْكَسَلُ الْخَصِيبُ!
أَيُّهَا الْهَذَهْدَاتُ اللَّانِيهَاتِيَّةُ لَوْ قَتِ الْفَرَاغُ الْمُعْطَرَّ!

أَيُّهَا الشَّعْرُ الْأَزْرَقُ، الْخَيْمَةُ الْمَمْدُودَةُ مِنْ ظُلُمَاتِ،
تَجْعَلُ لِي زُرْقَةَ السَّمَاءِ هَائِلَةً وَمُسْتَدِيرَةً؛
وَعَلَى الْحَوَافِّ الرَّغْبِيَّةِ لِحُصْلَاتِكَ الْمُتَلَوِيَّةِ
أَتَشْبِي بِشَوْقٍ بِالرَّوَائِحِ الْمَمْزُوجَةِ
لِزَيْتِ جُوزِ الْهِنْدِ وَالْمِسْكِ وَالْقَطْرَانِ.

طَوِيلًا! دَائِمًا! سَتَبْدُرُ يَدِي فِي شَعْرِكَ الْغَزِيرِ الثَّقِيلِ
الْيَاقُوتَ وَاللُّؤْلُؤَ وَاللَّازُورَدَ،
حَتَّى لَا تَكُونِي صَمَاءً أَبَدًا أَمَامَ رَغْبَتِي!
أَلَسْتُ الْوَاحَةَ الَّتِي أَحْلُمُ بِهَا،
وَالْقَدَحَ الَّذِي أَحْتَسِي مِنْهُ فِي رَشَفَاتِ طَوِيلَةِ خَمَرِ الذِّكْرِ؟

مَثَلُ حَشْدٍ مِنَ الدِّيدَانِ^(١)

أَعَشَقُكَ مِثْلَ قُبَّةِ السَّمَاءِ اللَّيْلِيَّةِ،
يَا زَهْرِيَّةَ الْأَسَى، أَيْتُهَا الصَّامِتَةُ الْعَظِيمَةُ،
وَأُحِبُّكَ أَكْثَرَ - أَيْتُهَا الْجَمِيلَةُ - عِنْدَمَا تَهْرُبِينَ مِنِّي،
وَعِنْدَمَا تَبْدِينَ لِي، يَا زِينَةَ كَيْالِي،
وَأَنْتِ تَزِيدِينَ بِصُورَةٍ سَاخِرَةٍ مِنَ الْمَسَافَاتِ
الْفَاصِلَةِ بَيْنَ ذِرَاعِي وَالرَّحَابَةِ الرَّزْقَاءِ.

أَتَقَدَّمُ إِلَى الْهُجُومِ، وَأَتَسَلَّقُ إِلَى الْاِفْتِحَامِ،
مِثْلَ حَشْدٍ مِنَ الدِّيدَانِ عَلَى جُثَّةٍ،
وَأَعْبُدُ، أَيُّهَا الْحَيَوَانُ الْقَاسِي الْعَنِيدُ!
حَتَّى هَذِهِ الْبُرُودَةُ الَّتِي تَجْعَلُكَ عِنْدِي أَجْمَلَ!

﴿١﴾ القصيدة - أصلاً - بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

أَيُّهَا الْخَزْيُ السَّامِي^(١)

سَتَضَعِينَ الْعَالَمَ كُلَّهُ إِلَى جَنْبِ سَرِيرِكَ،
 أَيُّهَا الْمُدَنَّسَةُ! لَكِنَّ الضَّجَرَ يَجْعَلُ رُوحَكَ قَاسِيَةً.
 وَكَيْ تُدَرِّبِي أَسْنَانَكَ عَلَى هَذِهِ اللَّعْبَةِ الْفَرِيدَةِ،
 لَا بُدَّ لَكَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ قَلْبٍ فِي الْمِرْزُودِ.
 عَيْنَاكَ، الْمُضَاءَتَانِ كَالْحَوَانِيتِ
 وَأَعْمِدَةُ الْإِنَارَةِ الْمُتَوَهَّجَةِ فِي الْأَحْتِفَالَاتِ الْعَامَّةِ،
 تَسْتَخْدِمَانِ بَوَاقِحَ قُوَّةٍ مُسْتَعَارَةٍ،
 دُونَ مَعْرِفَةٍ أَبَدًا بِقَانُونِهَا الْجَمَالِيِّ.

أَيُّهَا الْآلَةُ الْعَمِيَاءِ الصَّمَاءِ، الْخِصْبَةُ بِالْقَسْوَةِ!
 الْأَدَاةُ الشَّافِيَةُ، الشَّارِبَةُ لِدَمِ الْعَالَمِ،
 كَيْفَ لَمْ تُحْسِنِي بِالْعَارِ وَلَمْ تَرَيِ

(١) القصيدة - أصلاً - بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

مَعَاتِكَ تَذُوي فِي جَمِيعِ الْمَرَايَا؟
 وَعَظْمَةُ هَذَا الشَّرِّ الَّذِي تَظُنُّنَ نَفْسَكَ خَيْرَةً بِهِ
 أَلَا تَدْفَعُكَ أَبَدًا إِلَى التَّرَاجُعِ هَلَعًا،
 عِنْدَمَا تَسْتَخْدِمُكَ الطَّبِيعَةُ، الْعَظِيمَةُ فِي أَهْدَافِهَا الْخَفِيَّةِ،
 أَيُّهَا الْمَرْأَةُ، يَا مَلِكَةَ الرِّذَائِلِ،
 - أَيُّهَا الْحَيَوَانُ الدِّنْيِيُّ - فِي شَكْلِ جَنِّي؟

أَيُّهَا الْعَظْمَةُ الْمُوَحِّلَةُ! أَيُّهَا الْخِزْيُ السَّامِي!

بِلاَ إِشْبَاعٍ^(١)

أَيُّهَا الرَّبَّةُ الْغَرِيبَةُ، السَّمَرَاءُ مِثْلَ اللَّيَالِي،
ذَاتِ الْعِطْرِ الْمَزِيجِ مِنَ الْمِسْكِ وَالطَّبَاقِ،
يَا عَمَلِ سَاحِرٍ إِفْرِيقِيَّ، يَا فَاوَسْتَ السُّهُولِ الْمُعْشِبَةِ،
أَيُّهَا الْمُشْعُوذَةُ ذَاتِ الْخَضِرِ الْأَبْنُوسِيِّ، يَا ابْنَةَ مُنْتَصَفِ اللَّيَالِي السَّوْدَاءِ،

بَدَلًا مِنَ الْخَمْرِ الْإِفْرِيقِيَّةِ، وَالْأَفْيُونِ، وَخَمْرِ بِيرِ جَنْدِي،
أَفْضَلَ إِكْسِيرِ فَمِكَ الَّذِي يَتَبَخَّرُ فِيهِ الْحُبُّ؛
وَعِنْدَمَا تَزْحَلُ إِلَيْكَ شَهَوَاتِي فِي قَافِلَةٍ،
تُصْبِحُ عَيْنَاكَ الْحَوْضَ الَّذِي يَرْتَوِي مِنْهُ ضَجْرِي.

مِنْ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ الْوَاسِعَتَيْنِ السَّوْدَاوَيْنِ، نَافَذَتِي رُوحُكَ،

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية (SED NON SATIATA). والجملة مستمدة من مسرحية للشاعر اللاتيني «جوفينال»، وتتعلق «بميسالين»، زوجة الإمبراطور كلود: «وَحِينَ ضَجَرَتْ مِنَ الرِّجَالِ - لَكِنِ بِلاَ إِشْبَاعٍ - اعْتَرَلَتْ».

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ بِلَا رَحْمَةٍ! فَلْتَقَلِّلِي مِنْ لَهْيِكَ الْمَشُورِ عَلَيَّ؛
لَسْتُ نَهَرَ سَتِيكْس^(١) لَأُعَانِقَكَ لِتَأْسِعَ مَرَّةً،

وَأَسْفَاهُ! وَلَا أَسْتَطِيعُ - أَيُّهَا السَّعْلَةُ الْفَاجِرَةُ،
حَتَّى أَكْسِرَ إِرَادَتَكَ وَأَضْعِكَ فِي مَأْزَقٍ -
أَنْ أَصْبِحَ بَرُوسِيرِينَ فِي جَحِيمِ سَرِيرِكَ!

(١) نهر الجحيم، في الأساطير اليونانية. وكان لا بد من عبوره تسع مرات لبلوغ الضفة الأخرى. «بروسيرين»: زوجة «بلوتون»، ملك الجحيم.

امْرَأَةٌ عَقِيمٌ^(١)

فِي ثِيَابِهَا الْمُتَمَاجِةِ الْمُتَمِيعَةِ،
حَتَّىٰ عِنْدَمَا تَمْشِي تَحْسِبُهَا تَرْقُصُ،
مِثْلَ تِلْكَ الْأَفَاعِي الطَّوِيلَةِ الَّتِي يُرْقِصُهَا الْمُشْعُودُونَ الْمُقَدَّسُونَ
عَلَىٰ أَطْرَافِ عَصِيَّتِهِمْ مَعَ الْإِيقَاعِ.

مِثْلَ الرِّمَالِ الْكَثِيبَةِ وَرُزْقَةِ سَمَاءِ الصَّحَارِي،
الَّتِي لَا تُحْسُ بِالْمُعَانَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ،
مِثْلَ الشَّبَكَاتِ الطَّوِيلَةِ لِمَوْجِ الْبَحَارِ،
تَعْرِضُ نَفْسَهَا بِلاَ مَبَالَاةٍ.

عَيْنَاهَا اللَّامِعَتَانِ مَجْبُولَتَانِ مِنْ مَعَادِنِ فَاتِنَةٍ،
وَفِي هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْغَرِيبَةِ وَالرَّمْزِيَّةِ

(١) القصيدة - أصلاً - بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

حَيْثُ الْمَلَائِكَةُ الْمَصُونُونَ يَمْتَرِجُونَ بِأَبِي الْهَوْلِ الْعَتِيقِ،

حَيْثُ لَا شَيْءَ سِوَى ذَهَبٍ وَصُلْبٍ وَضَوْءٍ وَمَاسٍ،
تَتَأَلَّقُونَ أَبَدًا - مِثْلَ نَجْمٍ بِلاَ جُدْوَى -
الْعَظْمَةُ الْبَارِدَةُ لَامْرَأَةٍ عَقِيمٍ.

الأفقى الراقصة

كَمْ أُحِبُّ، أَيُّهَا الْكُسُولُ، أَنْ أَرَى،
 مِنْ جَسَدِكَ الْجَمِيلِ،
 مِثْلَ نَسِيجِ مُمَاجِجِ،
 بَشَرَتِكَ الْمُتَمَتِّعَةِ!

عَلَى خُصْلَةِ شَعْرِكَ الْحَالِكَةِ،
 ذَاتَ الْعُطُورِ اللَّادِعَةِ،
 بَحْرُ عَطِيرٍ شَارِدِ
 ذُو أَمْوَاجٍ زَرْقَاءَ وَدَاكِنَةٍ،

وَمِثْلَ سَفِينَةٍ تَضْحُو
 فِي رِيَّاحِ الصَّبَاحِ،
 تُقْلِعُ رُوحِي الْحَالِمَةَ
 إِلَى سَمَاءٍ بَعِيدَةٍ.

عَيْنَاكِ - اللَّتَانِ لَا يَتَجَلَّى فِيهِمَا أَبَدًا
لَا الْعَذْبُ وَلَا الْمَرِيرُ -

جَوْهَرَتَانِ بَارِدَتَانِ فِيهِمَا يَمْتَزَجُ
الذَّهَبُ بِالْحَدِيدِ.

وَلَدَى رُؤْيَاكِ تَمْشِينَ بِخُطَى مُوقَعَةٍ،
جَمِيلَةٍ بِالْعَفْوِيَّةِ،
يَرَاكِ الْمَرْءُ أَفْعَى تَرْقُصُ
عَلَى طَرْفِ عَصَا.

وَتَحْتَ وَطْأَةِ كَسَلِكَ
تَتَمَايَلُ رَأْسُكِ الطُّفُولِيَّةِ
فِي رَخَاوَةٍ

فِيهِ صَغِيرٌ،

وَجَسَدُكِ يَمِيلُ وَيَطُولُ
مِثْلَ سَفِينَةٍ رَشِيقَةٍ
تَدُورُ مِنْ ضِفَّةٍ لِأُخْرَى
وَتَغْمُرُ صَوَارِيهَا فِي الْمَاءِ.

وَمِثْلَ مَوْجَةٍ تَكْبُرُ بِذَوْبَانِ
الثلُوجِ الْهَادِرَةِ،

عِنْدَمَا يَصْعَدُ الْمَاءُ مِنْ فَمِكَ
إِلَى حَافَةِ أَسْنَانِكَ،

يُخَيِّلُ لِي أَنِّي أَحْتَسِي خَمْرَ بُوهِيمِيَا،
الْمَرِيرَ الْقَاهِرَ،
كَسَمَاءٍ سَائِلَةٍ تَنْثُرُ
النُّجُومَ عَلَى قَلْبِي!

جُثَّة

فَلْتَسْعِيْدِي - يَا نَفْسُ - مَا شَهِدَنَاهُ

ذَلِكَ الصَّبَاحَ الْجَمِيلَ مِنْ صَيْفٍ عَذْبٍ:

فَعِنْدَ انْعِطَافَةٍ دَرْبٍ ضَيِّقٍ كَانَتْ جُثَّةٌ شَائِئِهِةٌ

عَلَى سَرِيرٍ مَلِيٍّ بِالْحَصَى،

وَالسَّاقَانِ فِي الْهَوَاءِ، مِثْلَ امْرَأَةٍ شَبَقَةٍ،

تَكْتَوِي وَتَنْزُ السُّمُومَ،

كَانَتْ تَفْتَحُ - بِطَرِيقَةٍ لَامْبَالِيَةٍ وَقِيحَةٍ -

بَطْنَهَا الْمَلِيَّ بِالرَّوَائِحِ الْكَرِيهِةِ.

كَانَتْ الشَّمْسُ تَسْطَعُ عَلَى هَذَا الْعَفْنِ،

كَأَنَّمَا مِنْ أَجْلِ طَهْيِهَا تَمَامًا،

وَلِتُقَدَّمَ إِلَى الطَّبِيعَةِ الْعَظِيمَةِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً

مِمَّا كَانَ كُلُّهُ مُتَرَابِطًا الْأَوْصَالِ؛

كَانَتْ السَّمَاءُ تَشْهَدُ هَذَا الْهَيْكَلَ الْعَظِيمِي الرَّائِعِ
مِثْلَ زَهْرَةٍ تَتَفَتَّحُ.

وَكَانَ النَّتْنُ قَوِيًّا، حَتَّى لَتَظُنَّ
أَنَّ الإِغْمَاءَ سَيَتَّبِئُكَ عَلَى الْعُشْبِ.

الذُّبَابُ يَطِيرُ عَلَى هَذِهِ الْبُطْنِ الْمُتَحَلِّلَةِ،
الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهَا أَفْوَاجُ سَوْدَاءَ
مِنْ يَرَاقَاتٍ، تَنْسَابُ مِثْلَ سَائِلٍ كَثِيفٍ
عَلَى امْتِدَادِ هَذِهِ الْأَسْمَالِ الْحَيَّةِ.

كُلُّ ذَلِكَ يَهْبِطُ، يَصْعَدُ مِثْلَ مَوْجَةٍ،
أَوْ يَنْطَلِقُ مُحْتَدِمًا؛
يَبْدُو أَنَّ الْجُنَّةَ، الْمُتَنَفِّخَةَ بِرِيحِ غَامِضَةٍ،
كَانَتْ تَعِيشُ حَيَاةَ مُضَاعَفَةٍ.

وَكَانَ هَذَا الْعَالَمُ يُصْدِرُ مُوسِيقَى غَرِيبَةٍ،
مِثْلَ الْمَاءِ الْجَارِي وَالرَّيْحِ،
أَوْ الْحُبُوبِ الَّتِي يَهْزُهَا الْمُغْرِبُ بِحَرَكَةِ إِيقَاعِيَّةٍ
وَيُدِيرُهَا فِي غُرْبَالِهِ.

امَحَتِ الْأَشْكَالُ وَلَمْ يَبَقْ سِوَى حُلَمٍ،
رَسَمٌ أَوَّلِيَّ بَطِيءٌ فِي الْمَجِيءِ،
إِلَى اللَّوْحَةِ الْمَنْسِيَةِ، وَلَا يُنْجِزُهَا الْفَنَانُ
إِلَّا مِنَ الذِّكْرِى وَحْدَهَا.

وَوَرَاءَ الصُّخُورِ، كَلْبَةٌ فَلَقَةٌ
تَنْظُرُ إِلَيْنَا بِعَيْنٍ غَاضِبَةٍ،
فِي انْتِظَارِ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَنْهَشُ فِيهَا مِنَ الْهَيْكَلِ الْعَظَمِيِّ
الْقِطْعَةَ الَّتِي تَرَكْنَاهَا.

وَمَعَ ذَلِكَ فَسَتَكُونِينَ شَبِيهَةً بِهَذَا الْوَسْخِ،
بِهَذَا الْعَقَنِ الْمُفْرَعِ،
يَا نَجْمَةَ عُيُونِي، يَا شَمْسَ طَبِيعَتِي،
أَنْتِ، يَا مَلَائِكِي وَنَزَوْتِي!

حَقًّا! هَكَذَا سَتَكُونِينَ، يَا مَلِكَةَ الْمَحَاسِنِ،
بَعْدَ الْقَرَابِينِ الْأَخِيرَةِ،
عِنْدَمَا تَمْضِينَ، تَحْتَ الْعُشْبِ وَالْأَزْدِهَارِ الْعَمِيمِ،
فِي التَّحَلُّلِ وَسَطِ الْعِظَامِ.

هَكَذَا، يَا فَائِتِي! فَلْتَقُولِي لِلدُّودِ
الَّذِي سَيَنْهَشُكَ بِالْقُبُلَاتِ،
إِنِّي حَفِظْتُ الشَّكْلَ وَالْجَوْهَرَ الرَّبَّانِيَّ
لِحَبِيبَاتِي الْمُتَحَلِّلاتِ!

مِنَ الْأَعْمَاقِ صَرَخْتَ^(١)

أَتَوْسَلُ رَحْمَتِكَ، أَنْتِ، الْوَحِيدَةُ الَّتِي أُحِبُّهَا،
مِنَ أَعْمَاقِ الْهُوَّةِ الْمُظْلِمَةِ الَّتِي هَوَى فِيهَا قَلْبِي.
هُوَ كَوْنٌ كَثِيبٌ أَفْقُهُ رَصَاصِي،
حَيْثُ يَسْبَحُ فِي اللَّيْلِ الرُّعْبُ وَالتَّجْدِيفُ؛

شَمْسٌ بِلاَ حَرَارَةٍ تَسْطَعُ فِي الْأَعْلَى سِتَّةَ شُهُورٍ،
وَفِي الشُّهُورِ السَّتَّةِ الْأُخْرَى يُعْطِي اللَّيْلُ الْأَرْضَ؛
بَلَدٌ أَكْثَرُ عُرْيَا مِنَ الْأَرْضِ الْقُطَيْبَةِ؛
لَا حَيَوَانَاتٍ، وَلَا يَنَابِيعَ، لَا خُضْرَةَ، وَلَا غَابَاتٍ!

هَكَذَا فَلَا رُغْبَ فِي الْعَالَمِ
أَكْثَرُ مِنَ الْبُرُودَةِ الْقَاسِيَةِ لِهَذِهِ الشَّمْسِ الثَّلْجِيَّةِ

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية (DE PROFUNDIS CLAMAVI).

وَهَذَا اللَّيْلِ الْهَائِلِ الشَّيْبِ بِالسَّيْدِ الْقَدِيمِ؛

أَحْسُدْ مَصِيرَ أَحَقَرِ الْحَيَوَانَاتِ
الَّتِي يُمَكِّنُهَا أَنْ تَغُطَّ فِي نَوْمِ بَلِيدٍ،
إِلَى أَنْ تَنْحَلَّ بِبُطْءٍ عُقْدَةُ الزَّمَنِ!

مَصَاصَةُ الدَّمَاءِ

أَنْتِ الَّتِي اخْتَرَفْتَ قَلْبِي الْمُتَوَجِّعَ،
كَطَعْنَةِ سِكِّينَ،
أَنْتِ، الْقَوِيَّةُ مِثْلَ قَطِيعٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ،
جِئْتِ، مَجْنُونَةً مُتَبَرِّجَةً،

لِتَسْخِذِي مِنْ رُوحِي الذَّلِيلَةَ
مَمْرِيْرِكَ وَمُلْكِكَ؛
- أَيْتُهَا الشَّائِنَةُ الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِهَا
كَارْتِبَاطِ الْمُدَانِ بِالْقُيُودِ،

وَارْتَبَاطِ الْمُقَامِرِ الْعَنِيدِ بِالْمُقَامَرَةِ،
وَالسَّكْرِ بِالْقِنِيِّنَةِ،
وَالدَّيْدَانِ بِالْجُنَّةِ،
- أَيْتُهَا الْمَلْعُونَةُ، عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ!

تَأَشَّدْتُ السَّيْفَ الْخَاطِفَ
أَنْ يَطْفَرَ بِحُرِّيَّتِي،

وَطَلَبْتُ مِنَ السَّمِّ النَّاقِعَ
أَنْ يُغِيثَ جُبْنِي.

وَأَسْفَاهُ! فَالْشُّمُّ وَالسَّيْفُ
عَامِلَانِي بِاخْتِقَارٍ وَقَالَا لِي:
«لَسْتَ جَدِيرًا بِالتَّحَرُّرِ
مَنْ عُوذَتْكَ اللَّعْنَةُ،

أَيُّهَا الْعَبِي! - لَوْ كَانَتْ جُهْدُنَا
تُخَلِّصُكَ مِنْ أَمِيرِ أَطُورِيَّتِهَا،
لَأَعَادَتْ قُبُلَاتُكَ إِلَى الْحَيَاةِ
جُثَّةً مَصَاصَةً دِمَائِكَ! »

Ça va, l'homme au long de l'oreille
 Dans son ~~ses~~ ^{sa} ~~long~~ ^{plante} ~~à~~ ^à ~~son~~ ^à,
 Ça va, comme un ~~hiking~~ ^{hiking} ~~troupeau~~
 De démons, vins, fols is paré.

De mon cœur, humble
Fais ton lit, et ton domaine
Hélas à qui je l'ai
Comme le garçon à la chaîne

Comme au feu le pauvre têt,
Comme à la bouteille l'ivrogne,
Comme aux versains la Charogne,
Maudite, maudite fin-tu!

J'ai pu le glorieux rapide
De l'orgueil me libérer,
En j'indis en prison perpète
De l'orgueil pleurer me libérer.

Heïes! Le pavon et le glorieux
M'en ont pris en disant, m'en ont dit:
Ça n'est pas digne qu'on t'en loue
À ton mariage maudit.

Immobilier! De son empire
 Les profits se défont,
 Les baux résistent
 Le cadavre du bon vampire.

Charles Baudelaire.

مخطوط قصيدة «مصاصة الدماء»

كُجَّةٌ مُمَدَّدَةٌ^(١)

فِيمَا كُنْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ بِجَوَارِ يَهُودِيَّةٍ بِشَعَةِ،
 كُجَّةٌ مُمَدَّدَةٌ بِامْتِدَادِ جُثَّةٍ،
 وَخْتُ أَفَكَّرْتُ بِجَوَارِ هَذَا الْجَسَدِ الْمُشْتَرَى
 فِي الْجَمَالِ الْكَئِيبِ الَّذِي تَحْرِمُ شَهْوَتِي نَفْسَهَا مِنْهُ.

صَوَّرْتُ لِنَفْسِي عَظَمَتَهَا الْفِطْرِيَّةَ،
 نَظَرْتُهَا الْمُسَلَّحَةَ بِالْقُوَّةِ وَالْمَحَاسِنِ،
 وَشَعْرَهَا الَّذِي جَعَلَتْهُ خَوْذَةً مُعْطَرَّةً،
 وَذَكَرَاهِ الْيَبِّي تَوَجَّجَنِي لِلْحُبِّ.

فَقَدْ كَانَ لِي أَنْ أُقْبَلَ بِشَغَفٍ جَسَدِكَ النَّيْلِ،
 وَمِنْ قَدَمَيْكَ النَّدِيَّتَيْنِ حَتَّى ضَفَائِرِكَ الْفَاحِمَةِ
 أَنْشُرَ كَنْزَ الْمُدَاعِبَاتِ الْعَمِيقَةِ،

(١) القصيدة - أصلاً - بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

لَوْ اسْتَطَعْتُ، ذَاتَ مَسَاءٍ، يَا مَلِكَةَ الْقَاسِيَّاتِ،
وَبِدَمْعَةٍ تَأْتِي بِلَا عَنَاءٍ،
أَنْ تَحْجُبِي عَنِّي أَلَقَ عَيْنَيْكَ الْبَارِدَتَيْنِ.

نَدَمٌ مُتَأَخَّرٌ

عِنْدَمَا سَتَرْتُ قُدَيْنَ، يَا جَمِيلَتِي الْمُظْلِمَةَ،
 فِي أَعْمَاقِ صَرِيحٍ مِنْ رُخَامٍ أَسْوَدَ،
 وَعِنْدَمَا لَا يَكُونُ لَدَيْكَ كَمْضَجٌ أَوْ قَصِيرٌ رِيفِي
 إِلَّا سِرْدَابٌ مَطِيرٌ وَحُفْرَةٌ جَوْفَاءُ؛

وَعِنْدَمَا يَمْنَعُ الْحَجَرُ، وَهُوَ يَخْنُقُ صَدْرَكَ الْخَائِفَ
 وَخَصْرَيْكَ اللَّذِينَ يُلِينُهُمَا سِحْرٌ لَا مَبَالَ،
 قَلْبِكَ مِنَ الْخَفَقَانِ وَالرَّغْبَةِ،
 وَقَدَمَيْكَ مِنَ الرَّكْضِ فِي الشَّوْطِ الْمُغَامِرِ،

فَالْقَبْرِ، الْمُؤْتَمِنُ عَلَى حُلْمِي اللَّائِنِهَايِ
 (ذَلِكَ أَنَّ الْقَبْرَ سَيَفْهَمُ الشَّاعِرَ أَبَدًا)،
 خِلَالَ تِلْكَ اللَّيَالِي الْعَظِيمَةِ بِلا نُعَاسِ،

سَيَقُولُ لَكَ: «أَيُّهَا الْعَاهِرَةُ الشَّائِئَةُ، مَاذَا أَفَدْتَ
بَعْدَ مَعْرِفَةِ مَا يَنْوُحُ عَلَيْهِ الْمَوْتَى؟»
- وَسَيَلْتَهُمُ الدُّودُ جِلْدَكَ مِثْلَ النَّدَمِ.

القط

تَعَالَ - يَا قِطِّي الْجَمِيلَ - فَوْقَ قَلْبِي الْعَاشِقِ؛
 فَلْتَحْبِسْ مَخَالِبَكَ،
 وَدَعْنِي أَغْرُقُ فِي عَيْنَيْكَ الْجَمِيلَتَيْنِ،
 اللَّتَيْنِ يَمْتَرِجُ فِيهِمَا الْمَعْدِنُ بِالْعَقِيقِ.

عِنْدَمَا تُدَاعِبُ أَصَابِعِي فِي وَقْتِ الْفَرَاغِ
 رَأْسَكَ وَظَهْرَكَ الطَّيِّعَ،
 وَعِنْدَمَا تَنْتَشِي يَدِي مِنْ مُنْعَةٍ
 التَّرْيِيبِ عَلَى جَسَدِكَ الْمُثِيرِ،

أَرَى امْرَأَتِي فِي الْخَيَالِ. نَظَرْتُهَا،
 مِثْلَ نَظَرَتِكَ، أَيُّهَا الْحَيَوَانُ الْحَبِيبُ،
 عَمِيقَةً وَبَارِدَةً، تَقْطَعُ وَتَخْتَرِقُ مِثْلَ سَهْمٍ،

وَمِنْ الْقَدَمَيْنِ حَتَّى الرَّأْسِ،
 سِيمَاءٌ مُرْهَفَةٌ، وَأَرِيحُ خَطِرَ
 يَوْمٍ حَوْلَ جَسَدِهَا الْأَسْمَرِ.

مُبَارَزَةٌ^(١)

انْدَفَعَ مُقَاتِلَانِ أَحَدُهُمَا نَحْوَ الْآخَرِ؛
 لَطَّخَ سِلَاحُهُمَا الْهَوَاءَ بِالْأَضْوَاءِ وَالْدَّمَاءِ.
 هَذِهِ الْأَلْعَابُ، فَغَقَعَاتُ الْحَدِيدِ هَذِهِ هِيَ ضَجِيجُ
 سَبَابِ فَرِيَسَةٍ لِلْحُبِّ الصَّارِخِ.

انْكَسَرَ السِّيفَانِ! مِثْلَ سَبَابِنَا،
 يَا عَزِيزَتِي! لَكِنَّ الْأَسْنَانَ وَالْأَظْفَارَ الْحَادَّةَ،
 سَرَّعَانَ مَا تَتَأَرَّزُ لِلْسِّيفِ وَالْخِنْجَرِ الْخَائِنِ.
 - يَا لِعُظْبَةِ الْقُلُوبِ النَّاضِجَةِ الْمَجْرُوحَةِ بِالْحُبِّ!

فِي السَّبِيلِ الَّذِي تَغْشَاهُ الْقِطَطُ الْبَرِّيَّةُ وَالنُّمُورُ
 تَدْخِرُجَ بَطْلَانًا، مُشْتَبِكَيْنِ بِخُبْثِ،

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية (DEULLUM).

وَجِلْدُهُمَا سَيَزْدَهُرُ بِجَدْبِ الْأَشْوَاكِ.

- هَذِهِ الْهَآوِيَّةُ، هِيَ الْجَحِيمُ، الْمَأْهُولُ بِأَصْدِقَائِنَا!
فَلْتَنَحِدِرْ فِيهَا بِلَا نَدَمٍ، كَفَّارِسَةٍ لَّا إِنْسَانِيَّةَ،
مِنْ أَجْلِ تَخْلِيدِ عُتْفِ حَقْدِنَا!

الشُّرْفَةُ

يَا أُمَّ الذُّكْرِيَّاتِ، يَا عَشِيقَةَ الْعَشِيقَاتِ،
 أَنْتِ، كُلُّ رَعْبَاتِي! أَنْتِ، كُلُّ فُرُوضِي!
 سَتَذْكُرِينَ جَمَالَ الْمُدَاعِبَاتِ،
 وَعُذُوبَةَ الْمِدْفَأَةِ وَسِحْرَ الْأُمْسِيَّاتِ،
 يَا أُمَّ الذُّكْرِيَّاتِ، يَا عَشِيقَةَ الْعَشِيقَاتِ!

الْأُمْسِيَّاتِ الْمُضَاءَةُ بِاضْطِرَامِ الْفَحْمِ،
 وَالْأُمْسِيَّاتُ فِي الشُّرْفَةِ، الْمَحْجُوبَةُ بِأَبْخَرَةٍ وَرْدِيَّةٍ.
 كَمْ كَانَ ثَدْيُكَ عَذْبًا لِي! كَمْ كَانَ قَلْبُكَ حَانِيًا عَلَيَّ!
 تَحَدَّثْنَا كَثِيرًا عَنْ أَشْيَاءَ لَا تَفْنَى
 فِي الْأُمْسِيَّاتِ الْمُضَاءَةِ بِاضْطِرَامِ الْفَحْمِ.

مَا أَجْمَلَ الشُّمُوسِ فِي الْأُمْسِيَّاتِ الْحَارَّةِ!
 مَا أَعَمَّقَ الْفَضَاءُ! وَأَقْوَى الْقَلْبُ!

وَأَنَا أَنْحَنِي عَلَيْكَ، يَا مَلِكَةَ الْمَعْشُوقَاتِ،
كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أَنَشَقُّ عِطْرَ دَمِكَ.
فَعَمَّا أَجْمَلَ الشُّمُوسَ فِي الْأُمُسيَّاتِ الْحَارَّةِ!

كَانَ اللَّيْلُ يَتَكَاثَفُ مِثْلَ سُورٍ،
فَتَحَمَّنُ عَيْنَايَ فِي الظُّلْمَةِ عَيْنَيْكَ،
وَأَحْتَسِي أَنْفَاسِكَ، أَيُّهَا الْعُدُوبَةُ! أَيُّهَا السُّمُ!
وَتَنَامُ قَدَمَاكَ فِي يَدَيَّ الْأَخْوِيَّتَيْنِ.
وَكَانَ اللَّيْلُ يَتَكَاثَفُ مِثْلَ سُورٍ.

أَعْرِفُ فَنَّ اسْتِدْعَاءِ اللَّحْظَاتِ السَّعِيدَةِ،
وَأَرَى مِنْ جَدِيدٍ مَاضِيٍّ يَجُتُّ عَلَى رُكْبَتَيْكَ.
إِذَا مَا جَدَوَى الْبَحْثِ عَنْ مَفَاتِنِكَ الْفَائِرَةِ
فِي غَيْرِ جَسَدِكَ الْحَبِيبِ وَقَلْبِكَ الرَّهِيْفِ؟
فَأَنَا أَعْرِفُ فَنَّ اسْتِدْعَاءِ اللَّحْظَاتِ السَّعِيدَةِ.

هَذِهِ الْعُهُودُ، هَذِهِ الْعُطُورُ، وَهَذِهِ الْقُبُلَاتُ اللَّانِهَائِيَّةُ،
أَلَنْ تُوَلَّدَ مِنْ جَدِيدٍ مِنْ هَاوِيَّةٍ لَا تَسْبُرُ أَغْوَارَهَا،
مِثْلَمَا تَصْعَدُ الشُّمُوسُ الْمُتَمَتِّعَةُ إِلَى السَّمَاءِ
بَعْدَ اغْتِسَالِهَا فِي قَرَارَةِ الْبَحَارِ الْغَائِرَةِ؟
أَيُّهَا الْعُهُودُ، أَيُّهَا الْعُطُورُ، أَيُّهَا الْقُبُلَاتُ اللَّانِهَائِيَّةُ!

الممسوس

تَغَطَّتِ الشَّمْسُ بِثِيَابِ الْحِدَادِ. وَمِثْلَهَا،
يَا قَمَرَ حَيَاتِي! فَلْتَلْتَفَّ بِالظِّلِّ؛
فَلْتَنَمْ أَوْ تَدْخُنْ كَمَا تَهْوَى؛ فَلْتَضْمَتْ، وَلْتُعْتِمِ،
وَلْتَغْرُقْ بِكَامِلِكَ فِي هَاوِيَةِ الصَّجَرِ؛

هَكَذَا أُحِبُّكَ! لَكِنْ، إِذَا مَا أَرَدْتَ الْيَوْمَ،
مِثْلَ نَجْمٍ مَخْسُوفٍ يَخْرُجُ مِنَ الْغَبَشِ،
أَنْ تَتَبَخَّرَ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي يَزْدَحِمُ فِيهَا الْجُنُونُ،
فَلَا بَأْسَ! أَيُّهَا الْخَنْجَرُ السَّاحِرُ، فَلْتَخْرُجْ مِنْ غَمْدِكَ!

فَلْتُضَيِّعِي عَيْنَيْكَ بِشُعْلَةِ الشُّرْيَا!
فَلْتُضَيِّعِي شَهْوَتَكَ بِنَظَرَاتِ الْأَفْطَاطِ!
فَكُلِّ مَا فِيكَ يُسْعِدُنِي، سَقِيمًا كَانَ أَمْ نَزِقًا؛

فَلْتَكُنْ كَمَا تَبْغِي، لَيْلًا أَسْوَدَ أَمْ فَجْرًا أَحْمَرَ؛
فَمَا مِنْ عَصَبٍ فِي جَسَدِي الْمُرْتَعِدِ
لَا يَصْرُخُ: آه يَا بَلِزْبُوثَ^(١) الْحَبِيبِ! أَعْشَقُكَ!

(١) أحد أساء الشيطان.

طيف

١- الظُّلُمَات

فِي سَرَادِيبِ الْحُزْنِ بِلَا قَرَارٍ
 حَيْثُ نَفَانِي الْقَدَرِ؛
 حَيْثُ لَا يَنْسِلُ أَبَدًا شُعَاعُ وَرْدِي وَبَهِيحِ؛
 حَيْثُ، وَحِيدًا مَعَ اللَّيْلِ، ذَلِكَ الضَّيْفُ الْكَيْبِ،

أُصْبِحُ مِثْلَ رَسَامٍ حَكَمَ عَلَيْهِ إِلَهٌ سَاخِرٍ
 بِالرَّسْمِ، لِلْأَسَفِ! عَلَى الظُّلُمَاتِ؛
 وَحَيْثُ أَسْلُقُ وَأَكُلُ قَلْبِي،
 مِثْلَ طَبَّاحٍ ذِي شَهِيَّةٍ فَاتِلَةٍ،

يَلْتَمِعُ ذَاتَ لَحْظَةٍ، وَيَمْتَدُّ، وَيَطُولُ
 طَيْفٌ مَجْبُولٌ مِنَ الْحُسْنِ وَالرَّوْعَةِ.
 وَفِي هَيْئَتِهِ الْحَالِمَةِ الشَّرِيقَةِ،

عِنْدَمَا بَلَغَ عَظَمَتَهُ الْكَامِلَةَ،

تَعَرَّفْتُ فِيهِ عَلَى زَائِرَتِي الْجَمِيلَةِ:
إِنَّهَا هِيَ: سَوْدَاءُ وَمَعَ ذَلِكَ مُضِيَّةٌ!

٤- العطر

أَيُّهَا الْقَارِئُ، هَلْ اسْتَنْشَقْتَ أَحْيَانًا
يَنْشَوَةَ وَشَرَاهَةَ بَطِيئَةٍ
هَذَا الْبُخُورَ الَّذِي يُفَعِّمُ كَنِيسَةً،
أَوِ الْمِسْكَ الْمَكِينِ فِي جِرَابٍ مَا؟

فَتَنَّهُ عَمِيقَةً، سَاحِرَةً، تُثِيرُ فِينَا
الْمَاضِيَ الْمُسْتَعَادَ فِي الْحَاضِرِ!
هَكَذَا يَقْطُطُ الْعَاشِقُ مِنْ جَسَدِ مَعْشُوقٍ
وَرَدَّةَ الذِّكْرِ الرَّائِعَةِ.

وَمِنْ شَعْرِهَا اللَّذَنِ الثَّقِيلِ،
كَجِرَابٍ حَيٍّ، كَمُبْخَرَةِ الْمَخْدَعِ،
تَصَاعَدُ رَائِحَتُهُ، بَرِّيَّةٌ وَوَخْشِيَّةٌ،

وَمِنْ الثِّيَابِ، الْمَوْسِلِينَ أَوِ الْقَطِيفَةِ،
الْمُسْتَبَعَةِ بِشَبَابِهَا الصَّافِي،
يَنْبُعُ عَبَقُ الْفِرَاءِ.

مِثْلَ إِطَارٍ جَمِيلٍ يُضِيفُ إِلَى الرَّسْمِ
مَا لَا أَذْرِي مِنْ شَيْءٍ غَرِيبٍ وَسَاحِرٍ،
حَتَّىٰ لَوْ كَانَ الرَّسْمُ بِفُرْشَاءٍ مُتَبَاهِيَةٍ،
بَعَزَلِهِ عَنِ الطَّبِيعَةِ الْهَائِلَةِ،

هَكَذَا الْجَوَاهِرُ، وَالْأَثَاثُ، وَالْمَعَادِنُ، وَالطَّلَاءُ،
تَتَوَافَقُ مَعَ جَمَالِهَا النَّادِرِ؛
وَلَا شَيْءٌ يُعْتِمِدُ إِشْرَاقَهُ الْكَامِلِ،
وَيَبْدُو كُلُّ شَيْءٍ كَحَاشِيَةٍ لَهُ.

بَلْ يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَحْيَانًا إِنَّهُ كَانَ يَظُنُّ
أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَهْفُو إِلَى حُبِّهِ؛ كَانَ
يُغْرِقُ غُرْبَهُ بِصُورَةِ شَهْوَانِيَّةٍ

فِي قِبَلَاتِ السَّاتَانِ وَالْكِتَانِ،
وَيَبْطِئُ أَوْ فَجَاءَ، مَعَ كُلِّ حَرَكَةٍ
كَانَ يُبْدِي الْجَمَالَ الطُّفُولِيَّ لِلْقِرْدِ.

٤- الصُّورَةُ الشَّخْصِيَّةُ

الْمَرَضُ وَالْمَوْتُ يُحِيلَانِ إِلَى رَمَادٍ
كُلَّ النَّيِّرَانِ الَّتِي اشْتَعَلَتْ لَنَا.

فَمِنْ هَذِهِ الْعُيُونِ الْوَاسِعَةِ الْمُتَقَدِّدَةِ وَالرَّهِيْفَةِ،
مِنْ هَذَا الْفَلَمِ الَّذِي غَرِقَ فِيهِ قَلْبِي،

مِنْ هَذِهِ الْقُبُلَاتِ الْقَوِيَّةِ كَثْرِيَّاقِ،
مِنْ هَذِهِ الْفُورَاتِ الْأَكْثَرِ حَيَوِيَّةٍ مِنَ الْأَشْعَةِ،
مَا الَّذِي يَبْقَى؟ ذَلِكَ رَهِيْبٌ، يَا رُوحِي!
لَا شَيْءَ سِوَى رَسْمٍ بَاهِيٍّ، بِثَلَاثَةِ أَفْلَامٍ مُلَوَّنَةٍ،

يَمُوتُ، مِثْلِي، فِي الْعُزْلَةِ،
وَيَكْشُطُهُ الزَّمَنُ، الْعَجُوزُ الْجَارِحُ،
كُلَّ يَوْمٍ بِجَنَاحِهِ الْفَظَّ...

أَيُّهَا الْقَاتِلُ الْأَسْوَدُ لِلْحَيَاةِ وَالْفَنِّ،
لَنْ تَقْتُلَ أَبَدًا فِي ذَاكَرَتِي
مَنْ كَانَتْ مَلَذَّتِي وَمَجْدِي!

كَظِلُّ أَثَرِ زَائِلٍ^(١)

أَقْدَمُ لَكَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ حَتَّى إِذَا مَا بَلَغَ اسْمِي
بِنَجَاحٍ شَاطِئَ الْعُصُورِ النَّائِيَةِ،
وَدَفَعَ الْأَذْهَانَ الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَى الْحُلُمِ ذَاتَ مَسَاءٍ،
كَقَرَابِ تُعِينُهُ رِيَّاحُ شِمَالِيَّةٍ تُبْرِئُ،

تُرْهِقُ ذِكْرَاكَ الْقَارِيَّ كَطَبْلٍ،
مِثْلَ الْخُرَافَاتِ غَيْرِ الْمُؤَكَّدَةِ،
وَتَبْقَى كَأَنَّهَا مُعَلَّقَةٌ بِقَوَافِي الْمُتَعَالِيَةِ
بِحَلَقَةٍ أَخَوِيَّةٍ وَمَجَازِيَّةٍ؛

أَيُّهَا الْكَائِنُ الْمَلْعُونُ الَّذِي لَا يُجِيبُ عَلَيْهِ،
مِنَ الْهََاوِيَةِ الْعَمِيقَةِ حَتَّى أَعَالِي السَّمَاءِ، سِوَايَ!
- أَهْ أَنْتِ مَنْ، كَظِلُّ أَثَرِ زَائِلٍ،

(١) القصيدة - أصلاً - بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

تَحْتَقِرِينَ بِقَدَمٍ طَائِشَةٍ وَنَظَرَةٍ مُشْرِقَةٍ
الْأَغْيَاءَ الْفَانِينَ الَّذِينَ ظَنُّوكَ مَرِيرَةً،
أَيُّهَا التَّمَنُّالُ بَعَيْنَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ، أَيُّهَا الْمَلَاكُ الْعَظِيمُ بِجَبِينٍ مِنْ بُرُونِز!

الشيء نفسه دائماً^(١)

«من أين يأتي هذا الحزنُ الغريبُ، قُلْتُ،
الصَّاعِدُ مِثْلَ الْبَحْرِ عَلَى الصَّخْرَةِ السَّودَاءِ الْعَارِيَةِ؟»
- مَا إِنْ يُحَقِّقَ قُلُبُنَا مَوْسِمَ قِطَافِهِ،
حَتَّى تَتَحَوَّلَ الْحَيَاةُ إِلَى شَرٍّ. ذَلِكَ سِرٌّ يَعْرِفُهُ الْجَمِيعُ،

أَلَمْ يَبْلُغِ الْبَسَاطَةَ وَبِلَا خَفَاءٍ،
وَمِثْلَ فَرْحَتِكَ، جَلِيٍّ لِلْجَمِيعِ.
فَلْتَكْفُنِي إِذَنْ عَنِ الْبَحْثِ، أَتَيْتُهَا الْفُضُولِيَّةُ الْجَمِيلَةَ!
وَرَعَمَ عُدُوبَةِ صَوْتِكَ، فَلْتَصْمُنِي!

اضْمُنِي، أَتَيْتُهَا الْجَاهِلَةَ! أَتَيْتُهَا الرُّوحَ الْمُبْتَهَجَةَ أَبَدًا!
أَيُّهَا الْفَمُ ذُو الصَّحَاكِ الطُّفُولِيِّ! أَكْثَرَ مِنَ الْحَيَاةِ،
كَثِيرًا مَا يَشُدُّنَا الْمَوْتُ بِخُيُوطٍ رَهِيْفَةٍ.

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية (SEMPER EADEM).

فَلْتَدْعِي، دَعِي قَلْبِي يَنْتَشِي بِأُكْذُوبَةٍ،
وَيَغْرُقُ فِي عَيْنَيْكَ الْجَمِيلَتَيْنِ مِثْلَمَا فِي حُلْمٍ جَمِيلٍ،
وَيَعْفُو طَوِيلًا فِي ظِلِّ أَهْدَابِكَ!

آتَى الشَّيْطَانُ هَذَا الصَّبَاحَ
إِلَى عُرْفَتِي الْعُلُويَّةِ لِرُؤْيَتِي،
وَفِي مُحَاوَلَةٍ لَضَبْطِي مُتَلَبِّسًا بِالْخَطَا،
قَالَ لِي: «مَا أَوْدُ مَعْرِفَتِهِ،

مِنْ بَيْنِ كُلِّ الْأَشْيَاءِ الْجَمِيلَةِ
الَّتِي تُشَكِّلُ سِحْرَهَا،
مِنْ بَيْنِ مَا هُوَ أَسْوَدُ أَوْ وَرْدِي
الَّذِي يُؤَلَّفُ جَسَدَهَا الْفَاتِنِ،

مَا هُوَ الْأَعَذْبُ؟». - آه يَا رُوحِي!

أَجَبْتُ الْبَغِيضُ:

«لَأَنَّ كُلَّ مَا فِيهَا تَرَيَاقُ،

فَلَا يُمَكِّنُ تَفْضِيلُ شَيْءٍ.

وَلَاَنَّ الْكُلَّ يُبْهَجُنِي، فَلَا أَذْرِي

مَا إِذَا كَانَ يُغْوِينِي شَيْءٌ مَّا.

إِنَّهَا تُبْهَرُ مِثْلَ الْفَجْرِ

وَتُوَاسِي مِثْلَ اللَّيْلِ؛

وَالْتَنَاضُ بِالْغُرَّاهَةِ،

الَّذِي يُهْمِنُ عَلَى جَسَدِهَا الْجَمِيلِ،

إِلَى حَدٍّ أَلَّا يَلْحَظَ فِيهِ تَحْلِيلٌ وَاهٍ

التَّوَافِقَاتِ الْعَدِيدَةِ.

أَيُّهَا التَّحَوُّلُ الرُّوحِيُّ

لِجَمِيعِ حَوَاسِّي الْمُنْصَهَرَةِ فِي وَاحِدَةٍ!

نَفْسُهَا يَصْنَعُ الْمَوْسِيقَى،

مِثْلَمَا يَصْنَعُ صَوْتُهَا الْعَبِيرُ!»

طِفْهَآ يَتَرَا قَصْ كَشْعَلَةٍ^(١)

مَاذَا سَتَقُولِينَ هَذَا الْمَسَاءَ، أَيَّتُهَا الرُّوحُ الْبَائِسَةُ الْمُنْعَزِلَةُ،
مَاذَا سَتَقُولُ، يَا قَلْبِي، أَيُّهَا الْقَلْبُ الذَّاوِي فِي الْمَاضِي،
إِلَى الْفَاتِنَةِ، بِالْغَةِ الطَّيِّبَةِ، الْغَالِيَةِ،
مَنْ جَعَلَتْكَ نَظَرُهَا الرَّبَّانِيَّةُ تَزْدَهْرُ فَجَاءَهُ مَنْ جَدِيدٌ؟

- سَنَحْشِدُ كُلَّ كِبْرِيَاءِنَا فِي إِنْشَادِ مَدَائِحِهَا:
لَا شَيْءَ يُبَارِي عُذُوبَةَ سُلْطَانِهَا؛
وَلِجَسَدِهَا الرُّوحِيَّ أَرْيَجُ الْمَلَائِكَةِ،
وَنَظَرُهَا تَكْشُونَا مَنْ جَدِيدٍ بِثِيَابِ الضِّيَاءِ.

سَوَاءٌ فِي اللَّيْلِ أَمْ فِي الْعُزْلَةِ،
سَوَاءٌ فِي الشَّارِعِ أَمْ فِي الرَّحَامِ،
فَطِفْهَآ يَتَرَا قَصُ فِي الْهَوَاءِ كَشْعَلَةٍ.

(١) القصيدة - أصلاً - بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

أَخْيَانًا مَا يَتَكَلَّمُ وَيَقُولُ: «أَنَا جَمِيلَةٌ، وَأَمْرُكَ
مِنْ أَجْلِ حُبِّي أَلَّا تُحِبَّ إِلَّا الْجَمِيلَ؛
لَنَا الْمَلَائِكَةُ الْحَارِسُ، وَرَبَّةُ الشَّعْرِ وَالسَّيِّدَةُ الْعَذْرَاءُ».

الشُّعْلَةُ الْحَيَّةُ

تَسِيرَانِ أَمَامِي، هَاتَانِ الْعَيْنَانِ الْمُفْعَمَتَانِ بِالضِّيَاءِ،
 اللَّتَانِ بَثَّ فِيهِمَا بِالتَّأَكِيدِ مَلَائِكُ عَلِيمٍ قُوَّةَ مَغْنَاطِيَسِيَّةٍ؛
 تَسِيرَانِ، هَاتَانِ الشَّقِيقَتَانِ، شَقِيقَتَايَ،
 وَهُمَا تَصُبَّانِ فِي عَيْنَيَّ نِيرَانَهُمَا الْمَاسِيَّةَ.

تَقُودَانِ خَطُويَ فِي طَرِيقِ الْجَمَالِ،
 فَتَقْذَانِي مِنْ كُلِّ شَرِّكَ وَكُلِّ خَطِيئَةٍ كُبْرَى؛
 هُمَا خَادِمَايَ وَأَنَا عَبْدُهُمَا؛
 وَوُجُودِي كُلُّهُ يَخْضَعُ لِهَذِهِ الشُّعْلَةِ الْحَيَّةِ.

أَيُّهَا الْعَيْنَانِ الْفَاتِنَتَانِ، تَسْطَعَانِ بِالضِّيَاءِ الرُّوحِيِّ
 كَالشَّمُوعِ الْمُتَوَهِّجَةِ فِي وَضَحِ النَّهَارِ؛ تُخَضِّبُهَا الشَّمْسُ،
 لَكِنَّهَا لَا تُطْفِئُ شُعْلَاتِهَا الْخَارِقَةَ؛

إِنَّهُمْ يَخْتَفِلُونَ بِالْمَوْتِ، لَكِنَّكُمْ تُغْنِيَانِ لِلْبَعْثِ؛
تَسِيرَانِ تُنْشِدَانِ بَعَثَ رُوحِي،
أَيُّهَا النُّجْمَانِ اللَّذَانِ لَا تُذْوِي شُعَلْتُهُمَا أَيُّ شَمْسٍ!

تَعَاكُسُ

أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفْعَمُ بِالْبَهْجَةِ، هَلْ تَعْرِفُ الْغَمَّ،
وَالْحَزْنَ، وَالنَّدَامَةَ، وَالنَّحِيبَ، وَالضَّجَرَ،
وَالْمَخَافَ الْغَامِضَةَ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي الْمُرْعَبَةِ
الَّتِي تَقْهَرُ الْقُلُوبَ مِثْلَ وَرَقَةِ مَهْرُوسَةٍ؟
أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفْعَمُ بِالْبَهْجَةِ، هَلْ تَعْرِفُ الْغَمَّ؟

أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفْعَمُ بِالطَّيِّبَةِ، هَلْ تَعْرِفُ الْكَرَاهِيَةَ،
وَالْقَبْضَاتِ الْمُتَشَنِّجَةِ فِي الظَّلَامِ وَدُمُوعِ الْمَرَارَةِ،
حِينَ يُعْلَنُ الْإِنْتِقَامُ نِدَاءَهُ الْجَهَنَّمِيِّ
وَيَجْعَلُ مِنْ نَفْسِهِ قَائِدًا لِقَوَانَا؟
أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفْعَمُ بِالطَّيِّبَةِ، هَلْ تَعْرِفُ الْكَرَاهِيَةَ؟

أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفْعَمُ بِالْعَافِيَةِ، هَلْ تَعْرِفُ الْحُمَى،
الَّتِي تُجَرِّجِرُ أَقْدَامَهَا، مِثْلَ الْمَنْفِيِّينَ،

عَلَى امْتِدَادِ الْجُذُرَانِ الْكُبْرَى لِلْمَلَأَجِي الْبَاهِتَةِ،
يَاجِثَةً عَنِ الشَّمْسِ النَّادِرَةِ، مُرْتَعِشَةً الشَّفَاهِ؟
أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفْعَمُ بِالْعَافِيَةِ، هَلْ تَعْرِفُ الْحُمَى؟

أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفْعَمُ بِالْجَمَالِ، هَلْ تَعْرِفُ التَّجَاعِيدَ،
وَالْخَوْفَ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ، وَذَلِكَ الْعَذَابُ الْبَشِعُ
مِنْ قِرَاءَةِ الرُّغْبِ السَّرِيِّ لِلْوَفَاءِ
فِي عُيُونٍ تَرْتَوِي مِنْهَا طَوِيلاً عُيُونُنَا النَّهْمَةَ؟
أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفْعَمُ بِالْجَمَالِ، هَلْ تَعْرِفُ التَّجَاعِيدَ؟

أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفْعَمُ بِالسَّعَادَةِ، وَالْفَرَحِ وَالضِّيَاءِ،
كَانَ لِدَاوُدَ الْمُخْتَضِرِ^(١) أَنْ يَطْلُبَ الْعَافِيَةَ
مِنْ فَيْضِ جَسَدِكَ الْمَسْحُورِ؛
لَكِنِّي لَا أَرْجُو مِنْكَ، أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ، إِلَّا الصَّلَوَاتِ،
أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُفْعَمُ بِالسَّعَادَةِ، وَالْفَرَحِ وَالضِّيَاءِ!

(١) كان الملك داود - في شيخوخته المريضة المكتوبة - بحاجة إلى فتاة ليشعر بالدفع.

اعتراف

ذَاتَ مَرَّةٍ، مَرَّةٍ وَحِيدَةٍ، أَيْتُهَا الْمَحْبُوبَةُ الْعَذْبَةُ،
 اتَّكَأْتَ ذِرَاعُكَ النَّاعِمَةَ
 عَلَى ذِرَاعِي (فِي عُمُقِ رُوحِي الْمُظْلِمِ
 لَمْ تَبْهَتِ أَبَدًا تِلْكَ الذِّكْرَى)؛

كَانَ الْوَقْتُ مُتَأَخِّرًا؛ وَكَمِيدَالِيَّةٍ جَدِيدَةٍ
 كَانَ الْقَمَرُ الْمُكْتَمِلُ يَعْرِضُ نَفْسَهُ،
 وَجَلَالُ اللَّيْلِ، كَنَهْرٍ،
 يَنْسَابُ عَلَى بَارِسَ النَّائِمَةِ.

وَعَلَى امْتِدَادِ الْمَنَازِلِ، تَحْتَ أَبْوَابِ الْعَرَبَاتِ،
 كَانَتْ قَطِطٌ تَعْبُرُ مُنْسَلَةً،
 تَسْتَرْقُ السَّمْعَ، أَوْ كَظَلَالٍ حَبِيبَةٍ،
 تُرَافِقُنَا عَلَى مَهَلٍ.

وَفَجَاءَ، وَسَطَ الْحَمِيمَةِ الْحَرَّةِ

الْمُتَفَتِّحَةِ فِي الصَّبَاءِ الشَّاحِبِ،

مِنْكَ، أَيُّهَا آلَةُ الْمَوْسِيقِيَّةِ الْخَضْبَةُ الَّتِي لَا تُصْدِرُ

إِلَّا الْبَهْجَةَ السَّاطِعَةَ،

مِنْكَ، أَفَلَنْتِ، مُتَرَدِّدَةً،

نَعْمَةً شَاكِيَةً، نَعْمَةً غَرِيبَةً،

وَاضِحَةً وَمَرِحَةً مِثْلَ بُوقِ

فِي الصَّبَاحِ الْمُتَوَهِّجِ

كَطِفْلَةٍ مَهْزُولَةٍ، بِشَعَةٍ، كَنِيَّةٍ، قَذَرَةٍ،

تَخْجُلُ مِنْهَا أُسْرَتُهَا،

فَتَحْبِسُهَا طَوِيلًا فِي سِرْدَابِ

لِتُخْفِيَهَا عَنِ الْعَالَمِ.

أَيُّهَا الْمَلَاكُ الْبَائِسُ، كَأَنْتِ تُغْنِي، نَعْمَتُكَ الصَّارِخَةُ:

«لَا شَيْءَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا يَقِينٌ،

وَدَائِمًا، وَمَهْمَا كَانَتْ مُتَجَمِّلَةً بِعِنَايَةٍ،

فَالْإِنْسَانِيَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ تَفْضَحُ نَفْسَهَا؛

فَيَا لَهَا مِنْ مِهْنَةٍ شَاقَّةٍ أَنْ تَكُونَ امْرَأَةً جَمِيلَةً،
وَيَا لَهُ مِنْ عَمَلٍ مُبْتَدَلٍ
لِلرَّاقِصَةِ الْبُلْهَاءِ الْبَارِدَةِ الَّتِي تُفْرِطُ
فِي الضَّحِكِ الْمُفْتَعَلِ؛

فَأَنْ تُشِيدَ فَوْقَ الْقُلُوبِ لَهُوَ شَيْءٌ أَحْمَقُ؛
فَكُلُّ شَيْءٍ يَتَصَدَّعُ، الْحُبُّ وَالْجَمَالُ،
إِلَى أَنْ يَرْمِيَهُمْ فِي سَلَّتِهِ النَّسِيَانُ
لِيُحِيلَهُمْ إِلَى الْأَبَدِيَّةِ!»

كَثِيرًا مَا تَذَكَّرْتُ هَذَا الْقَمَرَ الْمَسْحُورَ،
هَذَا الصَّمْتَ وَهَذَا الْفُتُورَ،
وَهَذَا الْبُوحَ الْمُرْعَبَ الَّذِي تَمَّ الْهَمْسُ بِهِ
عَلَى كُرْسِيِّ اعْتِرَافِ الْقَلْبِ.

الفَجْرُ الرُّوحِي

عِنْدَمَا يَدْخُلُ الْفَجْرُ الْأَبْيَضُ الْوَرْدِيُّ، وَسَطَ الْمَاجِنِينَ،
إِلَى مُجْتَمَعِ الْمِثَالِ الْمُضْنِيِّ،
يَصْحُو مَلَاكٌ مِنَ النَّعَاسِ الضَّارِي
عَلَى فِعْلٍ سِرٍّ خَفِيٍّ مُتَّقِمٍ.

فَالزُّرْقَةُ بَعِيدَةُ الْمَنَالِ لِلْسَّمَاوَاتِ الرُّوحِيَّةِ،
مِنْ أَجْلِ الْإِنْسَانِ الصَّرِيعِ الْحَالِمِ مَا يَزَالُ وَالْمُتَأَلِّمِ،
تَنْفَتِّحُ وَتَعُورُ بِجَاذِبِيَّةِ الْهََاوِيَّةِ.
هَكَذَا، يَا رَبَّتِي الْمَحْبُوبَةِ، أَيُّهَا الْكَائِنُ الْجَلِيُّ الصَّافِي،

عَلَى الْأَطْلَالِ الدَّاخِنَةِ لِلْعَرْبَدَاتِ الْحَمَقَاءِ
مُرْفَرُفٌ ذِكْرَاكِ أَكْثَرَ إِشْرَاقًا، وَوَرْدِيَّةً، وَفِتْنَةً،
يَلَا أَنْتِهَاءً، أَمَامَ عَيْنَيِ الْمُتَسَعِّتَيْنِ.

أَعْتَمَتِ الشَّمْسُ شُعْلَةَ الشُّمُوعِ؛
هَكَذَا، أَيُّهَا الرُّوحُ الْمَتَأَلِّقَةُ، الْقَاهِرَةُ،
فَطَيْفُكَ يُشْبِهُ دَائِمًا الشَّمْسَ الْخَالِدَةَ!

تَنَاعُمُ الْمَسَاءِ

هَـا هُوَ الزَّمَنُ يَأْتِي حَيْثُ كُلُّ زَهْرَةٍ
 مُتَمَاطِلَةٍ عَلَى سَاقِهَا تَفُوحُ مِثْلَ مِبْخَرَةٍ؛
 تَدُورُ الْأَصْوَاتُ وَالْعُطُورُ فِي هَوَاءِ الْمَسَاءِ؛
 رَقْصَةٌ حَزِينَةٌ وَدَوَارٌ فَاتِرٌ!

كُلُّ زَهْرَةٍ تَفُوحُ مِثْلَ مِبْخَرَةٍ؛
 الْكَمَانُ يَرْتَعِشُ مِثْلَ قَلْبٍ شَجِيٍّ؛
 رَقْصَةٌ حَزِينَةٌ وَدَوَارٌ فَاتِرٌ!
 وَالسَّمَاءُ كَثِيبَةٌ وَجَمِيلَةٌ مِثْلَ مَذْبَحٍ كَنِيسَةٍ رَحِيبٍ.

الْكَمَانُ يَرْتَعِشُ مِثْلَ قَلْبٍ شَجِيٍّ،
 قَلْبٌ رَهِيْفٌ، يَكْرَهُ الْعَدَمَ الشَّاسِعَ الْأَسْوَدَ!
 وَالسَّمَاءُ كَثِيبَةٌ وَجَمِيلَةٌ مِثْلَ مَذْبَحٍ كَنِيسَةٍ رَحِيبٍ،
 وَالشَّمْسُ غَرِقَتْ فِي دَمِهَا الْمُتَخَثِّرِ.

قَلْبٌ رَهِيْفٌ، يَكْرَهُ الْعَدَمَ الشَّاسِعَ الْأَسْوَدَ،
يُلَمِّمُ كُلَّ بَقَايَا الْمَاضِي الْمُضِيِّ!
وَالشَّمْسُ غَرِقَتْ فِي دِمَهِهَا الْمُتَخَثِّرِ...
وَذِكْرَاكِ دَاخِلِي تَتَلَأُّ مِثْلَ مَعْرِضِ الْقَرَابِينِ الْفِضِّي!

قارورة العطر

هَنَّاكَ عُطُورُ قَوِيَّةٌ تَتَخَلَّلُ كُلَّ الْمَوَادِ.
 وَيَبْدُو أَنَّهَا تَخْتَرِقُ الرُّجَاجَ.
 وَعِنْدَمَا نَفْتَحُ صُنْدُوقًا قَادِمًا مِنَ الشَّرْقِ
 وَقَفْلُهُ يَبْصُرُ وَيَعْبَسُ صَارِخًا،

أَوْ بِخَزَانَةِ ثِيَابٍ فِي مَنْزِلٍ مَهْجُورٍ،
 مُفْعَمَةٌ بِرَائِحَةِ الزَّمَنِ اللَّاذِعَةِ، التُّرَابِيَّةِ الْقَاتِمَةِ،
 أَحْيَانًا مَا يَجِدُ الْمَرْءُ قَارُورَةَ عِطْرِ قَدِيمَةٍ
 تَذْكُرُ مِنْ أَيْنَ تَبَيُّقُ - فَتِيَّةٌ - رُوحٌ عَائِدَةٌ.

أَلْفُ فِكْرَةٍ كَانَتْ تَنَامُ، كَالْفَرَاشَاتِ الْمَشْهُومَةِ،
 مُرْتَعِشَةً بِرِقَّةٍ فِي الظُّلُمَاتِ الْوَبِيلَةِ،
 تُطْلِقُ جَنَاحَهَا وَتَنْطَلِقُ مُحَلَّقَةً،
 مُصْطَبِغَةً بِالْأَزْرَقِ، مُوشَّاةً بِالْوَرْدِيِّ، مُبْرِقَشَّةً بِالذَّهَبِ.

هَاهِي الذِّكْرَى الْمُسْكِرَةُ تُرْفِرُ
فِي الْهَوَاءِ الْمُضْطَرِبِ؛ الْعَيْنَانُ مُغْمَضَتَانِ؛ وَالذُّوَارُ
يَتَنَابُ الرُّوحَ الْمَهْزُومَةَ وَيَدْفَعُهَا بِيَدَيْنِ
إِلَى هُوَّةٍ مُظْلِمَةٍ بِالْعَفَنِ الْإِنْسَانِي؛

يَصْرَعُهَا عَلَى حَافَّةِ هَاوِيَةٍ غَابِرَةٍ،
فِيمَا، وَالْعَازَرُ الْمُعْطَرُّ يُمَرِّقُ أَكْفَانَهُ،
يَتَحَرَّكُ فِي صَخَوْتِهِ الْجُثْمَانُ الشَّبَحِيَّ
لِحَبِّ قَدِيمِ رَنِيخٍ، سَاحِرٍ وَمَقْبُورِ.

هَكَذَا، عِنْدَمَا سَاضِيعُ مِنْ ذَاكِرَةِ النَّاسِ،
عِنْدَمَا سِيرَمِي بِي، فِي رُكْنٍ بِخِزَانَةِ ثِيَابٍ مَشْتُومَةٍ،
كَفَارُورَةٍ عِطْرِ قَدِيمَةٍ مَهْجُورَةٍ،
رَنِيَّةٍ، مُتْرَبِيَّةٍ، قَدْرَةٍ، حَقِيرَةٍ، لَزَجَةٍ، مَشْدُوحَةٍ،

سَأَكُونُ كَفَنَكَ، أَيُّهَا الْوَبَاءُ الْمَحْبُوبُ!
الشَّاهِدَ عَلَى قُوتِكَ وَعَلَى حِدَّتِكَ،
أَيُّهَا السُّمُّ الَّذِي أَعَدَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ!
الشَّرَابُ الَّذِي يَتَاكَلْنِي، يَا حَيَاةَ وَمَوْتَ قَلْبِي!

السُّم

يَعْرِفُ الْخَمْرُ أَنْ يَكْسُوَ أَقْدَرَ الْأَكْوَاخِ
 بِتَرْفٍ خَارِقٍ،
 وَيَبْعَثُ أَكْثَرَ مِنْ رُؤَايِ خُرَافِي
 فِي ذَهَبِ الْبُخَارِ الْأَحْمَرِ،
 مِثْلَ شَمْسٍ غَارِبَةٍ فِي سَمَاءٍ غَائِمَةٍ.

يُضَخِّمُ الْأَفْيُونُ مَا لَا تُخُومُ لَهُ،
 وَيُطِيلُ مَا لَا حُدُودَ لَهُ،
 يُعَمِّقُ الزَّمْنَ، وَيُجَوِّفُ الشَّهْوَةَ،
 وَيُفْغِمُ الرُّوحَ إِلَى مَا فَوْقَ طَاقَتِهَا
 بِمَلَذَاتٍ سَوْدَاءَ كَثِيبَةٍ.

كُلُّ هَذَا لَا يُبَارِي السُّمَّ الْمُنْسَابَ
 مِنْ عَيْنَيْكَ، عَيْنَيْكَ الْخَضِرَاوَيْنِ،

الْبَحِيرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَرْتَعِشُ فِيهِمَا رُوحِي وَتَنْعَكِسُ...
وَتَأْتِي أَحْلَامِي مُتَزَاكِمَةً
لِتَرْتَوِي مِنْ هَاتَيْنِ الْهُوَّتَيْنِ الْمَرِيرَتَيْنِ.

كُلُّ هَذَا لَا يُبَارِي الْمُعْجَزَةَ الرَّهِيْبَةَ
لِرَيْقِكَ اللَّاذِعِ،
الَّذِي يُغْرِقُ فِي السَّيَّانِ رُوحِي بِلَا نَدَمٍ،
وَفِيْمَا يَجْرِفُهَا الدُّوَارُ،
يَدْفَعُهَا خَائِزَةً إِلَى سَوَاطِي الْمَوْتِ!

سَمَاءٌ غَائِمَةٌ

تَبْدُو نَظَرْتُكَ مَحْجُوبَةً بِخَارٍ؛
وَعَيْنُكَ الْغَامِضَةُ (أَمِي زَرْقَاءُ، أَمْ رَمَادِيَّةٌ أَمْ خَضْرَاءُ؟)
الْعَذْبَةُ، الْحَالِمَةُ، الْقَاسِيَةُ، بِالتَّنَاوُبِ
تَعْكِسُ اللَّامِبَالَاهُ وَشُحُوبَ السَّمَاءِ.

تُذَكِّرُنِي بِتِلْكَ الْأَيَّامِ الْبَيْضَاءِ، الْفَاتِرَةِ وَالْغَائِمَةِ،
الَّتِي تَدْفَعُ الْقُلُوبَ الْمَفْتُونَةَ إِلَى دَرْفِ الدُّمُوعِ،
حِينَمَا، مُهْتَاجَةً تَحْتَ وَطْأَةِ أَلَمٍ مَجْهُولٍ يَعْتَصِرُهَا،
تَسْحَرُ الْأَعْصَابُ الْمُؤَرَّقَةُ مِنَ الْعَقْلِ النَّائِمِ.

تُشَبِّهِينَ - أَحْيَانًا - هَذِهِ الْآفَاقَ الْجَمِيلَةَ
الَّتِي تُضِيئُهَا شُمُوسُ الْفُضُولِ الضَّبَائِيَّةِ...
كَمْ تَتَأَلَّقِينَ! أَيُّهَا الْمَشْهَدُ الطَّبِيعِيُّ النَّدِيِّ
الَّذِي تُشْعِلُهُ الْأَشِعَّةُ الْمُتَسَاقِطَةُ مِنْ سَمَاءٍ غَائِمَةٍ!

أَيُّهَا الْمَرْأَةُ الْخَطِرَةُ! أَيُّهَا الْمَنَاخَاتُ الْمُغَوِيَّةُ!
هَلْ سَاعَشَقْتُ أَيْضًا ثُلُوجَكَ وَصَفِيعَكَ؟
وَهَلْ سَأَسْتَمِدُّ مِنَ الشِّتَاءِ الْعَنِيدِ
مَلَذَاتٍ أَكْثَرَ حِدَّةً مِنَ الثَّلَجِ وَالْحَدِيدِ؟

القط

(١)

يَتَمَشَّى فِي فِكْرِي،
 مِثْلَمَا فِي شَقَّتِهِ،
 قِطٌّ جَمِيلٌ، قَوِيٌّ، رَقِيقٌ وَسَاحِرٌ.
 وَعِنْدَمَا يَمُوءُ، لَا يَكَادُ يُسْمَعُ،

تَبْرُثُهُ بَالِغَةُ الْعُدْوَةِ وَالْحَمِيمِيَّةِ؛
 لَكِنَّ سَوَاءَ كَانَ صَوْتُهُ هَادِئًا أَمْ مُزْمَجِرًا،
 فَهُوَ دَائِمًا غَنِيٌّ وَعَمِيقٌ،
 وَذَلِكَ هُوَ سِحْرُهُ وَسِرُّهُ.

هَذَا الصَّوْتُ، الَّذِي يَتَقَطَّعُ وَيَتَقَطَّرُ
 فِي أَعْمَاقِي الْمُظْلِمَةِ،
 يُفْعِمُنِي كَقَصِيدَةٍ مُتَنَاعِمَةٍ

وَيُبْهِجُنِي كَشْرَابِ الْحُبِّ.

يُسَكِّنُ أَفْسَى الْآلَامِ
وَيَحْتَوِي كُلَّ النَّشَوَاتِ؛
وَكَيْ يَنْطِقَ بِأَطْوَلِ الْعِبَارَاتِ،
لَا يَحْتَاجُ إِلَى كَلِمَاتِ.

لَا، لَيْسَ قَوْسَ كَمَانٍ
مَا يَلْدَغُ قَلْبِي، الْآلَةَ الْمُكْتَمِلَةَ،
وَيَجْعَلُ وَتْرَهُ الْمُتَدَبِّذِ
يُعْنِي بِصُورَةِ أَرْوَعِ

مِنْ صَوْتِكَ، أَيُّهَا الْقِطُّ الْغَامِضُ،
الْقِطُّ الْمَلَائِكِيُّ، الْقِطُّ الْغَرِيبُ،
الَّذِي كُلُّ مَا فِيهِ، - مِثْلَمَا فِي مَلَاكَ -
رَهِيْفٌ يَقْدِرُ مَا هُوَ مُتَنَاعِمٌ!

(٢)

مِنْ فِرَائِهِ الْأَشْقَرِ وَالْبُنِيِّ
يَصَاعِدُ عَبِيرٌ بِالْغِ الْغُدُوِيَّةِ، حَتَّى إِنِّي ذَاتَ مَسَاءٍ
تَعَطَّرْتُ مِنْهُ، بَعْدَ مُدَاعَبَتِهِ مَرَّةً،

لَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ.

هُوَ الرُّوحُ الْأَلِيفَةُ لِلْمَكَانِ؛
يُصْدِرُ الْفَرَازَاتِ، يَرَأْسُ، وَيُلْهِمُ
كُلَّ شَيْءٍ فِي إِمْبِرَاطُورِيَّتِهِ؛
أَرَبَمَّا هُوَ جِنِّيَّةٌ، أَمْ هُوَ إِلَهٌ؟

عِنْدَمَا تَتَجَذَّبُ عَيْنَايَ، إِلَى هَذَا الْقِطْعِ الَّذِي أُحِبُّهُ،
مِثْلَمَا بِمَغْنَاطِيسٍ،
تَعُودَانِ خَاضِعَتَيْنِ
وَحِينَمَا أَنْظُرُ دَاخِلَ نَفْسِي،

أَرَى بِذُهُولٍ
نَارَ بُؤْيُوتِهِ الشَّاحِبِينَ،
فَنَارَيْنِ سَاطِعَتَيْنِ، حَجَرَيْنِ أَوْبَالٍ حَيَّيْنِ،
يَتَأَمَّلَانِي فِي إِمْعَانٍ.

السَّفِينَةُ الْجَمِيلَةُ

أَوْدُ أَنْ أَصِفَ لَكَ، أَيُّهَا السَّاحِرُ الرَّقِيقَةُ!
 الْمَفَاتِنَ الْمُتَنَوِّعَةَ الَّتِي تُزِينُ شَبَابَكَ؛
 أَوْدُ أَنْ أَرْسُمَ لَكَ جَمَالَكَ،
 حَيْثُ تَمْتَرِجُ الطُّفُولَةُ بِالتُّضْجِ.

حِينَمَا تَمْضِينَ جَارِفَةً الْهَوَاءَ بِتَوَرَّتِكَ الْكَبِيرَةِ،
 تُشَبِّهِينَ سَفِينَةً جَمِيلَةً تَنْطَلِقُ إِلَى الْبَحْرِ،
 مُشْرِعَةً الشَّرَاعَ، وَتَمْضِينَ الْهُوَيْنَى
 بِإِقْبَاعِ عَذْبٍ، فَاتِرٍ، بَطِيءٍ.

عَلَى عُنُقِكَ الْمُكْتَنِزِ الْمُسْتَدِيرِ، عَلَى كَتِفَيْكَ الْمُمْتَلِئَتَيْنِ،
 تَبْخُرُ رَأْسُكَ بِفِتْنَةٍ غَرِيبَةٍ؛
 وَبِسِيْمَاءٍ وَدِيعَةٍ ظَافِرَةٍ
 تَجْتَازِينَ طَرِيقَكَ، طِفْلاً مَهِيَةً.

أَوْدُ أَنْ أَصِفَ لَكَ - أَيُّهَا السَّاحِرَةُ الرَّقِيقَةُ!
الْمَفَاتِنَ الْمُتَنَوِّعَةَ الَّتِي تُزِينُ شَبَابَكَ؛
أَوْدُ أَنْ أَرْسُمَ لَكَ جَمَالَكَ،
حَيْثُ تَمْتَرِجُ الطُّفُولَةُ بِالنُّضْجِ.

صَدْرُكَ الْبَارِزُ الَّذِي يَدْفَعُ الْقُمَاشَ الْمُتَمَاجِجَ،
صَدْرُكَ الظَّافِرُ خِزَانَةٌ جَمِيلَةٌ
أَلْوَحَاهَا الْمُحَدَّبَةُ الْمُسْرِقَةُ
مِثْلَ الدَّرُوعِ تَجْتَذِبُ الْبُرُوقَ؛

دُرُوعٌ مُغْرِيَةٌ، مُسَلَّحَةٌ بِرُءُوسٍ وَرِدِيَّةٍ!
خِزَانَةٌ مَلَأَى بِأَسْرَارٍ عَذْبَةٍ، بِأَشْيَاءَ طَيِّبَةٍ،
بِخَمْرِ، وَعُطُورٍ، وَمَشْرُوبَاتٍ
تُصِيبُ الْأَذْهَانَ وَالْقُلُوبَ بِالْهَدْيَانِ!

حِينَمَا تَمْضِينَ جَارِفَةً الْهَوَاءَ بِتَنُورَتِكَ الْكَبِيرَةِ،
تُشَبِّهِينَ سَفِينَةً جَمِيلَةً تَنْطَلِقُ إِلَى الْبَحْرِ،
مُشْرِعَةً الشَّرَاعَ، وَتَمْضِينَ الْهُوَيْنَى
بِإِقَاعِ عَذْبٍ، فَاتِرٍ، بَطِيءٍ.

سَاقَاكَ النَّيْلَتَانِ، تَحْتَ أَذْيَالِ ثَوْبِكَ الْمُطَارِدَةِ مِنْهُمَا،
تُعَذِّبَانِ وَثِيرَانِ الشَّهَوَاتِ الْغَامِضَةِ،
مِثْلَ سَاحِرَتَيْنِ تُقَلِّبَانِ
شَرَابًا أَسْوَدَ فِي قَدْرِ عَمِيقٍ.

وَذِرَاعَاكَ، اللَّتَانِ يُمَكِّنُ أَنْ تَتَلَاعَبَا بِالْهَرَاقِلَةِ الْمُبَكَّرِينَ،
هُمَا غَرِيمَانِ عَيْنِدَانِ لِثَعَالَيْنِ الْبُؤَا الْمُضِيئَةِ،
مَخْلُوقَانِ لاحتِصَانِ حَبِيبِكَ بِعُنُقُوانِ،
كَأَنَّمَا لِيَطْبَعِيهِ فِي قَلْبِكَ.

عَلَى عُنُقِكَ الْمُكْتَئِرِ الْمُسْتَدِيرِ، عَلَى كَتِفَيْكَ الْمُمْتَلِئَتَيْنِ،
تَبْخُتُرُ رَأْسُكَ بِفُتْنَةٍ غَرِيبَةٍ؛
وَبِسِيَمَاءٍ وَدِيعَةٍ ظَافِرَةٍ
تَجْتَازِينَ طَرِيقَكَ، طِفْلَةً مَهِيئَةً.

الدعوة إلى السفر

يَا طِفْلَتِي، يَا أُخْتِي،
 فَلْتُفَكِّرِي فِي عُدُوبَةِ
 الدُّهَابِ هُنَاكَ لِلْعَيْشِ مَعًا!
 أَنْ نَحِبَّ فِي وَقْتِ الْفَرَاغِ،
 أَنْ نَحِبَّ وَنَمُوتَ
 فِي بَلَدٍ يُشْبِهُكَ!
 الشُّمُوسُ الْبَلِيلَةَ
 لِهَذِهِ السَّمَاوَاتِ الْغَائِمَةِ
 لَهَا فِي نَفْسِي الْمَقَاتِنُ نَفْسُهَا
 بِالْغَةِ الْغُمُوضِ
 لِعَيْنَيْكَ الْخَائِئِنَتَيْنِ،
 الْمُتَأَلِّقَتَيْنِ خِلَالَ الدُّمُوعِ.

هُنَاكَ، لَا شَيْءَ سِوَى نِظَامٍ وَجَمَالٍ،
 تَرْفٍ، وَسَكِينَةٍ وَشَهْوَةٍ.

أَثَانَاتٌ مُشْرِقَةٌ،
صَقَلَتْهَا السُّنُونُ،
سَتَّرَيْنِ غُرْفَتَنَا؛
وَأَنْدَرُ الزُّهُورِ
الَّتِي تَمِزُجُ أَرِيَجَهَا
بِرَوَائِحِ الْعَنْبَرِ الْمُبْهِمَةِ،
وَالسُّقُوفِ الْفَاحِرَةِ،
وَالْمَرَايَا الْغَائِرَةِ،
وَالرَّوْعَةَ الشَّرِيقَةَ،
كُلُّ شَيْءٍ سَيَتَكَلَّمُ
فِي السِّرِّ إِلَى الرُّوحِ
لُغَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ الْعَذْبَةِ.

هُنَاكَ، لَا شَيْءَ سِوَى نِظَامٍ وَجَمَالٍ،
تَرَفٍ، وَسَكِينَةٍ وَسَهْوَةٍ.

فَلْتَنْظُرِي إِلَى هَذِهِ الْقَنَوَاتِ
حَيْثُ تَنَامُ هَذِهِ الشُّفُنُ
ذَاتُ الْمِزَاجِ الْمُتَسَكِّعِ؛

فَلِكِي تُحَقِّقْ
أَوْهَى رَغْبَاتِكَ
تَأْتِي مِنْ أَقْصَى الْعَالَمِ.
- الشُّمُوسُ الْغَارِبَةُ
تَكْسُو الْحُقُولَ،
وَالْقَنَوَاتِ، وَكُلَّ الْمَدِينَةِ،
بِالْيَاقُوتِ وَالذَّهَبِ؛
وَيَنَامُ الْعَالَمُ
فِي ضِيَاءٍ حَارٍ.

هُنَاكَ، لَا شَيْءَ سِوَى نِظَامٍ وَجَمَالٍ،
تَرْفٍ، وَسَكِينَةٍ وَشَهْوَةٍ.

بِلا تَكْفِير

هَلْ نَسْتَطِيعُ إِحْمَادَ النَّدَامَاتِ الْقَدِيمَةِ، الطَّوِيلَةِ،
الَّتِي نَحْيَا، وَنَهْتَأُجُ، وَتَتَلَوَّى،
وَتَتَغَدَّى بِنَا كَمَا الدُّودُ بِالْمَوْتَى،
كَمَا الْيَرَقَةُ بِالْبَلُوطِ؟
هَلْ نَسْتَطِيعُ إِحْمَادَ النَّدَامَاتِ الْعَصِيَّةِ؟

فِي أَيِّ شَرَابِ حُبٍّ، فِي أَيِّ خَمَرٍ، فِي أَيِّ سَائِلٍ مَنْقُوعٍ،
نُغْرِقُ هَذَا الْعَدُوَّ الْقَدِيمَ،
الْمُدْمِرَ الشَّرِّهَ كَمَا الْعَاهِرَةَ،
الصَّبُورَ كَمَا النَّمْلَةَ؟

فِي أَيِّ شَرَابِ حُبٍّ، فِي أَيِّ خَمَرٍ، فِي أَيِّ سَائِلٍ مَنْقُوعٍ؟
فَلْتَقُولِي، أَيَّتُهَا السَّاحِرَةُ الْجَمِيلَةُ، آه! قُولِي، لَوْ تَعْلَمِينَ،
لِهَذِهِ النَّفْسِ الطَّافِحَةِ بِالْكُرُوبِ

الشَّيْهَةِ بِمَيِّتٍ يَسْحَقُهُ الْجَرَحَى،

وَنَهْرُهُ سَنَابِكُ الْخُيُولِ،

فَلْتَقُولِي، أَيُّهَا السَّاحِرَةُ الْجَمِيلَةُ، آه! قُولِي، لَوْ تَعْلَمِينَ،

لِهَذَا الْمُحْتَضَرِ الَّذِي اشْتَمَّهُ الذُّئْبُ

وَيَتَرَصَّدُهُ الْغُرَابُ،

لِهَذَا الْجُنْدِيِّ الْكَسِيرِ! إِنْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَرَكْنَ لِلْيَاسِ

مِنْ نَيْلِ صَلَيبِهِ وَقَبْرِه؛

هَذَا الْمُحْتَضَرُ الْبَائِسُ الَّذِي اشْتَمَّهُ الذُّئْبُ!

هَلْ يُمَكِّنُ إِضَاءَةُ سَمَاءٍ مُوَحِّلَةٍ وَسَوْدَاءُ؟

هَلْ يُمَكِّنُ شَقُّ ظُلُمَاتٍ

أَكْثَفَ مِنَ الْقَطْرَانِ، بِلَا صَبَاحٍ وَلَا مَسَاءٍ،

بِلَا نُجُومٍ، وَلَا بُرُوقَ كَنِيْبَةٍ؟

هَلْ يُمَكِّنُ إِضَاءَةُ سَمَاءٍ مُوَحِّلَةٍ وَسَوْدَاءُ؟

الْأَمَلُ الَّذِي يُشْرِقُ فِي نَوَافِدِ الْفُنْدُقِ

انْطَفَأَ، وَمَاتَ إِلَى الْأَبَدِ!

بِلَا قَمَرٍ وَلَا أَشْعَةٍ، فَلْتَكْتَسِفِي أَيْنَ يَا وَيْ

شُهَدَاءُ الطَّرِيقِ الْعَاثِرِ!

فَالشَّيْطَانُ أَطْفَأَ كُلَّ شَيْءٍ فِي نَوَافِذِ الْفُنْدُقِ!

أَبْتَهَا السَّاحِرَةُ الْحَبِيبَةُ، أَتَحِبِّينَ الْمَلْعُونِينَ؟
قُولِي، أَتَعْرِفِينَ مَا لَا يُغْتَفَرُ؟
أَتَعْرِفِينَ النَّدَامَةَ، ذَاتَ الْمَلَامِحِ الْمَسْمُومَةِ،
الَّتِي يُسْتَخْدَمُ قَلْبُنَا هَدَفًا لَهَا؟
أَبْتَهَا السَّاحِرَةُ الْحَبِيبَةُ، أَتَحِبِّينَ الْمَلْعُونِينَ؟

مَا لَا تَكْفِيرَ لَهُ يَقْضِمُ بِأَسْنَانِهِ اللَّعِينَةَ
رُوحَنَا، ذَلِكَ الصَّرْحُ الْمُثِيرَ لِلشَّفَقَةِ،
وَكَثِيرًا مَا يُهَاجِمُ، مِثْلَ الْأَرْضَةِ،
الْبِنَاءِ مِنَ الْأَسَاسِ.
فَمَا لَا تَكْفِيرَ لَهُ يَقْضِمُ بِأَسْنَانِهِ اللَّعِينَةَ!

رَأَيْتُ أَحْيَانًا، فِي أَعْمَاقِ مَسْرَحِ عَادِيٍّ
كَانَتْ تُلْهِبُهُ فِرْقَةُ مُوسِيقِيَّةٍ صَاحِبَةٍ،
جَنِيَّةٌ تُضِيءُ فِي سَمَاءٍ جَهَنَّمِيَّةٍ
فَجْرًا خَارِقًا؛
رَأَيْتُ أَحْيَانًا، فِي أَعْمَاقِ مَسْرَحِ عَادِيٍّ

كَائِنًا، لَمْ يَكُنْ سِوَى ضَوْءٍ، وَذَهَبٍ وَغَازٍ،
يَصْرَعُ الشَّيْطَانُ الْهَائِلُ؛
لَكِنَّ قَلْبِي - الَّذِي لَا يَعْرِفُ النَّشْوََةَ أَبَدًا -
هُوَ مَسْرُوحٌ يَنْتَظِرُ الْمَرْءَ فِيهِ
دَائِمًا - دَائِمًا سُدِّي - الْكَائِنَ ذَا الْجَنَاحَيْنِ مِنْ غَازٍ!

مُحَادَثَة

سَمَاءُ خَرِيفٍ جَمِيلَةٌ أَنْتِ، صَافِيَةٌ وَوَرْدِيَّةُ!
 لَكِنَّ الْخُزْنَ يَصَّاعِدُ دَاخِلِي كَالْبَحْرِ،
 وَيَتْرُكُ، عِنْدَ انْسِحَابِهِ، عَلَى شَفَتِي الْكَثِيبَةَ
 الذِّكْرَى الْحَارِقَةَ لَوْحِلِهِ الْمَرِيرِ.

- يَدُكَ تَنْسَابُ سُدى عَلَى صَدْرِي الْمُغْمَى عَلَيْهِ؛
 فَمَا تَبْحَثُ عَنْهُ، يَا صَدِيقَتِي، هُوَ مَوْضِعُ دَمَرَتِهِ
 الْمَخَالِبُ وَالْأَتْيَابُ الْوُخْشِيَّةُ لِلْمَرْأَةِ.
 فَلَا تَبْحَثِي عَن قَلْبِي؛ فَقَدْ التَّهَمَّتُهُ الْوُحُوشُ.

قَلْبِي قَصُرَ عَاثَ فِيهِ الْغَوَاةُ؛
 فِيهِ يَسْكُرُونَ، وَيَقْتُلُونَ، وَيُمْسِكُ بَعْضُهُمْ بِسَعْرِ بَعْضٍ!
 - أَرِيحُ يَوْمَ حَوْلَ صَدْرِكَ الْعَارِي! ...

أَيُّهَا الْجَمَالُ، أَيُّهَا الْآفَةُ الْقَاسِيَةُ لِلْأَرْوَاحِ، تُرِيدِينِي!
بَعَيْنَيْكَ النَّارِيَّتَيْنِ، الْمُتَالِقَتَيْنِ كَالْأَعْيَادِ،
فَلْتُحْرِقِي هَذِهِ الْأَشْلَاءَ الَّتِي خَلَقْتَهَا الْوُحُوشُ!

أُغْنِيَةُ الْخَرِيفِ

(١)

سُرْعَانَ مَا سَنَغْرُقُ فِي الظُّلُمَاتِ الْبَارِدَةِ؛
 فَوَدَاعًا، أَيُّهَا الضِّيَاءُ الْحَيُّ لَصِيفِنَا الْقَصِيرِ!
 هَا أَنَذَا أَسْمَعُ الْأَخْشَابَ تَسَاقُطُ فِي ارْتِطَامَاتٍ كَثِيرَةٍ
 مُدَوِّيَّةٍ عَلَى بِلَاطِ الْأَفْنِيَةِ.

الْشِّتَاءُ كُلُّهُ سَيَعُودُ إِلَى وُجُودِي: الْغَضَبُ،
 وَالْكَرَاهِيَةُ، وَالْازْتِعَادُ، وَالرُّعْبُ، وَالْعَمَلُ الشَّاقُّ الْإِجْبَارِيُّ،
 وَمِثْلُ الشَّمْسِ فِي جَحِيمِهَا الْقُطَيْبِيِّ،
 لَنْ يُصْبِحَ قَلْبِي إِلَّا كُتْلَةً حَمْرَاءَ ثُلْجِيَّةٍ.

أَسْمَعُ مُرْتَعِدًا كُلَّ الْأَحْطَابِ الْمَتَسَاقِطَةِ؛
 وَلَيْسَ أَكْثَرَ صَمَمًا صَدَى مِنْصَةِ الْإِعْدَامِ الَّتِي تُقَامُ.
 وَرُوحِي تُشْبِهُ بُرْجًا يَنْهَارُ
 تَحْتَ ضَرَبَاتِ مِطْرَقَةٍ ثَقِيلَةٍ لَا تَكِلَ.

وَيَدُّوْ لِي، إِذْ يُهْدِدُنِي هَذَا الْاِرْتِطَامُ الرَّيِّبَ.
أَنَّهُمْ يُسْمَرُونَ عَلَى عَجَلٍ نَعْشًا فِي مَكَانٍ مَا.
لِمَنْ؟ - بِالْأَمْسِ كَانَ الصَّيْفُ؛ وَهَـهُوَ الْخَرِيفُ!
وَهَذَا الضَّجِيجُ الْغَامِضُ يُدَوِّي كَرَحِيلٍ.

(٢)

أُحِبُّ فِي عَيْنَيْكَ الطَّوِيلَتَيْنِ الصَّيَاءَ الْأَخْضَرَ،
وَالْجَمَالَ الْعَذْبَ، لَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ الْيَوْمَ عِنْدِي مُرٌّ
وَلَا شَيْءَ، لَا حُبِّكَ، وَلَا غُرْفَتِكَ، وَلَا الْمِدْفَأَةَ،
يُسَاوِي عِنْدِي الشَّمْسُ السَّاطِعَةَ عَلَى الْبَحْرِ.

فَلْتُجِئْنِي، مَعَ ذَلِكَ، أَيُّهَا الْقَلْبُ الرَّهِيْفُ!
فَلْتَكُنْ أُمًّا حَتَّى لِلْعَاقِ، حَتَّى لِلشَّرِيرِ؛
حَسِيْبَةً أَوْ شَقِيْقَةً، فَلْتَكُنِ الْعُدُوْبَةُ الْعَابِرَةُ
لِخَرِيفٍ مَجِيْدٍ أَوْ شَمْسٍ غَارِبَةٍ.

دَوْرٌ قَصِيْرٌ! فَالْمَقْبَرَةُ تَنْتَظِرُ؛ شَرِهَةٌ!
آه! دَعِينِي، وَجِئْنِي عَلَى رُكْبَتَيْكَ
أَذُوْقُ - آسِفًا عَلَى الصَّيْفِ الْاَبْيَضِ الْمُلْتَهَبِ
الشُّعَاعِ الْأَصْفَرَ الْعَذْبَ لِنِهَآيَةِ الْخَرِيفِ!

إلى عذراء

نذر على الطريقة الأسبانية

أريد أن أبني لك، أيُّها العذراء، يا عَشِيقَتِي،
 هيكلاً خفياً في أعماقِ حُزْني،
 وأخفِر في الرُّكنِ الأكثرِ سَوَاداً مِنْ قَلْبِي،
 بعيداً عَنِ الشَّهْوَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالنَّظَرَةِ السَّاحِرَةِ،
 كُوءَ، مُرْصَعَةً بِالزُّرْقَةِ وَالذَّهَبِ،
 تَنْتَصِبِينَ فِيهَا، تَمَثَّلاً مُذْهِلاً.
 وَبِقَصَائِدِي الصَّقِيلَةِ، المَضْفُورَةِ مِنْ مَعْدِنِ نَقِيٍّ
 مُوشًى بِرَاعَةِ بِقَوَافٍ مِنْ يَلَّورٍ،
 سَأَصْنَعُ لِرَأْسِكَ تَاجاً هَائِلاً؛
 وَمِنْ غَيْرَتِي، أَبْتُهَا الْعَذْرَاءُ الْفَانِيَّةُ،
 سَاحِيكَ لَكَ مِعْطَفاً، خَشِناً وَثَقِيلاً
 بِالطَّرِيقَةِ الْبَرَبَرِيَّةِ، مُبْطِئاً بِالشَّكِّ
 سَيَحْسِسُ مَقَاتِلِكَ، مِثْلَ بُرْجِ مُرَاقَبَةٍ؛

لَيْسَ مُوسَى بِاللَّالِئِ، بَلْ بِجَمِيعِ دُمُوعِي!
وَرَدَاؤُكَ سَيَكُونُ شَهَوَتِي، الْمُرْتَعِشَةَ،
الْمُتَمَاجَّةَ، شَهَوَتِي الصَّاعِدَةَ الْهَابِطَةَ،
تَتَمَائِلُ فِي الذُّرَى، وَتَسْتَرْخِي فِي السُّفُوحِ،
وَأَكْسُو بِقُبْلَةٍ جَسَدِكَ كُلَّهُ الْأَبْيَضَ الْوَرْدِي.
وَسَأَصْنَعُ لَكَ مِنْ اخْتِرَامِي حُفَّيْنِ جَمِيلَيْنِ
مِنَ السَّاتَانِ، يَخْضَعَانِ لِقَدَمَيْكَ السَّمَائِيَّتَيْنِ،
وَيَسْجَنَانِيهِمَا، فِي عِنَاقِ حَمِيمٍ،
مِثْلَ قَالِبٍ مُخْلِصٍ سَيَخْتَفِظُ بِالْأَثَرِ.
وَإِنْ لَمْ أَسْتَطِيعَ، رَغَمَ فَنِّي الْمُتَابِرِ،
أَنْ أَصُوغَ قَمَرًا مِنْ فِضَّةٍ مُوَطَّنًا لَكَ،
فَسَأَضَعُ الثُّعْبَانَ الَّذِي يَنْهَشُ أَحْشَائِي
تَحْتَ كَعْبَيْكَ، حَتَّى تَذْهَبِي وَتَسْخَرِي،
أَيْتُهَا الْمَلِكَةُ الْمُتَنَصِّرَةُ وَالْخِصْبَةُ فِي الْاِفْتِدَاءِ،
مِنْ هَذَا الْوَحْشِ الطَّافِحِ بِالْحَقْدِ وَالْبُصَاقِ.
سَتَرَيْنَ أَفْكَارِي، مَصْفُوفَةً كَالشُّمُوعِ
أَمَامَ الْهَيْكَلِ الْمُزْدَهَرِ بِمَلِكَةِ الْعَذَارَى،
تُرْصَعُ الْأَنْعِكَاسَاتُ كَالنُّجُومِ السَّقْفِ الْمُلَوَّنِ بِالْأَزْرَقِ،
وَهِيَ تَرْقُبُكَ دَائِمًا بِعُيُونٍ مِنْ نَارٍ؛
وَلَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيَّ يَعْشَقُكَ وَيُعْجَبُ بِكَ،
فَيُضِخُ الْكُلَّ لِيَانًا، وَبَخُورًا، وَصَمْغًا، وَمُرًّا،

وَسَرَّ قَى رُوحِي الْعَاصِفَةَ، كُبُخَارِ
إِلَيْكَ بِلَا أَنْتِهَاءٍ، أَتَيْتُهَا الْقِمَّةُ الْبَيْضَاءُ النَّلْجِيَّةُ.

وَفِي النَّهَائِيَّةِ، لِكَيْ تَسْتَكْمِلِي دَوْرَ مَرِّمِ،
وَلِيَمْتَزِجَ الْحُبُّ بِالْبِرِّبَرِيَّةِ،
تِلْكَ الشَّهْوَةُ السَّوْدَاءُ! فَسَأَصْنَعُ مِنَ الْخَطَايَا السَّبْعِ الْكُبْرَى،
كَجَلَادٍ مُفْعَمٍ بِالنَّدَمِ، سَبْعَ سَكَائِينَ قَاطِعَةٍ،
وَكَمْشَعُودٍ بِلَا إِحْسَاسٍ،
مُتَّخِذًا أَعْمَقَ أَعْمَاقِ حُبِّكَ هَدَفًا،
سَأَغْرِسُهَا جَمِيعًا فِي قَلْبِكَ النَّابِضِ
فِي قَلْبِكَ النَّائِحِ، فِي قَلْبِكَ الْمُنْسَابِ!

أُغْنِيَةُ الْأَصِيل

مَعَ أَنَّ حَاجِبِيكَ الشَّرِيرَيْنِ
يَمْنَحَانِكَ سِيْمَاءَ غَرِيبَةٍ
لَيْسَتْ سِيْمَاءَ مَلَكَ،
أَيُّهَا السَّاحِرَةُ ذَاتِ الْعَيْنَيْنِ الشَّهِتَيْنِ،

فَإِنِّي أُحِبُّكَ، يَا طَائِشَتِي،
يَا هَوَايَ الْمُرْعَبِ!
يَا خِلَاصَ
كَاهِنٍ لِمَعْبُودِهِ.

الصَّحْرَاءُ وَالْغَابَةُ
تُعْطِرَانِ جَدَائِلَكَ الْخَشِنَةَ،
وَلِرَأْسِكَ مَلَامِحُ
اللُّغْزِ وَالسَّرِّ.

عَلَى جَسَدِكَ يَطُوفُ الْعِطْرُ
كَمَا حَوْلَ مَبْخَرَةٍ؛
تَفْتِنِينَ كَالْمَسَاءِ،
يَا حُورِيَّةَ الْمَاءِ الْمُظْلَمَةِ السَّاحِنَةِ.

آه! أَقْوَى الْمَشْرُوبَاتِ
لَا يُضَاهِيكَ سَلَكُ،
وَتَعْرِفِينَ الْمُدَاعَبَاتِ
الَّتِي تُعِيدُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى!

فَخُذَاكِ عَاشِقَانِ
لِظَهْرِكَ وَتَدْنِيكَ،
وَتَفْتِنِينَ الْوَسَائِدِ
بِأَوْضَاعِكَ الْمُتَرَاخِيَةِ.

وَأَحْيَانًا لِتَسْكِينِ
غَيْظِكَ الْغَامِضِ،
تَبْذُرِينَ، فِي جِدَّةٍ،
الْعَصَّاتِ وَالْقُبُلَاتِ؛

تَمْزِقِينَني، يَا سَمْرَائِي،

بِضُحْكَةٍ هَازِنَةٍ،
ثُمَّ تَضَعِينَ عَلَى قَلْبِي
عَيْنَكَ الْعَذْبَةَ مِثْلَ الْقَمَرِ.

تَحْتَ نَعْلَيْكَ السَّائِنِ،
تَحْتَ قَدَمَيْكَ الْحَرِيرَيْنِ السَّاحِرَيْنِ،
أَنَا، أَضَعُ فَرْحَتِي الْكُبْرَى،
وَعَبْقَرِيَّتِي وَمَصِيرِي،

تَتَعَاثَى رُوحِي بِكَ،
بِكَ، أَيُّهَا الضُّوءُ وَاللَّوْنُ!
يَا انْفِجَارَ الْحَرَارَةِ
فِي سَيِّرِي يَا السُّودَاءَ!

سيزينيا

فَلْتَحَيَّلْ «دِيَانَا»^(١) وَسَطَ حَاشِيَتَيْهَا اللَّطِيفَةَ
تَجُوبُ الْغَابَاتِ أَوْ تَضْرِبُ فِي الْأَذْغَالِ
شَعْرُهَا وَتُدْيَاهَا فِي الرِّيحِ، نَشْوَى بِالصَّخْبِ
مُتَرَفِّعَةً مُتَحَدِّيةً أَفْضَلَ الْفَرْسَانِ!

هَلْ رَأَيْتَ «ثِيروني»^(٢) حَبِيبَةَ الْمَجْزَرَةِ
وَهِيَ تُحَرِّضُ عَلَى الْهُجُومِ شَعْبًا مِنَ الْحَفَاةِ،
وَجَنَّتُهَا وَعَيْنَاهَا مُسْتَعْلَتَانِ، وَهِيَ تُؤَدِّي دَوْرَهَا،
صَاعِدَةً، وَالسَّيْفُ فِي الْيَدِ، السَّلَاحُ الْمَلَكِيَّةُ؟

هَكَذَا هِيَ سِيزِينِيَا! لَكِنَّ رُوحَ الْمُقَاتِلَةِ
الرَّقِيقَةِ رَحِيمَةٌ بِقَدْرِ مَا هِيَ قَاتِلَةٌ؛

(١) ربة الصيد، في الأساطير اليونانية.

(٢) ثيرون دي ميركور: بطلة الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩

وَشَجَاعَتُهَا، الشَّغُوفَةُ بِالْبَارُودِ وَالطُّبُولِ

تَعْرِفُ كَيْفَ تَضَعُ السَّلَاحَ أَمَامَ التَّوَسُّلَاتِ
وَدَائِمًا لِقَلْبِهَا، الَّذِي دَمَرَتْهُ النَّيِّرَانِ
رَصِيدٌ مِنَ الدُّمُوعِ لِمَنْ يُبْدِي جَدَارَةً بِهَا.

(١)
فرانشيسكا ماي لود

أبياتٌ مكتوبةٌ إلى امرأةٍ متواضعةٍ واسعةٍ المعرفةٍ ووَرعةٍ

سَأْغْنِي لَكَ عَلَى أَوْتَارِ جَدِيدَةٍ،
يَا حُلُوتِي الَّتِي تَمَرِّحُ
فِي عَزْلَةِ قَلْبِي.

فَلتَسَرِّبِي بِالْإِكْلِيلِ،
أَيُّهَا الْمَرْأَةُ الشَّهِِيَّةُ
الَّتِي بِفَضْلِهَا غَفِرَتِ الذُّنُوبُ!

مِثْلَ نَسِيَانٍ نَاجِعٍ،
سَأَنْهَلُ مِنْكَ الْقُبْلَ

(١) القصيدة - في الأصل - مكتوبة باللغة اللاتينية. وقد اعتمدنا - في ترجمتها إلى العربية - على الترجمة الفرنسية لها التي أنجزها «جول موكيه» (Mouquet, *Vers latins de Baudelaire, Mercure de France*) (1933) والواردة في هوامش الطبعة الكاملة من أعمال بودلير، التي اعتمدناها كمرجع أساسي، وتمت مراجعتها على ترجمة «باتريك لابارث» Patrick Labarthe الواردة في هوامش Baudelaire, les *Fleurs du Mal*, le livre de poche classique, Paris, 1999.

أَنْتِ الْمُفْعَمَةُ بِالْجَازِيَّةِ.

عِنْدَمَا كَدَّرْتُ عَاصِفَةُ الْخَطَايَا
كُلَّ الطَّرَفَاتِ
تَجَلَّيْتُ لِي، إِلَهَةً.

مِثْلَ نَجْمِ الْخَلَاصِ
فِي الْغَرَقِ الْمَرِيرِ ...
- سَأَعْلُقُ قَلْبِي بِهَيْكَلِكَ!

كَحَوْضٍ مَلِيءٍ بِالْفَضِيلَةِ،
كَتَبَعَ لِلشَّبَابِ الْأَيْدِي،
فَلْتَمَنِّحِي الصَّوْتَ لِشِفَاهِي الْخُرُسَاءِ!

مَا كَانَ دَنِيئًا، أَحْرَفْتِهِ.
وَقَطًّا، لَطَفْتِهِ.
وَوَاهِيًا، دَعَمْتِهِ.

فِي الْجُوعِ مَطْعَمِي،
فِي اللَّيْلِ مَضْبَاحِي،
فَلْتَقُودِينِي دَائِمًا مِثْلَمَا يَنْبَغِي.

فَلْتُضَيِّفِي الْآنَ قُوَى إِلَى قُوَايِ.

أَيُّهَا الْحَمَامُ الْمُعْطَرَّ
بِالْعَبِيرِ الرَّهِيْفِ!

فَلْتُبْرِقِي حَوْلَ حِقْوَيَّ
يَا حِرَامَ الْعِفَّةِ،
الْمُبَلَّلَ بِالْمَاءِ الْمَلَانِكِيِّ؛

شَكْلٌ مُتَأَلِّقٌ بِالْجَوَاهِرِ،
خُبْزٌ مُمَلَّحٌ، طَعَامٌ شَهِيٍّ،
خَمْرٌ سَمَاوِيٌّ، فَرَانْسُوَاز.

إلى سيدة خلاسيّة

فِي بَلَدٍ مُّعْطَرٍ تُدَاعِبُهُ الشَّمْسُ،
تَعْرِفْتُ، تَحْتَ سُرَادِقٍ مِنْ أَشْجَارٍ أَرْجُوَانِ
وَنَخِيلٍ يَهْطُلُ فِي عَيْنِي الْفُتُورُ،
عَلَى سَيِّدَةٍ خَلَاسِيَّةٍ ذَاتِ مَفَاتِنَ مَجْهُولَةٍ.

سَحَّطَتْهَا سَاحِبَةٌ وَسَاحِنَةٌ؛ وَلِلْشُّمْرِ الْفَاتِنَةِ
فِي عُنُقِهَا سِيْمَاءُ التَّكْلِيفِ النَّبِيلِ؛
طَوِيلَةٌ نَحِيلَةٌ فِي مَشْيِهَا مِثْلَ صَائِدَةٍ،
وَابْتِسَامَتُهَا هَادِيَةٌ وَعَيْنَاهَا أَمِتَتَانِ،

فَإِذَا مَا كَانَ لَكَ، سَيِّدَتِي، أَنْ تَمْضِيَ إِلَى بَلَدِ الْمَجْدِ الْحَقِيقِيِّ،
عَلَى شَوَاطِيئِ السَّيْنِ أَوْ اللُّوَارِ الْأَخْضَرِ،
جَمِيلَةً، جَدِيدَةً بِتَرْزِينِ الضَّبَّاعِ الْعَرِيقَةِ،

فَسْتَغْرِسِينَ، فِي حُمَى الْخُلُوتِ الظِّلِيلَةِ،
أَلْفَ «سُونَاتًا» فِي قَلْبِ الشُّعْرَاءِ،
الَّذِينَ سَتَفْرِضُ عَيْنَاكَ عَلَيْهِمُ الْخُضُوعَ أَكْثَرَ مِنْ عَبِيدِكَ السُّودِ.

حزينة وتانهة^(١)

فَلْتَقُولِي لِي، يَا أَجَاثْ، هَلْ يُحَلِّقُ قَلْبُكَ أَحْيَانًا،
بَعِيدًا عَنِ الْمُحِيطِ الْأَسْوَدِ لِلْمَدِينَةِ الْقَدِيرَةِ
نَحْوَ مُحِيطِ آخَرٍ تُوْمِضُ فِيهِ الرُّوعَةُ
أَزْرَقَ صَافٍ غَائِرٍ مِثْلَ الْعُذْرِيَّةِ؟
فَلْتَقُولِي لِي، يَا «أَجَاثْ»، هَلْ يُحَلِّقُ قَلْبُكَ أَحْيَانًا؟

الْبَحْرُ، الْبَحْرُ الشَّاسِعُ، يُوَاسِي عَنَاءَنَا!
فَأَيُّ شَيْطَانٍ مَنَحَ الْبَحْرَ، الْمُغْنِيَّ الْأَجَشَّ
الَّذِي يُصَاحِبُ الْأَرْغْنَ الْهَائِلَ لِلرِّيَّاحِ الْهَادِرَةِ،
تِلْكَ الْمُهِمَّةَ السَّامِيَّةَ لِلْهَذْهَدَةِ؟
فَالْبَحْرُ، الْبَحْرُ الشَّاسِعُ، يُوَاسِي عَنَاءَنَا!

فَلْتَأْخِذِيْنِي، أَيُّهَا الْعَرَبَةُ! وَلْتَحْمِلِيْنِي، أَيُّهَا الْفُرْقَاطَةُ!

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية (MOESTA ET ERRABUNDA).

بَعِيدًا! بَعِيدًا! فَهَذَا الطِّينُ مَجْبُورٌ مِنْ دُمُوعِنَا!

- أَصْحِيحُ أَنَّ قَلْبَ أَجَاثِ الْحَزِينِ

أَحْيَانًا مَا يَقُولُ: بَعِيدًا عَنِ النَّدَمِ، وَالْجَرَائِمِ، وَالْآلَامِ،

خُذْنِي، أَيُّهَا الْعَرَبَةُ، وَلْتَحْمِلْنِي، أَيُّهَا الْفُرْقَاةُ؟

كَمْ أَنْتَ بَعِيدٌ، أَيُّهَا الْفِرْدَوْسُ الْمُعَطَّرُ،

حَيْثُ لَا شَيْءَ سِوَى حُبِّ وَبَهْجَةٍ تَحْتَ زُرْقَةٍ صَافِيَةٍ،

حَيْثُ كُلُّ مَا نُحِبُّ جَدِيرٌ بِالْحُبِّ،

حَيْثُ الْقَلْبُ يَغْرِقُ فِي الشَّهْوَةِ الْخَالِصَةِ!

فَكَمْ أَنْتَ بَعِيدٌ، أَيُّهَا الْفِرْدَوْسُ الْمُعَطَّرُ!

لَكِنَّ الْفِرْدَوْسَ الْأَخْضَرَ لِلْحُبِّ الطُّفُولِيِّ،

وَالسَّبَاقَاتِ، وَالْأَغَانِي، وَالْقُبُلَاتِ، وَالْبَقَاتِ،

وَالْكَمَانَاتِ الْمُرْتَعِشَةِ وَرَاءَ التَّلَالِ،

مَعَ أَقْدَاحِ الْخَمْرِ، فِي الْمَسَاءِ، فِي الْأَجَمَاتِ،

- لَكِنَّ الْفِرْدَوْسَ الْأَخْضَرَ لِلْحُبِّ الطُّفُولِيِّ

الْفِرْدَوْسَ الْبَرِّيَّ، الْمَلِيَّ بِالْمَلَذَاتِ الْهَارِبَةِ،

أَهْوَ حَقًّا أَبْعَدُ مِنَ الْهِنْدِ وَالصِّينِ!

أَيُمْكِنُ اسْتِدْعَاؤُهُ بِالصَّرَخَاتِ النَّائِحَةِ،

وَأَحْيَاؤُهُ بِصَوْتِ فُضِّي،

ذَلِكَ الْفِرْدَوْسُ الْبَرِّيُّ، الْمَلِيُّ بِالْمَلَذَاتِ الْهَارِبَةِ!

الطيف

مِثْلَ الْمَلَائِكَةِ ذَاتِ الْعُيُونِ الْوَحْشِيَّةِ،

سَأَعُودُ إِلَى مِخْدَعِكَ

وَأَنْسَلُ إِلَيْكَ بِلَا صَوْتٍ

مَعَ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ؛

وَسَأَمْنَحُكَ، يَا سَمْرَائِي،

قُبَلَاتٍ بَارِدَةً كَالْقَمَرِ

وَمُدَاعِبَاتٍ أَفْعَى

تَزْحَفُ حَوْلَ حُفْرَةٍ.

وَحِينَمَا يَحِلُّ الصَّبَاحُ الشَّاحِبُ،

سَتَجِدِينَ مَكَانِي خَاوِيَا،

وَسَيَبْقَى بَارِدًا حَتَّى الْمَسَاءِ.

وَفِيمَا يَلْتَرِمُ الْآخَرُونَ بِالرَّقَّةِ
فَإِنِّي أُرِيدُ الْهَيْمَنَةَ
عَلَى حَيَاتِكَ وَشَبَابِكَ بِالرُّغْبِ.

سُونَاتَا الْخَرِيف

عَيْنَاكِ، الصَّافِيَتَانِ مِثْلَ الْبَلُورِ، تَقُولَانِ لِي:
 «بِالنِّسْبَةِ لَكَ، أَيُّهَا الْعَاشِقُ الْغَرِيبُ، مَا قِيَمَتِي؟»
 - فَلْتَكُونِي فَاتِنَةً، وَلْتَصْمُتِي! فَقَلْبِي الَّذِي يُبِيرُهُ كُلُّ شَيْءٍ،
 إِلَّا بَرَاءَةَ الْحَيَوَانِ الْعَتِيقِ،

لَا يَرِيدُ أَنْ يَكْشِفَ لَكَ سِرَّهُ الْجَهَنَّمِيِّ،
 أَتَيْتُهَا الْمُهْدَهْدَةُ الَّتِي تَدْعُونِي يَدُهَا إِلَى سُبَاتٍ طَوِيلٍ،
 وَلَا سِيرَتَهُ السَّوْدَاءَ الْمَكْتُوبَةَ بِاللَّهِيبِ.
 إِنِّي أَكْرَهُ الْعَاطِفَةَ، وَالْفِكْرُ يُسَبِّبُ لِي الْأَلَمَ!

فَلْتَتَحَابَّ بَرِيقَةً. فَالْحُبُّ فِي بُرْجِ مُرَاقِبَتِهِ،
 الْمُظْلِمِ، مُتَرَصِّدًا، يَشُدُّ قَوْسَهُ الْقَاتِلِ.
 أَعْرِفُ الْأَسْلِحَةَ فِي تِرْسَانَتِهِ الْقَدِيمَةِ:

الْجَرِيمَةُ، وَالرُّعْبُ، وَالْجُنُونُ! - يَا وَرْدَةَ الْمَارِجِرِيتِ الشَّاحِبَةِ!
أَلَسْتُ - مِثْلِي - شَمْسًا خَرِيفِيَّةً،
يَا حَبِيبَتِي «مَارِجِرِيت»^(١) الْبَيْضَاءُ الْبَارِدَةُ؟

(١) اسم حبيبة «فاوست» لدى «جوته»، لكن أهى المقصودة؟

حُزْنُ الْقَمَرِ

هَذَا الْمَسَاءُ، يَحْلُمُ الْقَمَرُ بِكَسَلٍ كَبِيرٍ؛
 كَأَمْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ، مُسْتَرْخِيَةٍ عَلَى وَسَائِدَ كَثِيرَةٍ،
 تُدَاعِبُ بِيَدٍ شَارِدَةٍ خَفِيفَةً
 حُدُودَ ثَدْيَيْهَا قَبْلَ النَّوْمِ،

وَعَلَى الظَّهْرِ السَّاتَانِ لِلْمُنْحَدَرَاتِ الطَّرِيقَةِ،
 يَسْتَسْلِمُ، مُتَمَاوِتًا، لِإِعْمَاءَاتِ طَوِيلَةٍ،
 وَيَطُوفُ بِعَيْنَيْهِ عَلَى الرُّؤَى الْبَيْضَاءِ
 الَّتِي تَصَاعَدُ فِي الزُّرْقَةِ كَالْأَزْهَارِ.

وَحِينَمَا يَسْمَحُ أَحْيَانًا لِذِمَعَةٍ هَارِيَةٍ أَنْ تَنْطَلِقَ،
 عَلَى هَذَا الْكَوْكَبِ، فِي فُتُورِهِ الْمُتَبَطِّلِ،
 يَلْتَقِطُ شَاعِرٌ بَارٌّ، عَدُوًّا لِلنَّوْمِ،

فِي تَجْوِيفِ كَفِّهِ هَذِهِ الدَّمَعةُ الشَّاحِبَةُ،
ذَاتِ الانْعِكَاسَاتِ الْفَرَحِيَّةِ مِثْلَ كِسْرَةِ أُوبَالٍ،
وَيَدُسُّهَا فِي قَلْبِهِ بَعِيدًا عَنْ عُيُونِ الشَّمْسِ.

الْقَطَط

الْعُشَاقُ الْمُتَيَّمُونَ وَالْعُلَمَاءُ الْمُتَقَشِّفُونَ
يُحِبُّونَ مَعًا، فِي مَوْسِمِ نَضِجِهِمْ،
الْقَطَطَ الْقَوِيَّةَ الرَّقِيقَةَ، فَخَرَّ الْمَنَازِلَ،
سَرِيعَةَ التَّأَثُّرِ مِثْلَهُمْ بِالْبُرُودَةِ، وَمِثْلَهُمْ تُحِبُّ الْاسْتِقْرَارَ.

أَصْدِقَاءُ الْعِلْمِ وَالشَّهْوَةِ،
يَنَحْثُونَ عَنْ صَمْتٍ وَرُغْبِ الظُّلُمَاتِ؛
وَكَانَ لـ «إِيرِيب» ^(١) أَنْ يَتَّخِذَهُمْ جِيَادَهُ الْجَنَائِزِيِّينَ،
فِيمَا لَوْ أَخْضَعُوا كِبَرِيَاءَهُمْ لِلْعُبُودِيَّةِ.

وَعِنْدَمَا يَحْلُمُونَ يَتَّخِذُونَ أَنْبَلَ الْأَوْضَاعِ
لِكَائِنَاتِ أَبِي الْهَوْلِ الْعَظِيمَةِ الرَّاقِدَةِ فِي أَعْمَاقِ الْعُزْلَةِ،
الَّتِي يَبْدُو أَنَّهَا تَنَامُ فِي حُلْمٍ بِلَا انْتِهَاءٍ؛

(١) إقليم من ظلام تحت الأرض، يحكمه الموت.

أَعْصَاؤُهُمُ الْجِنْسِيَّةُ الْخِصْبَةُ مُفْعَمَةٌ بِالْوَمَضَاتِ السَّحَرِيَّةِ،
وَيَسْطَايَا مِنْ ذَهَبٍ، وَرَمْلٍ نَاعِمٍ،
يُرْصَّعُونَ بِالنُّجُومِ الْخَافِتَةِ حَدَقَاتِهِمُ الرُّوحِيَّةِ.

الْبُوم

تَحْتَ أَشْجَارِ الطَّقْسُوسِ السَّوْدَاءِ الَّتِي تُؤْوِيهِمْ،
 قَبَعَ الْبُومُ فِي صُفُوفِ
 مِثْلِ آلِهَةِ غَرِيبَةٍ
 مُحَدِّقِينَ بَعْيُونِ حَمَرَاءِ. يُفَكِّرُونَ.

بِلَا حِرَالِكٍ سَيَجْتُمُونَ
 حَتَّى السَّاعَةِ السَّوْدَاوِيَّةِ
 أَوْ حُلُولِ الظُّلُمَاتِ
 وَهُمْ يَدْفَعُونَ الشَّمْسَ الْمَائِلَةَ.

وَضَعُهُمْ يُعَلِّمُ الْحَكِيمُ
 صَرُورَةً أَنْ يَخْشَى فِي هَذَا الْعَالَمِ
 الضَّجِيجَ وَالْحَرَكَةَ؛

الْإِنْسَانُ الْمُتَشَبِّهِ بِظِلِّ عَابِرٍ
يَحْمِلُ دَائِمًا الْعِقَابَ
عَلَى رَغْبَتِهِ فِي تَغْيِيرِ الْمَكَانِ.

الغليون

أَنَا غُلْيُونُ مُؤَلَّفٌ؛
وَتَرَى، عِنْدَمَا تَتَأَمَّلُ هَيْئَتِي
الْحَبَشِيَّةَ أَوِ الزُّنْجِيَّةَ،
أَنْ سَيِّدِي مُدَخِّنٌ كَبِيرٌ.

وَحِينَ يَطْنِي عَلَيْهِ الْأَسَى
يَصَّاعِدُ مِنِّي دُخَانٌ مِثْلَمَا مِنْ كُؤُخٍ
يُطْهَى فِيهِ الطَّعَامُ
فِي انْتِظَارِ عَوْدَةِ الْفَلَّاحِ.

أُعَانِقُ وَأَخْتَرِقُ رُوحَهُ
فِي السَّبَكَةِ الْمُتَحَرِّكََةِ الزَّرْقَاءِ
الَّتِي تَصَّاعِدُ مُلْتَهَبَةً مِنْ فَمِي،

وَأَنْفُتُ بِلَسْمَا قَوِيَا
يَسْحَرُ قَلْبَهُ وَيُبْرِئُ
نَفْسَهُ مِنْ أَوْجَاعِهَا.

الموسيقى

كثيراً ما تطويني الموسيقى مثل بحر!
 نحو نجمتي الشاحبة،
 تحت سقف من ضباب أو في أثير رخب،
 أفلع؛

الصدر في الأمام والرتان متفتحان
 مثل الشراع،
 أرتقي ظهر الأمواج المتركمة
 التي يحجبها عني الليل؛

أحس داخلي ينبض جميع الأهواء
 لسفينة في مازق؛
 والريح الطيبة، والعاصفة في اضطرابها

عَلَى الْهُوَّةِ الْهَائِلَةِ
تُهْدِدُنِي. فِي أَحْيَانٍ أُخْرَى، طَبَقَ هَادِيٌّ، مِرَاةً كُبْرَى
لِيَأْسِي!

قبر

إِذَا مَا ذَاتَ يَوْمٍ ثَقِيلٍ قَاتِمٍ
 دَفَنَ مَسِيحِي طَيِّبٌ، مِنْ بَابِ الشَّفَقَةِ،
 جَسَدَكَ الْمُتَبَاهِي،
 وَرَاءَ بَعْضِ الْأَنْفَاضِ الْقَدِيمَةِ،

سَاعَةً أَنْ تُغْمِضَ النُّجُومُ الطَّاهِرَةَ
 عُيُونَهَا الثَّقِيلَةَ،
 هُنَاكَ سَيَصْعُقُ شَبَاكَهُ الْعُنُكُوتُ،
 وَالْأَفْعَى صِغَارَهَا؛

وَسَتَسْمَعُ طُوَالَ الْعَامِ
 فَوْقَ رَأْسِكَ الْمُدَانَةَ
 عُوَاءَ الذُّنَابِ النَّائِحِ

وَالسَّاحِرَاتِ الْجَائِعَاتِ،
وَلَهُوَ الْعَجَائِزُ الشَّبِيقِينَ
وَمَكَائِدَ الْأَشْرَارِ.

نَقْشُ خَيَالِي

هَذَا الشَّبَحُ الْفَرِيدُ بِلَا آيَةٍ زِينَةٍ،
 سَوَى إِكْلِيلٍ بَشِعَ يَشِي بِالْمَهْرَجَانِ،
 مُثَبَّتٍ بِغَرَابَةِ عَلَى جَبِينِ هَيْكَلِهِ الْعَظُمِيِّ.
 بِلَا مَهْمَازٍ، وَلَا سَوَاطِ، يَدْفَعُ جَوَادَهُ إِلَى اللُّهَاطِ،
 شَبَحٌ مِثْلُهُ، وَجَوَادٌ مُرِيعٌ،
 يَرِيلُ مِنْ مَنْخَرَتِهِ كَمَضْرُوعٍ.
 يَنْدَفِعَانِ مَعًا فِي الْفَضَاءِ،
 وَيَذْهَبَانِ الْأَبَدِيَّةَ بِحَافِرٍ مُغَامِرٍ.
 الْفَارِسُ يُلَوِّحُ بِسَيْفٍ مُشْتَعِلٍ
 فَوْقَ حُشُودٍ بِلَا اسْمٍ تَسْحَقُهَا دَابَّتُهُ،
 وَيَجْتَازُ، كَأَمِيرٍ يَتَفَقَّدُ مَنَزِلَهُ،
 الْمَقْبَرَةَ الْهَائِلَةَ الْبَارِدَةَ، بِلَا أَفُقٍ،
 حَيْثُ تَرَفُّدُ، فِي أَضْوَاءِ شَمْسٍ ذَابِلَةٍ بَيَضَاءِ،
 سُعُوبُ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ.

الميت المبتهج

في أرضٍ خُصْبَةٍ، مَلَأَى بِالْحَلْزُونِ،
أُرِيدُ أَنْ أَحْفِرَ لِنَفْسِي حُفْرَةً عَمِيقَةً،
فِيهَا يُمَكِّنُنِي وَقْتُ الْفَرَاغِ تَمْدِيدُ عِظَامِي الْعَتِيقَةِ
وَالنَّوْمُ فِي الشَّيَآنِ مِثْلَ سَمَكَةٍ قَرَشٍ فِي الْمَوْجِ.

أَبْغَضُ الْوَصَايَا وَأَبْغَضُ الْمَقَابِرِ؛
وَبَدَلًا مِنْ اسْتِجْدَاءِ دَمْعَةٍ مِنَ الْعَالَمِ،
وَأَنَا حَيٌّ، سَأُفْضِلُ دَعْوَةَ الْغُرَبَانِ
إِلَى اسْتِنْزَافِ كُلِّ مَوَاضِعِ هَيْكَلِي الْعَظْمِيِّ الْقَدَرِ.

أَيُّهَا الدِّيدَانُ! الرَّفَاقُ الشُّوْدُ بِلَا عُيُونٍ وَلَا آذَانٍ،
فَلْتَشْهَدُوا مَيِّتًا حُرًّا وَمُبْتَهَجًا يَجِيءُ إِلَيْكُمْ؛
أَيُّهَا الْفَلَاسِفَةُ الْمُسْتَمْتِعُونَ بِالْعَيْشِ، يَا أَبْنَاءَ الْعَفَنِ،

تَعَالَوْا إِلَىٰ حُطَايِي إِذْ نَبَلَا نَدَم.
وَقُولُوا إِلَيَّ إِن كَانَ مَا يَزَالُ هُنَاكَ عَذَابٌ
لِّهَذَا الْجَسَدِ الْعَجُوزِ بِلَا رُوحٍ، الْمَيِّتِ وَسَطَ الْمَوْتَى!

برميل الكراهية

الْكِرَاهِيَةُ هِيَ بَرْمِيلُ الدَّانَائِيَّاتِ^(١)؛
وَالْإِنْتِقَامُ الْمُهِتَاجُ ذُو السَّوَاعِدِ الْحَمْرَاءِ الْقَوِيَّةِ
قَدْ يَرْمِي فِي ظُلُمَاتِهِ الْفَارِغَةَ
بِدِلَالٍ كَبِيرَةٍ مَلَأَى بِدَمٍ وَدُمُوعِ الْمَوْتَى،

فِي هَذِهِ الْمَهَاوِي يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ ثُقُوبًا خَفِيَّةً،
كَانَ يَتَسَرَّبُ مِنْهَا أَلْفُ عَامٍ مِنَ الْعَرَقِ وَالْعَنَاءِ،
وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يُعِيدُ إِحْيَاءَ ضَحَايَاهُ،
وَبَعَثَ أَجْسَادِهِمْ لِيَعْتَصِرَهَا.

الْكِرَاهِيَةُ سَكِّيرٌ فِي أَعْمَاقِ حَانَةِ،
يُحَسُّ دَائِمًا بِالْعَطَشِ يَتَوَلَّدُ مِنَ الشَّرَابِ

(١) بنات داناؤس، ملك أرجوس، اللاتي قتل كل منهن زوجها في «ليلة الدخلة». وقد حُكِمَ عليهن في هادس - العالم السفلي - بأن يقمن بملء براميل بلا قاع بالماء.

وَيَتَزَايِدُ مِثْلَ أَفْعَوَانٍ لِيرْنَ^(١)

- لَكِنَّ الشَّارِبِينَ السُّعَدَاءَ يَعْرِفُونَ قَاهِرَهُمْ،
وَالْكَرَاهِيَّةُ مَنذُورَةٌ لِهَذَا الْمَصِيرِ الْمُثِيرِ لِلرَّثَاءِ
مِنَ الْعَجْزِ أَبَدًا عَنِ النَّوْمِ تَحْتَ الطَّاوَلَةِ.

(١) ثعبان له سبع رءوس، تنبت كلها قُطعت.

الجرس المشروح

مَرِيرٌ وَعَذْبٌ، خِلَالَ لَيَالِي الشَّتَاءِ،
أَنْ نَسْمَعَ، بِجَوَارِ النَّارِ الْمُرتَجِفَةِ الدَّاخِلَةِ،
الدُّكْرِيَّاتِ البَعِيدَةِ تَتَبَعُ بِطُءٍ
فِي صَخَبِ الْأَجْرَاسِ الْمُغْنِيَةِ فِي الضَّبَابِ.

فَطُوبَى لِلْجَرَسِ ذِي الْحَنْجَرَةِ الْقَوِيَّةِ،
الْيَقِظُ فِي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ، رَغْمَ شَيْخُوخَتِهِ،
الَّذِي يُطْلِقُ بِإِخْلَاصٍ صَيَحَّتَهُ الدِّينِيَّةَ،
كَجُنْدِيٍّ عَجُوزٍ يَقْظَانُ تَحْتَ الْخِيَمَةِ!

أَمَّا أَنَا، فَرُوحِي مَشْرُوخَةٌ، وَفِي صَجَرِهَا
تُرِيدُ أَنْ تَمَلَأَ بِأَغَانِيهَا هَوَاءَ اللَّيَالِي الْبَارِدِ،
وَكَثِيرًا مَا يُشَبِّهُ صَوْتَهَا الْوَاهِي

الْحَشْرَجَةُ الْعَمِيقَةُ لِجَرِيحِ مَنْسِيٍّ
عَلَى حَافَةِ بَرَكَةِ دَمٍ، تَحْتَ كَوْمَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْمَوْتَى،
وَيَمُوتُ، بِلَا حِرَالِكٍ، فِي عَنَاءٍ هَائِلٍ.

سَام ١

شَهْرُ «بَلْفِيُوز»^(١)، مُهْتَاجًا عَلَى كُلِّ الْمَدِينَةِ،
يَصُبُّ مِنْ جَرَّتِهِ بَرْدًا مُظْلِمًا فِي دَفَقَاتِ كُبْرَى
عَلَى السُّكَّانِ الشَّاحِبِينَ لِلْمَقْبَرَةِ الْمُجَاوِرَةِ
وَالْوَفَيَّاتِ عَلَى الصُّوَا حِي الصَّبَايَةِ.

وَقَطَّيْتُ، بَاحِثَةً لَهَا عَنْ مَضْجَعٍ عَلَى الْبَلَاطِ،
تَهْزُؤُ بِلَا هُدُوءٍ جَسَدَهَا الْأَجْرَبَ النَّحِيلِ؛
وَرُوحُ شَاعِرٍ عَجُوزٍ تَهِيمُ فِي أَنْبُوبِ تَصْرِيفِ الْمَاءِ
مَعَ الصَّوْتِ الْحَزِينِ لِسَبْحٍ مَقْرُورِ.

الْجَرَسُ يَنْوُحُ، وَالْحَطْبُ الدَّاخِلِ
يُرَافِقُ، فِي تَشَاوٍ، الْبَنْدُولُ الْمَرْكُومِ،

(١) الشهر الخامس في تقويم الثورة الفرنسية (من ٢٠ يناير إلى ١٨ فبراير).

فِيمَا فِي لُغَبَةٍ مَلِيَّةٍ بِالْعُطُورِ الْقَذِرَةِ،

كَمِيرَاتٍ مَشْتُومٍ لِعَجُوزٍ مُصَابَةٍ بِالاسْتِسْقَاءِ،
يَتَحَدَّثُ وَلَدُ الْقَلْبِ الْجَمِيلِ مَعَ سَيِّدَةِ الْبُسْتُونِي
بِنَبْرَةٍ سُومٍ عَنْ عِلَاقَاتِهِمَا الْغَرَامِيَّةِ الْغَابِرَةِ.

سَام ٢

لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الذُّكْرِيَّاتِ كَأَنِّي عِشْتُ أَلْفَ عَامٍ.

خِزَانَةُ ضَخْمَةٍ ذَاتُ أَذْرَاجٍ مُكَدَّسَةٍ بِالْحِسَابَاتِ
وَالْقَصَائِدِ، وَرَسَائِلَ غَرَامِيَّةٍ وَالِدَّعَاوَى، وَالْقِصَصِ،
مَعَ خُصْلَةٍ شَعِيرٍ ثَقِيلٍ مُلْفُوفَةٍ فِي إِيْصَالَاتٍ،
تُخْفِي أَسْرَارًا أَقَلَّ مِمَّا تَخْوِيهِ رَأْسِي الْخَزِينَةِ.
هُوَ هَرَمٌ، قَبُو هَائِلٍ،

يَخْوِي أَكْثَرَ مِمَّا تَخْوِيهِ الْمَقْبَرَةُ الْعَامَّةُ مِنَ الْمَوْتَى.
- أَنَا مَقْبَرَةٌ يَبْغُضُهَا الْقَمَرُ،

يَزْحَفُ فِيهَا مِثْلَ النَّدَمِ دُودٌ طَوِيلٌ
يَنْكَبُ دَائِمًا عَلَى أَعْزِّ مَوْتَايَ.

أَنَا مِخْدَعٌ عَتِيقٌ مَلِيٌّ بِالْوُرُودِ الذَّائِلَةِ،
حَيْثُ يَرْقُدُ رُكَامٌ كَبِيرٌ مِنَ الثِّيَابِ الْبَالِيَةِ

حَيْثُ لَوَحَاتِ الْبَاسْتِيلِ النَّائِحَةِ وَرُسُومِ بُوشِيهِ^(١) الْبَاهِتَةِ،
تَسْتَنَشِقُ وَحْدَهَا أَرِيحَ قَارُورَةِ عِطْرِ مَفْتُوحَةٍ.

لَا شَيْءَ طَوِيلٌ مِثْلَ الْأَيَّامِ الْعَرَجَاءِ،
عِنْدَمَا يَتَّخِذُ الضَّجَرُ، ثَمَرَةَ الْفُتُورِ الْكَثِيبِ،
تَحْتَ النَّدْفِ الثَّقِيلَةِ لِلْسَّنَوَاتِ الثَّلْجِيَّةِ،
أَحْجَامَ الْأَبْدِيَّةِ.

- مِنْ الْآنَ، أَيُّهَا الْمَادَّةُ الْحَيَّةُ!، لَنْ تَكُونِي
مِوَى قِطْعَةٍ جَرَانِيَّتٍ مُلْتَفَّةٍ بِرُغْبٍ غَامِضٍ،
رَاقِدَةٍ فِي عُمُقِ صَحْرَاءَ صَبَابِيَّةٍ؛
أَبِي هَوْلٍ عَتِيقٍ يَجْهَلُهُ الْعَالَمُ اللَّامُبَالِي،
مَنْسِيٍّ مِنَ الْخَرِيطَةِ، وَمَزَاجُهُ الضَّارِي
لَا يُغْنِي إِلَّا فِي أَشْعَةِ شَمْسٍ غَارِبَةٍ.

(١) فرانسوا بوشيه، رسّام فرنسيّ (١٧٠٣-١٧٧٠).

سَام ٣

أَنَا شَيْءٌ بِمِلْكٍ عَلَى بَلَدٍ مَطِيرٍ،
ثَرِيٌّ لَكِنَّهُ عَاجِزٌ، شَابٌّ لَكِنَّهُ - مَعَ ذَلِكَ - عَجُوزٌ،
مُخْتَقِرٌ أَنْجَنَاءَاتٍ مُعَلِّمِيهِ،
يَعْتَرِيهِ الضَّجَرُ مَعَ كِلَابِهِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْآخَرَى.
لَا شَيْءٌ يُمَكِّنُهُ التَّرْفِيهِ عَنْهُ، لَا الصَّيْدُ، لَا الصَّقْرُ،
وَلَا شَعْبُهُ الَّذِي يَمُوتُ أَمَامَ الشُّرْفَةِ.
وَالْأَنَاشِيدُ الْغَرَائِبِيَّةُ لِمَهْرَجِهِ الْمُفْضَلِ
لَمْ تُعِدْ تُلْهِي رَأْسَ هَذَا الْمَرِيضِ الْقَاسِي؛
وَفِرَاشُهُ الْمُوشَى بِالزَّنْبَقِ يَتَحَوَّلُ إِلَى قَبْرِ،
وَالْوَصِيفَاتُ، اللَّائِي يَعْتَبِرْنَ كُلَّ أَمِيرٍ وَسِيمًا،
مَا عُدْنَ يَعْرِفْنَ إِيجَادَ زِينَةٍ مُتَبَرِّجَةٍ
لِإِتِّزَاعِ بَسْمَةٍ مِنْ هَذَا الْهَيْكَلِ الْعَظِيمِي الشَّابِ.
وَالْعَالَمُ الَّذِي يَصُوغُ لَهُ الذَّهَبَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَبَدًا
إِتِّزَاعَ الْعُنْصَرِ الْفَاسِدِ مِنْ كَيْنُونَتِهِ

وَفِي حَمَامَاتِ الدِّمَاءِ هَذِهِ الَّتِي تَنْحَدِرُ إِلَيْنَا مِنَ الرُّومَانِ،
وَيَتَذَكَّرُهَا الْأَقْوِيَاءُ فِي أَيَّامِ شَيْخُوخَتِهِمْ،
لَمْ يَسْتَطِيعِ إِعَادَةُ الدَّفْعِ إِلَى هَذِهِ الْجُبَّةِ الْبَلِيدَةِ
الَّتِي يَسْرِي فِيهَا مَكَانَ الدِّمَاءِ الْأَخْضَرُ لِلْخُمُولِ.

سَام ٤

حِينَ تَثْقُلُ السَّمَاءُ الْخَفِيفَةُ الْوَيْلَةُ مِثْلَ غِطَاءٍ
 عَلَى الرُّوحِ الْمُرْتَعِدَةِ فَرِيسَةِ الضَّجَرِ الطَّوِيلِ،
 وَعِنْدَمَا تَصُبُّ عَلَيْنَا، فِيمَا تُعَانِقُ دَائِرَةَ الْأُفُقِ،
 نَهَارًا أَسْوَدَ أَكْثَرِ كَاتِبَةٍ مِنَ اللَّيَالِي؛

وَحِينَ تَتَحَوَّلُ الْأَرْضُ إِلَى زُرْنَانَةٍ دَبِيقَةٍ،
 فِيمَا يَتَخَبَّطُ الْأَمَلُ، مِثْلَ خُفَّاشٍ،
 فِي الْجُدْرَانِ بِجَنَاحِهِ الْمَفْزُوعِ
 وَتَرْتَطِمُ رَأْسُهُ فِي سُقُوفٍ بَالِيَةٍ؛

وَحِينَ يُقْلَدُ الْمَطَرُ، وَهُوَ يَنْشُرُ خُيُوطَهُ الْهَائِلَةَ،
 قُضْبَانَ سِجْنٍ شَاسِعٍ،
 وَشَعْبٌ أَبْكَمٌ مِنْ عَنَاكِبِ مُقَرَّرَةٍ
 يَأْتِي لِيَمُدَّ خُيُوطَهُ فِي أَعْمَاقِ رُءُوسِنَا،

وَعَرَبَاتُ مَوْتَى طَوِيلَةٌ، بِلَا طُبُولٍ أَوْ مُوسِيقَى،
تَتَّالَى بِطُءٍ فِي رُوحِي؛ وَالْأَمْلُ، الْمَهْزُومُ،
وَالْبُكَاءُ، وَالْعَذَابُ الْوَحْشِيُّ، الْمُسْتَبَدِّ
يَغْرِسُونَ أَعْلَامَهُمُ السَّوْدَاءَ فِي رَأْسِي الْمَحْنِيَّةِ.

LES FLEURS DU MAL

463
Paratub. qm 20/10/1971

Des cloches tout-à-coup sautent avec furie
Et portent vers lo ciel un long gémissement,
Ainsi que des esprits errants et sans patrie
Qui se mettent à geindre opiniâtrément.

Handwritten musical notation on a staff, featuring a treble clef and a key signature of one sharp (F#). The notation includes a series of eighth and sixteenth notes, with some accidentals (sharps and naturals) and a fermata at the end. The handwriting is somewhat stylized and appears to be a personal sketch or a working draft.

affairs fundamental,

— Et ~~de~~ ^{d'anciens} corbillaards, sans tambour ni musique,
~~passent au fond de~~ ^{passent au fond de} mon âme; et l'Espoir
~~surant vers d'autres cieux,~~ ^{surant vers d'autres cieux,} l'Angoisse despotique
 Sur mon crâne incliné plante son drapeau noir.

mattering any is
 are unequal in
 to information
 & to
 / life?

Une épreuve des
Fleurs du mal
corrigée par
Baudelaire.

Phos. 2

مقاطع من قصيدة «سأم» (حين تثقل السماء)
مع تصحيحات بودلير لطبعة «أزهار الشر» الأولى

وسواس

أَيْتُهَا الْغَابَاتُ الْكُبْرَى، تُخِيفِينِنِي مِثْلَ الْكَاتِدِرَائِيَّاتِ؛
تَعْوِينَ كَالْأُرْغُنِ؛ وَفِي قُلُوبِنَا اللَّعِينَةِ،
قَاعَاتِ الْحِدَادِ الْأَبَدِيِّ الَّتِي تَتَرَدَّدُ فِيهَا حَشَرَجَاتُ عَمِيقَةٍ،
تَتَجَاوَبُ أَصْدَاءُ نَشِيدِكَ «مِنَ الْأَعْمَاقِ».

إِنِّني أَكْرَهُكَ، أَيُّهَا الْمُحِيطُ! فَفَقَزَاتُكَ وَصَحْبُكَ،
تَسْتَعِيدُهَا رُوحِي دَاخِلَهَا؛ وَهَذَا الضَّحِكُ الْمَرِيرُ
لِلْإِنْسَانِ الْمَهْزُومِ، الْمُفْعَمِ بِالْآهَاتِ وَاللَّعَنَاتِ،
أَسْمَعُهُ فِي الضَّحِكِ الْهَائِلِ لِلْبَحْرِ.

أَيُّهَا اللَّيْلُ! كَمْ سَتَخْلُو لِي، بِدُونِ هَذِهِ النُّجُومِ
الَّتِي يَتَكَلَّمُ ضَوْوُهَا لُغَةً مَعْرُوفَةً!
لَأَنِّي أَنشُدُ الْفَرَاغَ، وَالسَّوَادَ، وَالْعَرَاءَ!

لَكِنَّ الظُّلُمَاتِ نَفْسَهَا نَسِيجُ
تَعِيشُ فِيهِ، طَافِرَةٌ مِنْ عَيْنِي بِالْآلَافِ،
كَائِنَاتُ صَائِعَةٍ ذَاتُ نَظَرَاتٍ مَأْلُوفَةٍ.

مَذَاقُ الْعَدَمِ

أَيُّهَا الرُّوحُ الْكَيِّبَةُ، الْعَاشِقَةُ ذَاتِ يَوْمٍ لِلصَّرَاعِ،
لَمْ يَعُدِ الْأَمَلُ، الَّذِي كَانَ مِهْمَاؤُهُ يَسْتَشِيرُ حِمَاسَكَ،
يُرِيدُ امْتِطَاءَكَ! فَلْتَرَقُدِ بِلَا خَجَلٍ،
أَيُّهَا الْحِصَانُ الْعَجُوزُ الَّذِي تَتَعَثَّرُ قَدَمُهُ فِي كُلِّ عَقَبَةٍ.

فَلْتَسْتَسْلِمِ، يَا قَلْبِي؛ وَلْتُغْطِ فِي نَوْمِكَ الْحَيَوَانِي.

أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَهْزُومَةُ، الْمَنْهُوكةُ! أَيُّهَا السَّارِقَةُ الْعَجُوزُ،
لَمْ يَعُدِ لِلْحُبِّ - بِالنِّسْبَةِ لَكَ - مَذَاقٌ إِلَّا كَالشَّعْجَارِ؛
فَوَدَاعًا إِذَنْ، يَا أُغْنِيَاتِ الْأَلَاتِ النُّحَاسِيَّةِ وَآهَاتِ النَّايِ!
وَأَيُّهَا الْمَلَذَّاتُ، لَا تَعُودِي إِلَى إِغْوَاءِ قَلْبٍ مُتَجَهِّمٍ عُبُوسٍ!

الرَّبِيعُ الرَّائِعُ أَضَاعَ عَيْبِرَهُ.
وَالزَّمَنُ يَلْتَهِمُنِي دَقِيقَةً دَقِيقَةً،
مِثْلَمَا تَفْعَلُ الثَّلُوجُ الْهَائِلَةُ بِجَسَدِ يَابِسٍ؛

أَتَأْمَلُ مِنْ أَعْلَى الْأَرْضِ فِي اسْتِدَارَتِهَا
وَلَمْ أَعُدْ أَنْشُدُ فِيهَا مَأْوَى فِي كُوخِ بَائِسٍ.

أَيُّهَا الْجُرْفُ، أَلَا تُرِيدُ الْإِطَاحَةَ بِي فِي انْهْيَارِكَ؟

كيمياء الألم

أَيْتُهَا الطَّيِّبَةُ! أَحَدُهُمْ يُضِيئُكَ بِعُنْفَوَانِهِ،
وَالْآخَرُ يُضْفِي عَلَيْكَ حُزْنَهُ.
وَمَا يَعْني لِأَحَدِهِمْ مَقْبَرَةٌ!
يَعْني لِلْآخَرِ حَيَاةٌ وَرَوْعَةٌ!

يَا «هيرميس»^(١) الْمَجْهُولَ الَّذِي يُعِينُنِي
وَدَائِمًا مَا أَخَافُنِي،
هَآ أَنْتَ تَجْعَلُنِي نَدًّا لِمِيدَاسٍ^(٢)،
أَتَعَسَ الْكِيمِيَاءُ يُبَيِّنُ؟

بِفَضْلِكَ أُحَوِّلُ الذَّهَبَ إِلَى حَدِيدٍ
وَالْفِرْدَوْسَ إِلَى جَحِيمٍ؛

(١) المؤسس الأسطوري لفن الكيمياء.

(٢) ملك في الأساطير الإغريقية، يتحول كل ما تمسه يده إلى ذهب.

وَفِي كَفَنِ الْغُيُومِ

أَكْتَشَفُ جُثْمَانًا حَبِيبًا،
وَعَلَى السَّوَاكِحِ السَّمَاءِ
أَصْنَعُ تَوَايِيتَ حَجَرِيَّةٍ كَبِيرَةٍ.

رُعبٌ متعاطف

مِنْ هَذِهِ السَّمَاءِ الْغَرِيبَةِ الدَّاكِنَةِ،
 الْمُضْطَّرِبَةِ مِثْلَ مَصِيرِكَ،
 آيَةُ أَفْكَارٍ تَهْبِطُ إِلَى رُوحِكَ الْخَاوِيَةِ!
 فَلْتُجِبْ، أَيُّهَا الْمَارِقُ.

- نَهْمًا بِشَرَاهَةِ
 لِلْغَامِضِ وَالْمَشْبُوهِ،
 لَنْ أَنْوَحَ مِثْلَ «أَوْفِيد»^(١)
 عِنْدَمَا طُرِدَ مِنْ فِرْدَوْسِهِ اللَّاتِنِيِّ.

أَيُّهَا السَّمَاوَاتُ الْمُمَزَّقَةُ مِثْلَ الشَّوَاطِئِ الرَّمْلِيَّةِ،
 فِيكَ يَنْعَكِسُ كِبْرِيَائِي؛
 وَغُيُومُكَ الْكَبِيرَةُ الَّتِي تَرْتَدِي السَّوَادَ

(١) الشاعر اللاتيني «أوفيد» (٤٣ ق.م - ١٦ م)، الذي طُرد من «روما»، ونفي إلى «سيثيس».

هِيَ عَرَبَاتُ الْمَوْتِ لِأَخْلَامِي،
وَأَضْوَاؤُكَ هِيَ انْعِكَاسُ
الْجَحِيمِ الَّذِي يَسْتَمْتِعُ فِيهِ قَلْبِي.

المُعَذِّبُ نَفْسَهُ^(١)

إلى ج. ج. ف

سَأُضْرِبُكَ بِلَا غَضَبٍ
وَلَا كَرَاهِيَةٍ، كَجَزَّارٍ،
كَضَرْبِ مُوسَى^(٢) لِلْحَجَرِ!
وَسَأُفَجِّرُ مِنْ جُفُونِكَ،

لَأَرْوِيَ صَحْرَائِي،
مِيَاهَ الْعَذَابِ.
وَرَغِيَّتِي الْمُفْعَمَةَ بِالْأَمَلِ
سَتَطْفُو عَلَى دُمُوعِكَ الْمَالِحَةِ

كَسَفِينَةٍ تَنْطَلِقُ إِلَى الْبَحْرِ،
وَفِي قَلْبِي الَّذِي سَيُسْكِرُونَهُ
سَتَرَدَّدُ آهَاتُكَ الْحَبِيبَةِ

(١) العنوان في اللغة اللاتينية (L'HEAUTONTIMOROUENOS).

(٢) وفقاً لسفر الخروج، ضرب موسى الحجر بعصاه، فتفجّر بالماء، ليروي عطشَ الإسرائيليين.

مِثْلَ طَبْلِ يُغْلِنُ الْهُجُومَ!

أَلَسْتُ نَعَمًا خَاطِئًا
فِي السِّمْفُونِيَّةِ السَّمَائِيَّةِ،
بِفَضْلِ السُّخْرِيَّةِ الشَّرِّهَةِ
الَّتِي تُزْعِزُ عَنِّي وَتَعْضُنِي؟

هِيَ الصَّاحِبَةُ فِي صَوْتِي!
وَهُوَ كُلُّ دَمِي، ذَلِكَ السُّمُّ الْأَسْوَدُ!
أَنَا الْمَرْأَةُ الْمَشْتُومَةُ.
الَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا إِلَى نَفْسِهَا الْمَرْأَةُ الشَّرِيسَةِ.

أَنَا الْجُرْحُ وَالسَّكِينُ!
أَنَا الصَّفْعَةُ وَالْخَدُ!
أَنَا الْأَعْضَاءُ وَالْأَلَّةُ التَّعْذِيبِ،
وَالضَّحِيَّةُ وَالْجَلَادُ!

أَنَا مَصَّاصُ دِمَاءِ قَلْبِي
- أَحَدُ هَؤُلَاءِ الْمَهْجُورِينَ الْعِظَامِ
الْمَحْكُومِينَ بِالضَّحِكِ الْأَبَدِيِّ،
وَالَّذِينَ لَمْ يَعُودُوا قَادِرِينَ عَلَى الْإِبْتِسَامِ!

بَلَاءُ دَوَاءٍ

(١)

فِكْرَةً، شَكْلٌ، كَائِنٌ
 انْطَلَقَ مِنَ الزُّرْقَةِ وَهَوَى
 فِي نَهْرِ «سِتْيَكْس» الرَّصَاصِيِّ الْمُوَحِلِ
 الَّذِي لَا تَنْفُذُ إِلَيْهِ عَيْنٌ مِنَ السَّمَاءِ؛

مَلَاكَ، رَحَالَةً طَائِشٌ
 أَغْوَاهُ حُبُّ الْمُسَوِّهِ،
 فِي أَعْمَاقِ كَابُوسٍ شَاسِعٍ
 يَتَخَبَّطُ مِثْلَ سَبَّاحٍ،

وَيُضَارِعُ، يَا لَلْعَذَابَاتِ الْكَئِيبَةِ!
 الدَّوَامَةَ الْهَائِلَةَ
 الَّتِي تُغْنِي كَالْمَجَانِينِ
 وَتَنْشِي إِلَى الظُّلُمَاتِ؛

شَخْصٌ تَعِيسُ مَسْحُورٌ
فِي مَسَاعِيهِ الْخَائِبَةِ،
بَحْثًا عَنِ الضُّوءِ وَالْمِفْتَاحِ،
لِلْهُرُوبِ مِنْ مَكَانٍ مَلِيٍّ بِالْهُوَامِ؛

شَخْصٌ مَلْعُونٌ يَهْبِطُ بِلَا مِصْبَاحِ،
عَلَى حَافَةِ هَاوِيَةٍ تَفْضَحُ رَائِحَتُهَا
الْأَعْمَاقَ الرُّطْبَةَ،
سَلَالِمَ أَبَدِيَّةٍ بِلَا سِيَاحِ،

حَيْثُ تَسْهَرُ وَحُوشُ لَزِجَةٍ
وَعُيُونُهَا الْفُسْفُورِيَّةُ الْوَاسِعَةُ
تَجْعَلُ اللَّيْلَ أَكْثَرَ ظُلْمَةً
وَلَا تَسْمَحُ بِرُؤْيَا سِوَاهَا؛

سَفِينَةٌ سَقَطَتْ فِي الْقُطْبِ،
مِثْلَمَا فِي فَخٍّ مِنْ بِلَورٍ،
بَاحِثَةً عَنِ الْمَضِيقِ الْمَشْهُومِ
هَوَتْ إِلَى هَذَا السَّجْنِ؛

- رُمُوزٌ وَاضِحَةٌ وَلَوْحَةٌ مُكْتَمِلَةٌ

لِمَصِيرٍ بِلَا تَعْوِيزِ،
يُدْفَعُ إِلَى الظَّنِّ أَنَّ الشَّيْطَانَ

يُؤَدِّي كُلُّ مَا يَقُومُ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ!

(٢)

أَيُّ حَدِيثٍ ثُنَائِيٍّ قَاتِمٍ وَصَافٍ

فَيُصْبِحُ الْقَلْبُ مِرْآةً لَهُ!

وَأَبَارُ الْحَقِيقَةِ، السَّودَاءُ الْوَاضِحَةِ

تَرْتَعِشُ فِيهَا نَجْمَةٌ شَاحِبَةٌ،

وَفَنَارٌ سَاخِرٌ، جَهَنَّمِيٌّ،

وَشُعْلَةٌ الْفَضَائِلِ الشَّيْطَانِيَّةِ،

وَعَزَاءٌ وَمَجْدٌ فَرِيدَانِ،

- الْوَعْيُ فِي الشَّرِّ!

سَاعَةُ الْحَانِطِ

أَيُّهَا السَّاعَةُ! أَيُّهَا الْإِلَهُ الْمَشُومُ، الْمُخِيفُ، الْعَصِي،
 الَّذِي يُهْدِدُنَا إِصْبَعُهُ وَيَقُولُ لَنَا: فَلْتَذْكُرْ!
 وَسُرْعَانَ مَا سَتُنْغَرِسُ الْآلَامُ النَّابِضَةُ
 فِي قَلْبِكَ الْمُفْغَمِ بِالرُّعْبِ مِثْلَمَا فِي الْهَدَفِ؛

الْمُنْعَةُ الضَّبَائِيَّةُ سَتَفِرُّ إِلَى الْأَفُقِ
 مِثْلَ جَنِيَّةِ السَّلَفِ إِلَى أَعْمَاقِ الْخَلْفِيَّةِ؛
 كُلُّ لَحْظَةٍ تَلْتَهُمْ مِنْكَ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّذَّةِ
 الْمَمْنُوحَةِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَجْلِ مُوسِمِهِ الْكَامِلِ.

ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَسِتُّمِائَةٍ مَرَّةً فِي السَّاعَةِ،
 تَهْمِسُ لَكَ الثَّانِيَّةُ: فَلْتَذْكُرْ! - أَسْرَعُ، بِصَوْتِهَا
 الشَّيْبِ بِصَوْتِ حَشْرَةٍ، يَقُولُ الْآنَ: أَنَا الْمَاضِي،
 وَقَدْ امْتَصَّصْتُ حَيَاتَكَ بِخَرْطُومِي الْقَدِيرِ!

تَذَكَّرْ! فَلْتَذَكَّرْ! أَيُّهَا السَّفِيهُ! فَلْتَذَكَّرْ!^(١)
(حَنَجَرَتِي الْمَعْدِنِيَّةُ تَعْرِفُ كُلَّ اللُّغَاتِ)
الدَّقَائِقُ، هَذِهِ الْفَانِيَّةُ اللَّعُوبُ، هِيَ طَبَقَاتُ مِنْجَمٍ
لَا يَنْبَغِي إِفْلَاطُهَا دُونَ اسْتِخْلَاصِ الذَّهَبِ مِنْهَا!

فَلْتَذَكَّرْ أَنَّ الزَّمَنَ مُقَامِرٌ جَشِيعٌ
يَرْبِحُ بِلاَ خِدَاعٍ، دَائِمًا! ذَلِكَ هُوَ الْقَانُونُ.
النَّهَارُ يَتَنَاقَصُ؛ وَاللَّيْلُ يَتَزَايِدُ؛ فَلْتَذَكَّرْ!
وَالْهُوَّةُ دَائِمًا عَطَشَى؛ وَالسَّاعَةُ الْمَائِيَّةُ تَفْرَغُ.

سُرْعَانَ مَا سَتَدُقُّ السَّاعَةُ الَّتِي تَقُولُ لَكَ فِيهَا الصُّدْفَةُ السَّمَائِيَّةُ،
وَالْفَضِيلَةُ الْجَلِيلَةُ، زَوْجَتُكَ الَّتِي مَا تَزَالُ عَذْرَاءً،
وَحَتَّى النَّدَمَ (آه! الْمَلَاذُ الْأَخِيرُ!)،
حَيْثُ سَيَقُولُ لَكَ الْجَمِيعُ: «فَلْتَنُتُمْ، أَيُّهَا الْجَبَانُ الْعُجُوزُ! فَاتِ الْأَوَانَ!».

(١) الكلمة الأولى مكتوبة - في الأصل - بالإنجليزية، والثانية بالفرنسية، والأخيرة باللاتينية.

لَوَحَاتُ بَارِيسِيَّة

مَشْهَدٌ طَبِيعِيٌّ

أَوْدُ، لِتَأْلِيفِ قَصَائِدِي الرَّعْوِيَّةِ بِعَفَّةٍ،
 أَنْ أَسْتَلْقِي إِلَى جَوَارِ السَّمَاءِ، كَالْفَلَكَائِيْنَ،
 وَبِجَانِبِ النَّوَاقِيسِ، أُضْغِي حَالِمًا
 لِتَرَائِيْمِهَا الْمَهِيْبَةِ الَّتِي تَحْمِلُهَا الرِّيحُ.
 وَذَقْنِي عَلَى يَدِي، مِنْ أَعَالِي سَقِيفَتِي،
 سَأَرَى الْوَرَشَةَ الَّتِي تُغْنِي وَتُثْرِثُ؛
 الْإِنَابِيْبَ، وَأَبْرَاجَ الْأَجْرَاسِ، صَوَارِي الْمُدُنِ هَذِهِ
 وَالسَّمَاوَاتِ الشَّاسِعَةِ الَّتِي تَدْفَعُ لِلْحُلُمِ بِالْأَبْدِيَّةِ.

كَمْ هُوَ عَذْبٌ أَنْ أَرَى، خِلَالَ الضَّبَابِ،
 مَوْلِدَ النَّجْمِ فِي السَّمَاءِ، وَالْمِضْبَاحَ فِي النَّافِذَةِ،
 وَأَنْهَارَ دُخَانِ الْفَحْمِ تَصَاعِدُ إِلَى الْقُبَّةِ الزَّرْقَاءِ
 وَالْقَمَرَ يَنْشُرُ سِحْرَهُ الشَّاحِبِ.
 سَأَرَى الرَّبِيعَ، وَالصَّيْفَ، وَالْخَرِيفَ؛

وَحِينَمَا يَحِلُّ الشِّتَاءُ يَثْلُوجُهُ الرِّيبَةُ،
سَأَوْصِدُ كُلَّ الْأَبْوَابِ وَالْمَصَارِيحِ
لَأَبْتَنِي فِي اللَّيْلِ قُصُورِي الْخَيَالِيَّةِ.
أَتَيْدُ سَاحِلَهُمْ بِأَفَاقِ زَرْقَاءَ،
بِحَدَائِقَ، بَنَوَافِيرَ دَامِعَةٍ فِي الْمَرْمَرِ،
بِقُبَلَاتٍ، وَعَصَافِيرَ تُغَرِّدُ صَبَاحَ مَسَاءَ،
وَكُلُّ مَا هُوَ طُفُولِيٌّ فِي الْقَصَائِدِ الْغَزَلِيَّةِ.
وَالْهِيَاجُ الشَّعْبِيُّ، الَّذِي يَعِصِفُ عَلَى نَافِذَتِي سُدًى،
لَنْ يَدْفَعَنِي إِلَى رَفْعِ جَبِينِي عَنْ مَكْتَبِي؛
لَأَنِّي سَأَكُونُ غَارِقًا فِي شَهْوَةِ
اسْتِدْعَاءِ الرِّيبِ حَسَبَ مَشِيئَتِي،
وَاجْتِدَابِ الشَّمْسِ مِنْ قَلْبِي،
وَخَلْقِ مَنَاحٍ دَافِيٍّ مِنْ أَفْكَارِي الْمُشْتَعَلَةِ.

عَلَى امْتِدَادِ الصَّاحِبَةِ الْقَدِيمَةِ، حَيْثُ تَدَلَّى مِنَ الْأَكْوَاحِ
 مَغَالِقُ النَّوَافِذِ، حَامِيَةُ الْمُتَمَعِّ السَّرِّيَّةِ،
 حِينَ تَنْهَالُ الشَّمْسُ الْقَاسِيَةَ بِأَشْعَةٍ مُضَاعَفَةٍ
 عَلَى الْمَدِينَةِ وَالْحُقُولِ، عَلَى الْأَسْقَفِ وَالسَّنَابِلِ،
 أَمْضِي وَحِيدًا لِأَمَارِسِ مُبَارَزَتِي الْخَيَالِيَّةِ،
 مُتَسَمِّمًا فِي كُلِّ رُكْنٍ مُصَادَفَاتِ الْقَافِيَةِ،
 مُتَعَتِّرًا فِي الْكَلِمَاتِ مِثْلَمَا فِي أَحْجَارِ الرَّصِيفِ،
 مُضْطَّهِدًا أَحْيَانًا بِأَيَّاتٍ حَلُمْتُ بِهَا مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ.

هَذَا الْأَبُ الْمُرَبِّي، عَدُوُّ مَرَضِ الْبِرْقَانِ،
 يُوقِظُ فِي الْحُقُولِ الْقَصَائِدَ كَالْوُرُودِ؛
 يَدْفَعُ الْهُمُومَ إِلَى التَّبَخُّرِ فِي السَّمَاءِ،
 يَغْمُرُ الْأَذْهَانَ وَخَلَائِيَا النَّحْلِ بِالْعَسَلِ.
 هُوَ مَنْ يُعِيدُ شَبَابَ أَصْحَابِ الْعَكَائِيزِ

وَيَرُدُّهُمْ مُبْتَهَجِينَ مُرْهَفِينَ كَالْفَتَيَاتِ
وَيَأْمُرُ مَوَاسِمَ الْحَصَادِ بِالنَّمَاءِ وَالنُّضْجِ
فِي الْقَلْبِ الْأَبَدِيِّ الَّذِي يُرِيدُ دَائِمًا الْإَزْدِهَارَ!

وَعِنْدَمَا يَهْبِطُ إِلَى الْمُدُنِ، كَشَاعِرٍ،
يَسْمُو بِمَصِيرِ الْأَشْيَاءِ الْوَضِيعَةِ،
وَيَدْخُلُ كَمَلِكٍ، بِلَا ضَوْضَاءٍ وَلَا حَاشِيَةٍ،
إِلَى جَمِيعِ الْمُسْتَشْفَيَاتِ وَجَمِيعِ الْقُصُورِ.

إلى متسولة صهباء الشعر

أَيْتُهَا الْفَتَاةُ الْبَيْضَاءُ صَهْبَاءُ الشَّعْرِ،
 الَّتِي يَسْمَحُ نَوْبُهَا مِنْ خِلَالِ ثُقُوبِهِ،
 بِرُؤْيَةِ الْفَقْرِ
 وَالْجَمَالِ،

بِالنِّسْبَةِ لِي، أَنَا الشَّاعِرُ التَّعِيسُ،
 فَجَسَدُكَ الشَّابُّ، الْعَلِيلُ،
 الْمُغَطَّى بِالنَّمَشِ،
 لَهُ عُذُوبَتُهُ.

فَأَنْتِ تَتَّعِلِينَ
 قُبَابَكَ الثَّقِيلَ
 بِرِقَّةٍ أَكْبَرَ مِنْ مَلِكَةٍ رَوَايَةٍ
 تَتَّعِلُ حِذَاءَهَا الْمَخْمَلِيَّ.

فَلَوْ بَدَلًا مِنْ خِرْقَةٍ قَصِيرَةٍ،
كَانَ هُنَاكَ ثَوْبٌ مَلَكِيٌّ رَائِعٌ
يَتَجَرَّجُرُّ فِي طَيَّابٍ طَوِيلَةٍ ذَاتِ حَفِيفٍ
عَلَى كَعْبَيْكَ؛

وَمَكَانَ الْجَوَارِبِ الْمُثْقَوَةِ،
كَانَ هُنَاكَ خِنْجَرٌ ذَهَبِيٌّ
يُومِضُ أَيْضًا عَلَى سَاقِكَ
مِنْ أَجْلِ عُيُونِ الْمُعَذِّبِينَ؛

وَأَشْرِطْهُ مَعْقُودَةً بِإِهْمَالٍ
تَكْشِفُ، مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا،
تَذِينِكَ الْجَمِيلَيْنِ، الْمُتَأَلِّقَيْنِ
كَالْعُيُونِ؛

وَسَيَمْنَعُ ذِرَاعَاكَ
تَعْرِيتُكَ
وَتَطْرُدَانِ بِضَرْبَاتٍ ثَائِرَةٍ
الْأَصَابِعَ الْبَقِيعَةَ،

لَأَلِيٍّ مِنْ أَصْفَى الْمِيَاهِ،

سُونَاتٍ لِيَلِلُو^(١) الْقَدِير
يُقَدِّمُهَا بِلاَ انْتِهَاءٍ
مُعْجَبُوكِ الْمُصَفَّدُونَ.

بَاقَةٌ مِنَ النَّظَّامِينَ
يُهْدُونكِ بَوَاكِرَهُمْ
وَيَتَأَمَّلُونَ حِذَاءَكَ
تَحْتَ السَّلَالِمِ،

غُلَامٌ مُكْرَّرٌ وَلَهَانٌ بِالصُّدْفَةِ،
سَيِّدٌ مُكْرَّرٌ وَرُونَسَارٌ^(٢) مُكْرَّرٌ
كَانُوا يَرِضُّونَ مِنْ أَجْلِ الْمُتَعَةِ
عُشَّكَ النَّدِيِّ!

وَسَتُحْصِنُ فِي أَسْرَتِكَ
قُبُلَاتٍ أَكْثَرَ مِنَ الزَّنَابِقِ
وَتُخْضِعِينَ لِقَوَانِينِكَ
أَكْثَرَ مِنْ قَالُوا^(٣)!

(١) رومي بيللو Rémi Belleau، شاعر فرنسي (١٥٢٨-١٥٧٧)، مشهور بقصائده الغزلية.

(٢) بيير رونسار Pierre Ronsard، (١٥٢٤-١٥٨٥) شاعر فرنسي كبير، يمثل رمزاً لعاشق الجمال الأنثوي.

(٣) أسرة ملوك فرنسا السابقة على أسرة البوربون.

مَعَ ذَلِكَ سَتَمُضِينَ مُتَسَوِّلَةً
بِضَعِ فَضْلَاتٍ قَدِيمَةٍ مُرْمِيَةٍ
عَلَى عَتَبَةِ أَحَدِ الْمَطَاعِمِ
فِي مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ؛

تَمُضِينَ مُسْتَرْقَةً النَّظَرَ فِي الْأَسْفَلِ
إِلَى حُلِيِّ التَّسْعَةِ وَالْعِشْرِينَ سُو^(١)
الَّتِي لَا أَسْتَطِيعُ، آه! اعْذِرِينِي
إِهْدَاءَهَا لَكَ.

فَلْتَذْهَبِي إِذْنًا، بِلَا زِينَةٍ أُخْرَى
وَلَا عُطُورٍ، أَوْ لَالِيٍّ، أَوْ جَوَاهِرِ
سِوَى عُزْرِكَ الرَّهِيْفِ
يَا جَمِيلَتِي!

(١) عملة نقدية صغيرة.

البجعة

إلى فيكتور هوجو

(١)

«أندروماك»^(١)، كم أفكرُ فيك! ذلِكَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ
الْمِرْأَةُ الْحَزِينَةُ الْبَائِسَةُ حَيْثُ تَوَهَّجَتْ فِي الْمَاضِي
الْعَظْمَةُ الْهَائِلَةُ لَأَلَامِ تَرْمُلِكَ،
نَهْرُ «السِّيمُوا»^(٢) هَذَا الْخَادِعُ الَّذِي يَكْبُرُ بِدُمُوعِكَ،

ذَاكَرَتِي الْخِصْبَةُ أَيْنَعَتْ فَجَاءَةً،
فِيمَا كُنْتُ أَعْبُرُ كَارُوسِيلَ^(٣) الْجَدِيدِ.
لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ بَارِيسُ الْقَدِيمَةِ (فَشَكُلُ الْمَدِينَةِ
يَتَغَيَّرُ، وَآسَفَاهُ!، بِأَسْرَعَ مِنْ قَلْبِ الْإِنْسَانِ)؛

(١) أرملة «هيكثور»، بطل طروادة الذي قُتِلَ على يد «أخيل». راجع الإلياذة.

(٢) هو نهر «السيموا» الزائف الذي أجرته «أندروماك» أمام طروادة الخيالية.

(٣) ميدان أقيم أمام متحف «اللوفر» بباريس.

لَا أَرَى إِلَّا دَاخِلِي كُلَّ هَذَا الْمُحَيِّمِ مِنَ الْأَكْوَاخِ،
هَذَا الرُّكَامِ مِنْ تَيْجَانٍ وَسَيْقَانٍ الْأَعْمِدَةِ،
الْأَعْشَابِ، وَالْكُتَلِ الضَّخْمَةِ الْمُخْضَوْضِرَةِ بِمَاءِ الْبِرْكِ،
وَسَقَطَ الْمَتَاعِ الْمُخْتَلِطِ، مُتَمِيعًا عَلَى الْبَلَاطِ.

هُنَاكَ، كَانَتْ حَظِيرَةُ حَيَوَانَاتٍ تَمْتَدُّ فِي الْمَاضِي؛
هُنَاكَ رَأَيْتُ، ذَاتَ صَبَاحٍ، سَاعَةً أَنْ يَصْحُو
الْعَمَلُ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ الصَّافِيَةِ الْبَارِدَةِ، حَيْثُ الطُّرُقَاتُ
تَنْفُثُ زَوْبَعَةً كَثِيْبَةً فِي الْهَوَاءِ الصَّامِتِ،

بَجَعَةً هَارِبَةً مِنْ قَفْصِهَا،
تُجَرِّجُ عَلَى الْأَرْضِ الْوَعْرَةَ رِيَشَهَا الْأَبْيَضَ،
وَيَرَا حَتَّى قَدَمَيْهَا تَحْتَكَ بِالْبَلَاطِ الْخَشِنِ.
وَقَرَّبَ نَبْعَ بِلَاءٍ مَاءٍ كَانَ الطَّائِرُ، فَاتِحًا مِنْقَارَهُ،

يُحَمِّمُ جَنَاحَيْهِ بِعَصِيَّةٍ فِي التُّرَابِ،
وَيَقُولُ، وَالْقَلْبُ مُفْعَمٌ بِبُحَيْرَتِهِ الْجَمِيلَةِ فِي مَسْقَطِ رَأْسِهِ:
«أَيُّهَا الْمَاءُ، مَتَى إِذَنْ سَتُمْطِرُ؟ وَمَتَى سَتَقْصِفُ، أَيُّهَا الرَّعْدُ؟»
أَرَى هَذَا التَّعْيِيسَ، الْأُسْطُورَةَ الْغَرِيبَةَ الْمَشْهُومَةَ،

يَمُدُّ رَأْسَهُ الْمَلْهُوفَةَ عَلَى عُقْفِهِ الْمُتَشَنِّجِ،

نَحْوَ السَّمَاءِ أَحْيَانًا، مِثْلَ إِنْسَانٍ «أَوْفِيد»،
نَحْوَ السَّمَاءِ السَّاحِرَةِ وَالزَّرْقَاءِ بِقَسْوَةٍ،
كَأَنَّهُ يُوجِّهُ الْمَلَامَةَ إِلَى اللَّهِ!

(٢)

بَارِسُ تَتَغَيَّرَ! لَكِنْ لَا شَيْءَ فِي كَاتِبِي تَبَدَّلَ!
فُصُورٌ جَدِيدَةٌ، سَقَالَاتٌ، كُتْلُ حَجَرِيَّةٍ،
صَوَاحٍ قَدِيمَةٌ، كُلُّ شَيْءٍ يُصْبِحُ بِالنَّسْبَةِ لِي رَمْزًا،
وَذِكْرِيَاتِي الْحَبِيبَةُ أَشَدُّ وَطْأَةً مِنَ الصُّخُورِ.

أَيْضًا أَمَامَ هَذَا «اللُّوْفَر» تَطْغَى عَلَيَّ إِحْدَى الصُّوَرِ:
أَفْكَرُ فِي بَجْعَتِي الْكُبْرَى، بِإِيْمَاءِهَا الْمَجْنُونَةِ،
مِثْلَ الْمَنْفِيِّينَ، مُضْحَكَةً وَمَهِيَةً،
تَتَاكَلَّهَا رَغْبَةٌ بِلَا هَوَادَةَ! ثُمَّ فَيْكِ،

يَا «أَنْدَرُومَاك»، وَأَنْتِ تَهْوِينَ مِنْ ذِرَاعِي زَوْجٍ عَظِيمٍ،
مِثْلَ حَيَوَانٍ تَافِهِ، إِلَى ذِرَاعِي «بِيرُوس» الْمُتَغَطِّرِسِ،
مُنْحَنِيَّةً فِي دُھُولٍ قُرْبَ مَقْبَرَةٍ خَاوِيَةٍ؛
يَا أَرْمَلَةَ «هِيكْتُور»، وَآ أَسْفَاهُ! وَامْرَأَةَ «هِيلِينُوس»!

أَفْكَرُ فِي الرَّنْجِيَّةِ، الْمَهْزُولَةِ الْمَسْلُولَةِ،
الَّتِي تَخُوضُ فِي الْوَحْلِ، بَاحْتَهُ بِعَيْنِي شَارِدَةً،
عَنْ أَشْجَارِ جُوزِ الْهِنْدِ الْغَائِيَّةِ بِإِفْرِيقِيَا الْفَاتِنَةِ
وَرَاءَ الْجِدَارِ الْهَائِلِ لِلْسَّيْدِيمِ؛

فِي كُلِّ مَنْ فَقَدَ مَا لَا يُسْتَعَادُّ أَبَدًا، أَبَدًا!
فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرْتَوُونَ بِالدُّمُوعِ
وَيَرْضَعُونَ الْعَذَابَ مِثْلَمَا مِنْ ذَنْبِهِ حُنُون!
فِي الْيَتَامَى الْمَهْزُولِينَ الذَّابِلِينَ كَالزُّهُور!

هَكَذَا فِي الْغَابَةِ الَّتِي تَنْفِي فِيهَا رُوحِي نَفْسَهَا
تَدْوِي ذِكْرِي قَدِيمَةً بِمِلءِ صَوْتِ بُوق!
أَفَكُرُّ فِي الْبَحَّارَةِ الْمُنْسِيَّينَ بِإِخْدَى الْجُزُرِ،
فِي الْأَسْرَى، وَالْمَهْزُومِينَ... وَفِي الْكَثِيرِينَ غَيْرِهِمْ!

الشُّيُوخُ السَّبْعَةُ

إلى فيكتور هوجو

مَدِينَةٌ حَاشِدَةٌ، مَدِينَةٌ مَلَأَى بِالْأَحْلَامِ،
 حَيْثُ الطِّيفُ يَغْلُقُ بِالْمَارِّ فِي وَصَحِ النَّهَارِ!
 وَفِي كُلِّ مَكَانٍ كَالْتَسَعِ تَنْسَابُ الْأَسْرَارِ
 فِي الشَّرَائِبِ الصَّيْقَةِ لِعَمَلِاقٍ جَبَّارِ.

ذَاتَ صَبَاحٍ، فِيمَا كَانَتِ الْمَنَازِلُ فِي الشَّارِعِ الْكَئِيبِ،
 الَّتِي يُطِيلُ مِنْ ارْتِفَاعِهَا الضَّبَابُ،
 تَصْنَعُ ضِفَّتَيْنِ لِنَهْرٍ وَاسِعِ،
 وَكَدِيدُكُورٍ شَبِيهِ بَرُوحِ الْمُمَثَّلِ،

كَانَ سَدِيمٌ مُضْفَرٌّ قَدَرٌ يَغْمُرُ الْفَضَاءَ،
 سِرْتُ، شَاحِذَا أَعْصَابِي كَبَطَلِ،
 وَمُتَحَدِّثًا مَعَ نَفْسِي الضَّحْرَةَ،

فِي الضَّاحِيَةِ الْمُرْتَجَّةِ بِالْمُرَكَّبَاتِ الثَّقِيلَةِ.

فَجَاءَتْ، ظَهَرَ لِي عَجُوزٌ كَانَتْ أَسْمَالُهُ الْمُضْفَرَّةَ
تُحَاكِي لَوْنَ هَذِهِ السَّمَاءِ الْمَاطِرَةِ،
وَيُمْكِنُ لَهَيْئَتِهِ أَنْ تَسْتَمِطِرَ الصَّدَقَاتِ،
يَدُونِ الْخُبْثِ الْوَامِضِ فِي عَيْنِهِ.

تَبْدُو عَيْنُهُ مَغْمُورَةٌ بِالْحِقْدِ؛
وَنَظَرُهُ كَانَتْ تَشْحَدُ الصَّقِيعِ،
وَلِحْيَتُهُ ذَاتُ الْخُضَلَاتِ الطَّوِيلَةِ، الْمُتَصَلِّبَةِ مِثْلَ سَيْفٍ
كَانَتْ مُشْرَعَةً، مِثْلَ لِحْيَةٍ يَهُودَا.

مَا كَانَ أَحَدَبَ، بَلْ مُهْدَمًا، وَعَمُودُهُ الْفَقْرِي
يُشَكِّلُ مَعَ سَاقِهِ زَاوِيَةً قَائِمَةً كَامِلَةً،
حَتَّى إِنَّ عُكَّازَهُ، الَّذِي يُكْمِلُ هَيْئَتَهُ،
كَانَ يَمْنَحُهُ السَّيْمَاءَ وَالْمِشْيَةَ الْخَرْقَاءَ

لِعَاجِزٍ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ أَوْ لِيَهُودِيٍّ يَدْبُ عَلَى ثَلَاثٍ.
فِي الثَّلْجِ وَالْأَوْحَالِ كَانَ يَمْضِي مُتَخَبِّطًا،
كَأَنَّهُ يَطَأُ مَوْتَى تَحْتَ نَعْلِهِ الْبَالِي،
عُدُونِيًّا تَجَاهَ الْكَوْنِ لَا غَيْرَ مُبَالٍ.

نَظِيرُهُ كَانَ يَتَّبِعُهُ: اللَّحْيَةُ نَفْسُهَا، وَالْعَيْنُ، وَالظَّهْرُ، وَالْعُكَّازُ، وَالْخِرْقُ،
مَا مِنْ مَلَمَحٍ كَانَ مُعَايِرًا، فَمِنْ نَفْسِ الْجَحِيمِ جَاءَ،
هَذَا التَّوَهُّمُ الْمُتَوَيُّ، وَهَذَانِ الشَّبَحَانِ الْبَارُوكَيَّانِ
كَأَنَّا يَسِيرَانِ بِالْخُطْوَةِ نَفْسِهَا نَحْوَ غَايَةِ مَجْهُولَةٍ.

فَأَيُّهُ مُؤَامَرَةٌ شَائِنَةٌ كُنْتُ عُرْضَةً لَهَا،
أَوْ آيَةُ صُدْفَةٍ خَبِيثَةٍ كَانَتْ تُهِنُنِي هَكَذَا؟
ذَلِكَ أَنِّي أَحْصَيْتُ سَبْعَ مَرَّاتٍ، مِنْ دَقِيقَةٍ لِأُخْرَى،
هَذَا الْعَجُوزَ الْمَشْتُومَ الَّذِي كَانَ يَتَضَاعَفُ!

فَمَنْ يَضْحَكُ مِنْ انْزِعَاجِي،
وَمَنْ لَمْ تَنْتَبِهْ رِعْشَةً أَخَوِيَّةَ،
فَلْيَتَأَمَّلْ جَيِّدًا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُسُوخَ السَّبْعَةَ الْمُزْعِجِينَ
كَانَتْ لَهُمْ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا التَّهْدِثِ، سِيَمَاءُ أَبَدِيَّةٍ!

فَهَلْ سَيَكُونُ لِي، بِدُونِ الْمَوْتِ، أَنْ أَتَأَمَّلَ الثَّامِنَ،
الْقَرِينَ الْقَاسِي، السَّاخِرَ الْوَبِيلَ،
مُقَرَّرًا الْعَنْقَاءَ، كَابِنٍ وَأَبٍ لِنَفْسِهِ؟
- لَكِنِّي أَذَرْتُ ظَهْرِي لِلْمَوَكِبِ الْجَهَنَّمِيِّ.

مُهِتَاجًا مِثْلَ مَخْمُورٍ يَرَى الْأَشْيَاءَ مُرْدَوَجَةً،

عُدْتُ، فَأَغْلَقْتُ بَابِي، مَرُوبًا،
 سَقِيمًا وَمَقْرُورًا، وَعَقْلِي مَحْمُومٌ وَمُشَوَّشٌ،
 وَقَدْ ضَرَبَنِي الْعُمُوضُ وَالْعَبِثَةُ!

عَبَثًا حَاوَلَ عَقْلِي امْتِلَاكَ الزَّمَامِ؛
 بَدَّدْتُ الْعَاصِفَةَ، فِي تَلَاْعِبِهَا، مُحَاوَلَاتِهِ،
 وَرَاحَتُ رُوحِي تَتَرَاقَصُ، تَتَرَاقَصُ، مِثْلَ مَرْكَبٍ عَجُوزٍ
 بِلاَ صَوَارٍ، فِي بَحْرِ وَخْشِيٍّ بِلاَ ضِفافٍ!

En vain

~~Bien en vain ma raison réclamait son empire;
 Le délire, en jouant, dérouteait son effort,
 Et mon âme dansait, dansait, comme un navire
 Sans mats, sur une mer noire, énorme et sans bord.~~

Bien en vain ma raison voulait prendre le bar,
 La tempête en jouant, dérouteait son effort,
 Et mon âme dansait, dansait, pauvre gabarre
 Sans mats, sur une mer noire, ~~énorme~~ et sans bord.



*Sandy is different version. Je ferai la bonne chy voy.
 Ch. Baudelaire.*

مخطوط المقطع الأخير من «الشيوخ السبعة»

العجائز القصيرات

إلى فيكتور هوجو

(١)

فِي الثَّنَايَا الْأَثِمَةِ لِلْعَوَاصِمِ الْعَتِيقَةِ،
حَيْثُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى الرُّعْبِ، يَتَحَوَّلُ إِلَى فِتْنَةٍ،
أَرْقُبُ، مُذْعِنًا لِمَزَاجِي الْمَشْتُومِ،
كَائِنَاتٍ فَرِيدَةٍ، مُتَهَدِّمَةٍ وَسَاحِرَةٍ.

هَذِهِ الْمُسُوخُ الْمُتَخَلِّعَةُ كَانَتْ نِسَاءً فِي الْمَاضِي،
إِيبُونِينَ أَوْ لَائِسَ^(١)، مُسُوخٌ مُتَكَسِّرَةٌ، مَحْدَبَةٌ
أَوْ مُلْتَوِيَةٌ، فَلْنُحِبَّهَا! فَهِيَ أَيْضًا أَرْوَاحُ.
فِي ثِيَابٍ مَثْقُوبَةٍ أَوْ مَلَابِسٍ مُهْتَرِكَةٍ

يَزْحَفْنَ، تَحْتَ سَيَاطِرِ رِيَّاحِ الشَّمَالِ الْغَاشِمَةِ،

(١) إيبونين: زوجة «جولوا سابينيوس»، أحد قادة الانتفاضة ضد روما، عام ٦٩. وقد فضلت الالتزام بمصير زوجها القتل، لتلحق به بعد مقتله. لائس: عاهرة شهيرة في «كورنثة» اليونانية.

مُرْتَعِدَاتٍ مَعَ قَرَقَعَةِ الْأُتُوبِيَّاتِ،
وَهُنَّ يَضُمُّنَّ إِلَى أَحْضَانِهِنَّ، كَذَخِيرَةٍ ثَمِينَةٍ،
حَقِيبَةً صَغِيرَةً مُوَسَّاةً بِوُرُودٍ أَوْ صُورٍ مُلْغِزَةٍ؛

يَخْبَيْنَ، تَمَامًا مِثْلَ الدُّمَى؛
يُجَرِّجِرْنَ أَنْفُسَهُنَّ، مِثْلَ الْحَيَوَانَاتِ الْجَرِيحَةِ،
أَوْ يَرْقُصْنَ، بِلَا رَغْبَةٍ، كَأَجْرَاسٍ صَغِيرَةٍ بَائِسَةٍ
يَتَعَلَّقُ بِهَا شَيْطَانٌ قَاسٍ! وَمُهَشَّمَاتٌ تَمَامًا.

إِلَّا أَنَّ عُيُونَهُنَّ كَانَتْ ثَاقِبَةً مِثْلَ مِثْقَابٍ،
مُلْتَمِعَةً مِثْلَ تِلْكَ الْفَجَوَاتِ الَّتِي يَنَامُ الْمَاءُ فِيهَا فِي اللَّيْلِ؛
كَانَتْ لَهُنَّ عُيُونٌ سَمَاوِيَّةٌ لِفَتَاةٍ صَغِيرَةٍ
تَنْدَهِّشُ وَتَضْحَكُ إِزَاءَ كُلِّ مَا يُضِيءُ.

- أَلَا حَظُّنَّ مَرَارًا أَنْ نُعُوشَ الْعَجَائِزَ
غَالِبًا مَا تَكُونُ صَغِيرَةً كَنُعُوشِ الْأَطْفَالِ؟
فَالْمَوْتُ الْعَلِيمُ يَضَعُ فِي هَذِهِ التَّوَابِيتِ الْمُتَشَابِهَةِ
رَمْزًا لِلذَّوْقِ غَرِيبٍ آسِرٍ،

وَعِنْدَمَا أَلْمَحُ شَبَحًا وَاهِيًا

يَعْبُرُ الْمَشْهَدَ الْحَاشِدَ لِبَارِيسَ،
يَبْدُو لِي دَائِمًا أَنَّ هَذَا الْكَائِنَ الْهَشَّ
إِنَّمَا يَمْضِي الْهُوَئِنِّي إِلَى مَهْدٍ جَدِيدٍ؛

إِنْ لَمْ أُبْحَثْ، مُتَأَمِّلًا فِي الْهَنْدَسَةِ،
لَدَى رُؤْيِي هَذِهِ الْأَعْضَاءِ الْمُتَحَلِّعَةِ،
عَدَدَ الْمَرَّاتِ الَّتِي يَنْبَغِي فِيهَا عَلَى الْعَامِلِ
تَغْيِيرُ شَكْلِ الصُّنْدُوقِ الَّذِي تَوْضَعُ فِيهِ كُلُّ هَذِهِ الْأَجْسَادِ.

- هَذِهِ الْعُيُونُ أَبَارٌ صُنِعَتْ مِنْ مِلْيُونِ دَمْعَةٍ،
بَوْتَقَاتٌ مُزْرَكَشَةٌ بِمَعْدِنٍ خَامِدٍ...
وَلِهَذِهِ الْعُيُونِ الْغَامِضَةِ مَقَاتِنُ لَا تُقَاوَمُ
بِالنَّسْبَةِ لِمَنْ رَضِعَ التَّعَاسَةَ الْقَاسِيَةَ!

(٢)

وَقَعَتْ فَيْسْتَالُ الرَّاحِلَةِ فِي غَرَامِ فَرَاسْكَاتِي^(١)؛
وَكَاهِنَةُ ثَالِي، وَآسَفَاهُ! الَّتِي يَعْرِفُ اسْمَهَا
مُلَقَّنُهَا الْفَقِيدُ؛ شَهِيرَةٌ مُتَلَاشِيَّةٌ

(١) فَيْسْتَالُ: كَاهِنَةُ الْعَذْرِيَّةِ فِي «فَيْسْتَا»؛ فَرَاسْكَاتِي: اسْمُ بَيْتِ شَهِيرٍ لِلْقَهَّارِ بِيَارِيسَ، أُغْلِقَ عَامَ ١٨٣٧

أَظَلَّتْهَا فِي الْمَاضِي تَيْفُولِي^(١)، فِي أَرْدَاهَا،

كُلُّ ذَلِكَ يُسَكِّرُنِي! لَكِنْ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ الْهَشَّةِ
هُنَاكَ الْبَعْضُ، فِيمَا يَسْتَخْرِجُونَ الْعَسَلَ مِنَ الْأَلَمِ،
قَالُوا لِلْإِخْلَاصِ الَّذِي أَعَارَهُمْ أَجْنَحَتَهُ:
أَيُّهَا الْبَرَّاقُ الْقَدِيرُ، فَلْتَحْمِلْنِي حَتَّى السَّمَاءِ!

وَاحِدَةً، امْتَحِنْتَ بِالتَّعَاسَةِ فِي مَوْطِنِهَا،
وَأُخْرَى، أَبْهَظَهَا رَوْجُهَا بِالْعَذَابَاتِ،
وَأُخْرَى، مَا دُونَنَا حَطَمَهَا ابْنُهَا،
كُلُّهُنَّ يَسْتَطِيعْنَ صُنْعَ نَهْرٍ مِنْ دُمُوعِهِنَّ!

(٣)

آه! كَمْ تَبَعْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعَجَائِزِ الْقَصِيرَاتِ!
إِحْدَاهُنَّ، مِنْ بَيْنِ أُخْرَيَاتِ، سَاعَةَ غُرُوبِ الشَّمْسِ
وَهِيَ تَدْمِي السَّمَاءَ بِجِرَاحٍ قُرْمُزِيَّةٍ،
كَانَتْ تَجْلِسُ، مُفَكَّرَةً، عَلَى انْفِرَادٍ عَلَى أَرِيكَةٍ،

لِتَسْمَعَ إِحْدَى هَذِهِ الْمَعْزُوفَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ، الْعَامِرَةِ بِالنُّحَاسِ،

(١) تيفولي: حديقة ومكان للمتعة بباريس.

الَّتِي يَفِيضُ بِهَا الْعَسْكَرُ أَحْيَانًا عَلَى حَدَائِقِنَا،
وَالَّتِي تَنْشُرُ، فِي تِلْكَ الْأُمُوسِيَّاتِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي يُحِسُّ الْمَرْءُ فِيهَا بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ،
بَعْضَ الْبُطُولِيَّةِ فِي قَلْبِ ابْنِ الْمَدِينَةِ.

تِلْكَ، مُتَنَصِّبَةً مَا تَزَالُ، فَخُورَةً وَتُحْسُ بِالنِّظَامِ،
كَانَتْ تَنْهَلُ بِشَرَاهَةِ مَنْ هَذَا الشَّيْدُ الْحَرْبِيُّ الْحَيَوِيُّ؛
وَعَيْنُهَا تَنْفَتِحُ أَحْيَانًا مِثْلَ عَيْنِ صَقِيرٍ عَجُوزٍ؛
وَجَبِينُهَا الرُّخَامِيُّ كَأَنَّهُ مَجْبُولٌ مِنْ أَجْلِ الْغَارِ!

(٤)

هَكَذَا تَمْضِينَ، بِعِزِّمْ وَدُونَ شَكْوَى،
خِلَالَ فَوْضَى الْمُدُنِ الْعَارِمَةِ،
أُمَهَاتٍ بِقُلُوبٍ دَامِيَةٍ، عَشِيقَاتٍ أَوْ قَدِيسَاتٍ،
كَانَتْ أَسْمَاؤُهُنَّ فِيمَا مَضَى عَلَى كُلِّ لِسَانٍ.

أَنْتُنَّ يَا مَنْ كُنْتُنَّ الْفِتْنَةَ أَوْ كُنْتُنَّ الْمَجْدَ،
لَا أَحَدَ يَتَعَرَّفُ عَلَيْكُنَّ! فَسَكِيرٌ فَظٌّ
يُهَيِّنُكُنَّ لَدَى مُرُورِهِ بِمَلَاخِظَةٍ هَازِلَةٍ؛
وَفِي أَعْقَابِكُنَّ يَتَقَافِزُ طِفْلٌ حَقِيرٌ وَدَنِيءٌ.

خَجِلَاتٍ مِنْ وُجُودِكُنَّ، ظِلَالًا مُتَجَعِّدَةً،

مَذْعُورَاتٍ، وَالظَّهْرُ مَخْنِي، تُحَاذِينَ الْجُدْرَانَ؛
وَلَا أَحَدٌ يُحْيِيكُمْ، أَيُّهَا الْمَصَائِرُ الْغَرِيبَةُ!
يَا أَنْقَاضَ إِنْسَانِيَّةٍ نَاصِجَةً مِنْ أَجْلِ الْأَبَدِيَّةِ!

لَكِنِّي، أَنَا الَّذِي أَرْفُكُنَّ عَنْ بُعْدِ بَحَنَانٍ،
وَعَيْنِي فَلَقَّةٌ، مُرَكَّزَةٌ عَلَى خُطَوَاتِكُنَّ الْمُتَرَدِّدَةِ،
تَمَامًا كَأَنِّي أَبُو كُنَّ، يَا لِلْعَجَبِ!
أَتَذَوَّقُ دُونَ عِلْمِكُنَّ مَلَذَّاتٍ خَفِيَّةٍ:

أَرَى أَهْوَاءَكُنَّ الْغَرِيرَةَ تَتَرَعَّرُ؛
أَعِيشُ أَيَّامَكُنَّ الْغَائِرَةَ، الْقَاتِمَةَ أَوْ الْمُضِيَّةَ؛
وَقَلْبِي الْمُتَكَاثِرُ يَسْتَمْتِعُ بِكُلِّ خَطَايَاكُنَّ!
وَرُوحِي تَسْطَعُ بِكُلِّ فَضَائِلِكُنَّ!

أَيُّهَا الْأَطْلَالُ! يَا عَائِلَتِي! أَيُّهَا الْعُقُولُ الْمُتَجَانِسَةُ!
أُقَدِّمُ لَكُنَّ كُلَّ مَسَاءٍ نَحِيَّةٍ وَدَاعٍ مَهِيَّةٍ!
فَإَيْنَمَا سَتَكُونَنَّ غَدًا، يَا حَوَاءَاتِ الثَّمَانِينَ عَامًا،
عَلَى مَنْ سَيَحُطُّ الْمِخْلَبُ الرَّهِيْبُ لِلَّهِ؟

الْغَمِيَّانِ

فَلْتَسَاءَلْهُمْ، يَا رُوحِي، فَهُمْ حَقًّا بَشَعُونَ!
يُشْبِهُونَ عَارِضَاتِ الْأَزْيَاءِ، وَمُضْحِكُونَ بِغُمُوضٍ؛
مُقْرِعُونَ، فَرِيدُونَ مِثْلَ مَنْ يَسِيرُونَ فِي النَّوْمِ،
وَلَا أَحَدَ يَدْرِي إِلَى أَيْنَ يُحْمَلِقُونَ بِعُيُونِهِمُ الْمُظْلِمَةَ.

عُيُونُهُمْ، الَّتِي رَحَلَتْ عَنْهَا الْوَمَضَةُ السَّمَاءِيَّةُ،
تَظَلُّ مَرْفُوعَةً نَحْوَ السَّمَاءِ، كَأَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ
فِي الْبَعِيدِ؛ وَلَا يَرَاهُمْ أَحَدٌ أَبَدًا حَالِمِينَ يُحْنُونَ
رُءُوسَهُمُ الثَّقِيلَةَ نَحْوَ الْأَرْضِ.

هَكَذَا يَمْضُونَ فِي الظَّلَامِ الشَّامِلِ،
سَقِيقِ الصَّمْتِ الْأَبَدِيِّ. آهَ آيَتُهَا الْمَدِينَةُ!
فِيمَا تُغْنِيَنَّ حَوْلَنَا، وَتَضْحَكِينَ وَتَخُورِينَ،

مَأْخُودَةً بِاللَّذَّةِ حَتَّى الْفُضَاظَةِ،
فَلْتَنْظُرِي! إِنِّي أُجْرَجِرُ نَفْسِي أَيْضًا! لَكِنِّي بِبِلَادَةٍ أَكْثَرَ مِنْهُمْ،
أَسْأَلُ: عَمَّ يَبْحَثُونَ فِي السَّمَاءِ، كُلُّ هَؤُلَاءِ الْعُمَيَّانِ؟

إِلَى عَابِرَةٍ

كَانَ الشَّارِعُ الصَّاحِبُ يَهْدِرُ حَوْلِي .
 مَرَّتْ امْرَأَةٌ طَوِيلَةً، نَحِيلَةً، فِي ثَوْبِ الْحِدَادِ،
 وَالْأَسَى الْمَهِيبِ، وَيَبْدُ مُتْرَفَةٍ
 تَرْفَعُ وَتُورِجِحُ ذَيْلَ وَطَيَّاتِ ثَوْبِهَا؛

رَشِيقَةً وَنَيْلَةً، بِسَاقَيْنِ كَسَافِي تَمْثَالِ .
 وَأَنَا - مُهْتَاجًا مِثْلَ مَهْوُوسٍ - احْتَسَيْتُ
 مِنْ عَيْنِهَا، كَسَمَاءٍ ذَاكِتَةٍ يُوَلِّدُ فِيهَا الْإِعْصَارُ،
 الْعَذَابَ الْفَاتِنَ وَاللَّذَّةَ الْفَاتِلَةَ .

بَرْق... ثُمَّ الظَّلَامُ! - أَيُّهَا الْجَمَالُ الْهَارِبِ
 الَّذِي جَعَلْتَنِي نَظْرَةً مِنْهُ أَوْلَدُ فُجَاءَةً مِنْ جَدِيدٍ،
 أَلَنْ أَرَكَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَّا فِي الْأَبَدِيَّةِ؟

فِي مَكَانٍ آخَرَ، بَعِيدًا بَعِيدًا عَنْ هُنَا! بَعْدَ الْأَوَانِ! أَبَدًا رُبَّمَا!
لَأَنِّي أَجْهَلُ إِلَى أَيْنَ تَفْرَيْنَ، وَلَا تَدْرِينَ إِلَى أَيْنَ أَمْضِي،
يَا أَنْتَ الَّتِي كُنْتُ سَاجِدُهَا، يَا أَنْتَ الَّتِي تَعْرِفِينَ ذَلِكَ!

الهيكل العظمي الكادح

(١)

عَلَى مَنَاضِدِ التَّشْرِيحِ
 الْمَرْمِيَّةِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ صِفَةِ الْمُتْرَبَةِ
 حَيْثُ تَرَقُّدُ كُتُبٌ عَدِيدَةٌ كَالْجُثَثِ
 مِثْلَ مُومِيَاءَ عَتِيقَةٍ،

رُسُومٌ فِيهَا الْجَهَامَةُ
 وَبَرَاعَةُ رَسَامٍ قَدِيمٍ،
 عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَاتِبَةِ الْمَوْضُوعِ،
 قَدْ كَشَفَتْ عَنِ الْجَمَالِ،

وَالْمَرْءُ يَرَى، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ
 هَذِهِ الْأَهْوَالَ الْغَامِضَةَ أَكْثَرَ احْتِمَالًا،

أَجْسَادًا مَسْلُوحَةً وَهَيَاكِلَ عَظَمِيَّةَ،
تَحْرُثُ مِثْلَ الْكَادِحِينَ.

(٢)

مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي تَنْبُشُونَ،
أَيُّهَا الْفَلَاحُونَ الْمُدْعِنُونَ الْكَثِيرُونَ،
بِكُلِّ عُنْفُونٍ طُهُورِكُمْ،
أَوْ عَصَلَاتِكُمُ الْعَارِيَّةَ،

فَلْتَقُولُوا، أَيُّ حَصَادٍ غَرِيبٍ،
أَيُّهَا الْمَحْكُومُونَ بِالْأَشْغَالِ الشَّاقَّةِ الْمَتْرُوعُونَ مِنَ الْمَقْبَرَةِ،
تَجْنُونَهُ، وَلَايِي مَزَارِعَ
عَلَيْكُمْ أَنْ تَمْلَأُوا مَخْرَنَ الْغِلَالِ؟

أَتُرِيدُونَ - كَرَمِزٍ وَاضِحٍ رَهيبٍ
لِمَصِيرٍ بِالِغِ الْقَسْوَةِ! -
أَنْ تَكْشِفُوا أَنَّ النَّوْمَ الْمَوْعُودَ
لَيْسَ مَضْمُونًا حَتَّى فِي الْقَبْرِ؛

وَأَنَّ الْعَدَمَ خَائِنٌ لَنَا؛
وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْمَوْتُ، يَخْدَعُنَا،

وَأَنَّا دَائِمًا أَبَدًا
رُبَّمَا سَيَكُونُ عَلَيْنَا، وَآسَفَاهُ!

أَنْ نَحْرُثَ الْأَرْضَ الْقَاسِيَةَ
فِي بَلَدٍ مَا مَجْهُولٍ
وَنَغْرِسَ فِيهَا مِعْزَقَةً ثَقِيلَةً
تَحْتَ قَدَمِنَا الْعَارِيَةِ الدَّامِيَةِ؟

غَسَقُ الْمَسَاءِ

هَـا هُوَ الْمَسَاءُ السَّاحِرُ، صَدِيقُ الْمُجْرِمِ؛
يَحُلُّ مِثْلَ مُتَوَاطِيءٍ، بِخُطَى الذَّنْبِ؛ وَالسَّمَاءُ
تَنْغَلِقُ رُؤَيْدًا مِثْلَ قُبَّةٍ هَائِلَةٍ،
وَالْإِنْسَانُ الْمُتَعَجِّلُ يَتَحَوَّلُ إِلَى حَيَوَانٍ بَرِّيٍّ.

أَيُّهَا الْمَسَاءُ، الْمَسَاءُ الْحَبِيبُ، الْمُشْتَهَى
مِمَّنْ تَسْتَطِيعُ ذِرَاعَاهُ أَنْ تَقُولَا، بِلَا كَذِبٍ:
الْيَوْمَ عَمِلْنَا! - هُوَ الْمَسَاءُ الَّذِي يُهْدِي
الْأَرْوَاحَ الَّتِي يَنْهَشُهَا أَلَمٌ وَخَشْيٌ،
وَالْعَالَمَ الْمُتَابِرَ الَّذِي تَتَقَلُّ عَلَيْهِ رَأْسُهُ،
وَالْعَامِلَ الْمَخْنِيَّ الَّذِي يَعُودُ إِلَى فِرَاشِهِ.
فِي ذَلِكَ الْحِينِ يَصْحُو شَيَاطِينُ مُفْسِدُونَ
بِتَأْقُلٍ فِي الْأَثِيرِ، كَرِّ جَالِ أَعْمَالٍ،
وَيَطْرُقُونَ الْمَصَارِيعَ وَالْأَفَارِيرَ وَهُمْ يُحَلِّقُونَ.

وَحِلَالُ الْأَضْوَاءِ الَّتِي تُعَذِّبُهَا الرِّيحُ
تَسْتَعِيرُ الدَّعَارَةَ فِي الشَّوَارِعِ؛
وَمِثْلَ قَرْيَةٍ تَمَلِّ تَفْتَحُ دُرُوبَهَا؛
فِي كُلِّ مَكَانٍ تَشُقُّ لِنَفْسِهَا طَرِيقًا خَفِيًّا؛
مِثْلَ الْعَدُوِّ الَّذِي يُحَاوِلُ شَنْ هُجُومٍ خَاطِفٍ؛
تَمُورُ فِي قَلْبِ مَدِينَةِ الْأَوْحَالِ
كَدُودَةٍ تَخْتَلِسُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَا يَأْكُلُ.
هُنَا وَهُنَاكَ يَسْمَعُ الْمَرْءُ صَفِيرَ الْمَطَايِخِ،
وَعَوَاءَ الْمَسَارِحِ، وَهَدِيرَ الْفِرَقِ الْمُوسِيقِيَّةِ؛
وَمَوَائِدَ الضِّيَافَةِ، حَيْثُ الْمُقَامَرَةُ تَصْنَعُ الْمَلَذَّاتِ،
تَمْتَلِئُ بِالْعَاهِرَاتِ وَالْغَشَّاشِينَ، وَشُرَكَائِهِمْ،
وَاللُّصُوصُ، الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ رَاحَةً وَلَا رَحْمَةً،
يَمْمُضُونَ مِنْ قُورِهِمْ لِبَدِّ عَمَلِهِمْ، هُمْ أَيْضًا،
وَاقْتِحَامِ الْأَبْوَابِ وَالْخَزَائِنِ بِحَذَرٍ
لِيَعِيشُوا بِضَعَةِ أَيَّامٍ وَيَكْسُوا عَشِيقَاتِهِمْ.
فَلْتَسْتَجْمِعِي نَفْسِكَ، يَا رُوحِي، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْخَطِيرَةِ،
وَلْتَصُمِّي أُذُنَكَ عَنْ هَذَا الْهَدِيرِ.
إِنَّهَا السَّاعَةُ الَّتِي تَحْتَدُّ فِيهَا عَذَابَاتُ الْمَرْضَى!
وَاللَّيْلُ الْكَنِيبُ يُمَسِّكُ بِخِنَاقِهِمْ؛
يُنْهَوْنَ مَصِيرَهُمْ وَيَمْمُضُونَ إِلَى الْهََاوِيَةِ الْمُشْتَرَكَةِ؛
تَمْتَلِئُ الْمُسْتَشْفَى بِآهَاتِهِمْ. - وَأَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ

لَنْ يَأْتِي بَعْدَ الْآنَ لِيَتَنَاوَلَ حِسَاءَهُ الْعَطِيرُ،
فِي رُكْنِ الْمِدْفَاءَةِ، فِي الْمَسَاءِ، بِجَانِبِ شَخْصٍ حَبِيبٍ.

بَلْ إِنَّ الْعَالِيَةَ لَمْ تَعْرِفْ أَبَدًا
عُدُوبَةَ الْبَيْتِ، وَأَبَدًا لَمْ يَعِيشُوا!

المقامرة

فِي مَقَاعِدَ وَثِيرَةٍ بَالِيَةٍ عَاهِرَاتُ عَجَائِزٍ،
 شَاحِبَاتُ، مَصْبُوعَاتُ الرُّمُوشِ، عُيُونُهُنَّ غَانِجَةٌ قَاتِلَةٌ،
 مُتَظَرِّقَاتُ، وَمِنْ آذَانِهِنَّ النَّحِيلَةُ
 يَسَاقُطُ صَلِيلُ الْمَعْدَنِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ؛

وَحَوْلَ طَاوِلَاتِ الْقِمَارِ وَجُوهٌ بِلَا شِفَاهِ،
 وَشِفَاهُ بِلَا لَوْنٍ، وَأَفْوَاهُ بِلَا أَسْنَانٍ،
 وَأَصَابِعُ مُتَشَنِّجَةٌ يَفْعَلُ حُمَى جَهَنَّمِيَّةٍ،
 تُفَشِّسُ الْجَنِيبَ الْخَاوِي أَوْ الصَّدْرَ النَّابِضَ؛

تَحْتَ السُّقُوفِ الْمُتَسَخِّخَةِ، صَفٌّ مِنْ تُرَيَّاتٍ شَاحِبَةٍ
 وَقَنَادِيلَ ضَخْمَةٍ تَصُبُّ أَضْوَاءَهَا
 عَلَى جِبَاهِ ذَاكِتَةٍ لِشِعْرَاءَ مَرْمُوقِينَ
 يَأْتُونَ لِيُبَدِّدُوا عَرَقَهُمُ الدَّامِي؛

هَآ هِيَ اللَّوْحَةُ السَّوْدَاءُ الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي حُلْمٍ لَّيْلِي
تَتَجَلَّى لِعَيْنَيَّ الْبَصِيرَةِ.

وَأَنَا، فِي رُكْنِ الْكَهْفِ الصَّامِتِ،
أَرَى نَفْسِي مُتَكِنًا، مَقْرُورًا، صَامِتًا، حَسُودًا،

حَاسِدًا الشَّهْوَةَ الْعَنِيدَةَ لَهُؤْلَاءِ النَّاسِ،
وَالْبَهْجَةَ الْكَثِيبَةَ لَهُؤْلَاءِ الْعَاهِرَاتِ الْعَجَائِزِ،
وَكُلُّهُمْ بِحِمِيَّةٍ يُتَاجَرُونَ أَمَامِي،
أَحَدُهُمْ بِشَرَفِهِ الْغَابِرِ، وَالْأُخَرَى بِجَمَالِهَا!

وَقَلْبِي ارْتَاعَ مِنْ حَسَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الْبُؤْسَاءِ
الْمُهْرُولِينَ بِلَهْفَةٍ إِلَى الْهَآوِيَةِ الْفَآغِرَةِ،
وَالَّذِينَ سَيَقْضُّونَ، مَخْمُورِينَ بِدَمِهِمْ،
الْعَذَابَ عَلَى الْمَوْتِ وَالْجَحِيمِ عَلَى الْعَدَمِ!

رَقْصَةُ جَنَائِزِيَّة

إلى إرنست كريستوف

مُبَاهِيَّةً، كَامْرَأَةً حَيَّةً، بِقَوَامِهَا النَّبِيلِ،
مَعَ بَاقَتِهَا الْكَبِيرَةِ، وَمِنْ دِلِيلِهَا وَقْفَارِيزِهَا،
لَهَا فُتُورٌ وَطَلَاَقَةٌ
فَاتِنَةٌ مَمْشُوقَةٌ ذَاتُ سَيْمَاءٍ غَرِيبَةٍ.



أَرَأَى أَحَدٌ أَبَدًا قَامَةً أَرْهَفَ فِي حَفْلَةٍ رَقْصٍ؟
تَوْبُهَا الْفَضْفَاضُ، فِي كَمَالِهِ الْمَلَكِي،
يَنْسِدِلُ بِغَزَاوَةٍ عَلَى قَدَمٍ نَحِيلَةٍ
يُطَبِّقُ عَلَيْهَا نِعَالٌ مُوشَّى، جَمِيلٌ كَوَرْدَةٍ.

الدَّائِنِيلاً الَّتِي تَلْهُو عَلَى حَافَةِ التَّرْقُوتَةِ،
مِثْلَ نَبْعٍ شَهْوَانِيٍّ يَرْتَعِمُ بِالْحَجَرِ،
تَحْمِي بِحَيَاءٍ مِنَ السُّخْرِيَةِ الْمَاجِنَةِ

الْمَفَاتِنَ الْكَثِيبَةَ الَّتِي تُحَاوِلُ إِخْفَاءَهَا.

عَيْنَاهَا الْعَمِيقَتَانِ مَجْبُولَتَانِ مِنْ خَوَاءٍ وَظُلْمَةٍ،
وَرَأْسُهَا، الْمَوْشَاةُ بِرَاعَةٍ بِالزُّهُورِ،
تَتَمَايَلُ بِرَهَافَةٍ عَلَى فَقَرَاتِهَا الْوَاهِيَةِ،
يَا لِسَحْرِ عَدَمٍ مُتَبَرِّجٍ بِجُنُونٍ!

الْبَعْضُ سَيَعْتَبِرُكَ صُورَةً هَزَلِيَّةً،
مَنْ لَا يُدْرِكُونَ، كُغْشَاقِ سُكَارَى الْجَسَدِ،
الرَّشَاقَةَ بِلَا اسْمٍ لِلْجَسَدِ الْإِنْسَانِيِّ.
فَأَنْتَ تَسْتَجِيبُ، أَيُّهَا الْهَيْكُلُ الْكَبِيرُ، لِذَوْقِي الْحَمِيمِ!

أَتَأْتِينَ لِتُرْعِجِي، بِتَكْشِيرَتِكَ الْقَوِيَّةِ،
حَفَلَ الْحَيَاةِ؟ أَمْ أَنَّ رَغْبَةً قَدِيمَةً،
مَا تَزَالُ تَحْفِزُ جَسَدَكَ الْحَيَّ،
تَدْفَعُكَ، أَيُّهَا السَّادِجَةُ، إِلَى مِحْفَلِ اللَّذَّةِ؟

بِالْحَانِ الْكَمَانَاتِ، بِلَهَيْبِ الشُّمُوعِ،
أَتَأْمَلِينَ إِرَاحَةً كَابُوسِكَ السَّاحِرِ،
وَتَأْتِينَ لِتُطَالِبِي فَيْضَ الْعَرَبَدَةِ

بِتَرْطِيبِ الْجَجِيمِ الْمُسْتَعْرِ فِي قَلْبِكَ؟

بِئْرَ لَا تَنْضُبَ مِنَ الْحَمَاقَةِ وَالْخَطَايَا!

إِنِّي أَبْدِي لِلْعَذَابِ الْغَايِرِ!

وَحِلَالِ الْغُلَاظَةِ الْمُتَوَيَّةِ لِمُلُوكِكَ

أَرَى الْأَفْعَى الشَّرِهَةَ مَا تَرَأَى شَارِدَةً.

وَالْحَقِيقَةُ أَنِّي أَخْشَى أَلَّا يَلْقَى تَبْرُجَكَ

نَمْنًا جَدِيرًا بِجُهْدِهِ؛

فَمَنْ، مِنْ هَذِهِ الْقُلُوبِ الْفَانِيَةِ، يُدْرِكُ السُّخْرِيَّةَ؟

فَمَفَاتِنُ الرُّعْبِ لَا تُسْكِرُ إِلَّا الْأَقْوِيَاءَ!

هُوَ عَيْنِيكَ، الْمَلَأَى بِالْأَفْكَارِ الْمُفْرِعَةِ،

تَفُوحُ بِالدُّوَارِ، وَالرَّاقِصُونَ الْبَصِيرُونَ

لَنْ يَتَأَمَّلُوا إِلَّا بِأَشْمُوزِ مَرِيرٍ

الْإِبْتِسَامَةَ الْأَبَدِيَّةَ لِأَسْنَانِكَ الْاِثْنَتَيْنِ وَالثَّلَاثَيْنِ.

مَعَ ذَلِكَ، فَمَنْ الَّذِي لَمْ يَضْمَمْ مُوَمِيَاءَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ،

وَمَنْ الَّذِي لَمْ يَطْعَمْ مِنْ أَشْيَاءِ الْمَقْبَرَةِ؟

مَا جَدَوَى الْعِطْرِ، وَالْمَلَابِسِ أَوْ الزَّيْنَةِ؟

وَمَنْ يَقْتَمِصُ دَوْرَ الْمُشْمِزِّ يَظُنُّ نَفْسَهُ وَسِيمًا.

يَا «بَيَادِر»^(١) بِلَا أَنْفٍ، يَا دَاعِرَةً لَا تُقَاوَمُ،

فَلْتَقُولِي إِذْنَ لِهَؤُلَاءِ الرَّاقِصِينَ الْمُتَظَاهِرِينَ بِالْأَنْصَادَامِ:

«أَيُّهَا الْمُخَشَّثُونَ الْمُتَعَجَّرُفُونَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ فَنِّ الْمَاكِجِاجِ
فَأَنْتُمْ تَفُوحُونَ جَمِيعًا بِالْمَوْتِ! أَيُّهَا الْمُؤْمِنَاوَاتُ الْمُعَطَّرَاتُ،

«يَا أَنْتَيْنُوسُ^(٢) الدَّارِي، أَيُّهَا الْمُتَغَنِّدِرُونَ الْمُرْدُ،

أَيُّهَا الْجُبْتُ اللَّامِعَةُ، الْمُغُوُونَ الشَّائِبُونَ،

الِهَزَةُ الْكُونِيَّةُ لِرَقْصَةِ الْقُبُورِ

تَجْرِفُكُمْ إِلَى أَمَاكِنَ مَجْهُولَةٍ!

مِنْ أَرْصَفَةِ السَّيْنِ الْبَارِدَةِ إِلَى شَوَاطِيِ الْجَانِجِ^(٣) الْمُشْتَعِلَةِ،

يَتَقَافَزُ الْقَطِيعُ الْفَانِي وَيُئْمَعِنُ فِي الْبَهْجَةِ، دُونَ أَنْ يَرَى

فِي ثُقْبِ السَّقْفِ بُوقَ الْمَلَائِكَةِ

فَإِعْرَا بِصُورَةِ رَهِيْبَةٍ كَفُوهَةٍ بُنْدُقِيَّةٍ سَوْدَاءَ.

فِي كُلِّ الْمُنَاخَاتِ، تَحْتَ كُلِّ الشُّمُوسِ، يُعْجَبُ الْمَوْتُ بِكَ

فِي كُلِّ حَرَكَاتِكَ الْبَهْلَوَانِيَّةِ، أَيُّهَا الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُضْحِكَةُ،

وَإِذَا يُعْطَرُ نَفْسُهُ بِالْمُرِّ، مِثْلَكَ،

فَكَثِيرًا مَا يَمَزِجُ سُخْرِيَتَهُ بِحِمَاقَتِكَ!

(١) اسم راقصة شرقية.

(٢) شاب يوناني جميل، محظي الامبراطور هادريان. وهو مثال للجمال الرجولي اليوناني. والاسم يرد - في النص الأصلي - بالجمع.

(٣) هو نهر الجانج المقدس بالهند.

عشقُ الكذب

عندمَا أَرَاكِ تَمُرِّينَ، يَا عَزِيزَتِي اللَّامُبَالِيَّةَ،
 عَلَى نَعَمِ الْمُوسِيقَى الَّذِي يَتَكَسَّرُ عَلَى السَّقْفِ
 مُسْتَوْقِفًا مِشِيَّتِكَ الْمُتَنَاعِمَةَ الْبُطِيطَةَ،
 وَأَنْتِ تَحْمِلِينَ ضَجَرَ نَظَرَتِكَ الْعَمِيقَةِ؛

حِينَمَا أَتَا مَلُ جَبِينِكَ الشَّاحِبَ، الْمُوَشَّى بِفِتْنَةٍ عَلِيلَةٍ،
 عَلَى ضَوْءِ مَصَابِيحِ الْغَارِ الَّذِي يُلَوُّهُ،
 حَيْثُ مَشَاعِلُ الْمَسَاءِ تُشْعِلُ فَجْرًا مَا،
 وَعَيْنَاكِ الْجَذَابَتَانِ مِثْلَ عَيْنِي وَجْهِ مَرْسُومٍ،

أَقُولُ لِنَفْسِي: كَمْ هِيَ جَمِيلَةٌ! وَنَدِيدَةُ بِصُورَةٍ غَرِيبَةٍ!
 تُتَوَجَّهَهَا الذِّكْرَى الْهَائِلَةُ، كَصَرْحِ مَلَكِيٍّ ثَقِيلٍ،
 وَقَلْبُهَا، الْمَخْدُوشُ مِثْلَ خَوْخَةٍ،
 نَاضِجٌ، مِثْلَ جَسَدِهَا، لِلْحُبِّ الْبَارِعِ.

أَأَنْتِ ثَمَرَةُ الْخَرِيفِ ذَاتُ الْمَذَاقِ الْأَقْصَى؟
أَأَنْتِ مَرْهَرِيَّةٌ جَنَائِزِيَّةٌ تَنْتَظِرُ بَعْضَ الدُّمُوعِ،
أَمْ أَرِيحٌ يَبْعَثُ الْحُلْمَ بِوَاحَاتٍ بَعِيدَةٍ،
وَسَادَةٌ مُهْدِهْدَةٌ، أَمْ سَلَّةٌ زُهُورٌ؟

أَعْرِفُ أَنَّ هُنَاكَ عُيُونًا، أَكْثَرَ كَاثِبَةٍ،
لَا تُخْفِي أَبَدًا أَسْرَارًا غَالِيَةً؛
عُلْبَ جَوَاهِرَ جَمِيلَةٍ بِلَا جَوَاهِرَ، صَنَادِيقَ ذَخَائِرٍ بِلَا ذَخَائِرَ،
أَكْثَرَ خَوَاءٍ، أَكْثَرَ غُمُقًا مِنْكَ، أَيْتُهَا السَّمَاوَاتُ!

لَكِنْ أَلَا يَكْفِي أَنْ تَكُونِي الْمَظْهَرُ،
لِتَبْنِي الْبَهْجَةَ فِي قَلْبِ هَارِبٍ مِنَ الْحَقِيقَةِ؟
فَمَا أَهَمِّيَّةُ حِمَاقَتِكَ أَوْ لَامُبَالَاتِكَ؟
فَنَاعًا كُنْتَ أَمْ زُخْرَفًا، سَلَامًا! فَأَنَا أَعْشَقُ جَمَالَكَ.

لَمْ أَنَسْ^(١)

لَمْ أَنَسْ، بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَدِينَةِ،
 مَنَزَلَنَا الْأَبْيَضَ، الصَّغِيرَ لَكِنَّ الْهَادِي؛
 «بُومُون»^(٢) الْجَبَسُ و«فِينوس» الْقَدِيمَةُ
 الَّتِي تُخْفِي أَعْضَاءَهَا الْعَارِيَةَ فِي أَجْمَةِ عَجَفَاءَ،
 وَالشَّمْسُ، فِي الْمَسَاءِ، مُنْسَابَةً رَائِعَةً،
 كَانَتْ تَبْدُو، خَلْفَ زُجَاجِ النَّافِذَةِ حَيْثُ تَتَكَسَّرُ حِزْمَتُهَا،
 كَعَيْنٍ كَبِيرَةٍ مَفْتُوحَةٍ فِي السَّمَاءِ الْفُضُولِيَّةِ،
 كَأَنَّهَا تَتَأَمَّلُ عَشَاءَنَا الطَّوِيلَ الصَّامِتَ،
 سَاكِبَةً بِصُورَةٍ كَبِيرَةٍ أَنْعَكَاسَاتِهَا الْجَمِيلَةَ كَشَمْعَةٍ
 عَلَى الْمَفْرَشِ الْبَسِيطِ وَسَتَائِرِ الصُّوفِ.

(١) القصيدة - في الأصل - بلا عنوان؛ والعنوان من اختيارنا (المترجم).

(٢) إله الفواكه والحدائق، عند الإغريق.

الْخَادِمَةُ ذَاتُ الْقَلْبِ الطَّيِّبِ^(١)

الْخَادِمَةُ ذَاتُ الْقَلْبِ الطَّيِّبِ الَّتِي كُنْتُ تَغَارِينِ مِنْهَا،
وَالَّتِي تَرَقُدُ فِي نَوْمِهَا تَحْتَ مَرَجٍ مُتَوَاضِعٍ،
يَنْبَغِي مَعَ ذَلِكَ أَنْ نَأْتِيَ لَهَا بِبُضْعِ زُهورٍ.
فَالْمَوْتَى، الْمَوْتَى الْفُقَرَاءُ، يُعَانُونَ مِنْ آلامٍ هَائِلَةٍ،
وَعِنْدَمَا يَنْفُتُ أَكْثَوْبَرُ، مُشَدِّبُ الْأَشْجَارِ الشَّائِخَةِ،
رِيحَهُ الْكَثِيبَةَ حَوْلَ رُخَامِ قُبُورِهِمْ،
فَبِالتَّأَكِيدِ، لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّ الْأَحْيَاءَ عَاقُونَ،
إِذْ يَنَامُونَ، مِثْلَهُمْ، مُتَدَفِّئِينَ فِي مَلَأَةِ أَيْهِمْ،
فِيمَا هُمْ، وَأَحْلَامُ يَقْطِطِ سَوْدَاءَ تَنْهَشُهُمْ،
دُونَ رَفِيقِي فِي السَّرِيرِ، بِلَا مُحَادَثَاتٍ سَارَةٍ،
هَيَاكِلَ عَظِيمَةٍ عَتِيقَةٍ ثُلْجِيَّةٍ، صَقَلَهَا الدُّودُ،
يُحْسِنُونَ ثُلْجَ الشِّتَاءِ يَقْطُرُ

(١) القصيدة - في الأصل - بلا عنوان؛ والعنوان من اختيارنا (المترجم)

وَمُرُورَ الْقَرْنِ، بِلَا صَدِيقٍ أَوْ عَائِلَةٍ
يُبَدِّلُونَ الزُّهُورَ الْمَيِّتَةَ الْمُعْلَقَةَ عَلَى قُبُورِهِمْ.

وَحِينَ يَصْفُرُ الْخَشَبُ وَيُغْنِي، لَوْ أَنَّ الْمَسَاءَ هَادِي،
كُنْتُ أَرَاهَا جَالِسَةً فِي الْمَقْعَدِ الْوَتِيرِ،
أَمَّا فِي لَيْلَةٍ زَرْقَاءَ بَارِدَةٍ مِنْ دِيسْمِيرِ،
فَكُنْتُ أَجِدُهَا مُقْعِيَةً فِي أَحَدِ أَرْكَانِ غُرْفَتِي،
رَاصِيَةً، جَاءَتْ مِنْ عُمُقِ سَرِيرِهَا الْأَبَدِيِّ
لِتَرَعَى الْطِفْلَ الْكَبِيرَ بِنَظَرِهَا الْأُمُومِيَّةِ،
فَمَاذَا كَانَ بِمَقْدُورِي أَنْ أُرَدَّ عَلَى هَذِهِ الرُّوحِ الْوَرَعَةِ،
وَأَنَا أَرَى دُمُوعًا تَسَاقُطُ مِنْ جُفُونِهَا الْخَاوِيَةِ؟

ضَبَابٌ وَأَمْطَارُ

يَا نَهَايَاتِ الْخَرِيفِ، الشِّتَاءِ، الرَّبِيعِ الْمُنْعَمِسَةِ فِي الْأَوْحَالِ،
 أَيَّتُهَا الْفُصُولُ الْمُخَادِعَةُ! أَحْبَبْتُكَ وَأَمْتَدَحُكَ
 عَلَى إِحَاطَةِ قَلْبِي وَعَقْلِي هَكَذَا
 بِكَفَنِ ضَبَابِي وَقَبْرِ غَامِضٍ.

فِي هَذَا السَّهْلِ الشَّاسِعِ حَيْثُ تَمَرُّحُ الرِّيحِ الْبَارِدَةِ،
 حَيْثُ تُبَحُّ دَوَارَةُ الْهَوَاءِ فِي اللَّيَالِي الطَّوِيلَةِ،
 تَفْتَحُ رُوحِي جَنَاحَيْهَا عَلَى اتِّسَاعِهِمَا كَالْغُرَابِ
 بِأَفْضَلِ مِمَّا فِي وَقْتِ عَوْدَةِ الرَّبِيعِ الدَّافِئِ.

لَا شَيْءَ أَعَذَّبَ عَلَى الْقَلْبِ الْمُفْعَمِ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ،
 وَالَّذِي يَهْطِلُ عَلَيْهِ الصَّقِيعُ مِنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ،
 أَيَّتُهَا الْفُصُولُ الشَّاجِبَةُ، يَا مَلِكَاتِ مَنَاخَاتِنَا،

مِنْ الْوَجْهِ الدَّائِمِ لِظُلُمَاتِكَ الْبَاهِتَةِ،
- إِنْ لَمْ تُسْكِنِ الْأَلَمَ، فِي أُمْسِيَّةٍ بِلَا قَمَرٍ،
اِثْنَيْنِ اِثْنَيْنِ، عَلَى سَرِيرِ الْمُصَادَفَةِ.

حُلَمٌ بَارِيسِيّ

إلى قنسطنطين جيز

(١)

بِهَذَا الْمَشْهَدِ الْمُرَوِّعِ،
 الَّذِي لَمْ يَشْهَدْهُ إِنْسَانٌ أَبَدًا،
 هَذَا الصَّبَاحَ مَا تَرَأَى صُورَتَهُ،
 الضَّبَابِيَّةُ الْبَعِيدَةُ، تُذْهِلُنِي.

النَّوْمُ مُفْعَمٌ بِالْمُعْجَزَاتِ!
 يَفْعَلُ نَزْوَةً فَرِيدَةً
 حَرَمْتُ مِنْ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ
 النَّبَاتَاتِ الْخَارِقَةِ،

وَكَفَنَانِ فَخُورٍ بَعْبَقَرِيَّتِي،
 اسْتَمْتَعْتُ فِي لَوْحَتِي،

بِالرَّتَابَةِ الْفَاتِنَةِ
لِلْمَعْدِنِ وَالرُّحَامِ وَالْمَاءِ.

بَابِلُ مِنْ سَلَائِمَ وَأَرْوَاقَةُ مُقَوَّسَةٌ،
كَانَ قَصْرًا لَا يَنْهَائِيًا،
مَلِيئًا بِأَحْوَاضِ اسْتِحْمَامٍ وَشَلَالَاتٍ
مُتَسَاقِطَةٍ عَلَى الذَّهَبِ الْكَامِدِ أَوْ الصَّقِيلِ؛

وَسُيُولُ كَثِيفَةٌ،
مِثْلَ سَنَائِرٍ مِنْ كِرِيسْتَالٍ،
كَانَتْ مُعَلَّقَةً، مُتَأَلِّقَةً،
بِأَسْوَارٍ مِنْ مَعْدِنٍ.

لَا أَشْجَارٌ، بَلْ صَفٌّ أَعْمِدَةٌ
كَانَ يُحِيطُ بِالْبِرْكِ النَّائِمَةِ،
حَيْثُ كَانَتْ حُورِيَّاتُ مَاءٍ هَائِلَةٍ،
تَتَمَلَّى نَفْسَهَا، كَالنِّسَاءِ.

طَبَقَاتُ الْمَاءِ كَانَتْ تَنْسَابُ، زَرْقَاءُ،
بَيْنَ أَرْضِ صِفَةٍ وَرَدِيَّةٍ وَخَضِرَاءُ،
مُتَمَتِّدَةً مَلَائِينَ الْفَرَايِخِ،

نَحْوَ أَطْرَافِ الْكَوْنِ؛

كَانَتْ هُنَاكَ أَحْجَارٌ خَارِقَةٌ
وَأَمْوَاجٌ سِحْرِيَّةٌ؛ كَانَتْ هُنَاكَ
تُلُوجٌ هَائِلَةٌ مُبْهِرَةٌ
بِكُلِّ مَا تَعَكَّسُهُ!

لَا مُبَالِغِينَ وَصَامِتِينَ،
أَنْهَارٌ جَانِحٌ، فِي الْقُبَّةِ الزَّرْقَاءِ،
كَانُوا يَنْثُرُونَ الْكَثْرَ مِنْ جِرَارِهِمْ
فِي فَجَوَاتٍ مِنَ الْمَاسِ.

وَكَمْهَنْدَسٍ مَعْمَارِيٍّ لِعَوَالِمِي الْخَارِقَةِ،
صَنَعْتُ، كَمَا أَرَدْتُ،
مُحِيطًا مُرَوِّضًا يَنْسَابُ
فِي نَفَقٍ مِنْ جَوَاهِرٍ؛

وَالْجَمِيعُ، حَتَّى اللَّوْنُ الْأَسْوَدُ،
كَانَ يَبْدُو صَقِيلًا، نَاصِعًا، قَرَحِيًّا؛
كَانَ السَّائِلُ يُرْصِعُ مَجْدَهُ
فِي الْأَشْعَةِ الْبِلُّورِيَّةِ.

لَا نَجْمَ، فَضْلاً عَنْ ذَلِكَ، وَلَا شُعَاعَ
شَمْسٍ، حَتَّى تَحْتَ السَّمَاءِ،
لِيُضِيَّ هَذِهِ الرَّوَائِعَ،
الَّتِي تَأَلَّقَتْ بِنَارِ شَخْصِيَّةِ!

وَفَوْقَ هَذِهِ الْعَجَائِبِ السَّاحِرَةِ
كَانَ يَرِفُ (طُرْفَةً رَهِيَّةً!
الْكُلُّ مِنْ أَجْلِ الْعَيْنِ، لَا شَيْءَ لِلْأُذُنِ!)
صَنَعْتُ الْأَبْدِيَّةَ.

(٢)

وَلَدَى فَتَحِ عَيْنِي الْمَلِيَّتَيْنِ بِاللَّهَبِ
شَهِدْتُ بَشَاعَةَ كُوْخِي الْبَائِسِ،
وَأَحْسَنْتُ، وَأَنَا أَعُودُ إِلَى نَفْسِي،
بِسِنَّ الْهُمُومِ اللَّعِينَةِ؛

سَاعَةُ الْحَائِطِ بِدَقَّاتِهَا الْجَنَائِزِيَّةِ
كَانَتْ تَدُقُّ بِوَحْشِيَّةِ سَاعَةِ مُتَتَصِفِ النَّهَارِ،
وَالسَّمَاءُ تَنْثُرُ كَابَاتٍ
عَلَى الْعَالَمِ الْحَزِينِ الْمُخْدَرِ.

شَفَقُ الصَّبَاحِ

نَوْبَةُ الصَّبَاحِ كَانَتْ تُدَوِّي فِي سَاحَاتِ الثُّكُنَاتِ،
وَرِيحُ الصَّبَاحِ تَهَبُّ عَلَى الْقَنَادِيلِ.

كَانَتْ السَّاعَةُ الَّتِي يَدْفَعُ فِيهَا سِرْبُ الْأَحْلَامِ الشَّرِيرَةِ
الْمُرَاهِقِينَ الْمَدْبُوعِينَ إِلَى التَّقَلُّبِ عَلَى وَسَائِدِهِمْ؛
حَيْثُ يَصْنَعُ الْمُصْبَاحُ بُقْعَةً حُمْرَاءَ عَلَى النَّهَارِ،
كَعَيْنٍ دَامِيَةٍ تَخْتَلِجُ وَتَتَحَرَّكُ؛
وَحَيْثُ الرُّوحُ، تَحْتَ وَطْأَةِ الْجَسَدِ الْقَظِّ، الثَّقِيلِ،
تُحَاكِي الْعِرَاكَ بَيْنَ الْمُصْبَاحِ وَالنَّهَارِ.
وَكَوَجِهِ دَامِعٍ جَفَفَتْهُ النَّسَائِمُ،
يَمْتَلِئُ الْهَوَاءُ بِرِغَشَةِ الْأَشْيَاءِ الْهَارِبَةِ،
وَالرَّجُلُ ضَجِرٌ مِنَ الْكِتَابَةِ وَالْمَرْأَةُ مِنَ الْحُبِّ.

الْمَنَازِلُ هُنَا وَهُنَاكَ كَانَتْ تَبْدَأُ فِي تَصْعِيدِ الدُّخَانِ.

وَنِسَاءُ الْمُتَعَةِ، بِجُفُونٍ مُمْتَقِعَةٍ،
وَأَفْوَاهٍ مَفْتُوحَةٍ، كُنَّ يَرْقُدْنَ فِي نَوْمِهِنَّ الْبَلِيدِ؛
وَالْمَتَسَوِّلَاتُ، فِيمَا يُجْرُجِرْنَ أَثْدَاءَهُنَّ النَّحِيلَةَ الْبَارِدَةَ،
كُنَّ يَنْفُخْنَ فِي جِمَرَاتِهِنَّ وَيَنْفُخْنَ فِي أَصَابِعِهِنَّ.
هِيَ السَّاعَةُ الَّتِي تَحْتَدِمُ فِيهَا وَسْطَ الْبُرْدِ وَالْبُخْلِ
عَذَابَاتُ النِّسَاءِ فِي الْوِلَادَةِ؛
وَمِثْلَ شَهَقَةٍ قَطَعَهَا دَمٌ مُزِيدٌ
مَزَّقَ صِيَاحُ الدِّيَكِ فِي الْبَعِيدِ الْهَوَاءِ الصَّبَإِيِّ؛
وَحَمَمَ بَحْرٌ مِنَ الْعَبَسِ الْأَبْيَةِ،
وَالْمُحْتَضِرُونَ فِي عُمُقِ الْمِصْحَاتِ
كَانُوا يَلْقُظُونَ النَّفْسَ الْأَخِيرَ فِي شَهَقَاتٍ بِلاَ مِثْلِ.
وَالْعَاهِرُونَ يَعُودُونَ، مُسْتَنْزِفِينَ مِنْ عَمَلِهِمْ.

كَانَ الْفَجْرُ يَتَقَدَّمُ وَيُثِدُّ عَلَى السَّيْنِ الْمَهْجُورِ،
مُرْتَجِفًا فِي ثَوْبٍ وَرَدِيٍّ وَأَخْضَرٍ،
وَبَارِيسُ الْقَائِمَةِ، وَهِيَ تَدْعُكُ عُيُونُهَا،
كَانَتْ تُمَسِّكُ بِأَدْوَاتِهَا، مِثْلَ عَجُوزٍ مُثَابِرٍ.

الخمر

رُوحُ الْخَمْرِ

ذَاتَ مَسَاءٍ غَنَّتْ رُوحُ الْخَمْرِ فِي الْقِنِينَاتِ:
 «أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، أَيُّهَا الْمَحْرُومُ الْحَبِيبُ،
 مِنْ سَجْنِي الزُّجَاجِي وَسِدَادَاتِي الْقُرْمُزِيَّةِ
 أَسْوَقُ لَكَ أُغْنِيَةً مُفَعَّمَةً بِالضُّوءِ وَالْأُخُوَّةِ!

أَعْرِفُ كَمْ يَنْبَغِي بِذُلِّهِ، عَلَى تَلٍّ مِنْ لَهْيَبٍ،
 مِنْ عَنَاءٍ، مِنْ عَرَقٍ وَشَمْسٍ حَارِقَةٍ
 مِنْ أَجْلِ خَلْقِ حَيَاتِي وَمَنْحِي الرُّوحِ؛
 لَكِنِّي لَنْ أَكُونَ أَبَدًا عَاقَةً أَوْ شَرِيرَةً،

لَأَنِّي أَحْسُ بِبَهْجَةِ هَائِلَةٍ عِنْدَمَا أَنْسَابُ
 فِي خَلْقِ رَجُلٍ اسْتَتَرَفَهُ الْعَمَلُ،
 وَصَدْرُهُ الدَّافِي يُصْبِحُ قَبْرًا عَذْبًا
 فِيهِ أَسْعَدُ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا فِي كُهُوفِي الْبَارِدَةِ.

أَلَا تَسْمَعُ لَازِمَاتِ يَوْمِ الْأَحَدِ تُدَوِّي
وَالْأَمَلِ الَّذِي يُعَرِّدُ فِي صَدْرِي وَهُوَ يَخْتَلِجُ؟
الْمَرَاثِقُ عَلَى الْمُنْصَدَةِ وَالْأَكْمَامُ مُشْمَرَةٌ،
سَتُمَجِّدُنِي وَسَتَكُونُ سَعِيدًا؛

سَأُشْعِلُ عَيْنِي زَوْجَتِكَ الْمُبْتَهَجَةَ؛
وَسَأُعِيدُ إِلَى ابْنِكَ قُوَّتَهُ وَلَوْنَهُ
وَسَأَكُونُ لِمُصَارِعِ الْحَيَاةِ الْهَزِيلِ هَذَا
الزَّيْتِ الَّذِي يُقَوِّي عَضَلَاتِ الْمُصَارِعِينَ.

وَسَأَنْسَابُ فِيكَ، رَحِيقًا نَبَاتِيًّا،
حَبَّةَ تَمِينَةٍ بَذَرَهَا الْمُزَارِعُ الْأَبْدِيُّ،
مِنْ أَجْلِ أَنْ يُوَلَّدَ مِنْ حُبِّنَا الشُّعْرُ
الَّذِي سَيَسُبُّ نَحْوَ اللَّهِ كَوَرْدَةٍ نَادِرَةٍ!»

خَمْرُ جَامِعِي الْخَرَقِ

عَلَى الضُّوءِ الْأَحْمَرِ لِأَحَدِ قَنَادِيلِ الشَّوَارِعِ
الَّتِي تَجْلِدُ الرِّيحُ لَهَبَهَا وَتُعَذِّبُ رُجَاجَهَا،
فِي قَلْبِ صَاحِبَةٍ عَتِيقَةٍ، كَمَتَاهَةِ مُوَحِّلَةٍ
حَيْثُ تَرَحَّفُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي اضْطِرَابِ عَاصِفٍ،

يَرَى الْمَرْءُ جَامِعَ خَرَقٍ يَأْتِي، هَاذَا رَأْسَهُ،
مُتَعَثِّرًا، مُرْتَظِمًا بِالْجُدْرَانِ مِثْلَ شَاعِرٍ،
وَدُونَ اكْتِرَافٍ بِالْمُخْبِرِينَ، مَوْضُوعَاتِهِ،
يَصُبُّ قَلْبَهُ كُلَّهُ فِي مَشْرُوعَاتٍ مَجِيدَةٍ.

يُقَسِّمُ أَيْمَانًا، وَيَسِنُّ قَوَائِنَ سَامِيَةٍ،
يَضْرَعُ الْخُبَاءَ، وَيُنْهَضُ الضَّحَايَا،
وَتَحْتَ السَّمَاءِ مِثْلَ قُبَّةٍ مُعَلَّقَةٍ
يَسْكُرُ بِرُوعَةٍ فَضَائِلِهِ الشَّخْصِيَّةِ.

حَقًّا، فَهَؤُلَاءِ النَّاسُ الْمُنْهَكُونَ بِالْهُمُومِ الْمُنْزِلِيَّةِ،
الْمَطْخُونُونَ بِالْعَمَلِ، الْمُعَذَّبُونَ بِالزَّمَنِ،
الْمُرْهَقُونَ الْمَحْنِيُّونَ تَحْتَ رُكَامِ الْأَنْقَاضِ،
الْقِيَاءُ الْعَامِضَ لِبَارِسِ الصَّخْمَةِ،

يَعُودُونَ، وَهُمْ يَفُوحُونَ بِرَائِحَةِ بَرَامِيلِ الْخَمْرِ،
يَتَّبِعُهُمْ رَفَاقٌ، شَابُوا فِي الْمَعَارِكِ،
وَشَوَارِبُهُمْ مَحْنِيَّةٌ كَالْأَعْلَامِ الْقَدِيمَةِ.
الرَّايَاتُ، وَالزُّهُورُ وَ«أَفَواسُ» النَّصْرِ

تَرْتَفِعُ أَمَامَهُمْ، سِحْرٌ مَهِيبٌ!
وَفِي الْعَرْبَدَةِ الْمُذْهِلَةِ الْبَاهِرَةِ
لِلْأَبْوَاقِ، وَالشَّمْسِ، وَالْهَتَافَاتِ وَالطُّبُولِ،
يَجْلِبُونَ الْمَجْدَ لِلشَّعْبِ الْمُتَشَبِّهِ بِالْحُبِّ!

هَكَذَا عَبَرَ الْإِنْسَانِيَّةَ الطَّائِشَةَ
يَأْتِي الْخَمْرُ بِالذَّهَبِ، مِثْلَ بَاكْتُولٍ^(١) فَاتِنٍ؛
وَبِحَنْجَرَةِ الْإِنْسَانِ يُغْنِي مَآثِرَهُ
وَيَحْكُمُ بِمَوَاهِبِهِ مِثْلَ الْمُلُوكِ الْحَقِيقِيِّينَ.

(١) نهر في مملكة «ليديا» القديمة، كان يأتي مع تياره بشذرات من الذهب.

لِإِغْرَاقِ الْمَرَارَةِ وَهَذِهِ الْبَلَادَةُ

لَدَى كُلِّ هَؤُلَاءِ الْمَلْعُونِينَ الْعَجَائِزَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي صَمْتٍ،

خَلَقَ اللَّهُ، وَقَدْ أَدْرَكَهُ النَّدَمُ، النَّوْمُ؛

وَأَضَافَ الْإِنْسَانَ الْخَمْرَ، الْإِبْنَ الْمُقَدَّسَ لِلشَّمْسِ!

L'œuvre de Chiffonier

Comme la liste nombre des docteurs

Que la Vierge de la sainte tourmente donne l'inspiration

On fond de. quatorze livres et tortune

Des groutement par ailleurs des manges filées,

On voit un chaffarier qui vient hochant la tête.

Battant et de cognant aux murs comme une porte,
Et sans

Et sans
rien prendre. ~~un~~ jour des marchands ~~l'un~~
théâtre

~~Yours~~ love son ever Dans l'air d'Amélie
Grandpère

10. 11. 1951

Où ces gens harcelés de chagrins de mariage.

Moulus par le travail et tourmenter par l'âge
 Les des bas et mentir sous les traits de l'âge

Et des fleuves s'élèvent pour visiter Paris

Revenant parfois à un tour de main.

Commandant une armée et gagnant des batailles;

Ne jurant qu'ils ne vendront toujours leur pays l'ennemi,
Et trahir à jamais leur nation - l'ennemi.

On Nov 22, a small, dark, yellowish green

Chen ring su'a trovai i kamante p'rova

Le Vin royal de l'or comme au nouveau Pirete;

مخطوط قصيدة «خمر جامعي الخرق»

خَمْرُ الْقَاتِلِ

امرأتي ماتت، فأنا حر!
 أستطيع إذن أن أشرب حتى الثمالة.
 فعندما كنت أعود بلا فلس،
 كان صراخها يمزق مني الأعصاب.

سعيدٌ مثل ملك؛
 الهواء نقي، والشمس رائعة...
 مررتنا بصيفٍ شبيه
 عندما وقعتُ في حبها!

الظمأ الرهيب الذي يمزقني
 كان بحاجة، كي يرتوي،
 إلى خمرٍ تكفي لأن تملأ
 قبرها؛ - وهو ليس بالقليل:

رَمَيْتُ بِهَا فِي أَعْمَاقِ بَئْرٍ،

بَلْ أَهَلْتُ فَوْقَهَا

كُلَّ أَحْجَارِ الْفَوَّهَةِ.

- سَأَنْسَاهَا إِنْ اسْتَطَعْتُ!

بِاسْمِ عُهُودِ الْحُبِّ،

الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ شَيْءٌ تَحْرِيرَنَا مِنْهَا،

وَمِنْ أَجْلِ الْمُصَالَحَةِ

مِثْلَمَا فِي الزَّمَنِ الْجَمِيلِ لِنَشَوْتِنَا،

طَلَبْتُ مِنْهَا مَوْعِدًا،

فِي الْمَسَاءِ، فِي طَرِيقِ مَهْجُورٍ.

وَجَاءَتْ! - الْمَخْلُوقَةُ الْحَمَقَاءُ!

نَحْنُ جَمِيعًا، بِدَرَجَةٍ أَوْ أُخْرَى، حَمَقَى!

كَانَتْ مَا تَزَالُ جَمِيلَةً،

بِرَغْمِ إِزْهَاقِهَا الْكَبِيرِ! وَأَنَا،

كُنْتُ أَحِبُّهَا كَثِيرًا! ذَلِكَ سَبَبُ

قَوْلِي لَهَا: اخْرُجِي مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ!

لَا أَحَدٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَفْهَمَنِي . أَهْنَاكَ أَحَدٌ
بَيْنَ هَؤُلَاءِ السَّكَارَى الْبُلْهَاءِ
قَدْ حَلُمَ فِي لَيَالِيهِ السَّقِيمَةِ
بَأَنْ يَصْنَعَ وَشَاحًا مِنَ الْخَمْرِ؟

فَهَذِهِ النَّذَالَةُ الْمَنِيعَةُ
مِثْلَ الآلَاتِ الْحَدِيدِيَّةِ
لَمْ تَعْرِفْ أَبَدًا، لَا فِي الصَّيْفِ
وَلَا فِي الشِّتَاءِ، الْحُبَّ الْحَقِيقِي،

بَنَشَوَاتِهِ السَّوْدَاءِ،
بَحَاشِيَّتِهِ الْجَهَنَّمِيَّةِ مِنَ الْهُمُومِ،
بَقَوَارِيرِ سُمِّهِ، بِدُمُوعِهِ،
بَصَخَبِ سَلَاسِلِهِ وَعِظَامِ مَوْتَاهِ!

- وَهَذَا أَنْذَا حُرٌّ وَوَحِيدٌ!
سَأَسْكُرُ هَذَا الْمَسَاءَ حَتَّى الْمَوْتِ؛
بَعْدَهَا، بِلَا خَوْفٍ وَلَا نَدَمٍ،
سَأَتَمَدَّدُ عَلَى الْأَرْضِ،

وَسَأَنَامُ مِثْلَ كَلْبٍ!
وَالشَّاحِنَاتُ ذَاتَ الْإِطَارَاتِ الثَّقِيلَةِ
الْمَحْمَلَةُ بِالطِّينِ وَالْأَحْجَارِ،
الْعَرَبَةُ الْمُهْتَاجَةُ يُمَكِّنُ لَهَا

أَنْ تَسْحَقَ رَأْسِي الْآئِمَّةَ
أَوْ تَقْطَعَ جَسَدِي إِلَى نِصْفَيْنِ،
فَلَا أُبَالِي بِاللَّهِ،
وَلَا الشَّيْطَانَ أَوْ الْمَائِدَةَ الْمُقَدَّسَةَ!

خمر المنعزل

النَّظَرُ الغَرِيبَةُ لَامْرَأَةٍ مُسْتَهْزِئَةٍ
الَّتِي تَنْسَلُ إِلَيْنَا كَالشُّعَاعِ الْأَبْيَضِ
الَّذِي يُرْسِلُهُ الْقَمَرُ الْمُتَمَوِّجُ إِلَى بَحِيرَةٍ مُرْتَجِفَةٍ،
عِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُحَمِّمَ فِيهَا جَمَالَه اللَّامُّبَالِي؛

الْحَقِيقَةُ الْأَخِيرَةُ مِنَ الرِّيَالَاتِ بَيْنَ أَصَابِعِ الْمُقَامِرِ؛
قُبْلَةُ فَاجِرَةٍ مِنْ أَذْلِينَ النَّحِيلَةِ؛
أَصْوَاتُ مُوسِيقَى مُعَذِّبَةٍ وَمُهْذَهْدَةٍ،
بِمَا يُشْبِهُ صَرْخَةَ بَعِيدَةٍ لِعَذَابٍ إِنْسَانِيٍّ،

كُلُّ ذَلِكَ لَا يُضَاهِي، أَيْتَهَا الْقَنِينَةُ الْعَمِيقَةَ،
السَّلْوَى الْخَارِقَةَ الَّتِي تُكْنِئُهَا بَطْنُكَ الْخَضْبُ
مِنْ أَجْلِ الْقَلْبِ الظَّمَّانِ لِلشَّاعِرِ الْوَرَعِ؛

تَشْرِيْنَ عَلَيْهِ الْأَمَلَ وَالشَّبَابَ وَالْحَيَاةَ،
- وَالْكِبَرِيَاءُ، كَتَرُ كُلِّ فَاقَةٍ،
الَّذِي يَرُدُّنَا ظَافِرِينَ وَأَشْبَاهَ إِلَهَةٍ!

خَمْرُ الْمُحِبِّينَ

الْيَوْمَ الْفَضَاءُ رَائِعٌ!
 بِلَا مِهْمَازٍ، بِلَا شَكِيمَةٍ، وَلَا لِحَامٍ،
 فَلَنَنْطَلِقَ عَلَى حِصَانِ الْخَمْرِ
 إِلَى سَمَاءٍ خُرَافِيَّةٍ وَإِلَهِيَّةٍ!

كَمَلَاكَيْنِ مُعَذِّبَيْنِ
 بِدُؤَارٍ عَصِيٍّ،
 فَلَنَتَّبِعَ السَّرَّابَ الْبَعِيدَ
 فِي زُرْقَةِ الصَّبَاحِ الْبِلُّورِيَّةِ!

مُتَّارِ جَحِينٍ يَرْفِقُ عَلَى جَنَاحِ
 الزَّوْبَعَةِ الْبَارِعَةِ،
 فِي هَذَيَانٍ مُمَاطِلٍ،

سَنَهْرُبُ دُونَ رَاحَةٍ وَلَا هَوَادَةٍ،
يَا أُخْتُ، طَافِيَيْنِ جَنَبًا إِلَى جَنْبِ،
إِلَى فِرْدَوْسِ أَحْلَامِي!

أَزْهَارُ الشَّرِّ

الدَّمار

بِلا أَنْقِطَاعٍ يَهْتَاجُ حَوْلِي الشَّيْطَانُ؛
يَطْفُو حَوْلِي مِثْلَ هَوَاءٍ غَيْرِ مَحْسُوسٍ؛
أَبْتَلِعُهُ وَأَحْسُ بِهِ يُحْرِقُ رِثَّتِي
وَيُفْعِمُهَا بِرَغْبَةٍ أَبَدِيَّةٍ أَثِيمَةٍ.

أَحْيَانًا مَا يَتَّخِذُ، مُدْرِكًا عِشْقِي الْكَبِيرَ لِلْفَنِّ،
شَكْلَ أَكْثَرِ النِّسَاءِ إِغْوَاءً،
وَيَذَرَانِغَ خَاصَّةٍ بِلَيْثِمٍ،
يُعَوِّدُ شَفَتَيَّ عَلَى مَشْرُوبَاتٍ شَائِنَةٍ.

هَكَذَا يَقُودُنِي، بَعِيدًا عَنْ عَيْنِ اللَّهِ،
لَاهِثًا، مُحَطَّطًا مِنَ التَّعَبِ، إِلَى قَلْبِ
سُهُولِ السَّأَمِ، الْغَائِرَةِ الْمَهْجُورَةِ،

وَيَرْمِي أَمَامَ عَيْنَيَّ الْمُفْعَمَتَيْنِ بِالْحِيرَةِ
مَلَابِسَ وَسِخَّةَ، وَجِرَاحًا مَفْتُوحَةً،
وَأَلَّةَ الدَّمَارِ الدَّامِيَةِ!

شَهِيدَةٌ

رسم لأستاذ مجهول

وَسَطَ قَوَارِيرِ الْعَطْرِ، وَالْأَقْمَشَةِ الْمُقَصَّبَةِ
وَالْأَثَاثِ الشَّهْوَانِيِّ،
وَرُخَامٍ، وَلَوْحَاتٍ، وَثِيَابٍ عَطِرَةٍ
تَسْتَرْسِلُ فِي طَيِّبَاتِ بَاذِخَةٍ،

فِي غُرْفَةٍ دَافِئَةٍ، مِثْلَمَا فِي دَفِئَةٍ،
حَيْثُ الْهَوَاءُ خَاطِرٌ وَقَاتِلٌ،
حَيْثُ بَاقَاتٌ مُحْتَضِرَةٌ فِي أَكْفَانِهَا الرُّجَاجِيَّةِ،
تَلْفُظُ أَنْفَاسَهَا الْأَخِيرَةَ،

جُثَّةً بِلَا رَأْسٍ تَدْفُقُ، مِثْلَ نَهْرٍ،
عَلَى الْوِسَادَةِ الَّتِي ارْتَوَتْ
دَمًا أَحْمَرَ حَيًّا، شَرِبَهُ الْقَمَاشُ

بِشَرَاهَةِ مَرْجٍ.

وَكَا لِرُؤْيَى الشَّاحِبَةِ الَّتِي يُوَلِّدُهَا الظَّلَامُ
وَالَّتِي تَشُدُّ عُيُونَنَا،
تَرْقُدُ الرَّأْسُ، بِكُتْلَةِ شَعْرِهَا الْغَزِيرِ الْقَاتِمِ
وَبِجَوَاهِرِهَا الْعَالِيَةِ،

عَلَى مِنْصَدَةِ غُرْفَةِ النَّوْمِ، مِثْلَ نَبَاتِ صُفَيْرٍ؛
وَخَاوِيَةٍ مِنَ الْأَفْكَارِ،
تُفْلِتُ مِنَ الْعَيْنَيْنِ الْمُضْطَرَبَتَيْنِ
نَظْرَةً غَامِضَةً شَاحِبَةً مِثْلَ الْغَسَقِ.

عَلَى السَّرِيرِ، يَتَمَدَّدُ الْجَذْعُ الْعَارِي بِلَا وَسَاوِسٍ
فِي اكْتِمَالِ الْهَجَرَانِ الْأَقْصَى
وَالرَّوْعَةِ السَّرِّيَّةِ وَالْجَمَالِ الْوَبِيلِ
الَّذِي مَنَحَتْهُ الطَّبِيعَةُ لَهُ؛

جَوْرَبٌ وَرَدِيٌّ، مُوشًى بِأَرْكَانٍ ذَهَبِيَّةٍ،
ظَلَّ عَلَى السَّاقِ كِذْكْرَى؛
وَحَامِلَةٌ الْجَوَارِبِ، مِثْلَ عَيْنِ سِرِّيَّةٍ تُومِضُ،

تُحَدِّقُ بِنَظَرَةٍ مُتَأَلِّقَةٍ كَالْمَاسِ .

وَالشَّكْلُ الْفَرِيدُ لِهَذِهِ الْعُزْلَةِ
وَلِلْصُّورَةِ شَخْصِيَّةٍ كَبِيرَةٍ وَفَاتِرَةٍ،
تُكْشِفُ فِي عَيْنَيْنِ مُسْتَفْزِئَتَيْنِ مِثْلَ وَضْعِهَا،
عَنْ حُبِّ غَامِضٍ،

عَنْ بَهْجَةِ آثِمَةٍ وَاحْتِفَالَاتٍ غَرِيبَةٍ
مَلِيئَةٍ بِالْقُبُلَاتِ الْجَهَنَّمِيَّةِ،
الَّتِي أَسْعَدَتِ سِرْبَ الْمَلَائِكَةِ الْأَشْرَارِ
السَّابِحِينَ فِي طَيَّاتِ السَّتَائِرِ؛

وَمَعَ ذَلِكَ، فَالْمَرْءُ يَرَى مِنَ النَّحَافَةِ الْمَمْشُوقَةِ
لِلْكَتِفِ ذِي الْمُحِيطِ الْمُتَنَافِرِ،
وَالْفَخْذِ شِبْهَ الْحَادِّ وَالْخَضِرِ الرَّشِيقِ
مِثْلَ حَيَّةٍ هَائِجَةٍ،

أَنَّهَا مَا تَزَالُ حَقًّا شَابَّةً! - وَرُوحُهَا الْحَانِقَةُ
وَأَحَاسِيسُهَا الَّتِي أَكَلَهَا السَّأَمُ
أَكَانَتْ مَفْتُوحَةً عَلَى الْقَطِيعِ الظَّامِئِ
مِنْ الشَّهَوَاتِ الضَّالَّةِ الضَّائِعَةِ؟

وَالرَّجُلُ الْمُتَّقِمُ الَّذِي لَمْ تَسْتَطِيعِي، وَأَنْتِ حَيَّةٌ،
أَنْ تُشْبِعِيهِ، رَغْمَ كُلِّ الْحُبِّ،
هَلْ أَشْبَعَ بِجَسَدِكَ الطَّيِّعِ الْهَامِدِ
شَهْوَتَهُ الشَّاسِعَةِ؟

أَجِيبِي، أَيُّهَا الْجَنَّةُ الْآثِمَةُ! وَمِنْ صَفَائِرِكَ الْخَشِنَةِ
وَهُوَ يَرْفَعُكَ بِذِرَاعٍ مَحْمُومٍ،
قُولِي لِي، أَيُّهَا الرَّأْسُ الرَّهِيْبَةُ، أَعْلَى أَسْنَانِكَ الْبَارِدَةِ
أَلْصَقَ قُبْلَاتِ الْوَدَاعِ الْأَخِيرَةِ؟

- بَعِيدًا عَنِ الْعَالَمِ الْهَزْلِيِّ، بَعِيدًا عَنِ الْجَمْعِ الْآثِمِ،
بَعِيدًا عَنِ الْمَسْئُولِينَ الْفُضُولِيِّينَ،
فَلْتَنَامِي فِي سَلَامٍ، نَامِي فِي سَلَامٍ، أَيُّهَا الْمَخْلُوقَةُ الْغَرِيبَةُ،
فِي قَبْرِكَ السَّرِيِّ؛

رَجُلُكَ يَسْعَى فِي الْعَالَمِ، وَشَكْلُكَ الْخَالِدِ
يَسْهَرُ قُرْبَهُ عِنْدَمَا يَنَامُ؛
وَمِثْلُكَ - بِالتَّأَكُّيدِ - سَيَظَلُّ مُخْلِصًا لَكَ،
وَوَفِيًّا حَتَّى الْمَمَاتِ.

نساءً ملعونات

رَاقِدَاتٍ عَلَى الرَّمْلِ مِثْلَ مَاشِيَةٍ مُتَأَمِّلَةٍ،
يُذِرْنَ أَعْيُنَهُنَّ إِلَى أَفْقِ الْبَحْرِ،
أَقْدَامُهُنَّ الْبَاحِثَةَ عَنْ بَعْضِهَا وَأَيْدِيَهُنَّ الْمُتَقَارِبَةَ
لَهَا مَفَاتِينُ فَاتِرَةٌ وَازْتِعَاشَاتُ مَرِيرَةٍ.

بَعْضُهُنَّ، مِمَّنْ قُلُوبُهُنَّ مُغْرَمَةٌ بِالْبُوحِ الطَّوِيلِ،
فِي أَعْمَاقِ الْأَجْمَاتِ حَيْثُ تُثْرِثُرُ الْجَدَاوِلُ،
يَتَهَجَّجْنَ حُبَّ طُفُولَتِيهِنَّ الْوَجِلَةِ
وَيَنْقُشْنَ الْغَابَةَ الْخَضِرَاءَ ذَاتَ الشُّجَيْرَاتِ الْفَتِيَّةِ؛

أُخْرَيَاتُ، كَأَخَوَاتِ يَمَشِينَ الْهُوَيْنَى بِوَقَارٍ
خِلَالَ الصُّخُورِ الْمَلِيئَةِ بِالْأَطْيَافِ،

حَيْثُ رَأَى سَأَنْتَ أَنْطَوَانَ^(١)، مُنْبِتَةً كَالْحِمَمِ،
الْأَنْدَاءَ الْعَارِيَةَ الْقُرْمُزِيَّةَ لِإِعْوَائِهِ؛

وَهُنَاكَ، فِي وَمِيزِ الصَّنْغِ الْمُتَدَاعِي،
فِي الْجَوَفِ الصَّامِتِ لِلْمَغَارَاتِ الْوُثْيَةِ الْقَدِيمَةِ
مَنْ يَدْعِينِكَ لِنَجْدَتِهِنَّ مِنْ حُمَاهُنَّ الْعَاوِيَةِ،
يَا «بَاخُوس»^(٢)، يَا مُهْذَهْدَ النَّدَامَاتِ الْقَدِيمَةِ!

وَأُخْرَيَاتُ، مِمَّنْ صَدْرُهُنَّ يُحِبُّ قُمْصَانَ الرُّهْبَانَ،
وَيُخَفِّينَ سَوْطًا تَحْتَ ثِيَابِهِنَّ الطَّوِيلَةِ،
يَمْرُجْنَ، فِي الْعَابَةِ الْمُظْلِمَةِ وَاللَّيَالِي الْمُنْعَزِلَةِ،
زَبَدَ اللَّذَّةِ بِدُمُوعِ الْآلَامِ.

أَيُّهَا الْعَذَرَاوَاتُ، الشَّيَاطِينُ، الْمُسُوخُ، الشَّهِيدَاتُ،
أَيُّهَا النُّفُوسُ الْعَظِيمَةُ الْمُزْدَرِيَّةُ لِلْوَاقِعِ،
الْبَاحِثَاتُ عَنِ اللَّائِنَهَائِي، الْوَرِعَاتُ أَوِ الشَّبَقَاتُ،
الْمُفْعَمَاتُ أَحْيَانًا بِالصَّرَخَاتِ، وَأَحْيَانًا بِالدُّمُوعِ،

(١) بطريرك للرُّهْبَانَ، عاش ما بين عامي ٢٥٠ و٣٥٦، مُعْتَرِلاً فِي الصَّحْرَاءِ. تَرَوِي سِيرَتُهُ الشَّائِعَةُ أَنَّهُ قَاتَلَ الشَّيَاطِينَ الَّتِي حَرَّضَتْهُ عَلَى التَّمَرُّدِ وَالْفِسْقِ.

(٢) إِلَهَ الْخَمْرِ وَالنَّشْوَةِ عِنْدَ الْإِغْرِيْقِ.

يَا مَنْ تَبِعْتُكَ رُوحِي إِلَى جَحِيمِكَ،
أَيُّهَا الْأَخَوَاتُ الْبَائِسَاتُ، أُجِبُّكَ بِقَدْرِ مَا أَرْنِي لَكُنْ،
عَلَى عَذَابَاتِكَ الْكَيْسِيَّةِ، وَظَمَيْكَ الَّذِي لَا يَرْتَوِي،
وَقَوَارِيرِ الْحُبِّ الْمَلِيئَةِ بِقُلُوبِكَ الْعَظِيمَةِ!

الشَّقِيقَتَانِ الطَّيِّبَتَانِ

الْفُجُورُ وَالْمَوْتُ فَتَاتَانِ مَحْبُوبَتَانِ،
 سَخِيَّتَانِ بِالْقُبُلَاتِ عَامِرَتَانِ بِالْعَافِيَةِ،
 خَاصِرَتُهُمَا دَائِمًا عَذْرَاءُ وَتَكَتْسِي بِالْخَرَقِ
 وَتَحْتَ وَطْأَةِ الْعَمَلِ الْأَبْدِيِّ لَمْ تُنْجِبَا أَبَدًا.

وَبِالنَّسَبَةِ لِلشَّاعِرِ الْكَلْبِيِّ، عَدُوُّ الْعَائِلَةِ،
 نَدِيمِ الْجَجِيمِ، الْمُدَاهِنِ بِثَمَنِ بَخْسِ،
 فَالْقُبُورُ وَالْمَوَاحِشُ تَكْشِفُ تَحْتَ خِمَائِلِهَا
 سَرِيرًا لَمْ يَقْرَبْهُ النَّدَمُ أَبَدًا.

وَالْتَّابُوتُ وَالْفِرَاشُ الْخِصْبَانِ بِالتَّجْدِيفِ
 يُقَدِّمَانِ لَنَا، بِالتَّنَاوُبِ، كَشَقِيقَتَيْنِ طَيِّبَتَيْنِ،
 مَلَذَّاتٍ رَهِيْبَةً وَعُدُوبَةً مُرْعَبَةً.

فَمَتَى تُرِيدُ أَنْ تَدْفِنَنِي، أَيُّهَا الْفُجُورُ ذُو الذَّرَاعَيْنِ الْقَذِرَتَيْنِ؟
وَأَيُّهَا الْمَوْتُ، يَا غَرِيمَهُ فِي الْمَقَاتِنِ، مَتَى سَتَأْتِي
لِتَغْرِسَ سُرُوكَ الْأَسْوَدَ فِي رِيَا حِينِهِ الْكَرِيمَةِ؟

يَنْبُوعُ الدَّمِّ

يَبْدُو لِي أَحْيَانًا أَنَّ دَمِي يَنْسَابُ فِي مَوْجَاتِ،
 مِثْلَ يَنْبُوعٍ فِي دَفَقَاتِ إِيقَاعِيَّةِ.
 أَسْمَعُهُ جَيِّدًا مُنْسَابًا فِي غَمْغَمَةِ طَوِيلَةٍ،
 لَكِنِّي أَتَفَحَّصُ نَفْسِي عَبَثًا بَحْثًا عَنِ الْجُرْحِ.

عَبْرَ الْمَدِينَةِ، مِثْلَمَا فِي حَقْلِ مُسَيِّجٍ،
 يَمْضِي، فَيُحَوِّلُ أَحْجَارَ الرَّصْفِ إِلَى جُزُرٍ صَغِيرَةٍ،
 وَيَرْوِي ظَمَأَ كُلِّ الْكَائِنَاتِ،
 وَيُلَوِّنُ كُلَّ مَكَانٍ فِي الطَّبِيعَةِ بِالْأَحْمَرِ.

كَثِيرًا مَا طَلَبْتُ حُمُورًا قَوِيَّةَ
 لَتْنِيَمِ الرُّغْبِ الَّذِي يَأْكُلُنِي طَوَالَ يَوْمٍ؛
 فَالْحَمْرُ تَجْعَلُ الْعَيْنَ أَصْفَى وَالْأُذُنَ أَرْهَفَ!

بَحَثْتُ فِي الْحُبِّ عَنْ نَوْمٍ مَنَسِيٍّ؛
لَكِنَّ الْحُبَّ بِالنَّسْبَةِ لِي لَيْسَ سِوَى فِرَاشِ شَوْكٍ
صُنِعَ لِمَنْحِ شَرَابٍ إِلَى هَذِهِ الْفَتَيَاتِ الْقَاسِيَاتِ!

صُورَةُ رَمَزِيَّة

هِيَ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ وَذَاتُ عُنُقٍ حَافِلٍ،
 تَتْرُكُ شَعْرَهَا يَسْتَرْسِلُ فِي خَمَرِهَا.
 مَخَالِبُ الْحُبِّ، وَسُمُومُ الْبَيْتِ الْمَشْبُوهِ،
 تَنْزَلِقُ كُلُّهَا وَكُلُّهَا تَكِلُّ عَلَى جَرَائِنِ بَشَرَتِهَا.
 تَضْحَكُ لِلْمَوْتِ وَتَزْدَرِي الْفُجُورَ،
 هَذَيْنِ الْوَحْشَيْنِ اللَّذَيْنِ اخْتَرَمَتِ يَدَهُمَا،
 اللَّتَيْنِ تَكْشِطَانِ وَتَحْصُدَانِ دَائِمًا،
 فِي أَلْعَابِهِمَا الْمُدْمَرَةَ، مَعَ ذَلِكَ،
 الرَّوْعَةَ الْفُظَّةَ لِهَذَا الْجَسَدِ الرَّاسِخِ الْمُتَّصِبِ.
 تَمْشِي كَالِهَةٍ وَتَسْتَرْخِي كَسُلْطَانَةٍ،
 وَلَدَيْهَا إِيْمَانٌ مُحَمَّدِيٌّ بِاللَّذَّةِ،
 وَإِلَى ذِرَاعَيْهَا الْمَفْتُوحَتَيْنِ، الْمُمْتَلِئَتَيْنِ بِثُدْيَيْهَا،
 تَدْعُو بِعَيْنَيْهَا الْجِنْسَ الْبَشَرِيَّ.

تَعْتَقِدُ، تَعْرِفُ، هَذِهِ الْعَذْرَاءُ الْعَقِيمُ
الضَّرُورِيَّةُ مَعَ ذَلِكَ لِمَسِيرَةِ الْعَالَمِ،
أَنَّ جَمَالَ الْجَسَدِ هُوَ مَوْهَبَةٌ سَامِيَّةٌ
تَنْتَزِعُ الْغُفْرَانَ عَنْ أَيِّ عَارٍ.
تَجْهَلُ الْجَحِيمَ وَالْمَطْهَرَ،
وَعِنْدَمَا سَتَحِلُّ سَاعَةُ الدُّخُولِ فِي اللَّيْلِ الْأَسْوَدِ،
سَتَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ الْمَوْتِ،
مِثْلَ طِفْلِ وَلِيدٍ - بِلاَ كَرَاهِيَّةٍ وَلَا نَدَمٍ.

بياتريس

فِيمَا كُنْتُ أَشْكُو ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى الطَّبِيعَةِ،
 فِي أَرْضٍ مِنْ رَمَادٍ، مُحْتَرِقَةٍ، بِلاَ خُضْرَةٍ،
 وَإِذْ كُنْتُ أَشْحَذُ، بِلاَ هُدًى وَلَا بَصِيرَةٍ،
 خَنْجَرَ فِكْرِي بِطُءٍ عَلَى قَلْبِي،
 رَأَيْتُ فِي وَضْحِ النَّهَارِ غَيْمَةً قَاتِمَةً
 حُبْلَى بِعَاصِفَةٍ، تَحُطُّ عَلَى رَأْسِي،
 وَهِيَ تَحْمِلُ قَطِيعًا مِّنَ الشَّيَاطِينِ الْفَاجِرِينَ،
 شَبِيهِينَ بِأَفْزَامِ قَاسِينَ، غَرِيبِينَ.
 يَتَمَلُّونَ وَهُمْ يَتَأَمَّلُونَنِي بِرُودٍ،
 وَمِثْلَ مَارَّةٍ عَلَى شَخْصٍ أَبْلَهَ يَدُهُهُمْ،
 أَسْمَعُهُمْ يَضْحَكُونَ وَيَتَهَامِسُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ،
 مُتَبَادِلِينَ الْإِسَارَاتِ وَغَمَزَاتِ الْأَعْيُنِ:

- «فَلْتَتَأَمَّلُوا عَلَى مَهَلٍ هَذِهِ الصُّورَةَ الْهَزْلِيَّةَ،

طَيْفَ هَامِلَتِ هَذَا الَّذِي يُقَلِّدُ هَيْئَتَهُ،

النَّظْرَةُ حَائِزَةٌ وَالشَّعْرُ فِي الرِّيحِ.

الْأَنَسَ مُؤَسِّفًا أَنْ نَرَى هَذَا الشَّخْصَ الْمَرِحَ،

هَذَا الصُّغْلُوكَ، هَذَا الْبَهْلَوَانَ الْمُتَبَطِّلَ، هَذَا الْمُضْحِكَ،

لأنَّه يُجِيدُ بِصُورَةٍ فَنِيَّةٍ أَدَاءَ دَوْرِهِ،

يُرِيدُ بَغْنَاءِ أَلَامِهِ أَنْ يُسَلِّيَ

النُّسُورَ وَالْجَدَاجِدَ وَالْيَنَابِيعَ وَالزُّهُورَ،

بَلْ حَتَّى لَنَا، نَحْنُ مُؤَلَّفِي هَذِهِ الْخِدَعِ الْقَدِيمَةِ،

يُرْتُلُ عَاوِيَا خُطْبَةَ الْعَلَنِيَّةِ الْمُسَهَّبَةِ؟»

كَانَ بِمَقْدُورِي (وَكَبِيرَيَائِي بِأَرْتِفَاعِ الْجِبَالِ

يُشْرِفُ عَلَى الْعَيْمَةِ وَصُرَاخِ الشَّيَاطِينِ)

أَنْ أُدِيرَ رَأْسِي السَّامِيَّةَ بِبَسَاطَةٍ،

إِنْ لَمْ أَرَوْسَطَ قَطِيعِهِمُ الْفَاجِرَ،

جَرِيْمَةٌ لَمْ تَدْفَعْ الشَّمْسَ إِلَى التَّهَاوِي!

فَمَلِيكَةُ قَلْبِي ذَاتُ النَّظْرَةِ الْفَرِيدَةِ،

كَانَتْ تَضْحَكُ مَعَهُمْ مِنْ ضِيقِي الْكَتِيبِ

وَتَنْشُرُ عَلَيْهِمْ أَحْيَانًا بِضْعَ مُدَاعِبَاتٍ قَدْرَةٍ.

رحلة إلى سيثيريا

قَلْبِي، كَعُصْفُورٍ، كَانَ يُرْفِرُ فِي فَرْحٍ
وَيُحَلِّقُ حُرًّا حَوْلَ الْجِبَالِ؛
كَانَتْ السَّفِينَةُ تَنْسَابُ تَحْتَ سَمَاءٍ بِلاَ غُيُومٍ؛
كَمَلَاكِ سَكْرَانَ يَشْمُسُ سَاطِعَةً.

مَا هَذِهِ الْجَزِيرَةُ الْحَزِينَةُ الْقَاتِمَةُ؟ - هِيَ «سِيثِيرَا»^(١)،
كَمَا قَالُوا لَنَا، بَلَدٌ شَهِيرٌ فِي الْأَغَانِي،
إِلْدُورَادُو التَّافِهَةُ لِكُلِّ الصَّبَّانِ الْقِدَامَى.
انْظُرُوا، فَهِيَ - فِي النِّهَايَةِ - أَرْضٌ بَائِسَةٌ.

- جَزِيرَةُ الْأَسْرَارِ الْعَذْبَةِ وَأَعْيَادِ الْقَلْبِ!
مُنْذُ الْقِدَمِ وَ«فِينُوس» الطِّيفُ الرَّائِعُ
تُحَلِّقُ فَوْقَ بَحَارِهَا كَالْأَرِيحِ،

(١) جزيرة بجنوب اليونان، اشتهرت - في الآداب والفنون - باعتبارها بلد الحب والمتعة.

وَتُنْفَعُ النُّفُوسَ بِالْحُبِّ وَأَسْقَامِ الْعِشْقِ.

جَزِيرَةٌ جَمِيلَةٌ ذَاتُ رِيحَانٍ أَخْضَرَ، مَلِيَّةٌ بِزُهُورٍ مُتَفَتِّحَةٍ،
تُجَلِّهَا أَبَدًا جَمِيعُ الْأُمَمِ،
حَيْثُ آهَاتُ الْقَلْبِ فِي الْعِشْقِ
تَدُورُ كَالْبُخُورِ عَلَى حَدِيقَةٍ مِنْ زُهُورِ

أَوْ كَالْهَدِيلِ الْأَبَدِيِّ لِحِمَامَةٍ بَرَّةٍ!
- سَيِّثِيرِيَا لَيْسَتْ أَكْثَرُ مِنْ أَرْضٍ قَاحِلَةٍ،
صَحْرَاءُ صَخْرِيَّةٌ تُغْضُّهَا صَرَخَاتُ حَادَّةٍ.
لَكِنِّي مَعَ ذَلِكَ لَمَحْتُ شَيْئًا فَرِيدًا!

لَيْسَ مَعْبَدًا فِي ظِلَالِ الْأَخْرَاجِ،
حَيْثُ الْكَاهِنَةُ الشَّابَّةُ، عَاشِقَةُ الزُّهُورِ،
كَانَتْ تَمْضِي، وَالْجَسَدُ يَقُورُ بِالْأَسْرَارِ السَّاخِنَةِ
فَاتِحَةً ثَوْبَهَا لِلنِّسَائِمِ الْعَابِرَةِ؛

لَكِنْ فِيمَا كُنَّا نَسِيرُ بِحِذَاءِ الشَّاطِئِ الْقَرِيبِ
لِنَزْعِجِ الطُّيُورَ بِأَشْرَعَتِنَا الْبَيْضَاءِ،
رَأَيْنَا أَنَّهُ كَانَ مِشْنَقَةً بِثَلَاثِ أَذْرُعٍ،
مُنْفَصِلَةً بِالْأَسْوَدِ عَنِ السَّمَاءِ، مِثْلَ شَجَرَةٍ سَرُو.

طُيُورٌ جَارِحَةٌ جَائِمَةٌ عَلَى طَعَامِهَا
كَانَتْ تُدَمِّرُ بِاهْتِجَاجِ جُثْمَانٍ مَشْنُوقٍ نَاضِجٍ،
غَارِسًا - كُلُّ مِنْهُمْ - مِنْقَارَهُ الْمُملُوثَ، كَالَّةَ،
فِي كُلِّ الْأَرْكَانِ الدَّائِمَةِ مِنْ هَذَا الْعَفَنِ؛

كَانَتْ الْعَيْنَانِ تُقْبِصِينَ، وَمِنْ الْبَطْنِ الْمَبْقُورَةِ
كَانَتْ الْأَمْعَاءُ الثَّقِيلَةُ تَنْدَفِقُ عَلَى الْفَخْذَيْنِ،
وَجَلَّادُوه، الْمُتَخَمُّونَ بِمَلَذَّاتِ بَشَعَةٍ،
خَصَّوه تَمَامًا بِضَرْبَةٍ مِنْقَارٍ.

تَحْتَ الْأَقْدَامِ، قَطِيعٌ غَيْرُ مَنْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ،
وَالْخَطْمُ مَرْفُوعٌ، يَحُومُ وَيَطُوفُ؛
حَيَوَانٌ أَضْحَمُ كَانَ يَتَحَرَّكُ فِي الْوَسْطِ
مِثْلَ جَلَّادٍ مُحَاطٍ بِمُسَاعِدِيهِ.

أَيُّهَا الْقَاطِنُ «سِيثِيرِيَا»، يَا ابْنَ سَمَاءٍ رَائِعَةٍ،
فِي صَمْتٍ كُنْتُ تُعَانِي هَذِهِ الْإِهَانَاتِ
تَكْفِيرًا عَنْ مُعْتَقَدَاتِكَ الشَّائِنَةِ
وَأَثَامِ حَرَمَتِكَ مِنَ الْقَبْرِ.

أَيُّهَا الْمَشْنُونُ الْأَحْمَقُ، عَذَابَاتُكَ عَذَابَاتِي!
وَأَحْسُ، لَدَى رُؤْيَا أَعْصَاتِكَ الْمُتَمَاجَا،
بِالنَّهْرِ الطَّوِيلِ مِنْ مَرَارَةِ الْعَذَابَاتِ الْقَدِيمَةِ
يَعُودُ مِنْ جَدِيدٍ، مِثْلَ قِيٍّ، إِلَى قِيٍّ؛

أَمَامَكَ، أَيُّهَا الشَّيْطَانُ الْبَائِسُ ذُو الذِّكْرِ الْغَالِيَةِ،
أَحْسَنْتُ بِكُلِّ الْمَنَاقِيرِ وَكُلِّ الْأَفْوَاهِ
لِلْغَرْبَانِ الْوَاحِزَةِ وَالشُّمُورِ السَّوْدَاءِ
الَّتِي كَانَتْ تُحِبُّ كَثِيرًا فِي الْمَاضِي نَهَشَ لَحْمِي.

- السَّمَاءُ كَانَتْ سَاحِرَةً، وَالْبَحْرُ كَانَ سَوِيًّا؛
مَعَ ذَلِكَ، فَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ بِالنَّسْبَةِ لِي أَسْوَدَ دَمَوِيًّا؛
وَأَسْفَاهُ! فَكَفَنْتُ قَلْبِي فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الرَّمَزِيَّةِ
مِثْلَمَا فِي كَفَنِ كَثِيفٍ.

فِي جَزِيرَتِكَ، يَا «فِينوس»! لَمْ أَجِدْ شَيْئًا مُتَّصِبًا
غَيْرَ مِشْقَةٍ رَمَزِيَّةٍ شَقَّتْ صُورَتِي...
- آه! إِلَهِي! فَلْتَمْنَحْنِي الْقُوَّةَ وَالشَّجَاعَةَ
عَلَى تَأْمُلِ قَلْبِي وَجَسَدِي بِلَا اِشْمِئَاز!

الْحُبُّ وَالْجُمُحَةُ

قاعدة قنديل قديم

«كيوبيد» جَالِسٌ

عَلَى جُمُحَمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ،
وَعَلَى هَذَا الْعَرْشِ يَنْفُثُ الْمُسْتَهْتَرُ بِمَرَحٍ،
مَعَ الضَّحِكِ السَّفِيهِ،

فُقَاعَاتٍ مُسْتَدِيرَةٍ

تَتَصَاعَدُ فِي الْهَوَاءِ،
كَأَنَّمَا لَتَنْضَمَّ إِلَى الْعَوَالِمِ
فِي أَعْمَاقِ الْأَثِيرِ.

الْكُرَةُ الْمُضِيئَةُ وَالْهَشَّةُ

تَنْطَلِقُ بِقُوَّةٍ،
تَفْجَرُ وَتَبْصُقُ رُوحَهَا النَّجِيلَةَ
مِثْلَ حُلُمٍ ذَهَبِيٍّ.

أَسْمَعُ الْجُمُجُمَةَ، مَعَ كُلِّ فُقَاعَةٍ،
تَيْنُ وَتَوَسَّلُ:
- «هَذِهِ اللَّعْبَةُ الْوَحْشِيَّةُ الْبَلْهَاءُ،
مَتَى سَتَنْتَهِي؟

لَآنَ مَا يَنْشُرُهُ فِي الْهَوَاءِ
فَمَكَ الْقَاسِي،
أَيُّهَا الْوَحْشُ الْقَاتِلُ، هُوَ مُخِي،
وَدَمِي وَلَحْمِي!».

تَمَرْد

إنكار سَان - بَير

مَا الَّذِي يَفْعَلُهُ اللَّهُ إِذَنْ بِهِذِهِ الْمَوْجَةِ مِنَ اللَّعَنَاتِ
الَّتِي تَصَاعَدُ كُلُّ يَوْمٍ إِلَى مَلَائِكَتِهِ الْأَعْزَاءِ؟
كَطَاغِيَةِ مُتَخَمِّمِ اللَّحْمِ وَالْخَمْرِ،
يَغْفُو عَلَى الصَّخَبِ الْعَذْبِ لِتَجْدِيفِنَا الْمُرِيعِ.

أَنَا الشُّهَدَاءِ وَالْمُعَذِّبِينَ
هِيَ - بِلَا شَكٍّ - سَيَمْفُونِيَّةٌ مُسْكِرَةٌ،
طَالَمَا أَنَّ السَّمَاوَاتِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الدَّمِ الَّذِي تُكَلِّفُهُ شَهَوَاتُهَا،
لَمْ تُشَفِّ غَلِيلَهَا مِنْهُ بَعْدُ!

- آه! يَسُوعَ، فَلْتَتَذَكَّرْ حَدِيقَةَ الزَّيْتُونِ!
فَفِي بَسَاطَتِكَ صَلَّيْتُ رَاكِعًا
إِلَى مَنْ كَانَ فِي سَمَائِهِ يَضْحَكُ لِصَوْتِ الْمَسَامِيرِ
الَّتِي يَغْرِسُهَا جَلَادُونَ سَفَلَةٌ فِي لَحْمِكَ الْحَيِّ،

عِنْدَمَا رَأَيْتَهُ يَبْصُقُ عَلَى الْوَهْيَتِكَ
وَعِنْدَمَا الْحَرَّاسِ وَالْمَطَايِخِ،
وَعِنْدَمَا أَحْسَسْتَ بِالشَّوْكِ يَغُوصُ
فِي جُمُجُمَتِكَ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا الْإِنْسَانِيَّةُ الْهَائِلَةُ؛

وَالثَّقْلُ الرَّهيبُ لِحَسَدِكَ الْمُحْطَمِّ
عِنْدَمَا بَسَطَ ذِرَاعَيْكَ الْمَمْدُودَتَيْنِ،
فَسَالَ دَمُكَ وَعَرَقُكَ مِنْ جَبِينِكَ الشَّاحِبِ،
وَعِنْدَمَا وَضَعُوكَ هَدَفًا أَمَامَ الْجَمِيعِ،

أَحْلُمْتَ بِهَذِهِ الْأَيَّامِ الْمُشْرِقَةِ الْجَمِيلَةِ
عِنْدَمَا أَتَيْتَ لِتُحَقِّقَ الْوَعْدَ الْأَبَدِيَّ،
عِنْدَمَا وَطَأْتَ، وَأَنْتَ تَمْتَطِي حِمَارَةً رَفِيقَةً،
الزُّهُورَ وَالسَّعَفَ الْمُنْثُورَ فِي الطُّرُقَاتِ،

وَعِنْدَمَا، وَقَلْبُكَ مُفْعَمٌ بِالْأَمَلِ وَالشَّجَاعَةِ،
لَفَحْتَ بِالسَّوْطِ بِكُلِّ قُوَّتِكَ هَؤُلَاءِ التُّجَّارَ الْحُقَرَاءِ،
عِنْدَمَا كُنْتَ سَيِّدًا؟ أَلَمْ يَخْتَرِقِ النَّدَمُ
جَنْبَكَ قَبْلَ الْحَرْبَةِ بِكَثِيرٍ؟

- بِالتَّأْكِيدِ - بِالنَّسْبَةِ لِي - كُنْتُ سَأَرْحَلُ رَاضِيًا
مِنْ عَالَمٍ لَيْسَ الْفِعْلُ فِيهِ شَقِيقَ الْحُلْمِ؛
فَلَا أَسْتَخْدِمُ السَّيْفَ وَلَا أُمْتُ بِالسَّيْفِ!
«سَانِ بِيير» أَنْكَرَ يَسُوع... وَحَسَنًا فَعَلَ!

هَابِيلُ وَقَابِيلُ

(١)

يَا جِنْسَ هَابِيلَ، فَلْتَنَّمْ، وَلْتَشْرَبْ وَتَأْكُلْ؛
فَاللَّهُ يَبْتَسِمُ لَكَ عَنْ رِضَى.

يَا جِنْسَ قَابِيلَ، فِي الطِّينِ
فَلْتَرْحَفْ وَلْتَمُتْ فِي بُؤْسٍ.

يَا جِنْسَ هَابِيلَ، تَضْحِيَّتُكَ
تُدْغِدِغُ أَنْفَ الْمَلَائِكَةِ!

يَا جِنْسَ قَابِيلَ، أَلَنْ يَكُونُ
لِعَذَابِكَ نِهَآيَةٌ أَبَدًا؟

يَا جِنْسَ هَابِيلَ، فَلْتَرْبُذُورَكَ

وَقَطِّعَكَ يَنْمُونُ جَيْدًا؛

يَا جِنْسَ قَائِلَ، أَمْعَاؤُكَ
تَعْوِي مِنَ الْجُوعِ مِثْلَ كَلْبٍ عَجُوزٍ.

يَا جِنْسَ هَابِيلَ، فَلْتُدْفِئِ كِرْشَكَ
عَلَى نَارِكَ الْبَطْرِيرِ كَيْتَةً؛

يَا جِنْسَ قَائِلَ، فِي كَهْفِكَ
فَلْتَرْتَعِدْ مِنَ الْبَرْدِ، يَا ابْنَ آوَى الْبَائِسِ!

يَا جِنْسَ هَابِيلَ، فَلْتُجِبَّ وَلْتُكَاثِرْ!
فَحَتَّى ذَهَبَكَ يُنْجِبُ ذُرِّيَّةً.

يَا جِنْسَ قَائِلَ، وَالْقَلْبُ مُشْتَعِلٌ،
فَلْتَحْذَرْ مِنْ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْكُبْرَى.

يَا جِنْسَ هَابِيلَ، تَكْبُرُ وَتَنْمُو
مِثْلَ حَشَرَاتِ الْغَابَةِ!

يَا جِنْسَ قَائِلَ، عَلَى الطَّرِيقَاتِ
فَلْتُجَرِّجِرْ عَائِلَتَكَ إِلَى الْيَأْسِ.

(٢)

آه! يَا جِنْسَ هَايِلَ، جُنَّتْكَ
سَتُخْصِبُ الْأَرْضَ الْمُسْتَشِيْطَةَ!

يَا جِنْسَ قَايِلَ، مُهِمَّتْكَ
لَمْ تَتَحَقَّقْ بِصُورَةٍ مُرْضِيَةٍ؛

يَا جِنْسَ هَايِلَ، هَا هُوَ عَارُكَ:
النَّصْلُ انْهَزَمَ بِالْحَرْبَةِ!

يَا جِنْسَ قَايِلَ، فَلْتَصْعَدْ إِلَى السَّمَاءِ،
وَلْتَطِخْ بِالرَّبِّ إِلَى الْأَرْضِ!

ابتهالات الشَّيْطَان

يَا أَنْتَ، الْأَعْلَمُ وَالْأَجْمَلُ فِي الْمَلَائِكَةِ،
خَانَكَ الرَّبُّ بِفِعْلِ الْقَدَرِ وَحَرِمْتَ مِنَ الْمَدِيحِ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُسْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

يَا أَمِيرَ الْمَنْفَى، يَا مَنْ أُوذِيَ،
وَمَنْ تَنْتَصِبُ، عِنْدَ الْهَزِيمَةِ، أَفْوَى دَائِمًا،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُسْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

أَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْمَلِكُ الْعَظِيمُ لِلْأَشْيَاءِ الْخَفِيَّةِ،
الْبَارِئُ الْمَأْلُوفُ لِلْعَذَابَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُسْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

يَا مَنْ، حَتَّى لِلْمَجْدُومِينَ وَالْمُحْتَقِرِينَ الْمَلْعُونِينَ،
تُعَلِّمُ بِالْحُبِّ مَذَاقَ الْفِرْدَوْسِ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتَشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

يَا مَنْ مِنَ الْمَوْتِ، عَاشِقَكَ الْقَدِيمِ الْقَوِيَّ،
تَوَلَّدَ الْأَمَلُ، - ذَلِكَ الْأَبْلَةُ السَّاحِرُ!

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتَشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

أَنْتَ الَّذِي تَمْنَحُ الطَّرِيدَ تِلْكَ النَّظْرَةَ الْهَادِئَةَ الْمُتَرَفِّعَةَ
الَّتِي تَلْعَنُ الْحَشْدَ الْمُحِيطَ بِالْمِشْنَقَةِ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتَشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

أَنْتَ الَّذِي تَعْرِفُ فِي أَيِّ رُكْنٍ مِنَ الْأَرَاضِي الْحَاسِدَةَ
أَخْفَى الرَّبِّ الْغُيُورُ الْأَخْجَارَ الْكَرِيمَةَ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتَشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

يَا مَنْ عَيْنُهُ الْبَصِيرَةُ تَعْرِفُ التَّرْسَانَةَ الْعَمِيقَةَ

حَيْثُ يَرْقُدُ مَذْفُونًا شَعْبُ الْمَعَادِنِ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُوسَى الطَّوِيلِ!

يَا مَنْ يَدُهُ الضَّخْمَةُ تُخْفِي السَّقْفَةَ
عَنِ السَّائِرِ فِي نَوْمِهِ الضَّالِّ عَلَى حَاقَةِ الْمَبْنَى،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُوسَى الطَّوِيلِ!

أَنْتَ الَّذِي تُلَطِّفُ، بِصُورَةٍ سِحْرِيَّةٍ، الْعِظَامَ الْعَجُوزَ
لِلْمَخْمُورِ الْمُتَأَخِّرِ الَّذِي دَهَسَتْهُ الْخُيُولُ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُوسَى الطَّوِيلِ!

أَنْتَ الَّذِي تُعَلِّمُنَا مَزَجَ مِلْحِ الْبَارُودِ بِالْكِبْرِيتِ
مِنْ أَجْلِ التَّخْفِيفِ عَنِ الْإِنْسَانِ الْهَزِيلِ الْمُتَأَلِّمِ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُوسَى الطَّوِيلِ!

أَنْتَ الَّذِي تَضَعُ عَلَامَتَكَ، أَيُّهَا الْمُتَوَاطِيءُ الْبَارِعُ،
عَلَى جَبِينِ «كْرِيسُوس» الْوَعْدِ الْقَاسِيِ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُسْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

أَنْتَ الَّذِي تَضَعُ فِي عُيُونِ وَقُلُوبِ الْفَتَيَاتِ
الْإِيمَانَ بِالْجَرْحِ وَحُبَّ الْخِرَقِ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُسْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

يَا عُكَازَ الْمَنْفِيِّينَ، وَمَصْبَاحَ الْمُخْتَرِعِينَ،
نَجِّي الْمَشْنُوقِينَ وَالْمُتَأَمِّرِينَ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُسْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

أَنْتَ الْأَبُّ الْمُخْتَارُ لِمَنْ طَرَدَهُمُ الْأَبُ الرَّبُّ
فِي سُورَةِ غَضَبِهِ مِنَ الْفِرْدَوْسِ الْأَرْضِيِّ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُسْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيلِ!

صَلَاة

الْمَجْدُ وَالشَّائِلُ لَكَ، أَيُّهَا الشَّيْطَانُ،
فِي أَعَالِي السَّمَاءِ، حَيْثُ هَيَمَنْتَ،

وَفِي أَعْمَاقِ الْجَحِيمِ، حَيْثُ تَحْلُمُ، مَهْزُومًا، فِي صَمْتٍ!
فَلْتَوَمِّنْ لِرُوحِي أَنْ تَرْقُدَ بِجَانِبِكَ،
ذَاتَ يَوْمٍ، تَحْتَ شَجَرَةِ الْمَعْرِفَةِ، سَاعَةً أَنْ تُمَدَّ أَغْصَانُهَا
عَلَى جَبِينِكَ مِثْلَمَا عَلَى مَعْبِدٍ جَدِيدٍ!

المَوْت

مَوْتُ الْمُحِبِّينَ

مَسْكُونٌ لَنَا أَسْرَةٌ مُفَعَّمَةٌ بِالْأَرِيحِ الطَّفِيفِ،
وَأَرَائِكَ غَائِرَةً كَالْقُبُورِ،
وَزُهُورٌ غَرِيبَةٌ عَلَى الرَّفُوفِ،
تَتَفَتَّحُ مِنْ أَجْلِنا تَحْتَ سَمَواتٍ أَجْمَلِ.

مُتَنَافِسِينَ فِي اسْتِهْلَاكِ حَرَارَتِهِمَا الْأَخِيرَةِ،
سَيُضْبِحُ قُلُوبَانَا شُعْلَتَيْنِ شَاسِعَتَيْنِ،
تَعْكِسَانِ أَضْوَاءَهُمَا الْمُرْدُودَةَ
فِي رُوحَيْنَا، الْمِرَاتَيْنِ الشَّقِيقَتَيْنِ.

وَذَاتَ مَسَاءٍ مَجْبُولٍ مِنَ الْوَرْدِيِّ وَالْأَزْرَقِ الرُّوحِيِّ،
سَتَتَبَادَلُ وَمُضَّةَ بَرْقٍ وَجِيدَةٍ،
مِثْلَ آهَةٍ طَوِيلَةٍ، تَفِيضُ بِالْوَدَاعِ؛

وَفِيمَا بَعْدُ، سَيَأْتِي مَلَاكُ، فِيمَا يَفْتَحُ الْأَبْوَابَ،
لِيُحْيِيَ، فِي إِخْلَاصٍ وَابْتِهَاجٍ،
الْمَرَايَا الْكَامِدَةَ وَالشُّعْلَاتِ الْخَامِدَةَ.

مَوْتُ الْفُقَرَاءِ

هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي يُعْزِّي، وَاسْفَاهُ! وَيَمْنَحُ الْحَيَاةَ؛
هُوَ غَايَةُ الْحَيَاةِ، وَهُوَ الْأَمَلُ الْوَحِيدُ
الَّذِي يُبِيرُنَا وَيُسْكِرُنَا، مِثْلَ إِكْسِيرِ،
وَيَمْنَحُنَا الْحَمِيَّةَ عَلَى الْمَسِيرِ حَتَّى الْمَسَاءِ؛

خِلَالَ الْعَاصِفَةِ، وَالثَّلُوجِ، وَالْجَلِيدِ،
هُوَ الضِّيَاءُ الْمُرْتَعِشُ فِي أَفْقِنَا الْمُظْلِمِ؛
هُوَ الْفُنْدُقُ الشَّهِيرُ الْمَرْسُومُ عَلَى الْكِتَابِ،
حَيْثُ يُمَكِّنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَأْكُلَ، وَيَنَامَ، وَيَجْلِسَ؛

هُوَ مَلَاكٌ يُمَسِّكُ بِأَصَابِعِهِ الْمَغْنَطِيسِيَّةِ
النَّوْمَ وَمَوْهَبَةَ الْأَحْلَامِ الْمُنْذِهْلَةَ،
وَيُعِيدُ صُنْعَ سَرِيرِ الْفُقَرَاءِ وَالْعَرَايَا؛

هُوَ مَجْدُ الْإِلَهِ، وَمَخْزَنُ الْغَلَالِ الرُّوحِيّ،
هُوَ كَيْسُ نُقُودِ الْفَقِيرِ وَمَوْطِنُهُ الْقَدِيمُ،
هُوَ الرُّوَّاقُ الْمَفْتُوحُ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَجْهُولَةِ!

مَوْتُ الضَّانِّينَ

كَمْ مِنْ مَرَّةٍ يَنْبَغِي أَنْ أَهْزَأَ أَجْرَاسِي الصَّغِيرَةَ
وَأَقْبَلَ جَبِينَكَ الْوَضِيعَ، أَيُّهَا الرَّسْمُ الْكُتَيْبُ؟
لَأُصِيبَ الْهَدَفَ، ذَا الطَّبِيعَةِ الْمَجَازِيَّةِ،
كَمْ أَفْقِدُ، يَا جُعْبَتِي، مِنْ رِمَاحٍ؟

نَسْتَنْزِفُ رُوحَنَا فِي دَسَائِسِ بَارِعَةٍ،
وَنَهْدِمُ الْكَثِيرَ مِنَ الْهَيَاكِلِ الثَّقِيلَةِ،
قَبْلَ تَأْمُلِ الْكَائِنِ الْعَظِيمِ
الَّذِي تُفْعِمُنَا رَغْبَتَهُ الْجَهَنَّمِيَّةُ بِالنَّحِيبِ!

هُنَاكَ مَنْ لَمْ يَعْرِفُوا أَبَدًا مَعْبُودَهُمْ،
وَهُؤُلَاءِ النَّحَّاتُونَ الْمَلْعُونُونَ الْمُؤَسُّمُونَ بِالْعَارِ،
الَّذِينَ يَمْضُونَ فِي طَرِيقِ صُدُورِهِمْ وَجِبَاهِهِمْ،

لَيْسَ لَدَيْهِمْ إِلَّا أَمَلٌ وَحِيدٌ، «كَابِتُول»^(١) غَرِيبَةٌ وَقَاتِمَةٌ!
هُوَ الْمَوْتُ، الَّذِي يُحَوِّمُ مِثْلَ شَمْسٍ جَدِيدَةٍ،
مَا سَيَدْفَعُ أَزْهَارَ عُقُولِهِمْ إِلَى التَّفَتُّحِ!

(١) أحد تلال روما السبعة، حيثُ كان الجنرالات المنتصرون يصعدون بعد انتهاء المعركة.

نَهَايَةُ النَّهَارِ

تَحْتَ ضِيَاءِ شَاخِبٍ
 تَرْكُضُ وَتَرْقُضُ وَتَتَلَوَّى بِلَا سَبَبٍ
 الْحَيَاةُ، صَفِيقَةٌ صَاحِبَةٌ.
 وَأَيْضًا، مَا إِنْ يَرْتَقِي

اللَّيْلُ الشَّهَوَانِيُّ الْأَفْقُ،
 مُشْبَعًا كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْجُوعُ،
 مَا حِيَا كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْعَارُ،
 حَتَّى يَقُولَ الشَّاعِرُ لِنَفْسِهِ: «أَخِيرًا!»

رُوحِي، شَأْنٌ فَقَرَاتِي،
 تَلْتَمِسُ بِلَهْفَةٍ الرَّاحَةَ؛
 وَالْقَلْبُ مُفْعَمٌ بِالْخَوَاطِرِ الْكَيْبِيَّةِ،

أَمْضِي لَأَنَامَ عَلَى ظَهْرِي
وَأَلْتَفَّ فِي سَتَائِرِكَ،
أَيُّهَا الظُّلُمَاتُ الْمُنْعِشَةُ!»

حُلمُ شَخْصِ فُضُولِي

(١) إلى ف. ن.

أَتَعْرِفُ، مِثْلِي، الْأَلَمَ الْعَذْبَ،
وَتَجْعَلُ الْآخَرِينَ يَقُولُونَ عَنْكَ: «آه! يَا لَلرَّجُلِ الْفَرِيدِ!»
- كُنْتُ أَمْضِي إِلَى الْمَوْتِ. وَفِي رُوحِي الْعَاشِقَةِ،
شَهْوَةٌ مَمْرُوجَةٌ بِالرُّعْبِ، مَرَضٌ خُصُوصِي؛

عَذَابٌ وَأَمَلٌ حَيٌّ، بِلَا مِزَاجٍ مُتَمَرِّدٍ.
وَكُلَّمَا كَانَتْ السَّاعَةُ الرَّمْلِيَّةُ الْمَشْتُومَةُ تُفْرِغُ نَفْسَهَا،
كَانَ عَذَابِي يَزْدَادُ سَرَّاسَةً وَعُدُوبَةً؛
وَكَانَ قَلْبِي يَنْقَطِعُ عَنِ الْعَالَمِ الْعَادِيِّ.

كُنْتُ كَالطُّفْلِ الشَّرِّهِ لِلاِسْتِعْرَاضَاتِ،
الْكَارِهِ لِلِسِتَارَةِ كَمَنْ يَكْرَهُ الْحَاجِزَ...
أَخِيرًا تَكَشَّفَتِ الْحَقِيقَةُ الْبَارِدَةُ:

(١) هو فيليب نادار، المصور الفوتوغرافي الشهير في حقبة «بودلير»، وصديقه.

كُنْتُ مَيِّتًا بِلَا مُفَاجَأَةٍ، وَالْفَجْرُ الرَّهِيْبُ
كَانَ يَلْفُنِي . - وَمَاذَا! أَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ؟
كَانَتِ السَّتَّارَةُ قَدْ رُفِعَتْ وَكُنْتُ مَا أَرَا أُنْتَظِرُ .

الرحلة

إلى مكسيم دي كام^(١)

(١)

بِالنَّسَبَةِ لِلطُّفْلِ، الْمُحِبِّ لِلْخَرَائِطِ وَالنُّقُوشِ،
فَالْكُونُ مُعَادِلٌ لِشَهِيَّتِهِ الْوَاسِعَةِ.

أَهْ! كَمْ الْعَالَمُ كَبِيرٌ عَلَى ضَوْءِ الْمَصَائِيحِ!
وَفِي عُيُونِ الذِّكْرِى كَمْ هُوَ صَغِيرٌ!

ذَاتَ صَبَاحٍ نَزَحَلُ، وَالرَّأْسُ مُفَعَّمَةٌ بِاللَّهْيَبِ،
وَالْقَلْبُ مَغْمُومٌ بِالضَّغِينَةِ وَالرَّغَبَاتِ الْمَرِيرَةِ،
وَنَمْضِي، مُقْتَفِينَ إِبْقَاعَ الْمَوْجِ،
مُهْدِهْدِينَ لَا نِهَائِيَّتَنَا عَلَى نِهَائِيَّةِ الْبَحَارِ:

الْبَعْضُ مُبْتَهْجُونَ بِالْإِبْتِعَادِ عَنْ مَوْطِنِ كَرِيهِ؛

(١) كاتبٌ وصحفيٌّ، صديق «البودلير»، له كتاباتٌ في أدب الرحلات.

آخِرُونَ، عَنْ رُغْبٍ مِهَادِهِمْ، وَبَعْضُ آخِرِ،
مُنْجَمُونَ عَرَفُوا فِي عُيُونِ امْرَأَةٍ،
سِيرِسِيهِ^(١) الطَّاعِيَةِ ذَاتِ الْعُطُورِ الْخَطِرَةِ.

وَحَتَّى لَا يَتَحَوَّلُوا إِلَى حَيَوَانَاتٍ، يَسْكُرُونَ
بِالْفَضَاءِ وَالضِّيَاءِ وَالسَّمَاوَاتِ الْمُشْتَعِلَةِ؛
وَالْتَلَجَ الَّذِي يَتَاكَلُهُمْ، وَالشُّمُوسُ الَّتِي تُلَوِّثُهُمْ بِالنُّحَاسِي،
تَمَحُّو بِبُطْءٍ عِلَامَاتِ الْقُبُلَاتِ.

لَكِنَّ الرَّحَالََةَ الْحَقِيقِيَّينَ هُمُ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَرْتَحِلُونَ
مِنْ أَجْلِ الْإِرْتِحَالِ؛ بِقُلُوبٍ خَفِيفَةٍ، شَبِيهَةٍ بِالْبَالُونَاتِ،
لَا يَتَعَدُّونَ أَبَدًا عَنْ قَدَرِهِمْ،
وَبِدُونِ مَعْرِفَةِ السَّبَبِ، دَائِمًا مَا يَقُولُونَ: هَيَّا!

أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَّخِذُ رَعَبَاتُهُمْ شَكْلَ الْغُيُومِ،
وَيَحْلُمُونَ، كَأَحَدِ مُجَنِّدِي الْمَدْفَعِيَّةِ،
بِشَهَوَاتٍ شَاسِعَةٍ، مُتَغَيِّرَةٍ، مَجْهُولَةٍ،
لَمْ يَعْرِفِ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي لَهَا اسْمًا أَبَدًا!

(٢)

نَحْنُ نُقَلِّدُ، أَيُّهَا الرُّغْبُ! لُغَةَ الدَّوَامَةِ وَالْكُرَةِ

(١) ساحرة «الأوديسا» التي حوّلت رفاق عوليس إلى حيوانات، قبل أن تعيدهم إلى حالتهم الأولى.

فِي رَقَصَتِهِمَا وَقَفَزَاتِهِمَا؛ فَحَتَّى فِي نَوْمِنَا
يُعَذِّبُنَا وَيَطْوِينَا الْفُضُول،
مِثْلَ مَلَائِكٍ قَاسٍ جَلَدَتْهُ الشُّمُوسُ.

مَصِيرٌ فَرِيدٌ فِيهِ تَبَدَّلُ الْغَايَةِ،
وَطَالَمَا أَتْنَا فِي لَامَكَانَ، فَرَبَّمَا فِي أَيِّ مَكَانٍ!
حَيْثُ الْإِنْسَانُ، الَّذِي لَا يَكِلُ أَمْلُهُ أَبَدًا،
يَرْكُضُ دَائِمًا مِثْلَ مَجْنُونٍ بَحْثًا عَنِ الرَّاحَةِ!

رُوحُنَا ثُلَاثِيَّةُ الصَّوَارِي بَاحِثَةٌ عَنِ إِيكَارِي^(١)؛
صَوْتُ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْجِسْرِ: «فَلْتَفْتَحِ الْعَيْنُ!»
صَوْتُ مِنْ قَاعِدَةِ الصَّارِي، مُتَوَقِّدٌ وَمَجْنُونٌ، يَصْرُخُ:
«الْحُبُّ.. الْمَجْدُ.. السَّعَادَةُ!» الْجَجِيمُ! صُخُورُ!

كُلُّ جَزِيرَةٍ أَشَارَتْ مِنْ طَرَفٍ رَجُلٍ الْمُرَاقِبَةِ
هِيَ «الدُّورَادُو» مَوْعُودَةٌ مِنَ الْقَدَرِ؛
وَالْخَيَالُ الَّذِي يَنْصَبُ عَرَبَدَتَهُ

(١) إشارة إلى «إيكاري»، المدينة الطوباوية التي دار حولها كتاب «رحلة إلى إيكاري»، «لإيتين كاييه»، مُنظَرُ
الشيوعية الطوباوية، حيث عَرَفَ الكتاب نجاحًا كبيرًا لدى صدوره عام ١٨٤٠

لَا يَجِدُ سِوَى صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ فِي ضَوْءِ الصَّبَاحِ.

يَا لِلْعَاشِقِ الْبَائِسِ لِلْبُلْدَانِ الْخَيَالِيَّةِ!
أَبْنَعِي وَضَعُهُ فِي الْحَدِيدِ، أَمْ رَمَيْهِ فِي الْبَحْرِ،
هَذَا الْبَحَّارِ الْمَخْمُورِ، مُخْتَرِعِ الْأَمْرِيكَاتِ
الَّذِي يَزِيدُ وَهُمْهُ اللَّجَّةَ مَرَارَةً؟

هَكَذَا الْمُتَشَرِّدُ الْعَجُوزُ، السَّائِرُ فِي الْأَوْحَالِ،
يَحْلُمُ، وَأَنْفُهُ شَامِخَةٌ، بِفَرَادِيسَ رَائِعَةٍ؛
عَيْنُهُ الْمَسْحُورَةُ تَكْتَشِفُ «كَأَبُو»^(١)
فِي كُلِّ مَكَانٍ تُضِيءُ فِيهِ شَمْعَةٌ كُوخًا.

(٣)

أَيُّهَا الرَّحَالَةُ الْمُدْهَشُونَ! آيَةُ حِكَايَاتِ نَبِيلَةٍ
تَقْرَأُهَا فِي عُيُونِكُمُ الْغَائِرَةِ مِثْلَ الْبَحَّارِ!
فَلْتَعْرِضُوا لَنَا جَوَاهِرَ ذِكْرِيَاتِكُمُ الثَّرِيَّةِ،
هَذِهِ الْحُلِيِّ الرَّائِعَةِ، الْمَجْبُولَةِ مِنْ نُجُومٍ وَأَثَرٍ.

نُرِيدُ السَّفَرَ بِلاَ بُخَارٍ وَلَا شِرَاعٍ!

(١) مدينة إيطالية قديمة اشتهرت بالملذات، على عصر «هانيبال».

وَلَا يَنْهَاجُ ضَجْرُ سُجُونِنَا،
فَلْتَمَرَّ عَلَى أَرْوَاحِنَا، الْمَبْسُوطَةِ كَالْقَمَاشِ،
ذِكْرِيَاتِكُمْ الَّتِي تُؤْطِرُهَا الْأَفَاقُ.

فَلْتَقُولُوا، مَاذَا رَأَيْتُمْ؟

(٤)

«رَأَيْنَا نُجُومًا

وَأَمْوَاجًا؛ رَأَيْنَا أَيْضًا رِمَالًا؛
رَغَمَ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّدَمَاتِ وَالْكَوَارِثِ الْمُفَاجِئَةِ،
فَكَثِيرًا مَا أَصَابَنَا الضَّجَرُ، كَمَا هُنَا.

مَجْدُ الشَّمْسِ عَلَى الْبَحْرِ الْبَنَفْسَجِي،
مَجْدُ الْمُدُنِ فِي الشَّمْسِ الْغَارِبَةِ،
كَانَ يُشْعِلُ فِي قُلُوبِنَا سُوقًا مُتَقِدًّا
لِلْغُوصِ فِي سَمَاءِ ذَاتِ انْعِكَاسَاتٍ فَائِنَةٍ.

الْمُدُنُ الْأَعْنَى، الْمَشَاهِدُ الطَّبِيعِيَّةُ الْأَعْظَمُ،
لَمْ تَكُنْ لَهَا أَبَدًا الْجَازِيَّةُ الْغَامِضَةُ
لِتِلْكَ الَّتِي صَنَعَتْهَا الصُّدْفَةُ بِالْغُيُومِ.
وَدَائِمًا مَا تَدْفَعُنَا الرِّغْبَةَ إِلَى الْقَلَقِ!

- وَالْمُنْعَةُ تَمْنَحُ الرَّغْبَةَ قُوَّةً،

الرَّغْبَةُ، تِلْكَ الشَّجَرَةُ الْقَدِيمَةُ الَّتِي تَسْتَخْدِمُ اللَّذَّةَ كَسِمَادٍ،
فَحَتَّى لَوْ كَانَ لِحَاوُكٍ يَزْدَادُ سُمْكًا وَيَجِفُّ،
فَأَغْصَانُكَ تُرِيدُ رُؤْيَا الشَّمْسِ عَنْ قُرْبٍ أَكْبَرَ!
أَسْتَكْبِرِينَ دَائِمًا، أَيُّهَا الشَّجَرَةُ الْعَظِيمَةُ الْأَكْثَرُ رُسُوحًا
مِنَ السَّرْوِ؟ - مَعَ ذَلِكَ جَمَعْنَا، بِعِنَايَةٍ،
بَعْضَ التَّخْطِيطَاتِ لِأَكْبَرِكُمْ الشَّرِّهِ،
أَيُّهَا الْأَشِقَاءُ الَّذِينَ يَرَوْنَ كُلَّ مَا يَأْتِي مِنَ الْبَعِيدِ جَمِيلًا تَمَامًا!

قَدَمْنَا التَّحِيَّةَ لِمَعْبُودَاتِ ذَاتِ خَرَاطِيمٍ أَفْيَالٍ؛
لِعُرُوشِ مُزَيَّنَةٍ بِجَوَاهِرٍ وَامْضَةٍ؛
لِقُصُورٍ مُتَقَنَةٍ سَتَكُونُ عَظَمَتُهَا الْخُرَافِيَّةُ
حُلْمًا مُدْمَرًا لِرِجَالِ بُنُوكُمْ؛

مَلَائِسُ تُمَثِّلُ سُكْرًا لِلْعِيُونِ؛
نِسَاءً أَسْنَانُهُنَّ وَأَظَافِرُهُنَّ مَلَوْنَةٌ،
وَحُكَمَاءُ مُشْعَوِذُونَ تُدَاعِبُهُمُ الْأَفْعَى.

(٥)

وَمَاذَا، مَاذَا أَيْضًا؟

(٦)

«أَيُّهَا الْعُقُولُ الطُّفُولِيَّةُ!

حَتَّى لَا نَنْسَى الشَّيْءَ الْأَسَاسِيَّ،
رَأَيْنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَدُونَ الْبَحْثِ عَنْهُ،
مِنْ أَعْلَى حَتَّى أَسْفَلِ السُّلَمِ الْقَاتِلِ،
الْمُشْهَدَ الْمُمِلَّ لِلْفُجْرِ الْأَبْدِيِّ:

الْمَرْأَةُ، الْعَبْدُ الدُّنْيَا، الْمُتَعَجِّرُ الرَّعْنَاءُ،
الْعَابِدَةُ لِنَفْسِهَا بِلَا صَحِيحِ الْعَاشِقَةِ لِنَفْسِهَا بِلَا تَقَرُّزٍ؛
وَالرَّجُلُ، الطَّاعِيَةُ النَّهْمُ، الدَّاعِرُ، الْقَاسِي وَالْجَشِعُ،
عَبْدُ الْعَبْدِ وَسَيْلٌ مِنَ الْقَدَارَةِ؛

الْجَلَادُ الْمُسْتَمْتِعُ، وَالصَّحِيَّةُ الْمُتَأَوُّةُ،
الْحَفْلُ الْمَتَبَّلُ وَالْمُعْطَرُّ بِالدَّمِ؛
سُمُّ السُّلْطَةِ الَّذِي يُوهِنُ الطَّاعِيَةَ،
وَالشَّعْبُ الْعَاشِقُ لِلْسُّوْطِ الْمُتَوَحَّشِ؛

أَدْيَانُ كَثِيرَةٌ مُشَابِهَةٌ لِدِينِنَا،
كُلُّهَا يَرْتَقِي إِلَى السَّمَاءِ؛ وَالْقَدَاسَةُ،
مِثْلَمَا فِي فِرَاشٍ مِنْ رِيشٍ يَتَمَرَّغُ شَخْصٌ مُرْهَفٍ،
تَبَحُّثٌ فِي الْمَسَامِيرِ وَعُرْفِ الْعُنُقِ عَنِ اللَّذَّةِ؛

وَالْإِنْسَانِيَّةُ الثَّرَاوَةُ، سَكْرَى بِعَبْقَرِيَّتِهَا، وَحَمَقَاءُ،
الآنَ كَمَا كَانَتْ فِي الْمَاضِي،
تَصْرُخُ إِلَى اللَّهِ، فِي عَذَابِهَا الرَّهِيبِ:
«يَا قَرِيبِي، يَا سَيِّدِي، إِنِّي أَلْعَنُكَ!»

وَأَقْلَ عُشَاقِ الْجُنُونِ غَبَاءً، وَجُرَآءً،
يَتْرُكُونَ الْقَطِيعَ الْعَظِيمَ فِي حَظِيرَةِ الْقَدَرِ،
وَيَجِدُونَ مَلْجَأَهُمْ فِي الْأَفْيُونِ الْهَائِلِ!
- هَكَذَا هُوَ التَّقْرِيرُ الْأَبَدِيُّ عَنِ الْكَوْنِ الْخَارِجِيِّ.

(٧)

مَعْرِفَةُ مَرِيرَةٍ، تِلْكَ الَّتِي يَسْتَمِدُّهَا الْمَرْءُ مِنَ السَّفَرِ!
فَالْعَالَمُ، الرَّتِيبُ وَالصَّنْعِيُّ، الْيَوْمَ،
يُرِينَا صُورَتَنَا بِالْأَمْسِ، وَعَدًّا، وَدَائِمًا:
وَاحَةً مِنَ الرُّعْبِ فِي صَحْرَاءٍ مِنَ الضُّجَرِ!

أَيَنْبَغِي الرَّحِيلُ؟ أَمْ الْبَقَاءُ؟ إِنْ اسْتَطَعْتَ الْبَقَاءَ، فَلْتَبْقَ؛
وَلْتَرَحَّلْ، إِنْ كَانَ ضَرُورِيًّا. أَحَدُهُمْ يَرْكُضُ، وَالْآخَرُ يَكْمُنُ
لِمُخَادَعَةِ الْعَدُوِّ الْيَقِظِ الْمُمِيتِ،
الزَّمَنُ! هُنَاكَ، وَأَسْفَاهُ! الرَّاكِضُونَ بِلَا هَوَادَةَ،

مِثْلَ الْيَهُودِيِّ التَّائِبِ وَمِثْلَ الْحَوَارِيِّينَ،
الَّذِينَ لَا يَكْفِيهِمْ شَيْءٌ، لَا عَرَبِيَّةٌ وَلَا سَفِينَةٌ،
لِلْهَرَبِ مِنْ هَذَا الْمُصَارَعِ الدَّنِيِّ؛ وَهُنَاكَ آخَرُونَ
يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَقْتُلُونَ دُونَ مُبَارَحَةِ مَهْدِهِمْ.

وَحِينَمَا سَيَضَعُ فِي النَّهَائِيَةِ قَدَمَهُ عَلَى عَمُودِنَا الْفَقْرِيِّ،
سَنَمْلِكُ الْأَمَلَ وَنَصِيح: إِلَى الْأَمَامِ!
وَمِثْلَمَا فِيمَا مَضَى رَحَلْنَا إِلَى الصَّيْنِ،
وَالْعُيُونُ مُحَدِّقَةٌ فِي الْبَحْرِ وَالشَّعْرُ فِي الرِّيحِ،

سَنُقْلِعُ عَلَى بَحْرِ الظُّلُمَاتِ
بِقَلْبٍ مُبْتَهِجٍ لِمُسَافِرٍ شَابٍ.
فَلْتَنْصِتُوا إِلَى هَذِهِ الْأَصْوَاتِ، السَّاحِرَةِ الْجَنَائِزِيَّةِ،
الَّتِي تُغْنِي: «مِنْ هُنَا! يَا مَنْ تُرِيدُونَ

أَكْلَ اللُّوتْسِ الْمُعَطَّرِ! فَهَذَا نَجْنِي
الْفَوَاكِهَ الْإِعْجَازِيَّةَ الَّتِي يَجُوعُ لَهَا قَلْبُكُمْ؛
تَعَالَوْا اسْكُرُوا بِالْعُدُوبَةِ الْغَرِيبَةِ
لِهَذَا الْأَصِيلِ الَّذِي لَا يَنْتَهِي أَبَدًا!»

مِنَ النَّبَرَةِ الْمَعْهُودَةِ نَكْشِفُ الطَّيْفَ؛
هُنَاكَ صَدِيقُنَا بِيْلَادٌ^(١) يَمُدُّ ذِرَاعَيْهِ لَنَا.
«لِإِنْعَاشِ قَلْبِكَ فَلْتَسْبِحْ إِلَى حَبِيبَتِكَ إِلَيْكَتَرَا!»
ذَلِكَ مَا تَقُولُهُ مَنْ قَبْلُنَا رُكِبَتْ فِيهَا فِي الْمَاضِي.

٨

أَيُّهَا الْمَوْتُ، أَيُّهَا الْقَبْطَانُ الْعَجُوزُ، هُوَ الْوَقْتُ! فَلْتَرَفَعْ الْمِرْسَاة!
هَذِهِ الْبِلَادُ تُضْجِرُنَا، أَيُّهَا الْمَوْتُ! فَلْتُبْجِر!
فَإِذَا مَا كَانَتْ السَّمَاءُ وَالْبَحْرُ سَوْدَاوَيْنِ كَالْحَبْرِ،
فَقُلُوبُنَا الَّتِي تَعْرِفُهَا مَلِيئَةٌ بِالْأَشْعَةِ!

فَلْتَسْكُبْ لَنَا سُمَّكَ لِيُنْعِشَنَا!
فَنَحْنُ نُرِيدُ، وَهَذِهِ النَّارُ تُحْرِقُ عُقُولَنَا،
أَنْ نَغُوصَ فِي قَاعِ الْهََاوِيَةِ، أَوِ الْجَحِيمِ، مَا الْفَرْقُ؟
فِي قَاعِ الْمَجْهُولِ لِنَعْتُرَ عَلَى الْجَدِيدِ!

(١) صديق، وابن عم «أوريست».

البَقَايَا

(١٨٦٦)



غلاف الطبعة الأولى من « البقايا » لبودلير

تنبيه من الناشر

هذا الديوان مؤلَّف من مقطوعات شعرية معظمها مُدانٌ أو غير منشور، والتي لم يعتقد السيد «شارل بودلير» أنه من الضروريّ ضمّها إلى الطبعة النهائيّة من «أزهار لشرّ».

وذلك ما يفسّر عنوانها.

وقد قدّم السيد «شارل بودلير» هذه القصائد منحةً - بلا تحفظ - إلى صديق قرّر نشرها، لأنه يأمل في الاستمتاع بها، ولأنه في سنٍّ يحب المرء فيه مشاركة أحاسيسه مع أصدقائه الذين يُضفي عليهم فضائله.

وسيكون الناشر، في الوقت نفسه، متبهاً - فيما يتعلق بهذه الطبعة - للمائتين وستين قراءة المحتمّلة، والتي تمثل تقريباً - لناشرها التطوعي - الجمهور الأدبيّ في فرنسا، طالما أن الحيوانات قد اغتصبت عن عمد الكلام عن البشر.

غُرُوبُ الشَّمْسِ الرُّومَانِيكِية

كَمْ الشَّمْسُ جَمِيلَةٌ عِنْدَمَا تُشْرِقُ غَضَّةً تَمَامًا،
وَتُطْلِقُ إِلَيْنَا نَجِيَّةَ الصَّبَاحِ مِثْلَ انْفِجَارِ!
- سَعِيدٌ ذَلِكَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ بِحُبٍّ
نَجِيَّةَ غُرُوبِهَا الْأَرْوَاحَ مِنْ حُلْمٍ!

أَتَذَكَّرُ! ... رَأَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ، الزَّهْرَةَ، وَالتَّبَعِ، وَالْأُخْدُودَ،
وَهُوَ يَتَفَتَّحُ تَحْتَ عَيْنَيْهَا مِثْلَ قَلْبٍ يَخْفِقُ...
- فَلَنَرُكُضْ إِلَى الْأَفْقِ، تَأَخَّرَ الْوَقْتُ! فَلَنَرُكُضْ بِسُرْعَةٍ،
لِنَلْتَقِطَ عَلَى الْأَقْلِ شُعَاعًا مَائِلًا!

لَكِنِّي أَقْتَنِي سُدَى الْإِلَهِ الرَّاحِلِ،
فَاللَّيْلُ الْقَاهِرُ يُقِيمُ إِمِيرَاطُورِيَّتَهُ،
مُظْلِمَةً، رَطْبَةً، جَنَائِزِيَّةً، وَمَلَأَى بِالرَّجَفَاتِ؛

رَائِحَةُ الْقَبْرِ تَسْبِيحُ فِي الظُّلُمَاتِ،
وَقَدَمِي الْخَائِفَةُ تَهْرِسُ، عَلَى حَافَةِ الْمُسْتَنْقَعِ،
ضَفَادِعَ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ وَحَلْزُونَاتٍ بَارِدَةٍ.

قَصَائِدُ مَدَانَةِ
مَحذُوفَةٍ مِنْ «أَزْهَارِ الشَّرِّ»

(١)
ليسبوس

يَا أُمَّ الْأَلْعَابِ اللَّاتِيْنَةِ وَالشَّهَوَاتِ الْإِغْرِيقِيَّةِ،
 لَيْسَبُوسَ، حَيْثُ الْقُبُلَاتُ، الْفَاتِرَةُ أَوْ الْفَرِحَةُ،
 السَّاخِنَةُ كَالشُّمُوسِ، النَّدِيَّةُ كَالْبَطِيخِ،
 تُوشِي اللَّيَالِي وَالنَّهَارَاتِ الرَّائِعَةَ؛
 يَا أُمَّ الْأَلْعَابِ اللَّاتِيْنَةِ وَالشَّهَوَاتِ الْإِغْرِيقِيَّةِ،

يَا لَيْسَبُوسَ، حَيْثُ الْقُبُلَاتُ كَالسَّلَالَاتِ
 الَّتِي تَسَاقُطُ بِلَا خَوْفٍ فِي هَاوِيَّةِ بِلَا قَرَارٍ،
 وَتَجْرِي، مُتَأَوِّهَةً مُهِمِّمَةً بِلَا انْتِظَامٍ،
 عَاصِفَةً وَسِرِّيَّةً، مُحْتَشِدَةً وَغَائِرَةً؛
 يَا لَيْسَبُوسَ، حَيْثُ الْقُبُلَاتُ كَالسَّلَالَاتِ!

(١) جزيرة يونانية، ارتبط اسمها في التاريخ الحضاري بالحلب «المثلي» لدى النساء.

يَا لَيْسَبُوسُ، حَيْثُ تَنْجَذِبُ كُلُّ فِرِينِيهِ^(١) إِلَى قَرِينَتِهَا،
 حَيْثُ لَمْ تَبَقْ تَنْهِيدُهُ أَبَدًا بِلاَ صَدَى،
 وَالنُّجُومُ تُعْجَبُ بِكَ مِثْلَمَا بِبَافُوس^(٢)،
 وَيُمْكِنُ لِفِينُوسِ عَنْ حَقٍّ أَنْ تَغَارَ مِنْ سَافُو^(٣)!
 يَا لَيْسَبُوسُ، حَيْثُ تَنْجَذِبُ كُلُّ فِرِينِيهِ إِلَى قَرِينَتِهَا،

لَيْسَبُوسُ، يَا أَرْضَ اللَّيَالِي السَّاخِنَةِ وَالْفَاتِرَةِ،
 الَّتِي تَدْفَعُ الْفَتَيَاتِ ذَاتِ الْعُيُونِ الْعَائِرَةِ، الْعَاشِقَاتِ لِأَجْسَادِهِنَّ،
 إِلَى مُدَاعِبَةِ الثَّمَارِ النَّاصِجَةِ لِبُلُوغِهِنَّ،
 أَمَامَ مَرَايَاهُنَّ، لَذَّةٌ عَقِيمٌ!
 لَيْسَبُوسُ، يَا أَرْضَ اللَّيَالِي السَّاخِنَةِ وَالْفَاتِرَةِ،

فَلْتَدْعِي لِأَفْلَاطُونِ الْعَجُوزِ أَنْ تَكْفِهَ نَظْرَتُهُ الْعَابِسَةَ؛
 فَأَنْتِ تَسْتَمِدِّينَ عُذْرَكَ مِنْ شَرَاهَةِ الْقُبُلَاتِ،
 يَا مَلِيكَةَ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْعَذْبَةِ، الْأَرْضِ الْحَبِيبَةِ النَّبِيلَةِ،
 وَالرَّهَافَةِ الَّتِي لَا تَنْفَدُ أَبَدًا.
 فَلْتَدْعِي لِأَفْلَاطُونِ الْعَجُوزِ أَنْ تَكْفِهَ نَظْرَتُهُ الْعَابِسَةَ.

(١) عاهرة يونانية، اتخذها «براكستيل» كموديل له لما أنجزه من تماثيل فينوس.

(٢) جزيرة يونانية مكرسة «لفينوس».

(٣) الشاعرة اليونانية العظيمة، التي عاشت في القرن الثامن قبل الميلاد. تدور قصائدها الغنائية حول حبيباتها من النساء.

تَسْتَمِدُّنَ عُذْرَكَ مِنَ الْاِسْتِشْهَادِ الْاَبَدِيِّ،
الْمَفْرُوضِ بِلاَ هَوَادَةٍ عَلَى الْقُلُوبِ الطَّامِحَةِ،
وَالَّذِي يَجْتَذِبُ بَعِيدًا عَنَّا الْبَسْمَةَ الْمُضِيئَةَ
الَّتِي تَبِينُ غَائِمَةً عَلَى حَاقَّةِ سَمَاوَاتٍ أُخْرَى!
تَسْتَمِدُّنَ عُذْرَكَ مِنَ الْاِسْتِشْهَادِ الْاَبَدِيِّ!

مَنْ مِنَ الْاِلَهِةِ سَيَجْرُؤُ، يَا لَيْسَبُوسَ، أَنْ يَكُونَ قَاضِيكَ
وَيُؤَيِّدَ جَيْنِيكَ الَّذِي شَحَبَ فِي الْعَمَلِ،
لَوْ لَمْ تَرَنَّ مَوَازِينَهُ الذَّهَبِيَّةَ
طُوفَانَ الدَّمُوعِ الَّتِي صَبَّتْهَا يَتَابِعُكَ فِي الْبَحْرِ؟
مَنْ مِنَ الْاِلَهِةِ سَيَجْرُؤُ، يَا لَيْسَبُوسَ، أَنْ يَكُونَ قَاضِيكَ؟

مَاذَا تُرِيدُ مِنَّا قَوَانِينُ الْعَدْلِ وَالظُّلْمِ؟
أَيُّهَا الْعَذَرَاوَاتُ ذَوَاتِ الْقُلُوبِ السَّامِي، يَا شَرَفَ الْأَرْخِئِيلِ،
دِينُكُمْ، شَأْنُ أَيِّ دِينٍ، جَلِيلِ،
وَالْحُبُّ سَيَسْخَرُ مِنَ الْجَحِيمِ وَالسَّمَاءِ!
فَمَاذَا تُرِيدُ مِنَّا قَوَانِينُ الْعَدْلِ وَالظُّلْمِ؟

لَأَنَّ لَيْسَبُوسَ قَدْ اخْتَارْتَنِي مِنْ بَيْنِ الْجَمِيعِ عَلَى الْأَرْضِ
لَأُعْنِيَ سِرَّ عَذَرَاوَاتِهَا الْمُزْدَهَرَاتِ،

وَكُنْتُ مُنْذُ الطُّفُولَةِ مُنْضَوِيًّا فِي السِّرِّ الْأَسْوَدِ
لِلضَّحِكَاتِ الْجَامِحَةِ الْمَمْزُوجَةِ بِدُمُوعِ كَيْبَةٍ؛
لَأَنَّ «لَيْسْبُوسَ» قَدْ اخْتَارَتْنِي مِنْ بَيْنِ الْجَمِيعِ عَلَى الْأَرْضِ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ أَشْهَرُ عَلَى قِمَّةِ لُوكَاتِ^(١)،
مِثْلَ حَارِسٍ ذِي عَيْنٍ نَافِذَةٍ وَوَائِقَةٍ،
يَتَرَصَّدُ لَيْلَ نَهَارٍ سَفِينَةَ شِرَاعِيَّةٍ، أَوْ قَارِبًا وَحِيدَ الصَّارِي، أَوْ فُرْقَاطَةً،
تَرْتَعِشُ أَشْكَالَهَا عَنْ بُعْدٍ فِي الزُّرْقَةِ؛
وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ أَشْهَرُ عَلَى قِمَّةِ لُوكَاتِ

لَأَعْرِفَ مَا إِذَا كَانَ الْبَحْرُ حَلِيمًا وَطَيِّبًا،
وَوَسْطَ التَّأَوُّهَاتِ الَّتِي يُرَدِّدُهَا الصَّخْرُ
سَيَعُودُ ذَاتَ مَسَاءٍ إِلَى لَيْسْبُوسَ، الْغُفُورَةِ،
الْجُنْمَانُ الْمَعْشُوقُ لِسَافُو، الَّتِي رَحَلَتْ
لِتَعْرِفَ مَا إِذَا كَانَ الْبَحْرُ حَلِيمًا وَطَيِّبًا!

عَنْ سَافُو الرُّجُولِيَّةِ، الْعَاشِقَةِ وَالشَّاعِرَةِ،
الْأَجْمَلُ مِنْ فِينُوسَ بِفِعْلِ شُحُوبِهَا الْكَيْبِ!
- عَيْنُ الزُّرْقَةِ هَزَمَتْهَا الْعَيْنُ السَّوْدَاءُ

(١) إحدى الجزر اليونانية.

الَّتِي تُبْرِقُش الدَّائِرَةُ الْقَائِمَةَ الَّتِي خَطَّتْهَا أَلَامُ
سَافُو الرُّجُولِيَّةِ، الْعَاشِقَةِ وَالشَّاعِرَةِ!

- أَجْمَلُ مِنْ فِينُوسِ الْمُتَنَصِّبَةِ فَوْقَ الْعَالَمِ
وَالَّتِي تَشْرُكُنُورَ سَكِينَتِهَا
وَأَشْعَاعَ شَبَابِهَا الْأَشْقَرِ
عَلَى الْمُحِيطِ الْقَدِيمِ، الْمَسْحُورِ بِابْنَتِهَا؛
أَجْمَلُ مِنْ فِينُوسِ الْمُتَنَصِّبَةِ فَوْقَ الْعَالَمِ!

عَنْ سَافُو الَّتِي مَاتَتْ يَوْمَ تَجْدِيفِهَا،
عِنْدَمَا، لَدَى إِهَانَتِهَا الطَّقْسَ وَالْعَقِيدَةَ الْمُخْتَرَعَةَ،
صَنَعَتْ مِنْ جَسَدِهَا الْجَمِيلِ الطَّعَامَ الْأَسْمَى
لِرَجُلٍ وَخَشِي عَاقِبَ عَجْرَقَتِهِ
إِلْحَادُ مَنْ مَاتَتْ يَوْمَ تَجْدِيفِهَا.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ وَلَيْسَبُوسُ تُنُوحُ،
وَرَغَمَ الشَّرَفِ الَّذِي أَسْبَغَهُ عَلَيْهَا الْعَالَمُ،
فَهِىَ تَسْكُرُ كُلَّ لَيْلَةٍ بِصُرَاخِ الْعَذَابِ
الَّذِي تُطْلِقُهُ إِلَى السَّمَاوَاتِ شَوَاطِئُهَا الْمَهْجُورَةِ!
مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ وَلَيْسَبُوسُ تُنُوحُ!

نساء ملغونات

ديلفين وهيبوليت

فِي الصَّبَا الشَّاحِبِ لِلْمَصَابِيحِ الْفَاتِرَةِ،
عَلَى أَرَائِكَ غَائِرَةٍ مُشْبَعَةٍ بِالْعُطُورِ،
كَأَنْتَ هَيْبُولِيْت تَحْلُمُ بِتَرْيِبِ قَوِي
يَرْفَعُ سِتَارَةَ بَرَاءَتِهَا السَّابَّةَ.

كَأَنْتَ تَبْحَثُ، بِنَظَرَةٍ أَزْجَعَتْهَا الْعَاصِفَةُ،
عَنْ سَمَاءٍ سَدَّاجَتِهَا الْبَعِيدَةُ الْآنَ،
مِثْلَ مُسَافِرٍ يُدِيرُ رَأْسَهُ
تَحَوُّ الْآفَاقِ الزَّرْقَاءِ الَّتِي اجْتَازَهَا فِي الصَّبَاحِ.

الدُّمُوعُ الْكَسُولَةُ لِعَيْنَيْهَا الْخَامِدَتَيْنِ،
السَّيْمَاءُ الْمُنْكَسِرَةُ، وَالْخَدَرُ، وَالشَّهْوَةُ الْكَيْبِيَّةُ،
ذِرَاعَاهَا الْمَهْزُومَتَانِ، مَطْرُوحَتَيْنِ كَأَسْلِحَةٍ عَقِيمَةٍ،

كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَخْدُمُ، كَانَ يُرِيْنُ جَمَالَهَا الْهَشَّ.

مُمَدَّدَةٌ عِنْدَ قَدَمَيْهَا، هَادِئَةٌ وَمُفْعَمَةٌ بِالْبَهْجَةِ،

نَظَرَتْ إِلَيْهَا دِيلَفِينَ فِي أَشْتِهَاءٍ مُتَّقِدٍ،

كَحَيَوَانٍ قَوِيٍّ يَرْقُبُ فَرِيَسَتَهُ،

بَعْدَ أَنْ رَصَدَهَا أَوَّلًا بِأَسْنَانِهِ.

جَمَالُ قَوِيٍّ مُتَدَلِّهِ بِالْجَمَالِ الْهَشِّ،

رَائِعَةٌ كَانَتْ، تَرْتَشِفُ بِشَهْوَانِيَّةٍ

خَمَرَ انْتِصَارِهَا، وَتَتَمَدَّدُ نَحْوَهَا،

كَأَنَّمَا لَتَلَقَّى شُكْرًا عَذْبًا.

كَانَتْ تَبْحَثُ فِي عَيْنِ صَحِيَّتِهَا الشَّاحِبَةِ

عَنِ النَّشِيدِ الصَّامِتِ الَّذِي يُغْنِي اللَّذَّةَ،

وَذَلِكَ الْعِرْفَانِ اللَّائِنَهَائِي السَّامِي

الَّذِي يَنْشِقُّ مِنَ الْجَفْنِ مِثْلَ آهَةٍ طَوِيلَةٍ.

- «هَيُولِيَت، حَبِيبَتِي، مَا تَقُولِينَ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ؟

أَتَذَرِكِينَ الْآنَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي تَقْدِيمَ

الْأُضْحِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ لِرُزْهُورِكَ الْأُوَلَى

إِلَى الْعَوَاصِفِ الْعَنِيفَةِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَهْتِكَهَا؟

قُبُلَاتِي خَفِيفَةٌ مِثْلَ تِلْكَ الذُّبَابَاتِ الْعَابِرَةِ
الَّتِي تُدَاعِبُ فِي الْمَسَاءِ الْبُحَيْرَاتِ الْكُبْرَى، الشَّفَافَةَ،
وَقُبُلَاتُ حَبِيبِكَ تَشُقُّ أَخَاذِيدَهَا
مِثْلَ الْمَرْكَبَاتِ أَوْ سِلَاحِ الْمَحْرَاثِ الْقَاطِعِ؛

سَتَمُرُّ عَلَيْكَ مِثْلَ نِيرٍ ثَقِيلٍ
لِأَخْصَنَةٍ وَثِيرَانٍ ذَاتِ حَوَافِرٍ قَاسِيَةٍ...
هَيُّوْلِيْتُ، يَا أُخْتِي! أَدِيرِي إِذْنَ وَجْهَكَ،
أَنْتِ، رُوحِي وَقَلْبِي، كُلِّي وَبَعْضِي،

أَدِيرِي إِلَيَّ عَيْنَيْكَ الْمُفْعَمَتَيْنِ بِالزُّرْقَةِ وَالنُّجُومِ!
فَمِنْ أَجْلِ إِحْدَى هَذِهِ النَّظَرَاتِ السَّاحِرَةِ، الْبَلْسَمِ السَّمَائِيِّ،
سَأَرْفَعُ الْحِجَابَ عَنْ مَلَذَّاتِ غَامِضَةٍ
وَأُدْخِلُكَ إِلَى النَّوْمِ فِي حُلْمٍ بِلَا انْتِهَاءٍ!»

لَكِنَّ هَيُّوْلِيْتُ آتِيذٌ، وَهِيَ تَرْفَعُ رَأْسَهَا الْفَتَى:
- «لَسْتُ عَاقَةً أَبَدًا وَلَا يَغْتَرِبُنِي نَدَمٌ،
حَبِيبَتِي دِيلِفِين، إِنَّنِي أَعَانِي وَأَنَا قَلِيقَةٌ،

مِثْلَمَا، بَعْدَ وَجْبَةٍ لَيْلِيَّةٍ رَهِيْبَةٍ،

أُحِسُّ بِأَهْوَالٍ وَبَيْلَةٍ تَحُطُّ عَلَيَّ
وَحُشُودٍ سَوْدَاءٍ مِنْ أَشْبَاحٍ مُبْعَثَرَةٍ،
تُرِيدُ اقْتِنَادِي إِلَى دُرُوبٍ مُضْطَرِبَةٍ
يُوصِدُهَا أَفَقٌ دَامٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ.

فَهَلْ ارْتَكَبْنَا إِذَنْ فِعْلاً غَرِيبًا؟
فَسِّرِي لِي، لَوْ تَسْتَطِيعِينَ، انْزِعَا جِي وَخَوْفِي:
فَأَنَا أَرْتَعِدُ مِنَ الرُّعْبِ عِنْدَمَا تَقُولِينَ لِي: «يَا مَلَائِكِي!»
وَأُحِسُّ مَعَ ذَلِكَ بِفَيْي يَتَجَّهُ نَحْوَكَ.

لَا تَرْمُقِينِي هَكَذَا، أَنْتِ، هَمِّي!
أَنْتِ مَنْ أُحِبُّ إِلَى الْأَبَدِ، أُخْتِي بِالْاِخْتِيَارِ،
حَتَّى لَوْ سَتَكُونِينَ شَرَكًا مَنْصُوبًا لِي
وَابْتِدَاءَ صَيَاعِي!»

تُجِيبُ دِيلْفِينَ بِصَوْتٍ اسْتَبْدَادِي، وَنَظَرُهَا مَشْثُومَةٌ،
وَهِيَ تَهْزُ شَعْرَهَا الْغَزِيرَ الْمَاسَاوِي،
كَأَنَّهَا تَضْرِبُ قَدَمَهَا بِالرَّكِيْزَةِ الْحَدِيدِ:

- «مَنْ إِذْنٌ يَجْرُؤُ إِزَاءَ الْحُبِّ عَلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْجَحِيمِ؟

اللَّعْنَةُ إِلَى الْأَبَدِ عَلَى الْحَالِمِ سُدَى
الَّذِي أَرَادَ أَوَّلًا، فِي حِمَاقَتِهِ،
شَغُوفًا بِمُشْكِلَةِ عَصِيَّةٍ وَعَقِيمِ،
أَنْ يَخْلِطَ الْإِسْتِقَامَةَ بِأَشْيَاءِ الْحُبِّ!

- فَذَلِكَ الَّذِي يُرِيدُ تَوْحِيدَ الظِّلِّ وَالْحَرَارَةِ،
وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي تَوَافُقِ رُوحِي،
لَنْ يُدْفِئَ أَبَدًا جَسَدَهُ الْمَشْلُولَ
بِهَذِهِ الشَّمْسِ الْحُمْرَاءِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْحُبَّ!

هَيَّا، إِنْ شِئْتَ، فَلْتَبْحَثِي عَنْ خَطِيبٍ أَحْمَقَ؛
أَذْهَبِي وَقَدِّمِي قَلْبًا يَكْرَاهِي لِقُبْلَاتِهِ الْقَاسِيَةَ؛
وَمُفْعَمَةً بِالنَّدَمِ وَالذُّعْرِ، مُمْتَفِعَةً،
سَتُعِيدِينَ إِلَيَّ ثَدْيَيْكَ مَوْصُومَيْنِ...

فَهُنَا عَلَى الْأَرْضِ لَا يُمَكِّنُ إِلَّا إِِرْضَاءُ سَيِّدٍ وَحِيدٍ!
لَكِنَّ الطُّفْلَةَ، مُنْدَفِقَةً بِأَلَمِ هَائِلٍ،
صَرَخَتْ فَجَاءَةً: «- أَحْسُ بِهَاوِيَةِ فَاغِرَةٍ

تَسْعُ فِي كَيْنُونَتِي؛ هَذِهِ الْهَارِيَّةُ هِيَ قَلْبِي!

مُحْتَرِقًا مِثْلَ بُرْكَانٍ، غَائِرًا كَالْفَرَاغِ!
لَا شَيْءَ يَشْفِي غَلِيلَ هَذَا الْوَحْشِ الْمُعَذَّبِ
وَلَا يُطْفِئُ ظَمَأَ رَبِّةِ الْجَحِيمِ
الَّتِي تُحْرِقُهُ، وَالشُّعْلَةُ فِي يَدِهَا، حَتَّى الدَّمِ.

فَلَعَلَّ سَتَائِرَنَا الْمُسْدِلَةَ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنِ الْعَالَمِ،
وَلَعَلَّ الْعِيَاءَ يَجْلِبُ الرَّاحَةَ!
أُرِيدُ أَنْ أَفْنَى فِي صَدْرِكَ الْعَمِيقِ
وَأَجِدَ عَلَى نَذِيرِكَ نَدَاةَ الْمَقَابِرِ!

- فَلْتَهْبِطُوا، اهْبِطُوا، أَيُّهَا الضَّحَايَا النَّائِحُونَ،
فَلْتَهْبِطُوا طَرِيقَ الْجَحِيمِ الْأَبَدِيِّ!
وَلْتَعُوصُوا فِي أَعْمَقِ أَعْمَاقِ الْهُوَّةِ، حَيْثُ كُلُّ الْجَرَائِمِ،
الَّتِي تَجْلِدُهَا رِيحٌ لَا تَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ،

تَفُورُ بِلا نِظَامٍ مَعَ صَخَبِ الْعَاصِفَةِ.
أَيُّهَا الظُّلَالُ الْمَجْنُونَةُ، فَلْتَرُكْضِي إِلَى مُتَهَيِّ رَغَبَاتِكُمْ،
فَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَبَدًا إِزْوَاءَ غَضَبِكُمْ،

وَعِقَابُكُمْ سَيْنَعٌ مِّنْ مَّلَذَّاتِكُمْ.

أَبَدًا لَّنْ يُضِيءَ شُعَاعٌ نَدِيٌّ كُھُوفِكُمْ؛
وَخِلَالَ شُقُوقِ الْجُدْرَانِ تَسْرَبُ أَبْخَرَةٌ فَاسِدَةٌ مَحْمُومَةٌ
مُشْتَعِلَةٌ كَالْقَنَادِيلِ
وَتَخْتَرِقُ بِرَوَائِحِهَا الْبَشِيعَةَ أَجْسَادَكُمْ.

الْعَقْمُ الْمَرِيرُ لِمُتَعَتِكُمْ
يُظْمِئُ ظِمَاءَكُمْ وَيُجَفِّفُ جُلُودَكُمْ،
وَالرَّيْحُ الْهَائِجَةُ لِلشَّبَقِ
تَجْعَلُ أَجْسَادَكُمْ تَصْطَفِقُ مِثْلَ رَايَةٍ قَدِيمَةٍ.

بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ الْأَحْيَاءِ، الضَّالِّينَ، الْمُدَانِينَ،
فَلْتَرْكُضُوا عَبْرَ الصَّحَارِي كَالذَّنَابِ؛
وَلْتَصْنَعُوا مَصِيرَكُمْ، أَيُّهَا الْأَرْوَاحُ الْمُشَوَّشَةُ،
وَلْتَهْرُبُوا مِنَ اللَّائِنَهَائِي الَّذِي تَحْمِلُونَهُ دَاخِلَكُمْ!

ليثيه^(١)

تَعَالَى إِلَى قَلْبِي، أَيُّهَا الرُّوحُ الْقَاسِيَةُ الصَّمَاءَ،
 أَيُّهَا النَّمِرُ الْمَعْشُوقُ، الْوَحْشُ ذُو الْمَلَامِحِ اللَّامْبَالِيَةِ؛
 أَرِيدُ أَنْ أَغُوصَ طَوِيلًا بِأَصَابِعِي الْمُرْتَعِشَةِ
 فِي كَثَافَةِ شَعْرِكَ الْغَزِيرِ الثَّقِيلِ؛

وَأَنْ أَذْفِنَ رَأْسِي الْمُتَعَبَةَ
 فِي تَنُورَتِكَ الْمُفْعَمَةِ بِرَائِحَتِكَ،
 وَأَسْتَشِيقَ، مِثْلَ زَهْرَةٍ ذَابِلَةٍ،
 الْعُقُوفَةَ الْعَذْبَةَ لِحَبِّي الْغَابِرِ.

أَرِيدُ النَّوْمَ! النَّوْمَ أَكْثَرَ مِنَ الْحَيَاةِ!
 فِي رُقَادٍ عَذْبٍ كَالْمَوْتِ،
 سَأَنْتَرُقُ قُبُلَاتِي بِلَا نَدَمٍ

(١) نهر النسيان في الجحيم السفلي، وفقًا للأساطير اليونانية اللاتينية.

عَلَى جَسَدِكَ الْجَمِيلِ الْأَمْلَسِ كَالنُّحَاسِ.

وَلَا تَبْتَلِعْ تَأَوُّهَاتِي الْخَامِدَةَ،
لَا شَيْءَ يَعْدِلُ لِي هَاوِيَةَ سَرِيرِكَ؛
النَّسْيَانُ الْقَدِيرُ يَسْكُنُ فَمَكَ،
وَنَهْزُ «لَيْثِيهِ» يَنْسَابُ فِي قُبْلَاتِكَ.

مِنْ الْآنَ فَصَاعِدًا يَا حُلُوتِي، سَأُذِعِنُ
لِمَصِيرِي شَأْنَ شَخْصٍ مُحَدَّدِ الْمَصِيرِ؛
كَشْهِيدٍ وَدِيعٍ، مُدَانٍ بَرِيءٍ،
حَمِيَّتُهُ تُوجِّعُ الْعَذَابَ،

سَأَمْتَصُّ، لِأُغْرِقَ ضَغِيئَتِي،
نَبَاتَ السَّلْوَى وَالشُّوْكَرَانَ الطَّيِّبَ
مِنْ الْأَطْرَافِ السَّاحِرَةِ لِهَذَا الصَّدْرِ الْقَاسِيِ
الَّذِي لَمْ يَضْمِ دَاخِلَهُ قَلْبًا أَبَدًا.

إلى تلك المُبتَهجة للغاية

رَأْسُكَ، إِيْمَاءُ تُكْ، هَيْئَتُكَ
جَمِيلَةٌ مِثْلَ مَشْهَدِ طَبِيعِي جَمِيلٍ؛
الضَّحْكُ يَلْعَبُ عَلَى وَجْهِكَ
مِثْلَ رِيحٍ نَدِيَّةٍ فِي سَمَاءٍ صَافِيَةٍ.

الْعَابِرُ الْحَزِينُ الَّذِي تَحْتَكَينَ بِهِ
مَذْهُولٌ مِنَ الْعَافِيَةِ
الَّتِي تَنْبُتُ كَضِيَاءٍ
مِنْ ذِرَاعَيْكَ وَكَتِفَيْكَ.

الْأَلْوَانُ الْمُدَوِّيَّةُ
الَّتِي تُرْصِّعِينَ بِهَا زِينَتَكَ
تَطْرُحُ فِي عُقُولِ الشُّعْرَاءِ
صُورَةَ رَقْصَةٍ لِلزُّهُورِ.

هَذِهِ الْأَثْوَابُ الْمَجْنُونَةُ هِيَ رَمَزُ
لِعَقْلِكَ الْمُبْرَقَشِ؛
أَيُّهَا الْمَجْنُونَةُ الَّتِي جُنِنْتَ بِهَا،
أَكْرَهُكَ بِقَدْرِ مَا أُحِبُّكَ!

أَحْيَانًا فِي حَدِيقَةٍ جَمِيلَةٍ
كُنْتُ أَجْرَجُرُ فِيهَا وَهْنِي،
أَحْسَنْتُ، كَسُخْرِيَّةٍ،
بِالشَّمْسِ تَمَرَّقُ صَدْرِي؛

وَالرَّيْعُ وَالْأَخْضِرَارُ
أَذِلًّا كَثِيرًا قَلْبِي،
حَتَّى إِنِّي عَاقَبْتُ زَهْرَةً
عَلَى وَقَاحَةِ الطَّيِّعَةِ.

هَكَذَا أُرِيدُ، ذَاتَ لَيْلَةٍ،
عِنْدَمَا تَدُقُّ سَاعَةُ الشَّهْوَةِ،
أَنْ أَرْحَفَ بِلَا صَوْتٍ، كَجَبَّانٍ،
نَحْوَ كُنُوزِ جَسَدِكَ،

لَأُهْدِبَ جَسَدَكَ الْمُبْتَهَجَ،
لَأَجْرَحَ صَدْرَكَ الْمُتَسَامِحَ،
وَأَرْتَكِبَ فِي خَصْرِكَ الْمَذْهُولَ

جُرْحًا كَبِيرًا وَغَائِرًا،

وَعَبْرَ هَذِهِ الشَّفَاةِ الْجَدِيدَةِ،

الْأَكْثَرَ صَخْبًا وَجَمَالًا،

أَيُّهَا الْعُدُوبَةُ الْمُدَوَّخَةُ!

أَبْتُ فِيكَ سُمِّي، يَا أُخْتِي!

الجواهر

كَانَتْ الْغَالِيَةُ عَارِيَّةً، وَإِذْ تَعْرِفُ قَلْبِي،
فَلَمْ تُبْقِ إِلَّا عَلَى جَوَاهِرِهَا الرِّئَانَةِ،
الَّتِي كَانَتْ عُدَّتُهَا الثَّرِيَّةُ تَمْنَحُهَا السَّيْمَاءُ الْمُتَّصِرَةَ
لِعَبِيدِ الْمُورِ فِي أَيَّامِهِمُ السَّعِيدَةَ.

وَحِينَمَا تَرْمِي وَهِيَ تَرْقُصُ صَحْبَهَا الْحَيَّ وَالسَّاحِرَ،
يَخْطِفُنِي فِي نَشْوَةِ هَذَا الْعَالَمِ الْوَامِضِ
مِنْ مَعْدِنٍ وَحَجَرٍ كَرِيمٍ، وَأُحِبُّ فِي الْاهْتِجَاجِ
الْأَشْيَاءَ الَّتِي يَمْتَرِجُ فِيهَا الصَّوْتُ بِالصَّوِّءِ.

هَكَذَا كَانَتْ رَاقِدَةً، مُسْتَسْلِمَةً لِلْحُبِّ،
وَمِنْ أَعْلَى الْأَرِيكَةِ كَانَتْ تَبْتَسِمُ فِي هَنَاءٍ
إِلَى حُبِّي الْعَمِيقِ وَالْعَذْبِ كَالْبَحْرِ
الَّذِي يَصَاعِدُ نَحْوَهَا مِثْلَمَا نَحْوُ جُرْفِهَا.

الْعَيْنَانِ تُحَدِّقَانِ فِيَّ، مِثْلَ نَمِرٍ مُرَوِّضٍ،
وَبِسِيمَاءٍ غَامِضَةٍ وَحَالِمَةٍ كَانَتْ تُجَرِّبُ الْأَوْضَاعَ،
وَالْبِرَاءَةُ الْمُتَوَحِّدَةُ بِالسَّبْقِ
كَانَتْ تَمْنَحُ سِحْرًا جَدِيدًا لِتَحْوُلِهَا؛

وَذِرَاعُهَا وَسَاقُهَا، فَخَذُهَا وَحِقْوُهَا،
النَّاعِمُونَ كَالزَّيْتِ، مُتَمَاجِينَ كَبَجَعَةٍ،
كَانُوا يَمُرُّونَ أَمَامَ عَيْنِي الْبَصِيرَتَيْنِ الْهَادِثَتَيْنِ؛
وَبَطْنُهَا وَتَدْيَاهَا، عَنَاقِيدُ خَمْرِي،

كَانُوا يَتَقَدَّمُونَ، أَكْثَرَ غُنْجًا مِنْ مَلَائِكَةِ الشَّرِّ،
لِيُزِعِجُوا الرَّاحَةَ الَّتِي اسْتَكَانَتْ إِلَيْهَا رُوحِي،
وَيُزِيحُوهَا عَنْ صَخْرَةِ الْبِلَلُورِ
الَّتِي كَانَتْ جَالِسَةً عَلَيْهَا، هَادِئَةً مُنْفَرِدَةً.

بَدَأَ لِي أَنَّنِي أَرَى، فِي صُورَةٍ جَدِيدَةٍ،
أَفْخَاذَ «أَنْتِيُوب»^(١) مُتَّحِدَةً بِجَذْعِ صَبِيٍّ أَمْرَدٍ،
وَقَوَائِمُهَا كَانَتْ يَدْفَعُ إِلَى الْبُرُوزِ بِحَوْضِهَا.
وَعَلَى هَذِهِ الْمَسْحَةِ مِنَ الشُّقْرِ وَالْبُنْيِ كَانَ الْخِصَابُ رَائِعًا!

(١) ابنة «نيكتيه»، ملك طيبة، ومحبوبة «زيوس».

- وَلَآنَ الْمُصْبِحَ قَدْ اسْتَسْلَمَ لِلْمَوْتِ،
كَانَتْ الْمِدْفَاءُ وَحْدَهَا مَا يُضِيءُ الْغُرْفَةَ،
وَكُلَّمَا صَعَدَتْ تَنْهِيدَةً مُتَّقِدَةً،
غَمَرَتْ بِالْدَّمِ هَذِهِ الْبَشْرَةَ بِلَوْنِ الْعَنْبَرِ!

تَحَوُّلَاتُ مِصَاصَةِ الدِّمَاءِ

مَعَ ذَلِكَ، فَالْمَرَأَةُ، مِنْ فَمِهَا الْفَرَاوَلَةُ،
 مُتَلَوِّيَةً كَأَنَّهَا عَلَى الْجَمْرِ،
 وَهِيَ تَدْعُكَ تُدَيِّبُهَا فِي حَدِيدِ مَشَدَّاتِ صَدْرِهَا،
 كَأَنَّهُ تَدْعُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمُشْبَعَةَ بِالْمِسْكِ تَسَابُ:
 - «أَنَا، لَدَيَّ شَفَّةٌ رَطْبَةٌ، وَأَعْرِفُ
 عِلْمَ صَيَاحِ الشُّعُورِ الْقَدِيمِ فِي أَعْمَاقِ سِرِيرِ.
 أَجَفَّفُ كُلَّ الدُّمُوعِ عَنْ تُدَيِّ الظَّافِرِينَ،
 وَأَذْفَعُ الْعَجَائِزَ إِلَى الضَّحِكِ كَالْأَطْفَالِ.
 وَلِمَنْ يَرَانِي عَارِيَةً بِلاَ حِجَابٍ، فَإِنِّي أَحْتَلُّ مَكَانَ
 الْقَمَرِ، وَالشَّمْسِ، وَالسَّمَاءِ وَالنُّجُومِ!
 فَأَنَا، يَا عَالِمِي الْعَزِيزِ، خَبِيرَةٌ بِالشَّهَوَاتِ،
 عِنْدَمَا أَخْنُقُ رَجُلًا فِي ذِرَاعِي الْمُفْزِعَتَيْنِ،
 أَوْ حِينَمَا أَتْرُكُ صَدْرِي لِلْعَصَّاتِ،
 حُجُولَةً وَفَاجِرَةً، هَشَّةً وَقَوِيَّةً،

حَتَّى إِنَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرْبَّةِ الْمُشْبَعَةَ بِالْإِثَارَةِ،
سِيلَعُنُ الْمَلَائِكَةُ الْخَائِرُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَجْلِي!

وَعِنْدَمَا امْتَصَّتْ كُلَّ النُّخَاعِ مِنْ عِظَامِي،
وَاسْتَدْرْتُ بِتَرَاحٍ إِلَيْهَا
لَأَمْنَحَهَا قُبْلَةً حُبٍّ، لَمْ أَرِ سَوَى
قَرِيبَةٍ ذَاتِ أَجْنَابٍ لِرَجَةٍ، مَلَأَى بِالصَّدِيدِ!
أَعْمَضْتُ عَيْنَيَّ، فِي رُغْبِي الْبَارِدِ،
وَحِينَمَا أَعَدْتُ فَتَحَهُمَا فِي الضِّيَاءِ الْحَيِّ،
كَانَتْ إِلَى جَانِبِي، مَكَانَ عَارِضَةِ الْأَرْيَاءِ الْقَدِيرَةِ
الَّتِي يَبْدُو أَنَّهَا أَمَدَّتْ نَفْسَهَا بِالدَّمِ،
بَقَايَا هَيْكَلٍ عَظِيمٍ تَرْتَعِدُ فِي ارْتِبَاكِ،
وَتَصْدُرُ مِنْهَا قَرْقَعَةٌ دَوَّارَةٌ هَوَاءَ
أَوْ لَافِتَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي طَرْفٍ قَضِيبٍ حَدِيدِ،
تُورِجُهُ الرِّيحُ خِلَالَ لَيَالِي الشِّتَاءِ.

غَزَيَات

النافورة

عَيْنَاكِ الْجَمِيلَتَانِ مُتَعَبَتَانِ، أَيْتُهَا الْحَبِيبَةُ الْبَائِسَةُ!
 فَلْتَبْقِي طَوِيلًا، دُونَ أَنْ تَفْتَحِيهِمَا،
 فِي هَذَا الْوَضْعِ الْفَاتِرِ
 حَيْثُ فَاجَأَتْكِ اللَّذَّةُ.
 فِي الْفِنَاءِ نَافُورَةُ الْمَاءِ الثَّرَاثِرَةِ
 الَّتِي لَا تَسْكُتُ لَيْلَ نَهَارٍ،
 تَصُونُ بِرِقَّةِ النَّشْوَةِ
 الَّتِي عَمَرَنِي فِيهَا الْحُبُّ هَذَا الْمَسَاءَ.

الباقية تَتَفَتَّحُ

فِي أَلْفِ وَرْدَةٍ،
 حَيْثُ فُؤَيْبِي الْمُبْتَهَجَةِ
 تَضَعُ أَلْوَانَهَا،

وَسَاقُطٌ مِثْلَ مَطَرٍ

مِنْ دُمُوعٍ كَبِيرَةٍ.

هَكَذَا رُوحُكِ الَّتِي يُشْعِلُهَا

بَرْقُ الشَّهَوَاتِ الْمُتَّقِدِ

تَنْطَلِقُ، سَرِيعَةً وَجَرِيئَةً،

نَحْوَ السَّمَاوَاتِ الْمَسْحُورَةِ الشَّاسِعَةِ.

ثُمَّ تَنْدَفِقُ، مُخْتَضِرَةً،

فِي مَوْجَةٍ مِنْ فُتُورِ حَزِينٍ،

تَهْبِطُ عَبْرَ مُنْحَدِرٍ خَفِيِّ

حَتَّى أَعْمَاقِ قَلْبِي.

الْبَاقَةُ تَتَفَتَّحُ

فِي أَلْفِ وَرْدَةٍ،

حَيْثُ فُؤَيْبِي الْمُبْتَهِّجَةِ

تَضَعُ أَلْوَانَهَا،

وَسَاقُطٌ مِثْلَ مَطَرٍ

مِنْ دُمُوعٍ كَبِيرَةٍ.

يَا أَنَّتِ، الَّتِي يَجْعَلُكَ اللَّيْلُ بِالْغَةِ الْجَمَالَ،

كَمْ هُوَ عَذْبٌ لِي، مُنْحَنِيًا عَلَى نَدْيِكَ،

أَنْ أَسْمَعَ الْأَيْنِينَ الْأَبْدِيِّ

الَّذِي يَتَّحِبُ فِي الْأَحْوَاضِ!
قَمَرٌ، وَمَاءٌ صَاحِبٌ، وَلَيْلٌ مُبَارَكٌ،
أَشْجَارٌ تَرْتَعِدُ فِي الْجَوَارِ،
وَكَاثِبُكَ الصَّافِيَّةُ
هِيَ مِرَاةٌ حُبِّي.

الْبَاقَةُ تَتَفَتَّحُ
فِي أَلْفِ وَرْدَةٍ،
حَيْثُ فُويِي المُبْتَهِجَةِ
تَضَعُ أَلْوَانَهَا،
وَتَسَاقُطُ مِثْلَ مَطَرٍ
مِنْ دُمُوعٍ كَثِيرَةٍ.

عينا بـرت

تَسْتَطِيعُونَ اَزْدِرَاءَ الْعُيُونِ الْاَكْثَرِ شُهْرَةَ،
عَيْنِي طِفْلَتِي الْجَمِيلَتَيْنِ، اللَّتَيْنِ يَتَسَرَّبُ مِنْهُمَا وَيَفِرُّ
مَا لَا اَدْرِي مِنْ شَيْءٍ طَيِّبٍ وَعَذْبٍ كَاللَّيْلِ!
اَيْتُهَا الْعَيْنَانِ الْجَمِيلَتَانِ، فَلْتَصُصِي عَلَيَّ ظُلُمَاتِكَ الْفَاتِنَةَ!

يَا عَيْنِي طِفْلَتِي الْوَاسِعَتَيْنِ، اَيْهَا اللُّغْزَانِ الْحَبِيبَانِ،
تُشَبِّهَانِ كَثِيرًا هَذِهِ الْكُھُوفَ السُّحْرِيَّةَ
حَيْثُ، وَرَاءَ اَكْدَاسِ الظَّلَالِ الْبَلِيدَةِ،
تُؤْمِضُ فِي غُمُوضٍ كُنُوزٌ مَجْهُولَةٌ!

لِطِفْلَتِي عَيْنَانِ قَاتِمَتَانِ، عَمِيقَتَانِ وَوَاسِعَتَانِ،
مِثْلَكَ اَيْهَا اللَّيْلِ الْهَائِلُ، وَجَلِيَّتَانِ مِثْلَكَ!
نِيرَانُهُمَا هِيَ افْكَارُ الْحُبِّ، الْمُؤْتَرِّجَةُ بِالْاِيْمَانِ،
الَّتِي تَتَلَاؤُ فِي الْأَعْمَاقِ، شَهَوَانِيَّةٌ أَوْ طَاهِرَةٌ.

تَرْنِيمَةٌ

إِلَى الْغَالِيَةِ، الْجَمِيلَةِ لِلْغَايَةِ
الَّتِي تُفَعِّمُ قَلْبِي بِالضِّيَاءِ،
إِلَى الْمَلَاكِ، إِلَى الْمَعْبُودِ الْخَالِدِ،
سَلَامًا فِي الْخُلُودِ!

تَنْتَشِرُ فِي حَيَاتِي
كَهَوَاءٍ مُشْبَعٍ بِالْمِلْحِ،
وَفِي رُوحِي غَيْرِ الْمُشْبَعَةِ
نَضْبٌ مَذَاقِ الْأَبَدِيِّ.

جِرَابٌ دَائِمًا نَدِيٌّ يُعَطِّرُ
مَنَاحَ خُلُوةٍ أَثِيرَةٍ،
مَبْخَرَةٌ مَنْسِيَّةٌ تَشْتَعِلُ
فِي السَّرِّ خِلَالَ اللَّيْلِ،

فَكَيْفَ، أَيُّهَا الْحُبُّ الْعَفِيفُ،
يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْكَ بِصُورَةٍ حَقِيقَةٍ؟
يَا حَبَّةَ الْمِسْكِ الْكَامِنَةَ، خَفِيَّةً،
فِي عُمُقِ أَبْدِيَّتِي؟

إِلَى الطَّيِّبَةِ لِلْغَايَةِ، الْجَمِيلَةِ لِلْغَايَةِ،
الَّتِي تَصْنَعُ بِهِجَتِي وَعَافِيَّتِي،
إِلَى الْمَلَائِكِ، إِلَى الْمَعْبُودِ الْخَالِدِ،
سَلَامًا فِي الْخُلُودِ!

وَعُودٌ فِي وَجْهِهِ

أُحِبُّ، أَيُّهَا الْجَمَالُ الشَّاحِبُ، رُمُوشَكَ الْمُسْدَلَةَ،
 الَّتِي يَبْدُو أَنَّ الظُّلُمَاتِ مِنْهَا تَنْسَابُ؛
 عَيْنَاكَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ سَوَادِهِمَا الْبَالِغِ، تُلْهِمَانِي أَفْكَارًا
 لَيْسَتْ كَيِّبَةٍ أَبَدًا؛

عَيْنَاكَ، الْمُتَوَافِقَتَانِ مَعَ شَعْرِكَ الْأَسْوَدِ،
 مَعَ شَعْرِكَ الْغَزِيرِ الطَّيِّعِ،
 عَيْنَاكَ، فِي فُتُورٍ، تَقُولَانِ لِي: «لَوْ شِئْتُ،
 يَا مُحِبَّ رَبَّةِ الْفَنِّ التَّشْكِيلِيِّ،

اِفْتِخَاءَ الْأَمَلِ الَّذِي أَثَرْنَاهُ دَاخِلَكَ،
 وَكُلَّ الْأَمْرِجَةِ الَّتِي تُمَارِسُهَا،
 فَيُمْكِنُكَ التَّحَقُّقُ مِنْ صِدْقِنَا،
 ابْتِدَاءً مِنَ السُّرَّةِ حَتَّى الْأَرْدَافِ؛

سَتَجِدُ فِي طَرْفِ ثُدَيْنِ جَمِيلَيْنِ، كَبِيرَيْنِ تَمَامًا،
مِيدَالِيَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ مِنْ بُرُونِزٍ،
وَتَحْتَ بَطْنِ مَلَسَاءٍ، نَاعِمَةٍ كَالْقَطِيفَةِ،
دَاكِنَةِ السُّمَرَةِ كَبَشْرَةِ رَاهِبٍ بُوذِيٍّ،

شَعْرٌ غَزِيرٌ هُوَ، فِي الْحَقِيقَةِ، شَقِيقُ
شَعْرِ الرَّأْسِ الْهَائِلِ،
طَيِّعٌ وَمُجَعَّدٌ، وَيُبَارِيكَ فِي الْكثَافَةِ،
أَيُّهَا اللَّيْلُ بِلَا نُجُومٍ، اللَّيْلُ الْقَاتِمُ!»

الوحش

أو صديق حورية جنائرية

(١)

لَسْتُ بِالتَّأَكِيدِ، يَا غَالِيَّتِي،
 مَنْ يُسَمِّيهَا «فِيُو»^(١) فَتَاةً صَغِيرَةً.
 فَالْمُقَامَرَةُ، وَالْحُبُّ، وَالطَّعَامُ الْفَاحِشُ،
 يَغْلِي دَاخِلَكَ، أَتَيْتَهَا الْقِدْرُ الْعَجُوزُ!
 لَمْ تَعُودِي غَضَّةً، يَا غَالِيَّتِي،

يَا طِفْلَتِي الْعَجُوزُ! وَمَعَ ذَلِكَ
 فَحَيَاتُكَ الطَّائِشَةُ الْمَجْنُونَةُ
 مَنَحَتْكَ هَذَا الْبَرِيقَ الْكَبِيرَ
 لِلْأَشْيَاءِ الْمُسْتَهْلَكَةِ،
 لَكِنَّ الْمُغْوِيَةَ مَعَ ذَلِكَ.

(١) ناشر وروائي كاثوليكي (١٨١٣-١٨٨٣).

لَا أَحْدُهَا رَتِيبَةً
خُضْرَةٌ أَعْوَامِكِ الْأَرْبَعِينَ؛
فَأَنَا أَفْضَلُ فَوَاكِهَكَ، أَيُّهَا الْحَرِيفُ،
عَلَى زُهُورِ الرَّبِيعِ الْمُبْتَدَلَةِ!
لَا! لَسْتُ أَبَدًا رَتِيبَةً!

لَهَيْكَلِكَ مَبَاهِجُ
وَمَفَاتِينُ فَرِيدَةٍ؛
فَأَجِدْ مَذَاقًا غَرِيبًا
لِفَجْوَةٍ تُرْقَوَتِيكَ؛
فَلَهَيْكَلِكَ مَبَاهِجُهُ!

أَزْدِرِي الْمُحِبِّينَ الْبُلَهَاءَ
لِلشَّمَامِ وَالْقَرْعِ!
فَأَنَا أَفْضَلُ عِظَامٍ نَحْرِكَ
عَلَى عِظَامٍ نَحَرَ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ،
وَأُشْفِقُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْبُلَهَاءِ!

سَعْرُكَ، مِثْلَ خَوْذَةٍ زَرْقَاءَ،
يُظَلِّلُ مِنْكَ جَبِينَ الْمُحَارِبِ،
الَّذِي لَا يُفَكِّرُ أَوْ يَتَضَرَّجُ بِالْحُمْرَةِ إِلَّا قَلِيلًا،

ثُمَّ يَفِرُّ إِلَى الْوَرَاءِ،
مِثْلَ عُرْفِ خَوْدَةِ زَرْقَاءَ.

عَيْنَاكَ الشَّيْهَتَانِ بِالطِّينِ،
حَيْثُ يَوْمِضُ قَنْدِيلُ مَا،
يُوجِّجُهُ خَضَابٌ وَجَتَّتْكَ،
تُطْلِقَانِ بَرْقًا جَهَنَّمِيًّا!
عَيْنَاكَ سَوْدَاوَانِ كَالطِّينِ!

بِشَبَقِهَا وَاسْتِخْفَافِهَا
تَسْتَشِيرُنَا شَفَتُكَ الْمَرِيرَةَ؛
هَذِهِ الشَّفَةُ، جَنَّةُ عَدْنِ
الَّتِي تَجْتَذِبُنَا وَتَصْدِمُنَا.
أَيُّ سَبَقٍ! وَأَيُّ اسْتِخْفَافٍ!

سَاقُكَ الرُّجُولِيَّةُ الْجَافَّةُ
تَعْرِفُ ارْتِقَاءَ أَعَالِي الْبَرَائِكِينَ،
وَرَقْصَ الْكَانِكَانِ الْأَكْثَرِ جُمُوحًا
عَلَى الرَّغَمِ مِنَ الثُّلُوجِ وَالْفَقْرِ.
سَاقُكَ رُجُولِيَّةٌ وَجَافَةٌ؛

بِشَرَّتِكَ الْمُتَقَدَّةُ بِلَا رِقَّةَ،

كَبْشَرَةٍ رِجَالِ الدَّرَكِ الْعَجَائِزِ،
لَمْ تَعُدْ تَعْرِفُ الْعَرَقَ
مِثْلَمَا لَا تَعْرِفُ عَيْنَاكَ الدُّمُوعَ.
(وَمَعَ ذَلِكَ فَلَهَا رِقَّتُهَا!)

(٢)

حَمَقَاءَ، سَتَذْهَبِينَ رَأْسًا إِلَى الشَّيْطَانِ!
وَسَأَذْهَبُ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ مَعَكَ،
إِذَا مَا كَانَتْ هَذِهِ السَّرْعَةُ الْمُرْعِبَةُ
لَنْ تَتَسَبَّبَ لِي فِي اهْتِیَاجٍ مَا.
فَلْتَذْهَبِي إِذْنِ، وَحَدِّكِ، إِلَى الشَّيْطَانِ!

حَقْوِي، وَرِثَّتِي، وَبَاطِنُ الرُّكْبَةِ،
لَمْ يَعُودُوا يَسْمَحُونَ لِي بِالشَّئَاءِ
عَلَى هَذَا السَّيِّدِ، كَمَا يَنْبَغِي.
«وَأَسْفَاهُ! يَا لَهُ حَقًّا مِنْ أَمْرِ مُؤَسِفٍ!»
يَقُولُ حَقْوِي وَبَاطِنُ رُكْبَتِي.

آه! فَأَنَا بِصِدْقٍ بَالِغٍ أُعَانِي
مِنْ عَدَمِ الذَّهَابِ إِلَى مَحَافِلِ السَّبْتِ،
لَأَرَى، عِنْدَمَا يَضْطَرُّ كِبَرِيَّتَا،
كَيْفَ تُقْبِلِينَ مُؤَخَّرَتَهُ!
آه! فَأَنَا - بِصِدْقٍ بَالِغٍ - أُعَانِي!

إِنِّي مَغْمُومٌ بِصُورَةِ شَيْطَانِيَّةٍ
مِنْ أَنِّي لَسْتُ شَمْعَدَانِكَ،
مِنْ طَلْبِي مِنْكَ الْإِنْصِرَافَ،
يَا مِشْعَلُ الْجَحِيمِ! فَلْتَحْكُمِي، يَا عَزِيزَتِي،
كَمْ يَنْبَغِي أَنْ أَغْتَمَ،

لَأَنِّي أُحِبُّكَ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ،
فَذَلِكَ مَنْطِقِي تَمَامًا! فِي الْوَاقِعِ،
لَأَنِّي أُرِيدُ الْبَحْثَ عَنْ خُلَاصَةِ الشَّرِّ
وَأَلَّا أُحِبَّ إِلَّا وَحْشًا خَالِصًا،
نَعَمْ، حَقًّا! فَأَنَا أُحِبُّكَ، يَا وَحْشِي الْعَجُوزَ!

فرانشيسكا ماي لود

أبياتٌ كُتبت إلى صانعة قُبعات خبيرة وورعة
(انظر القصيدة فيما سبق من «أزهار الشر»)

نُقُوش

أبيات لبورتريه

السيد أونوريه دومييه

مَنْ نُقَدِّمُ لَكَ صُورَتَهُ،
وَمَنْ فَتْنُهُ، الثَّاقِبُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ،
يُعَلِّمُنَا الصَّحِيحَ مِنْ أَنْفُسِنَا،
ذَلِكَ الرَّجُلُ، أَيُّهَا الْقَارِئُ، حَكِيمٌ.

هُوَ هَجَاءٌ، سَاخِرٌ؛
لَكِنَّ الطَّاقَةَ الَّتِي بِهَا
يَرَسُمُ الشَّرَّ وَعَوَاقِبَهُ،
تُثَبِّتُ جَمَالَ قَلْبِهِ.

ضَحَكُهُ لَيْسَتْ تَكْثِيرَةٌ
مِيلْمُوث^(١) أَوْ مِفِيسْتُو^(٢)

(١) ميلموث: بطل إحدى روايات شارل ماتوران (١٧٨٢-١٨٢٤). وقد باع روحه للشيطان.

(٢) مفيستو: اسم الشيطان في «فاوست» لجوته.

تَحْتَ شُعْلَةِ أَلِيكْتُو^(١)
الَّتِي تُحْرِقُهُمْ، لَكِنَّهَا تُثَلِّجُنَا.

فَضَحَكْتُهُمْ، لِلْأَسَفِ! لَيْسَتْ سِوَى
الكَارِيكَاتِيرِ الْأَلِيمِ لِلْبَهْجَةِ؛
أَمَّا ضِحْكُتُهُ فَتُشْعُّ، صَرِيحَةً وَكَبِيرَةً،
كَشَارَةٍ عَلَى طَبِيبَتِهِ!

(١) أَلِيكْتُو: إحدى جنيات «الإنابة» لفرجيل.

لُولا دي قَالُونَس^(١)

بَيْنَ الْكَثِيرِ مِنَ الْجَمِيلَاتِ اللَّائِي يُمَكِّنُ رُؤْيَتْهُنَّ فِي كُلِّ مَكَانٍ،
أُذْرِكُ جَيِّدًا، يَا أَصْدِقَاءُ، أَنَّ الرَّغْبَةَ تَتَعَادَلُ؛
لَكِنَّ الْمَرْءَ يَرَى فِي لُولا دِي قَالُونَس وَمِیْضَ السَّحْرِ الْمُفَاجِئِ
لِجَوْهَرَةٍ وَرَدِيَّةٍ وَسُودَاءِ.

(١) راقصة باليه إسبانية.

عن «لوتاس سجيناً»^(١)

لأوجين ديلاكروا

الشَّاعِرُ فِي الزَّنَانَةِ، أَشَعَتْ، مَرِيضًا،
وَهُوَ يَمْرُغُ مَخْطُوطًا تَحْتَ قَدَمِهِ الْمُتَشَنِّجَةِ،
يَقِيسُ بِنَظَرَةٍ يُشْعِلُهَا الرُّعْبُ
سُلَّمِ الدُّوَارِ حَيْثُ تَهْوِي رُوحُهُ.

الصَّحِيفَاتُ الْمَخْمُورَةُ الَّتِي تَمَلَأُ السَّجْنَ
تُوجِّهُ عَقْلَهُ نَحْوَ الْغَرِيبِ وَالْعَبِيثِ؛
الشُّكُّ يَلْفُهُ، وَالْخَوْفُ الْأَحْمَقُ،

(١) لوتاس: شاعر روماني كبير (١١ مارس ١٥٤٤ - ٢٥ أبريل ١٥٩٥)، صاحب ملحمة «أورشليم محررة»، عن الحملة الصليبية الأولى. احتجز لسبع سنوات في مستشفى للأمراض العقلية عقاباً له على شتمه بلاط دوق «فرارا»، بعد أن سبق الحكم عليه بالحبس في غرفته لقتله أحد الخدم. انظر جوته: توركوأتو تاسو، ترجمة وتقديم د. عبد الرحمن بدوي، من المسرح العالمي (١٣٢)، الكويت، سبتمبر ١٩٨٠
و«لوتاس سجيناً»: لوحة لأوجين ديلاكروا، الفنان الفرنسي الشهير في القرن التاسع عشر، والذي كان موضع إعجاب بودلير.

البَشْعُ مُتَعَدِّدُ الْأَشْكَالِ، يُحِيطُ بِهِ.

هَذِهِ الْعَبْقَرِيَّةُ الْمَحْبُوسَةُ فِي وَكْرِ مَوْبُوءٍ،
هَذِهِ التَّكْشِيرَاتُ، هَذِهِ الصَّرَخَاتُ، هَذِهِ الْأَطْيَافُ
الَّتِي تُدَوِّمُ حَشْوُهَا، مُهْتَاجَةً خَلْفَ أُذُنِهِ،

وَهَذَا الْحَالِمُ الَّذِي يُوقِظُهُ دُعْرُ مَسْكِنِهِ،
هُوَ - حَقًّا - رَمَزُكَ، أَيْتُهَا الرُّوحُ ذَاتِ الْأَحْلَامِ الْمُظْلِمَةِ،
الَّذِي يَخْنُقُهُ الْوَاقِعُ بَيْنَ جُذُرَانِهِ الْأَرْبَعَةِ!



لوحة «لوتاس سجينًا» لديلاكروا

قصائدُ متنوعة

الصَّوْتُ

مَهْدِي كَانَ يَتَكَيُّ عَلَى الْمَكْتَبَةِ،
 بَابِلَ قَاتِمَةٍ، حَيْثُ الرَّوَايَةُ، وَالْعِلْمُ، وَالْحِكَايَاتُ الشَّعْبِيَّةُ،
 كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَمْتَزِجُ، الرَّمَادُ اللَّاتِينِيُّ وَالْغُبَارُ الْيُونَانِيُّ.
 كُنْتُ بِطُولِ كِتَابِ فُولِيُو^(١)
 كَانَ صَوْتَانِ يَتَحَدَّثَانِ مَعِي. أَحَدُهُمَا، دَاخِلِيٌّ وَحَازِمٌ،
 كَانَ يَقُولُ: «الْأَرْضُ قِطْعَةٌ حَلَوَى مَلِيئَةٌ بِالْعُذُوبَةِ؛
 أَسْتَطِيعُ (وَمُتَعَتِّكَ سَتَكُونُ أَنْتِذِ بِلَا أَنْتِهَاءِ!)
 أَنْ أَمْنَحَكَ شَهِيَّةً بِالضَّخَامَةِ نَفْسِهَا».
 وَالْآخَرُ: «هَيَّا! آه! تَعَالَ لِتُسَافِرَ فِي الْأَحْلَامِ،
 فِيمَا وَرَاءَ الْمُمَكِّنِ، فِيمَا وَرَاءَ الْمَعْرُوفِ!»
 وَكَانَ هَذَا الصَّوْتُ يُعْنِي مِثْلَ رِيحِ السَّوَاكِحِ،
 كَشَبَحٍ صَارِخٍ، لَا أَحَدَ يَذِرِي مِنْ أَيْنَ أَتَى،

(١) قَطَعَ لِلْكَتَبِ مَعْرُوفٌ فِي أَوْرُوبَا.

يُدَاعِبُ أُذُنِي، وَيُخَفِّفُهَا مَعَ ذَلِكَ.
أَجَبْتُكَ: «نَعَمْ! أَيُّهَا الصَّوْتُ الْعَذْبُ!» فَعِنْدِي
بَدَأَ مَا يُمَكِّنُ، لِلْأَسْفِ! أَنْ تُسَمِّيَهُ جُرْجِي وَمُصِيبَتِي.
فَوَرَاءَ زِينَةِ الْوُجُودِ الْهَائِلِ، فِي السَّوَادِ الْأَفْدَحِ لِلْهَائِيَةِ،
أَرَى بُوضُوحِ عَوَالِمَ فَرِيدَةٍ،
وَبِصِيرَتِي الضَّحِيَّةِ الْمُتَشَبِّهِةِ،
أَجْرُ جُرْ خَلْفِي نَعَابِينَ تَقْضُمُ نَعَالِي.
وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ، وَأَنَا، كَالْأَنْبِيَاءِ،
أُحِبُّ بَرَقَةَ الصَّحْرَاءِ وَالْبَحْرِ؛
أَضْحَكُ فِي الْجَنَازَاتِ وَأَبْكِي فِي الْحَفَلَاتِ،
وَأَجِدُ مُنْعَةً عَذْبَةً فِي الْخَمْرِ الْمَرِيرِ؛
وَكَثِيرًا مَا أَعْتَبِرُ الْحَقَائِقَ أَكَاذِبَ،
وَأَهْوِي، فِيمَا الْعَيْنَانِ شَاخِصَتَانِ فِي السَّمَاءِ، فِي الْحُفْرِ.
لَكِنَّ الصَّوْتَ يُعْزِيْنِي وَيَقُولُ: «فَلْتَحْفَظْ بِأَحْلَامِكَ؛
فَالْحُكَمَاءُ لَا يَمْلِكُونَ أَحْلَامًا بِجَمَالِ أَحْلَامِ الْمَجَانِينِ!»

غَيْرُ الْمُنْتَظَرِ

أَرَبَاجُون، الَّذِي كَانَ يَسْهَرُ عَلَى أَبِيهِ الْمُحْتَضِرِ،
يَقُولُ لِنَفْسِهِ، حَالِمًا، أَمَامَ هَذِهِ الشَّفَاهِ الَّتِي ابْيَضَّتْ:
«الَّذِينَ فِي مَخْرَنِ الْغِلَالِ مَا يَكْفِي،
فِيمَا يَبْدُو لِي، مِنْ أَلْوَاكِ الْخَشَبِ الْقَدِيمَةِ؟»

سَلِيمِينَ تَهْدِلُ وَتَقُولُ: «قَلْبِي طَيِّبٌ،
وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ خَلَقَنِي اللَّهُ بِالْعَةِ الْجَمَالِ».
- قَلْبُهَا! قَلْبٌ قَاسٍ، يَنْفُثُ الدُّخَانَ مِثْلَ قِطْعَةِ جَائِمُونَ،
يُجَفِّفُ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى اللَّهَبِ الْأَبَدِيِّ!

صَحْفِي مُشَوَّشٌ، يَظُنُّ نَفْسَهُ مِشْعَلًا،
يَقُولُ لِلْفَقِيرِ، الَّذِي أَعْرَقَهُ فِي الظُّلُمَاتِ:
«أَيْنَ إِذَنْ تَرَاهُ، هَذَا الْمُبْدِعُ لِلْجَمَالِ،
هَذَا الْفَارِسَ الَّذِي تَحْتَفِي بِهِ؟»

أَفْضَلَ مِنَ الْجَمِيعِ، أَعْرِفُ شَخْصًا شَهَوَانِيًّا
يَتَنَاءَبُ لَيْلَ نَهَارٍ، وَيَنُوحُ وَيَبْكِي،
وَهُوَ يُرَدِّدُ، خَائِرًا مَغْرُورًا: «نَعَمْ، أُريدُ
أَنْ أَكُونَ فَاضِلًا، لِمُدَّةِ سَاعَةٍ!»

سَاعَةُ الْحَائِطِ، فِي دَوْرَتِهَا، تَقُولُ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ: «إِنَّهُ نَاضِجٌ،
الْمَلْعُونُ! إِنِّي أَحْذَرُ سُدَى الْجَسَدِ الْعَفِينِ.
الْإِنْسَانُ أَعْمَى، أَصَمُّ، هَشٌّ، كَجِدَارٍ
تَسْكُنُهُ وَتَقْرِضُهُ حَشْرَةٌ!»

آتَيْدُ، يَتَجَلَّى شَخْصٌ مَا، كَانَ قَدْ أَنْكَرَهُ الْجَمِيعُ،
وَيَقُولُ لَهُمْ، سَاخِرًا وَأَبْيَا: «مِنْ وَعَاءِ قُرْبَانِي،
تَنَاوَلْتُمْ، فِيمَا أَظُنُّ، الْقُرْبَانَ بِمَا يَكْفِي،
فِي الْقُدَّاسِ الْأَسْوَدِ الْبَهِيحِ؟

كُلُّ مِنْكُمْ أَقَامَ لِي مَعْبَدًا فِي قَلْبِهِ؛
وَفِي السِّرِّ، قَبَلْتُمْ مُؤَخَّرَتِي الْمُقَرَّرَةَ!
تَتَعَرَّفُونَ عَلَى الشَّيْطَانِ بِضَحَكَتِهِ الظَّافِرَةِ،
الْهَائِلَةِ الْفَيِّحَةِ كَالْعَالَمِ!

فَهَلْ ظَنَنْتُمْ، آتِيذٍ، أَيُّهَا الْمُتَنَفِقُونَ الْمُتَنَدِّهِشُونَ،
 أَنْ يَسْحَرَ الْمَرْءُ مِنَ السَّيِّدِ، وَأَنْ يَخْدَعَهُ وَهُوَ مَعَهُ،
 وَأَنْ يَكُونَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَتَلَقَّى جَائِزَتَيْنِ،
 الذَّهَابَ إِلَى الْفِرْدَوْسِ وَالثَّرَاءَ؟

عَلَى الْفَتِيصَةِ أَنْ تَدْفَعَ لِلصَّيَّادِ الْقَدِيمِ
 الَّذِي يُعَانِي طَوِيلًا مُتَرَبِّصًا بِالْفَرِيَسَةِ.
 سَأَحْذُكُم خِلَالَ الْكَثَافَةِ،
 رِفَاقًا لِبَهْجَتِي الْحَزِينَةِ،

خِلَالَ كَثَافَةِ الْأَرْضِ وَالْحَجَرِ،
 خِلَالَ أَكْدَاسِ رَمَادِكُمِ الْمُضْطَرِبَةِ،
 إِلَى قَصْرِ كَبِيرٍ مِثْلِي، مِنْ كُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ،
 لَيْسَتْ مِنْ حَجَرٍ رَخْوٍ؛

لَأنَّهُ أُقِيمَ مِنَ الْفُجُورِ الْكُونِيِّ،
 وَيَنْطَوِي عَلَى كِبَرِيَائِي، وَعَذَائِي، وَمَجْدِي!
 - آتِيذٍ، جَائِمًا فِي أَعَالِي الْكُونِ،
 دَوَى مَلَائِكُ بِانْتِصَارِ

مَنْ تَقُولُ قُلُوبُهُمْ: «فَلْيَبَارِكْ سَوْطُكَ،
سَيِّدِي! فَلْيَبَارِكْ، يَا أَبَانَا، الْأَلَمُ!
رُوحِي فِي يَدِكَ لَيْسَتْ لُغْبَةً بَاطِلَةً،
وَحَكْمَتُكَ لَانِهَائِيَّةٌ».

صَوْتُ الْبُوقِ بَالِغُ الْعُدُوبَةِ،
فِي هَذِهِ الْأُمُوسِيَّاتِ الْمُهَيِّبَةِ مِنَ الْقَطَافِ السَّمَائِيِّ،
فَيَتَسَرَّبُ مِثْلَ نَشْوَةٍ دَاخِلَ كُلِّ هَوَلاءَ
الَّذِينَ يُنْشِدُ مَدَائِحَهُمْ.

الفدية

لَدَى الْإِنْسَانِ، مِنْ أَجْلِ دَفْعِ فِدْيَتِهِ،
 حَقْلَانِ مِنْ تُرْبَةِ خِصْبَةٍ وَعَمِيقَةٍ،
 عَلَيْهِ أَنْ يُقَلِّبَهَا وَيَسْتَصْلِحَهَا
 بِنَصْلِ الْعَقْلِ؛

فَلِلْحُصُولِ عَلَى أَقَلِّ وَرْدَةٍ،
 لِإِنْبَاتِ بَضْعِ سَنَابِلِ،
 فَلَا بُدَّ أَنْ يَرْوِيَهَا بِلَا انْتِهَاءٍ
 بِقَطَرَاتِ مَالِحَةٍ مِنْ جَبِينِهِ الرَّمَادِيِّ.

أَحَدُهُمَا هُوَ الْفَنُّ، وَالْآخَرُ الْحُبُّ.
 - وَحَتَّى يُصْبِحَ الْحُكْمُ مُلَائِمًا،
 عِنْدَمَا يَتَجَلَّى الْيَوْمُ الْمَشْهُودُ
 لِلْعَدْلِ الصَّارِمِ،

فَلَا بُدَّ أَنْ يَرَى مَخَازِنَ
مَلَأَى بِالْحَصَادِ، وَبِالزُّهُورِ
الَّتِي تَلْقَى أَشْكَالَهَا وَأَلْوَانُهَا
رِضًا الْمَلَائِكَةِ.

إلى امرأة من مَلَا بَار

قَدَمَاكِ بِمِثْلِ رَهَافَةٍ يَدَيْكِ، وَفَخْذُكِ
 كَبِيرٌ بِمَا يَدْفَعُ أَجْمَلَ امْرَأَةٍ بَيِّضَاءَ إِلَى الْغِيَرَةِ؛
 وَجَسَدُكِ - لِفَتْنَانِ الْمُتَأَمِّلِ - عَذْبٌ وَأَثِيرٌ؛
 عَيْنَاكِ الْوَاسِعَتَانِ الْقَطِيفَتَانِ أَكْثَرُ سَوَادًا مِنْ جَسَدِكَ.
 فِي الْبِلَادِ الْحَارَّةِ الزَّرْقَاءِ حَيْثُ جَعَلَكَ رَبُّكَ تُوَلِّدِينَ،
 مُهَمَّتُكِ هِيَ إِشْعَالُ الْغُلْيُونِ لِسَيِّدِكَ،
 وَمَلَأُ الْقَوَارِيرَ بِالمَاءِ الْبَارِدِ الْمُعْطَّرِ،
 وَمُطَارَدَةُ النَّامُوسِ الْجَوَالِ بَعِيدًا عَنِ الْفِرَاشِ،
 وَشِرَاءُ الْإِنَّاسِ وَالْمُوزِ مِنَ السُّوقِ
 مَا إِنْ يَدْفَعُ الصَّبَاحُ أَشْجَارَ الدَّلْبِ لِلْغِنَاءِ.
 طَوَالَ الْيَوْمِ، تَقْوِدِينَ قَدَمَيْكِ الْحَافِيَتَيْنِ إِلَى حَيْثُ تُرِيدِينَ،
 وَتُدْنِدِينَ بِصَوْتِ خَفِيزِ نَعْمَاتٍ قَدِيمَةٍ مَجْهُولَةٍ؛
 وَحِينَمَا يَحِلُّ الْمَسَاءُ ذُو الْمِعْطَفِ الْقُرْمُزِيِّ،

تَضَعِينَ بَرَقَّةَ جَسَدِكَ عَلَى حَصِيرٍ مِنْ قَصَبٍ،
حَيْثُ تَمْتَلِئُ أَحْلَامُكَ الطَّافِيَّةُ بِالْعَصَافِيرِ الْمُلوَّنةِ،
الرَّشِيقَةِ الْمُزْدَهَرَةِ دَائِمًا، مِثْلَكَ.
فَلِمَآذَا - أَيُّهَا الطُّفْلَةُ السَّعِيدَةُ - تُرِيدِينَ رُؤْيَا بَلَدِنَا فَرْنَسَا؟
هَذَا الْبَلَدُ الْمُزْدَحِمُ بِالسُّكَّانِ الَّذِي يَحْصُدُ الْأَلَمَ،
وَإِذْ تَعْهَدِينَ بِحَيَاتِكَ إِلَى الْأَذْرِعَةِ الْقَوِيَّةِ لِلْبَحَّارَةِ،
تَقُومِينَ بِالْوَدَاعِ الْكَبِيرِ لِأَشْجَارِ التَّمْرِ الْهِنْدِيِّ الْعَزِيزَةِ عَلَيْكَ؟
أَنْتِ، الَّتِي يَكْسُو جَسَدُكَ الْمُسْلِينَ الْخَفِيفَ،
مُرْتَعِدَةً هُنَاكَ تَحْتَ الثَّلُوجِ وَالْبَرَدِ،
كَمْ سَتَبْكِينَ أَوْقَاتَ فَرَاغِكَ الْعَذْبَةِ الصَّادِقَةِ،
إِذَا مَا كَانَ عَلَيْكَ، وَمِشْدُ الْخَضِرِ الْوَحْشِيِّ يَسْجُنُ ضُلُوعَكَ،
أَنْ تَلْتَقِطِي عَشَاءَكَ فِي مَبَاءِاتِنَا
وَتَبِيعِي عِطْرَ مَفَاتِنِكَ الْغَرِيبَةِ،
وَالْعَيْنُ مَهْمُومَةٌ، بِأَحْتَةٍ، فِي صَبَابِنَا الْقَدِيرِ،
عَنِ الْأَشْبَاحِ الْمُتَنَاطِرَةِ لِأَشْجَارِ جُوزِ الْهِنْدِ الْغَائِبَةِ!

هَزَلِيَّات

عَنْ بَدَايَاتِ أَمِينَةِ بُوشْتِي

في مسرح لامونيه، في بروكسل

أَمِينَةُ تَقْفِرُ، - تَقْرَرُ، - ثُمَّ تُرْفِرُ وَتَبْتَسِمُ؛
يَقُولُ الْغَالِي^(١): «كُلُّ هَذَا، لِي أَنَا، تِلْكَ لَهْجَةُ هِنْدِيَّةٍ؛
وَلَا أَعْرِفُ، فِي الْوَاقِعِ مِنْ حُورِيَّاتِ الْأَخْرَاجِ،
إِلَّا حُورِيَّاتِ مُونْتَانِي أَوْزِيرِبْ بُوتَا جِير^(٢)».

بَطْرَفِ قَدَمِهَا الرَّهِيْفَةَ وَبَعَيْنِهَا الضَّاحِكَةَ،
تَنْشُرُ أَمِينَةُ فِي مَوْجَاتِ الْجُنُونِ وَالْعَقْلِ؛
يَقُولُ الْغَالِي: «فَلْتَقَرِّي، أَبْتُهَا الْمَلَذَّاتُ الْكَاذِبَةُ!
فَزَوْجَتِي لَيْسَتْ لَدَيْهَا هَذِهِ الْحَرَكَاتُ الْخَفِيفَةُ».

تَتَجَاهَلُونَ، كَأَنِّي سِلْفِ ذَاتِ عُرْقُوبٍ ظَافِرٍ،

(١) نسبة إلى بلاد الغال.

(٢) أحد شوارع «بروكسيل» الرئيسة، على عهد «بودلير».

يَا مَنْ تُرِيدُونَ تَعْلِيمَ الْفِيلِ رَقْصَةَ الْفَالَسِ،
وَالْبُومَةَ الْمَرَحَ، وَاللَّقْلَقَ الصَّحِكَ،

أَنَّ الْغَالِيَّ فِي غَمْرَةِ الْأَنَاقَةِ يَقُولُ: «عَلَيْكُمْ بِهِمْ!»
وَإِذَا يَصُبُّ لَهُ بَاخُوسُ الرَّقِيقِ نَبِيذَ بُورْجُونِي،
يَقُولُ لَهُ الْمَسْخُ: «إِنِّي أَفْضَلُ الْبِيرَةِ!»

إلى السيد أوجين فرومينتان

فيما يتعلق بشخصٍ مُزعجٍ يدَّعي أنه صديقه

يَقُولُ لِي إِنَّهُ كَانَ وَاسِعَ الثَّرَاءِ،

لَكِنَّهُ كَانَ يَخْشَى الْكُؤْلِيرَا:

- إِنَّهُ كَانَ بَخِيلًا بِذَهَبِهِ،

لَكِنَّهُ كَانَ يَسْتَمْتِعُ كَثِيرًا بِالْأُوبرَا؛

- إِنَّهُ كَانَ مُوَلَّعًا بِالطَّيْبَةِ،

عِنْدَمَا عَرَفَ السَّيِّدَ كُورُو؛

- إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ سَيَّارَةٌ أَيْضًا،

لَكِنَّهَا سَرَّعَانَ مَا سَتَأْتِي؛

- إِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ الرُّخَامَ وَالْقِرْمِيدَ،

الْخَشَبَ الْأَسْوَدَ وَالْخَشَبَ الْمُذَهَّبَ؛

- إِنَّ لَدَيْهِ فِي مَصْنَعِهِ

ثَلَاثَةٌ مِنْ رُؤَسَاءِ الْعَمَالِ مِنْ ذَوِي الْأَوْسَمَةِ؛

- إِنَّ لَدَيْهِ، دُونَ اخْتِسَابِ الْبَقِيَّةِ،
عِشْرِينَ أَلْفَ سَهْمٍ فِي الـ «نُور»^(١)؛
وَإِنَّهُ عَثَرَ، كَحَاجِرٍ،
عَلَى إِطَارَاتِ لَوْحَاتِ لـ «أُوبَيْنُور»^(٢)؛

- إِنَّهُ كَانَ يَسْتَسْلِمُ (فِي لُوزَارَش)
إِلَى سِقْطِ الْمَتَاعِ حَتَّى الْعُنُقِ،
وَإِنَّهُ فِي سُوقِ الْبَطَارِكَةِ
حَقَّقَ أَكْثَرَ مِنْ صَرْيَةٍ جَيِّدَةٍ؛

- إِنَّهُ لَمْ يُحِبْ زَوْجَتَهُ كَثِيرًا،
وَلَا أُمَّهُ؛ - لَكِنَّهُ يُؤْمِنُ
بِخُلُودِ الرُّوحِ،
وَإِنَّهُ قَرَأَ نَبِيُويَهُ^(٣)!

- إِنَّهُ يَمِيلُ إِلَى الْحُبِّ الْجَسَدِيِّ،

(١) شركة للسكك الحديدية.

(٢) فنان ديكور معروف في ذلك الحين.

(٣) مؤلف روايات أخلاقية، معاصر لبودلير.

وَفِي رُومًا، مَقَامِ الضَّجَرِ،
هُنَاكَ امْرَأَةٌ، بَغَضَ النَّظَرِ عَنْ أَنَّهَا مَهْزُولَةٌ،
مَاتَتْ مِنْ حُبِّهَا لَهُ.

وَحِلَالُ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ وَنِصْفٍ،
أَتَى هَذَا الثَّرَنَارُ، الْقَادِمُ مِنْ تُونِسَ،
عَلَى حَيَاتِهِ كُلِّهَا لِي؛
وَتَبَلَّلَتْ رَأْسِي.

وَإِذَا مَا كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَصِفَ أَلَمِي،
فَلَنْ يَنْتَهِيَ ذَلِكَ؛
كُنْتُ أَقُولُ لِنَفْسِي، قَامِعًا بُغْضِي:
«عَلَى الْأَقْل، لَوْ أَسْتَطِيعُ النَّوْمَ!»

وَكَشَخَصٍ لَيْسَ عَلَى رَاحَتِهِ
وَلَا يَجْرُؤُ عَلَى الانْصِرَافِ،
حَكَكْتُ مُؤَخَّرَتِي بِالْكُرْسِيِّ،
حَالِمًا بِأَنْ تَتَخَوَّزَ.

هَذَا الْوَحْشُ يُسَمَّى بَاسْتُونِي؛

كَانَ يَهْرُبُ أَمَامَ الْبَلَاءِ.
وَأَنَا، سَأَهْرُبُ حَتَّى كَاسِجُونِي،
أَوْ أَرْمِي بِنَفْسِي فِي الْمَاءِ،

إِذَا مَا كَانَ فِي بَارِيسَ هَذِهِ، الَّتِي يَخْشَاهَا،
عِنْدَمَا سَيَعُودُ كُلُّ شَخْصٍ،
سَأَجِدُ أَيْضًا فِي طَرِيقِي
هَذَا الْبَلَاءَ، الْمَوْلُودَ فِي تُورَناي.

بروكسيل، ١٨٦٥

حانة مَرَحَة

على طريق بروكسل - أوكل

أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤَلَّعُونَ بِالْقَوَالِبِ الْجَافَّةِ

وَالرُّمُوزِ الْكَرِيهَةِ،

لِتَتَبَّيَلِ الشَّهَوَاتِ،

(كَانَ ذَلِكَ عَجَّةً يَبْضِي بِسَيْطَةٍ!)

أَيُّهَا الْفِرْعَوْنُ الْعَجُوزُ، يَا «مُونَسُولِيَه»^(١)!

أَمَامَ هَذِهِ اللَّافِتَةِ الْمُفَاجِئَةِ

حَلُمْتُ بِكُمْ: مَشْهَدُ

الْمَقْبَرَةِ، حَانَةٌ!

(١) صديق «لبودلير».

إضافة الطبعة الثالثة

من «أزهار الشر» (١٨٦٨)

نُبذة

لكتاب مُدان

أَيُّهَا الْقَارِئُ الْوَدِيعُ وَالرَّعَوِيُّ،
الرُّجُلُ الصَّالِحُ السَّاذِجُ الْقُنُوعُ،
فَلْتَرَمْ هَذَا الْكِتَابَ الزُّحَلِيَّ
الْعَرِيدَ وَالْكَيْبِ.

فَإِنْ لَمْ تُشَكِّلْ بِلَاعَتِكَ
لَدَى الشَّيْطَانِ، الْعَمِيدِ الْمُحْتَالَ،
فَارْمِهِ! فَلَنْ تَفْهَمَ مِنْهُ شَيْئًا،
أَوْ سَتَظُنُّ أَنِّي مُصَابٌ بِالْهَيْسَتِيرِيَا.

لَكِنْ إِذَا مَا كَانَتْ عَيْنُكَ تَعْرِفُ الْغَوْصَ فِي الْمَهَاوِي،
دُونَ الْاسْتِسْلَامِ لِلْفِتْنَةِ،
فَاقْرَأْنِي، لِتَتَعَلَّمَ أَنَّ نُحِبَّ نِي؛

أَيُّهَا الرُّوحُ الْقَلِيقَةُ الَّتِي تُعَانِي
وَتَمْضِينَ لِلْبَحْثِ عَنْ فِرْدَوْسِكَ،
فَلْتَرْتِي لِي!... وَإِلَّا، فَعَلَيْكَ اللَّعْنَةُ!

إلى تيودور دي بانفيل^(١) (١٨٤٢)

لَقَدْ قَبَضْتَ شَعَرَ الرَّبَّةِ الْغَزِيرِ
 بِقَبْضَةٍ قَوِيَّةٍ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَرُونَ،
 وَسِمَاءَ الْأُسْتَاذِيَّةِ وَهَذَا الْفُتُورُ الْجَمِيلُ،
 قَوَّادًا شَابًا يَصْرَعُ عَشِيقَتَهُ.

وَالْعَيْنُ صَافِيَةٌ وَمُفَعَّمَةٌ بِنَارِ النُّضْجِ الْمُبَكَّرِ،
 زَهَوَتْ بِكِبَرِيَاءِ الْمِعْمَارِيِّ فِيكَ
 فِي أَبْنِيَةٍ كَسَفَتْ جُرْأَتَهَا الصَّائِبَةَ
 عَمَّا سَيَتَوَلَّى إِلَيْهِ نَضْجُكَ.

أَيُّهَا الشَّاعِرُ، دُمْنَا يَفِرُّ مِنَّا مِنْ كُلِّ الْمَسَامِ؛

(١) تيودور دي بانفيل: شاعر فرنسي (١٨٢٣ - ١٨٩١)، صديق «بودلير». وقد شارك في إعداد الطبعة الثالثة من «أزهار الشر»، بعد وفاة شاعرها.

أَبْمَحْضِ الصُّدْفَةِ أَنَّ رِذَاءَ الْقَنْطُورِ،
الَّذِي حَوَّلَ كُلَّ شُرْبَانٍ إِلَى تَبْعٍ جَنَائِزِيٍّ،

كَانَ مَصْبُوغًا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِاللُّعَابِ الرَّقِيقِ
لِهَذِهِ الزَّوَاحِفِ الْوَحْشِيَّةِ الْحَاقِدَةِ
الَّتِي خَنَقَهَا «هَرَقُلُ» الصَّغِيرُ فِي الْمَهْدِ؟

غليون السلام

تقليدًا لـ لونجفيلو^(١)

(١)

وَالآن نَزَلَ جَيْتَشْ مَاينْتُو، سَيِّدُ الْحَيَاةِ،
الْقَدِيرُ، إِلَى الْبَرِّيَّةِ الْخَضِرَاءِ،
إِلَى الْبَرِّيَّةِ الشَّاسِعَةِ ذَاتِ التَّلَالِ الْوَعْرَةِ؛
وَهُنَاكَ، عَلَى صُخُورٍ «لَا رُوجَ كَارِيرِ»،
مُهِيمِنًا عَلَى كُلِّ الْفَضَاءِ وَمُتَحَمِّمًا بِالضِّيَاءِ،
انْتَصَبَ وَاقِفًا، ضَخْمًا وَمَهِيْبًا.

اتَّبَعِ اسْتَدْعَى النَّاسِ الَّذِينَ يَفُوقُونَ الْحَضَرَ،
الْأَكْثَرَ عَدَدًا مِنَ الْأَعْشَابِ وَحَبَّاتِ الرَّمَالِ.
وَبِيَدِهِ الرَّهِيْبَةِ كَسَرَ قِطْعَةً صَخْرٍ،
صَنَعَ مِنْهَا غُلْيُونًا رَائِعًا،

(١) لونجفيلو: شاعر أمريكي.

ثُمَّ، عَلَى حَافَةِ النَّعِ، اخْتَارَ بُوصَةً طَوِيلَةً،
مِنْ حِزْمَةٍ صَخْمَةٍ، لِيَصْنَعَ مِنْهَا أَنْبُوبًا.

وَلِيَمْلَأَهُ أَخَذَ لِحَاءَ الصَّنْصَافِ؛
وَوَاقِفًا، الْجَبَّارُ، خَالِقُ الْقُوَّةِ،
أَشْعَلَ، مِثْلَ مِشْعَلِ سَمَاوِيٍّ،
غُلْيُونَ السَّلَامِ. وَاقِفًا عَلَى الْكَارِيرِ
كَانَ يُدَخِّنُ، مُتَّصِبًا، رَائِعًا وَمُتَحَمِّمًا بِالضِّيَاءِ.
وَالآنَ كَانَتْ تِلْكَ هِيَ الْإِشَارَةُ الْعَظِيمَةُ لِلْأَمَمِ.

وَبِطْءٍ تَصَاعَدَ الدُّخَانُ السَّمَاوِيَّ
فِي الْهَوَاءِ الرَّهِيْفِ لِلصَّبَاحِ، مَائِجًا، عَطِرًا.
فِي الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سِوَى أُخْدُودٍ مُظْلِمٍ؛
ثُمَّ أَصْبَحَ الْبُخَارُ أَكْثَرَ زُرْقَةً وَكَثَافَةً،
ثُمَّ ابْيَضَّ؛ وَمُتَّصِعِدًا، مُتَعَاظِمًا بِلَا انْتِهَاءٍ،
مَضَى لِيَتَكَسَّرَ عَلَى سَقْفِ السَّمَاوَاتِ الْيَابِسِ.

مِنْ أَبْعَدِ قِمَمِ الْجِبَالِ الصَّخْرِيَّةِ،
مِنْ بُحَيْرَاتِ الشَّمَالِ ذَاتِ الْأَمْوَاجِ الصَّاخِبَةِ،
مِنْ «تَاوَأَسْتَا»، الْوَادِي بِلَا نَظِيرِ،
إِلَى «تُوسْكَالُوسَا»، الْغَايَةِ الْعَطِرَةِ،

رَأَى الْجَمِيعُ الْإِشَارَةَ وَالْدُّخَانَ الْهَائِلَ
الْمُتَّصِعِدَ بِسَلَامٍ فِي الصَّبَاحِ الْوَرْدِيِّ.

كَانَ الْأَنْبِيَاءُ يَقُولُونَ: «هَلْ تَرَوْنَ
سِرْبَ الْبُخَارِ هَذَا، الَّذِي، كَيْدَ أَمْرَةٍ،
يُورِضُ وَيَتَجَلَّى أَسْوَدَ إِزَاءِ الشَّمْسِ؟
إِنَّهُ جَيْشٌ مَا نَيْتُو، سَيِّدُ الْحَيَاةِ،
الَّذِي يَقُولُ لِلْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ لِلْبَرِّيَّةِ الْهَائِلَةِ:
«أَيُّهَا الْمُحَارِبُونَ، إِنِّي أَسْتَدْعِيكُمْ جَمِيعًا لَأَسْتِشَارَتِي!»

عَلَى دَرْبِ الْمِيَاهِ، عَلَى طَرِيقِ الشُّهُولِ،
عَلَى الْجَوَانِبِ الْأَرْبَعَةِ حَيْثُ تَهْبُّ أَنْفَاسُ الرِّيَّاحِ،
أَتَى جَمِيعُ مُحَارِبِي كُلِّ قَبِيلَةٍ، كُلُّهُمْ،
مُدْرِكِينَ إِشَارَةَ الْغَيْمَةِ الْمُتَحَرِّكَةِ،
طَائِعِينَ إِلَى «لَاكَارِيرُ رُوج»
حَيْثُ صَرَبَ لَهُمْ «جَيْشٌ مَا نَيْتُو» مَوْعِدًا.

تَوَقَّفَ الْمُحَارِبُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ الْخَضِرَاءِ،
مُدْجَجِينَ كُلُّهُمْ لِلْحَرْبِ، وَسِيمَاؤُهُمْ شَدِيدَةُ الْمِرَاسِ،
مُبْرَقَشِينَ كَوَرَقَةِ شَجَرٍ خَرِيفِيَّةٍ؛
وَالْكَرَاهِيَةُ الَّتِي تَدْفَعُ كُلَّ الْكَائِنَاتِ إِلَى الْقِتَالِ،

الكَرَاهِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تُوقِدُ عُيُونَ أَسْلَافِهِمْ
مَا تَرَالُ تُشْعِلُ عُيُونَهُمْ بِنَارٍ وَبَيْلَةٍ.

كَانَتْ عُيُونُهُمْ مُنْعَمَةً بِنَارٍ وَرَآئِيَّةٍ.
وَالْآنَ كَانَ «جَيْشُ مَايِنْتُو»، سَيِّدُ الْأَرْضِ،
يَتَأَمَّلُهُمْ جَمِيعًا بِشَفَقَةٍ،
مِثْلَ أَبِي بَالِغِ الطَّيِّبَةِ، عَدُوِّ لِقَوَضَى،
يَرَى أَحِبَّاءَهُ الصَّغَارَ يَتَفَاتُلُونَ وَيَتَعَاْضُونَ.
هَكَذَا كَانَ «جَيْشُ مَايِنْتُو» بِالنِّسْبَةِ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ.

مَدَّ فَوْقَهُمْ ذِرَاعَهُ الْيُمْنَى الْقَوِيَّةَ
لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَطَبِيعَتِهِمُ الْقَاسِيَةِ،
لِتَبْرِيدِ حُمَاهُمْ فِي ظِلِّ يَدِهِ؛
ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ بِصَوْتِهِ الْمَهِيبِ،
الشَّبِيهِ بِصَوْتِ مَاءٍ صَاحِبِ
يَسَاقُطُ فَيُصْدِرُ صَوْتًا وَخَشِيًّا، فَوْقَ الْإِنْسَانِيِّ.

(٢)

«يَا سُلَاكِي، الْمُحْزَنَةُ وَالْحَبِيبَةُ!
يَا أَبْنَائِي! فَلتَسْمَعُوا الْعَقْلَ السَّمَاوِي.
هَآ هُوَ «جَيْشُ مَايِنْتُو»، سَيِّدُ الْحَيَاةِ،

مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَكُمْ! هُوَ الَّذِي وَضَعَ فِي مَوْطِنِكُمْ
الدَّبَّيَّةَ، وَالْفَنَدَسَ، وَالرَّثَّةَ، وَالثَّوَرَ الْبَيْسُونَ.

جَعَلْتُ لَكُمْ صَيْدَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْأَسْمَاكِ سَهْلًا؛
فَلِمَاذَا إِذَنْ يُصْبِحُ الصَّيَّادُ قَاتِلًا؟
بِسَبَبِي تَعَمَّرَ الْمُسْتَنْفَعُ بِالِدَوَاجِنِ؛
فَلِمَاذَا لَا تَكْتَفُونَ، أَيُّهَا الْأَبْنَاءُ الْمُعَانِدُونَ؟
لِمَاذَا يَصْنَعُ الرَّجُلُ مِنْ جَارِهِ صَيْدًا؟

أَنَا حَقًّا مُرْهَقٌ تَمَامًا مِنْ حُرُوبِكُمُ الْمُفْرِعَةِ.
وَصَلَوَاتُكُمْ، وَحَتَّى عُهُودُكُمْ إِهَانَاتٍ!
الْخَطَرُ يَكْمُنُ فِي أَمْرِ جَيْتِكُمُ الْمُتَنَاقِضَةِ،
وَفِي الْوَحْدَةِ تَكْمُنُ قُوَّتُكُمْ. فَلْتَعِيشُوا إِذَنْ
أَشِقَاءَ، وَتَعَلَّمُوا الْمُحَافَظَةَ عَلَى السَّلَامِ.

سَرَّعَانَ مَا سَتَتَلَفُونَ مِنْ يَدَيِ نَبِيٍّ
سَيَأْتِي لِيُعَلِّمَكُمْ وَيُعَانِي مَعَكُمْ.
كَلَامُهُ سَيَصْنَعُ عَيْدًا مِنَ الْحَيَاةِ؛
لَكِنْ إِذَا مَا ارْزَدَرْتُمْ حِكْمَتَهُ الْمُكْتَمِلَةَ،
أَيُّهَا الْأَطْفَالُ الْبَائِسُونَ الْمَلَاعِينِ، فَسَتَلَاشُونَ جَمِيعًا!

وَفِي الْأَمْوَاجِ تُمْحَى أَصْبَاغُكُمُ الْقَاتِلَةِ.
 الْقَصَبُ كَثِيرٌ وَالصَّخْرُ كَثِيفٌ؛
 وَيُمْكِنُ لِكُلِّ مِنْكُمُ أَنْ يَصْنَعَ عُثْيُونَهُ. لَا حُرُوبَ بَعْدَ الْآنِ،
 لَا دِمَاءَ بَعْدَ الْآنِ! فَلْتَعِيشُوا أَشَقَاءَ مِنَ الْآنِ،
 وَلْتَدْخُنُوا، جَمِيعًا، مُتَّحِدِينَ، عُثْيُونَ السَّلَامِ!»

(٣)

وَفَجْأَةً إِذَا بِهِمْ جَمِيعًا، مُطِيعِينَ بِأَسْلِحَتِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ،
 يَغْسِلُونَ فِي النَّبْعِ أَصْبَاغَ الْحَرْبِ
 الَّتِي كَانَتْ تَلْتَمِعُ عَلَى جِبَاهِهِمُ الْقَاسِيَةِ الظَّافِرَةِ.
 كُلُّ مِنْهُمْ يُجَوِّفُ عُثْيُونًا وَيَقْطَعُ مِنَ الشَّاطِئِ
 قِصْبَةً طَوِيلَةً يُزِينُهَا بِبَرَاعَةٍ.
 وَضَحِكَتِ الرُّوحُ مِنْ أَطْفَالِهَا الْبَائِسِينَ!

عَادَ كُلُّ مِنْهُمْ وَرُوحُهُ هَادِئَةٌ وَمَأْخُودَةٌ،
 وَ«جَيْتَشَ مَا نَيْتُو»، سَيِّدُ الْحَيَاةِ،
 عَادَ إِلَى الصُّعُودِ مِنَ الْبَوَابَةِ الْمَفْتُوحَةِ لِلسَّمَاوَاتِ.
 - خِلَالَ الْبُخَارِ الرَّائِعِ لِلْغُيُومِ
 صَعَدَ الْجَبَّارُ، رَاضِيًا عَنْ عَمَلِهِ،
 عَظِيمًا، مُعْطَرًّا، مَهِيَّبًا، مُضِيئًا!

صَلَاةٌ وَثْنِي

أِهْ! لَا تُخَفِّفِي شُغْلَاتِكَ؛
 فَلْتُدْفِنِي قَلْبِي الْفَاتِر،
 أَيُّهَا الشَّهْوَةُ، يَا عَذَابَ الْأَرْوَاحِ!
 أَيُّهَا الرَّبُّ، فَلْتَسْتَجِبِي لِمُتَوَسِّلٍ! ^(١)

أَيُّهَا الرَّبُّ الْمُتَشِيرَةُ فِي الْهَوَاءِ،
 شُعْلَةٌ فِي سِرْدَابِنَا!
 فَلْتَسْتَجِبِي لِرُوحٍ مَقْرُورَةٍ،
 تَنْذِرُ لَكَ أُغْنِيَةً مِنْ فُؤَادٍ.

أَيُّهَا الشَّهْوَةُ، فَلْتَكُونِي دَائِمًا مَلِيكَتِي!
 فَلْتَتَّخِذِي فَنَاعَ جَنِّيَةِ بَحْرٍ
 مَجْبُولَةٍ مِنْ لَحْمٍ وَقَطِيفَةٍ،

(١) الجملة - في الأصل - مكتوبة باللاتينية.

أَوْ فَلَْتَصُبِّي عَلَيَّ نُعَاسَكَ الثَّقِيلَ
فِي الْخَمْرِ الرُّوحِي بِلاَ سُكُلٍ،
أَيُّهَا الشَّهْوَةُ، أَيُّهَا الشَّبَحُ الطَّيِّعُ!

الغطاء

أَيْنَمَا يَذْهَبُ، عَلَى الْبَحْرِ أَوْ عَلَى الْأَرْضِ،
 فِي مَنَاحٍ مِنْ لَهَبٍ أَوْ تَحْتَ شَمْسٍ يَبْضَاءِ،
 خَادِمًا لِيَسُوعَ، أَوْ نَدِيمًا فِي سِثِيرِيَا،
 شَحَاذًا كَثِيرًا أَوْ كَرِيسُوسَ^(١) لَامِعًا،

ابْنَ مَدِينَةٍ، أَوْ قَرْوِيًّا، مُتَشَرِّدًا أَوْ مُقِيمًا،
 سَوَاءً كَانَتْ رَأْسُهُ الصَّغِيرَةُ نَشِطَةً أَمْ خَامِلَةً،
 فَالْإِنْسَانُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُعَانِي الْخَوْفَ مِنَ الْغَامِضِ،
 وَلَا يَنْظُرُ إِلَى أَعْلَى إِلَّا بِعَيْنٍ مُرْتَعِدَةٍ.

إِلَى الْأَعْلَى، السَّمَاءُ! جِدَارُ الْكَهْفِ الْخَائِقِ لَهُ،
 سَقْفٌ مُضِيءٌ بِأَوْبَرَا غَنَائِيَّةٍ
 حَيْثُ يَطَأُ كُلُّ بَهْلَوَانٍ أَرْضًا دَامِيَةً؛

(١) أحد ملوك ليديا، كان اسمه مرادفًا للثروة الخرافية.

خَوْفُ الزُّنْدِيقِ، وَأَمَلُ النَّاسِكِ الْمَخْبُولِ؛
السَّمَاءُ! غِطَاءٌ أَسْوَدُ لِلْقَدْرِ الْهَائِلِ
الَّذِي تَغْلِي فِيهِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْهَائِلَةُ غَيْرُ الْمَنْظُورَةِ.

اختبار منتصف الليل

سَاعَةُ الْحَائِظِ، وَهِيَ تَدُقُّ مُتَّصِفَ اللَّيْلِ،

تَدْعُونَا بِسُخْرِيَّةٍ

إِلَى تَذَكُّرِ

كَيْفَ اسْتَخْدَمْنَا الْيَوْمَ الْمُتَقْصِي؛

- الْيَوْمَ، تَارِيخُ مُقَدَّرٍ،

الْجُمُعَةُ، الثَّالِثَ عَشَرَ،

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مَا نَعْرِفُ،

عِشْنَا عِيشَةً هَرْطَقِي.

شَتَمْنَا يَسُوعَ،

الْأَكْثَرُ رُسُوحًا فِي الْإِلَهَةِ!

وَكَطَفْنَاهُ عَلَى مَاثِدَةٍ،

كَكْرِيسُوسَ مَا وَخْشِي،

كُنَّا، لِإِرْضَاءِ الْوَحْشِ،

التَّابِعِ عَنْ جَذَارَةٍ لِلشَّيَاطِينِ،
قَدْ أَهَنَّا مَا نُحِبُّ
وَأَمْتَدَحْنَا مَا يُنْفَرْنَا؛

كَجَلَادٍ دَنِيٍّ، أَصَبْنَا بِالنَّكَدِ
الشَّخْصَ الضَّعِيفَ، الْمُزْدَرَى عَنْ خَطَأٍ؛
أَدَيْنَا التَّحِيَّةَ لِلْبَلَاهَةِ الْكَبِيرَةِ،
الْبَلَاهَةِ ذَاتِ جَبِينِ الثَّوْرِ؛
قَبَّلْنَا الْمَادَّةَ الْبَلِيدَةَ
بِإِخْلَاصٍ عَظِيمٍ،
وَبَارَكْنَا الضُّوءَ الشَّاحِبَ
لِلْأَنْجِلَالِ.

وَأَخِيرًا، لِنُغْرِقَ
الدُّوَارَ فِي الْهَدْيَانِ،
نَحْنُ، الْكَاهِنَ الْفَخُورَ بِالْقَيْثَارِ،
مَنْ مَجْدُهُ نَشْرُ
سُكْرِ الْأَشْيَاءِ الْكَيْبَةِ،
شَرِبْنَا بِلاَ عَطَشٍ وَأَكَلْنَا بِلاَ جُوعٍ!...
- أَسْرِعُوا فَأَطْفِئُوا الْمِصْبَاحَ،
حَتَّى تَتَخَفَّى فِي الظُّلُمَاتِ!

غَزَلِيَّةُ حَزِينَةٍ

(١)

مَا أَهَمِّيَّةٌ أَنْ تَكُونِي مُتَعَقِّلَةً؟
 فَلْتَكُونِي جَمِيلَةً! وَلْتَكُونِي حَزِينَةً!
 فَالْدُمُوعُ تَمْنَحُ سِحْرًا لَوَجْهِكَ،
 مِثْلَ النَّهْرِ لِلْمَشْهَدِ الطَّبِيعِيِّ؛
 وَالْعَاصِفَةُ تُنْعِشُ الزُّهُورَ.

أُحِبُّكَ خَاصَّةً عِنْدَمَا
 تَهْرُبُ الْبَهْجَةُ مِنْ جَيْبِنِكَ الْمُكْفَهَرِ؛
 عِنْدَمَا يَغْرُقُ قَلْبُكَ فِي الرُّعْبِ؛
 عِنْدَمَا تَنْتَشِرُ عَلَى حَاضِرِكَ
 غَيْمَةُ الْمَاضِي الْمُخِيفَةِ.

أُحِبُّكَ عِنْدَمَا تَذْرِفُ عَيْنُكَ الْوَاسِعَةَ

مَاءٌ سَاخِنًا كَالدَّمِ؛
عِنْدَمَا يَتَفَجَّرُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ يَدِي الَّتِي تُهْدِهْكَ،
عَذَابُكَ، شَدِيدَ الْوُطْأَةِ،
مِثْلَ حَشْرَجَةٍ مُحْتَضِرٍ.

إِنِّي أَنَشُقُّ، أَتَيْهَا الشَّهْوَةُ السَّمَاوِيَّةُ!
التَّرْنِيمَةُ الْعَمِيقَةُ، اللَّذِيذَةُ!
كُلُّ الْآهَاتِ مِنْ صَدْرِكَ،
وَأَظُنُّ أَنَّ قَلْبَكَ يَسْتَضِيءُ
بِالْأَلْوَانِ الَّتِي تَذْرِفُهَا عَيْنَاكَ!

(٢)

أَعْرِفُ أَنَّ قَلْبَكَ، الَّذِي يَفِيضُ
بِعَرَامِيَّاتٍ قَدِيمَةٍ، بَائِدَةٍ،
مَا يَزَالُ مُتَقِدًّا مِثْلَ الْكُورِ،
وَأَنَّكَ تُخَفِّينَ فِي صَدْرِكَ
بَعْضَ كِبَرِيَاءِ الْمَلْعُونِينَ؛

لَكِنَّكَ، يَا عَزِيزَتِي،
مَاذَا مَتَّ أَحْلَامُكَ لَمْ تَعْكِسِ الْجَحِيمَ،
وَفِي كَابُوسٍ بِلَا انْتِهَاءٍ،

تَحْلُمِينَ بِالسُّمُومِ وَالسُّيُوفِ،
مُولَعَةً بِالْبَارُودِ وَالْحَدِيدِ،

فَلَا تَفْتَحِينَ لِأَحَدٍ إِلَّا بِخَوْفٍ،
قَارِئَةً التَّعَاسَةَ فِي كُلِّ مَكَانٍ،
مُتَشَنِّجَةً عِنْدَمَا تَدُقُّ السَّاعَةُ،
لَمْ تُحْسِنِي بَعْنَاقِ
التَّقَرُّزِ الَّذِي لَا يُقَاوَمُ،

فَلَا تَمْلِكِينَ، أَيُّهَا الْمَلِكَةُ الْعَبْدَةُ
الَّتِي لَا تُحِبُّنِي إِلَّا بِرُغْبٍ،
فِي دُغْرِ اللَّيْلِ الْمَوْبُوءِ
أَنْ تَقُولِي لِي، وَالرُّوحُ مُنْخَمَةٌ بِالصُّرَاخِ:
«أَنَا نِدُّ لَكَ، يَا مَلِكِي!»

النَّذِير

كُلُّ إِنْسَانٍ جَدِيرٌ بِهَذَا الْأَسْمِ
لَدَيْهِ فِي قَلْبِهِ تُعْبَانٌ أَصْفَرُ،
مُتَرَبِّعًا مِثْلَمَا عَلَى عَرْشِ،
وَإِذَا مَا قَالَ الْإِنْسَانُ: «أُرِيدُ!» يَرُدُّ: «لَا!»

فَلْتَعْمُرْ عَيْنَيْكَ فِي النَّيِّرَانِ الثَّابِتَةِ
لِلْسَّائِرَاتِ ^(١) وَالتَّيَكُّسَاتِ ^(٢)،
يَقُولُ النَّابُ: «فَلْتَفَكِّرْ فِي وَاجِبِكَ!»

فَلْتُنْجِبْ أَطْفَالَ، وَلْتَزْرَعْ أَشْجَارًا،
فَلْتُنْظَمْ قَصَائِدَ، وَلْتُنْحِتِ الرُّخَامَ،
يَقُولُ النَّابُ: «أَسْتَعِيشُ هَذَا الْمَسَاءَ؟»

(١) ساتير Satyre: إله الغابات عند الإغريق. ويستخدم «بودلير» الكلمة في المؤنث.

(٢) نيكس Nixe: روح مائية تتخذ - في الأساطير الجرمانية - هيئة امرأة حيناً وهيئة رجل حيناً، أو هيئة نصفها رجل ونصفها سمكة.

فَمَهُمَا خَطَطٌ أَوْ أَمِلْ،
فَالْإِنْسَانُ لَا يَعِيشُ لِحُظَّةٍ
دُونَ مُعَانَاةٍ تَحْذِيرَاتٍ
تِلْكَ الْأَفْعَى الَّتِي لَا تُطَاقُ.

العاصي

مَلَاكَ غَاظِبٌ يَنْقُضُ مِنَ السَّمَاءِ كَنْسَرَ،
وَيُمْسِكُ بِمِلٍّ قَبْضَتِهِ شَعَرَ كَافِرٍ،
وَيَقُولُ، وَهُوَ يُرْجُّهُ: «سَتَعْرِفُ الْقَاعِدَةَ!
(لَأَنِّي مَلَاكَكَ الْحَارِسُ، أَتَفْهَمُ؟) أُرِيدُ ذَلِكَ!

فَلْتَتَعَلَّمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تُحِبَّ، دُونَ عُبُوسٍ،
الْفَقِيرِ، وَالْخَبِيثِ، وَالْأَعْرَجِ، وَالْبَلِيدِ،
لِتَسْتَطِيعَ، عِنْدَمَا يَمُرُّ يَسُوعُ، أَنْ تَصْنَعَ لَهُ
سَجَادَةً ظَافِرَةً مِنْ أَعْمَالِكَ الْخَيْرِيَّةِ.

ذَلِكَ هُوَ الْحُبُّ! قَبْلَ أَنْ يَسَامَ قَلْبُكَ،
فَلْتُشْعِلْ نَشْوَتَكَ فِي مَجْدِ الرَّبِّ؛
تِلْكَ هِيَ الشَّهْوَةُ الْحَقِيقِيَّةُ ذَاتِ الْفِتْنَةِ الدَّائِمَةِ!»

وَالْمَلَائِكَةُ، إِذْ يُعَاقَبُ، فِيمَا أَعْتَقَدُوا بِقَدْرِ مَا يُحِبُّ،
يُنْكَلُ بِقَبْضَتَيْهِ الْعَمِلَاتَيْنِ الْمَلْعُونِ مِنَ الْكَنِيسَةِ؛
لَكِنَّ اللَّعِينَ دَائِمًا مَا يَرُدُّ: «لَا أُرِيدُ!»

بَعِيدًا عَنْ هُنَا

هَآ هُوَ الْكُوْخُ الْمُقَدَّسُ
 حَيْثُ هَذِهِ الْفَتَاةُ الْمُتَبَرِّجَةُ،
 هَادِيَةٌ مُتَاهِبَةٌ دَائِمًا،

وَهِيَ تُرَوِّحُ بِيَدِهَا عَلَى ثَدْيَيْهَا،
 وَكُوعُهَا عَلَى الْوَسَائِدِ،
 تَسْمَعُ النَّوَافِيرَ تَبْكِي:

هَآ هِيَ غُرْفَةُ «دُورُوتِيَه»
 - يُعْنِي النَّسِيمُ وَالْمَاءُ فِي الْبَعِيدِ
 أُغْنِيَةً مِنْ آهَاتٍ مُنْكَسِرَةٍ
 لِهَذِهِ هَذِهِ الطِّفْلَةِ الْمُدَلَّلَةِ.

مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ، بِعِنَايَةٍ بِالْغَةِ،

دُعِكَتْ بَشْرَتُهَا الرَّهِيْفَةَ
بِزَيْتٍ مُعْطَرٍّ وَلِبَانٍ جَاوَةِ.
- تَتَفَتَّحُ زُهُورٌ فِي رُكْنٍ مَا.

الهَاوِيَّة

كَانَتْ «لِبَاسْكَال»^(١) هَاوِيَّتُهُ، الَّتِي تَنَحَرَّكَ مَعَهُ.
وَأَسْفَاهُ! كُلُّ شَيْءٍ هَاوِيَّةٌ، - الْفِعْلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالْحُلْمُ،
وَالْكَلَامُ! وَكَثِيرًا مَا أَحْسُ بِرِيحِ الْخَوْفِ
تَمُرُّ عَلَى شَعْرِ جَسَدِي الَّذِي يَقِفُ فِي الْحَالِ.

مِنْ أَعْلَى، مِنْ أَسْفَلِ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، الْأَعْمَاقِ، الشَّاطِئِ،
الصَّمْتِ، الْفَضَاءِ الْمُخِيفِ وَالْآسِرِ...
عَلَى أَرْضِيَّةٍ لِيَالِيٍّ يَرْسُمُ الرَّبُّ بِإِصْبَعِهِ الْعَلِيمَةِ
كَابُوسًا مُتَعَدِّدَ الْأَشْكَالِ، بِلاَ نِهَآيَةٍ.

أَخْشَى النَّوْمَ مِثْلَمَا يَخْشَى الْمَرْءُ حُفْرَةَ كَبِيرَةٍ،

(١) باسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢): مفكر ورياضي فرنسي كبير. وكان يعتقد - وفقًا لبعض الروايات - أن هَاوِيَّةً
مَا تَصْحَبُهُ دَائِمًا عَنْ يَسَارِهِ، حَيْثُ كَانَ يَضَعُ كُرْسِيًّا لِتَأْمِينِ نَفْسِهِ.

طَافِحَةً بِرُغْبٍ غَامِضٍ، وَتُفْضِي إِلَى الْمَجْهُولِ؛
لَا أَرَى سِوَى اللَّائِيهَاتِي عَبْرَ جَمِيعِ النَّوَافِدِ،

وَعَقْلِي، الْمَسْكُونُ دَائِمًا بِالْذُّوَارِ،
يَحْسُدُ الْعَدَمَ عَلَى الْبِلَادَةِ.

- آه! لَا مَهْرَبَ أَبَدًا مِنَ الْأَرْقَامِ وَالْكَائِنَاتِ!

نُوح إِيكَارُوس

عُشَّاقُ الْعَاهِرَاتِ
 سُعْدَاءُ، مُتَعَاْفُونَ وَمُشْبِعُونَ؛
 أَمَّا أَنَا، فَذِرَاعَايَ مُحَطَّمَتَانِ
 مِنْ مُعَانَقَتِي لِلْعُيُومِ.

فَبِفَضْلِ النُّجُومِ الَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا،
 الْمُشْتَعِلَةِ فِي أَعْمَاقِ السَّمَاءِ،
 لَا تَرَى عَيْنَايَ الْمُتَاكِلتَانِ
 سِوَى ذِكْرِيَّاتِ الشُّمُوسِ.

سُدِّي أَرَدْتُ الْعُثُورَ
 فِي الْفَضَاءِ عَلَى النَّهَائَةِ وَالْمَرْكَزِ؛
 وَلَا أَذْرِي تَحْتَ أَيِّ عَيْنٍ مِنْ نَارِ
 أُحْسُ بِجَنَاحِي يَنْكَسِرُ؛

وَمُخْتَرَقًا بِحُبِّ مَا هُوَ جَمِيلٌ،
فَلَنْ يَكُونَ لِي الشَّرَفُ الرَّفِيعُ
لِمَنْحِ اسْمِي إِلَى الْهَآوِيَةِ
الَّتِي سَتُصْبِحُ لِي مَقْبَرَةً.

تأمل

فَلْتَكُنْ عَاقِلًا، يَا أَلْمِي، وَلْتَبَقْ هَادِثًا.
 التَّمَسَّتِ الْمَسَاءُ؛ فَحَلَّ هَا هُوَ:
 مُنَاخٌ مُعْتِمٌ يُلْفُ الْمَدِينَةَ،
 يَأْتِي بِالسَّلَامِ إِلَى الْبَعْضِ، وَبِالْهَمِّ لِلْآخِرِينَ.

فِيمَا حَشَدُ الْبَشَرِ الْوَضِيعِ،
 تَحْتَ سَوَاطِ اللَّذَّةِ، ذَلِكَ الْجَلَادِ الْقَاسِيِ،
 يَمْضِي لِيَقْطِفَ النَّدَمَ فِي الْاِخْتِفَالِ الدَّنِيِّ،
 فَلْتَمُدَّ لِي يَدَكَ، يَا أَلْمِي؛ تَعَالَ مِنْ هُنَا،

بَعِيدًا عَنْهُمْ. فَلْتَرِ السَّنَوَاتِ الْغَابِرَةَ تَنْحَنِي،
 عَلَى شُرَفَاتِ السَّمَاءِ، فِي أَثْوَابِ عَتِيقَةٍ؛
 وَالنَّدَمَ الْبَاسِمَ يَنْبِثُ مِنْ عُمَقِ الْمِيَاهِ؛

وَالشَّمْسُ الْمُحْتَضِرَةُ تَنَامُ تَحْتَ قَوْسٍ،
وَكَكْفَيْنِ طَوِيلٍ يَتَجَرَّجُرُ نَحْوَ الشَّرْقِ،
فَلْتُنْصِتْ، يَا عَزِيزِي، أَنْصِتْ إِلَى اللَّيْلِ الْعَذْبِ الَّذِي يَمُرُّ.

القمر المهان

أَيُّهَا الْقَمَرُ الَّذِي عَشِقَهُ آبَاؤُنَا فِي السَّرِّ،
 مِنْ أَعَالِي الْبُلْدَانِ الزَّرْقَاءِ حَيْثُ النُّجُومُ، كَحَرِيمٍ مُضِيِّ،
 يَتَّبِعُونَكَ فِي عَتَادٍ أَيْتِقْ،
 يَا حَبِيبَتِي «سَيْنِيَا»^(١) الْعَجُوزُ، يَا مِصْبَاحَ عَرِينَا،

أَتَرَيْنَ الْعُشَّاقَ عَلَى أَسْرَتِهِمُ الْمُزْدَهَرَةَ،
 يَكْشِفُونَ مِينَا أَسْنَانِهِمُ الْجَدِيدَ فِي أَفْوَاهِهِمْ عِنْدَ النَّوْمِ؟
 وَالشَّاعِرَ يَذْفِنُ جَبِينَهُ فِي عَمَلِهِ؟
 أَوْ قِرَانَ الْأَفَاعِي تَحْتَ الْأَعْشَابِ الْجَفَافَةِ؟

تَحْتَ رِذَاءِ التَّقْنَعِ الْأَضْفَرِ، وَبِقَدَمٍ خَفِيَّةٍ،
 أَتَمْضِينَ، كَمَا فِي الْمَاضِي، مِنْ الْمَسَاءِ حَتَّى الصَّبَاحِ،

(١) اسم آخر لربة القمر أرتميس/ ديانا. ولنلاحظ أن القمر- في الفرنسية - مؤنث.

لِتَقْبَلِي الْمَفَاتِنَ الْبَالِيَةَ «لِإِنْدِمِیُونَ»^(١)؟

- «إِنِّي أَرَى أُمِّكَ، يَا ابْنَةَ هَذَا الْقَرْنِ الْمُنْهَكَ،
وَرُكَاثُ السَّنَوَاتِ الثَّقِيلِ يُحْنِيهَا نَحْوَ مِرَاتِهَا،
وَهِيَ تُرَمِّمُ بِالْجِصِّ بِافْتِدَارِ الثَّدْيِ الَّذِي أَرْضَعَكَ!»

(١) راع جميل، محبوب الربة ديانا.

بقايا «أزهار الش»

فُتَات

زُهو

مَلَأْتُكَ بِرَتْدُونَ الذَّهَبِيَّ، وَالْأَرْجَوَانِيَّ، وَالْيَاقُوتِيَّ.
الْعَبَقْرِيَّةَ وَالْحُبَّ وَاجِبَاتُ سَهْلَةٍ.

عَجَنْتُ الطِّينَ وَصَنَعْتُ مِنْهُ الذَّهَبَ.

*

كَانَ يَحْمِلُ فِي عَيْنَيْهِ عُنُقُوانَ قَلْبِهِ.
فِي بَارِيسَ صَحْرَائِهِ يَحْيَا بِلا نَارٍ وَلَا مَكَانٍ،
قَوِيًّا كَحَيَوَانٍ، حُرًّا كِإِلَهٍ.

الشَّهْرُ

فِي اجْتِرَارِي، أَضْحَكُ مِنَ الْمَارَةِ الْمُتَصَوِّرِينَ جُوعًا.
كُنْتُ سَأَنْفَجِرُ كَقُنْبَلَةٍ،
إِنْ لَمْ أَكُلْ مِثْلَ قُرْحَةٍ.

نَظَرْتُهَا لَمْ تَكُنْ فَاتِرَةً، وَلَا خَجُولَةً،
لَكِنَّهَا تَضُوعُ بِشْيءٍ مِّنَ الشَّرَاهَةِ،
وَمِثْلَ أَنْفِهَا، كَانَتْ تُعَبِّرُ عَنِ انْفِعَالَاتِ
الْفَنَّانِينَ أَمَامَ أَعْمَالِ أَصَابِعِهِمْ.

شَبَابُكَ سَيَكُونُ أَخْصَبَ فِي الْعَوَاصِفِ
مِنْ قَيْطِ الْعُيُونِ الْمُفْغَمَةِ بِالْوَمَصَاتِ
الَّذِي يَنْبِي ذِرَاعِيهِ الْعَارِقَتَيْنِ حَوْلَ جِبَاهِنَا الْمُمْتَقِعَةِ،
وَإِذْ يَنْفُثُ فِي اللَّيْلِ أَنْفَاسَهُ الْمَحْمُومَةِ،
يَجْعَلُ الْفَتَيَاتِ عَاشِقَاتٍ لِأَجْسَادِهِنَّ الْهَشَّةِ.
وَيَدْفَعُهُنَّ أَمَامَ الْمَرْأَةِ، كَشَهْوَةِ عَقِيمٍ،
إِلَى تَأْمُلِ الثَّمَارِ النَّاضِجَةِ لِعُدْرِ يَتِيهِنَ.

لَكِنِّي أَرَى فِي هَذِهِ الْعَيْنِ الْمَشْحُونَةِ بِالْعَوَاصِفِ
أَنْ قَلْبَكَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْحَفَلَاتِ الْهَادِيَةِ،
وَأَنْ هَذَا الْجَمَالَ، الْقَاتِمَ كَالْحَدِيدِ،
هُوَ جَمَالٌ مِّنْ تَطَرُّقٍ وَتَضَفُّقِ الْجَحِيمِ
لَا سِتْكَمَالٍ يَوْمٍ مِّنْ شَبَقِ رَهيبٍ
وَبَثُّ الْحُزْنِ فِي قَلْبِ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّلِيلَةِ
كَانَ هُنَاكَ جَسَدٌ جَمِيلٌ، عَذْبَةٌ رُؤْيَتْهُ نَائِمًا،

وَوَسَادَةٌ ضَخْمَةٌ خَائِرَةٌ تَحْتَ وَطْأَتِهِ،
وَنَوْمُهُ مُزَيْنٌ بِابْتِسَامَةٍ رَائِعَةٍ

وَأُخْدُوذُ ظَهْرِهِ مَسْكُونٌ بِالرَّغْبَةِ.

كَانَ الْهَوَاءُ مُشْبَعًا بِغَضَبٍ عَاشِقٍ؛
وَالْهَوَاءُ تَطِيرُ إِلَى الْمِصْبَاحِ وَلَا رِيحَ
تَذْفَعُ السَّتَارَةَ إِلَى الْاِخْتِلَاجِ وَلَا الطُّنْفَ.
كَانَتْ لَيْلَةٌ حَارَّةٌ، حَمَامًا حَقِيقِيًّا مِنَ الْفُتُوَّةِ.

أَيُّهَا الْمَلَاكُ الْعَظِيمُ الَّذِي تَحْمِلُ فِي وَجْهِكَ الْأَبِّي
حُلْكَةَ الْجَجِيمِ الَّذِي صَعَدَتْ مِنْهُ؛
أَيُّهَا الْمُرَوِّضُ الْمُتَوَحِّشُ وَالرَّقِيقُ الَّذِي وَضَعَنِي فِي قَفْصِ
لَأَقُومَ بِاسْتِعْرَاضٍ لِقَسْوَتِكَ،

كَابُوسُ لَيْالِيٍّ، جَنِيَّةُ بَحْرِ بِلَا صَدْرِيَّةٍ،
تَشْدُنِي، وَهِيَ وَاقِفَةٌ دَائِمًا بِجَانِبِي،
مِنْ ثَوْبِ الْقَدِّيسِ أَوْ لِحْيَةِ الْحَكِيمِ
لِتُقَدِّمَ لِي سَمَّ حُبِّ دَاعِرٍ؛

الْأَرِيكَهٗ مُسْتَعْصِيَةً وَقَاسِيَةً،

وَالْمُرُورُ فِي الْمَمَرِّ الضَّيِّقِ، الدَّوَامَةُ الشَّرِهَةِ،

يُثِيرُ مِنَ الرَّمْلِ وَتَبَاتِ الْبَحْرِ الْمُلَوَّتْ

أَقْلَّ مِنْ قُلُوبِنَا الَّتِي تَنْعَكِسُ فِيهَا مَعَ ذَلِكَ مَسَاحَاتٌ مِنَ السَّمَاءِ؛

كَانُوا رَاصِفَ مِينَاءٍ فِي الْهَوَاءِ النَّبِيلِ الْوَبِيلِ،

حَيْثُ يُومِضُ الْفَنَارُ، كَحَارِسٍ بَارٍ،

لَكِنَّ الرَّخْوِيَّةَ الْقَارِصَةَ تَحْفَرُ فِي الْأَسْفَلِ؛

يُمْكِنُ أَيْضًا تَشْبِيهِهُمْ بِهَذِهِ الْحَانَةِ،

أَمَلِ الْجَائِعِينَ، الَّتِي يَطْرُقُونَهَا فِي الْمَسَاءِ،

مَجْرُوحِينَ، مَكْسُورِينَ، مُجَدِّفِينَ، مُسْتَعْطِفِينَ أَنْ يَسْكُنُوا،

التَّلْمِيزِ، وَالْمَطْرَانِ، وَالْعَاهِرَةُ وَالْجُنْدِيُّ الْمُرْتَزِقِ.

لَنْ يَعُودُوا إِلَى الْغَرْفِ الْمَوْبُوءَةِ؛

فَالْحَرْبُ، الْعِلْمُ، الْحُبُّ، لَمْ يَعْدُ يُرِيدُنَا أَبَدًا.

الْمِدْفَأَةُ كَانَتْ بَارِدَةً، وَالْأَسْرَةُ وَالْخَمْرُ تَمْتَلِي بِالْحَشَرَاتِ؛

وَهُؤُلَاءِ الزَّائِرُونَ لَا بُدَّ مِنْ خِدْمَتِهِمْ بِخُضُوعٍ!

قصائد الشباب

عَالِيَا هُنَاكَ، عَالِيَا هُنَاكَ، بَعِيدًا عَنِ الطَّرِيقِ الْآمِنِ،
مَزَارِعُ، وَأُودِيَّةٌ صَغِيرَةٌ، فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ التَّلَالُ الصَّغِيرَةِ،
فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ الْغَابَاتُ، وَسَجَاجِيدُ الْخُضْرَةِ،
بَعِيدًا عَنِ الْأَعْشَابِ الْأَخِيرَةِ الَّتِي دَاسَتْهَا الْقُطْعَانُ،

نَجِدُ بُحَيْرَةً قَاتِمَةً مَحْصُورَةً فِي الْهُوَّةِ
الَّتِي تُشَكِّلُهَا قِمَمٌ مَعْزُولَةٌ وَثُلُجِيَّةٌ؛
الْمَاءُ، لَيْلَ نَهَارٍ، يَنَامُ فِيهَا فِي رَاحَةٍ سَامِيَةٍ،
وَلَا يَقْطَعُ أَبَدًا صَمْتَهَا الْعَاصِفَ.

فِي هَذِهِ الْعُزْلَةِ الْكَثِيبَةِ، تَصِلُ إِلَى الْأُذُنِ الْحَاثِرَةِ
أَحْيَانًا أَصْوَاتٌ وَاهِيَةٌ مَدِيدَةً،
وَأَصْدَاءُ أَكْثَرُ مَوْتًا مِنَ الْجَرَسِ الْبَعِيدِ
لِيَقْرَعَ تَرَعَى فِي مُنَحْدَرَاتِ الْأُودِيَةِ.

عَلَى هَذِهِ الْجِبَالِ الَّتِي تَمْحُو الرِّيحُ فِيهَا أَيَّ أَثَرٍ،
رُكَّامُ الثَّلَجِ الْمُبْرَقَشُ الَّذِي تُضِيئُهُ الشَّمْسُ،
وَعَلَى هَذِهِ الصُّخُورِ الشَّامِخَةِ حَيْثُ يَكْمُنُ الدُّوَارُ،
فِي هَذِهِ الْبَحِيرَةِ الَّتِي يَتَمَلَّى الْمَسَاءُ فِيهَا فَضَّتَهُ الْمُذْهَبَةُ،

تَحْتَ قَدَمَيَّ، فَوْقَ رَأْسِي وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، الصَّمْتُ،
الصَّمْتُ الَّذِي يَحْتَفِظُ بِمَا تُرِيدُ،
الصَّمْتُ الْأَبَدِيُّ وَالْجَبَلُ الْهَائِلُ،
لَأَنَّ الْهَوَاءَ سَاكِنٌ وَكُلُّ شَيْءٍ كَأَنَّهُ يَحْلُمُ.

يُقَالُ إِنَّ السَّمَاءَ، فِي هَذِهِ الْعُزْلَةِ،
تَتَأَمَّلُ نَفْسَهَا فِي الْمَاءِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْجِبَالَ، هُنَاكَ،
تُضْغِي، خَاشِعَةً، فِي هَيْئَتِهَا الْوَقُورَةِ،
إِلَى سِرِّ سَمَاوِيٍّ لَا يَسْمَعُهُ الْإِنْسَانُ.

وَحِينَمَا يُظْلَمُ سِرْبٌ ضَالٌّ بِالصُّدْفَةِ
فِي طَيْرَانِهِ الْبَحِيرَةِ الصَّامِتَةِ،
نَظْنُ أَنَّنَا نَرَى الثَّوْبَ أَوْ الظِّلَّ الشَّفَافَ
لِرُوحٍ تُسَافِرُ أَوْ تَمُرُّ فِي السَّمَاوَاتِ.

لَيْسَتْ لَدَيَّ كَعَشِيقَةٍ لِبُؤَةِ شَهِيرَةٍ؛
 فَسَبِيكَهُ رُوحِي تَسْتَعِيرُ كُلَّ بَرِيقِهَا.
 لَا مَرِيئَةً مِنْ عُيُونِ الْكَوْنِ السَّاحِرِ،
 لَا يَزِدُّهُرُ جَمَالُهَا إِلَّا فِي قَلْبِي الْحَزِينِ.

كَيْ تَمْتَلِكَ حِذَاءَ بَاعَتِ رُوحَهَا؛
 لَكِنَّ الرَّبَّ الطَّيِّبَ كَانَ يَضْحَكُ قُرْبَ هَذِهِ الدَّيْنَةِ
 وَكُنْتُ أَقْطَعُ مِنْ «طَرُطُوف»^(١)، وَأَقْلُدُ التَّسَامِي،
 أَنَا الَّذِي أَبِيعُ فِكْرِي، وَأُرِيدُ أَنْ أَصْبِحَ مُؤَلَّفًا.

وَالْإِنَّمُ الْأَكْبَرُ، أَنَّهَا تَضَعُ شَعْرًا مُسْتَعَارًا.
 وَشَعْرُهَا الْأَسْوَدُ الْجَمِيلُ أَخْفَى رَقَبَتَهَا الْبَيْضَاءَ؛
 وَهُوَ مَا لَا يَمْنَعُ الْقُبْلَاتِ الْعَاشِقَةَ
 مِنَ الْهَطُولِ عَلَى جَبِينِهَا الْأَكْثَرِ شُحُوبًا مِنْ مَجْدُومٍ.

(١) بطل مسرحية «طرطوف» لموليير.

تَنْظُرُ فِي حَوْلٍ، وَلِهَذِهِ النَّظَرَةُ الْغَرِيبَةُ،
الَّتِي تُظَلِّلُهَا أَهْدَابُ سَوْدَاءٍ أَطْوَلُ مِنْ أَهْدَابِ مَلَائِكَةٍ،
تَأْثِيرٌ إِلَى حَدٍّ أَنْ كُلَّ الْعُيُونِ الَّتِي نَتَعَدَّبُ مِنْ أَجْلِهَا
لَا تُضَاهِي عِنْدِي عَيْنَهَا الْيَهُودِيَّةَ الْمُحَاطَةَ بِالزُّرْفَةِ.

لَمْ تَكُنْ تَتَجَاوَزُ الْعِشْرِينَ؛ وَصَدْرُهَا - الصَّغِيرِ
يَتَأَرَّجُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِثْلَ الْكَرْنِيبِ^(١)،
لَكِنَّهَا تُجَرِّجُنِي كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى جَسَدِهَا،
وَكَطْفَلٍ حَدِيثِ الْوِلَادَةِ، أَرْضَعُهَا وَأَعْضُهَا -

رَغْمَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَصِلُ غَالِبًا إِلَى وَزْنِ «أُوبُول»^(٢)
كَيْ تَحْكَّ الْجَسَدَ أَوْ تَذْهِنَ الْكَتِفَ -
فَقَدْ كُنْتُ أَلْحَسُهَا فِي صَمْتٍ بِشَعْفٍ كَبِيرٍ،
مِثْلَمَا تَلْحَسُ الْمَجْدَلِيَّةُ بِحِمَاسٍ قَدَمِي الْمُحَلَّصِ.

وَالْكَائِنُ الْبَائِسُ الْمَبْهُورُ بِاللَّذَّةِ
صَدْرُهَا مُتَرَعٌّ بِالشَّهَقَاتِ الْمَبْحُوحَةِ،
وَأَجِدُ نَفْسِي فِي صَخَبِ تَنَفُّسِهَا الْوَحْشِيِّ
حَتَّى إِنَّهَا كَثِيرًا مَا قَضَمَتْ خُبْزَ الْمُسْتَشْفَى.

عَيْنَاهَا الْوَاسِعَتَانِ الْقَلِيقَتَانِ خِلَالَ اللَّيْلِ الْقَاسِيِ

(١) فاكهة ثمرها يصلح للترئين، ويستعمل كالأواني.

(٢) وحدة وزن قديمة لدى الإغريق.

تَظُنَّانِ أَنَّهُمَا تَرَيَانِ عَيْنَيْنِ أُخْرَيْنِ فِي نِهَآيَةِ الْمَمَرِ -
فَلَأَنَّ قَلْبَهَا مَفْتُوحٌ عَنْ آخِرِهِ لِكُلِّ الْأَطْيَافِ،
فَهِيَ تَخَافُ الظُّلْمَةَ وَتُؤْمِنُ بِالْأَشْبَاحِ.

وَمَا يُرَاكُمُ شَحْمَ الْأَمْعَاءِ أَنَّهَا تَسْتَهِلُكَ مِنَ الْكُتُبِ
أَكْثَرَ مِنْ عَالِمٍ عَجُوزٍ نَائِمٍ عَلَى الْكُتُبِ لَيْلَ نَهَارٍ
وَتَخْشَى الْجُوعَ وَعَذَابَاتِهِ
بِأَقْلٍ مِمَّا تَخْشَى ظُهُورَ عُشَاقِهَا الْغَابِرِينَ.

فَإِذَا مَا قَابَلْتُمُوهَا، مُتَزَيِّنَةً بِغَرَابَةِ،
مُنْدَسَّةً فِي رُكْنٍ شَارِعٍ ضَالٍ،
خَفِیْضَةَ الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ - كَحَمَامَةٍ جَرِيحَةٍ -
وَهِيَ تُجَرِّجُ كَعْبًا حَافِيًا فِي الْجَدَاوِلِ،

فَلَا تَقْدُفُوا، يَا سَادَتِي، بِشَتَائِمٍ أَوْ بَدَآءَةٍ،
فِي الْوَجْهِ الْمُزَيْنِ لِهَذِهِ الْقَدْرَةِ الْبَائِسَةِ
الَّتِي أَجْبَرَتْهَا الرَّبَّةُ مَجَاعَةً ذَاتَ مَسَاءٍ شَتَائِيٍّ
عَلَى رَفْعِ تَنُورَتِهَا فِي الْعِرَاءِ.

هَذِهِ الْمُتَشَرَّدَةُ، هِيَ كُلِّي، تَرَائِي،
لُؤْلُؤَتِي، جَوْهَرَتِي، مَلِيكَتِي، دُوقَتِي،
تِلْكَ الَّتِي هَدَهْدَنْتَنِي فِي حِجْرِهَا الْقَاهِرِ،
وَفِي يَدَيْهَا أَذْفَاتُ قَلْبِي.

إلى «سانت - ييف»

كُلُّ أَمْرَدَ آنَذَاكَ، عَلَى أَرَائِكَ الْبَلُوطِ الْعَتِيقَةِ،
 الصَّاقِيلَةِ اللَّامِعَةِ أَكْثَرَ مِنْ حَلَقَاتِ سِلْسِلَةٍ،
 جَلَّتْهَا بَشْرَةُ الْإِنْسَانِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ،
 - نُجْزِجُ صَجَرَنَا بِحُزْنٍ، جَائِمِينَ
 وَمَحْتَبِينَ تَحْتَ السَّمَاءِ الْعَرِيضَةِ لِلْعُزْلَةِ،
 حَيْثُ يَحْتَسِي الطُّفْلُ، فِي سِنِّ الْعَاشِرَةِ، لَبَنَ الدَّرَاسَةِ الْمَرِيرِ.
 - كَانَ هَذَا فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ الْمَشْهُودِ الْجَلِيلِ،
 حَيْثُ كَانَ الْأَسَاتِذَةُ الْمُتَمَرِّدُونَ عَلَى قَوَافِكُمْ
 الْمُجْبَرُونَ عَلَى تَوْسِيعِ الْغُلِّ^(١) الْكِلَاسِيَّيْ،
 يَرَزُّحُونَ تَحْتَ وَطْأَةِ مُجَادِلَاتِنَا الْحَمَقَاءِ،
 وَيَتْرَكُونَ التَّلْمِيذَ، الْمُتَمَرِّدَ الذَّكِيَّ،
 يَدْفَعُ عَلَى رَاحَتِهِ «تَرْيُوبُولِيه» إِلَى النَّبَاحِ بِاللَّائِنِيَّةِ -
 - مَنْ مِنَّا - فِي أَزْمَانِ الْمُرَاهِقَةِ الشَّاحِبَةِ تِلْكَ،

(١) طوق حديدِي كان يُوضع في رقبة الجاني.

لَمْ يَعْرِفْ خَدَرَ الْمَتَاعِبِ الْإِنْعَزَالِيَّةِ،
 - النَّظْرَةَ الضَّائِعَةَ فِي الزُّرْقَةِ الْكَثِيبَةِ لِسَمَاءٍ صَيْفِيَّةٍ،
 أَوْ الْإِنِّهَارَ بِالثُّلُوجِ - كَامِنًا،
 وَالْأُدُنَّ شَرِهَةً مُتَّصِبَةً، - وَرَتَشَفُ، مِثْلَ كَلْبَةٍ صَيْدٍ،
 الصَّدَى الْبَعِيدَ لِكِتَابٍ، أَوْ صَرَخَةَ فِتْنَةٍ؟

كَانَ ذَلِكَ غَالِيًا الصَّيْفِ، حِينَمَا كَانَ الرَّصَاصُ يَنْصَهَرُ،
 إِذْ تَزَايَدَتْ هَذِهِ الْجُدْرَانُ الصَّخْمَةُ الْمُسَوَّدَةُ فِي حُزْنٍ،
 عِنْدَمَا كَانَ الْقَيْظُ أَوْ الْحَرِيفُ الدَّاخِلُ
 يُشِعُّ فِي السَّمَاوَاتِ الْكَثِيبَةِ نَارَهُ الرَّتِيبَةَ،
 وَيَدْفَعُ إِلَى النَّعَاسِ فِي الْأَبْرَاجِ الْمَمْشُوقَةِ -
 الصُّقُورَ الصَّاخِبَةَ، رُغَبَ الْحَمَامِ الْأَبْيَضِ؛
 مَوْسِمُ حُلْمِ الْيَقْظَةِ، حَيْثُ الرَّبَّةُ تَعْلَقُ
 طُوَالَ يَوْمٍ كَامِلٍ بِمِطْرَقَةِ جَرَسٍ؛
 حَيْثُ الْكَاتِبَةُ، فِي مُتَنَصِّفِ النَّهَارِ، عِنْدَمَا يَنَامُ الْجَمِيعُ،
 وَالذَّقْنُ عَلَى الْيَدِ، فِي أَقْصَى الْمَمَرِّ، -
 وَالْعَيْنُ أَكْثَرَ سَوَادًا وَزُرْقَةً مِنْ «الْمُتَدَيِّنَةِ»^(١)
 الَّتِي يَعْرِفُ الْجَمِيعُ تَارِيخَهَا الْفَاضِحَ الْأَلِيمَ،
 - تُجَرِّجُ قَدَمًا أَثْقَلَهَا الضَّجَرُ الْمُبَكِّرُ،
 وَجَيْشُهَا مَا يَزَالُ رَطْبًا مِنْ طَوْلٍ لِيَالِيهَا.

(١) إشارة إلى رواية لديدرو.

- ثُمَّ جَاءَتِ الْأُمْسِيَّاتُ الْمُفْسِدَةُ، وَاللَّيَالِي الْمَحْمُومَةُ،
الَّتِي تُحِيلُ الْفُتَيَاتِ إِلَى عَاشِقَاتٍ لِأَجْسَادِهِنَّ،
وَتَدْفَعُهُنَّ - كَشَهْوَةٍ عَقِيمٍ -
إِلَى تَأْمُلِ الثَّمَارِ النَّاصِجَةِ لِبُلُوغِهِنَّ فِي الْمَرَايَا -
الْأُمْسِيَّاتُ الْإِيطَالِيَّةُ، ذَاتُ الطَّنِيشِ الرَّخْوِ،
- حَيْثُ الْمَلَذَّاتُ الْخَادِعَةُ تَكْشِفُ الْمَعْرِفَةَ،
- عِنْدَمَا تَصُبُّ فِينُوسُ الْكَيْبِيَّةُ، مِنْ أَعْلَى الشُّرَفَاتِ السَّوْدَاءِ،
مَوْجَاتٍ مِنْ مِسْكِ مَبَاخِرِهَا النَّدِيَّةِ -

ذَلِكَ مَا اكْتَمَلَ، فِي هَذَا التَّضَارُبِ لِلْحَالَاتِ الْعَذْبَةِ،
بُسُونَاتَاتِكَ، الْمَنْظُومَةِ بِمَقَاطِعِكَ الشُّعْرِيَّةِ،
حَتَّى إِنِّي ذَاتَ مَسَاءٍ، مُسْتَشْعِرًا الْكِتَابَ وَرُوحَهُ،
جِئْتُ إِلَى قَلْبِي بِقِصَّةِ أُمُورِي^(١)
كُلُّهَا وَجِيَّةٌ تَقَعُ عَلَى بُعْدِ خَطَوَتَيْنِ مِنَ الشَّكِّ -
- الشَّرَابُ الْمُتَسَرَّبُ، بِبُطْءٍ، قَطْرَةً قَطْرَةً،
دَاخِلِي، وَأَنَا مُنْذُ الْخَامِسَةِ عَشْرَةِ مَوْصُولٍ بِالْهُوَّةِ،
كَانَ يُفَسِّرُ يُبْسِرُ آهَاتِ رُؤْيِيهِ،
إِلَى حَدِّ أَنْ الْعَطَشُ الْغَرِيبَ الْحَارِقَ إِلَى الْمَجْهُولِ،
- اسْتَحْوَذَ عَلَى أَعْمَاقِي أَصْغَرُ شُرَيَّانٍ.
كُنْتُ مَاخُوذًا تَمَامًا بِذَلِكَ، بِالْأَبْخَرَةِ الْفَاسِدَةِ، وَالْعُطُورِ،

(١) إشارة إلى بطل رواية «شهوة» لسانت-بيف.

وَالْهَمْسِ الرَّهِيْفِ بِالذِّكْرِيَّاتِ الْغَايِرَةِ،
وَالْتَشَابُكَاتِ الطَّوِيلَةِ لِلْعِبَارَاتِ الرَّمَزِيَّةِ،
- الْمَسَابِحِ الْمُهِمَّةِ بِالْغَزَلِيَّاتِ الصُّوفِيَّةِ؛
- الْكِتَابِ الشَّهَوَانِيِّ، إِنْ كَانَ أَضْلًا كَذَلِكَ -
وَمُذْ ذَاكَ، سَوَاءٌ فِي قَاعِ مَكْمَنِ خَانِقٍ،
أَمْ تَحْتَ شُمُوسِ مَنَاطِقٍ مُخْتَلِفَةٍ،
فَالْهَذَاهُذَةُ الْأَبْدِيَّةُ لِلْأَمْوَاجِ الْمُسْكِرَةِ،
وَالْمَرَأَى الْمُتَجَدِّدُ لَأَفَاقٍ بِلَا نِهَايَةٍ،
تَسْتَدْرِجُ هَذَا الْقَلْبَ نَحْوَ الْحُلُمِ السَّمَائِيِّ، -
سَوَاءٌ فِي وَقْتِ الْفَرَاغِ الْوَبِيلِ لِيَوْمٍ قَائِظٍ،
أَمْ فِي الْبَطَالَةِ الثَّلَجِيَّةِ لَشَهْرِ فَرِيمِر^(١) -
تَحْتَ مَوْجَاتِ التَّبَعِ الَّتِي تُخْفِي السَّقْفَ،
- تَصَفَّحْتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ الْأَعْمَاقَ الْغَامِضَةَ
لِهَذَا الْكِتَابِ الْحَبِيبِ لَدَى الْأَرْوَاحِ الْفَايِرَةِ
الَّتِي دَمَعَتْ مَصِيرَهَا الْأَمْرَاضُ نَفْسَهَا،
وَأَمَامَ الْمِرَاةِ أَتَقَنْتُ
الْفَنَّ الْقَاسِي الَّذِي مَنَحَهُ لِي شَيْطَانٌ عِنْدَ الْوِلَادَةِ،
- لِلْأَلَمِ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ شَهْوَةٍ حَقِيقِيَّةٍ، -
بِتَخْضِيبِ شَرِّهِ وَاسْتِثَارَةِ جُرْحِهِ.

(١) الشَّهْرُ الثَّلَاثُ مِنَ التَّقْوِيمِ السَّنَوِيِّ الْجُمْهُورِيِّ، وَيَبْدَأُ مِنْ ٢١، ٢٢ أَوْ ٢٣ نَوَفَمْبَرٍ، وَيَنْتَهِي فِي ٢٠، ٢١ أَوْ ٢٢ دَيْسَمْبَرٍ.

أَيُّهَا الشَّاعِرُ، أَتِلْكَ إِهَانَةً أَمْ بِالْأُخْرَى مَدِيحٌ؟
لَأَنْتَنِي إِزَاءَكَ مِثْلَ عَاشِقٍ
فِي مُوَاجَهَةِ شَبَحٍ، ذِي إِيمَاءَةٍ مُفَعَّمَةٍ بِالْمُفَجَّرَاتِ،
وَلِيَدِهِ وَعَيْنِيهِ مَفَاتِينُ مَجْهُولَةٍ
لِاجْتِنَابِ الْقُوَى؛ - وَكُلُّ الْكَائِنَاتِ الْمَحْبُوبَةِ
هِيَ قَوَارِيرُ لِلْمَرَارَةِ الَّتِي تَرُسُّفُهَا الْعُيُونُ الْمُغْمَضَةُ،
وَالْقَلْبُ الْمَمْرُقُ الَّذِي يَسْتَهْلِكُهُ
الْأَلَمُ الْمُغْوِي كُلَّ يَوْمٍ وَهُوَ يَبَارِكُ سَهْمَهُ.

أَيْمُهَا الْمَرْأَةُ النَّبِيلَةُ قُوَّةُ الذَّرَاعِ، الَّتِي تَنَامُ خِلَالَ الْأَيَّامِ الطَّوِيلَةِ
 دَائِمًا دُونَ تَفْكِيرٍ طَيِّبٍ أَوْ رَدِيءٍ
 مُرْتَدِيَةً ثِيَابَكَ بِشُمُوحٍ عَلَى النَّمَطِ الْقَدِيمِ،
 أَنْتِ الَّتِي، مِنْذُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ بِطَيِّئَةٍ بِالنَّسَبَةِ لِي،
 تَتَعَهَّدِينَ بِحُبٍّ مُتَقَشِّفٍ
 فَمِی الْمُعْتَادَ عَلَى الْقُبُلَاتِ الشَّهِیَّةِ -

يَا كَاهِنَةَ الْفُجُورِ وَشَقِيقَتِي فِي اللَّذَّةِ
الَّتِي أَنْفَتِ دَائِمًا مِنْ حَمَلٍ وَإِرْصَاعِ
رَجُلٍ فِي فَجَوَاتِكَ الْمُقَدَّسَةِ،
كَثِيرًا مَا تَخْشَيْنَ وَتَهْرُبِينَ مِنَ النُّذْبَةِ الْمُخِيفَةِ
الَّتِي حَفَرَتْهَا الْعِفَّةُ بِنَصْلِهَا الشَّائِنِ
فِي خَصْرِ نِسَاءِ جَلِيلَاتٍ حَبَالَى -

في اليوم السيدة إميلي شوقاليه

وَسَطَ الْحُشُودِ، يَبْحَثُنْ، تَائِهَاتٍ، مُرَبَّكَاتٍ،
 عَنْ صَدَى أَصْوَاتِهِنَّ الْوَلَهَانَةِ،
 مُحْتَفِظَاتٍ بِالذِّكْرِى الْغَالِيَةِ الْمَاضِيَةِ،
 حَزِينَاتٍ، كَمَا الْمَسَاءَ، كَيْمَامَتَيْنِ ضَائِعَتَيْنِ
 تَسْتَعِيثَانِ فِي الْغَابَاتِ.

إلى هنري إينار

مُنْذُ قَلِيلٍ، سَمِعْتُ
هَوَاءَ رَتِيبًا رَهِيْفًا
يَرِنُ بِرِقَّةٍ فِي الْخَارِجِ
فِيْمَا يَضْجُ دَاخِلِي فِي غُمُوضٍ،

هِيَ إِحْدَى هَذِهِ النَّائِحَاتِ الْعَجَائِزِ،
رَبَّاتِ أَهْلِ «أَوْفَرِينِي» الْبُؤْسَاءِ،
الَّتِي كَانَتْ تَفْتِنُنَا كَثِيرًا، لِلْأَسَفِ!
فِي سَاعَاتِ الْبَطَالَةِ فِي الْمَاضِي؛

وَمُحَطَّمِ الْأَمَلِ،
يَتَهَرَّبُ الْبَائِسُ بِحُزْنٍ؛
وَفِي الْحَالِ فَكَّرْتُ
فِي صَدِيقِي الَّذِي أُحِبُّهُ كَثِيرًا،

وَالَّذِي كَانَ يَقُولُ لِي فِي النُّزْهَةِ
إِنَّهَا كَانَتْ مُتْعَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ
كَمَعْرُوفَةٍ لَيْلِيَّةٍ مُشَابِهَةٍ
فِي وَقْتِ فَرَاغٍ طَوِيلٍ وَحَزِينٍ.

كُنَّا نَحِبُّ هَذِهِ الْمَوْسِيقَى الْعَامِّيَّةَ
الْمُرْهَقَةَ بِالنِّسْبَةِ لِعُقُولِنَا الْمُرْهَقَةِ
عِنْدَمَا تَأْتِي، كَثِيبَةً،
لِتَتَجَاوَبَ مَعَ أَفْكَارِ حَزِينَةٍ.

- وَتَرَكْتُ النَّوَافِدَ مُغْلَقَةً،
جَاحِدًا لِمَنْ جَعَلَنِي هَكَذَا
أَحْلُمُ بِأَشْيَاءَ سَاحِرَةٍ،
وَأُفَكِّرُ فِي عَزِيزِي هِنْرِي!

أَلَيْسَ صَحِيحًا أَنَّهُ عَذَّبَ، الْآنَ
 وَنَحْنُ مُرْهَقُونَ مُرْتَحُونَ شَأْنَ الْآخِرِينَ،
 أَنْ نَبْحَثَ أَحْيَانًا فِي الشَّرْقِ الْبَعِيدِ
 إِنْ كُنَّا مَا نَزَالُ نَرَى حُمْرَةَ الصَّبَاحِ،
 وَعِنْدَمَا نَتَقَدَّمُ فِي الدَّرَبِ الْوَعْرِ،
 عَنْ سَمَاعِ الْأَصْدَاءِ الَّتِي تُغْنِي فِي الْوَرَاءِ
 وَهَمَسَاتِ الْمُحِبِّينَ الصَّغَارِ
 الَّتِي وَضَعَهَا الرَّبُّ فِي بَدَايَةِ أَيَّامِنَا؟ ...

كَانَ يُحِبُّ رُؤْيَهَا، بِتَنُورَتِهَا الْبَيْضَاءِ،
 وَهِيَ تَجْرِي عَبْرَ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ وَالْأَغْصَانِ،
 مُرْتَبِكَةً مُفْعَمَةً بِالْحُسْنِ، حِينَ كَانَتْ تُخْفِي سَاقَهَا،
 إِذَا مَا عَلِقَ الثَّوبُ بِالْأَدْعَالِ...

لِلْأَسَفِ! مَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَتَحَسَّرْ عَلَى الْغَيْرِ، وَعَلَى نَفْسِهِ؟
وَمَنْ لَمْ يَقُلْ إِلَى اللَّهِ: «فَلْتَعْفُرْ لِي، سَيِّدِي،
إِنْ لَمْ يُجِبْنِي أَحَدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْلِقْ لِي أَحَدٌ؟
أَفْسِدُونِي جَمِيعًا؛ وَلَا أَحَدٌ يُجِبُكَ!»

صَجِرًا آتِنِدُ مِنَ الْعَالَمِ وَكَلَامِهِ اللَّامُجْدِي،
يُنَبِّغِي رَفْعَ الْعَيْنَيْنِ إِلَى قَبَابٍ بِلاَ غُيُومٍ،
وَعَدَمُ التَّوَجُّهِ إِلَّا إِلَى صُورِ خَرَسَاءٍ،
لِمَنْ لَا يُجِبُونَ أَبَدًا الْغَرَامِيَّاتِ الْمُعْزِيَةِ.

آتِنِدُ، يُنَبِّغِي آتِنِدُ إِحَاطَةُ النَّفْسِ بِالْعُمُوضِ،
وَالانْغِلَاقُ إِزَاءَ النَّظَرَاتِ، بِلاَ عَجْرَفَةٍ أَوْ مَرَارَةٍ،
دُونَ أَنْ تَقُولَ لِجِيرَانِكَ: «لَا أُحِبُّ إِلَّا السَّمَاءَ»،
أَوْ تَقُولَ إِلَى اللَّهِ: «فَلْتُعَزِّ رُوحِي عَنِ الْأَرْضِ!»

ذَلِكَ صَرْخٌ وَرَعٌّ، أَوْ صَدَهَ كَاهِنُهُ،

وَعِنْدَمَا يَحِلُّ اللَّيْلُ عَلَى سُقُوفِنَا الْكَئِيبَةِ،
وَعِنْدَمَا يَتْرُكُ الْحَشْدُ الشَّارِعَ الْمَرْصُوفَ،
يَمْتَلِئُ بِالصَّمْتِ وَالْخُسُوعِ.

أُخْتِي الْعَزِيزَةَ الَّتِي قَلْبُهَا شَاعِرٌ،
لَقَدْ مَرَرْتُ بِبَلَدَةٍ مَا مَزَيْنَتْ تَمَامًا وَمُتَوَرِّدَةً،
عِنْدَمَا كَانَ لِلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ السَّمْتُ الْجَمِيلُ لِلَاخْتِفَالِ،
يَوْمَ أَحَدٍ تُضِيئُهُ شَمْسٌ فَرِحَةٍ.

عِنْدَمَا يَهْتَاجُ الْجَرَسُ، وَيُنْشِدُ بِأَعْلَى صَوْتٍ،
وَيُلْزِمُ الْقَرْيَةَ بِالْيَقَظَةِ مِنْذُ الصَّبَاحِ،
عِنْدَمَا يَمْضِي الْجَمِيعُ، لِسَمَاعِ الْقُدَّاسِ الْمُتَأَهَّبِ،
شَبَابًا وَشُيُوخًا فِي أَبْهَةِ أَنْيَقَةٍ،

آتِيذٍ، مُتَصَاعِدَةٍ فِي أَعْمَاقِ رُوحِكُمُ الْمَدِينَةِ،
أَصْوَاتُ أَرْغُنٍ قَلِقَةٍ وَجَرَسٍ بَعِيدٍ
أَلَا تَتَنَرَّعُ مِنْكُمْ آهَةٌ رَغْمًا عَنْكُمْ؟

وَرَعُ الْحُقُولِ هَذَا، الْمَرِحُ الصَّرِيحُ،
أَلَا يَذْكُرْكُمْ - كَذِكْرِي عَذْبَةَ حَزِينَةٍ -
بِأَنَّكُمْ فِيمَا مَضَى كُنْتُمْ تُحِبُّونَ يَوْمَ الْأَحَدِ؟

هُنَاكَ كَلِمَاتٌ عَفِيفَةٌ تُدَسُّسُهَا نَحْنُ جَمِيعًا؛
وَعُشَّاقُ الْبُخُورِ يَرْتَكِبُونَ خَطَاً غَرِيبًا.
لَمْ أَعْرِفْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَعْشَقْ مَلَكَ مَا
مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ، فِيمَا أَظُنُّ، يَغَارُونَ قَلِيلًا مِنَ الْفِرْدَوْسِ.

لَا يَنْبَغِي مَنْحُ هَذَا الْأَسْمِ الْمُهَيْبِ الْعَذْبِ
إِلَّا إِلَى الْقُلُوبِ الْجَمِيلَةِ الطَّاهِرَةِ، الْعَذْرَاءِ بِلاَ شَائِبَةٍ.
انْظُرُوا! فَبَعْضُ الْوَحْلِ يَعْلُقُ بِجَنَاحِهِ
عِنْدَمَا يَجْلِسُ مَلَائِكُكُمْ صَاحِكًا عَلَى رُكْبِكُمْ.

كَانَتْ لِي، عِنْدَمَا كُنْتُ طِفْلًا، حِمَاقَتِي السَّاذِجَةِ
- فَتَاةٌ مَا شَرِيرَةٌ بِقَدْرِ مَا هِيَ جَمِيلَةٌ -
كُنْتُ أُسَمِّيهَا مَلَائِكِي. كَانَ لَدَيْهَا خَمْسَةٌ مُعْجَبِينَ.

أَيُّهَا الْحَمَقَى الْبُؤْسَاءُ! كَمْ يَتَمَلَّكُنَا ظَمًا كَبِيرٌ إِلَى التَّرْبِيتِ عَلَيْنَا
حَتَّى إِنِّي كُنْتُ أُرِيدُ الْإِمْسَاكَ بِأَمْرَأَةٍ وَقِحَّةٍ
وَأَقُولُ لَهَا: يَا مَلَائِكِي - بَيْنَ مُلَاءَتَيْنِ نَاصِعَتِي الْبَيَاضِ.

نَقَشُ عَلَى قَبْرِ

هُنَا مَنْ، مِنْ أَجْلِ نَيْلِ حُبِّ الْعَاهِرَاتِ الزَّائِدِ،
يَنْزِلُ - وَهُوَ مَا يَزَالُ شَابًّا - إِلَى مَمْلَكَةِ الْخُلْدِ^(١)

(١) المقصود حيوانات الخلد.

أَرَى، وَبَاقَتُكَ هِيَ الْمِعْمَارُ،
 فَهِيَ إِذَنْ الْجَمَالُ، لِأَنِّي الطَّبِيعَةُ.
 وَإِذَا مَا كَانَتْ الطَّبِيعَةُ تُزَيِّنُ الْجَمَالَ دَائِمًا،
 فَأَنَا جَدِيرٌ بِزُهورِكَ... هَا أَنَذَا مُفْرِطُ الْإِعْجَابِ بِنَفْسِي!

إلى شارل أسيلينو

المَشْرُوعُ الْمُغْوِي لِعَقْلِ غَيْرِ مَنْطِقِيٍّ
- الَّذِي لَمْ يَخْتَرِ مِنْ بَيْنِ أَهْطَالِ كَثِيرِينَ إِلَّا «بُرُونْدِيه» !!

مُونَسْلِيه بَايَار

أبياتٌ مُخَصَّصَةٌ لُصُورِهِ الشَّخْصِيَّةِ

العَشِيقَاتُ الصَّغِيرَاتُ الْمُحَدَّثَاتُ
يُسَمِّنَنِي الْقَطَّ الصَّغِيرُ؛
إِنِّي أَقْرُنُ رِقَّتَكُنْ
بِقُوَّةِ بَاشَا شَاب.

عُدُوبَةُ الْقُبَّةِ الزَّرَقَاءُ
مُرَكَّزَةٌ فِي نَظَرَتِي؛
فَإِذَا مَا أَرَدْتُنَّ رُؤْيِي مُرَبِّكَأ،
يَا شُخُوصَ «لِيكَتِيرِس»، فَلْتَقْضُمَنَّ ذَيْلِي.

قصائد بلجيكية

لا تُنشر القصائد التالية عادةً ضمن أعمال «بودلير» الشعرية. فهي لا ترد ضمن «أزهار الشر»، ولا - بطبيعة الحال - ضمن «سأم باريس». فهي خارجة - تمامًا - على السياق الشعري لبودلير. ولهذا فعادةً ما يستبعدا المحققون وناشرو أعماله الشعرية.

إنها حالة من الهجاء المرير والساخر لبلجيكا، وللشخصية البلجيكية، تصل إلى حد «العنصرية»، الغريبة على بودلير وكتاباتة. وربما - لهذا السبب - فثمة ميل عام لعدم إدراجها في أشعاره، إلا في الحالة الاستثنائية المعروفة لدى الفرنسيين: «الأعمال الكاملة»، التي ينبغي لها أن تكون «كاملة» فعلاً، لا قولاً، مهما كانت الملابسات.

وحتى في الطبعة التي اعتمدتها لأعمال بودلير «الكاملة»، فلم أعر عليها في القسم الشعري من أعماله؛ بل - للمفارقة - ضمن الملاحق الختامية التي قد لا ينتبه إليها الكثيرون، أو يُعنون بها.

وكان «بودلير» قد توجه إلى بلجيكا للابتعاد عن الوسط الباريسي، الذي أحسَّ بعدائه له، والأمل في تجديد طاقته الإبداعية، وكذلك الأمل في العثور على ناشر جديد لأعماله، وهو ما كان يظن أنه مرجحاً.

وغادر «بودلير» باريس في ٢٤ أبريل ١٨٦٤، لكن الآمال التي عقدها على رحلته لم تتحقق. فالمحاضرات والقراءات في الوسط الفني والأدبي ببروكسيل لم تأت له بالعائد المنتظر؛ كما لم يلق الشاعر اهتماماً من الناشرين. لكنه وجد كل مثالب المجتمع الباريسي تطارده في الوسط الثقافي البلجيكي. وإذ أحسَّ بالخديعة، فكَّر الشاعر في أن يكشف بؤس الذهنية البلجيكية. وبالفعل، فقد كتب سلسلة من المقالات بعنوان «بلجيكا البائسة»، صدرت في كُتيب مستقل، والقصائد التالية.

فينوس بلجيكية

(جبل الكور)

هَذِهِ الطَّرَاوَةُ فِي هَذِهِ الْأَقْدَامِ الصَّاعِدَةِ،
الَّتِي تَمْضِي تَحْتَ تَنْوَرَاتٍ لَيْسَتْ نَاصِعَةً،
تُشْبِهُ جُذُوعًا مَغْرُوسَةً

فِي خَشَبَاتٍ مَسْرُوحٍ

أَثْدَاءُ أَدْنَى الْحَمَقَاوَاتِ،
هُنَا، تَرْنُ قَنَاطِيرَ كَثِيرَةٍ،
وَأَعْضَاؤُهُنَّ أَوْتَادُ
لَهَا مَذَاقُ الْهَيَاكِلِ الْعَظِيمَةِ.

لَا يَكْفِينِي أَنْ يَكُونَ الثَّدْيُ كَبِيرًا وَنَاعِمًا:
لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُتَمَاسِكًا نَوْعًا مَا، أَوْ أُغَيِّرَ رَأْيِي.
ذَلِكَ أَنِّي، فَلْيَتَقَدَّسِ اسْمُ الرَّبِّ، لَسْتُ قُورَاقِيًا
لَأَسْكُرَ شَحْمَ الْأَمْعَاءِ وَدُهْنِ خِنْزِيرٍ ذَائِبٍ.

نظافة أنسات بلجيكا

كَانَتْ نَيْتَةً مِثْلَ زَهْرَةٍ عَطِنَةٍ
وَأَنَا، قُلْتُ لَهَا - لَكِنْ بِأَدَبٍ -
«عَلَيْكَ أَنْ تَأْخُذِي حَمَامًا مُنْتَظِمًا
لِتَبْدِيدِ رَائِحَةَ الْخِرَافِ هَذِهِ».

فَمَاذَا أَجَابْتَنِي هَذِهِ الْغَيَّةُ الشَّابَّةُ؟
«إِنِّي، أَنَا، لَسْتُ مُتَقَرِّرَةً مِنْكَ!»
- مَعَ ذَلِكَ، فَهُنَا يَغْسِلُونَ الرَّصِيفَ
وَأَرْضِيَّةَ الْمَبَانِي بِصَابُونٍ أَسْوَدَ!

النَّظَافَةُ الْبَلْجِيكِيَّةُ

«حَمَامَاتُ». - أَذْخُلُ وَأَسْأَلُ عَنْ حَمَامٍ. أَتَنْدُ
يَرْمُقُنِي رَبُّ الْمَكَانِ بِنَظَرَةٍ تَوْرٍ انْتَهَى مِنَ الرَّعْيِ،
وَيَقُولُ لِي: «ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ، ذَلِكَ، أَتَدْرِي،
سَيِّدِي!» - وَبَعْدَهَا بِسِيَمَاءٍ أَكْثَرَ إِحْبَاطًا:
«لَقَدْ نَقَلْنَا مَغَاسِلَنَا الثَّلَاثَ إِلَى مَخْزَنِ الْغِلَالِ».

لَقَدْ قَرَأْتُ، وَأَتَذَكَّرُ، فِي الْقِصَصِ الْقَدِيمَةِ،
أَنَّ الرُّومَانِيَّ كَانَ يَضَعُ الْخَمْرَ فِي مَخْزَنِ الْغِلَالِ؛
لَكِنْ، مَغَاسِلُهُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ بَرَبَرِيَّتِهِ، فَأَبَدًا!
هَكَذَا، هَتَفْتُ: «يَا لَهَا مِنْ فِكْرَةٍ، يَا إِلَهِي!»

لَكِنْ السَّادَجُ: «سَيِّدِي، ذَلِكَ أَنَّ الْقَادِمِينَ كَانُوا قَلِيلِينَ!»

هَآوِي الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ فِي بِلْجِيكَا

وَزِيرٌ يُدْعَى مِيسِينَا^(١) الْفَلَمَنْكِي،
كَانَ يَجُولُ بِي ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَنْزِلِهِ،
مُتَفَحِّصًا عَيْنِيَّ أَمَامَ كُلِّ لَوْحَةٍ،
قَلِيلَ الْكَلَامِ عَنِ الْفَنِّ، كَثِيرَ الْكَلَامِ عَنِ الطَّبِيعَةِ،
مُمَجِّدًا لِلْمَشْهَدِ الطَّبِيعِيِّ، شَارِحًا الْمَوْضُوعَ،
وَرَاصِدًا لِي بِالذَّاتِ سِعَرَ كُلِّ شَيْءٍ.
- لَكِنِّي مَا إِنِ وَصَلْنَا أَمَامَ لَوْحَةٍ شَخْصِيَّةٍ لِأَنْجَرِ^(٢)،
(الْمُتَعَالِمُ الَّذِي لَا أَحِبُّ كَثِيرًا سِمَاتِهِ الْهَزِيلَةَ)
حَتَّى اجْتَاخَنِي فَجَاءَةٌ اهْتِاجٌ مُقَدَّسٌ
فِي امْتِدَاحِ دِيشِيدِ^(٣)، الرَّسَّامِ الْإِمْبِرَاطُورِيِّ الْعَظِيمِ!

(١) ميسينا فارس وشاعر روماني، كان وزيرًا في حكم «أوغسطس»، وقام بتشجيع الفنون والآداب، وفتح منزله أمام الشعراء من قبيل «فيرجيل» و«هوراس».

(٢) إنجر Jean Auguste Ingres: فنان تشكيلي فرنسي ينتمي إلى «الكلاسيكية الجديدة».

(٣) لوي ديشيد Louis David (١٧٤٨ - ١٨٢٥): فنان فرنسي، رسام نابليون. رائد المدرسة الكلاسيكية الجديدة.

- وَهُوَ، يَسْتَدِيرُ إِلَى مُتَعَهِّدِهِ الْمُعْتَادِ،
الَّذِي ظَلَّ وَاقِفًا كَخَفِيرٍ،
أَوْ كَحَاجِبٍ يَتَلَذَّذُ بِإِيمَانٍ
بِالْحَمَاقَاتِ الْمُتَسَاقِطَةِ مِنْ شِفَاهِ مَلِكِهِ،
وَيَقُولُ لَهُ، بِنَظَرَةٍ تَاجِرٍ مِنْ إِقْلِيمِ بُوسِ:
«أَعْتَقِدْ، يَا عَزِيزِي، أَعْتَقِدْ أَنَّ نَجْمَ «دِيْفِيد» فِي صُعود!»

مَاءٌ نَاجِعٌ

اكتشف جُوزيف «ديلُورم»^(١)

تبعاً من الصِّفاء والخُصرة

إلى حدٍّ أن يمنح التَّعساء الرِّغبة

في إنهاء حياتهم الحزينة فيه.

- أعرِفُ وسيلةً لإبراء

هؤلاء الذين يريدون الهلاك هكذا

من هذا الشعور المؤذي:

فلتأخذوهم إلى شاطئ «السِّن»^(٢)،

«ولتروا - يقول هذا البلجيكي المازح

الذي لم يكن بالتأكيد حوريّة بحر -

الوجه الآخر للسنين.

(١) بطل رواية «شهوة» لسانت - بييف.

(٢) السِّن: نهر في بلجيكا؛ والسِّن: نهر في فرنسا. وثمة تلاعب بالألفاظ - في القصيدة - باستخدام الاسمين.

- حَقًّا - أَقُولُ لَهُ - نَهَرُ سَيْنٍ إِبَاحِي! »
لَأَنَّ هَذَا السَّنَّ - إِنْ شِئْنَا الدَّقَّةَ -
حَيْثُ يَهْوِي مَا لَا يُوصَفُ فِي حُشُودٍ
مِنْ كُلِّ جِدَارٍ وَمِنْ كُلِّ أَسَاسٍ -
لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ بُرَازًا يَنْسَابُ.

الْبَلَجِيكِيُّونَ وَالْقَمَرُ

لَمْ يُعْرِفْ أَبَدًا عِرْقُ بِهِذِهِ الْغَرَابَةِ
 كَهَؤُلَاءِ الْبَلَجِيكِيِّينَ. فَإِذَا الْعَجَمِيلُ، السَّاحِرُ،
 يُحْمَلُونَ بِعُيُونٍ جَاحِظَةٍ وَيُدْمَدِمُونَ فِي الْخَفَاءِ.
 فَكُلُّ مَا يُبْهِجُ قُلُوبَنَا الْفَانِيَّةَ يَصْدُمُهُمْ.

فَلَتَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ مَازِحَةٍ، وَتُسْتُصَبِّحُ عُيُونُهُمْ رَمَادِيَّةَ
 ذَابِلَةٍ كَعَيْنِ سَمَكَةٍ تُقْلَى؛
 قِصَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ: يَنْفَجِرُونَ فِي الضَّحِكِ،
 لِيُظْهِرُوا أَنَّهُمْ قَدْ فَهَمُوا تَمَامًا.

وَكَا الطِّيفِ، لَا يُطِيقُونَ الْأَضْوَاءَ؛
 فَأَحْيَانًا تَحْتَ الضِّيَاءِ الْهَادِي لِلسَّمَاءِ،
 رَأَيْتُ بَعْضَهُمْ، يُبْرِحُ بِهِمْ عَذَابٌ غَرِيبٌ،

فِي رُغْبِ الْوَحْلِ وَالْقِيءِ،
مُنْخَمِينَ حَتَّى الْأَسْنَانِ بِالْعَرَعِ وَالْبِيرَةِ،
وَهُمْ يَنْبُحُونَ إِلَى الْقَمَرِ، جَالِسِينَ عَلَى مُؤَخَّرَاتِهِمْ.

نقش

لِوَرْشَةِ السَّيِّدِ «رُوب»، صَانِعِ تَوَايِيتِ فِي «بِرُوكْسِيلِ»

كُنْتُ أَحْلَمُ، مُتَأَمِّلًا هَذِهِ التَّوَايِيتِ
 مِنْ خَشَبِ «الْبَالِيسَّانْدِرِ أَوِ الْأَكَّاكُجُو»،
 الَّتِي يُزَخِّرُهَا نَجَّارٌ بَارِعٌ بِمَائَةِ طَرِيقَةٍ:
 «يَا لَهَا مِنْ عُلْبَةٍ مُجَوَّهَرَاتٍ! وَلَايَةٍ جَوْهَرَةٍ!
 فَالْمَوْتَى، هُنَا، بِلَا حَيَاءٍ!
 وَذَاتَ يَوْمٍ، سَتُدَنِّسُ جُثَّتُ فَلَمَنْكِيَّةٍ
 هَذِهِ التَّوَايِيتِ الْفَاتِنَةَ.
 فَمِثْلُ هَذِهِ الصَّنَادِيقِ تُصْنَعُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْجُثَّتِ!»

حُورِيَّة نَهْرِ السَّنِّ

أَوْدُ حَقًّا - يَقُولُ لِي صَدِيقٌ فَرِيدٌ،
 كَثِيرًا مَا يَتَبَادَلُ فِكْرُهُ مَعَ فِكْرِي، -
 رُؤْيَا حُورِيَّة نَهْرِ «السَّنِّ»؛
 لَا بُدَّ أَنَّهَا أَشْبَهُ بِبَائِعِ فَحْمٍ
 وَجْهُهُ مُلَطَّخٌ تَمَامًا.

- «صَدِيقِي، أَنْتَ طَيِّبٌ لِلْغَايَةِ.
 كَلَّا، كَلَّا! لَيْسَ فَحْمًا ذَاكَ
 الَّذِي يُلَوِّثُ هَذِهِ الْحُورِيَّةَ!»

رَأَى السَّيِّدُ إِيْتَزَلَ فِي الْبِيرَةِ الْبُلْجِيكِيَّةِ

«أَتَشْرَبُ الْبِيرَةَ الْبُلْجِيكِيَّةَ؟» - قُلْتُ لِلْسَّيِّدِ إِيْتَزَلَ؛
لَمَحْتُ بَعْضَ الدُّعْرِ عَلَى سِيمَائِهِ الْمُتَلَحِّجَةِ،
«كَلَّا، أَبَدًا! فَالْبِيرَةُ الْبُلْجِيكِيَّةُ (أَقُولُ ذَلِكَ بِلَا مَرَاة!)
بِيرَةٌ مَشْرُوبَةٌ مَرَّتَيْنِ».

هَكَذَا كَانَ يَتَكَلَّمُ إِيْتَزَلَ، فِي مَقْهَى فَلَمَنْكِي،
بِصُورَةٍ مُلْغِزَةٍ، بِفِعْلِ الْحَصَافَةِ؛
أَدْرَكْتُ أَنَّهَا كَانَتْ طَرِيقَةً لِبَقَّةٍ
لأن يَقُولَ لِي: «الْبِيرَةُ الْبُلْجِيكِيَّةُ، مُرَادِفٌ لِلْبُول!»

فَلْتَلَا حِظُّوا جَيِّدًا أَنَّ الْبِيرَةَ الْبُلْجِيكِيَّةَ

تُصْنَعُ بِمَاءِ نَهْرِ السَّنِّ

- «أَدْرِكُ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي طَعْمُهَا الْمَحَلِّيَّ.

فَفِي النِّهَايَةِ، ذَلِكَ مَرُّهُونٌ بِمَا نَعْنِيهِ بِالْمَاءِ!»

اسمُ يَبْعَثُ عَلَى التَّفَاوُلِ

عَلَى الْبَابِ قَرَأَتْ: «لِيَزْ فَانِ سَوِيَّتَيْنِ»
كَانَ ذَلِكَ فِي حَيٍّ لَيْسَ بِجَنَّةٍ عَدْنُ.
سَعِيدٌ هُوَ الزَّوْجُ، سَعِيدٌ الْعَاشِقُ الَّذِي يَمْتَلِكُهَا،
هَذِهِ الْحَوَاءُ الَّتِي تَنْطَوِي فِي ذَاتِهَا عَلَى التَّرْيَاقِ!
فَهَذَا الرَّجُلُ الْمَحْسُودُ عَثَرَ،
عَلَى مَا لَمْ يَحْلُم بِهِ أَبَدًا أَحَدٌ،
مِنَ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ حَتَّى الْقُطْبِ الْجَنُوبِيِّ:
عَلَى قَرِينَةٍ وَاقِيَةٍ!

الحلم البلجيكي

تَظُنُّ بِلْجِيكَا نَفْسَهَا مُفْعَمَةً بِالمَفَاتِينِ؛
تَنَامُ. فَأَيُّهَا الرَّحَالَةُ، لَا تُوقِظْهَا.

حَصَانَةُ بَلْجِيكَا

«أَلَا لَا يَلْمِسَنِي أَحَدٌ! فَأَنَا مُحَصَّنَةٌ!»
 تَقُولُ بَلْجِيكَا. - وَذَلِكَ لِلْأَسَفِ! لَا يَنْقَاشُ فِيهِ.
 لَمْسُهَا! سَيَكُونُ ذَلِكَ فِي الْوَاقِعِ صُدْفَةً،
 طَالَمَا أَنَّهَا مُجَرَّدُ عَصَا حَقِيرَةٍ.

نَقْشٌ عَلَى قَبْرِ لِيُوبُولَدِ الْأَوَّلِ

هُنَا يَرْقُدُ مَلِكَ دُسْتُورِيَّ،

(مَا يَعْنِي: إِنْسَانٌ آلِيٌّ فِي فُنْدُقٍ مُؤَثَّثٍ)

كَانَ يَظُنُّ نَفْسَهُ خَالِدًا

لِحُسْنِ الْحَظِّ، ذَلِكَ انْتَهَى تَمَامًا!

نَقْشٌ عَلَى قَبْرِ بَلْجِيكَا

طُلِبَتْ مِنِّي كِتَابَةٌ عَلَى قَبْرِ

بِلْجِيكَا الْمَيِّتَةِ. سُدِّي

أَحْفُرْ، أَزْفُسْ وَأَزْكُلْ؛

لَمْ أَغْثُرْ إِلَّا عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: «أَخِيرًا!»

العقلُ المذعن

(١)

أَبْلَه «تُورَنَايَ» هَذَا
يَقُولُ لِي: «لَدَيَّ عَقْلٌ أَفْضَلُ
إِحْكَامًا مِنْكَ، سَيِّدِي. فَمُنْتَعِي
تُسَمِّدُ مِنَ الطَّاعَةِ؛

لَقَدْ وَضَعْتُ كُلَّ شَهْوَتِي
فِي عَقْلِ الإِذْعَانِ؛
وَقَلْبِي يَخْشَى كُلَّ طَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ
سِوَاءِ لِلْمُتَنَعَةِ أَمِ الضَّجَرِ،
وَيُرِيدُ أَنْ تَكُونَ سَعَادَةُ الْآخَرِينَ
دَائِمًا بُرْهَانًا عَلَى سَعَادَتِهِ».

مَا قَالَهُ رَجُلٌ تُورَنَايَ،

(الَّذِي تُحْزِرُونَ جِدًّا، فِيمَا أَظُنُّ،

أَنِّي نَقَحْتُ بِلَاغَتِهِ)

لَمْ يَكُنْ مُحْكَمًا تَمَامًا.

(٢)

الْبَلَجِيكِيُّونَ يَمْضُونَ فِي التَّقْلِيدِ، صَدَّقُونِي!

حَتَّى الْإِفْرَاطِ،

وَإِذَا مَا كَانُوا يُصَابُونَ بِالزُّهْرِيِّ،

فَذَلِكَ كَيْ يُشَبِّهُوا الْفَرَنْسِيِّينَ.

مَدَائِحُ الْمَلِكِ

الْجَمِيعُ، هُنَا، يَتَحَدَّثُونَ فِرْنَسِيَّةً مُضْحَكَةً:

يُعلنُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيلَ الْعَجُوزَ خَالِدَ.

أُرِيدُ حَقًّا مِنَ الْخُلُودِ

أَنْ يَكُونَ مُرَادِفَ

طُولِ الْعُمُرِ،

فَالْفَارِقُ صَغِيرٌ جَدًّا!

كَانَتْ «بُرُوكْسِيل»، تِلْكَ الْأَيَّامُ، تُعْلِنُ (وَذَلِكَ غَرَائِبِي!)

أَنَّ لِيُوبُولْدَ خَالِدَ.. فِي الْوَاقِعِ، كَانَ كَذَلِكَ تَقْرِيْبًا.

كَلِمَةُ كُوفِيَّيْهِ

«فِي آيَةٍ فَصِيلَةٍ، فِي أَيِّ رُكْنٍ مِنَ الْحَيَوَانِيَّةِ
 سَنُصَنِّفُ الْبَلَجِيكِي؟» طَرَحَتْ مُؤَسَّسَةُ
 عِلْمِيَّةٍ هَذِهِ الْمُسْكِلَةَ الْعَصِيَّةَ.
 أَتَنَذِرُ نَهْضَ كُوفِيَّيْهِ^(١) الْعَظِيمِ، مُرْتَعِشًا، مُمْتَقِعًا،
 لِكُلِّ الْأَسْبَابِ صَارِخًا: «إِنِّي أَرْمِي إِلَى الْكِلَابِ
 لِسَانِي! لَأَنَّ الْمَجَالَ - يَا سَادَتِي الْأَكَادِيمِيِّينَ -
 كَبِيرٌ نَوْعًا مَا مِنَ الْقُرُودِ حَتَّى
 حَتَّى الرَّخَوَيَّاتِ!»

(١) هو البارون «جورج كوفييه» George Cuvier (١٧٦٩-١٨٣٢): العالم الفرنسي في علم الحيوان وحياة
 العصور الجيولوجية القديمة؛ مؤسس علم التشريح المقارن.

في حفلٍ موسيقي، ببروكسيل

كَانُوا قَدْ عَزَفُوا مِنْ تِلْكَ النِّعَمَاتِ الْبَهِيْجَةِ
الَّتِي تَذْفَعُ الْعَقْلَ إِلَى الْحُلْمِ وَتَسْتَيْرُ الْحَوَاسَ؛
لَكِنْ، لِلْأَسَفِ!، لَكِنْ بِجُنْ قَلِيلاً عَلَى الطَّرِيقَةِ الْفَلَمَنْكِيَّةِ.
«تَصَوَّرْ! أَلَا يُصَفِّقُونَ لَهُ هُنَا؟» قُلْتُ.. فَقَالَ لِي
جَارٌّ عَاشِقٌ مِثْلِي لِلْمُوسِيقَى الْأَلْمَانِيَّةِ:
«أَأَنْتَ حَدِيثُ الْعَهْدِ بِهَذِهِ الْبِلَادِ الْمَوْبُوءَةِ،
سَيِّدِي؟ وَإِلَّا كُنْتَ سَتَعْرِفُ أَنَّ الْبِلَجِيكِي،
فِي الْمُوسِيقَى، مِثْلَمَا فِي النَّحْبِ وَالسِّيَاسَةِ،
يَظُنُّ أَنَّهُ يُدْرِكُهَا،
وَأَنَّهُ كَذَلِكَ يَخْشَى بِالذَّاتِ أَنْ يُخْطِئَ».

بِلَادَةُ بِلْجِيكِيَّة

لِبْلْجِيكَا بِلَادَتُهَا!

إِنَّهَا أُسْطُورَةٌ، تَكَرَّارُ مُضْجِرٍ،

أُمُوثَلَةٌ! - تَشْبِيهِ

فِي حَالَةٍ تَفْضِيلٍ!

بُرُوكْسِيل، يَا إِلَهِي! تَزْدِرِي مَدِينَةَ بُوبِيرِنَج!

بَائِعُ الْعَرَقِ يُمَارِحُ سَلَّةَ زَنْك!

حُقْنَةُ شَرَجِيَّةٍ، يَا لِلرُّعْبِ!، تَهْزَأُ مِنْ حُقْنَةِ عَادِيَّةٍ!

لَيْسَ لِبُرُوكْسِيلِ الْحَقُّ فِي الْاسْتِهْزَاءِ بِبُوبِيرِنَج!

أَنْدِرُكَ التَّشْبِيهِ

- هُوَ تَكَرَّارُ مُضْجِرٍ مَهُولٍ! -

إِلَى جَانِبِ التَّفْضِيلِ؟

فَلِبْلْجِيكَا بِلَادَتُهَا!

الحضارة البلجيكية

البلجيكيُّ بِالْغُ التَّحَضُّر؛
 هُوَ لِيَصَّ، هُوَ مُحْتَال؛
 وَهُوَ أَحْيَانًا مُصَابٌ بِالزُّهْرِيِّ؛
 فَهُوَ إِذَنْ بِالْغُ التَّحَضُّر.
 إِنَّهُ لَا يُمَزَّقُ فَرِيَسَتَهُ
 بِأَظَافِرِهِ؛ يَسْتَمْتِعُ
 بِإِظْهَارِ أَنَّهُ يَعْرِفُ اسْتِخْدَامَ
 الشُّوَكَةِ وَالْمِلْعَقَةِ؛
 يُهْمِلُ مَسْحَ فَمِهِ،
 لَكِنَّهُ يَرْتَدِّي سُرَّةً، وَسِرْوَالاً،
 قُبْعَةً، وَحَتَّى قَمِيصًا وَجَرْمَةً؛
 يَأْكُلُ بِشَرَاهَاتٍ مُقَرَّرَةٍ؛
 يَتَقَيَّأُ تَمَامًا كَمَا الْإِنْجِلِيزِيُّ؛

يَضَعُ عَلَى الرَّصِيفِ أَسْمَدَةً؛
يَضْحَكُ مِنَ السَّمَاءِ وَيُؤْمِنُ بِالتَّقْدُمِ
تَمَامًا كَصَحْفِيَّ قَرْنِيٍّ؛ -
وَفَضْلًا عَنِ ذَلِكَ، يُمَكِّنُهُ أَنْ يَنْكِحَ
وَاقِفًا كَقَرْدٍ لَيْبٍ.
فَهُوَ إِذَنْ بِالْغُ التَّحْضُرِ.

مَوْتُ لِيُوبُولَدِ الْأَوَّلِ

(١)

قَسَمَ الْقَاضِي الْعَظِيمُ لِسَلَامٍ أَوْ رَبًّا
 إِذَنْ طَاوَلَةَ الْبَلْيَارِدَ!
 - سَأَفْسُرُ لَكُمْ هَذَا الْمَجَازَ -
 لَمْ يَكُنْ هَذَا الْمَلِكُ هَارِبًا
 مِثْلَ مَلِكِنَا لُوي - فِيلِيبَ .
 كَانَ يُفَكِّرُ ، الْعَجُوزُ الْعَنِيدُ ،
 أَنَّ الْوَقْتَ لَمْ يَكُنْ قَدْ فَاتَ أَبَدًا
 لِيَتَهَشَّمَ غُلْيُونُهُ الْوَضِيعَ .

(٢)

كَانَ «لِيُوبُولَدُ» يُرِيدُ
 أَنْ يُخْرِجَ انْتِصَارَهُ الْأَوَّلَ عَلَى الْمَوْتِ
 لَمْ يَكُنْ الْأَقْوَى ؛

لَكِنْ فِي التَّارِيخِ الْمُنْصَفِ،
مَنْحَتُهُ مَقَاوِمَتُهُ الْجَدِيرَةُ بِالتَّقْدِيرِ
هَذَا الْأَسْمَ الْأَمْعَ:
«الْجُتَّةُ الْعَيْنِدَةُ».

سَام بَاريس
قَصَائِدُ نَشْرِ صَغِيرَةٍ

وفي عام ١٨٥٥، تُنشر أولى «القصائد القصيرة»: «غسق المساء» و«العزلة».

وفي عام صدور «أزهار الشر» (١٨٥٧) نفسه، يتضح أمام عيوننا مشروع الديوان الجديد. لكن هذا الإشهار يعني أنه قد تشكل تاريخياً من قبل، دون أن يكشف عنه بودلير إلا في اللحظة التي صدر فيها الديوان المنظوم.

وشأن «أزهار الشر»، فما سيصبح «سأم باريس» (ذلك أنه حمل أسماءً متتالية شأن الأزهار)، سيُنشر مجزئاً في الصحف والدوريات، تحت أول عنوان له: «قصائد ليلية».

وفي يوم رأس السنة عام ١٨٦١، يكتب بودلير إلى أرسين هوساي، مدير «لابريس» و«لارتيست»:

نويل ١٨٦١

عزيزي هوساي،

أنت تعرف، بسماء غير المشغول، كيف تملأ يومك، وتجد بضع لحظات لتصفح هذه العينة من قصائد النشر التي أرسلها لك. إنني أقوم بتجربة طويلة في هذا النوع، وأنوي إهداءها لك. وبعد شهر، سأعيد إليك كل ما سيكون قد تمّ (عنوان من قبيل: الجوّال المنعزل، أو المتسكع الباريسي سيكون ربما أفضل). وستكون متسامحاً. ذلك أنك - أنت أيضاً - قد قمت ببعض التجارب في هذا النوع، وتعرف كم هو صعب، وخاصةً من أجل تفادي إعطاء الشعور بعرض خطة شيء ما قابل للنّظم.

كنت أريد أن أحمل إليك مخطوطتين: أحدهما من أجل «لابريس» (الذي تحدثنا بشأنه)، والآخر من أجل «لارتيست»، وهو الأكثر تقدماً. فمِنذ أعوام كثيرة وأنا أحلم بقصائدي النشر.

وسأطلب منك في الوقت نفسه أن تدفع لي مقابل الجزء الذي أنجز بالفعل، أو الكل الذي أنجز؛ لأن الانهيار المفاجئ والمتزامن لكل من «لافانتازيست» و«لوربين» قد جعلني مُدَقِّعاً؛ لكنه رأس السنة؛ ربما ستكون مرتبكاً؛ من ناحية أخرى، فلا ينبغي أن

أسمح لنفسي بالسقوط هكذا على الناس بغتةً، وأنا أريد في النهاية التوفيق بين التلبية العاجلة لاحتياجاتي وكل رفاهيتك، - ومع انعدام النقود، سأطلب منك كلمة مكتوبة تعِدني بإدراج قصائدي؛ في هذه الظروف، فإنني أمتلك كيس نقود صديق مفتوحًا دائمًا لي.

والجانب الجيد من هذا العمل هو أنه يمكن قطعه أينما نشاء...

لقد كانت نقطة انطلاقي هي «جاسبار الليلي» لألويزيوس برتران، الذي تعرفه، دون أدنى شك؛ لكنني سرعان ما أحسست أنني لست قادرًا على البقاء ضمن هذه المحاكاة، وأن العمل غير قابل للتقليد. واستسلمت إلى أن أكون نفسي. المهم أن أكون مسليًا، وأن تكون راضيًا، أليس كذلك؟

لقد مرَّ حقًا بعض الوقت منذ أن كنت أريد تقديم هذا الكتاب الصغير لك، وأدرك أنك تقوم بمعجزة ما، أو على الأقل تريد القيام بها، بتجديد «لارتيست». سيكون ذلك جميلًا؛ فذلك سيجددنا نحن أنفسنا.

وفي النهاية، أيًا ما سيكون، وإذا ما كان قليلاً ما ستفعله لي، فشكرًا مقدمًا.

ش. بودلير

يقبل هوساي، ويتلقى المخطوط، ويحفظه في دُرجه. يمر بودلير بمرحلة بالغة الصعوبة: فكل آماله في الحصول على موارد قريبة تتلاشى. آنئذ، يتدخل الناشر هيتزل (الذي اشترى من بودلير «سأم باريس» و«أزهار الشر»، ويرحب بنشرهما في وقت قريب) برسالة لا يمكن تجاهلها إلى هوساي:

«عزيزي هوساي،

فلتقرأ ذلك جدّيًا - كنت أريد الكتابة إليك بما يلي بحروف من نار - فلديك بداية قصائد نثر بودلير، وحتى يمكنني نشرها فلا بد أن تصدر في الجريدة.

بودلير هو صديقنا القديم - وذلك ليس بلا أهمية، لأن لدينا الكثير الكثير من الأصدقاء - لكنه بالتأكيد النائر الأكثر أصالة والشاعر الأكثر فزادة في هذا الزمن، - وليست هناك جريدة يمكنها تأخير هذا الأثر الكلاسيكي لأشياء غير كلاسيكية

- فلتنشره إذن - لكن بسرعة - ولتسمح لي بقراءته مباشرة. فالدرر الحقيقية نادرة للغاية!». .

وكان للرسالة مفعولها الفوري؛ فبعد ثمانية أيام بالضبط بدأت «قصائد قصيرة» في الظهور في «لابريس»، التي واصلت النشر، لكن لتتوقف بعد القصيدة الثامنة عشرة.

ويواصل بودلير - ببطء ودأب - إنجاز مشروعه. وهيتزل الناشر ينتظر. ويكتب بودلير، في ٣ يناير ١٨٦٣: «سأم باريس لم يكتمل ولم يتم تسليمه في الموعد المحدد. ولا أحتاج من أجل استكمالها إلا إلى خمسة عشر يومًا من العمل...»؛ لكنه يكتب بعد يومين: «يا إلهي! كم سيكون بعيدًا إنهاؤه!». .

وفي ٧ فبراير ١٨٦٤، تعلن «الفيجارو» عن النشر الكامل لـ «سأم باريس، قصائد نثر»؛ لكنها تنشر ست قصائد فحسب. ويرصد بودلير لأمه السبب في هذا الإيقاف: «إن قصائدي - بكل بساطة - تزعج الجميع (كما قال المدير)».

ومن بروكسيل، يكتب إلى أمه، في ٨ أغسطس ١٨٦٤: «آه! يا لها من بهجة عندما ينتهي كل ذلك! إنني واهنٌ للغاية، مشتمٌٌ للغاية من كل شيء ومن نفسي، إلى حد أنني أحيانًا ما أتخيل أنني لن أكمل أبدًا هذا الكتاب المتوقف منذ أمد بعيد، والذي هدهدتُ طويلًا فكرته رغم ذلك!». .

ويواصل الكتابة، ولكن بصعوبة متزايدة. وتشهد رسائله أواخر ١٨٦٥ وأوائل ١٨٦٦ على رغبته في الانتهاء من الكتاب ونشره. وفي ٣ مارس ١٨٦٦، يكتب: «سأعمل خمسة عشر يومًا بحماسة في سأم باريس (...) ذلك كله انتهى، سأذهب إلى باريس لأجرب حظي بنفسى».

رغم ذلك، فلن يصدر الكتاب خلال حياته. فبعد عامين من وفاته، صدر الكتاب في يونيو ١٨٦٩، لدى ميشيل - ليقي، مشكلاً، مع «الفرايس الاصطناعية»، الجزء الرابع من «الأعمال الكاملة»، بعنوان «قصائد نثر قصيرة».

إلى أرسين هوساي

صديقي العزيز، أرسل لك عملاً صغيراً، لا يمكن - دون إجحاف - وصفه بأنه بلا رأس ولا ذنب، إذ هو كله - على العكس - رأس وذنب في آن واحد، على التوالي أو بالتبادل. فأرجو أن تتأمل أية تسهيلات مدهشة يقدمها هذا النسق للجميع، لك ولي وللقارئ. فنحن نستطيع التوقف حيثما نريد، أنا في حلم يقظتي، وأنت في المخطوطة، والقارئ في قراءته؛ لأنني لا أعلّق الإرادة العنيدة لهذه الأخيرة على الخيط اللامتناهي لحبكة مفتعلة. فإذا ما حذفت فقرةً، فستلتحم مقطوعتا هذه الفانتازيا المعدّبة بلا عناء. ولتُقطّعها إلى شذرات عديدة، لترى أن كلاً منها قادرة على البقاء منفردة. وعلى أمل أن تكون بعض هذه الشرائح حية بما يكفي لنيل إعجابك ومتعتك، أتجراً على أن أهديك الشعبان بكامله.

ولديّ اعتراف صغير لك. ذلك أنني عندما كنت أتصفح - للمرة العشرين على الأقل - «جاسبار الليلي» الشهير لألويزيوس برتران (وهو كتاب معروف لك ولي ولبعض أصدقائنا، أفلا يستحق أن يوصف بأنه «شهير»؟)، واتتني فكرة أن أحاول شيئاً على مثاله، وأن أطبق على وصف الحياة الحديثة، أو - بالأحرى - على «حياة» حديثة وأكثر تجريدية، الأسلوب الذي قام بتطبيقه على تصوير الحياة القديمة، الأصيلية بغرابة.

من منا لم يحلم - في أوج طموحه - بمعجزة نثر شعري، موسيقي بلا إيقاع ولا قافية، سلس ومتنافر بما يكفي للتوافق مع الحركات الغنائية للروح، وتموجات أحلام اليقظة، وانتفاضات الوعي؟

فمن مخالطة المدن الكبرى بوجه خاص، ومن تقاطع علاقاتها التي لا تُحصى،

نشأ هذا المثل المُلح . وأنت نفسك - يا صديقي العزيز - أَلَمْ تحاول ترجمة الصرخة
الثابتة لصانع الزجاج في أنشودة، والتعبير - في نثر غنائي - عن جميع الإيحاءات
الحزينة التي تصدرها هذه الصرخة حتى السقائف، عبر الضباب العالي للشارع؟

ولكنني - للحق - أخشى ألاَّ تحقق لي غيرتي أي نجاح. فما إن بدأتُ في العمل
حتى أدركت أنني لم أظَل فحسب بعيدًا جدًّا عن مثالي الغامض والباهر، بل إنني أيضًا
قد صنعت شيئًا ما (يمكن حقًّا تسميته بأنه شيء ما) مختلفًا بصورة فريدة، شيئًا ما
عارضًا، يتباهى به - ولا شك - أي شخص سواي، لكنه لا يمكن إلاَّ أن يهين بعمق أي
عقل يعتبر أن أعظم شرف للشاعر إنما يكمن في إنجازه بدقة لما خطط له.

المحب لك

ش ب

[٢٦ أغسطس ١٨٦٢]

الغريب

- «قُلْ لِي، أَيُّهَا الرَّجُلُ الْغَامِضُ، مَنْ أَكْثَرُ مَنْ تُحِبُّ؟ أَبُوكَ أَمْ أُمُّكَ، أَخْتُكَ أَمْ
أَخُوكَ؟

- لَا أَبَ لِي وَلَا أُمَّ، لَا أُخْتَ وَلَا أَخ.

- وَأَصْدِقَاؤُكَ؟

- أَنْتَ تَسْتَخْدِمُ كَلِمَةً مَا يَزَالُ مَعْنَاهَا، بِالنِّسْبَةِ لِي، مَجْهُولًا حَتَّى الْيَوْمِ.

- وَوَطْنُكَ؟

- إِنِّي أَجْهَلُ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَقَعُ.

- الْجَمَالَ؟

- سَأُحِبُّهُ عَنْ طَيْبِ خَاطِرٍ، لَوْ كَانَ رَبَّةً، وَخَالِدًا.

- الذَّهَبَ؟

- أَكْرَهُهُ مِثْلَمَا تَكْرَهُهُ الْإِلَهَ.

- إِيهَ!، فَمَا الَّذِي تُحِبُّ إِذَنْ، أَيُّهَا الْغَرِيبُ الْعَجِيبُ؟

- أُحِبُّ الْغُيُومَ.. الْغُيُومَ الَّتِي تَمْضِي.. هُنَاكَ.. هُنَاكَ.. الْغُيُومَ الرَّائِعَةَ!»

يَأْسُ الْمَرْأَةُ الْعَجُوزَ

تُحْسِ الْمَرْأَةُ الْقَصِيرَةَ الْمُتَعَصِّنَةَ بِالْفَرَحَةِ الْغَامِرَةِ لِرُؤْيَةِ هَذَا الطِّفْلِ الْجَمِيلِ، الَّذِي
يَحْتَفِي بِهِ الْجَمِيعُ، وَالَّذِي يُرِيدُ الْكُلَّ إِرْضَاءً؛ هَذَا الْكَائِنُ الْجَمِيلُ، بَالِغُ الْهَشَاشَةِ
مِثْلَهَا، هِيَ الْعَجُوزُ الْقَصِيرَةُ، وَمِثْلَهَا أَيْضًا بِلَا أَسْنَانٍ وَلَا شَعْرٍ.

وَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ، لِتُقَدِّمَ لَهُ بَعْضَ الْبَسَمَاتِ وَبَعْضَ الْبَشَاشَةِ اللَّطِيفَةِ.

لَكِنَّ الطِّفْلَ الْمَذْعُورَ تَخَبَّطَ تَحْتَ تَرْبِيَّاتِ الْمَرْأَةِ الطَّيِّبَةِ الْمُتَهَدِّمَةِ، وَمَلَأَ الْبَيْتَ
بِضَرَاخِهِ.

حِينَئِذٍ، انْسَحَبَتِ الْعَجُوزُ الطَّيِّبَةُ إِلَى عِزْلَتِهَا الْأَبْدِيَّةِ، وَرَاحَتْ تَبْكِي فِي أَحَدِ الْأَرْكَانِ،
وَهِيَ تُكَلِّمُ نَفْسَهَا: - «آه! بِالنَّسَبَةِ لَنَا، نَحْنُ النِّسَاءُ الْعَجَائِزُ التَّعْيِيسَاتُ، فَاتِ أَوَّانُ الْقُدْرَةِ
عَلَى الْإِنْهَاجِ، حَتَّى إِبْهَاجِ الْأَبْرِيَاءِ؛ وَتَبَّتِ الرُّعْبُ فِي الْأَطْفَالِ الصَّغَارِ الَّذِينَ نَهَفُوا إِلَى
أَنْ نُجِيبَهُمْ!». -

صلاة اعتراف الفنان

كَمْ هِيَ ثَاقِبَةٌ نَهَائِيَّاتُ نَهَارَاتِ الْخَرِيفِ! آه! ثَاقِبَةٌ حَتَّى الْأَلَمِ! لَأَنَّ هُنَاكَ أَحَاسِيسَ
عَذْبَةً مُعَيَّنَةً لَا يَنْفِي غُمُوضُهَا حَدَّتَهَا؛ وَمَا مِنْ حَافَةٍ أَرْهَفَ مِنْ حَافَةِ اللَّانِيَهَائِي.

عَظِيمَةٌ هِيَ مُنْعَةُ إِغْرَاقِ نَظَرَتِهِ فِي رَحَابَةِ السَّمَاءِ وَالْبَحْرِ! عُزْلَةٌ، وَصَمْتُ، وَنَقَاءٌ
لِلْأَزُورِ بِلاَ نَظِيرٍ! شِرَاعُ صَغِيرٍ يَرْتَعِشُ فِي الْأَفْقِ، وَيُحَاكِي - بِصَغَرِهِ وَانْعِزَالِهِ - وَجُودِي
الْعُضَالِ، نَعْمَ رَتِيبٌ لِلْأَمْوَاجِ الصَّاخِبَةِ، كُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تُفَكِّرُ مِنْ خِلَالِي، أَوْ أَفَكِّرُ مِنْ
خِلَالِهَا (لَأَنَّ الْأَنَا سَرْعَانَ مَا تَضِيعُ فِي عَظْمَةِ حُلُمِ الْيَقْظَةِ!)؛ تُفَكِّرُ، أَقُولُ، لَكِنْ بِصُورَةٍ
مُوسِيقِيَّةٍ وَتَصْوِيرِيَّةٍ، بِلاَ مُمَاحَكَاتٍ، وَلَا قِيَاسَاتٍ مَنْطِيقِيَّةٍ، وَلَا اسْتِنْبَاطَاتٍ.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَهَذِهِ الْأَفْكَارُ - الَّتِي تَخْرُجُ مِنِّي أَوْ تَطْفُرُ مِنَ الْأَشْيَاءِ - سَرْعَانَ مَا تُضْبِحُ
مُفْرِطَةً الْحِدَّةَ. فَطَاقَةُ الشَّهْوَةِ تَخْلُقُ ضِيقًا وَعَذَابًا إِيْجَابِيًّا. وَأَعْصَابِي بِالْغَةِ التَّوَثُّرِ لَا
تُصْدِرُ سِوَى دَبْذَبَاتٍ صَاخِبَةٍ أَلِيْمَةٍ.

وَالآنَ تُذْهِلُنِي أَعْمَاقُ السَّمَاءِ؛ يُغِيطُنِي صَفَاؤُهَا. يُثِيرُنِي جُمُودُ الْبَحْرِ، وَتَبَاتُ
الْمَشْهَدِ... آه! الْأَبَدُ مِنَ الْمَعَانَاةِ إِلَى الْأَبَدِ، أَمْ تَحَاشِي الْجَمِيلِ إِلَى الْأَبَدِ؟ أَيْتُهَا الطَّبِيعَةُ،
السَّاحِرَةُ بِلاَ رَحْمَةٍ، الْغَرِيمُ الْمُتَصَرِّ دَائِمًا، دَعِينِي! كُفِّي عَنْ مُرَاوَدَةِ شَهَوَاتِي وَكِبَرِيَايِي!
فِدْرَاسَةُ الْجَمِيلِ مُبَارَرَةٌ يَصْرُخُ فِيهَا الْفَنَانُ رُغْبًا قَبْلَ انْدِحَارِهِ.

مَهْرَج

كَانَ انْفِجَارَ عَامٍ جَدِيدٍ: فَوَضَى مِنَ الطِّينِ وَالثَّلُوجِ، تَقَطَّعُهَا أَلْفُ عَرَبَةٍ، مُتَلَالِئَةً
بِالْأَلْعَابِ وَالْحُلُوى، ذَاخِرَةً بِالشَّرَاهَةِ وَالْيَاسِ، هَذَبَانِ رَسْمِيٍّ لِمَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ أَجْلِ
تَشْوِيشِ ذَهْنِ أَعْتَى الْمُعْتَزِلِينَ.

وَسَطَ هَذَا الْهَرَجِ وَالْمَرْجِ وَهَذَا الصَّخْبِ، يَخْبُ حِمَارٌ بِحَيَوِيَّةٍ، يُلَاحِظُهُ شَخْصٌ
فَظٌّ بِسَوْطِهِ.

وَفِيمَا كَانَ الْحِمَارُ يَدُورُ حَوْلَ رُكْنِ أَحَدِ الْأَرْصِيفَةِ، إِذَا بِسَيِّدٍ وَسِيمٍ، مُتَأَنِّقٍ، يَرْتَدِي
قَفَازًا، مَخْنُوقٍ فِي رِبَاطِ عُنُقٍ وَمَسْجُونٍ فِي ثِيَابٍ جَدِيدَةٍ تَمَامًا، يَنْحَنِي بِاحْتِفَالِيَّةٍ أَمَامَ
الْحَيَوَانِ الدَّلِيلِ، وَيَقُولُ لَهُ، وَهُوَ يَرْفَعُ قُبَّعَتَهُ: «أَطِيبَ أُمْنِيَّاتِي السَّعِيدَةِ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ!»،
ثُمَّ اسْتَدَارَ بِاخْتِيَالٍ إِلَى مَا لَا أَدْرِي مِنْ أَصْدِقَاءَ، كَأَنَّهُ يَدْعُوهُمْ إِلَى إِضَافَةِ اسْتِحْسَانِهِمْ
إِلَى زَهْوِهِ بِنَفْسِهِ.

لَمْ يَرِ الْحِمَارُ هَذَا الْمَهْرَجَ اللَّطِيفَ، وَوَاصَلَ الرِّكَضَ بِحِمَاسٍ إِلَى حَيْثُ يَدْعُوهُ
وَاجِبُهُ.

أَمَّا أَنَا، فَقَدْ اسْتَبَدَّ بِي فَجَاءَةٌ غَضَبٌ هَائِلٌ مِنْ هَذَا الْأَبْلَهِ الْفَخِيمِ، الَّذِي بَدَأَ لِي تَكْثِيفًا
لِعَقْلِيَّةٍ فَرَنْسَا كُلِّهَا.

الغرفة المزدوجة

غُرْفَةٌ تُشَبِّهُ حُلْمَ يَقْظَةٍ، غُرْفَةٌ رُوحِيَّةٌ حَقًّا، حَيْثُ الْهَوَاءُ الرَّاكِدُ مُحْضَبٌ قَلِيلًا
بِالْوَرْدِيِّ وَالْأَزْرَقِ.

فِيهَا تَأْخُذُ الرُّوحُ حَمَامَ كَسَلٍ، مُعْطَرًّا بِالنَّدَمِ وَالرَّغْبَةِ. - إِنَّهُ شَيْءٌ مَا مِنْ غَسَقٍ، مِنْ
رُزْقَةٍ وَوَرْدِيَّةٍ؛ حُلْمٌ بِالشَّهْوَةِ خِلَالَ الْكُسُوفِ.

لِلْأَثَاثِ أَشْكَالٌ مَمْطُوطَةٌ، وَاهِنَةٌ، وَاهِيَةٌ. لِلْأَثَاثِ سِيَمَاءُ الْحَالِمِ؛ يُقَالُ إِنَّهَا تُوَهَّبُ
حَيَاةً خِلَالَ النَّوْمِ، مِثْلَ مَا هُوَ نَبَاتِيٌّ وَمَعْدِنِيٌّ. الْأَقْمِشَةُ تَتَكَلَّمُ لُغَةً صَامِتَةً، مِثْلَ الزُّهُورِ،
وَالسَّمَاوَاتِ، وَالشُّمُوسِ الْغَارِبَةِ.

لَا بَشَاعَاتٍ فَنِيَّةٌ عَلَى الْجُذُرَانِ. بِالمَقَارَنَةِ مَعَ الْحُلْمِ الصَّافِي، مَعَ الانْطِبَاعِ بِلاَ
تَحْلِيلٍ، فَالْفَنُّ الْمُحَدَّدُ، أَوِ الْفَنُّ الْعَقْلَانِيُّ هُوَ سُبَّةٌ. هُنَا، لِكُلِّ شَيْءٍ وَضُوحُ التَّنَاغُمِ
الْكَافِي وَغُمُوضُهُ الشَّهْيِ.

يَطْفُو أَرِيحٌ بِالْبُحْرِ الْخَفُوتِ لِأَرْهَفِ نَوْعٍ، تَمْتَرِجُ بِهِ نَدَاوَةٌ طَفِيفَةٌ لِلْغَايَةِ، فِي هَذَا
الْهَوَاءِ، حَيْثُ الْعَقْلُ الْغَافِي تُهْدِدهُ أَحَاسِيسُ دَفِينَةٍ.

يَهْتَطِلُ حَرِيرُ الْمُوسْلِينَ بِغَزَاةٍ أَمَامَ النَّوَافِدِ وَالسَّرِيرِ؛ يَنْدَفِقُ فِي سَلَالَاتٍ ثُلْجِيَّةٍ.
عَلَى هَذَا السَّرِيرِ تَنَامُ الْمَعْبُودَةُ، سَيِّدَةُ الْأَحْلَامِ. لَكِنْ كَيْفَ جَاءَتْ؟ مَنْ جَاءَ بِهَا؟ أَيْهَ
قُدْرَةٍ سِحْرِيَّةٍ بَشَّتْهَا فِي عَرْشِ الشَّهْوَةِ وَحُلْمِ الْيَقْظَةِ هَذَا؟ مَاذَا يُهِمُّ؟ هَا هِيَ ذِي! وَقَدْ
تَعَرَّفَتْ عَلَيْهَا.

هَما بِالتَّكْيِيدِ الْعَيْنَانِ اللَّتَانِ يَخْتَرِقُ لِهَيْبُهُمَا الْغَسَقُ؛ هَاتَانِ الْمُقْلَتَانِ النَّافِذَتَانِ الرَّهِيبتَانِ، اللَّتَانِ تَعَرَّفْتُ عَلَيْهِمَا بِمَكْرِهِمَا الْمُخِيفِ! تَجَدِّبَانِ، وَتُخْضِعَانِ، وَتَلْتِهِمَانِ نَظْرَةَ الْغَافِلِ الَّتِي تُحَدِّقُ فِيهِمَا. فَكَثِيرًا مَا تَمَعَّنْتُ فِيهِمَا، هَاتَيْنِ النَّجْمَتَيْنِ السُّودَاوَيْنِ اللَّتَيْنِ تَفْرِضَانِ الْفُضُولَ وَالْإِعْجَابَ.

فِإِلَى أَيِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ أُدِينُ إِذْنُ بِمَا يُلْفَنِي مِنْ غُمُوضٍ، وَصَمْتٍ، وَسَلَامٍ، وَعُطُورٍ؟ أَيُّ نَعِيمٍ! فَمَا تُسَمِّيه عُمُومًا بِالْحَيَاةِ - حَتَّى فِي أَكْثَرِ لَحْظَاتِهَا سَعَادَةً - لَا تُقَارَنُ بِهِذِهِ الْحَيَاةِ الْأَسْمَى الَّتِي أَعْرِفُهَا الْآنَ، وَالَّتِي أَتَلَذُّ بِهَا دَقِيقَةً دَقِيقَةً، وَلَحْظَةً لَحْظَةً!.

كَلَّا! لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ دَقَائِقُ، لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ لَحْظَاتُ! الزَّمَنُ تَلَأَشَى؛ إِنَّهَا الْأَبَدِيَّةُ تُسُودُ، أَبَدِيَّةُ الْمَلَدَاتِ!

لَكِنَّ طَرَفَةً مُفْزَعَةً، ثَقِيلَةً، دَوَّتْ فِي الْبَابِ، وَكَمَا فِي الْأَحْلَامِ الْجَهَنَّمِيَّةِ، بَدَأَ لِي أَنِّي تَلَقَيْتُ ضَرْبَةً مِعُولٍ فِي بَطْنِي.

بَعْدَهَا دَخَلَ شَبَحٌ. إِنَّهُ حَاجِبٌ يَجِيءُ لِنَعْدِيهِ بِاسْمِ الْقَانُونِ؛ أَوْ مَحْظِيَّةٌ دَنِيَّةٌ تَجِيءُ لِنَبْكِي بِؤْسِهَا وَتُضَيِّفُ تَفَاهَاتِ حَيَاتِهَا إِلَى أَوْجَاعِ حَيَاتِي؛ أَوْ رُبَّمَا هُوَ سَاعٍ لِمُدِيرِ جَرِيدَةٍ يُطَالِبُ بِبَقِيَّةِ الْمَخْطُوطَةِ.

الْعُزْفَةُ الْفَرْدَوَسِيَّةُ، وَالْمَعْبُودَةُ، سَيِّدَةُ الْأَحْلَامِ، أَتْنَى السَّلَفِ^(١)، كَمَا كَانَ يَقُولُ رُونِيه الْكَبِيرُ^(٢)، كُلُّ هَذَا السَّحْرِ تَلَأَشَى مَعَ الطَّرْفَةِ الْوَحْشِيَّةِ الَّتِي سَدَّهَا الشَّبَحُ.

أَيُّ رُغْبٍ! أَتَذْكُرُ! أَتَذْكُرُ! نَعَمْ! هَذَا الْكُؤُخُ، مَثْوَى الْمَلَلِ الْأَبَدِيِّ هَذَا، هُوَ مَثْوَايَ حَقًّا. هَا هُوَ الْأَثَاثُ الْأَبْلَهُ، الْمُتْرَبُّ، الْمُهْشَمُّ؛ الْإِدْفَاءُ بِلَا نَارٍ وَلَا جَمْرٍ، مُلْطَحَةٌ بِالْبُصَاقِ؛ النَّوَافِذُ الْكَثِيْبَةُ حَيْثُ خَطَّ الْمَطَرُ أَثَارَهُ فِي الْعُبَارِ؛ الْمَخْطُوطَاتُ، الْمَشْطُوبَةُ أَوْ غَيْرُ الْمُكْتَمِلَةِ؛ التَّقْوِيمُ السَّنَوِيُّ حَيْثُ حَدَّدَ الْقَلَمُ التَّوَارِيخَ الْمَشْتُومَةَ!

وَذَلِكَ الْعِطْرُ الْمُتَمَيِّزُ لِعَالَمٍ آخَرَ، الَّذِي كَانَ يُسْكِرُنِي بِحَسَاسِيَّةٍ مُرْهَفَةٍ، وَآسَفَاهُ! حَلَّتْ مَحَلَّهُ رَائِحَةُ مُنْفَرَّةٍ لِدُخَانِ طَبَاقٍ مَمْرُوجَةٍ بِمَا لَا أَدْرِي مِنْ عَفْوَةٍ مُقَرَّرَةٍ. وَهُنَا أَسْتَشِيقُ الْآنَ زَنْخَ الْكَابَةِ.

(١) Sylphide: أُنْتَى «السَّلَف»؛ كَاتِنُ خُرَافِي يَرْمِزُ إِلَى الْهَوَاءِ فِي الْأَسَاطِيرِ السَّلْتِيَّةِ.

(٢) لعل المقصود: «شاتوبريان»، الأديب الفرنسي المعروف.

فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمَحْضُورِ، بَلِ الْمَلِيءِ بِالنُّورِ، هُنَاكَ شَيْءٌ وَحِيدٌ مَعْرُوفٌ يَنْتَسِمُ لِي:
قَارُورَةُ صَبْغِ الْأَفْيُونِ؛ صَدِيقَةٌ قَدِيمَةٌ رَهِيبةٌ؛ وَشَأْنُ جَمِيعِ الصَّدِيقَاتِ، وَأَسْفَاهُ! خِصْبَةٌ
بِالْمُدَاعَبَاتِ وَالْخِيَانَاتِ.

آه! نَعَمْ! عَادَ الزَّمَنُ؛ يُهَيِّمُنُ الزَّمَنُ الْآنَ فِي عَظَمَةٍ؛ وَمَعَ الْعَجُوزِ الْقَبِيحِ عَادَتِ
حَاشِيَتُهُ الشَّيْطَانِيَّةُ مِنَ الذِّكْرِيَّاتِ، وَالنَّدَامَاتِ، وَالتَّشْنُجَاتِ، وَالْمَخَاوِفِ، وَالْكَرُوبِ،
وَالْكُوَابِيسِ، وَالْغَيْظِ، وَالْعُصَابِ.

أُوَكِّدُ لَكُمْ أَنَّ اللَّحْظَاتِ الْآنَ مُؤَكَّدَةٌ بِقُوَّةٍ وَأُبْهَةٍ، وَكُلُّ مِنْهَا تَقُولُ، وَهِيَ تَطْفُرُ مِنَ
الْبُنْدُولِ: «أَنَا الْحَيَاةُ، الْحَيَاةُ الْعَصِيَّةُ، الَّتِي لَا تُحْتَمَلُ!».

لَا وَجُودَ فِي الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا لِلْحِظَّةِ تَكْمُنُ مُهِمَّتُهَا فِي أَنْ تَزُفَ الْبُشْرَى، الْبُشْرَى
الَّتِي تَبْتُ فِي كُلِّ شَخْصٍ رُغْبًا بِلَا تَفْسِيرِ.

حَقًّا! الزَّمَنُ يُهَيِّمُنُ؛ يَسْتَعِيدُ اسْتِبْدَادَهُ الْوَحْشِيَّ. وَيَسُوقُنِي، كَمَا لَوْ كُنْتُ ثَوْرًا،
بِمِنْخَاسِهِ الْمُزْدَوِّجِ. - «هَيَّا، إِذْنِ! أَيُّهَا الْأَحْمَقُ! فَلْتَنْضَحِ الْعَرَقَ إِذْنِ، أَيُّهَا الْعَبْدُ! وَلْتَعِشْ
إِذْنِ مَلْعُونًا!».

لِكُلِّ شَخْصٍ مَسْخُهُ^(١)

تَحْتَ سَمَاءٍ رَمَادِيَّةٍ شَاسِعَةٍ، وَفِي سَهْلٍ كَبِيرٍ مُتْرَبٍ، بِلَا دُرُوبٍ، بِلَا أَعْشَابٍ، بِلَا
أَشْوَالِكٍ، بِلَا قُرَاصِيٍّ، قَابَلْتُ أَنَا سَا كَثِيرِينَ يَسِيرُونَ مَحْنِيْنِينَ.

كُلُّ مِنْهُمْ كَانَ يَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِهِ مَسْخًا ضَخْمًا، ثَقِيلًا مِثْلَ جَوَالٍ دَقِيقٍ أَوْ فَحْمٍ، أَوْ
عِتَادٍ جُنْدِيٍّ مُشَاةٍ رُومَانِيٍّ.

لَكِنَّ الْحَيَوَانَ الْمُخِيفَ لَمْ يَكُنْ عِبْثًا سَاكِئًا؛ عَلَى الْعَكْسِ، كَانَ يُلْفُ وَيُخْضَعُ
الشَّخْصَ بَعْضَلَاتِهِ الْمَرْتَةِ الْقَوِيَّةِ؛ وَكَانَ يَقْبِضُ بِمِخْلَبِيهِ الْكَبِيرَيْنِ عَلَى صَدْرٍ حَامِلِهِ؛
وَرَأْسُهُ الْأَسْطُورِيَّةُ تَعْمُرُ جَبِينَ الشَّخْصِ، كَأَحَدِي تِلْكَ الْخَوَذَاتِ الْمُفْرِغَةِ الَّتِي كَانَ
الْمُحَارِبُونَ الْقَدَمَاءُ يَأْمُلُونَ بِهَا زِيَادَةَ رُغْبِ الْعَدُوِّ.

سَأَلْتُ أَحَدَ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ، وَسَأَلْتُهُ إِلَى أَيْنَ يَمْضُونَ هَكَذَا؟ أَجَابَنِي بِأَنَّهُ لَا
يَذْرِي شَيْئًا، لَا هُوَ وَلَا الْآخَرِينَ؛ لَكِنَّهُمْ يَمْضُونَ بِالْبَدِيهِةِ إِلَى مَكَانٍ مَا، طَالَمَا كَانُوا
مَدْفُوعِينَ إِلَى السَّيْرِ بِفِعْلِ ضَرُورَةٍ قَاهِرَةٍ.

وَتَمَّةٌ أَمْرٌ غَرِيبٌ جَدِيرٌ بِالْمُلَاحَظَةِ: فَلَا أَحَدَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُرْتَحِلِينَ كَانَ يَنْدُو عَلَيْهِ
الْانْزِعَاجُ مِنَ الْحَيَوَانِ الضَّارِي الْمُعْلَقِ فِي رَقَبَتِهِ وَالْمُلْتَصِقِ بِظَهْرِهِ؛ بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَعْتَبِرُهُ
جُزْءًا مِنْ نَفْسِهِ. فَكُلُّ هَذِهِ الْوُجُوهِ الْمَكْدُودَةِ وَالْمُتَجَهِّمَةِ لَمْ تَكُنْ لَتُبْدِي أَيْ يَأْسَ؛

(١) الكلمة الأصلية chimère تعني «المسح» وفقًا للأساطير القديمة، الذي يتألف جسده من أعضاء حيوانات مختلفة.

وَتَحْتَ قُبَّةِ السَّمَاءِ الْكَيِّبَةِ، وَالْأَقْدَامِ مَغْرُوسَةٍ فِي تُرَابِ أَرْضٍ مُوحِشَةٍ مِثْلَ السَّمَاءِ،
كَانُوا يَمْضُونَ بِالسَّحْنَةِ الْمُسْتَسْلِمَةِ لِمَنْ حُكِمَ عَلَيْهِمْ بِالْأَمَلِ دَائِمًا.

مَرَّ الْمَوْكِبُ بِجَوَارِي وَعَاصٍ فِي أَثِيرِ الْأَفُقِّ، حَيْثُ سَطَحُ الْأَرْضِ الْمُنْحَنِي يَخْتَفِي
عَنْ فُضُولِ النَّظَرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

وَلِيَضِعَ لِحَظَاتٍ، صَمَمْتُ عَلَى رَغْبَتِي فِي فَهْمِ هَذَا اللَّغْزِ؛ لَكِنْ سَرَعَانَ مَا غَلَبَتْنِي
الْأَمْبَالَةُ الْقَاهِرَةُ، وَأَصْبَحْتُ مُثْقَلًا بِوِطَائِهَا بِأَكْثَرِ مِمَّا كَانُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ مُثْقَلِينَ بِوِطَاءِ
مُسُوحِهِمُ الْفَادِحَةِ.

المعتوه و«فينوس»

أَيُّ نَهَارٍ رَائِعٍ! الْمُتَمَتِّعُ الشَّاسِعُ مَاخُودٌ تَحْتَ عَيْنِ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ، مِثْلَ الشَّبَابِ
تَحْتَ سَطْوَةِ الْحُبِّ.

النَّشْوَةُ الْكُونِيَّةُ لِلْأَشْيَاءِ لَا تَتَجَلَّى بِأَيِّ صَوْتٍ؛ حَتَّى الْمِيَاهُ نَفْسُهَا تَبْدُو كَأَنَّهَا نَائِمَةٌ.
وَعَلَى التَّقْيِضِ تَمَامًا مِنَ الْأَعْيَادِ الْإِنْسَانِيَّةِ، هَا هِيَ هُنَا عَرَبْدَةٌ صَامِتَةٌ.

يُقَالُ إِنَّ الضَّوءَ الْمُتَصَاعِدَ دَائِمًا يَزِيدُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ مِنْ وَهَجِ الْأَشْيَاءِ؛ وَإِنَّ الْوُرُودَ
الْمُتَهَاجَةً تَشْتَعِلُ بِرَغْبَةٍ مُنَافَسَةٍ لَأَزْوَاجِ السَّمَاءِ بِطَاقَةِ أَلْوَانِهَا، وَإِنَّ الْحَرَارَةَ، الَّتِي تَجْعَلُ
الْعُطُورَ مَرِيئَةً، تَدْفَعُهَا إِلَى التَّصَاعُدِ نَحْوَ النَّجْمِ، مِثْلَ دُخَانٍ.

مَعَ ذَلِكَ، فِيهِ هَذِهِ الْبَهْجَةُ الْكُونِيَّةُ، لَمَحَتْ كَأَنَّهَا مَحْزُونًا.

فَعِنْدَ أَقْدَامِ «فينوس» هَائِلَةٌ، كَانَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ الْمَعْتُوهِينَ الْمُفْتَعِلِينَ، أَحَدُ هَؤُلَاءِ
الْمُهَرَّجِينَ الْمُتَطَوِّعِينَ الْمُكَلَّفِينَ بِإِضْحَاحِ الْمُلُوكِ عِنْدَمَا يَتَمَلَّكُهُمْ تَبَكُّيْتُ الضَّمِيرِ أَوْ
الضَّجَرِ، مُرْتَدِّيًا بِذَلِكَ لَامِعَةً وَمُضْحِكَةً، وَرَأْسُهُ مُغَطَّاهُ بِقُرُونٍ وَأَجْرَاسٍ صَغِيرَةٍ، مُقْبِعِيًا
عِنْدَ قَاعِدَةِ التَّمَثَالِ، رَافِعًا عَيْنَيْنِ مُغْرُورَتَيْنِ بِالدُّمُوعِ نَحْوَ الرِّيَّةِ الْخَالِدَةِ.

عَيْنَاهُ تَقُولَانِ: «أَنَا آخِرُ الْكَائِنَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَكْثَرُهَا عُرْلَةً، مَحْرُومٌ مِنَ الْحُبِّ
وَالصَّدَاقَةِ، وَأَدْنَى مَرْتَبَةٍ فِي ذَلِكَ مِنْ أَحَطِّ الْحَيَوَانَاتِ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَأَنَا مَخْلُوقٌ - أَنَا
أَيْضًا - مِنْ أَجْلِ إِدْرَاكِ الْجَمَالِ الْخَالِدِ وَالْإِحْسَاسِ بِهِ! آه! آيَتُهَا الرَّبَّةُ! فَلْتَشْفِقِي عَلَيَّ
حُزْنِي وَعَذَابِي!».

لَكِنَّ «فينوس» الْقَاسِيَةَ تَنْظُرُ بَعِيدًا إِلَى مَا لَا أَدْرِي بِعَيْنَيْنِ مِنْ رُخَامٍ.

الْكَلْبُ وَقَارُورَةُ الْعَطْرِ

«- يَا كَلْبِي الْجَمِيلَ، كَلْبِي الطَّيِّبَ، يَا جَرَوِيَّ الْعَزِيزَ، اقْتَرِبْ وَتَشَمِّمْ عَطْرًا مُمْتَازًا اشْتَرَيْتُهُ مِنْ أَحْسَنِ عَطَارٍ فِي الْمَدِينَةِ».

وَالْكَلْبُ، فِيمَا يَهْزُ ذَيْلُهُ - وَهِيَ فِيمَا أَظُنُّ الْعَلَامَةُ الْمُرَادِفَةُ لِلضَّحْكِ أَوِ الْابْتِسَامِ لَدَى هَذِهِ الْكَائِنَاتِ الْبَائِسَةِ - يَقْتَرِبُ وَيَدُسُّ أَنْفَهُ الْمُنْدَادَةَ بِفُضُولٍ فِي الْقَارُورَةِ الْمَفْتُوحَةِ؛ ثُمَّ، مُتَرَاكِجًا فَجَاءَةً فِي فَرْعٍ، يَنْبَحُ فِيَّ، فِي تَأْنِيْبٍ.

«- آه! أَيُّهَا الْكَلْبُ الْبَائِسُ، لَوْ أَنَّنِي قَدَّمْتُ لَكَ بَاقَةً مِنْ فَضْلَاتٍ، لَتَشَمَّمْتَهَا بِمُتَعَةٍ وَرُبَّمَا تَهَمَّمْتَهَا. هَكَذَا، حَتَّى أَنْتَ نَفْسُكَ - الرَّفِيقُ غَيْرُ الْجَدِيرِ بِحَيَاتِي الْحَزِينَةِ - تُشْبِهُ الْعَامَّةَ، الَّذِينَ لَا يَنْبَغِي أَبَدًا تَقْدِيمُ عُطُورٍ رَهِيْفَةٍ لَهُمْ تُثِيرُ غِيْظَهُمْ، بَلْ قِمَامَةٍ مُنْتَفَاةٍ بِعِنَايَةٍ».

بائع الزجاج السيئ

هناك شخصيات تأملية على نحو خالص وغير صالحة تمامًا للفعل، لكنها - مع ذلك - أحيانًا ما تقوم بالفعل، بدافع غامض ومجهول، بسرعة كانت تظن أنها غير قادرة عليها.

ذلك شأن من يتسكع في جبن طوال ساعة أمام بابه، دون جرأة على الدخول، خوفًا من اكتشاف خبر مكدر لدى البواب؛ وشأن من يحتفظ برسالة دون فتحها خمسة عشر يومًا؛ أو من لا يرضخ - إلا بعد ستة شهور - لاتخاذ خطوة كانت ضرورية منذ عام؛ هؤلاء يحسون أحيانًا فجأة بأنهم مدفوعون إلى الفعل بفعل قوة لا تقاوم، مثل سهم القوس. فرجال الأخلاق والأطباء - الذين يدعون معرفة كل شيء - لا يستطيعون تفسير من أين تأتي - بصورة مفاجئة تمامًا - هذه الطاقة المجنونة، إلى تلك النفوس الكسولة والشهوانية، وكيف - وهي العاجزة عن إنجاز أبسط الأشياء وأكثرها ضرورة - ثوابها الشجاعة الاستثنائية في لحظة معينة للقيام بأكثر الأفعال عبثية وخطورة في الوقت نفسه.

ذات مرة، أضرمت أحد أصدقائي النار - وهو أكثر الحالمين مسالمة - في غايته، ليعرف، كما قال، ما إذا كانت النيران تشب بسهولة كما يقولون عمومًا. ولعشر مرات متتالية فشلت التجربة؛ لكنها - في الحادية عشرة - نجحت نجاحًا باهرًا.

وَصَدِيقٌ آخَرُ أَشْعَلَ سِجَارًا بِجَوَارِ بَرْمِيلِ بَارُودٍ، لِيَرَى، وَيَعْرِفَ، وَيَمْتَحِنَ الْقَدَرُ،
وَلِيُجِبِرَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ عَلَى إِبْدَاءِ قُوَّةِ الشَّكِيمَةِ، وَعَلَى اتِّخَاذِ سَمَتِ الْمُقَامِرِ، لِيَعْرِفَ
مَلَذَّاتِ الْقَلْقِ، لِلْأَشْيَاءِ، بِفِعْلِ نَزْوَةٍ، بِفِعْلِ الْبَطَالَةِ.

إِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الطَّاقَةِ الَّتِي تَنْفَجِرُ مِنَ الضَّجْرِ وَحُلْمِ الْيَقَظَةِ؛ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَجَلَّى فِيهِمْ
فَجَاءَهُمْ - عُمُومًا - مِثْلَمَا أَصِفُهُمْ، أَكْثَرُ الْكَائِنَاتِ بِلَادَةً وَحُلْمًا.

وَصَدِيقٌ آخَرُ، خَجُولٌ إِلَى حَدٍّ أَنَّهُ يَغْضُ الطَّرْفَ حَتَّى أَمَامَ نَظَرَاتِ الرِّجَالِ، حَتَّى إِنَّهُ
لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَجْمِعَ كُلَّ إِرَادَتِهِ الْبَائِسَةِ مِنْ أَجْلِ دُخُولِ مَقْهَى أَوْ الْمُرُورِ أَمَامَ شَبَّاكٍ تَذَاكُرُ
مَسْرَحَ، حَيْثُ يَبْدُو لَهُ الْمُفْتَشُّونَ مُتَقَلِّدِينَ مَهَابَةِ مِينُوسَ وَإِيَّاكَ وَرَادَا مَأْنَتْ^(١)، لِيَقْفِزَ
فَجَاءَهُ عَلَى عُنُقِ رَجُلٍ عَجُوزٍ يَمُرُّ بِجَوَارِهِ وَيُعَانِقُهُ بِحِمَاسٍ أَمَامَ الْحَشْدِ الْمَذْهُولِ.

لِمَاذَا؟ لَأَنَّ.. أَلَا هَذِهِ السَّخَنَةُ كَانَتْ جَذَابَةً لَهُ بِصُورَةٍ لَا تُقَاوَمُ؟ رُبَّمَا؛ لَكِنَّ الْأَكْثَرَ
مَشْرُوعِيَّةً افْتِرَاضُ أَنَّهُ - هُوَ نَفْسُهُ - لَا يَدْرِي لِمَاذَا.

وَقَدْ كُنْتُ - أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ - ضَاحِيَةً لِهَذِهِ الْأَرْمَاتِ وَالتَّوْبَاتِ، الَّتِي تُبَيِّحُ لَنَا الْاِعْتِقَادَ أَنَّ
شَيَاطِينَ مَاكِرَةً تَتَسَرَّبُ فِيْنَا، وَتَدْفَعُنَا - بِلَا وَعْيٍ مِنَّا - إِلَى تَحْقِيقِ أَكْثَرِ رَغْبَاتِهَا عَشِيَّةً.

فَذَاتَ صَبَاحٍ، اسْتَيْقَظْتُ مُكْفَهَرًا، مَغْمُومًا، مُتَعَبًا مِنَ الْبَطَالَةِ، وَمَدْفُوعًا - فِيمَا بَدَأَ لِي
- إِلَى الْقِيَامِ بِشَيْءٍ مَا عَظِيمٍ، بِعَمَلٍ مَأْثُورٍ؛ وَأَفْتَحُ النَّافِذَةَ، وَآسَفَاهُ!

(أَرْجُو أَنْ تُلَاحِظُوا أَنَّ رُوحَ الْخِدَاعِ - الَّتِي لَيْسَتْ نِتَاجَ عَمَلٍ أَوْ تَذْيِيرٍ، لَدَى الْبَعْضِ،
بَلْ نَتِيجَةُ الْهَامِ عَابِرٍ - تُسْهِمُ كَثِيرًا - إِنْ لَمْ يَكُنْ فَحَسَبَ بِفِعْلِ تَوْقِيدِ الرَّغْبَةِ، تَوْقِيدَ هَذَا
الْمِزَاجِ، الْهَسْتِيرِيِّ وَفَقًا لِلْأَطِبَّاءِ، الشَّيْطَانِيِّ وَفَقًا لِمَنْ يُفَكِّرُونَ أَفْضَلَ قَلِيلًا مِنَ الْأَطِبَّاءِ
- فِي دَفْعِنَا بِلَا مُقَاوَمَةٍ نَحْوِ سِلْسِلَةٍ مِنَ الْأَفْعَالِ الْخَطِرَةِ أَوْ غَيْرِ اللَّائِقَةِ).

وَأَوَّلُ شَخْصٍ لَمَحَّهُ فِي الشَّارِعِ كَانَ بَائِعَ زُجَاجٍ تَصَاعَدَتْ صَيَحْتُهُ النَّاقِبَةُ، النَّشَارُ،
حَتَّى بَلَغَنِي عَبْرَ الْمُنَاحِ الْبَارِيسِيِّ الثَّقِيلِ وَالْقَدِيرِ. وَسَيَكُونُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ

(١) هم القضاة الثلاثة في الجحيم، حسب الأساطير اليونانية.

- فَضْلاً عَنْ ذَلِكَ - لِمَاذَا أَحْسَسْتُ بِالْبُغْضِ الطَّاعِيِ وَالْمُفَاجِئِ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْبَائِسِ؟

«- هِيَه! هِيَه!» صَحْتُ فِيهِ أَنْ يَصْعَدَ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَكَّرْتُ، بِمَا لَا يَخْلُو مِنْ بَعْضِ الشُّرُورِ، أَنَّ الرَّجُلَ سَيَكُونُ عَلَيْهِ - حَيْثُ تَقَعُ الْعُرْفَةُ فِي الطَّابِقِ السَّادِسِ وَالسَّلَامُ صَبِيحُ لِلْغَايَةِ - أَنْ يُعَانِيَ بَعْضَ الْمَشَقَّةِ فِي صُغُودِهِ وَارْتِطَامِ زَوَايَا بِضَاعَتِهِ الْهَشَّةِ فِي مَوَاضِعَ عِدَّةٍ.

أَخِيرًا ظَهَرَ؛ تَفَحَّصْتُ بِعِنَايَةٍ كُلَّ زُجَاجِ النِّوَافِذِ مَعَهُ، وَقُلْتُ لَهُ: «كَيْفَ؟ أَلَيْسَ مَعَكَ زُجَاجٌ مُلَوَّنٌ؟ زُجَاجٌ وَرْدِيٌّ، أَحْمَرٌ، أَزْرَقُ، زُجَاجٌ سِحْرِيٌّ، زُجَاجٌ الْفِرْدَوْسِ؟ أَيْ صَفِيحٌ أَنْتَ! إِذْ تَتَجَرَّأُ عَلَى التَّجَوُّلِ فِي أَحْيَاءٍ فَقِيرَةٍ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَدَيْكَ زُجَاجٌ يَجْعَلُنَا نَرَى الْحَيَاةَ جَمِيلَةً!»؛ وَدَفَعْتُهُ بِقُوَّةٍ نَحْوَ السَّلَامِ، حَيْثُ تَرَنَّحَ وَهُوَ يَتَذَمَّرُ.

ذَهَبْتُ إِلَى الشُّرْفَةِ وَأَمْسَكْتُ بِإِصْبِصِ وَرْدٍ صَغِيرٍ، وَمَا إِنْ لَاحَ الرَّجُلُ فِي فَتْحَةِ الْبَابِ، حَتَّى أَلْقَيْتُ - بِصُورَةٍ رَاسِيَّةٍ - بِأَذَاتِي الْحَرَبِيَّةِ عَلَى الْحَافَةِ الْخَلْفِيَّةِ لِحُمُولَتِهِ؛ وَإِذْ قَلْبَتُهُ الصَّدْمَةَ، فَقَدْ تَسَبَّبَ فِي تَهْشِيمِ كُلِّ ثُرُوتِهِ الْبَائِسَةِ الْمُتَنَقِّلَةِ تَحْتَ ظَهْرِهِ، لِيَتَرَدَّدَ الصَّوْتُ الْمُدَوِّي لِقِصْرِ مِنَ الْبِلَلُورِ تَصَدَّعَ يَفْعَلِ الصَّاعِقَةُ.

وَتَشَوَّانَ بِجُنُونِي، صَحْتُ فِيهِ بِغَضَبٍ: «الْحَيَاةُ فِي الْجَمَالِ! الْحَيَاةُ فِي الْجَمَالِ!».

وَهَذِهِ الْمِزْحَاتُ الْعَصِيَّةُ لَا تَخْلُو مِنْ خَطَرٍ، وَيُمْكِنُ كَثِيرًا أَنْ نَدْفَعَ ثَمَنَهَا غَالِيًا. لَكِنْ مَا أَهَمِّيَّةُ أَبَدِيَّةِ اللَّعْنَةِ لِمَنْ وَجَدَ فِي لَحْظَةٍ لَانِهَائِيَّةِ الْمُتَعَةِ؟

في الواحدة صباحاً

أَخِيرًا! وَخَدِي! لَمْ يَعدْ يُسْمَعُ سِوَى قَرْقَعَةٍ بَعْضِ الْعَرَبَاتِ الْمُتَأَخِّرَةِ وَالْمُنْهَكَةِ.
وَبَعْدَ بَضْعِ سَاعَاتٍ، سَنَمَتُكَ الصَّمْتُ، إِنْ لَمْ تَكُنِ السَّكِينَةَ. أَخِيرًا! تَلَاشِي طُغْيَانُ
الْوَجْهِ الْإِنْسَانِي، وَلَنْ أَعَانِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ نَفْسِي.

أَخِيرًا! يُمَكِّنُ لِي إِذَنْ أَنْ أَسْتَرْخِي فِي حَمَامٍ مِنَ الظُّلُمَاتِ فِي الْبِدَايَةِ، دَوْرَةَ
مُضَاعَفَةٍ فِي الْقُفْلِ. يَبْدُو لِي أَنَّ دَوْرَةَ الْمِفْتَاحِ هَذِهِ سَتَزِيدُ مِنْ عِزَّتِي وَتُقَوِّي الْحَوَاجِزَ
الَّتِي تَفْصِلُنِي بِالْفِعْلِ عَنِ الْعَالَمِ.

حَيَاةٌ فَظِيعة! مَدِينَةٌ فَظِيعة! مُلَخَّصُ الْيَوْمِ: رُؤْيَا الْكَثِيرِ مِنَ الْأَدْبَاءِ، الَّذِينَ سَأَلَنِي
أَحَدُهُمْ مَا إِذَا كَانَ مُمَكِّنًا الذَّهَابُ إِلَى رُوسِيَا بِطَرِيقِ بَرِّي (لَا شَكَّ أَنَّهُ يَظُنُّ رُوسِيَا
جَزِيرَةً؛ مُنَاقَشَةٌ حَادَّةٌ مَعَ مُدِيرِ إِحْدَى الْمَجَلَّاتِ، وَالَّذِي كَانَ يَرُدُّ لَدَى أَيِّ اعْتِرَاضٍ:
«إِنَّهَا هُنَا طَائِفَةُ الْإِنْسَانِ الشَّرَفَاءِ»، وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّ جَمِيعَ الصُّحُفِ الْأُخْرَى يُدِيرُهَا
لِثَامٍ؛ تَحِيَّةٌ عِشْرِينَ شَخْصًا مِنْ بَيْنِهِمْ خَمْسَةٌ عَشَرَ لَا أَعْرِفُهُمْ؛ مُصَافَحَةٌ النَّسَبَةِ نَفْسِهَا،
وَذَلِكَ دُونَ اتِّخَاذِ الْإِحْتِيَاظِ بِشَرَاءِ قَفَّازَاتٍ؛ وَالذَّهَابُ، مِنْ أَجْلِ قَتْلِ الْوَقْتِ، أَثْنَاءَ
إِنْهَامِ الْمَطَرِ، إِلَى عَاهِرَةٍ دَعَتْنِي إِلَى تَصْمِيمِ ثَوْبٍ فِينُوسِي لَهَا؛ إِبْدَاءٌ إِعْجَابِي بِمُدِيرِ
مَسْرَحٍ قَالَ لِي وَهُوَ يَطْرُدُنِي: «رُبَّمَا سَتُحَسِّنُ صُنْعًا بِتَقْدِيمِ نَفْسِكَ إِلَيَّ...»؛ إِنَّهُ أَكْثَرُ
كُتَّابِي وَزَنَا، وَغَبَاءٌ وَشُهْرَةٌ؛ مَعَهُ رُبَّمَا سَيُمَكِّنُكَ الْوُصُولُ إِلَى شَيْءٍ مَا. قَابِلُهُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ

سَرَى؛ تَفَاخَرِي (لِمَاذَا؟) بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَفْعَالِ الْحَقِيرَةِ الَّتِي لَمْ أَتَرَفُهَا أَبَدًا، وَإِنْكَارِي
بِنَذَالَةِ بَعْضِ الشُّرُورِ الْأُخْرَى الَّتِي أَتَرَفْتُهَا بِسُرُورٍ، رَذِيلَةُ التَّبَجُّحِ، وَجُرْمُ الْاِحْتِرَامِ
الْإِنْسَانِي؛ رَفُضِي إِسْدَاءَ خِدْمَةٍ يَسِيرَةٍ لِصَدِيقٍ، وَتَقْدِيمَ تَوْصِيَةٍ مَكْتُوبَةٍ إِلَى شَخْصٍ
غَرِيبٍ الْأَطْوَارِ تَمَامًا؛ أُوْف! هَلْ انْتَهَى عَلَى خَيْرٍ؟

مُسْتَاءً مِنَ الْجَمِيعِ وَمُسْتَاءً مِنْ نَفْسِي، أَرَدْتُ اسْتِعَادَةَ نَفْسِي وَالتَّعَاطُفَ قَلِيلًا فِي
صَمْتِ اللَّيْلِ وَعُزْلَتِهِ. فَيَا أَرْوَاحَ مَنْ أَحْبَبْتُ، يَا أَرْوَاحَ مَنْ أَنْشَدْتُ، شُدِّي مِنْ أَرْزِي،
سَانِدِينِي، وَأَبْعِدِي عَنِّي الْكَذِبَ وَأَبْخَرَةَ الْعَالَمِ الْمُفْسِدَةِ؛ وَأَنْتُمْ، سَيِّدِي يَا إِلَهِي! اْمُنْحِنِي
نِعْمَةً إِنْتَاجَ بَعْضِ الْقَصَائِدِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي تُثَبِّتُ لِي أَنِّي لَسْتُ الْأَخِيرَ مِنَ الرِّجَالِ، وَأَنِّي
لَسْتُ أَقَلَّ مِمَّنْ أَحْتَقِرُهُمْ!

الزوجة الوحشية والعشيقة الصغيرة

«بِالْفِعْلِ، يَا عَزِيزَتِي، أَنْتِ تُزْهِقِينَني فَوْقَ الْحُدُودِ وَبِلَا رَحْمَةٍ؛ وَيُمْكِنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَظُنَّ، وَهُوَ يَسْمَعُكَ تَنْهَدِينَ، أَنَّكَ تُعَانِينَ أَكْثَرَ مِنْ جَامِعَاتِ الْفَضَلَاتِ فِي سِنِّ السَّتِّينَ، وَالْمُتَسَوَّلَاتِ الْعَجَائِزِ اللَّائِي يَلْمِلِمْنَ كِسَرَ الْخُبْزِ مِنْ أَبْوَابِ الْمَلَاهِي اللَّيْلِيَّةِ.

«فَلَوْ كَانَتْ تَنْهَدَانِكَ تُعَبِّرُ - عَلَى الْأَقْلَ - عَنِ النَّدَمِ، لَمَنْحَتْكَ بَعْضَ الشَّرَفِ؛ لَكِنَّهَا لَا تُتَرْجِمُ سِوَى تُخْمَةِ الرَّفَاهِيَّةِ وَوِطْأَةِ الرَّاحَةِ. وَبَعْدُ، فَأَنْتِ لَا تَكْفِيْنَ عَنِ الْاسْتِفَاضَةِ فِي الْكَلَامِ الْعَبِّي: «أَحْبُونِي كَثِيرًا! إِنِّي بِحَاجَةٍ مَاسَةٍ لِذَلِكَ! وَاسُونِي بِهَذَا، وَهَذَا هُوَ نِي بِذَلِكَ!» كَفَى، فَأَنَا أُرِيدُ مُحَاوَلَةَ عِلَاجِكَ؛ وَرُبَّمَا سَنَجِدُ الْوَسِيلَةَ، مُقَابِلَ صَوْلَيْنِ^(١)، وَسَطَ حَفْلٍ، وَدُونَ الدَّهَابِ بَعِيدًا.

«فَلْتَتَمَلَّ جَيِّدًا، أَرْجُوكِ، هَذَا الْقَفْصَ الْحَدِيدِيَّ الْمَتِينَ الَّذِي يَهْتَاجُ خَلْفَهُ، عَاوِيًا مِثْلَ مَلْعُونٍ، مُزْعِزًا الْقُضْبَانَ مِثْلَ سِعْلَةٍ حَائِقَةٍ بِفِعْلِ الْمَنْفَى، مُقَلِّدًا بِاتِّقَانٍ قَفْزَاتِ النَّمِرِ الدَّائِرِيَّةَ أَحْيَانًا، وَأَحْيَانًا التَّرْتُّحَاتِ الْبَلِيدَةَ لِلدَّبِّ الْأَبْيَضِ، هَذَا الْوَحْشُ كَثِيفُ الشَّعْرِ الَّذِي يُحَاكِي شَكْلَهُ، بِعُمُوضٍ مَا، شَكْلِكَ.

«هَذَا الْوَحْشُ هُوَ أَحَدُ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يُنَادُونَهَا عُمُومًا «مَلَاكِي!»، أَي: امْرَأَةً. وَالْوَحْشُ الْآخَرُ، ذَلِكَ الَّذِي يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ، وَفِي يَدِهِ عَصَا، هُوَ الزَّوْجُ. لَقَدْ كَبَّلَ

(١) الصول Sol: عملة نقدية صغيرة، قديمة.

امْرَأَتَهُ الشَّرْعِيَّةَ مِثْلَ ذَاتِهِ، وَيَعْرِضُهَا فِي الصَّوَاغِي، أَيَّامَ الْاِخْتِفَالَاتِ الشَّعْبِيَّةِ، بِتَضَرِيحٍ مِنَ السُّلْطَاتِ، بِطَبِيعَةِ الْحَالِ. انْتَبِهِي جَيِّدًا! انْظُرِي بِأَيِّ نَهَمٍ (وَدُونَ اِفْتِعَالٍ، رُبَّمَا!) تُمَزَّقُ أَرَانِبَ حَيَّةٍ وَدَوَاجِنَ صَاخِبَةٍ يَزِمِيهَا إِلَيْهَا سَائِسُهَا. «هَيَّا، يَقُولُ، فَلَا يَنْبَغِي الْنِيَهَامُ كُلَّ خَيْرِهَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ»، وَلَدَى هَذَا الْكَلَامِ الْحَكِيمِ، يَنْتَزِعُ بِقَسْوَةِ الْفَرِيسَةِ، الَّتِي تَظُلُّ أَمْعَاوُهَا الْمُقْطَعَةُ عَالِقَةً لِلْحِظَّةِ فِي أَسْنَانِ الدَّابَّةِ الْمُفْتَرِسَةِ، أَغْنِي الْمَرَأَةَ.

«هَيَّا! ضَرْبُهُ عَصَا جَيِّدَةٌ لِتَهْدِئَتِهَا! لِأَنَّهَا تُحْدِقُ فِي الطَّعَامِ الْمَمْرُوعِ بِنَظَرَاتٍ اشْتِهَاءٍ مُرْعَبَةٍ. يَا إِلَهِي الْعَظِيمِ! فَالْعَصَا لَيْسَتْ عَصَا مَسْرَحِيَّةٍ، هَلْ سَمِعْتُمْ وَقَعَهَا عَلَى الْجَسَدِ، رَغَمَ الشَّعْرِ الْمُسْتَعَارِ؟ وَإِذْ تَخْرُجُ الْعَيْنَانِ الْآنَ مِنَ الرَّأْسِ، فَإِنَّهَا تَعْوِي بِصُورَةٍ أَكْثَرَ طَبِيعِيَّةٍ. وَفِي اهْتِيَاجِهَا، يَتَطَايَرُ مِنْهَا الشَّرَرُ، مِثْلَ الْحَدِيدِ الَّذِي يُطْرَقُ.

«تِلْكَ هِيَ شِيَمُ الزَّوْجِيَّةِ لِهَذَيْنِ الْمُنْحَدِرَيْنِ مِنْ حَوَاءَ وَآدَمَ، صَنَائِعُ يَدَيْكَ هَذِهِ، يَا رَبِّ! فَهَذِهِ الْمَرَأَةُ تَعِيسَةٌ بِالتَّأَكِيدِ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ مَبَاهِجُ الْمَجْدِ الْمُدْغِدْغَةُ - رَغَمَ كُلِّ شَيْءٍ، رُبَّمَا - غَيْرَ مَجْهُولَةٍ لَهَا. فَهَنَّاكَ الْكَثِيرُ مِنَ التَّعَاسَةِ الْعَصِيَّةِ بِلَا عَرَاءَ. لَكِنْ فِي الْعَالَمِ الَّذِي قُذِفَتْ إِلَيْهِ، لَمْ تَسْتَطِعْ أَبَدًا التَّفَكِيرَ فِي أَنَّ الْمَرَأَةَ كَانَتْ تَسْتَحِقُّ مَصِيرًا آخَرَ.

«وَالْآنَ، بِالنِّسْبَةِ لَنَا نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ، يَا عَزِيزَتِي الْعَالِيَةِ! فَلَدَى رُؤْيَا الْجَهَنَّمَاتِ الَّتِي يَخْفُلُ بِهَا الْعَالَمُ، كَيْفَ تُرِيدِينَ أَنْ أَفَكَّرَ فِي جَهَنَّمَكَ الْجَمِيلَةِ، أَنْتِ مَنْ لَا تَسْتَرَحِينَ إِلَّا عَلَى مَفْرُوشَاتٍ فِي رَهَافَةِ بَشْرَتِكَ، مَنْ لَا تَأْكُلِينَ سِوَى اللَّحْمِ الْمَطْهِيِّ، وَمَنْ مِنْ أَجْلِهَا يَقُومُ خَادِمٌ بَارِعٌ بِتَقْطِيعِ الْأَجْزَاءِ؟

«مَاذَا يُمَكِّنُ أَنْ تَعْنِي لِي كُلَّ هَذِهِ التَّنْهَدَاتِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَمْلَأُ صَدْرَكَ الْمُعَطَّرَ، أَيُّهَا الْفَاتِنَةُ الْقَوِيَّةُ؟ وَكُلُّ هَذِهِ الْاِفْتِعَالَاتِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْكُتُبِ، وَهَذِهِ الْكَأَبَةُ الَّتِي لَا تَكِلُ، هَلْ لَهَا أَنْ تَسْتَشِيرَ فِي الْمَشَاهِدِ شُعُورًا آخَرَ تَمَامًا غَيْرَ الشَّفَقَةِ؟ فِي الْحَقِيقَةِ، أَحْيَانًا مَا تَتَأَنَّبُنِي الرَّغْبَةُ فِي تَلْقِينِكَ مَعْنَى التَّعَاسَةِ الْحَقِيقِيَّةِ.

«وَعِنْدَ رُؤْيَايَ لَكَ هَكَذَا، أَيُّهَا الْجَمِيلَةُ الرَّهِيْفَةُ، وَالْقَدَمَانِ فِي الْوَحْلِ، وَالْعَيْنَانِ

مُتَّجِهَتَانِ - بِصُورَةٍ أَثِيرِيَّةٍ - نَحْوَ السَّمَاءِ، كَأَنَّهُمَا تَطْلُبَانِ مِنْهَا مَلِكًا، يُمَكِّنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يُشَبِّهَكَ تَمَامًا بِضَفْدَعَةٍ شَابَةٍ تَهْفُو إِلَى الْمَثَلِ الْأَعْلَى. وَإِذَا مَا اسْتَخَفَّكَ بِالشَّخْصِ الْبَسِيطِ (الَّذِي هُوَ الْآنَ أَنَا، كَمَا تَعْرِفِينَ جَيِّدًا)، فَحَذَارِ مِنَ الْكَرْكِيِّ الَّذِي سَيَلْتَهُمُكَ، وَيَبْتَلِعُكَ، وَيَقْضِي عَلَيْكَ بِكُلِّ سُورٍ!

«وَإِذَا مَا كُنْتُ شَاعِرًا، فَإِنِّي لَسْتُ مُغْفَلًا مِثْلَمَا تُحِبِّينَ أَنْ تَظُنِّي، وَإِذَا مَا أَرْهَقْتَنِي فَوْقَ الطَّاقَةِ بِبُكَائِيَّاتِكَ الْمُفْتَعَلَةِ، فَلَسَوْفَ أَعَامِلُكَ كَامْرَأَةٍ مُتَوَحِّشَةٍ، أَوْ سَأُطِيحُ بِكَ عَبْرَ النَّافِذَةِ، مِثْلَ زُجَاجَةٍ فَارِغَةٍ».

الجمهور

لَمْ يُتَحَ لِكُلِّ شَخْصٍ أَنْ يَغْمُرَ نَفْسَهُ فِي الْجُمُهورِ: فَالاسْتِمَاعُ بِالْجُمُهورِ فَن؛ وَذَلِكَ وَحْدَهُ مَا يُمَكِّنُ - عَلَى حِسَابِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ - أَنْ يَصْنَعَ انْفِجَارَةَ الْحَيَوِيَّةِ، لَدَى مَنْ بَثَّ لَهُ جَنِيَّةٌ فِي مَهْدِهِ بِحُبِّ التَّنَكُّرِ وَالتَّقَنُّعِ، وَكَرَاهِيَةِ السُّكْنَى وَشَهْوَةِ التَّرْحَالِ.

الْجُمُهورُ، الْعُزْلَةُ: كَلِمَتَانِ مُتَكَافِئَتَانِ وَقَابِلَتَانِ لِلتَّبَادُلِ بِالنِّسْبَةِ لِلشَّاعِرِ الْفَعَّالِ وَالْخُصْبِ. فَمَنْ لَا يَعْرِفُ إِعْمَارَ عُزْلَتِهِ، لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَكُونُ وَحِيدًا وَسَطَ الْحَشْدِ الْمَشْغُولِ.

فَالشَّاعِرُ يَحْطِى بِهَذِهِ الْمَرِيَّةِ الْاسْتِثْنَائِيَّةِ، وَهِيَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ كَمَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ نَفْسَهُ وَالْآخَرِينَ. وَشَأْنُ تِلْكَ الْأُرُوحِ الْهَائِمَةِ الَّتِي تَبْحَثُ عَنْ جَسَدٍ، يَتَقَمَّصُ - وَقَتَمًا يَشَاءُ - شَخْصِيَّةً كُلَّ وَاحِدٍ. فَكُلُّ مِنْهَا شَاغِرَةٌ مِنْ أَجْلِهِ وَحْدَهُ؛ وَإِذَا مَا كَانَتْ أَمَاكِينُ مُعَيَّنَةٍ تَبْدُو لَهُ مُوَصَّدَةً، فَذَلِكَ لِأَنَّهَا - فِي نَظَرِهِ - لَا تَسْتَحِقُّ عَنَاءَ زِيَارَتِهَا.

وَالْمُتَجَوُّلُ الْمُتَعَزِّلُ وَالْمُتَأَمِّلُ يَسْتَمِدُّ نَشْوَةً فَرِيدَةً مِنْ هَذِهِ الْمُشَارَكَةِ الْكُونِيَّةِ. فَمَنْ يَقْتَرِنَ بِالْجُمُهورِ بِسُهُولَةٍ يَعْرِفُ مَبَاهِجَ مَحْمُومَةٍ، سَتَكُونُ مُحَرَّمَةً أَبَدًا عَلَى الْإِنْسَانِيِّ، الْمُغْلِقِ عَلَى نَفْسِهِ كَصُنْدُوقٍ، وَالْخَامِلِ السَّجِينِ مِثْلَ حَيَوَانٍ رَخْوِيٍّ. إِنَّهُ يَتَّخِذُ جَمِيعَ الْمِهَنِ كَأَنَّهَا مِهْنُهُ، وَجَمِيعَ الْمَسَرَّاتِ وَالتَّعَاسَاتِ الَّتِي تُقَدِّمُهَا لَهُ الظُّرُوفُ.

وَمَا يُسَمِّيهِ النَّاسُ حُبًّا هُوَ شَيْءٌ صَغِيرٌ تَمَامًا، وَمَحْدُودٌ تَمَامًا وَضَعِيفٌ لِلْعَايَةِ،

بِالْمُقَارَنَةِ بِهَذِهِ الْعَرَبِدَةِ الْخَيَالِيَّةِ، وَهَذِهِ الدَّعَارَةُ الْمُقَدَّسَةُ لِلرُّوحِ النَّبِيِّ تَهْبُ نَفْسَهَا
بِكَامِلِهَا، شِعْرًا وَطَهَارَةً، إِلَى الْمُفَاجِئِ الَّذِي يَتَجَلَّى، وَالْمَجْهُولِ الَّذِي يَمُرُّ.

أَمْرٌ طَيِّبٌ أَنْ نُعَلِّمَ أَحْيَانًا سُعْدَاءَ هَذَا الْعَالَمِ، وَلَوْ لِإِهَانَةِ زَهْوِهِمُ الْغَيْبِيِّ لِلْحِظَةِ فَحَسْبُ،
أَنَّ هُنَاكَ سَعَادَاتٍ أَرْقَى مِنْ سَعَادَتِهِمْ، وَأَرْحَبَ وَأَرْهَفَ. فَمُؤَسَّسُو الْمُسْتَعْمَرَاتِ،
وَرُعَاةُ الشُّعُوبِ، وَقَسَاوِسَةُ الْبِعْثَاتِ التَّبْشِيرِيَّةِ الْمَنْفِيُونِ فِي آخِرِ الْأَرْضِ، يَعْرِفُونَ -
بِلَا شَكٍّ - بَعْضًا مِنْ هَذِهِ النَّشَوَاتِ الْغَامِضَةِ؛ وَفِي قَلْبِ الْأُسْرَةِ الشَّاسِعَةِ الَّتِي صَنَعَتْهَا
عَبَقَرِيَّتُهُمْ، لَا بُدَّ أَنَّهُمْ يَضْحَكُونَ أَحْيَانًا مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُشْفِقُونَ عَلَى مَصِيرِهِمُ الْقَلِقِ
وَحَيَاتِهِمُ الْمُتَقَشِّفَةِ.

الأزامل

يَقُولُ فُوَيْنَارُجُ إِنَّ فِي الْحَدَائِقِ الْعَامَّةِ مَمَرَاتٍ مَسْكُونَةً أَسَاسًا بِالطُّمُوحِ الْخَائِبِ،
وَالْمُخْتَرِعِينَ التُّعَسَاءِ، وَالْأَمْجَادِ الْمُجْهَضَةِ، وَالْقُلُوبِ الْمُحَطَّمَةِ، بِكُلِّ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ
الصَّاحِبَةِ الْمُوصَدَةِ، الَّتِي مَا تَزَالُ تَتَرَدَّدُ فِيهَا الْأَنْفَاسُ الْأَخِيرَةُ لِعَاصِفَةٍ، وَالَّتِي تَنْسَحِبُ
بَعِيدًا عَنِ النَّظَرَاتِ الْوَقِيعَةِ لِلْمُبْتَهَجِينَ وَالْمُبْتَطِلِينَ. هَذِهِ الْمَكَامِنُ الظَّلِيلَةُ هِيَ مُلْتَقِيَاتُ
عَرْجَى الْحَيَاةِ.

نَحْوُ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ بِالذَّاتِ، يُحِبُّ الشَّاعِرُ وَالْفَيْلَسُوفُ تَوَجُّعَهُ تَأْمَلَاتِهِمَا الشَّرِهَةَ.
فَثَمَّةٌ غِذَاءٌ مُؤَكَّدٌ فِيهَا؛ إِذْ لَوْ كَانَ هُنَاكَ مَكَانٌ يَأْتِفُونَ مِنْ زِيَارَتِهِ، مِثْلَمَا أَلْمَحْتُ تَوًّا،
فَهُوَ مَكَانٌ بِهَجَةِ الْأَغْنِيَاءِ بِالذَّاتِ. فَهَذَا الصَّخَبُ فِي الْفَرَاغِ لَا يَجْتَذِبُهُمْ أَبَدًا. وَعَلَى
الْعَكْسِ، فَهُمْ يُحْسِنُونَ أَنَّهُمْ مَشْدُودُونَ - بِصُورَةٍ لَا تُقَاوَمُ - إِلَى كُلِّ مَا هُوَ ضَعِيفٌ،
مُحَطَّمٌ، مَحْزُونٌ، يَتِيمٌ.

وَلَا تَنْخَدِعْ فِي ذَلِكَ أَبَدًا عَيْنٌ خَبِيرَةٌ. فَفِي هَذِهِ الْمَلَامِحِ الصَّارِمَةِ أَوْ الْخَائِرَةِ، فِي
هَذِهِ الْعُيُونِ الْجَوْفَاءِ الذَّابِلَةِ، أَوْ الْمُتْلَمِّعَةِ بِوَمَضَاتِ الصَّرَاعِ الْأَخِيرَةِ، فِي هَذِهِ التَّجَاعِيدِ
الْعَمِيقَةِ الْكَثِيرَةِ، فِي هَذِهِ الْخُطُوبَاتِ الْمُتَمَهِّلَةِ أَوْ الْمُضْطَرِّبَةِ، تَقْرَأُ فِي الْحَالِ مَا لَا
يُخْصَى مِنْ حِكَايَاتِ الْحُبِّ الْخَائِبِ، وَالْإِخْلَاصِ الْمُهْمَلِ، وَالْجُهُودِ الْعَبِيَّةِ، وَالْجُوعِ
وَالْبَرْدِ فِي خُضُوعٍ، وَاحْتِمَالِهِمَا فِي صَمْتٍ.

هَلْ رَأَيْتُمْ ذَاتَ مَرَّةٍ أَرَامِلَ عَلَى هَذِهِ الْأَرَائِكِ الْمُنْعَرِلَةِ، أَرَامِلَ فَقِيرَاتٍ؟ وَسَوَاءٌ كُنَّ فِي مَلَابِسٍ جَدَادٍ أَمْ لَا، فَمِنْ السَّهْلِ مَعْرِفَتُهُنَّ. فَهُنَاكَ دَائِمًا - مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى - فِي جَدَادِ الْفَقِيرِ شَيْءٌ مَا مَنُفُوسٌ، غِيَابُ الْإِنْسِجَامِ الَّذِي يَجْعَلُهُ أَكْثَرُ إِيْلَامًا. إِنَّهُ مُجْبَرٌ عَلَى الْإِفْتِصَادِ فِي أَلَمِهِ، فِيمَا يَتْرُكُ الْغِنَى الْعِنَانَ لِأَلَمِهِ.

فَمَنْ هِيَ الْأَرْمَلَةُ الْأَكْثَرُ حُزْنًا وَالْأَكْثَرُ إِيْلَامًا، أَهِيَ الَّتِي تَجُرُّ فِي يَدِهَا طِفْلًا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُشْرِكَهَ مَعَهَا فِي حُلْمٍ يَقْطَعُهَا، أَمْ تِلْكَ الْوَحِيدَةُ تَمَامًا؟ لَا أَذْرِي.. فَقَدْ حَدَثَ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنْ تَابَعْتُ - لِسَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ - عَجُوزًا مَهْمُومَةً مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ؛ تِلْكَ الْمُتَصَلِّبَةُ، الْمُتَصِيبَةُ، تَحْتَ وَشَاحٍ صَغِيرٍ بَالٍ، مُجَسَّدَةٌ فِي كَيْنُونِهَا أَنْفَةً رَوَاقِيَةً.

كَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهَا مَحْكُومَةٌ - بِسَبَبِ الْعُزْلَةِ الْمُطْلَقَةِ - بِعَادَاتِ الْعَجُوزِ الْعَزْبَاءِ، وَأَضَافَتِ السَّمَّةَ الرَّجُولِيَّةَ لِسُلُوكِهَا جِدَّةً غَامِضَةً إِلَى زُهْدِهَا. وَلَا أَذْرِي فِي أَيِّ مَقْهَى بَائِسٍ وَلَا عَلَى أَيِّ نَحْوٍ تَنَاوَلَتْ عَدَاءَهَا. تَبِعْتُهَا إِلَى قَاعَةِ الْمُطَالَعَةِ؛ وَرَأَيْتُهَا طَوِيلًا وَهِيَ تُقَشِّشُ الْجَرَائِدَ، بِعَيْنَيْنِ يَقْطَعَتَيْنِ، أَلْهَبَتْهُمَا الدُّمُوعُ فِي الْمَاضِي، عَنْ أَخْبَارِ ذَاتِ أَهْمِيَّةٍ قَوِيَّةٍ وَشَخْصِيَّةٍ لَهَا.

وَأَخِيرًا، فِي الْأَصِيلِ، تَحْتَ سَمَاءٍ خَرِيفٍ سَاحِرٍ، إِحْدَى تِلْكَ السَّمَاءَاتِ الَّتِي تَنْهَمِرُ مِنْهَا الْأَحْزَانُ وَالذِّكْرِيَّاتُ أَفْوَاجًا، تَجْلِسُ عَلَى انْفِرَادٍ فِي حَدِيقَةٍ، لِيَتَنَصَّتْ - بَعِيدًا عَنِ الْجُمْهُورِ - إِلَى إِحْدَى الْمَعْزُوفَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ الَّتِي تُنْعَمُ بِهَا فِرْقُ الْمَوْسِيقَى الْعَسْكَرِيَّةِ عَلَى أَهْلِ بَارِيسَ.

كَانَتْ تِلْكَ - بِلَا شَكٍّ - الْمُتَعَةِ الصَّغِيرَةِ لِهَذِهِ الْعَجُوزِ الْبَرِيَّةِ (أَوْ لِهَذِهِ الْعَجُوزِ الْمُتَطَهَّرَةِ)، الْعَزَاءُ الْمُسْتَمَدَّ مِنْ أَحَدِ تِلْكَ الْأَيَّامِ ثَقِيلَةِ الْوُطْأَةِ بِلَا صَدِيقٍ، بِلَا مُحَادَثَةٍ، بِلَا بَهْجَةٍ، بِلَا نَجِيٍّ، الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَحُطُّ عَلَيْهَا، رُبَّمَا مُنْذُ سَنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ! ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمْسٍ وَسِتِّينَ مَرَّةً كُلَّ عَامٍ.

وَهَا هِيَ أُخْرَى:

لَمْ أَسْتَطِعْ مَنَعَ نَفْسِي أَبَدًا مِنْ إِلْقَاءِ نَظْرَةٍ - إِنْ لَمْ تَكُنْ مُتَعَاطِفَةً عَلَى الْعُمُومِ، فَهِيَ فُضُولِيَّةٌ عَلَى الْأَقْلِ - عَلَى جُمُوعِ الْمَنبُودِينَ الْمُتَحَلِّقِينَ حَوْلَ سِيَّاحِ حَفْلِ مُوسِيقِيَّي عام. يُطْلِقُ الْأُورِكْسْتِرَا خِلَالَ اللَّيْلِ أَنَاشِيدَ الْإِنْتِهَاجِ وَالْإِنْتِصَارِ وَالْمُتْعَةِ. الْفَسَاتِينُ تَسْدِلُ فِي التِّمَاعِ؛ النَّظَرَاتُ تَتَلَاقَى؛ وَالْمُتَبَطِّلُونَ، الْمُرْهَقُونَ مِنْ عَدَمِ الْقِيَامِ بِأَيِّ شَيْءٍ، يَتَطَوَّحُونَ، مُتَظَاهِرِينَ فِي بِلَادَةٍ بِتَدْوِقِ الْمُوسِيقَى. لَا أَحَدَ هُنَا إِلَّا وَهُوَ مُتَرَفٍّ سَعِيدٌ؛ لَا أَحَدٌ لَا يَتَنَفَّسُ وَلَا يُوجِي بِخُلُوعِ الْبَالِ وَمُتْعَةِ حُرِّيَةِ الْعَيْشِ؛ لَا شَيْءَ - سِوَى مَنْظَرِ هَؤُلَاءِ الصَّعَالِيكِ الَّذِينَ يَتَكَيَّفُونَ هُنَاكَ عَلَى السُّورِ الْخَارِجِيِّ، يَلْتَفِطُونَ مَجَانًا، حَسَبَ الرِّيحِ، شَذَرَةَ مُوسِيقَى، وَهُمْ يُحَدِّقُونَ فِي الْمَعْمَعَةِ الدَّاخِلِيَّةِ الْمُتَلَالِئَةِ.

أَمْرٌ شَيِّقٌ دَائِمًا انْعِكَاسُ بَهْجَةِ الْغَنِيِّ فِي عُمُقِ عَيْنِ الْفَقِيرِ. لَكِنِّي - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَخِلَالَ هَذَا الْجُمُهورِ الَّذِي يَرْتَدِي قُمُصَانًا وَمَنْسُوجَاتٍ هِنْدِيَّةً^(١) - لَمَحْتُ شَخْصًا كَانَتْ نَبَالَتُهُ تَضَعُ تَنَاقُضًا حَادًّا مَعَ جَمِيعِ الْإِنْتِدَالِ الْمُحِيطِ.

كَانَتْ امْرَأَةً جَلِيلَةً، مِهْيَبَةً، وَنَبِيلَةً فِي كُلِّ هَيْئَتِهَا، إِلَى حَدِّ أَنِّي لَمْ أَتَذَكَّرُ رُؤْيَا نَظِيرِ لَهَا فِي الْأَيَّامِ جَمِيلَاتِ الْمَاضِي الْأَرَسْتَقْرَاطِيَّاتِ. كَانَ ثَمَّةَ أَرِيحٍ مِنَ الْفَضِيلَةِ الْمُتَرَفِّعَةِ يَضُوعٌ مِنْ شَخْصِهَا كُلِّهِ. وَكَانَ وَجْهُهَا، الْحَزِينُ وَالْمَهْزُولُ، مُنْسَجِمًا تَمَامًا مَعَ الْجِدَادِ الْعَظِيمِ الَّذِي كَانَ يَلْفُهَا. كَانَتْ أَيْضًا، مِثْلَ الْعَامَّةِ الَّذِينَ كَانَتْ مُتَمَرِّجَةً بِهِمْ دُونَ أَنْ تَرَاهُمْ، تَنْظُرُ إِلَى الْعَالَمِ الْمُتَلَالِيِّ بِعَيْنٍ ثَابِتَةٍ، وَكَانَتْ تُصْغِي وَهِيَ تَهْزُ رَأْسَهَا بِرَفَقَةٍ.

مَنْظَرٌ فَرِيدٌ! «بِالتَّأَكِيدِ - قُلْتُ لِنَفْسِي - إِنَّ هَذَا الْفَقْرَ، إِذَا مَا كَانَ فَقْرًا حَقًّا، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْضَى بِالتَّقَشُّفِ الْبَغِيضِ؛ وَمِثْلُ هَذَا الْوَجْهِ النَّبِيلِ يَشْهَدُ بِذَلِكَ. فَلِمَاذَا تَبَقَّى إِذَنْ - عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ - فِي وَسْطِ تُمَثُّلٍ فِيهِ بُقْعَةٌ بَاهِرَةٌ؟».

لَكِنِّي - عِنْدَ مُرُورِي، بِفَضُولٍ، بِالْقُرْبِ مِنْهَا - أَظُنُّ أَنِّي اكْتَشَفْتُ السَّبَبَ. كَانَتْ الْأَرْمَلَةُ الْعَظِيمَةُ تُمْسِكُ بِيَدِهَا طِفْلًا يَرْتَدِي الْأَسْوَدَ مِثْلَهَا؛ وَمَهْمَا كَانَ ثَمَنُ الدُّخُولِ

(١) هي ملابس العمال في مدن تلك الحقبة، والفلاحين في القرى؛ ملابس قطنية بسيطة كانت تستورد من الهند.

زَهِيدًا، فَلَا بُدَّ أَنَّهُ كَانَ سَيِّفِي بِإِخْدَى حَاجِيَّاتِ الصَّغِيرِ، أَوْ بِالْأُخْرَى إِخْدَى الْكَمَالِيَّاتِ،
كَلْعَبَةٍ مَثَلًا.

وَسَتَعُودُ سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ، مُتَأَمِّلَةً وَحَالِمَةً، وَحِيدَةً، دَائِمًا وَحِيدَةً؛ لِأَنَّ الطِّفْلَ
صَاحِبًا، أَنَانِيًّا، بِلَا رِقَّةٍ وَلَا صَبْرٍ؛ وَلَا حَتَّى يَسْتَطِيعُ - مِثْلَ الْحَيَوَانِ الْخَالِصِ، شَأْنَ
الْكَلْبِ أَوْ الْقِطَّةِ - أَنْ يَقُومَ بِدَوْرِ الصَّدِيقِ الْحَمِيمِ فِي آلَمِ الْعُزْلَةِ.

الْبَهْلَوَانُ الْعَجُوز

فِي كُلِّ مَكَانٍ، يَنْتَشِرُ النَّاسُ، يَتَدَفَّقُونَ، وَيَمْرَحُونَ يَوْمَ الْعُطْلَةِ. هُوَ أَحَدُ تِلْكَ
الْاحْتِفَالَاتِ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا - مِنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ - الْبَهْلَوَانَاتُ، وَالْمُسْعُودُونَ، وَعَارِضُو
الْحَيَوَانَاتِ وَالْبَاعَةِ الْجَائِلُونَ، لِتَعْوِيزِ الْأَوْقَاتِ السَّيِّئَةِ مِنَ الْعَامِ.

فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، يَبْدُو لِي أَنَّ النَّاسَ يَنْسُونَ كُلَّ شَيْءٍ - الْعَنَاءَ وَالْعَمَلَ؛ وَيُصْبِحُونَ
أَشْبَهَ بِالْأَطْفَالِ. بِالنِّسْبَةِ لِلصَّغَارِ، فَهُوَ يَوْمُ عُطْلَةٍ، وَتَأْجِيلِ الرُّغْبِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ أَرْبَعًا
وَعِشْرِينَ سَاعَةً. وَبِالنِّسْبَةِ لِلْكِبَارِ، فَهُوَ هَذِهِ مُبْرَمَةٌ مَعَ الْقُوَى الشَّرِيرَةِ لِلْحَيَاةِ، اسْتِرَاحَةٌ
فِي النَّزَاعِ وَالصَّرَاحِ الْكَوْنِيِّينَ.

فَحَتَّى الرَّجُلَ الدُّنْيَوِيَّ وَالرَّجُلَ الْمَهْمُومَ بِالنَّشِطَةِ الرُّوحِيَّةِ لَا يُفْلِتَانِ إِلَّا بِالْكَادِ مِنْ
تَأْثِيرِ هَذَا الْيُوبِيلِ الشَّعْبِيِّ. فَهُمَا يَتَجَرَّعَانِ نَصِييْنَهُمَا - بِلَا إِرَادَةٍ - مِنْ مُنَاخِ اللَّامُبَالَاهِ
هَذَا. وَبِالنِّسْبَةِ لِي، فَلَا أَفْلُتُ أَبَدًا - كَبَارِسِي حَقِيقِي - فُرْصَةً مُشَاهَدَةً جَمِيعِ الْأَكْوَاخِ
الَّتِي تَتَبَخَّرُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْاِخْتِفَالِيَّةِ.

كَانُوا، فِي الْحَقِيقَةِ، يَقُومُونَ بِتَنَافُسٍ رَائِعٍ؛ يَصْخَبُونَ، يَصْبِحُونَ، يَعُودُونَ. كَانَ
خَلِيطًا مِنَ الصُّرَاخِ، مِنْ فَرْقَعَاتِ النُّحَاسِ وَانْفِجَارَاتِ السَّهَامِ النَّارِيَّةِ. كَانَ الْبَهْلَوَانَاتُ
وَالْبُهْلَاءُ يُرْعِشُونَ قَسَمَاتِ وُجُوهِهِمُ الْمُسَمَّرَةِ، الْمُتَصَلِّبَةِ بِفِعْلِ الرِّيحِ وَالشَّمْسِ
وَالْمَطَرِ؛ كَانُوا يُطْلِقُونَ - بِرَبَاطَةٍ جَاشٍ مُمَثِّلِينَ وَاثِقِينَ مِنْ تَأْثِيرِهَا - نِكَاثًا وَمَزَحَاتٍ

تَلْبُقُ بِمُؤَلَّفِ كَوْمِيدِي رَاسِخٍ وَثَقِيلِ الْوَزْنِ مِنْ قَبِيلِ مُوَلِيرٍ. وَالْهَرَقْلِيُّونَ، الْمُخْتَالُونَ بِضَخَامَةِ أَجْسَادِهِمْ، بِلَا جَبِينٍ أَوْ رَأْسٍ، مِثْلَ إِنْسَانِ الْغَابِ، كَانُوا يَتَبَخَّرُونَ بِعَظَمَةِ فِي مَائُوَهَاتٍ غَسِلَتْ اللَّيْلَةَ السَّابِقَةَ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ. وَالرَّاقِصَاتُ، الْجَمِيلَاتُ مِثْلَ الْجَنِيَّاتِ أَوْ الْأَمِيرَاتِ، كُنَّ يَتَقَافَزْنَ وَيَتَشَقَّلْنَ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَنَادِيلِ الَّتِي تَمْلَأُ تَنُورَاتِهِنَّ بِالْوَمِضِ.

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سِوَى الضَّوِّ، وَالْعُبَارِ، وَالصُّرَاخِ، وَالْبَهْجَةِ وَالصَّخَبِ؛ بَعْضُهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالْآخَرُونَ يَكْسِبُونَ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ مُبْتَهَجُونَ عَلَى السَّوَاءِ. الْأَطْفَالُ يَتَشَبَّهُونَ بِتَنُورَاتِ أُمَهَاتِهِنَّ لِلْحُصُولِ عَلَى قِطْعَةٍ حَلْوَى، أَوْ يَمْتَطُونَ أَكْتَافَ آبَائِهِمْ لِيَرَوْا عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ مُشْعُودًا بَاهِرًا مِثْلَ إِلَهٍ. وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، تَفُوحٌ - أَقْوَى مِنْ جَمِيعِ الرَّوَائِحِ - رَائِحَةُ الْمَقْلِيَّاتِ الَّتِي تُشَبِّهُ بِخُورِ هَذَا الْاِحْتِفَالِ.

وَفِي الطَّرَفِ، الطَّرَفِ الْأَقْصَى مِنْ صَفِّ الْأَكْرَاخِ، رَأَيْتُ بَهْلَوَانًا فَقِيرًا، مَخْنِيَّ الظَّهْرَ، رَثًا مُتَهَدِّمًا، حُطَّامَ رَجُلٍ، مُسْتِنِدًا إِلَى أَعْمِدَةٍ كُوخِهِ، وَكَأَنَّهُ نَمَى نَفْسَهُ حَجَلًا عَنْ كُلِّ هَذِهِ الرَّوَائِحِ؛ كُوخٌ أَكْثَرُ بُؤْسًا مِنْ كُوخِ الْبِدَائِيِّ الْمُتَوَحَّشِ، وَالَّذِي كَانَ لَذْبَابِي سَمْعَتَيْنِ، ذَائِبَتَيْنِ وَدَاخَتَيْنِ، أَنْ تَكْشِفًا بِوُضُوحِ بُؤْسِهِ.

فِي كُلِّ مَكَانٍ الْبَهْجَةُ، وَالْمَكْسَبُ وَالْعَرَبْدَةُ؛ فِي كُلِّ مَكَانٍ صَمَانٌ خُبِرَ الْغَدَى؛ فِي كُلِّ مَكَانٍ انْفِجَارُ الْعُفُوفَانِ الْجُنُونِي. وَهَذَا هُنَا الْبُؤْسُ الْمُطْلَقُ، الْبُؤْسُ الْمُرْتَبِدِي زِيَا غَرِيبًا - لِيَطْفَحَ بِالرَّغْبِ - مِنْ أَسْمَالٍ مُضْحِكَةٍ، حَيْثُ الضَّرُورَةُ - أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْفَنِّ - قَدْ صَنَعَتْ الْمَفَارِقَةَ. لَمْ يَكُنْ يَضْحَكُ، هَذَا الْبَائِسُ! لَمْ يَكُنْ يَبْكِي، لَمْ يَكُنْ يَرْقُصُ، لَمْ يَكُنْ يُومِئُ، لَمْ يَكُنْ يَصْرُخُ؛ لَمْ يَكُنْ يُغْنِي آيَةٌ أُغْنِيَّةً، لَا مَرَحَةٌ وَلَا نَائِحَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَوَسَّلُ. كَانَ صَامِتًا وَسَاكِئًا. كَانَ مُسْتَسْلِمًا، وَكَانَ مُعْتَزِلًا. وَمَصِيرُهُ قَدْ اكْتَمَلَ.

لَكِنَّ آيَةَ نَظَرَةٍ عَمِيقَةٍ، بِلَا غُفْرَانٍ، كَانَ يُجِيلُهَا فِي الْأَضْوَاءِ وَالْجَمْعِ الَّذِي تَوَقَّفَتْ أَمْوَاجُهُ الْمُضْطَرِبَّةُ عَلَى بُعْدِ خُطْوَةٍ مِنْ بُؤْسِهِ الْمُنفَّرِ! أَحَسَسْتُ بِحَلْقِي يَخْتَنِقُ تَحْتَ الْيَدِ الرَّهِيْبَةِ لِلْهِسْتِيرِيَا، وَبَدَأَ لِي أَنَّ نَظْرَاتِي كَانَتْ غَائِمَةً بِهَذِهِ الدُّمُوعِ الْمُتَمَرِّدَةِ الَّتِي لَا تُرِيدُ أَنْ تَنْهَمِرَ.

مَا الْعَمَلُ؟ مَا فَائِدَةُ سُؤَالِ التَّعْيِيسِ عَنِ الشَّيْءِ الْغَرِيبِ، الْعَجِيبِ الَّذِي كَانَ سَيَقْدُمُهُ فِي هَذِهِ الظُّلُمَاتِ الْعَفَنَةِ، خَلْفَ سِتَارِهِ الْمُمَزَّقِ؟ فِي الْوَاقِعِ، لَمْ أَجْرُؤْ؛ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّكُمْ قَدْ تَضَحَّكُونَ مِنْ خَجَلِي، فَإِنِّي أَعْتَرِفُ أَنَّي خَشِيتُ إِهَانَتَهُ. وَفِي النِّهَايَةِ، اسْتَفَرَّ عَزَمِي عَلَى أَنْ أَضَعُ لَدَى مُرُورِي بِضَعٍ قِطْعَ نَقْدِيَّةٍ عَلَى أَحَدِ الْوَاحِهَةِ؛ أَمِلًّا أَنْ يُدْرِكَ مَقْصِدِي، لَكِنَّ تَفَهُّقَ النَّاسِ الْهَائِلِ، بِسَبَبِ مَا لَا أَدْرِي مِنْ اضْطِرَابٍ، دَفَعَنِي بَعِيدًا عَنْهُ.

وَعِنْدَ عَوْدَتِي - مَسْكُونًا بِهَذِهِ الرُّؤْيَا - حَاوَلْتُ تَحْلِيلَ أَلْمِي الْمُفَاجِئِ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: لَقَدْ رَأَيْتَ صُورَةَ الْأَدِيبِ الْعَجُوزِ الَّذِي عَاشَ بَعْدَ جِيلِهِ الَّذِي أَمْتَعَهُ بِامْتِيَازٍ؛ شَاعِرٌ عَجُوزٌ بِلَا أَصْدِقَاءَ، بِلَا أَسْرَةٍ، بِلَا أَطْفَالٍ، مُتَدَهَوِّرٌ بِفِعْلِ بُؤْسِهِ وَيَفْعَلِ النُّكْرَانِ الْعَامِ، فِي كُوخٍ لَمْ يَعُدِ الْعَالَمُ فَاقِدُ الذَّاكِرَةِ يُرِيدُ الدُّخُولَ إِلَيْهِ!

الجاتوه

كُنْتُ مُسَافِرًا. وَالْمَنْظَرُ الطَّبِيعِيُّ الَّذِي يُحِيطُ بِي كَانَ عَلَى دَرَجَةٍ لَا تُقَاوَمُ مِنَ الْعَظَمَةِ
وَالنَّبْلِ. وَلَا بَدَأَ أَنْ شَيْئًا مِمَّنْ قَدْ تَسَرَّبَ إِلَى رُوحِي فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ. كَانَتْ أَفْكَارِي
تُرْفِرُ بِخَفَةِ تَضَاهِي خَفَةِ الْأَثِيرِ؛ وَالْأَهْوَاءُ الْمَالُوفَةُ - مِنْ قَبِيلِ الْكَرَاهِيَةِ وَالْحُبِّ الدُّنْيَوِيِّ -
كَانَتْ تَبْدُو لِي الْآنَ أَيْضًا نَائِيَّةً مِثْلَ الْغُيُومِ الَّتِي تَطْفُو فِي قَاعِ الْهَوَايَةِ تَحْتَ أَقْدَامِي؛
وَتَبْدُو لِي رُوحِي رَحْبَةً وَصَافِيَّةً مِثْلَ قُبَّةِ السَّمَاءِ الَّتِي تَحْتَوِينِي؛ وَذَكَرَى الْأَشْيَاءَ الدُّنْيَوِيَّةَ
لَمْ تَكُنْ لَتَبْلُغَ قَلْبِي إِلَّا وَاهِيَةً ضَيِّلَةً، مِثْلَ صَوْتِ الْجَرَسِ الصَّغِيرِ لِقُطْعَانٍ غَيْرِ مَرِيئَةٍ
كَانَتْ تَرَعَى بَعِيدًا - بَعِيدًا جِدًّا - عَلَى سَفْحِ جَبَلٍ آخَرَ. وَعَلَى الْبُحَيْرَةِ الصَّغِيرَةِ السَّاكِنَةِ،
الْقَاتِمَةِ بِفِعْلِ عُمُقِهَا الْهَائِلِ، كَانَ يَمُرُّ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ ظِلٌّ غَيَمَةٌ، مِثْلَ انْعِكَاسِ
لِمِعْطَفِ عَمَلَاقٍ أَثِيرِيٍّ يُحَلِّقُ فِي السَّمَاءِ. وَاتَذَكَّرْتُ أَنَّ هَذَا الْإِحْسَاسَ الْاِخْتِفَالِيَّ النَّادِرَ -
الَّذِي بَشَّهَ حَرَكَةَ كُبْرَى صَامِتَةً تَمَامًا - قَدْ أَفْعَمَنِي بِبَهْجَةٍ مُشْوِيَةٍ بِالرَّهْبَةِ. بِاخْتِصَارٍ، كُنْتُ
أَحْسُ - بِفَضْلِ الْجَمَالِ الْمُثِيرِ الَّذِي يَلْفُنِي - بِالسَّلَامِ الْكَامِلِ مَعَ نَفْسِي وَمَعَ الْكَوْنِ؛ بَلْ
إِنِّي أَظُنُّ - وَأَنَا فِي نَعِيمِي الْكَامِلِ وَفِي نِسْيَانِي التَّامِّ لِلشَّرِّ الدُّنْيَوِيِّ كُلِّهِ - أَنَّي قَدْ انْتَهَيْتُ
إِلَى أَلَا أَعْتَبِرَ الْجَرَائِدَ بِلَهَاءِ حِينَ تَزْعُمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ وُلِدَ خَيْرًا؛ - وَعِنْدَمَا أَيْقَظَتْ
الْمَادَّةُ الْعَصِيَّةُ اخْتِيَابَاتِهَا، فَكَّرْتُ فِي تَرْمِيمِ التَّعَبِ وَالتَّخْفِيفِ مِنَ الشَّهِيَةِ الَّتِي أَثَارَهَا
صُعُودٌ طَوِيلٌ طَوِيلٌ. أَخْرَجْتُ مِنْ جَيْبِي قِطْعَةً كَبِيرَةً مِنْ خُبْزٍ وَكُوبًا مِنْ جِلْدٍ وَقَارُورَةً
مِنْ إَكْسِيرٍ مِمَّا كَانَ يَبِيعُهُ الصَّيَادِلَةُ فِي هَذَا الزَّمَنِ لِلْسَّائِحِينَ لِيَمْزِجُوهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِمَاءِ
الْثُلُوجِ.

كُنْتُ أَقْطَعُ الْخُبْزَ بِهَدُوءٍ، عِنْدَمَا دَفَعْتَنِي ضَوْضَاءُ وَاهِيَّةٍ إِلَى أَنْ أَرْفَعَ عَيْنِي. أَمَامِي، كَانَ ثَمَّةُ كَائِنْ صَغِيرٍ رَثُ الثِّيَابِ، أَسْوَدَ، أَشْعَثُ، وَعَيْنَاهُ الْغَائِرَتَانِ، الشَّرِسَتَانِ الصَّارِعَتَانِ، تَلْتَهُمَا قِطْعَةُ الْخُبْزِ. وَسَمِعْتُهُ يَزْفِرُ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ عَمِيقٍ كَلِمَةً: جَاءَتْهُ! لَمْ أَسْتَطِعْ مَنْعَ نَفْسِي مِنَ الضَّحِكِ عِنْدَ سَمَاعِي التَّسْمِيَةِ الَّتِي أَرَادَ بِهَا تَبْجِيلَ خُبْزِي شَبِهِ الْأَبْيَضِ، وَقَطَعْتُ لَهُ مِنْهُ شَرِيحَةً كَبِيرَةً قَدَّمْتُهَا لَهُ. دَنَا بِبُطءٍ، دُونَ أَنْ يُحَوِّلَ عَيْنَيْهِ عَنِ هَدَفِ اسْتِهْأَانِهِ؛ وَإِذَا اخْتَطَفَ الْقِطْعَةَ بِيَدِهِ، تَرَاجَعَ بِسُرْعَةٍ، كَأَنَّهُ خَائِفٌ مِنْ أَنْ عَرْضِي لَمْ يَكُنْ جَادًّا أَوْ أَنِّي نَادِمٌ عَلَيْهِ بِالْفِعْلِ.

لَكِنَّهُ - فِي اللَّحْظَةِ نَفْسَهَا - سَقَطَ عَلَى يَدٍ مُتَوَحِّشٍ صَغِيرٍ آخَرَ، لَا أَذْرِي مِنْ أَيْنَ خَرَجَ، يُشَبِّهُ تَمَامًا الْأَوَّلَ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يُعْتَبَرَ ثَوءًا لَهُ. تَدَحَّرَ جَا مَعًا عَلَى الْأَرْضِ، مُتَنَازِعِينَ عَلَى الْغَيْمَةِ الْغَالِيَةِ، دُونَ أَنْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا - بِلَا شَكٍّ - التَّضَحِّيَةَ بِالنِّصْفِ لِأَخِيهِ. قَبَضَ الْأَوَّلُ، مُغْتَاظًا، عَلَى الثَّانِي مِنْ شَعْرِهِ؛ فِيمَا عَضَّ الثَّانِي أُذُنَهُ، وَبَصَقَ قِطْعَةً صَغِيرَةً دَامِيَةً مِنْهَا مَعَ سَتِيْمَةٍ مَحَلِّيَّةٍ مُتَغَطِّرَةٍ. حَاوَلَ الْمَالِكُ الشَّرْعِيُّ لِقِطْعَةِ الْجَاءِثِ عَرَسَ أَظْفَرِهِ الصَّغِيرَةِ فِي عَيْنِي الْمُغْتَضِبِ، الَّذِي حَاوَلَ - بِدَوْرِهِ - اسْتِخْدَامَ جَمِيعِ قُوَاهُ فِي خَنْقِ غَرِيمِهِ بِيَدِهِ، فِيمَا كَانَ يُحَاوِلُ بِالْآخَرَى أَنْ يَدْسَ فِي جَيْبِهِ بِجَائِزَةِ الصَّرَاعِ. لَكِنَّ الْمَهْزُومَ - وَقَدْ أَجْجَهَ الْيَأْسَ - نَهَضَ وَطَرَحَ الْغَالِبَ أَرْضًا بِضَرْبَةِ رَأْسٍ فِي بَطْنِهِ. مَا جَدَّوِي وَضَفِ صِرَاعٍ بَشَعَ دَامٌ فِي الْحَقِيقَةِ أَطْوَلَ مِمَّا بَدَأَ أَنَّ قُوَاهُمَا الطُّفُولِيَّةَ تُنْبِئُ بِهِ؟ انْتَقَلَتْ قِطْعَةُ الْجَاءِثِ مِنْ يَدِي إِلَى يَدِهِ وَغَيَّرَتْ الْجَيْبَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ؛ لَكِنَّ، وَاسْفَاهُ! فَقَدْ تَغَيَّرَتْ فِي الْحَجْمِ أَيْضًا؛ وَعِنْدَمَا تَوَقَّفَا فِي النِّهَآيَةِ - مُسْتَنْزَفَيْنِ، لَاهِثَيْنِ، دَامِيَيْنِ - بِفِعْلِ اسْتِحَالَةِ الْاسْتِمْرَارِ، لَمْ يَعُْدْ هُنَاكَ - فِي الْحَقِيقَةِ - أَيُّ مَوْضِعٍ لِلْمَعْرَكَةِ؛ فَقِطْعَةُ الْخُبْزِ قَدْ تَلَاشَتْ، وَتَنَازَّرَتْ فِي فُتَاتٍ أَشْبَهَ بِحَبَّاتِ الرَّمْلِ الْمُخْتَلِطَةِ بِهَا.

هَذَا الْمَشْهُدُ شَوَّشَ الْمَنْظَرَ الطَّبِيعِيَّ عَلَيَّ، وَابْتَهَجَهُ السَّكَنَةُ الَّتِي أَطْرَبَتْ رُوحِي قَبْلَ رُؤْيَةِ هَذَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ تَلَاشَتْ تَمَامًا؛ ظَلَلْتُ حَرِينًا مُدَّةَ طَوِيلَةٍ، وَأَنَا أَرْدُدُ لِنَفْسِي بِلَا انْتِهَاءٍ: «هُنَاكَ إِذَنْ بَلَدٌ رَائِعٌ يُسَمَّى الْخُبْزُ فِيهِ جَاءَتْهُ، قِطْعَةٌ حَلَوَى نَادِرَةٌ تَكْفِي لِإِشْعَالِ حَرْبٍ قَاتِلَةٍ بَيْنَ الْأَشْقَاءِ!»

سَاعَةُ الْحَائِطِ

يَعْرِفُ الصَّيْنِيُّونَ الْوَقْتَ مِنْ عُيُونِ الْقِطْطِ.

ذَاتَ يَوْمٍ، لَاحَظَ أَحَدُ الْمُبَشِّرِينَ - وَهُوَ يَتَمَشَّى فِي صَاحِيَّةِ «نَانِكِينَ» - أَنَّهُ قَدْ نَسِيَ سَاعَتَهُ، وَسَأَلَ صَبِيًّا عَنِ الْوَقْتِ.

تَرَدَّدَ ابْنُ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ السَّمَاوِيَّةِ فِي الْبِدَايَةِ؛ ثُمَّ أَجَابَ، مُغَيِّرًا رَأْيَهُ: «سَأَقُولُ لَكَ». بَعْدَ بُرْهَةٍ، عَادَ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي ذِرَاعِهِ قِطَّةً ضَخْمَةً قَوِيَّةً، وَإِذْ نَظَرَ فِي بَيَاضِ عَيْنَيْهَا - مِثْلَمَا يُقَالُ - أَكَّدَ دُونَ تَرَدُّدٍ: «لَمْ يَحِنْ بَعْدُ مُتْتَصِفُ النَّهَارِ». وَهُوَ مَا كَانَ صَحِيحًا.

وَبِالنِّسْبَةِ لِي، فَإِذَا مَا انْحَنَيْتُ عَلَى «فِيلِينَ» الْجَمِيلَةِ، وَهِيَ الْمُسَمَّاءُ بِهَذَا الْاسْمِ الْجَمِيلِ، الَّتِي تُمَثِّلُ - فِي آنٍ - شَرَفَ جَنَسِهَا، وَزَهْوَ قَلْبِي وَأَرِيحَ رُوحِي، سَوَاءً فِي اللَّيْلِ أَمْ النَّهَارِ، فِي وَضَحِ النُّورِ أَمْ فِي الْعَتَمَةِ الْكَابِيَةِ، فَإِنِّي أَرَى دَائِمًا فِي عُمُقِ عَيْنَيْهَا الْفَاتِنَتَيْنِ الْوَقْتَ بِدَقَّةٍ، دَائِمًا نَفْسَ الْوَقْتِ، وَقَتًا رَجِيًّا، جَلِيلًا، عَظِيمًا كَالْفَضَاءِ، بِلَا انْقِسَامَاتٍ إِلَى دَقَائِقٍ أَوْ ثَوَانٍ - وَقْتُ سَاكِنٍ لَا تَعْرِفُهُ سَاعَاتُ الْحَائِطِ، لَكِنَّهُ - مَعَ ذَلِكَ - وَاهٍ مِثْلَ تَنْهِيدَةٍ، خَاطِفٌ كَلِمَحَةٍ عَيْنٍ.

وَإِذَا مَا جَاءَ أَحَدُ الْمُزْعِجِينَ لِلتَّشْوِيشِ عَلَيَّ فِيمَا نَظَرْتَنِي تَسْتَرِيحُ عَلَى هَذِهِ السَّاعَةِ الشَّهِيَّةِ، إِذَا مَا جَاءَ جَنِّي لَيْثِيمٌ وَمُتْعَصِبٌ، أَوْ شَيْطَانُ سُوءِ التَّوْقِيتِ لِيَقُولَ لِي: «مَا الَّذِي

تُحَدِّقُ فِيهِ بِكُلِّ هَذَا الْاهْتِمَامِ؟ مَا الَّذِي تَبْحَثُ عَنْهُ فِي عَيْنِي هَذَا الْكَائِنِ؟ أَتَرَى فِيهِمَا
الْوَقْتَ، أَيُّهَا الْفَانِي السَّفِيهُ وَالْخَامِلُ؟»، لَأَجِبْتُ بِلاَ تَرَدُّدٍ: «نَعَمْ، أَرَى الْوَقْتَ؛ إِنَّهُ
الْأَبَدُ!».

أَلَيْسَ ذَلِكَ، يَا سَيِّدَتِي، إِلَّا غَزَلِيَّةٌ مَحْمُودَةٌ حَقًّا، وَرَائِعَةٌ مِثْلَكَ؟ فَقَدْ تَمَلَّكْتَنِي - فِي
الْحَقِيقَةِ - سَعَادَةٌ غَامِرَةٌ أَنْ أُوشِّيَ هَذِهِ الْغَزَلِيَّةَ الطُّمُوحَةَ، الَّتِي لَنْ أُطَالِبَكَ بِمُقَابِلِ لَهَا
أَبَدًا.

نصف الكرة الأرضية في خصلة شعر

دَعِينِي أَنْشُقُ طَوِيلًا، طَوِيلًا، أَرِيحَ شَعْرِكَ، وَأَغْمُرُ فِيهِ وَجْهِي كُلَّهُ، كَرَجُلٍ ظَمَانَ
يَغْمُرُ وَجْهَهُ فِي مَاءٍ نَبْعٍ، وَالْوُحُ بِهِ بِيَدِي مِثْلَ مَنْدِيلٍ مُعْطَرٍ، لِأَتَفُضَّ الذِّكْرِيَّاتِ فِي
الْهَوَاءِ.

فَلَيْتَكَ تَسْتَطِيعِينَ مَعْرِفَةَ كُلِّ مَا أَرَى! كُلِّ مَا أَحْسُ! كُلِّ مَا أَسْمَعُ فِي شَعْرِكَ! رُوحي
تُسَافِرُ فِي الْأَرِيحِ مِثْلَمَا تُسَافِرُ أَرْوَاحُ الْآخَرِينَ فِي الْمَوْسِيقَى.

شَعْرُكَ يَحْتَوِي حُلْمًا كَامِلًا، حَافِلًا بِالْأَشْرَعَةِ وَالصَّوَارِي؛ يَحْتَوِي بِحَارًا هَائِلَةً
تَحْمِلُنِي رِيَّاحُهَا الْمَوْسِمِيَّةُ إِلَى الْمُنَاحَاتِ السَّاحِرَةِ؛ حَيْثُ الْفَضَاءُ أَكْثَرُ رُزْقَةً وَأَكْثَرُ
عُمَقًا، حَيْثُ الْجَوُّ مُعْطَرٌ بِالْفَوَاكِهِ، بِأَوْرَاقِ الشَّجَرِ، وَبِالْبَشْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

فِي مُحِيطِ خُصْلَتِكَ، أَلْمَحُ مِينَاءَ مَلِيئًا بِالْأَنَاشِيدِ الْحَزِينَةِ، بِرِجَالٍ أَشْدَاءَ مِنْ جَمِيعِ
الْأُمَمِ، وَسُفُنًا مِنْ كُلِّ الْأَشْكَالِ يَرْتَسِمُ مِعْمَارُهَا الدَّقِيقُ وَالْمُعَقَّدُ عَلَى سَمَاءٍ شَاسِعَةٍ
يَسْتَرَحِي فِيهَا الْحَرُّ الْأَبَدِيَّ.

فِي مَدَاعِبَاتِ خُصْلَتِكَ، أَسْتَعِيدُ فُتُورَ السَّاعَاتِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي انْقَضَتْ عَلَى أَرِيكَةِ،
فِي غُرْفَةٍ بِسَفِينَةٍ جَمِيلَةٍ، تُهْدِيهَا الْأَرْجَحَاتُ الْخَفِيَّةُ لِلْمَرْسَى، بَيْنَ أَصْصِ الزُّهُورِ
وَالْأَبَارِيقِ الْمُنْعِشَةِ.

فِي مَفْرِقِ خُصْلَتِكَ الْمُتَّقَدِ، أَنْشُقُ رَائِحَةَ الطَّبَاقِ الْمَمْزُوجِ بِالْأَفْيُونِ وَالسُّكَّرِ؛ فِي

لَيْلِ خُصْلَتِكَ، أَرَى لَانِهَائِيَّةَ اللَّازُورِ دِالِاسْتَوَائِي سَاطِعَةً؛ عَلَى شُطَّانِ خُصْلَتِكَ الزَّغَبِيَّةِ،
أَنْتَشِي بِالْأَرِيحِ الْمُشْتَرَكِ لِلْقَارِ وَالْمِسْكِ وَزَيْتِ جُوزِ الْهِنْدِ.
دَعِينِي أَعْضُ طَوِيلًا صَفَائِرَكَ السَّودَاءَ الْكَثِيفَةَ. فَعِنْدَمَا أَلُوكُ شَعْرَكَ السَّلْسَ الْمُتَمَرِّدَ،
أُحِسُّ أَنِّي أَكُلُ ذِكْرِيَّاتِ.

دعوة إلى السفر

بَلَدٌ رَائِعٌ، بَلَدُ النَّعِيمِ - كَمَا يُقَالُ - الَّذِي أَحْلَمُ بِزِيَارَتِهِ مَعَ صَدِيقَةٍ قَدِيمَةٍ. بَلَدٌ فَرِيدٌ، مَغْمُورٌ فِي ضَبَابِ شَمَالِنَا، وَكَانَ يُمَكِّنُ أَنْ نُسَمِّيَهُ شَرْقَ الْغَرْبِ، صِينَ أَوْرُوبَا، وَبِقَدْرِ مَا يُطْلِقُ الْخَيَالُ الْمُتَوَقِّدُ لِنَفْسِهِ الْعَنَانَ فِيهِ، بِقَدْرِ مَا زَيْنَهُ - بِصَبْرِ وَإِصْرَارٍ - بِنَبَاتَاتِهِ الْبَارِعَةِ الرَّهِيْفَةِ.

بَلَدٌ نَعِيمٌ حَقِيقِي، حَيْثُ كُلُّ شَيْءٍ جَمِيلٌ، غَنِيٌّ، هَادِئٌ، عَفِيفٌ؛ حَيْثُ يَسْتَمْتِعُ التَّرَفُ بِأَنْ يَعْكَسَ نَفْسَهُ فِي النِّظَامِ؛ حَيْثُ الْحَيَاةُ خَضْبَةٌ وَمُرْهَفَةٌ فِي الْاسْتِنْشَاقِ؛ حَيْثُ تَنْتَفِي فِيهِ الْفَوْضَى وَالْاضْطِرَابُ وَالْمُفَاجِئُ؛ حَيْثُ السَّعَادَةُ تَقْتَرِنُ بِالصَّمْتِ؛ حَيْثُ الطَّبْخُ نَفْسُهُ شَعْرِي، وَدَسِمٌ وَمُثِيرٌ فِي آنٍ؛ وَحَيْثُ كُلُّ شَيْءٍ يُشْبِهُكَ، يَا مَلَائِكِي الْعَزِيزِ.

أَتَعْرِفِينَ ذَلِكَ الْمَرَضَ الْمَحْمُومَ الَّذِي يَسْتَوْلِي عَلَيْنَا فِي الْوَيَلَاتِ الْقَارِسَةِ، هَذَا الْحَيْنِ إِلَى بَلَدٍ نَجْهَلُهُ، عَذَابِ الْفُضُولِ هَذَا؟ إِنَّهُ قَطْرٌ يُشْبِهُكَ، حَيْثُ كُلُّ شَيْءٍ جَمِيلٌ، وَغَنِيٌّ، وَهَادِئٌ، وَعَفِيفٌ، حَيْثُ الْخَيَالُ يُؤَسِّسُ وَيُوشِي صِينًا غَرِيبَةً، حَيْثُ الْحَيَاةُ مُرْهَفَةٌ فِي الْاسْتِنْشَاقِ، وَحَيْثُ السَّعَادَةُ تَقْتَرِنُ بِالصَّمْتِ. إِلَى هُنَاكَ يَنْبَغِي أَنْ نَمْضِيَ لِنَعِيشَ، إِلَى هُنَاكَ يَنْبَغِي أَنْ نَمْضِيَ لِنَمُوتَ!

حَقًّا، إِلَى هُنَاكَ يَنْبَغِي أَنْ نَمْضِيَ لِنَتَنَفَّسَ، وَنَحْلُمَ وَنُطِيلَ السَّاعَاتِ بِلَاهِيَّاتِهِ الْأَحَاسِيسِ. ثَمَّةَ مُوسِقَارٍ كَتَبَ «دَعْوَةَ إِلَى الْفَالَسِ»، فَمَنْ ذَا الَّذِي سَيُؤَلِّفُ «دَعْوَةَ إِلَى السَّفَرِ»، الَّتِي يُمَكِّنُ إِهْدَاؤَهَا إِلَى الْحَبِيبَةِ، شَقِيقَةِ الْاخْتِيَارِ؟

حَقًّا، فَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَنَاحِ سَتَطِيبُ الْحَيَاةَ، - هُنَاكَ، حَيْثُ السَّاعَاتُ الْأَكْثَرُ بَطْنًا تَحْتَوِي أَفْكَارًا أَكْثَرَ، وَحَيْثُ تَذُقُ سَاعَاتُ الْحَاظِ سَعَادَةً بِجَلَالٍ أَعَمَقَ وَأَكْثَرَ دَلَالَةً.

عَلَى أَلْوَاكِ لَامِعَةٍ أَوْ جُلُودٍ مُدْهَبَةٍ وَثَرَاءٍ بَائِدٍ، تَحْيَا فِي السَّرِّ لَوَحَاتٍ مُطْمَئِنَّةٍ، هَادِئَةٍ وَعَمِيقَةٍ، كَأَرْوَاحِ الْفَنَانِينَ الَّذِينَ أَبَدُوهَا. وَالشُّمُوسُ الْغَارِبَةُ - الَّتِي تُكُونُ بِثَرَاءٍ بِالْغِ غُرْفَةَ الطَّعَامِ أَوْ الصَّالُونَ - تَنْسَلُ مِنْ خِلَالِ أَقْمِشَةٍ جَمِيلَةٍ أَوْ هَذِهِ النَّوَافِذِ الْعَالِيَةِ الْمُتَقَنَةِ الَّتِي يَقْسِمُهَا الرِّصَاصُ إِلَى أَجْزَاءٍ عَدِيدَةٍ. الْأَثَاثُ رَحْبٌ، فَرِيدٌ، غَرِيبٌ، مُدْعَمٌ بِأَقْفَالٍ وَأَسْرَارٍ كَأَرْوَاحٍ مُرْهَفَةٍ. وَالْمَرَايَا وَالْمَعَادِنُ وَالْأَقْمِشَةُ وَالْمَصُوغَاتُ وَالْآيَةُ الْخَزَفِيَّةُ تَعْرِفُ فِيهَا - مِنْ أَجْلِ الْعُيُونِ - سِيمْفُونِيَّةً صَامِتَةً غَامِضَةً؛ وَمِنْ كُلِّ الْأَشْيَاءِ، مِنْ كُلِّ الْأَرْكَانِ، مِنْ شُقُوقِ الْأَدْرَاجِ وَمِنْ طَيِّبَاتِ الْأَقْمِشَةِ يُفْلِتُ أَرِيحُ فَرِيدٌ، عِطْرٌ «عُدَّ إِلَى هُنَا» مِنْ سَوْمَطْرَةٍ، الَّذِي يُشْبِهُ رُوحَ الشَّقَّةِ.

بَلَدٌ نَعِيمٌ حَقِيقِيٌّ - كَمَا أَقُولُ لَكَ - حَيْثُ كُلُّ شَيْءٍ غَنِيٌّ وَنَقِيٌّ وَسَاطِعٌ، مِثْلُ شُعُورٍ صَافٍ، مِثْلُ أَدَوَاتٍ مَطْبُخٍ رَائِعَةٍ، مِثْلُ مَصُوغَاتٍ فَاتِنَةٍ، مِثْلُ مُجَوَهَرَاتٍ مُبَرِّقَةٍ! كُنُوزُ الْعَالَمِ تَصُبُّ هُنَا، مِثْلَمَا فِي مَنْزِلِ رَجُلٍ مُجِدِّ وَجَدِيدٍ حَقًّا بِاِكْتِسَابِ الْعَالَمِ أَجْمَعِ. بَلَدٌ فَرِيدٌ، أَسْمَى مِنَ الْبُلْدَانِ الْأُخْرَى، مِثْلَمَا الْفَنُّ بِالنِّسْبَةِ لِلطَّبِيعَةِ، الَّتِي شَذَبَهَا الْحُلْمُ، فَتَفَحَّتْ وَتَجَمَّلَتْ وَأُعِيدَتْ صِيَاغَتُهَا.

فَلْيَسْعَوْا، وَلْيَسْعَوْا مِنْ جَدِيدٍ، وَلْيُوسِعُوا بِلَا انْتِهَاءٍ حُدُودَ سَعَادَتِهِمْ، كِيمِيَاثِيُو الْبَسْتَنَةِ هَؤُلَاءِ! وَلْيَقْدِّمُوا جَوَائِزَ - سِتِّينَ وَمِائَةً أَلْفَ فُلُورِينَ - لِمَنْ سَيَحِلُّ مَسَاكِلَهُمُ الطَّمُوحَةُ! أَمَّا أَنَا، فَقَدْ عَثَرْتُ عَلَى وَرْدَتِي التُّولِيبِ السَّوْدَاءِ^(١) وَوَرْدَتِي الدَّالِيَا الزَّرْقَاءِ!

وَرْدَةٌ بِلَا نَظِيرٍ، تُولِيبُ مُسْتَعَادَةٍ، وَدَالِيَا مَجَازِيَّةٌ، هُنَاكَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ، فِي هَذَا الْبَلَدِ الْجَمِيلِ الْهَادِيِّ وَالْحَالِمِ، يَنْبَغِي الذَّهَابُ لِلْعَيْشِ وَالْإَزْدِهَارِ؟ أَلَنْ تَكُونِي مُحَاطَةً بِتَمَائِلِكَ، وَلَنْ تَسْتَطِيعِي أَنْ تَتَمَلَّيْ نَفْسَكَ، لِلْحَدِيثِ مِثْلِ الصُّوفِيَّةِ، فِي تَوَاصُلِكَ الْخَاصِّ؟

(١) التوليب السوداء: عنوان رواية «لـ» ألكسندر دوما، نُشرت عام ١٨٥٠؛ والداليا الزرقاء: عنوان أغنية لـ«بيير ديون»، نُشرت في ديوان تصدرته مقدمة «لبودلير». والوردتان تمثلان الحلم المستحيل.

أَخْلَام! دَائِمًا أَخْلَام! وَكُلَّمَا كَانَتْ الرُّوحُ طَمُوحَةً وَرَهِيْفَةً بَاعَدَتْ الْأَخْلَامُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُمَكِّن. فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَحْمِلُ دَاخِلَهُ جُرْعَتَهُ مِنَ الْأَقْيُونِ الطَّبِيعِيِّ، الَّذِي يُفَرِّزُ وَيَتَجَدَّدُ بِلاَ انْتِهَاءٍ، وَمِنَ الْمِيلَادِ إِلَى الْمَوْتِ كَمَ مِنَ السَّاعَاتِ الْمُفْعَمَةِ بِالْبَهْجَةِ الْمُؤَكَّدَةِ، بِالْفِعْلِ النَّاجِعِ وَالْحَاسِمِ؟ هَلْ سَنَعِيشُ أَبَدًا؟ أَلَنْ نَدْخُلَ ذَاتَ يَوْمٍ هَذِهِ اللَّوْحَةَ الَّتِي رَسَمَهَا عَقْلِي، تِلْكَ اللَّوْحَةَ الَّتِي تُشَبِّهُكَ؟

هَذِهِ الْكُنُوزُ، هَذَا الْأَثَاثُ، هَذَا التَّرَفُّ، هَذَا النِّظَامُ، هَذِهِ الْعُطُورُ، هَذِهِ الزُّهُورُ الْإِعْجَازِيَّةُ، هِيَ أَنْتِ. هِيَ أَنْتِ أَيْضًا هَذِهِ الْأَنْهَارُ الْعَظِيمَةُ وَهَذِهِ الْقَنَوَاتُ السَّاجِيَّةُ. وَهَذِهِ السُّفُنُ الضَّخْمَةُ الَّتِي يُحْمَلُونَهَا، مُتَخِمَةً تَمَامًا بِالنَّفَائِسِ، وَمِنْهَا تَصَاعَدُ الْأَغْنِيَاَتُ الرَّتِيبَةُ لِلإِبْحَارِ، هِيَ أَفْكَارِي الَّتِي تَنَامُ أَوْ تَنَسَابُ عَلَى صَدْرِكَ. تَقْوِدِينَهَا الْهُوَيْنَى إِلَى الْبَحْرِ، اللَّانْهَائِيَّةُ، فِيمَا تَتَأَمَّلِينَ أَعْمَاقَ السَّمَاءِ فِي صَفَاءِ رُوحِكَ الْجَمِيلَةِ؛ - وَإِذَا يَعُودُونَ إِلَى الْمِينَاءِ الْأَمِّ، مُرْهَقِينَ مِنْ اضْطِرَابِ الْأَمْوَاجِ وَمُتَخَمِينَ بِمُنتَجَبَاتِ الشَّرْقِ، فَهِيَ أَيْضًا أَفْكَارِي الْمُغْتَنِيَّةِ الَّتِي تَعُودُ مِنَ اللَّانْهَائِيَّةِ إِلَيْكَ.

لُعبَةُ الْفَقِيرِ

أَوْدُ تَقْدِيمَ فِكْرَةِ تَسْلِيَةٍ بَرِيئَةٍ. فَثَمَّةُ الْقَلِيلِ مِنَ التَّسْلِيَّاتِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْإِحْسَاسِ
بِالذَّنْبِ. فَعِنْدَمَا تَخْرُجُ فِي الصَّبَاحِ عَافِدًا الْعَزَمَ عَلَى التَّسَكُّعِ فِي الشَّوَارِعِ الرَّئِيسَةِ،
فَلْتَمَلَأْ جَيْبَكَ بِطَرَائِفِ صَغِيرَةٍ بِقِيَمَةٍ صَوْلٍ وَاحِدٍ، - مِنْ قَيْلِ الدُّمِيَّةِ الَّتِي يُحَرِّكُهَا سِلْكٌ
وَاحِدٍ، وَالْحَدَّادِينَ الَّذِينَ يَطْرُقُونَ السَّنْدَانَ، وَالْفَارِسِ وَحَصَانِهِ الَّذِي ذَيْلُهُ صُفَّارَةٌ،
- وَبِامْتِدَادِ الْمَلَاهِي اللَّيْلِيَّةِ، تَحْتَ الْأَشْجَارِ، قَدَّمَهُمْ هَدَايَا إِلَى الْأَطْفَالِ الْمَجْهُولِينَ
الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ تَقَابَلُهُمْ. سَتَرَى عُيُونُهُمْ تَتَسَّعُ بِصُورَةٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ. فِي الْبِدَايَةِ لَنْ يَجْرُؤُوا
عَلَى أَخِذِهَا؛ سَيَرْتَابُونَ فِي سَعَادَتِهِمْ. بَعْدَئِذٍ، سَتَخْتَطِفُ أَيَادِيهِمُ الْهَدَايَا بِسُرْعَةٍ،
وَيَهْرُبُونَ مِثْلَمَا تَفْعَلُ الْقِطْطُ الَّتِي تَمْضِي لِتَأْكُلَ بَعِيدًا عَنْكَ الْقِطْعَةَ الَّتِي قَدَّمْتَهَا إِلَيْهَا،
وَقَدْ تَعَلَّمْتَ أَنَّ تَرْتَابَ فِي الْإِنْسَانِ.

فِي الطَّرِيقِ، خَلَفَ السُّورِ الشَّبَكِيُّ لِحَدِيقَةِ سَاسِعَةٍ، فِي الطَّرَفِ الَّذِي يَبْدُو خِلَالَهِ
بَيَاضُ قَصْرِ جَمِيلٍ تَضْرِبُهُ الشَّمْسُ، كَانَ ثَمَّةُ طِفْلٍ جَمِيلٍ وَغَضُّ، يَقِفُ مُرْتَدِّيًا تِلْكَ
الْثِيَابَ الرَّيْفِيَّةَ، الْمَلِيبَةَ بِالْفِتْنَةِ.

التَّرَفُ وَاللَّامُبَالَاةُ وَالْمَنْظَرُ الْعَادِيُّ لِلثَّرَاءِ يَجْعَلُونَ مِنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ
جَمِيلِينَ، إِلَى حَدِّ الْاِعْتِقَادِ أَنَّهُمْ قَدْ خُلِقُوا مِنْ طِينَةٍ أُخْرَى غَيْرِ طِينَةِ أَطْفَالِ الْكَفَافِ أَوْ
الْفَقْرِ.

بِجَانِبِهِ، كَانَتْ تَرْقُدُ عَلَى الْعُشْبِ دُمِيَّةٌ رَائِعَةٌ، غَضَّةٌ مِثْلَ صَاحِبِهَا، صَقِيلَةٌ، مُبَرَّقْشَةٌ،

تَرْتَدِي ثَوْبًا أَرْجَوَانِيًّا، وَمُعْطَاةٌ بِرَيْشٍ وَحُلِيِّ زُجَاجِيَّةٍ. لَكِنَّ الطِّفْلَ لَمْ يَكُنْ مُهْتَمًّا بِدُمَيَّتِهِ
الْمُفَضَّلَةِ، وَهِيَ هُوَ مَا كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ:

فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ السُّورِ الشَّبَكِيِّ، عَلَى الطَّرِيقِ، بَيْنَ النَّبَاتِ الشُّوكِيَّةِ
وَالْقَرَّاصِ، كَانَ هُنَاكَ طِفْلٌ آخَرٌ، قَذْرٌ، هَزِيلٌ، مُتَسَخِّخٌ، أَحَدُ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ الْمَنْبُودِينَ
الَّذِي يُمْكِنُ لِنَظَرَةٍ مُنْصِفَةٍ أَنْ تَكْتَشِفَ فِيهِ الْجَمَالَ - نَعَمْ، مِثْلَمَا تَكْتَشِفُ عَيْنُ الْخَبِيرِ
لَوْحَةً مِثَالِيَّةً تَحْتَ طِلَاءٍ صَانِعِ الْمَرْكَبَاتِ - فَيَقُومَ بِتَنْظِيفِهِ مِنْ أُكْسِيدِ الْبُرُونِزِ الْكَرِيهِ
لِلْفَقْرِ.

وَعَبَّرَ هَذِهِ الْقُضْبَانِ الرَّمِيزِيَّةَ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ عَالَمَيْنِ، الطَّرِيقِ الرَّائِسِ وَالْقَلْعَةِ،
عَرَضَ الطِّفْلُ الْفَقِيرُ لُغْبَتَهُ الْخَاصَّةَ عَلَى الطِّفْلِ الْغَنِيِّ، الَّذِي جَرَّبَهَا بِلَهْفَةٍ كَشْنِيٍّ نَادِرٍ
وَمَجْهُولٍ. وَالْوَاقِعُ أَنَّ هَذِهِ اللَّعْبَةَ، الَّتِي كَانَ الطِّفْلُ الْقَذِرُ يَغِيظُهَا وَيَسْتَفِزُّهَا وَيَرْجُفُهَا فِي
صُنْدُوقِ شَبَكِيِّ، كَانَتْ فَأْرًا حَيًّا! لَقَدْ اسْتَمَدَّ وَالِدَاهُ - مِنْ أَجْلِ التَّوْفِيرِ بِلَا شَكٍّ - اللَّعْبَةَ
مِنْ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا.

كَانَ الطِّفْلَانِ يَضْحَكَانِ الْوَاحِدُ إِلَى الْآخَرِ فِي أُخُوَّةٍ، بِأَسْنَانٍ ذَاتِ بَيَاضٍ مُتَسَاوٍ.

هَبَاتُ الْجَنِّيَّاتِ

كَانَ اجْتِمَاعًا عَظِيمًا لِلْجَنِّيَّاتِ، لِلْقِيَامِ بِتَوَزِيعِ الْهَبَاتِ عَلَى جَمِيعِ الْمَوْلِيدِ الْجُدُدِ، الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى الْحَيَاةِ مِنْدُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً.

جَمِيعُ أَخَوَاتِ الْقَدَرِ الْعَتِيقَاتِ الْمُتَقَلِّبَاتِ هَؤُلَاءِ، وَكُلُّ أُمَهَاتِ الْبَهْجَةِ وَالْأَلَمِ الْغَرِيبَاتِ هَؤُلَاءِ، كُنَّ مُتَمَايِزَاتٍ بِوُضُوحٍ: كَانَتْ لِبَعْضِهِنَّ سِيَمَاءُ كَثِيبَةٌ وَعَابِسَةٌ، وَلِلْأُخَرَيَاتِ سِيَمَاءُ مَرِحَةٌ وَمَاكِرَةٌ؛ الْبَعْضُ شَابَّاتٌ، وَكُنَّ دَائِمًا شَابَّاتٍ، وَالْأُخَرَيَاتُ عَجَائِزٌ، وَكُنَّ دَائِمًا عَجَائِزَ.

وَجَمِيعُ الْآبَاءِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنِّيَّاتِ كَانُوا يَجِئُونَ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يَحْمِلُ وَلِيدَهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ.

الْمَوَاهِبُ، وَالْمَلَكَاتُ، وَالْحُطُوطُ السَّعِيدَةُ، وَالظُّرُوفُ الْقَاهِرَةُ، كَانَتْ مُكَوِّمَةً إِلَى جَوَارِ هَيْئَةِ الْمَحْكَمَةِ، مِثْلَ الْجَوَائِزِ عَلَى الْمِنْصَّةِ، فِي حَفْلِ تَوَزِيعِ الْجَوَائِزِ. وَالْاِخْتِلَافُ الْوَحِيدُ هُنَا أَنَّ الْمَوَاهِبَ لَمْ تَكُنْ مُكَافَأَةً عَلَى فِعْلٍ مَا، بَلْ - عَلَى الْعَكْسِ تَمَامًا - هِيَ هِبَةٌ تُنْمَحُ لِمَنْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ، هِبَةٌ يُمَكِّنُ أَنْ تُقَرَّرَ مَصِيرُهُ وَتُصْبِحَ حَقًّا مَصْدَرُ سَعَادَتِهِ أَوْ تَعَاسِيَتِهِ.

كَانَتْ الْجَنِّيَّاتُ الْبَائِسَاتُ مَشْغُولَاتٍ لِلْغَايَةِ؛ لِأَنَّ حَشْدَ الْمُتَوَسِّلِينَ كَانَ كَبِيرًا، وَالْعَالَمُ الْوَسِيطُ - الَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَاللَّهِ - خَاضِعٌ مِثْلَنَا لِلْقَانُونِ الرَّهِيبِ لِلزَّمَنِ وَذُرِّيَّتِهِ اللَّائِنَهَائِيَّةِ، الْأَيَّامِ وَالسَّاعَاتِ وَالِدَّقَائِقِ وَالثَوَانِي.

وَفِي الْحَقِيقَةِ، كُنَّ أَيْضًا مُرَبِّكَاتٍ مِثْلَ وُزَرَاءَ فِي يَوْمِ اجْتِمَاعٍ، أَوْ مُوْظَفِي بَنِكَ
التَّسْلِيفِ حِينَمَا يُسْمَحُ - فِي عِيدِ وَطَنِيٍّ - بِالْإِعْفَاءِ الْمَجَانِيَّةِ. بَلْ إِنَّنِي أَعْتَقِدُ أَنَّهُنَّ
كُنَّ يَنْظُرْنَ - مِنْ وَقْتٍ لآخر - إِلَى عَقَرِ سَاعَةِ الْحَائِطِ بِكَثِيرٍ مِنْ نَفَادِ الصَّبْرِ مِثْلَ قُضَاةٍ
بَشَرِيِّينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ، وَقَدْ جَلَسُوا مُنْذُ الصَّبَاحِ، أَنْ يَمْنَعُوا الْحُلْمَ بِالْغَدَاءِ، مَعَ الْأُسْرَةِ
وَهُمْ فِي نِعَالِهِمِ الْمَنْزِلِيَّةِ الْأَثِيرَةِ. وَإِذَا مَا كَانَ ثَمَّةَ قَلِيلٍ مِنَ التَّسْرُعِ وَالْمُخَاطَرَةِ، فِي
الْعَدَالَةِ فَوْقَ الطَّبِيعِيَّةِ، فَلَنْ تَنْدَهَشَ أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ أحيانًا فِي الْعَدَالَةِ الْبَشَرِيَّةِ. فَفِي هَذِهِ
النَّحَالَةِ، سَنَكُونُ - نَحْنُ أَنْفُسَنَا - قُضَاةَ ظَالِمِينَ.

هَكَذَا وَقَعَتْ - فِي هَذَا الْيَوْمِ - بَعْضُ الْهَفَوَاتِ الَّتِي يُمكنُ اعْتِبَارُهَا غَرِيبَةً، فِيمَا لَوْ
كَانَتْ الْحَصَافَةُ، لَا التَّقَلُّبُ، هِيَ السَّمةُ الْمُمَيِّزَةُ الثَّابِتَةُ لِلْجِنِّيَّاتِ.

وَهَكَذَا، مُنِحَتْ الْقُدْرَةُ عَلَى اجْتِدَابِ الثَّرْوَةِ مِغْنًا طَبِيعِيًّا إِلَى الْوَرِثَةِ الْوَحِيدِ لِأُسْرَةٍ
بَالِغَةِ الثَّرَاءِ، وَهُوَ - إِذْ لَا يَتَحَلَّى بِأَيِّ إِحْسَاسٍ بِالْإِحْسَانِ، وَلَا آيَةَ رَغْبَةٍ فِي الْخَيْرَاتِ
الْوَاضِحَةِ لِلْحَيَاةِ - سَيَنْتَهِي إِلَى أَنْ يَجِدَ نَفْسَهُ - بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ - مُرَبِّيكًا بِشَكْلِ
عَجِيبٍ بِمَلَأِيْنِهِ.

وَكَذَلِكَ مُنِحَ حُبُّ الْجَمِيلِ وَالْقُدْرَةُ الشَّعْرِيَّةُ إِلَى ابْنِ فَقِيرٍ يُرَى لَهُ، حَجَّارٍ بِحُكْمِ
هَيْئَتِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ - بِأَيَّةِ حَالٍ - دَعْمَ الْمَلَكَاتِ، وَلَا التَّخْفِيفَ مِنْ احتِياجَاتِ ابْنِهِ
الْمُحْزَنِ.

نَسِيتُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ إِنَّ التَّوْزِيعَ، فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ الْمَهِيَّةِ، يَتِمُّ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ، وَلَا
يُمْكِنُ رَفْضُ آيَةٍ مُوهِبَةٍ.

وَقَعَتْ جَمِيعُ الْجِنِّيَّاتِ، مُعْتَقِدَاتٍ أَنَّ عَمَلَهُنَّ الشَّاقَّ قَدْ انْتَهَى؛ فَلَمْ تَعُدْ هُنَاكَ آيَةُ
هَدِيَّةٍ، وَلَا آيَةُ هِبَةٍ لِيُرْمَى إِلَى هَذَا السَّمَكِ الصَّغِيرِ الْإِنْسَانِي، عِنْدَمَا نَهَضَ رَجُلٌ شُجَاعٌ،
تَاجِرٌ صَغِيرٌ فَقِيرٌ، فِيمَا أَظُنُّ، وَأَمْسَكَ بِأَقْرَبِ جَنِيَّةٍ إِلَيْهِ مِنْ ثَوْبِهَا ذِي الْأَبْحَرَةِ مُتَعَدِّدَةً
الْأَلْوَانِ، وَصَاحَ:

«إِيه! سَيِّدَتِي! لَقَدْ نَسِيتُمُونَا! هُنَاكَ أَيْضًا صَغِيرِي! وَأَنَا لَمْ أَجِئْ إِلَى هُنَا مِنْ أَجْلِ لَا
شَيْءٍ».

كَانَ لِلْجِنَّةِ أَنْ تَشْعُرَ بِالْإِرْتِبَالِ؛ لِأَنَّ لَهَا شَيْءًا قَدْ تَبَقَّى. وَمَعَ ذَلِكَ، فَهِيَ تَتَذَكَّرُ - فِي الْحَالِ - قَانُونًا شَهِيرًا، وَإِنْ لَمْ يُطَبَّقْ إِلَّا نَادِرًا، فِي الْعَالَمِ فَوْقَ الطَّبِيعِيِّ، الْمَاهُولِ بِهَذِهِ الْأَلَهَةِ الْأُسْطُورِيَّةِ غَيْرِ الْمَحْسُوسَةِ، أَصْدِقَاءَ الْإِنْسَانِ، الْمَدْفُوعِينَ - فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ - إِلَى التَّوَافُقِ مَعَ أَهْوَائِهِ، مِنْ قَبِيلِ الْجِنِّيَّاتِ، وَالْعَفَارِيَّتِ، وَالسَّمْنَدَلَاتِ، وَالسُّلْفَاتِ، وَالسُّلَفِ، وَخُورِيَّاتِ الْمَاءِ، وَخُورِيَّاتِ الْبَحْرِ وَذُكُورِهِنَّ - أَقْصَدُ الْقَانُونَ الَّذِي يَمْنَحُ لِلْجِنِّيَّاتِ، فِي الْحَالَةِ الشَّبِيهِةِ بِهَذِهِ، أَيْ: حَالَةِ اسْتِنْفَادِ الْحِصَصِ، الْقُدْرَةَ عَلَى مَنَحٍ وَاحِدَةٍ أُخْرَى، إِضَافِيَّةً وَاسْتِثْنَائِيَّةً، شَرِيطَةً أَنْ تَمْتَلِكَ - فِي ذَلِكَ - الْخِيَالِ الْكَافِي لِخَلْقِهَا حَالًا

وَهَكَذَا، أَجَابَتِ الْجِنِّيَّةُ الطَّيِّبَةُ، بِرَبَاطَةِ جَاشٍ جَدِيرَةٍ بِمَكَائِنِهَا: «إِنِّي أُمْنَحُ طِفْلَكَ.. أُمْنَحُهُ.. مَوْهَبَةَ الْإِمْتِنَاعِ!».

«لَكِنْ كَيْفَ الْإِمْتِنَاعُ؟ الْإِمْتِنَاعُ..؟ لِمَاذَا الْإِمْتِنَاعُ؟»، بِعِنَادٍ سَأَلَ الْبَقَالُ الصَّغِيرُ، الَّذِي كَانَ بِلاَ شَكٍّ أَحَدَ هَؤُلَاءِ الْعُقَلَاءِ الشَّائِعِينَ، الْعَاجِزِينَ عَنِ الْارْتِقَاءِ إِلَى مَنْطِقِ الْعَبَثِ.

«لَآنَ ! لَآنَ !»، رَدَّتِ الْجِنِّيَّةُ الْغَاضِبَةُ، وَهِيَ تُدِيرُ ظَهْرَهَا لَهُ؛ وَفِيمَا كَانَتْ تَلْتَحِقُ بِمَوْكِبِ رَفِيقَاتِهَا، قَالَتْ لَهُمْ: «كَيْفَ تَرَوْنَ هَذَا الْفَرَنْسِيَّ الصَّغِيرَ الْمُخْتَالِ، الَّذِي يُرِيدُ فَهْمَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالَّذِي يَتَجَرَّأُ أَيْضًا - بَعْدَ حُصُولِهِ عَلَى أَفْضَلِ نَصِيبٍ لَابْنِهِ - عَلَى الْإِعْتِرَاضِ وَمُنَاقَشَةِ مَا لَا يُنَاقَشُ؟».

الإغواءات

أو إيروس وبلوتوس^(١) والمجد

في اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ، تَسَلَّقَ شَيْطَانَانِ رَائِعَانِ وَشَيْطَانَةً، لَا تَقِلُّ عَنْهُمَا فِتْنَةً، السَّلَامُ
الْغَامِضُ الَّذِي يَقُومُ الْجَحِيمُ مِنْ خِلَالِهِ بِافْتِحَامٍ وَهِنْ الْإِنْسَانِ النَّائِمِ، وَيَتَوَاصَلُ مَعَهُ
فِي السَّرِّ. جَاءُوا وَحَطُّوا بِفَخَارِ أَمَامِي، وَاقِفِينَ مِثْلَمَا عَلَى مِنْبَرٍ. كَانَتْ رَوْعَةٌ كِبَرِيَّةٌ
تَفُوحُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ الثَّلَاثَةِ، الَّذِينَ بَرَزُوا هَكَذَا عَلَى أَرْضِيَّةِ اللَّيْلِ الْمُعْتَمَةِ.
كَانَتْ لَهُمْ سِيَمَاءٌ مُخْتَالَةٌ وَمُفَعَّمَةٌ بِالسَّطُورَةِ، حَتَّى إِنِّي اعْتَقَدْتُ - لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى - أَنَّ
الثَّلَاثَةَ آلِهَةٌ حَقِيقِيَّةٌ.

كَانَ وَجْهُ الشَّيْطَانِ الْأَوَّلِ مِنْ جِنْسٍ غَامِضٍ، وَيَنْطَوِي أَيْضًا - فِي خُطُوطِ جَسَدِهِ
- عَلَى رِخَاوَةِ الْبَاخُوسِيِّينَ^(٢) الْقَدَمَاءَ. وَعَيْنَاهُ الْجَمِيلَتَانِ الْفَاتِرَتَانِ، بِلُونُهُمَا الْقَاتِمِ
الْمُلْتَبِسِ، كَانَتَا تُشْبِهَانِ بِنَفْسَجَتَيْنِ مَا تَرَا لَانَ مُثْقَلَتَيْنِ بِدُمُوعٍ ثَقِيلَةٍ لِعَاصِفَةٍ، وَشَفَتَاهُ
تَنْفَرِجَانِ عَنْ مَجَامِرِ بَخُورٍ سَاحِنَةٍ، مِنْهَا يَضُوعُ الْأَرِيحُ الْجَمِيلُ لِدُكَانِ عُطُورٍ؛ وَكُلَّمَا
تَنَهَّدَ، كَانَتْ حَشَرَاتٌ مِسْكِيَّةٌ تُضِيءُ، وَهِيَ تَتَطَايَرُ، فِي تَوْقُدِ أَنْفَاسِهِ.

وَحَوْلَ رِدَائِهِ الْأَرْجُوانِ، كَانَتْ أَفْعَى لَامِعَةٌ مُلْتَفَّةٌ، عَلَى شَكْلِ حِرَامٍ، وَرَأْسُهَا
مَرْفُوعَةٌ، تُدِيرُ فِي فُتُورٍ إِلَيْهِ عَيْنَيْهَا الْمُتَفِدَّتَيْنِ. مِنْ هَذَا الْحِرَامِ الْحَيِّ كَانَتْ تَنْدَلِّي

(١) إيروس: إله الحب لدى اليونان؛ بلوتوس: إله الثراء.

(٢) نسبة إلى «باخوس» الإله اللاتيني للخمر (ديونيسوس، لدى اليونانيين القدماء).

سَكَكَيْنُ لَامِعَةٌ وَأَدَوَاتُ جِرَاحِيَّةٌ، بِالتَّائِبِ مَعَ قَوَارِيرَ مَلِيَّةٍ بِمَشْرُوبَاتٍ مَسْثُومَةٍ. وَكَانَ يُمَسِّكُ بِيَدِهِ الثُّمْنَى قَارُورَةً أُخْرَى تَحْتَوِي مَادَّةَ حَمْرَاءَ سَاطِعَةٍ، وَتَحْمِلُ مُلْصَقًا عَلَيْهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْغَرِيبَةُ: «اشْرَبُوا، إِنَّهُ دَمِي، مَشْرُوبٌ مُنْشِطٌ تَمَامًا»؛ وَفِي الْيُسْرَى، آلَةٌ كَمَا نِ كَانَ يَسْتَخْدِمُهَا بِلَا شَكٍّ فِي غِنَاءِ مَبَاهِجِهِ وَالْأَمَةِ، وَفِي نَشْرِ عَدَوِي جُنُونِهِ فِي لِيَالِي مُحْفَلِ السَّبْتِ^(١)

وَفِي عُرْفُونِيهِ النَّحِيلَيْنِ، كَانَتْ تَتَجَرَّجُرُ بَضْعُ حَلَقَاتِ سِلْسِلَةٍ ذَهَبِيَّةٍ مَقْطُوعَةٍ، وَعِنْدَمَا تُعْرِقُلهُ فَتُجْبِرُهُ عَلَى تَوَجِّهِ نَظَرِهِ إِلَى الْأَرْضِ، كَانَ يَتَمَلَّى فِي رَهْوِ أَظْفَارِ قَدَمَيْهِ، اللَّامِعَةِ وَالصَّقِيلَةِ مِثْلَ أَحْجَارٍ مُشْدَبَةٍ.

لَمَحَنِي بِعَيْنَيْهِ الْحَزِينَتَيْنِ بِلَا عَزَاءٍ، وَمِنْهُمَا كَانَتْ تَفِيضُ نَشْوَةَ مُحَاتِلَةٍ، وَقَالَ لِي بِصَوْتٍ غِنَائِي: «إِنْ أَرَدْتُ، إِنْ أَرَدْتُ، سَأَجْعَلُ مِنْكَ سَيِّدَ الْأَرْوَاحِ، وَسَتَكُونُ سَيِّدَ الْمَادَّةِ الْحَيَّةِ، بِأَكْثَرِ مِمَّا يُمَكِّنُ لِلْمَثَالِ أَنْ يَكُونَ سَيِّدًا عَلَى الصَّلْصَالِ؛ وَسَتَعْرِفُ الْمُتَمَتُّعَةَ الْمُتَجَدِّدَةَ أَبَدًا، لِلخُرُوجِ مِنْ ذَاتِكَ لِتَنْسَى نَفْسَكَ فِي الْآخَرِينَ، وَلَا جِنْدَابِ الْأَرْوَاحِ الْأُخْرَى حَتَّى الْاِمْتِزَاجِ بِرُوحِكَ».

أَجَبْتُ عَلَيْهِ: «شُكْرًا جَزِيلًا! فَلَا أَمْلِكُ مَا أَفْعَلُهُ بِهِذِهِ الْكَائِنَاتِ الرَّخِيصَةِ الَّتِي - بِلَا شَكٍّ - لَا قِيَمَةَ لَهَا أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِي الْبَائِسَةِ. رَغِمَ أَنِّي أَسْتَشْعِرُ الْخِزْيَ مِنَ التَّذَكُّرِ، إِلَّا أَنِّي لَا أُرِيدُ النَّسْيَانَ أَبَدًا؛ وَرَغِمَ أَنِّي لَمْ أَعْرِفْكَ، أَيُّهَا الْمَسْنُخُ الْعَجُوزُ، فَإِنَّ تِرْسَانَةَ سَكَكَيْنِكَ الْغَامِضَةِ، وَقَوَارِيرَكَ الْمُبْهَمَةَ، وَالسَّلَاسِلَ الَّتِي تُعْرِقُ قَدَمَيْكَ، لَهِيَ رُمُوزٌ تَكْشِفُ بَوْضُوحَ كَافٍ عَوَاقِبَ صَدَاقَتِكَ. فَلْتَحْفَظْ بِهَذَاكَ».

لَمْ تَكُنْ لِلشَّيْطَانِ الثَّانِي هَذِهِ السِّيمَاءُ الْمَاسَاوِيَّةُ وَالْبَاسِمَةُ فِي آنٍ، وَلَا هَذِهِ الطَّرَائِقُ الْمُغْوِيَّةُ، وَلَا هَذَا الْجَمَالَ الرَّهِيْفُ الْمُعْطَرُ. كَانَ شَخْصًا ضَخْمًا، وَجْهُهُ كَبِيرٌ بِلَا عُيُونٍ، وَكَرْسُهُ الثَّقِيلُ كَانَ يَقِيضُ عَنِ الْفَخَذَيْنِ، وَكَانَ جِلْدُهُ كُلُّهُ مَذْهَبًا وَمُرْخَرَفًا، مِثْلَ الْوَشْمِ، بِحَشْدٍ مِنْ شُخُوصٍ صَغِيرَةٍ مُتَحَرِّكَةٍ تُمَثِّلُ الْأَشْكَالَ الْعَدِيدَةَ لِلْبُؤْسِ الْكُونِي. كَانَ مِنْ بَيْنِهَا أَنْاسٌ قِصَارٌ مَهْزُولُونَ مُعْلَقُونَ - عَنْ رِضَى - فِي مِسْمَارٍ؛ وَكَانَ هُنَاكَ

(١) اجتماع ليلى للسحرة في القرون الوسطى.

عَفَارِيْتُ صِغَارٍ مُسَوَّهُونَ، عَجَافٌ، وَعُيُونُهُمُ الصَّارِعَةُ تَسْتَجِدِي الصَّدَقَةَ بِأَفْضَلِ مِمَّا
تَفْعَلُ أَيَادِيهِمُ الْمُرتَجِفَةُ؛ ثُمَّ أُمَهَّاتٌ عَجَائِزٌ يَحْمِلْنَ أَجِنَّةً مُجَهَّضِينَ مُتَشَبِّهِينَ بِأُنْدَانِهِنَّ
السَّقِيمَةِ. كَانَ هُنَاكَ أَيْضًا الْكَثِيرُ وَالْكَثِيرُ.

كَانَ الشَّيْطَانُ الضَّخْمُ يَضْرِبُ بِقَبْضَتِهِ عَلَى بَطْنِهِ الْهَائِلَةِ، فَتَصْدُرُ مِنْهَا صَلَصَلَةٌ
مَعْدِنِيَّةٌ رَنَانَةٌ طَوِيلَةٌ، تَنْتَهِي بِعَوِيلٍ مُبْهِمٍ مِنْ أَصْوَاتِ إِنْسَانِيَّةٍ عَدِيدَةٍ. وَضَحِكَ - كَاشِفًا
بُوقَاحَةَ أَسْنَانِهِ الْمُهْتَرَّةِ - ضِحْكَةً هَائِلَةً بَلْهَاءَ، كَبَعُضِ الرِّجَالِ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ عِنْدَمَا
يَتَخِمُونَ أَنْفُسَهُمْ.

وَقَالَ لِي: «يُمْكِنُنِي مَنْحُكَ مَا يَسْتَحْوِذُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، مَا يُسَاوِي كُلَّ شَيْءٍ، مَا يَحِلُّ
مَحَلَّ أَيِّ شَيْءٍ!». وَضَرَبَ عَلَى بَطْنِهِ الرَّهِيْبَةِ، فَكَانَ صَدَاهَا الصَّوْتِيُّ تَغْلِيْقًا عَلَى كَلَامِهِ
الْفُظ.

اسْتَدْرْتُ فِي اسْمِئْزَارٍ، وَأَجَبْتُ: «لَسْتُ بِحَاجَةٍ - مِنْ أَجْلِ بَهْجَتِي - إِلَى بُوسٍ أَحَدٍ؛
وَلَا أُرِيدُ ثَرَاءً مَغْمُومًا، مِثْلَ وَرَقَةِ الْحَائِطِ، بِكُلِّ التَّعَاسَاتِ الْمَرْسُومَةِ عَلَى جِلْدِكَ».

أَمَّا الشَّيْطَانَةُ، فَسَأَكُونُ كَادِبًا إِنْ لَمْ أَعْتَرِفْ أَنَّي وَجَدْتُ فِيهَا - مِنَ النَّظَرَةِ الْأُولَى
- سِحْرًا غَرِيبًا. وَلِتَحْدِيدِ هَذَا السَّحْرِ، فَلَنْ أَسْتَطِيعُ تَشْبِيْهَهُ بِأَفْضَلِ مِنْ سِحْرِ النِّسَاءِ
الْفَاتِنَاتِ فِي سِنِّ الْيَاسِ، اللَّائِي - رَغْمَ ذَلِكَ - لَا تُدْرِكُهُنَّ الشَّيْخُوخَةُ، وَيَحْفَظُ
جَمَالُهُنَّ بِالسَّحْرِ الَّذِي يَتَغَلَّغُلُ فِي الْأَطْلَالِ. كَانَ لَهَا - فِي آيٍ - سِيْمَاءٌ صَلَفَةٌ وَمُتَخَلِّعَةٌ،
وَعَيْنَاهَا - رَغْمَ أَنَّهْمَا مُتَعَبَتَانِ - تَحْتَوِيَانِ قُوَّةَ أَسْرَةٍ. وَأَكْثَرَ مَا أَذْهَشَنِي، ذَلِكَ الْغُمُوضُ
فِي صَوْتِهَا، الَّذِي اسْتَعَدْتُ فِيهِ ذِكْرَى أَشْهَى الْأَصْوَاتِ النِّسَائِيَّةِ الرَّنَانَةِ، وَأَيْضًا الْقَلِيلِ
مِنْ بَحَّةِ الْحَنَاجِرِ الْمَغْسُولَةِ أَبَدًا بِالْحَمْرِ.

«أَتُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ قُدْرَتِي؟»، قَالَتْ الْإِلَهَةُ الزَّائِفَةُ بِصَوْتِهَا السَّاحِرِ وَالْمُلْتَبِسِ.
«أَنْصِتْ».

وَهَكَذَا تَفَخَّتْ بُوقًا هَائِلًا، مُحَلَّى - مِثْلَ مِزْمَارٍ - بِشَرَائِطٍ تَحْمِلُ عَنَاقِينَ جَمِيعِ جَرَائِدِ

الْكُونِ، وَخِلَالَ هَذَا الْبُوقِ صَاحَتْ بِاسْمِي، الَّذِي تَحَدَّرَ بِذَلِكَ عَبْرَ الْفَضَاءِ بِصَوْتِ مِائَةِ
أَلْفِ رَعْدٍ، لِيَرْتَدَّ إِلَيَّ مِنْ صَدَى أَبْعَدِ الْكَوَائِبِ.

«اللَّعْنَةُ!»، قُلْتُ، مَفْتُونًا بَعْضَ الشَّيْءِ، «ذَلِكَ هُوَ الشَّيْءُ الثَّمِينُ!». لَكِنْ - لَدَى
تَمَعُّنِي بِانْتِبَاهٍ أَكْبَرَ فِي الْمَرْأَةِ الْمُغْوِيَةِ - بَدَأَ لِي بِغُمُوضٍ أَنِّي كُنْتُ أَعْرِفُهَا لِأَنِّي رَأَيْتُهَا
تَشْرَبُ الْخَمْرَ مَعَ بَعْضِ التَّافِهِينَ مِنْ مَعَارِفِي؛ وَجَاءَ الصَّوْتُ النُّحَاسِيُّ الْمُبْحُوحُ إِلَيَّ
أَذْنِي بِمَا لَا أَذْرِي مِنْ ذِكْرَى نَافِخَةِ بُوقٍ عَاهِرَةٍ.

وَبِالتَّالِي، أَجَبْتُ بِكُلِّ اسْتِخْفَافٍ: «أَذْهَبِي عَنِّي! فَلَسْتُ مُسْتَعِدًّا لِلزَّوْاجِ مِنْ عَشِيقَةٍ
بَعْضٍ مَن لَا أُرِيدُ التَّلَفُّظَ بِأَسْمَائِهِمْ».

وَبِالتَّأَكِيدِ، كَانَ لَدَيَّ الْحَقُّ فِي التَّبَاهِي بِمِثْلِ هَذِهِ التَّضْحِيَةِ الشُّجَاعَةِ. لَكِنِّي لِسُوءِ
الْحِظِّ اسْتَيْقَظْتُ، وَتَخَلَّتْ عَنِّي جَمِيعُ قَوَائِي. «فِي الْحَقِيقَةِ، قُلْتُ لِنَفْسِي، لِأَبَدٍ أَنِّي
كُنْتُ أَعْطُ فِي نَوْمِ عَمِيقٍ لِأَبْدِي مِثْلَ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ. آه! فَلَوْ أَمَكَّنَ لَهُمُ الْعَوْدَةَ خِلَالَ
يَقَظَّتِي، لَمَا كُنْتُ مُرْهَفَ الْحَسَاسِيَةِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ!».

وَدَعَوْتُهُمْ بِصَوْتٍ عَالٍ، رَاجِيًا مِنْهُمْ قَبُولَ اعْتِدَارِي، عَارِضًا عَلَيْهِمْ أَنْ أَتَسَرَّبَلَ بِالْعَارِ
بِمَا يَكْفِي لَأَسْتَحِقَّ أَفْضَالَهُمْ؛ لَكِنِّي - بِلَا شَكٍّ - أَهَنْتُهُمْ بِقُوَّةٍ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا أَبَدًا.

غسق المساء

النَّهَارُ يَنْحَدِرُ. سَكِينَةٌ عَظِيمَةٌ تَحُلُ فِي الْأَذْهَانِ الْبَائِسَةِ الْمُتَعَبَةِ مِنْ عَنَاءِ الْيَوْمِ؛ وَتَتَّخِذُ أَفْكَارُهُمُ الْآنَ أَلْوَانَ الْغَسَقِ الْمُرْهَفَةِ الْمُبْهَمَةِ.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَمِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ يَأْتِي إِلَى شُرَفَتِي، عَبْرَ غُيُومِ الْمَسَاءِ الشَّفَافَةِ، عَوِيلٌ عَظِيمٌ مِنْ حَشْدٍ صَرَخَاتٍ مُتَنَافِرَةٍ، يُحَوِّلُهُ الْفَضَاءُ إِلَى إِيقَاعٍ كَثِيبٍ، مِثْلَ إِيقَاعِ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ الْمُتَصَاعِدِ أَوْ إِيقَاعِ عَاصِفَةٍ تَصْحُو.

فَمَنْ التَّعَسَّاءُ الَّذِينَ لَا يَبِثُّ الْمَسَاءُ فِيهِمُ السَّكِينَةَ، وَالَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ مَقْدِمَ اللَّيْلِ - مِثْلَ الْيَوْمِ - شَارَةً لِمَحْفَلِ السَّبْتِ؟ هَذَا النَّعِيقُ الْمَشْتُومُ يَصِلُ إِلَيْنَا مِنَ الْوَكْرِ الْكَثِيبِ الْقَابِعِ عَلَى الْجَبَلِ؛ وَفِي الْمَسَاءِ، أَثْنَاءَ التَّدْخِينِ وَتَأْمُلِ سُكُونِ الْوَادِي الرَّجِيبِ، الْمَحْفُوفِ بِالْمَنَازِلِ الَّتِي تَقُولُ كُلُّ نَافِذَةٍ فِيهَا: «هَـ هَـ هَـ السَّلَامُ الْآنَ؛ هَـ هَـ هَـ بَهْجَةُ الْعَائِلَةِ!»، أَسْتَطِيعُ - عِنْدَمَا تَهْبُّ الرِّيحُ فِي الْأَعَالِي - هَذِهِدَةً فِكْرِي الْحَائِرِ عَلَى نَسَقِ إِيقَاعَاتِ الْجَجِيمِ.

يَسْتَشِيرُ الْغَسَقُ الْمَخْبُولِينَ. - أَذْكُرُ صَدِيقَيْنِ لِي كَانَ الْغَسَقُ يُحِيلُهُمَا تَمَامًا إِلَى مَرْضَى. أَحَدُهُمَا كَانَ آتِنْدُ يُنْكَرُ جَمِيعَ عِلَاقَاتِ الصَّدَاقَةِ وَاللَّبَاقَةِ، وَيُهِنُّ - مِثْلَ هَمَجِي - أَوَّلَ قَادِمٍ. رَأَيْتَهُ يَقْذِفُ رَأْسَ رَئِيسِ الْخَدَمِ فِي فُنْدُقٍ بِدَجَاجَةٍ مُمْتَازَةٍ، ظَنَّ أَنَّهُ رَأَى فِيهَا مَا لَا أَذْرِي مِنْ إِحْيَاءٍ مُهِينٍ. وَكَانَ الْمَسَاءُ، الْبَشِيرُ بِشَهَوَاتٍ عَمِيقَةٍ، يُفْسِدُ عَلَيْهِ أَشْهَى الْأَشْيَاءِ.

وَالْآخَرُ، وَهُوَ شَخْصٌ طَمُوحٌ مُهَانَ، كَانَ - كُلَّمَا انْحَدَرَ النَّهَارُ - يَزْدَادُ سَلَاطَةً لِسَانٍ

وَكَاثِبَةً وَنَكَدًا. فَخِلَالَ النَّهَارِ يَكُونُ حَلِيمًا وَاجْتِمَاعِيًّا أَيْضًا، فِيمَا كَانَ يُضْبِحُ فُظًّا فِي الْمَسَاءِ؛ وَلَمْ يَكُنْ يُمَارِسُ بِيَحْنَتِ هَوَاهُ الْغَسَقِيَّ ضِدَّ الْآخَرِينَ فَحَسَبَ، بَلْ أَيْضًا ضِدَّ نَفْسِهِ.

الْأَوَّلُ ثَوْفِي مَجْنُونًا، عَاجِزًا عَنِ التَّعَرُّفِ عَلَى زَوْجَتِهِ وَطِفْلِهِ؛ وَالْآخِرُ حَمَلٌ دَاخِلُهُ قَلَقٌ انْجِرَافِ الْمِرَاجِ الدَّائِمِ، وَحَتَّى لَوْ مُنِحَ جَمِيعَ الْأَمْجَادِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَكْتَسِبَهَا الْعَامَّةُ وَالْأُمَرَاءُ، فَأَظُنُّ أَنَّ الْغَسَقَ كَانَ سَيُسْعِلُ دَاخِلَهُ الشَّهْوَةُ الْمُضْطَرِمَّةُ إِلَى التَّسَامِي الْخَيَالِي. وَاللَّيْلُ، ذَلِكَ الَّذِي يَرْمِي بِظُلُمَاتِهِ فِي أَرْوَاحِهِمْ، يُسْعِلُ الضُّوءَ فِي رُوحِي؛ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّادِرِ رُؤْيَا نَفْسِ السَّبَبِ تَتَمَخَّضُ عَنْهُ نَتِيجَتَانِ مُتَنَاقِضَتَانِ، فَإِنِّي دَائِمًا مُتَحَيِّرٌ فِي ذَلِكَ وَقَلِقٌ.

أَيُّهَا اللَّيْلُ! أَيُّهَا الظُّلُمَاتُ الْمُنْعِشَةُ! أَنْتِ بِالنِّسْبَةِ لِي شَارَةٌ اخْتِفَالٍ دَاخِلِيٍّ، أَنْتِ الْخَلَاصُ مِنَ الْعَذَابِ! وَفِي عُزْلَةِ السُّهُولِ، فِي الْمَتَاهَاتِ الْحَجَرِيَّةِ لِلْعَاصِمَةِ، وَوَمِيزِ النُّجُومِ، وَفَرْقَعَةِ الْقَنَادِيلِ، أَنْتِ الْأَلْعَابُ النَّارِيَّةُ لِلْإِلَهَةِ الْحُرِّيَّةِ!

أَيُّهَا الْغَسَقُ، كَمْ أَنْتَ عَذْبٌ وَحَنُونٌ! الْوَمَضَاتُ الْوَرْدِيَّةُ الَّتِي مَا تَزَالُ تَنْسَجِبُ عَلَى الْأَفُقِ كَاخْتِضَارِ النَّهَارِ تَحْتَ الطُّغْيَانِ الظَّافِرِ لِلَّيْلِ، وَشُعَلَاتُ الشَّمْعِدَانِ الَّتِي تَتْرُكُ بَقَعًا حُمْرَاءَ دَاكِنَةٍ عَلَى أَمْجَادِ الْغُرُوبِ الْأَخِيرَةِ، وَسَتَائِرُ الْجُوحِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي تَسْحَبُهَا يَدُ لَامَرِيَّةٍ مِنْ أَعْمَاقِ الشَّرْقِ، تُحَاكِي جَمِيعَ الْأَحَاسِيسِ الْمُعَقَّدَةِ الَّتِي تَتَصَارَعُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ فِي السَّاعَاتِ الْمَهِيْبَةِ لِلْحَيَاةِ.

وَيُقَالُ إِنَّهُ أَيْضًا أَحَدُ هَذِهِ الْأَثْوَابِ الْغَرِيبَةِ لِلرَّاقِصَاتِ، حَيْثُ الْأَسْتَارُ الشَّفَافَةُ الدَّاكِنَةُ تَشْفُ عَنْ الرَّوَائِعِ النَّافِذَةِ لِتَنُورَةِ مُثَلَّثَاتِهِ، مِثْلَمَا يَنْفُذُ الْمَاضِي الشَّهْيُ خِلَالَ الْحَاضِرِ الْأَسْوَدِ؛ وَالنُّجُومُ الْمَتَذَبِّذَةُ الذَّهَبِيَّةُ وَالْفِضِّيَّةُ، الَّتِي تُبْرِقُشُهُ، تُمَثِّلُ نِيرَانَ الْخَيَالِ الَّتِي لَا تَسْتَعِيلُ إِلَّا فِي الْحِدَادِ الْعَمِيقِ لِلَّيْلِ.

العزلة

يَقُولُ لِي صَحْفِي مُجِبٌ لِلْبَسْرِ إِنَّ الْعُزْلَةَ سَيِّئَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ؛ وَتَأْيِيدًا لِفِكْرَتِهِ،
يَسْتَشْهِدُ لِي - شَأْنُ جَمِيعِ الْمُتَشَكِّكِينَ - بِأَقْوَالِ آبَاءِ الْكَنِيسَةِ.

أَعْرِفُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُحِبُّ ارْتِيَادَ الْأَمَاكِنِ الْقَاحِلَةِ، وَأَنَّ رُوحَ الْقَتْلِ وَالشَّبَقِ تَتَأَجَّجُ
فِي رَوْعَةٍ فِي الْعُزَلَاتِ. لَكِنَّ هَذِهِ الْعُزْلَةَ قَدْ لَا تَكُونُ خَطِيرَةً إِلَّا بِالنِّسْبَةِ لِلنَّفْسِ الْمُتَبَطِّلَةِ
الْهَائِمَةِ الَّتِي تَمْلَأُهَا (الْعُزْلَةُ) بِأَهْوَائِهَا وَخُرَافَاتِهَا.

وَالْمُؤَكَّدُ أَنَّ ثَرَاتَرًا، تَمَثَّلُ مُنْعَتُهُ الْأَسْمَى فِي الْكَلَامِ مِنْ فَوْقِ كُرْسِيِّ أَوْ مَنبَرٍ،
سَيَتَهَدَّدُهُ بِقُوَّةِ الْجُنُونِ الْعَاصِفُ فِي جَزِيرَةِ «رُوبِنْسُون». وَلَا أَطَالِبُ صَحْفِينَا بِفَضَائِلِ
كُرُوزِ الْجَسُورَةِ، لَكِنِّي أَدْعُوهُ إِلَى أَلَّا يُوجِّهَ اتِّهَامًا لِمُحِبِّي الْعُزْلَةَ وَالْغُمُوضِ.

فَفِي أَجْنَانِنَا الثَّرَاتَرَةِ، هُنَاكَ مَنْ سَيَقْبَلُونَ - بِقَلِيلٍ مِنَ الْمَضْضِ - أَقْصَى عَذَابٍ، فِيمَا
لَوْ سُمِحَ لَهُمْ بِالْقَاءِ خُطْبَةٍ عِصْمَاءَ مِنْ فَوْقِ مَنْصَةِ الإِعْدَامِ، دُونَ خَشْيَةِ أَنْ تَقْطَعَ طُبُولُ
الْعِلَادِ الْكَلَامَ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ.

لَا أَرْنِي لَهُمْ، لَأَنِّي أُدْرِكُ أَنَّ إِسْهَابَهُمُ الْخَطَابِيَّ يَمْنَحُهُمْ مُنْعَةً تُعَادِلُ الْمُتْعَةَ الَّتِي
يَسْتَمِدُّهَا آخَرُونَ مِنَ الصَّنَمِ وَالْتَأَمْلِ؛ لَكِنِّي أَحَقِّقُهُمْ.

أُرِيدُ - بِشَكْلِ خَاصٍّ مِنْ هَذَا الصَّحْفِيِّ اللَّعِينِ - أَنْ يَدْعِنِي أَسْتَمْعُ بِطَرِيقَتِي الْخَاصَّةِ.
«أَلَنْ تَسْتَشْعِرَ بِذَلِكَ أَبَدًا الْحَاجَّةَ إِلَى مُشَارَكَةِ الْآخَرِينَ فِي مَبَاهِجِكَ؟»، يَسْأَلُنِي، بِنَبَرَةٍ

بَابُويَّةٍ مُعْجَمَةٍ. أَتَرَوْنَ الْحَاسِدَ الْبَارِعَ! إِنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّنِي أَحَقَرُّ مَبَاهِجِهِمْ، وَيَأْتِي لِيُقْجِمَ
نَفْسَهُ فِي مَبَاهِجِي، هَذَا الْمُنْغَصُّ الْكَرِيهَ!

«إِنَّهَا لَتَعَاسَةُ كُبْرَى أَلَّا أَسْتَطِيعَ أَنْ أَكُونَ وَحِيدًا!..»؛ يَقُولُ «لَابُرُوبِير»^(١) فِي مَكَانٍ
مَا، كَأَنَّمَا لِيُوْنَبَ جَمِيعَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ إِلَى نَسْيَانِ أَنْفُسِهِمْ وَسَطَ الْجَمْعِ،
خَائِفِينَ - بِلَا شَكٍّ - مِنْ عَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى اخْتِمَالِ أَنْفُسِهِمْ.

«كُلُّ تَعَاسَاتِنَا - تَقْرِيْبًا - تَأْتِي مِنْ عَدَمِ قُدْرَتِنَا عَلَى الْبَقَاءِ فِي عُزْفَتِنَا»، يَقُولُ أَحَدُ
الْحُكَمَاءِ الْآخَرِينَ - «بَاسْكَال»، فِيمَا أَظُنُّ - مُسْتَدْعِيًا بِذَلِكَ إِلَى صَوْمَعَةِ التَّأْمُلِ كُلِّ
هَؤُلَاءِ الْمُخْبُولِينَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ عَنِ السَّعَادَةِ فِي الْحَرَكَةِ وَفِي دَعَاةٍ يُمَكِّنُ لِي أَنْ
أُسَمِّيَهَا أَخَوِيَّةً، إِذَا مَا أَرَدْتُ أَنْ أَتَحَدَّثَ اللُّغَةَ الْجَمِيلَةَ لِلْقَرْنِ.

(١) لَابُرُوبِير: أحد فلاسفة الأخلاق في القرن السابع عشر.

المشروعات

كَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ، وَهُوَ يَتَمَشَّى فِي حَدِيقَةٍ كَبِيرَةٍ مُنزَوِيَّةٍ: «كَمْ سَتَكُونُ جَمِيلَةً فِي ثَوْبٍ مَلَكِيٍّ، مُتَعَدِّ الْقِطْعِ وَمُتَرَفٍّ، وَهِيَ تَهْبِطُ، خِلَالَ جَوْ أُمْسِيَّةٍ جَمِيلَةٍ، دَرَجَاتٍ قَصِيرٍ مَرْمَرِيَّةٍ، نَحْوَ مُرُوجٍ وَبُحَيْرَاتٍ كُبْرَى! ذَلِكَ أَنَّ لَهَا - بِالطَّبِيعَةِ - سَمَتَ أَمِيرَةٍ».

لَدَى مُرُورِهِ فِيمَا بَعْدَ بِأَحَدِ الشَّوَارِعِ، تَوَقَّفَ أَمَامَ أَحَدِ مَحَلَّاتِ لَوْحَاتِ الْحَفْرِ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ، إِذْ عَثَرَ فِي وَرَقَةٍ كَرْتُونٍ عَلَى رَسْمٍ مَحْفُورٍ يُمَثِّلُ مَشْهَدًا اسْتَوَائِيًّا: «لَا! فَلَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتَمْتِعَ بِحَيَاتِهَا الْعَالِيَةِ فِي قَصْرِ. فَلَنْ نَكُونَ بِذَلِكَ فِي بَيْتِنَا. وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، فَهَذِهِ الْجُدْرَانُ الْمُوشَّاءُ بِالذَّهَبِ لَنْ تَتْرُكَ مَكَانًا لِتَعْلِيقِ صُورَتِهَا؛ فَفِي هَذِهِ الْمَعَارِضِ الْمِهْيَبَةِ، مَا مِنْ رُكْنٍ لِلْحَمِيمِيَّةِ. بِالتَّأَكُّيدِ، هُنَاكَ تَنْبَغِي السُّكْنَى لِتَحْقِيقِ حُلْمِ حَيَاتِي».

وَخِلَالَ انكِبَافِهِ عَلَى تَحْلِيلِ تَفَاصِيلِ الْحَفْرِ بِعَيْنَيْهِ، وَاصَلَ التَّفَكِيرَ: «عَلَى سَاطِئِ الْبَحْرِ، كُوخٌ خَشَبِيٌّ جَمِيلٌ، تَلْفُهُ جَمِيعُ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْعَجِيبَةِ الْمُضِيئَةِ الَّتِي نَسِيتُ أَسْمَاءَهَا... فِي الْجَوِّ أَرِيحٌ مُسَكَّرٌ، غَامِضٌ... فِي الْكُوخِ رَائِحَةٌ وَرْدٍ وَمِسْكٍ قَوِيَّةٌ... فِي الْأَبْعَدِ، وَرَاءَ بَيْتِنَا الصَّغِيرِ، أَطْرَافُ الصَّوَارِي تُؤَزِّجُهَا الْأَمْوَاجُ الصَّاخِبَةُ... وَحَوْلَنَا، فِيمَا وَرَاءَ الْغُرْفَةِ السَّاطِعَةِ بِضَوْءٍ وَرْدِيٍّ يَتَسَرَّبُ مِنَ السَّائِرِ الْمُزَخْرَفَةِ بِجَدَائِلِ نَدِيَّةٍ وَزُهُورٍ مُثِيرَةٍ، مَعَ مَقَاعِدَ نَادِرَةٍ مِنْ طَرَازِ الرُّكُوكُو الْبُرْتُغَالِيِّ، مِنْ خَشَبٍ ثَقِيلٍ وَدَاكِنٍ (حَيْثُ سَتَسْتَرِيحُ فِي سَكِينَةٍ تَمَامًا، فِي الْهَوَاءِ الطَّلَنِيِّ، وَهِيَ تُدَخِّنُ الطَّبَاقَ الْمَمْرُوجَ

بِقَلِيلٍ مِنْ أَفْيُونٍ!)، فِيمَا وَرَاءَ الشَّرْفَةِ، هُنَاكَ صَحْبُ الطُّيُورِ النَّشْوَانَةِ بِالصَّوْءِ، وَلَعَطُ زَنْجِيَّاتٍ صَغِيرَاتٍ... وَاللَّيْلُ، رَفِيقًا لِأَحْلَامِي، وَالْأُغْنِيَةُ النَّائِحَةُ لِأَشْجَارِ مُوسِيقِيَّةٍ، وَأَوْرَاقُ الْجَازُورِينَا الْحَزِينَةِ! حَقًّا، بِالْفِعْلِ، هَا هُنَا الدِّيكُورُ الَّذِي كُنْتُ أُنَبِّحُ عَنْهُ. فَمَاذَا أَفْعَلُ بِالْقُصُورِ؟»

وَفِي الْأَبْعَدِ، وَإِذْ سَلَكَ شَارِعًا كَبِيرًا، لَمَحَ فُنْدُقًا بِالْبَيْغِ النَّظَافَةِ، يُطْلُ مِنْ إِحْدَى نَوَافِذِهِ الْمُزِينَةِ بِسِتَائِرَ ذَاتِ وَشْيٍ هِنْدِيٍّ وَجِهَانٍ ضَاحِكَانِ. وَفِي الْحَالِ، يَقُولُ لِنَفْسِهِ: «لَا بُدَّ أَنْ عَقَلِي ضَالٌّ عَظِيمٌ إِذْ يَمْضِي لِيُنَبِّحَ فِي الْبَعِيدِ عَمَّا هُوَ قَرِيبٌ مِنِّي. فَالْمُتَعَةُ وَالسَّعَادَةُ تَتَحَقَّقَانِ فِي أَوَّلِ فُنْدُقٍ تُصَادِفُهُ، فِي فُنْدُقِ الصُّدْفَةِ، الطَّلُقِ فِي الشَّهْوَةِ. نَارٌ عَظِيمَةٌ، آيَةٌ خَزَفِيَّةٌ جَذَابَةٌ، عَشَاءٌ طَيِّبٌ، نَبِيذٌ لَازِعٌ، وَسَرِيرٌ شَاسِعٌ بِمُلَاءَاتٍ خَشِنَةٍ نَوْعًا مَا، لَكِنَّهَا جَدِيدَةٌ؛ هَلْ هُنَاكَ مَا هُوَ أَفْضَلُ؟»

وَعِنْدَ الْعُودَةِ وَحِيدًا إِلَى مَنْزِلِهِ، فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الَّتِي لَمْ تُصْبِحْ فِيهَا نَصَائِحُ الْحِكْمَةِ مُخْتَنِقَةً بَعْدُ بِفِعْلِ طَيْنِ الْحَيَاةِ الْخَارِجِيَّةِ، يَقُولُ لِنَفْسِهِ: «لَقَدْ اِمْتَلَكْتُ الْيَوْمَ، فِي الْحُلْمِ، ثَلَاثَةَ مَسَاكِينَ وَجَدْتُ فِيهَا مُتَعَةً مُتَسَاوِيَةً. فَلِمَاذَا أُرْغِمُ جَسَدِي عَلَى تَغْيِيرِ الْمَكَانِ، طَالَمَا أَنَّ رُوحِي تُسَافِرُ بِمَثَلِ هَذِهِ الْخِفَّةِ؟ وَمَا قِيَمَةُ تَحْقِيقِ الْمَشْرُوعَاتِ، طَالَمَا أَنَّ الْمَشْرُوعَ - فِي ذَاتِهِ - مُتَعَةٌ كَافِيَةٌ؟»

دُورُوتِيه الجميلة

السَّمْسُ تُصْلِي الْمَدِينَةَ بِأَشْعَتِهَا الرَّهِيبةِ الْعَمُودِيَّةِ؛ الرَّمْلُ يَخْطِفُ الْبَصَرَ وَالْبَحْرُ يَلْتَمِعُ. الْعَالَمُ الْمَذْهُولُ يَنْهَارُ فِي جُبْنٍ وَيَدْخُلُ الْقَيْلُولَةَ، قَيْلُولَةٌ تُمَثِّلُ نَوْعًا مِنْ مَوْتٍ عَذِيبٍ، يَسْتَمْتِعُ فِيهِ النَّائِمُ - شِبْهُ الْيَقِظِ - بِمَلَذَاتِ فَنَائِهِ.

لَكِنَّ «دُورُوتِيه»، الْقَوِيَّةَ الْمُخْتَالََّةَ مِثْلَ السَّمْسِ، تَتَقَدَّمُ فِي الشَّارِعِ الْمَهْجُورِ، الْكَائِنَ الْحَيَّ الْوَحِيدَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ تَحْتَ اللَّازُورِدِ الشَّاسِعِ، الَّذِي يُشْكَلُ فِي الضُّوءِ بُقْعَةً سَوْدَاءَ لَامِعَةٍ.

تَتَقَدَّمُ، وَهِيَ تُورِجِحُ فِي رَخَاوَةِ جَذْعِهَا النَّحِيلَ عَلَى رِدْفَيْهَا الْكَبِيرَيْنِ. وَثَوْبُهَا الْحَرِيرِيُّ الْمَخْبُوكُ، ذُو اللَّوْنِ الْوَرْدِيِّ الْفَاتِحِ، يَتَمَازِي بِحَيَوِيَّةٍ عَنْ حُلْكَةِ بَشَرَتِهَا وَيَسْبِكُ تَمَامًا قَوَامَهَا الطَّوِيلَ وَظَهَرَهَا الْغَائِرَ وَصَدْرَهَا الْمُشْرِيبَ.

مِظَلَّتُهَا الْحَمْرَاءُ، الَّتِي تُصَفِّي الضُّوءَ، تَعْكِسُ عَلَى وَجْهِهَا الدَّاكِنِ حُمْرَةَ دَمٍ مِنْ ظِلَالِهَا.

وَتَقْلُ شَعْرِهَا الْهَائِلَ، الضَّارِبَ إِلَى الزُّرْقَةِ، يَشْدُو إِلَى الْوَرَاءِ رَأْسَهَا الْمُرْهَفَةَ وَيَمْنَحُهَا سِيْمَاءَ ظَافِرَةٍ وَمُسْتَرْخِيَّةٍ. وَأَقْرَاطُ ثَقِيلَةٍ تُغَرَّدُ فِي السَّرَفِ فِي أُذُنَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ.

وَمِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ، يَرْفَعُ نَسِيمُ الْبَحْرِ طَرْفَ تَنُورَتِهَا الْمُتَطَايِرَةِ وَيُعَرِّي سَاقَهَا اللَّامِعَةَ الرَّائِعَةَ؛ وَقَدَمُهَا، الشَّبِيهَةُ بِأَقْدَامِ رَبَّاتٍ مِنَ الْمَرَمَرِ مِمَّنْ تَضُمُّهُنَّ مَتَاحِفُ أُورُوبَا، تَطْبَعُ

بِدِقَّةٍ شَكَّلَهَا عَلَى الرَّمْلِ النَّاعِمِ. ذَلِكَ أَنَّ «دُورُوتيه» فَاتِنَةٌ بِشَكْلِ عَجِيبٍ، إِلَى حَدِّ أَنْ مُتْعَةً كَوْنُهَا مَحَلَّ إعْجَابٍ تَتَغَلَّبُ لَدَيْهَا عَلَى الزَّهْوِ بِإِعْتَاقِهَا، وَلَآئِهَا حُرَّةٌ، فَهِيَ تَمْشِي حَافِيَةً.

هَكَذَا تَتَقَدَّمُ، فِي تَنَاعُجٍ، سَعِيدَةً بِالْحَيَاةِ وَمُبْتَسِمَةً ابْتِسَامَةً بَيَضَاءً، كَأَنَّهَا لَمْ حَتَّ عَلَى الْبُعْدِ فِي الْفَضَاءِ مِرَاةً تَعْكُسُ مَسِيرَهَا وَجَمَالَهَا.

وَفِي السَّاعَةِ الَّتِي تَتَنَبَّأُ فِيهَا حَتَّى الْكِلَابِ مِنَ الْأَلَمِ تَحْتَ الشَّمْسِ الَّتِي تَسْفَعُهُمْ، أَيُّ دَافِعٍ قَوِيٍّ إِلَى الْخُرُوجِ هَكَذَا يَخْفِزُ «دُورُوتيه» الْكَسُولَةَ، الْجَمِيلَةَ الْبَارِدَةَ مِثْلَ الْبُرُونِزِ؟

لِمَاذَا تَرَكْتَ كُوَحَهَا الصَّغِيرَ، الْمُرتَّبَ بِأَنَاقَةٍ، الَّذِي تَجْعَلُ مِنْهُ الزَّهْوُ وَالْجَدَائِلُ صَالُونَ سَيِّدَاتٍ مُكْتَمَلًا بِسَعْرِ زَهِيدٍ؛ حَيْثُ تَجِدُ مُتْعَةً كَبِيرَةً فِي تَمْشِيهِ شَعْرِهَا، فِي التَّدْخِينِ، فِي التَّرْوِيجِ عَلَى نَفْسِهَا أَوْ مُشَاهَدَةِ نَفْسِهَا فِي الْمِرَاةِ بِمَرَاوِحِهَا الرَّيشِ الْكَبِيرَةِ، فِيمَا الْبَحْرُ - الَّذِي يَضْرِبُ الشَّاطِئَ عَلَى بُعْدِ مَائَةِ خُطْوَةٍ مِنْ هُنَا - يُشَكِّلُ لِأَحْلَامٍ يَقْظَتُهَا الْمُتَبَهِّمَةُ صَوْتًا مُصَاحِبًا قَوِيًّا وَرَتِيًّا، وَالْقَدْرُ الْحَدِيدِيُّ الَّذِي تَطْهُو فِيهِ يَخْنَةُ السَّرَاطِينِ بِالْأُرْزِ وَالزَّرْعَرَانِ، يَبْعَثُ إِلَيْهَا - مِنْ أَعْمَاقِ الْفَنَاءِ - رَوَائِحَهُ الْمُثِيرَةَ؟

رُبَّمَا كَانَتْ عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ ضَابِطٍ شَابٍّ، سَمِعَ - عَلَى شَوَاطِئِ بَعِيدَةٍ - رُمْلَاءَهُ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ «دُورُوتيه» الشَّهِيرَةِ. بِالتَّأَكُّيدِ، سَتَرَجُوه، هِيَ الْكَائِنُ الْبَسِيطُ، أَنْ يَصِفَ لَهَا حَفْلَ الْأُوبرَا الرَّاقِصِ، وَتَسْأَلُهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْمُمَكِّنِ الذَّهَابُ إِلَيْهِ بِقَدَمَيْنِ حَافِيَتَيْنِ، مِثْلَمَا فِي رَقَصَاتِ الْأَحَدِ، حَيْثُ عَجَائِزُ «كَافِر»^(١) أَنْفُسُهُنَّ يُضْبِخْنَ مُتَشَبِّهَاتٍ وَصَاحِبَاتٍ مِنَ الْبَهْجَةِ؛ وَأَيْضًا مَا إِذَا كَانَتْ فَاتِنَاتُ بَارِيسَ كُلُّهُنَّ أَجْمَلُ مِنْهَا.

كَانَتْ «دُورُوتيه» مَحَلَّ إعْجَابٍ وَتَدْلِيلٍ الْجَمِيعِ، وَسَتَكُونُ سَعِيدَةً تَمَامًا لَوْ لَمْ تَكُنْ مُجْبِرَةً عَلَى اقْتِصَادِ قَرْشٍ فَوْقَ قَرْشٍ مِنْ أَجْلِ إِعْتَاقِ شَقِيقَتِهَا الصَّغِيرَةِ ذَاتِ الْأَحَدِ عَشَرَ عَامًا، الْبَالِغَةِ الْآنَ وَالْجَمِيلَةِ! سَتَنْجَحُ بِلَاشْكَ، «دُورُوتيه» الطَّيِّبَةُ؛ فَمَالِكُ الطُّفْلَةِ رَجُلٌ بَخِيلٌ، مُفْرِطُ الْبُخْلِ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ جَمَالًا سِوَى جَمَالِ النُّقُودِ!

(١) منطقة بشرق إفريقيا

عيون الفقراء

آه! أتريدين أن تعرفي لماذا أكرهك اليوم؟ سيكون فهم ذلك بالنسبة لك أقل سهولة - بلا شك - من قدرتي على شرحه، لأنك - فيما أظن - أروع نموذج يمكن مقابله لعدم الحس الأنثوي.

كنا قد قضينا معاً نهائياً طويلاً بدا لي قصيراً. وكنا قد تعاهدنا على أن نكون جميع أفكارنا مشتركة بيننا، وألا نكون روحاً - من الآن فصاعداً - سوى روح واحدة - وهو حلم لا جديد فيه، في نهاية المطاف، باعتباره حلم الجميع، وإن لم يحققه أحد.

في هذه الأمسية، كنت ترديدن - وقد انتابك بعض الإرهاق - الجلوس أمام مقهى جديد يشكّل ناصية شارع جديد، ما يزال مليئاً بالأنقاض، لكنه يكشف في روعة لآلئه غير المكتملة. كان المقهى يتألق، وكان غار الإضاءة ينشر فيه حرارة الافتتاح، ويضيء بكل قواه الحوائط ناصعة البياض، والمساحات الباهرة من المرايا، والطلاء الذهبي للقبضات والأفاريز، والعلمان ذوي الخدود الممتلئة تجرهم الكلاب في مقاردها، والسيدات الضاحكات للصقير الجائهم على قبضتيهن، وحوريات البحر والربات يحملن على رؤوسهن الفاكهة والبطائر والطرائد، وشخص «هيبه» و«جانيميد»^(١)

(١) هيبه: ربة الشباب في الأساطير اليونانية، وابنة زيوس، التي كانت تخدم مائدة الآلهة إلى أن يحل محلها «جانيميد» الشاب.

يَقْدُمُونَ بِأَيْدٍ مَمْدُودَةٍ الْجَرَّةَ الصَّغِيرَةَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْبَافَارِيَّةِ أَوْ الْمَسَلَّةِ ذَاتِ اللَّوْنِ الشَّائِيِّ
مِنَ الْمُتَلَجَّاتِ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ؛ فَالتَّارِيخُ كُلُّهُ وَالْأَسَاطِيرُ جَمِيعًا فِي خِدْمَةِ الشَّرَاهَةِ.

وَأَمَّا مَنْ مَبَاشَرَةً، عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ، كَانَ يَنْتَصِبُ رَجُلٌ طَيِّبٌ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ
عُمْرِهِ، دُو سِحْنَةٍ مُرْهَقَةٍ، وَلِحْيَةٍ شَائِيَّةٍ، يُمْسِكُ فِي يَدِهِ وَلَدًا صَغِيرًا، وَيَحْمِلُ فِي ذِرَاعِهِ
الْأُخْرَى كَانِئًا صَغِيرًا أَوْ ضَعْفَ مَنْ أَنْ يَمْشِيَ. كَانَ يُؤَدِّي دَوْرَ الْمُرَبِّيَّةِ وَيَأْخُذُ أَطْفَالَهُ فِي
تَمْشِيَةِ مَسَائِيَّةٍ. كَانُوا جَمِيعًا يَرْتَدُّونَ الْأَسْمَالَ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْوُجُوهُ الثَّلَاثَةُ مُتَجَهِّمَةً
بِصُورَةٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ، وَهَذِهِ الْعُيُونُ السَّتَّةُ تُعْمِنُ النَّظَرَ بِثَبَاتٍ فِي الْمَقْهَى الْجَدِيدِ بِإِعْجَابٍ
مُتَسَاوٍ، وَإِنْ كَانَ مُتَبَايِنًا بِتَبَايُنِ الْأَعْمَارِ.

كَانَتْ عَيْنَا الْأَبِّ تَقُولَانِ: «كَمْ هُوَ بَدِيع! كَمْ هُوَ بَدِيع! كَانَتْهُمْ جَاءُوا بِكُلِّ ذَهَبِ
الْعَالَمِ الْفَقِيرِ لِيَنْشُرُوهُ عَلَى هَذِهِ الْجُدْرَانِ». وَعَيْنَا الْوَلَدِ الصَّغِيرِ: «كَمْ هُوَ بَدِيع! كَمْ هُوَ
بَدِيع! لَكِنَّهُ مَنْزِلٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدْخُلَهُ سِوَى مَنْ لَا يُشَبِّهُونَنَا». أَمَّا عَيْنَا الْأَصْغَرِ، فَكَانَتَا
أَكْثَرَ انْبِهَارًا مِنْ أَنْ تُعْبِّرَا سِوَى عَنْ بَهْجَةٍ رَعْنَاءَ وَعَمِيقَةٍ.

يَقُولُ كِتَابُ الْأَغَانِي إِنَّ السَّعَادَةَ تَجْعَلُ الرُّوحَ طَيِّبَةً وَتُلِينُ الْقَلْبَ. كَانَتْ الْأَغْنِيَةُ
صَائِبَةً هَذَا الْمَسَاءِ، بِالنَّسْبَةِ لِي. فَلَمْ أَتَأَثَّرْ فَحَسَبَ بِهَذِهِ الْعَائِلَةِ مِنَ الْعُيُونِ، بَلْ أَحَسَسْتُ
بِبَعْضِ الْخَجَلِ مِنْ أَكْوَابِنَا وَدَوَارِقِنَا، الْأَكْبَرِ مِنْ عَطَشِنَا. التَّفَتُّ إِلَى عَيْنَيْكَ، يَا حُبِّي
الْعَالِي، لِأَقْرَأَ فِيهِمَا أَفْكَارِي؛ غَضْتُ فِي عَيْنَيْكَ الْجَمِيلَتَيْنِ لِلْعَايَةِ وَالْعَذْبَتَيْنِ بِصُورَةٍ
غَرِيبَةٍ، فِي عَيْنَيْكَ الْخَضْرَاوَيْنِ، الْمَسْكُونَتَيْنِ بِالتَّزْوَةِ وَيُلْهِمُهُمَا الْقَمَرُ، عِنْدَمَا قُلْتُ لِي:
«لَا أَسْتَطِيعُ احْتِمَالَ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ بِعُيُونِهِمِ الْمَفْتُوحَةِ مِثْلَ أَبْوَابِ الْعَرَبَاتِ! أَلَا
تَسْتَطِيعُ أَنْ تَطْلُبَ مِنْ صَاحِبِ الْمَقْهَى إِبْعَادَهُمْ عَنْ هُنَا؟»

كَمْ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ تَفْقَاهُمْ، يَا مَلَائِكِي الْعَالِي، وَكَمْ يَعْجِزُ الْفِكْرُ عَنْ تَحْقِيقِ التَّوَاصُلِ،
حَتَّى بَيْنَ الْمُحِبِّينِ!

مَوْتُ بَطُولِي

كَانَ «فَانْسِيُول» مُهَرَّجًا رَائِعًا، وَتَقْرِيًّا أَحَدَ أَصْدِقَاءِ الْأَمِيرِ. لَكِنَّ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَشْخَاصِ الْمُنْدُورِينَ - بِالطَّبِيعَةِ - لِلْكُومِيدِيَا، تَمْتَلِكُ الْأَشْيَاءُ الْجَادَّةُ جَاذِبَةً قُصُوى، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَبْدُو غَرِيبًا أَنْ تَسْتَوِلِيَ أَفْكَارُ الْوَطَنِ وَالْحُرِّيَّةِ - بِصُورَةٍ مُسْتَبَدَّةٍ - عَلَى عَقْلِ بَهْلَوَانٍ، إِلَّا أَنَّ «فَانْسِيُول» تَوَرَّطَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مُؤَامَرَةٍ دَبَّرَهَا بَعْضُ النُّبَلَاءِ السَّاحِطِينَ.

وَهُنَاكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَاعِلُو خَيْرٍ يُبْلِغُونَ السُّلْطَانَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ ذَوِي الْمِزَاجِ النَّكِدِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ عَزْلَ الْأَمْرَاءِ وَتَغْيِيرَ الْمُجْتَمَعِ، دُونَ اسْتِشَارَتِهِ. وَقَدْ تَمَّ الْقَبْضُ عَلَى السَّادَةِ الْمَذْكُورِينَ، وَأَيْضًا «فَانْسِيُول»، وَحُكِمَ عَلَيْهِمْ بِالْمَوْتِ الْمُؤَكَّدِ.

وَلِي أَنْ أَعْتَقِدَ أَنَّ الْأَمِيرَ رُبَّمَا اغْتَاظَ مِنْ وُجُودِ مُضْحِكِهِ الْمُفْضَلِ ضِمْنَ الْمُتَمَرِّدِينَ. لَمْ يَكُنِ الْأَمِيرُ أَفْضَلَ أَوْ أَسْوَأَ مِنْ أَمِيرٍ آخَرَ؛ لَكِنَّ حَسَاسِيَّتَهُ الزَّائِدَةَ كَانَتْ تَجْعَلُهُ - فِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَالَاتِ - أَكْثَرَ قَسْوَةً وَطُغْيَانًا مِنْ جَمِيعِ أَقْرَانِهِ. وَكَمْحَبِّ شُغُوفٍ بِالْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ، وَكَخَبِيرٍ مُنْتَازٍ فَضْلًا عَنْ ذَلِكَ، كَانَ حَقًّا نَهْمًا لِلشَّهَوَاتِ. وَإِذَا كَانَ غَيْرَ مُكْتَرَبٍ بِمَا يَكْفِي - نَسِيًّا - بِالنَّاسِ وَالْأَخْلَاقِ، كَفَنَانٍ حَقِيقِيٍّ هُوَ نَفْسُهُ، فَلَمْ يَعْرِفْ عَدُوًّا أَوْ أَخْطَرَ مِنَ الصُّجَرِ، وَالْجُهُودِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي كَانَ يَبْذُلُهَا لِلْهُرُوبِ أَوْ التَّغَلُّبِ عَلَى طَاغِيَةِ الْعَالَمِ هَذَا كَانَ لَهَا أَنْ تُكْسِبَهُ بِالتَّأَكُّيدِ صِفَةً «الْوَحْشِ» مِنْ قِبَلِ مُؤَرِّخِ صَارِمٍ، لَوْ كَانَ مَسْمُوحًا - فِي مَجَالِهِ - بِكِتَابَةِ مَا لَا يَنْتَرَعُ إِلَّا إِلَى الْمُتَعَةِ أَوْ الدَّهْشَةِ، بِمَا يُمَثِّلُ أَحَدَ

أَشْكَالِ الْمُتَنَعَةِ الْأَسْمَى. وَتَعَاسَهُ هَذَا الْأَمِيرُ الْكُبْرَى كَانَتْ تَكْمُنُ فِي عَدَمِ وَجُودِ مَسْرَحِ شَاسِعٍ بِمَا يَتَسَعُ لِعَبَقَرِيَّتِهِ. فَهُنَاكَ شُبَّانٌ نِيرُونِيُّونَ^(١) يَخْتَنِقُونَ فِي حُدُودِ بَالِغَةِ الضَّيْقِ، وَسَوْفَ تَجْهَلُ الْقُرُونُ الْقَادِمَةُ أَسْمَاءَهُمْ وَنَوَايَاهُمْ الطَّيِّبَةَ دَائِمًا. وَقَدْ مَنَحَتِ الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ قَصِيرَةَ النَّظَرِ هَذَا الْأَمِيرَ مَلَكَاتٍ أَعْظَمَ مِنْ أَمْلَاكِهِ.

فَجَاءَ سَرَتْ شَائِعَةٌ بِأَنَّ الْحَاكِمَ يُرِيدُ أَنْ يَغْفُو عَنْ جَمِيعِ الْمُتَأَمِّرِينَ؛ وَأَصْلُ هَذِهِ الشَّائِعَةِ يَكْمُنُ فِي الْإِعْلَانِ عَنْ عَرْضِ كَبِيرِ سَيُودِي فِيهِ «فَانْسِيُول» أَحَدَ أَدْوَارِهِ الرَّئِيسَةِ وَالْمُتَمَيِّزَةِ، بَلْ سَيَحْضُرُهُ - كَمَا قِيلَ - النَّبْلَاءُ الْمُدَانُونُ؛ وَهِيَ إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ - حَسَبَمَا أَضَافَتِ الْعُقُولُ السَّطَحِيَّةُ - عَلَى وَجُودِ تَوَازُعٍ كَرِيمَةٍ لَدَى الْأَمِيرِ الْغَاضِبِ.

وَبِالنِّسْبَةِ لِشَخْصٍ مِثْلِهِ غَرِيبِ الْأَطْوَارِ بِصُورَةٍ طَبِيعِيَّةٍ وَإِرَادِيَّةٍ، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مُمَكِّنًا، حَتَّى الْفَضِيلَةِ، بَلْ الرَّحْمَةِ، وَخَاصَّةً إِذَا مَا كَانَ يَأْمُلُ أَنْ تُحَقِّقَ لَهُ مَسَرَّاتٍ غَيْرَ مُنْتَظَرَةٍ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لَهُؤُلَاءِ الْقَادِرِينَ، مِثْلِي، عَلَى سَبْرِ أَغْوَارِ هَذِهِ الرُّوحِ الْغَرِيبَةِ وَالْمَرِيضَةِ، فَكَانَ الْأَرْجَحُ تَمَامًا أَنَّ الْأَمِيرَ إِنَّمَا كَانَ يُرِيدُ الْحُكْمَ عَلَى قِيَمَةِ الْمَوَاهِبِ التَّمثِيلِيَّةِ لِرَجُلٍ مَحْكُومٍ عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ. كَانَ يُرِيدُ اسْتِخْدَامَ الْمُنَاسَبَةِ لِتَحْقِيقِ تَجَرِبَةٍ فَيُسَوِّجُ لِحَقِّهِ ذَاتَ فَائِدَةٍ كُبْرَى، وَالتَّحَقُّقِ مِنْ مَدَى التَّغْيِيرِ أَوْ التَّحَوُّلِ الَّذِي يُمَكِّنُ لِلْمَلَكَاتِ الْعَادِيَّةِ لِفَنَائِهِ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ بِفِعْلِ الْمَوْقِفِ غَيْرِ الْعَادِيِّ الَّذِي وَجَدَ نَفْسَهُ فِيهِ؛ وَفِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ، أَكَّانَ هُنَاكَ - فِي نَفْسِهِ - نَزْوَعٌ رَاسِخٌ إِلَى هَذَا الْحَدِّ أَمْ ذَاكَ إِلَى الرَّحْمَةِ؟ إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ لَمْ يُمَكِّنْ أَبَدًا كَشْفُهَا.

أَخِيرًا، إِذْ حَلَّ الْيَوْمُ الْعَظِيمُ، كَشَفَتِ السَّاحَةُ الصَّغِيرَةُ عَنْ كُلِّ عَظَمَتِهَا، وَسَيَكُونُ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَتَصَوَّرَ الْمُرءُ - إِلَّا أَنْ شَهِدَ بَعَيْنَيْهِ - كُلُّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُبْدِيَهُ مِنْ رَوَائِعِ الطَّبَقَةِ الْمُسَوَّرَةِ فِي دَوْلَةٍ صَغِيرَةٍ - ذَاتَ مَوَارِدٍ مَحْدُودَةٍ - مِنْ أَجْلِ احْتِفَالٍ حَقِيقِيٍّ. وَكَانَ ذَلِكَ حَقِيقِيًّا بِصُورَةٍ مُزْدَوِجَةٍ، أَوَّلًا بِفِعْلِ سِحْرِ الْفَخَامَةِ الْمَعْرُوضَةِ، ثُمَّ بِفِعْلِ الْفَائِدَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْغَامِضَةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِهَا.

(١) نِسْبَةٌ إِلَى «نِيرُون»، الَّذِي حَكَمَ رُومًا مِنْ عَامِ ٥٤ إِلَى ٦٨، وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَحْرَقَ عَاصِمَةَ مَلِكِهِ. وَكَانَ يَكْتُبُ الشَّعْرَ وَيُحِبُّ الْغِنَاءَ.

كَانَ السَّيِّدُ «فَانْسِيُول» بَارِعًا بِالذَّاتِ فِي الْأَدْوَارِ الصَّامِتَةِ أَوْ قَلِيلَةِ الْكَلَامِ، الَّتِي كَانَتْ - إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ - هِيَ الْأَدْوَارَ الرَّئِيسِيَّةَ فِي هَذِهِ الدَّرَامَاتِ السَّحَرِيَّةِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ تَمَثِيلَ عُمُوضِ الْحَيَاةِ بِصُورَةٍ رَمَزِيَّةٍ. دَخَلَ الْمَسْرَحَ فِي رَشَاقَةٍ وَسُهُولَةٍ كَامِلَةٍ، وَهُوَ مَا سَاهَمَ فِي تَدْعِيمِ فِكْرَةِ الدَّمَائَةِ وَالْغُفْرَانِ، لَدَى الْجُمْهُورِ النَّبِيلِ.

وَعِنْدَمَا نَقُولُ عَنْ مُثَلِّ مَا: «إِنَّهُ مُثَلِّلٌ جَيِّدٌ»، فَإِنَّا نَسْتَخْدِمُ صِبْغَةً تَتَضَمَّنُ أَنَّ تَحْتَ الشَّخْصِيَّةِ يُمَكِّنُ اكْتِشَافَ وَجُودِ الْمُثَلِّلِ، أَيْ الْفَنِّ وَالْجُهْدِ وَالْإِرَادَةَ. وَالْوَاقِعُ، لَوْ أَنَّ مُثَلِّلاً قَدْ تَوَصَّلَ إِلَى أَنْ يَكُونَ - بِالنِّسْبَةِ لِلشَّخْصِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ بِتَمَثِيلِهَا - مَا تَكُونُهُ أَفْضَلُ تَمَثِيلُ الْعَصْرِ الْقَدِيمِ، الْحَيَّةِ بِصُورَةٍ إِعْجَازِيَّةٍ، وَالْحَيَوِيَّةِ وَالْمُتَحَرِّكَِّةِ وَالْمُبْصِرَةِ، بِالنِّسْبَةِ لِفِكْرَةِ الْجَمَالِ الْعَامَّةِ وَالْمُلْتَبِسَةِ - فَذَلِكَ مَا سَيَكُونُ، بِلَا شَكٍّ، حَالَةً فَرِيدَةً وَمُفَاجِئَةً تَمَامًا. فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، قَدَّمَ فَانْسِيُولُ مِثَالًا مُوْذِجِيًّا رَفِيعًا، حَتَّى كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَدَمُ انْفِرَاضِ أَنَّهُ حَيٌّ، وَمُمَكِّنٌ، وَوَاقِعِي. فَهَذَا الْمُهَرِّجُ كَانَ يَرُوحُ وَيَجِيءُ وَيَضْحَكُ وَيَبْكِي وَيَتَسَنَّجُ، وَهَالَةً دَائِمَةً حَوْلَ رَأْسِهِ، هَالَةً لَامَرِيَّةً مِنَ الْجَمِيعِ، لَكِنَّهَا مَرِيَّةٌ لِي، وَحَيْثُ تَمْتَرِجُ - فِي خَلِيطٍ غَرِيبٍ - أَشْعَةُ الْفَنِّ وَمَعْجَدُ الشَّهِيدِ، كَانَ فَانْسِيُولُ - بِمَا لَا أَدْرِي مِنْ مَوْهَبَةٍ خَاصَّةٍ - يُدْخِلُ السَّمَاءَ وَفَوْقَ الطَّبِيعِيِّ فِي هَزَلِيَّاتِهِ الْخَارِقَةِ. إِنَّ قَلَمِي لَيَرْتَجِفُ، وَدُمُوعُ انْفِعَالٍ حَاضِرٍ دَائِمًا تَصَّاعَدُ إِلَى عَيْنَيَّ خِلَالَ مُحَاوَلَتِي أَنْ أَصِفَ لَكُمْ هَذِهِ الْأُمْسِيَّةَ الَّتِي لَا تُنْسَى. أَثَبَّتَ لِي فَانْسِيُولُ - بِطَرِيقَةٍ قَاطِعَةٍ، لَا جِدَالَ فِيهَا - أَنَّ نَشْوَةَ الْفَنِّ أَقْدَرُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ عَلَى إِخْفَاءِ الرُّعْبِ مِنَ الْهَآوِيَةِ؛ وَأَنَّ الْعَبْرِيَّ يُمَكِّنُ أَنَّ يُمَثِّلَ الْكُومِيدِيَا عَلَى حَافَةِ الْقَبْرِ بِبَهْجَةٍ تَحُولُ دُونَ رُؤْيَةِ الْقَبْرِ، مُسْتَغْرِقًا فِي فِرْدُوسٍ يَنْفِي كُلَّ فِكْرَةٍ عَنِ الْقَبْرِ وَالْخَرَابِ.

كُلُّ هَذَا الْجُمْهُورِ، الصَّغِيرِ وَالْأَخْرَقِ تَمَامًا كَمَا يُفْتَرَضُ، خَضَعَ فِي الْحَالِ لِسَطْوَةِ الْفَنَّانِ الْجَبَّارَةِ. لَمْ يَعُدْ يَخْطُرُ بِنَالٍ أَحَدِهِمُ الْمَوْتُ وَالْحُزْنُ وَلَا الْآلَامُ. اسْتَسَلَّمَ الْجَمِيعُ، بِلَا قَلْقٍ، لِلْمَلَذَّاتِ الْمُضَاعَفَةِ الَّتِي تَمْنَحُهَا رُؤْيَةُ إِحْدَى الرِّوَائِعِ الْفَنِّيَّةِ حَيَّةٍ. وَجَّتْ انْفِجَارَاتُ الْبَهْجَةِ وَالْإِعْجَابِ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ قِبَابَ الْبِنَاءِ بِطَاقَةٍ رَعْدٍ دَائِمٍ. بَلْ إِنَّ الْأَمِيرَ نَفْسَهُ، وَقَدْ انْتَشَى، شَارَكَ بِلَاطُهُ فِي التَّصْفِيقِ.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَاَنْتِشَاؤُهُ - بِالنَّسْبَةِ لِعَيْنِ بَصِيرَةٍ - لَمْ يَكُنْ بِلَا شَوَائِبٍ دَاخِلَهُ. فَهَلْ أَحْسَ بِهِرِيْمَةَ سُلْطَةِ طُغْيَانِهِ؟ بِالْمَهَانَةِ فِي تَقْنَنِهِ فِي بَثِّ الرُّعْبِ فِي الْقُلُوبِ وَتَخْدِيرِ الْعُقُولِ؟ بِإِحْبَاطِ آمَالِهِ وَخِيْبَةِ تَوَقُّعَاتِهِ؟ مِثْلُ هَذِهِ الْاِفْتِرَاضَاتِ، غَيْرُ الْمُبَرَّرَةِ تَمَامًا، لَكِنَّهَا غَيْرُ الْمُفْتَرَقَةِ تَمَامًا إِلَى تَبْرِيرِ، عَبَّرَتْ عَقْلِي فِيْمَا كُنْتُ أَتَأَمَّلُ وَجْهَ الْأَمِيرِ، الَّذِي كَانَ يَعْتَرِيهِ بِلَا انْتِهَاءٍ شُحُوبٌ جَدِيدٌ يُضَافُ إِلَى شُحُوبِهِ الْعَادِي، مِثْلَمَا يُضَافُ الثَّلْجُ إِلَى الثَّلْجِ. كَانَتْ شَفَتَاهُ مَزْمُومَتَيْنِ أَكْثَرَ فَاكْثَرَ، وَعَيْنَاهُ تَتَوَهَّجَانِ بِنَارٍ دَاخِلِيَّةٍ شَبِيهَةٍ بِنَارِ الْغِيْرَةِ وَالْحَقْدِ، حَتَّى وَهُوَ يُطْرِي عِلَاقِيَّةً مَوَاهِبَ صَدِيقِهِ الْقَدِيمِ، الْمُهْرَجِ الْغَرِيبِ، الَّذِي كَانَ يُضْحِكُ الْمَوْتَ تَمَامًا. وَفِي لَحْظَةٍ مُعَيَّنَةٍ، رَأَيْتُ سُموهُ يَنْحَنِي نَحْوَ وَصِيفِ صَغِيرٍ، مَوْجُودٍ خَلْفَهُ، وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ. أَشْرَقَ الْوَجْهَ الْمَاكِرُ لِلطُّفْلِ الْجَمِيلِ بِابْتِسَامَةٍ، وَتَرَكَ الشَّرْفَةَ الْأَمِيرِيَّةَ عَلَى عَجَلٍ، كَأَنَّمَا مِنْ أَجْلِ الْقِيَامِ بِمُهِمَّةٍ عَاجِلَةٍ.

وَبَعْدَ بَضْعِ دَقَاقَتَيْنِ، قَاطَعَ انْطِلَاقُ صَفِيرٍ حَدَّ، طَوِيلٍ، «فَانْسِيُول» وَهُوَ فِي أَفْضَلِ لَحْظَاتِهِ، وَمَرَّقَ الْأَذَانَ وَالْقُلُوبَ فِي آن. وَمِنْ نَاحِيَةِ الْقَاعَةِ الَّتِي تَعَالَى مِنْهَا هَذَا الْاسْتِهْجَانُ الْمُفَاجِئُ، انْدَفَعَ طِفْلٌ فِي أَحَدِ الْمَمَرَاتِ مَعَ صَحِكَاتٍ مَكْتُومَةٍ.

أَغْمَضَ «فَانْسِيُول» فِي الْبِدَايَةِ عَيْنَيْهِ، مُرْتَجًا، مُسْتَقِظًا مِنْ حُلْمِهِ، وَأَعَادَ فَتَحَهُمَا فِي الْحَالِ، فَادْخَلَتِي الْاِتْسَاعَ، ثُمَّ فَتَحَ فَمَهُ كَأَنَّمَا مِنْ أَجْلِ الْاسْتِشْنَاقِ الْمُخْتَلِجِ، تَرَنَّحَ إِلَى الْأَمَامِ قَلِيلًا، وَقَلِيلًا إِلَى الْوَرَاءِ، ثُمَّ سَقَطَ جُثَّةً هَامِدَةً عَلَى الْمَسْرَحِ.

هَذَا الصَّفِيرُ، الْخَاطِفُ مِثْلَ السَّيْفِ، هَلْ أَحْبَطَ حَقًّا الْجَلَادَ؟ هَلْ تَوَقَّعَ الْأَمِيرُ نَفْسَهُ الْفَاعِلِيَّةَ الْقَاتِلَةَ لِمَكِيدَتِهِ؟ يُمَكِّنُ لَنَا أَنْ نَشْكَّ فِي ذَلِكَ. وَهَلْ حَزَنَ عَلَى «فَانْسِيُول»، الْفَرِيدِ، الْعَزِيزِ عَلَيْهِ؟ سَيَكُونُ طَبِيبًا وَمَشْرُوعًا أَنْ نَظُنَّ ذَلِكَ.

اسْتَمْتَعَ السَّادَةُ الْمُذْنِبُونَ - لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ - بِعَرْضِ كُومِيدِي. وَفِي اللَّيْلَةِ نَفْسَهَا، زَالُوا مِنَ الْحَيَاةِ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ، جَاءَ الْكَثِيرُونَ مِنَ الْمُمَثِّلِينَ، الَّذِينَ نَالُوا حَقًّا التَّقْدِيرَ فِي بُلْدَانِ عَدِيدَةٍ، لِيُمَثِّلُوا أَمَامَ بَلَاطِ X؛ لَكِنْ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مِنْهُمْ اسْتِعَادَةَ مَوَاهِبِ فَانْسِيُولِ الرَّائِعَةِ، وَلَا بَلَغَ الْحِظْوَةَ نَفْسَهَا.

الْعَمَلَةُ الزَّائِفَةُ

فِيمَا كُنَّا نَبْتَعدُ عَنْ دُكَّانِ التَّبَعِ، قَامَ صَدِيقِي بِتَصْنِيفِ دَقِيقٍ لِنُقُودِهِ؛ فِيهِ الْجَبِيبُ الْأَيْسَرُ لِصَدْرِيتهِ دَسَّ الْعُمَلَاتِ الذَّهَبِيَّةِ الصَّغِيرَةِ؛ وَفِي الْأَيْمَنِ، الْعُمَلَاتُ الْفِضِّيَّةُ الصَّغِيرَةُ؛ وَفِي الْجَبِيبِ الْأَيْسَرِ لِلْبَنَاطِلُونِ، كِمِّيَّةٌ مِنَ «الصُّوَلَاتِ»^(١) الْكَبِيرَةِ، وَأَخِيرًا، فِي الْأَيْمَنِ، قِطْعَةٌ فِضِّيَّةٌ مِنْ ذَاتِ الْفَرَنْكَيْنِ، قَامَ بِفَحْصِهَا بِشَكْلِ خَاصٍ.

«تَوَزَّيعُ فَرِيدٌ وَدَقِيقٌ!»، قُلْتُ لِنَفْسِي.

التَّقِينَا بِشَخْصٍ فَقِيرٍ يَمُدُّ إِلَيْنَا قُبْعَتَهُ فِي ارْتِعَادٍ. لَمْ أَعْرِفْ قَطُّ مَا هُوَ أَكْثَرُ إِزْعَاجًا مِنَ الْبَلَاغَةِ الصَّامِتَةِ لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ الضَّارِعَتَيْنِ، اللَّتَيْنِ تَنْطَوِيَانِ - فِي آنٍ - بِالنُّسْبَةِ لِلشَّخْصِ الْمُرْهَفِ الْقَادِرِ عَلَى قِرَاءَتِهِمَا - عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَذَلَّةِ، وَالْكَثِيرِ مِنَ الْمَلَامِ. وَعُمُقُ الْإِحْسَاسِ الْمُرَكَّبِ هَذَا نَجِدُ شَيْئًا مُشَابِهًا لَهُ فِي الْعُيُونِ الدَّامِعَةِ لِلْكِلَابِ الَّتِي تَمَّ جَلْدُهَا.

وَصَدَقَهُ صَدِيقِي كَانَتْ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ صَدَقَتِي، فَقُلْتُ لَهُ: «أَنْتَ عَلَى صَوَابٍ؛ فَبَعْدَ مُنْتَعَةِ الذُّهُولِ، لَيْسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ تَحْقِيقِ مُفَاجَأَةٍ سَارَةٍ». رَدَّ عَلَيَّ بِهُدُوءٍ - كَأَنَّهُ يُبْرِرُ لِنَفْسِهِ تَبْدِيرَهُ: «إِنَّهَا الْعَمَلَةُ الزَّائِفَةُ».

لَكِنْ فِي رَأْسِي الْبَائِسَةِ، الْمَشْغُولَةِ دَائِمًا بِالْبَحْثِ عَنْ مُتَنَصِّفِ النَّهَارِ فِي السَّاعَةِ

(١) جمع «صُول»، عملة نقدية معدنية قديمة.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ (آيَةٌ خَاصَّةٌ مُتَعِدَّةٌ أَهْدَتْهَا لِي الطَّبِيعَةُ!)، دَخَلَتْ فَجَاءَةً فِكْرُهُ أَنَّ سُلُوكًا مُمَائِلًا، مِنْ جَانِبِ صَدِيقِي، لَمْ يَكُنْ لِيُغْتَفَرِ إِلَّا بِفَضْلِ الرَّغْبَةِ فِي خَلْقِ حَدَثٍ مَا فِي حَيَاةِ هَذَا الشَّيْطَانِ الْبَائِسِ، رُبَّمَا رَغِمَ إِذْرَاكِ الْعَوَاقِبِ الْمُخْتَلِفَةِ، الْوَحِيمَةِ أَوْ غَيْرَهَا، الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَنْجُمَ عَنْهَا قِطْعَةُ عُمَلَةٍ زَائِفَةٍ فِي يَدِ مُسَوِّلٍ. أَلَا يُمَكِّنُ لَهَا أَنْ تَضَاعَفَ إِلَى عُمَلَاتٍ حَقِيقِيَّةٍ؟ أَلَا يُمَكِّنُ لَهَا أَيْضًا أَنْ تُفْضِيَ بِهِ إِلَى السَّجْنِ؟ فَرُبَّمَا أَدَّتْ إِلَى أَنْ يَقْبِضَ عَلَيْهِ خَمَّازٌ أَوْ خَبَّازٌ - مَثَلًا - بِاعْتِبَارِهِ مُزَيَّفًا أَوْ مُرَوِّجًا لِلْعُمَلَةِ الزَّائِفَةِ. وَبِالذَّرَجَةِ نَفْسِهَا تَمَامًا، يُمَكِّنُ لِهَذِهِ الْعُمَلَةِ الزَّائِفَةِ، بِالنِّسْبَةِ لِمُضَارِبٍ صَغِيرٍ فَقِيرٍ، أَنْ تَكُونَ سَبَبًا فِي ثَرَايِهِ لِبُضْعَةِ أَيَّامٍ. وَهَكَذَا اتَّخَذَ خَيَالِي مَجْرَاهُ، مُعِيرًا أَجْنَحَةً لِعَقْلِ صَدِيقِي، وَمُسْتَخْلِصًا كُلَّ الاسْتِثْنَائَاتِ الْمُمَكِّنَةِ مِنْ جَمِيعِ الْافْتِرَاضَاتِ الْمُمَكِّنَةِ.

لَكِنَّ صَدِيقِي قَطَعَ فَجَاءَةً حُلْمَ يَقْظَتِي وَهُوَ يَسْتَعِيدُ كَلِمَاتِي حَرْفِيًّا: «نَعَمْ، أَنْتَ عَلَى صَوَابٍ؛ فَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ مُتَعَةً أَكْثَرَ عُذُوبَةً مِنْ إِدْهَاشِ شَخْصٍ بِمَنْحِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْلُمُ بِهِ».

نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي بَيَاضِ عَيْنَيْهِ، وَارْتَعْتُ مِنْ رُؤْيَايَ لِعَيْنَيْهِ تَلْتَمِعَانِ بَرَاءَةً لَا شَكَّ فِيهَا. أَذْرَكْتُ أَنِّيذُ بُوْضُوحٍ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ - فِي أَنْ - أَنْ يَقُومَ بِعَمَلِ الْبِرِّ وَإِنْجَازِ صَفْقَةٍ؛ كَسْبِ أَرْبَعِينَ «صُول» وَقَلْبِ الرَّبِّ؛ نُشْلِ الْفِرْدَوْسِ بِصُورَةٍ افْتِصَادِيَّةٍ؛ وَفِي النِّهَايَةِ اقْتِنَاصُ شَهَادَةِ رَجُلٍ بَارٍّ مَجَانًا. كُنْتُ عَلَى وَشَاكِ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ رَغْبَةَ الاسْتِمْتَاعِ الْإِثْمِ الَّذِي ظَنَنْتُ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى أَنَّهُ مُمَكِّنٌ؛ وَكَانَ يُمَكِّنُ أَنْ أُجِدَّ تَسْلِيَتُهُ عَلَى حِسَابِ الْبُؤْسَاءِ مُثِيرَةً، وَفَرِيدَةً لِكُنِّي لَنْ أَغْفِرَ لَهُ أَبَدًا غِبَاءَ حِسَابَاتِهِ. فَلَا يُغْتَفَرُ أَبَدًا أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ حَبِيشًا، لَكِنْ ثَمَّةُ مَزِيَّةٍ فِي مَعْرِفَةِ أَنَّهُ كَذَلِكَ؛ وَأَكْثَرُ آفَةٍ تَسْتَعْصِي عَلَى الْإِضْلَاحِ هِيَ ارْتِكَابُ الشَّرِّ بَبِلَاهَةٍ.

المقامر الكريم

بِالْأَمْسِ، خِلَالَ زِحَامِ الشَّارِعِ الرَّئِيسِيِّ، أَحْسَسْتُ بِمُلَامَسَتِي لِشَخْصٍ غَامِضٍ
كُنْتُ دَائِمًا أَرْغَبُ فِي التَّعَرُّفِ عَلَيْهِ، وَقَدْ عَرَفْتُهُ مِنْ فَوْرِي، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنِّي لَمْ يَسْبِقْ
لِي رُؤْيَتُهُ قَطُّ. كَانَتْ لَدَيْهِ بِلَا شَكٍّ - تَجَاهِي - رَغْبَةٌ مُمَاثِلَةً، لِأَنَّهُ رَمَقَنِي - فِي مُرُورِهِ -
بِنَظَرَةٍ ذَاتِ مَغْزَى سَارَعْتُ إِلَى إِطَاعَتِهَا. تَتَبَعْتُهُ بِانْتِبَاهٍ، وَسَرَّعَانَ مَا هَبَطْتُ خَلْفَهُ إِلَى
مَسْكَنِ تَحْتَ الْأَرْضِ، بَاهِرٍ، يُشْعُ فِيهِ تَرَفٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَيُّ مِنْ مَنَازِلِ بَارِيسَ الرَّفِيعَةِ
أَنْ يُؤَثِّثَ شَيْئًا لَهُ. وَبَدَأَ لِي غَرِيبًا أَنَّنِي رُبَّمَا أَكُونُ قَدْ مَرَزْتُ كَثِيرًا بِهَذَا الْوَكْرِ الْفَاتِنِ
دُونَ التَّكْهَنِ بِمَدْخَلِهِ. فَهَا هُنَا، يُحَيِّمُ مَنَاحٌ سَاحِرٌ، وَإِنْ كَانَ مُسْكِرًا، يَذْفَعُ فِي الْحَالِ
تَقْرِيًّا إِلَى نِسْيَانِ كُلِّ أَشْكَالِ الرُّغْبِ الْمُنْفَرَةِ لِلْحَيَاةِ؛ هُنَا يَتِمُّ تَنْفُسُ نَعِيمٍ مُعْتَمٍ، شَبِيهِ
بِذَلِكَ الَّذِي يُحَسُّ بِهِ أَكْلُو اللَّوْتَسِ، عِنْدَمَا يُحْسُونَ دَاخِلَهُمْ - إِذْ يَنْطَلِقُونَ إِلَى جَزِيرَةِ
مَسْحُورَةٍ، تُضِيئُهَا وَمَضَاتُ أَصِيلِ أَبْدِي - مَعَ الْأَصْوَاتِ الْمُخَدَّرَةِ لِشَلَالَاتِ سَجِيَّةٍ،
بِمِيلَادِ الرَّغْبَةِ فِي عَدَمِ رُؤْيَةِ بَيُوتِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى أَبَدًا، وَلَا نِسَائِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ، وَعَدَمِ
الْعُودَةِ أَبَدًا إِلَى رُكُوبِ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ الْعَالِيَةِ.

كَانَ ثَمَّةَ وَجُوهٍ غَرِيبَةٍ لِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ، تَتَّسِمُ بِجَمَالٍ قَاتِلٍ، بَدَأَ لِي أَنَّنِي سَبَقَ أَنْ رَأَيْتُهَا
فِي عَصُورِ وَبُلْدَانٍ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ أَتَذَكَّرَهَا بِالتَّحْدِيدِ، وَالْهَمْتَنِي بِتَعَاظِفِ أَخَوِي أَكْثَرَ
مِنَ الْخَوْفِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ تِلْقَائِيًّا إِزَاءَ مَرَأَى الْمَجْهُولِ. وَلَوْ أَرَدْتُ تَحْدِيدَ طَرِيقَةِ التَّعْبِيرِ

الْفَرِيدَةِ لِنَظَرَاتِهِمْ - أَيَا مَا كَانَتْ - لَقُلْتُ إِنَّنِي لَمْ أَرْ قَطُّ عُمُونًا تَلْتَمِعُ - بِصُورَةٍ أَكْثَرَ حَيَوِيَّةٍ - بِرُغْبِ السَّامِ وَالرَّغْبَةِ الْقَاتِلَةِ فِي الْإِحْسَاسِ بِالْحَيَاةِ.

مُضِيفِي وَأَنَا كُنَّا بِالْفِعْلِ - وَنَحْنُ جَالِسِينَ - صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْنِ مُنْذُ الْقَدَمِ. نَأْكُلُ، نَشْرَبُ بِإِفْرَاطٍ مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الْخُمُورِ الْاسْتِثْنَائِيَّةِ؛ وَمَا لَا يَقِلُّ اسْتِثْنَائِيَّةً، فِيمَا بَدَأَ لِي، بَعْدَ سَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ، هُوَ أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَكْثَرَ انْتِشَاءً مِنْهُ. وَمَعَ ذَلِكَ، قَطَعَ اللَّعِبُ، تِلْكَ الْمُتَعَةِ الْخَارِقَةَ - عَلَى فتراتٍ مُخْتَلِفَةٍ - إِفْرَاطَنَا الرَّائِدَ فِي الْخَمْرِ؛ وَيَنْبَغِي الْقَوْلُ إِنَّنِي لَعِبْتُ وَخَسِرْتُ رُوحِي، فِي الْمُبَارَاةِ مَعَهُ، بِلَا مُبَالَاهٍ وَخِفَةٍ بِطَوْلِيَّتَيْنِ. فَالْروحُ شَيْءٌ لَا مُحْسُوسٌ، بِلَا جَدْوَى غَالِيًا، وَمُزَعِجٌ أَحْيَانًا، إِلَى حَدِّ أَنِّي لَمْ أَحِسْ - فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ الْخَسَارَةِ - إِلَّا بِشُعُورٍ أَقَلِّ مِمَّا لَوْ كُنْتُ قَدْ أَصَعْتُ، فِي إِحْدَى النُّزَهَاتِ، بِطَاقَةِ التَّعَارُفِ.

دَخْنَا - لَوَقْتٍ طَوِيلٍ - بَعْضَ السَّيَّحَارِ الَّذِي كَانَتْ نَكْهَتُهُ وَأَرِجُهُ، وَهُمَا بِلَا نَظِيرٍ، تَبْعَثَانِ فِي الرُّوحِ الْحَنِينِ إِلَى بِلَادٍ وَمَبَاهِجٍ مَجْهُولَةٍ. وَمُتَشَبِّهًا بِكُلِّ تِلْكَ الْمَلَدَّاتِ، تَجَرَّأْتُ - فِي نَوْبَةٍ مِنَ الْأَلْفَةِ الَّتِي لَمْ يَنْدُ لِي أَنَّهَا أَرْعَجَتْهُ - فَصَحْتُ وَأَنَا أُمْسِكُ بِكَاسٍ مُتْرَعَةٍ إِلَى الْحَافَةِ: «فِي صِحَّكَ الْأَبَدِيَّةِ، أَيُّهَا التَّيْسُ الْعَجُوزُ!»

تَحَدَّثْنَا أَيْضًا عَنِ الْكَوْنِ، وَعَنْ خَلْقِهِ، وَدَمَارِهِ الْقَادِمِ؛ عَنِ الْفِكْرَةِ الْعَظِيمَةِ لِهَذَا الْقَرْنِ، أَيِ: التَّقَدُّمِ وَالْكَمَالِ، وَ- بِشَكْلِ عَامٍّ - عَنْ كُلِّ أَشْكَالِ الْغُرُورِ الْإِنْسَانِيِّ. وَفِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، لَمْ يَنْقَطِعْ سُمُوهُ عَنِ الدُّعَابَاتِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْجَدَلَ، وَعَبَّرَ عَنْ نَفْسِهِ بِعُدْوِيَّةِ أُسْلُوبٍ وَسَكِينَةٍ فِي الْمِرَاحِ لَمْ أَحْذَهُمَا لَدَى أَحَدٍ مِنْ مَسَاهِيرِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ. أَوْضَحَ لِي عَبِيَّةُ الْفَلَسَفَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي اسْتَحَوَذَتْ - حَتَّى الْآنَ - عَلَى الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ، بَلْ تَفَضَّلَ بَأَنِّ بَاحٍ لِي بِبَعْضِ الْمَبَادِي الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي لَا يَلِيقُ بِِي مُشَارَكَةُ أَحَدٍ فَوَائِدَهَا وَمِلْكِيَّتَهَا. لَمْ تَبْدُرْ مِنْهُ شَكْوَى - بِأَيِّ حَالٍ - مِنَ السُّمُوعَةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي حَظِي بِهَا فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْعَالَمِ، وَأَكَّدَ لِي أَنَّهُ - هُوَ نَفْسُهُ - أَكْثَرَ مَنْ يَهْتُمُّ بِزَوَالِ الْخُرَافَةِ، وَاعْتَرَفَ لِي بِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَشْعِرِ الْخَوْفَ - فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِسُلْطَانِهِ - سِوَى مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ،

وَذَلِكَ حِينَ سَمِعَ ذَاتَ يَوْمٍ أَحَدَ الدُّعَاةِ، الْأَبْرَعَ مِنْ زُمَلَائِهِ، وَهُوَ يَصِيحُ مِنْ مُنْبَرِهِ: «إِخْوَتِي الْأَعْرَاءُ، لَا تَنْسُوا أَبَدًا، عِنْدَمَا تَسْمَعُونَ بِتَقَدُّمِ عَصْرِ التَّنْوِيرِ وَهُوَ يَتَبَاهَى، أَنْ أَجْمَلَ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ هِيَ أَنْ يُقْنِعَكُمْ بِأَنَّهُ غَيْرُ مُوجُودٍ!»

وَقَادَتَنَا - بِالطَّبْعِ - ذَكَرَى هَذَا الْخَطِيبِ الْقَدِيرِ إِلَى مَوْضُوعِ الْأَكَادِمِيَّاتِ، فَأَكَّدَ لِي نَدِيمِي الْغَرِيبُ أَنَّهُ لَا يُنْكِرُ - فِي حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ - إِلَهَامَ الْقَلَمِ وَالْكَلِمِ، وَضَمِيرَ الْبَاحِثِينَ، وَأَنَّهُ حَضَرَ تَقْرِيبًا - بِنَفْسِهِ دَائِمًا، حَتَّى لَوْ كَانَ مُتَخَفِيًا - جَمِيعَ الْاجْتِمَاعَاتِ الْأَكَادِمِيَّةِ.

وَإِذْ تَشَجَّعْتُ بِكُلِّ هَذَا الْجِلْمِ، سَأَلْتُهُ عَنْ أَخْبَارِ الرَّبِّ، وَعَمَّا إِذَا كَانَ قَدْ التَّقَى بِهِ مُؤَخَّرًا. أَجَابَنِي بِلَا مَبَالَاةٍ يَشُوبُهَا حُزْنٌ مَا: «نَحْنُ نَحْيِي بَعْضَنَا الْبَعْضَ عِنْدَمَا نَلْتَقِي، لَكِنْ كَسِيدَيْنِ عَجُوزَيْنِ، بِأَدَبٍ فِطْرِيٍّ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُطْفِئَ تَمَامًا ذِكْرَى الْأَحْقَادِ الْقَدِيمَةِ».

وَوَثْمَةٌ شَكُّ فِي أَنْ يَكُونَ سُمُوهُ قَدْ سَبَقَ أَنْ مَنَحَ - عَلَى الْإِطْلَاقِ - مِثْلَ هَذِهِ الْمُحَادَثَةِ الطَّوِيلَةِ إِلَى إِنْسَانٍ بَسِيطٍ، وَكُنْتُ خَائِفًا مِنْ إِفْسَادِهَا. وَفِي النِّهَائَةِ، عِنْدَمَا كَانَ الْفَجْرُ الْمُرْتَجِفُ يَغْسِلُ النَّوَافِذَ، قَالَتْ لِي هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ الشَّهِيرَةُ - الَّتِي تَعْنَى بِهَا الْكَثِيرُ مِنَ الشُّعْرَاءِ، وَقَامَ عَلَى خِدْمَتِهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِنْ أَجْلِ مَجْدِهَا دُونَ أَنْ يَعْرِفُوهَا -: «أَرْجُو أَنْ تَحْفَظَ لِي بِذِكْرِي طَيِّبَةً، وَأَنْ أُبْرِهَنَ لَكَ عَلَى آثِي، وَأَنَا مَنْ قِيلَ عَنِّي الْكَثِيرُ مِنَ السُّوءِ، أَحْيَانًا مَا أَكُونُ شَيْطَانًا طَيِّبًا، إِذَا مَا اسْتُخْدِمْتُ إِحْدَى تَغْيِيرَاتِكَ الْفَجَّةِ. وَكَيْ أَعُوْضَكَ عَنْ خَسَارَتِكَ النَّهَائِيَّةِ لِرُوحِكَ، فَسَأُكَافِئُكَ بِالرَّهَانِ الَّذِي سَتَرَبُّحُهُ فِيمَا لَوْ كَانَ الْقَدَرُ إِلَى جَانِبِكَ، أَيْ إِمْكَانِيَّةِ الْعَرَاءِ وَالتَّغْلِبِ - طِيلَةَ حَيَاتِكَ - عَلَى هَذَا الدَّاءِ الْغَرِيبِ، الضَّجَرِ، مَنَبْعِ كُلِّ أَمْرَاضِكُمْ وَكُلِّ تَقَدُّمِكُمْ الْبَائِسِ. فَمَا مِنْ رَغْبَةٍ أَبَدًا سَتَتَكَوَّنُ لَدَيْكَ لَنْ أَسَاعِدَكَ عَلَى تَحْقِيقِهَا؛ وَسَتَهْنِئُ عَلَى أَشْبَاهِكَ الرَّعَاعِ، وَسَتَعِيشُ حَيَاتَكَ عَلَى تَلْقَائِي الْمَدَائِحِ وَحَتَّى التَّقْدِيسِ؛ وَالْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ وَالْأَلْمَاسَ، وَالْفُصُورَ السَّحَرِيَّةَ، سَتَأْتِي سَاعِيَةً إِلَيْكَ، تَرْجُوكَ أَنْ تَتَقَبَّلَهَا، دُونَ أَنْ تَبْدُلَ أَيَّ جُهْدٍ لَاكْتِسَابِهَا؛ وَسَوْفَ تُغَيِّرُ مَوْطِنَكَ وَتُقْنِعَكَ كَثِيرًا بِقَدْرِ مَا سَيُحَدِّدُ خَيَالُكَ لَكَ؛ وَسَتَسْتَشِي

مِنَ الشَّهَوَاتِ، بِلاَ كَلَلٍ، فِي بِلَادٍ سَاحِرَةٍ، حَيْثُ الطَّقْسُ دَائِمًا حَارٌ، وَحَيْثُ لِلنِّسَاءِ أَرِيحٌ
كَالزُّهُورِ.. وَهَلُمَّ جَرًّا، هَلُمَّ جَرًّا»، أَضَافَ وَهُوَ يَنْهَضُ مُؤَذِّنًا بِانْصِرَافِي بِبِسْمَةِ عَطُوفَةٍ.

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ نَمَّةً مَذَلَّةً أَمَامَ هَذَا الْجَمْعِ الْكَبِيرِ، لَأَزْتَمَيْتُ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ عَلَى قَدَمِي
هَذَا الْمُقَامِ الْكَرِيمِ، لِأَشْكُرَهُ عَلَى سَخَائِهِ الْخَارِقِ. لَكِنْ، شَيْئًا فَشَيْئًا، بَعْدَمَا غَادَرْتُهُ،
عَادَتِ الرَّبِيبَةُ الْمُزْمِنَةُ إِلَيَّ صَدْرِي؛ فَلَمْ أَعُدْ أَتَجَرَّأُ عَلَى الْإِيْمَانِ بِسَعَادَةِ مُعْجِزَةٍ؛ وَعِنْدَ
نَوْمِي، وَأَنَا أَتْلُو صَلَاتِي بِمَا تَبَقِيَ لَدَيَّ مِنْ عَادَةٍ غَيْبِيَّةٍ، كُنْتُ أُرَدِّدُ شِبْهَ نَائِمٍ: «إِلَهِي،
سَيِّدِي، إِلَهِي! فَتَجْعَلِ الشَّيْطَانَ يَفِي بِوَعْدِهِ لِي!»

الحبل

إلى إدوارد مانيه

كَانَ صَدِيقِي يَقُولُ لِي: «الْأَوْهَامُ أَيْضًا بِلَا حَصَرٍ، رُبَّمَا شَأْنٌ عِلَاقَاتِ الْبَشَرِ بَعْضُهُمْ
بِبَعْضٍ، أَوْ عِلَاقَاتِ الْبَشَرِ بِالْأَشْيَاءِ. وَعِنْدَمَا يَتَلَاشَى الْوَهْمُ، أَي: عِنْدَمَا تَرَى الْوُجُودَ
أَوْ الْوَاقِعَ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ خَارِجَنَا، فَإِنَّا نُحَسُّ بِشُعُورٍ غَرِيبٍ، مُرَكَّبٍ جُزْئِيًّا مِنَ الْأَسَى
عَلَى الشَّيْخِ الَّذِي تَلَاشَى، وَجُزْئِيًّا مِنَ الدَّهْشَةِ الْمُمتِعَةِ إِزَاءَ الْجَدِيدِ، إِزَاءَ الْوَاقِعِ
الْحَقِيقِيِّ. وَإِذَا مَا كَانَ ثَمَّةَ ظَاهِرَةٍ جَلِيَّةٍ، عَادِيَّةٍ، وَدَائِمًا مُتَمَاتِلَةٍ، وَمِنْ طَبِيعَةٍ لَا يُمَكِّنُ
لِلْمَرءِ أَنْ يُخْطِئَ فِيهَا، فَهِيَ الْحُبُّ الْأُمُومِي. فَمِنْ الصَّعْبِ جِدًّا افْتِرَاضُ وُجُودِ أَمٍّ بِلَا
حُبٍّ أُمُومِيٍّ شَأْنٌ ضَوْءٍ بِلَا حَرَارَةٍ؛ أَلَيْسَ - إِذَنْ - مَشْرُوعًا تَمَامًا أَنْ نُعْزِي إِلَى الْحُبِّ
الْأُمُومِيِّ كَافَّةَ أَفْعَالٍ وَأَقْوَالٍ أَمْ إِزَاءَ طِفْلِهَا؟ وَمَعَ ذَلِكَ، فَلْتَسْمَعْ هَذِهِ الْحِكَايَةَ الصَّغِيرَةَ،
الَّتِي خَدَعَنِي فِيهَا - بِصُورَةٍ فَرِيدَةٍ - أَكْثَرُ الْأَوْهَامِ طَبِيعِيَّةٍ.

«فَمِهْنَتِي كَرَسَامٌ تَدْفَعُنِي إِلَى تَأْمُلِ الْوُجُوهِ بِانْتِبَاهٍ، وَمَلَامِحِ الْجَسَدِ الَّتِي تَطْرَحُ نَفْسَهَا
فِي طَرِيقِي، وَأَنْتَ تَعْرِفُ مَدَى الْمُتَمَتُّعَةِ الَّتِي نَسْتَمِدُّهَا مِنْ هَذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْحَيَاةَ
فِي نَظَرِنَا أَكْثَرَ حَيَوِيَّةً وَدَلَالَةً مِمَّا لَدَى الْآخَرِينَ. وَفِي الْحَيِّ الْبَعِيدِ الَّذِي أَقْطُنُ فِيهِ،
وَحَيْثُ مَا تَزَالُ الْفَرَاعَاتُ الْكَبِيرَةُ الْمُخْضُوضَةُ تُفْصِلُ بَيْنَ الْمَبَانِي، كَثِيرًا مَا لَاحَظْتُ
طِفْلًا أَغْوَتَنِي - لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى - تَقَاطِيعُهُ الْمُتَوَقِّدَةُ وَالْمَاكِرَةُ، أَكْثَرُ مِنَ الْآخَرِينَ جَمِيعًا.
وَقَدْ عَمِلَ مَعِي أَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ كَمُودِيلٍ، وَأَحْيَانًا مَا رَسَمْتُهُ كَبُوهِيمِي صَغِيرٍ، وَأَحْيَانًا

كَمَلَاكَ، وَأَحْيَانًا كِلَاهِ الْحُبِّ الْأُسْطُورِيِّ. جَعَلْتُهُ يَحْمِلُ كَمَانَ الْمُتَسَرِّدِ، وَإِكْلِيلَ الشُّوكِ، وَمَسَامِيرَ الصَّلْبِ، وَشُعْلَةَ إِيْرُوسَ. وَبِاخْتِصَارٍ، فَقَدْ أَحْسَسْتُ بِمُنْعَةٍ بِالِغَةِ الْحَيَوِيَّةِ مِنْ طَرَفَةِ هَذَا الصَّبِيِّ، حَتَّى إِنِّي رَجَوْتُ وَالِدِيهِ ذَاتَ يَوْمٍ - وَهُمَا مِنَ الْفُقَرَاءِ - أَنْ يُوَافِقَا عَلَى إعْطَائِهِ لِي، عَنْ وَعْدٍ مِنِّي بِأَنْ أَكْسُوهُ جِدِّدًا، وَأُعْطِيَهُ بَعْضَ النُّقُودِ، وَالْأَ أَحْمَلُهُ عَيْنًا سِوَى تَنْظِيفِ فُرْشَاتِي وَالْقِيَامِ بِمِهْمَاتٍ لِي. وَمَا إِنِ اغْتَسَلَ هَذَا الطِّفْلُ حَتَّى أَصْبَحَ فَاتِنًا، وَبَدَتْ لَهُ الْحَيَاةُ الَّتِي يَعِيشُهَا مَعِيَ كِفَرْدُوسٍ، بِالْمُقَارَنَةِ بِتِلْكَ الَّتِي كَانَ سَيُعَانِيهَا فِي كُوخِ وَالِدِيهِ. وَلَا بَدْءَ مِنَ الْقَوْلِ فَحَسَبَ إِنَّ هَذَا الصَّبِيَّ قَدْ أَذْهَشَنِي أَحْيَانًا بَنَوْبَاتٍ فَرِيدَةٍ مِنَ الْحُزْنِ السَّابِقِ لِأَوَانِهِ، وَإِنَّهُ سَرَّعَانَ مَا كَشَفَ عَنْ مِيلٍ مُفْرِطٍ لِلْسُكْرِ وَالْخُمُورِ؛ إِلَى حَدِّ أَنِّي ذَاتَ يَوْمٍ - عِنْدَمَا تَأَكَّدْتُ مِنْ أَنَّهُ ارْتَكَبَ سَرَفَةً جَدِيدَةً مِنْ هَذَا النُّوعِ - رَغَمَ تَحْذِيرَاتِي الْمُتَكَرِّرَةَ - هَدَدْتُهُ بِإِعَادَتِهِ إِلَيَّ وَالِدِيهِ. ثُمَّ خَرَجْتُ، وَفَرَضْتُ عَلَيَّ انْشِغَالَي بِالْبَقَاءِ طَوِيلًا خَارِجَ الْبَيْتِ.

«وَمَا كَانَ أَشَدَّ رُغْبِي وَإِنْدَهَاشِي! عِنْدَمَا عُدْتُ إِلَى الْمَنْزِلِ، فَإِذَا بِأَوَّلِ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنَايَ هُوَ صَبِيٍّ، رَفِيقُ حَيَاتِي الْمَاكِرُ، مُتَدَلِّيًا مَشْنُوقًا مِنْ إِطَارِ خِرَازَةِ الْمَلَابِيسِ! وَقَدَمَاهُ بِالْكَادِ تَلْمَسَانِ الْأَرْضَ؛ وَكُرْسِيُّ مَقْلُوبٌ بِجَانِبِهِ، بَعْدَ أَنْ دَفَعَهُ - بِلَا شَكٍّ - بِقَدَمِهِ؛ كَانَتْ رَأْسُهُ مَائِلَةً - بِصُورَةٍ مُشْتَبِّحَةٍ - عَلَى أَحَدِ الْكَتِفَيْنِ، وَوَجْهُهُ مُتَنَفِّخٌ وَعَيْنَاهُ مَفْتُوحَتَانِ عَنْ آخِرِهِمَا بِتَحْدِيدَةٍ مُرْعِبَةٍ، بِمَا خَلَقَ لَدَيَّ - لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى - وَهْمَ الْحَيَاةِ. وَإِنزَالُهُ لَمْ يَكُنْ مُهِمَّةً سَهْلَةً كَمَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْظُنَّ. كَانَ قَدْ أَصْبَحَ بِالْفِعْلِ مُتَّصِلًا لِلْغَايَةِ، وَكُنْتُ أُحْسُ بِتَقَرُّزٍ غَامِضٍ مِنْ تَرَكِّهِ يَسْقُطُ بِفِظَاطَةٍ عَلَى الْأَرْضِ. كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَسْنِدَهُ بِكَامِلِهِ بِإِحْدَى الذَّرَاعَيْنِ، وَيَبِيدَ الذَّرَاعِ الْأُخْرَى أَقْطَعُ الْحَبْلَ. لَكِنَّ فِعْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ الْأَمْرُ تَمَامًا؛ فَقَدْ اسْتَحْدَمَ الْمَسْخُ الصَّغِيرُ حَبْلًا رَفِيعًا لِلْغَايَةِ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ غَاصَ بِعُمُقٍ فِي اللَّحْمِ، وَكَانَ عَلَيَّ الْآنَ أَنْ أُسْتَخْرِجَ الْحَبْلَ - بِمَقْصَصٍ صَغِيرٍ - مِنْ بَيْنِ كُتْلَتَيْنِ مِنَ الْوَرَمِ، لِأُخْلَصَ رَقَبَتَهُ.

«نَسِيتُ أَنْ أَقُولَ لَكَ، إِنِّي طَلَبْتُ الْمُسَاعَدَةَ بِالْحَاحِ؛ لَكِنَّ جَمِيعَ جِيرَانِي رَفَضُوا

الْمَجِيءَ لِمُسَاعَدَتِي، مُخْلِصِينَ فِي ذَلِكَ لِعَادَاتِ الْإِنْسَانِ الْمُتَحَضِّرِ، الَّذِي لَا يُرِيدُ بَنَاتًا - وَلَا أُدْرِي لِمَاذَا - أَنْ يَدُسَّ أَنْفَهُ فِي شُئُونِ شَخْصٍ مَشْنُوقٍ. وَفِي النَّهَائِيَّةِ، جَاءَ طَبِيبٌ وَقَرَّرَ أَنَّ الطِّفْلَ مَيِّتٌ مُنْذُ عِدَّةٍ سَاعَاتٍ. وَفِيمَا بَعْدَ، عِنْدَمَا كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نُعَرِّيه مِنْ أَجْلِ دَفْنِهِ، فَإِنَّ تَبَيُّسَ جُثَّتِهِ كَانَ قَدْ بَلَغَ حَدًّا دَفَعَنَا - عِنْدَمَا يَتَسْنَا مِنْ نَتْنِ أَعْضَائِهِ - إِلَى تَمْزِيقِ وَتَقْطِيعِ مَلَابِسِهِ لِنُخْلَعَهَا عَنْهُ.

«نَظَرُ إِلَيَّ شَرَّارًا صَابِطُ الشُّرْطَةِ الَّذِي أَبْلَغْتُهُ - بِالطَّبْعِ - بِالْحَادِثِ، وَقَالَ: «هَنَّاكَ مَا يُرِيبُ!»، مَذْفُوعًا - بِلَا شَكٍّ - بِرَغْبَةٍ مُتَأَصِّلَةٍ وَاعْتِيَادِ الْمِهْنَةِ لِبَثِّ الرُّعْبِ فِي الْأَبْرِيَاءِ وَالْمُذْنِبِينَ، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.

«لَمْ يَنْقُ سِوَى الْقِيَامِ بِمِهْمَةٍ أَخِيرَةٍ، كَانَتْ مَجْرَدُ فِكْرَتِهَا تَصِيبُنِي بِالنَّكَدِ الْمُخِيفِ: كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُخْبِرَ وَالِدَيْهِ. لَكِنْ قَدَمِي كَانَتْ تَرْفُضَانِ حَمْلِي إِلَيْهِمَا. وَفِي النَّهَائِيَّةِ، وَاتَّيَنِي الشَّجَاعَةُ. لَكِنْ أُمُّهُ - لِذُهُشَتِي الْهَائِلَةِ - ظَلَّتْ مُتَمَالِكَةً الْأَعْصَابِ، وَلَمْ تَنْفِلَتْ دَمْعَةً وَاحِدَةً مِنْ طَرَفٍ عَيْنِهَا. أَرْجَعْتُ هَذِهِ الْعَرَابَةَ إِلَى الْفَرْعِ الَّذِي لَاكَبَدْتُ أَنَّهَا أَحَسَّتْ بِهِ، وَتَذَكَّرْتُ الْعِبَارَةَ الشَّهِيرَةَ: «أَفْدَحُ الْآلَامَ هِيَ الْآلَامُ الْخَرَسَاءُ». أَمَّا الْأَبُّ، فَقَدْ اكْتَفَى بِالْقَوْلِ، فِي حَالَةِ بَيْنِ الذُّهُولِ وَالْحُلُمِ: «عَلَى آيَةِ حَالٍ، فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَفْضَلَ هَكَذَا؛ فَقَدْ كَانَ سَيَلَقَى دَائِمًا نَهَائِيَّةً سَيِّئَةً!».

«وَبَيْنَمَا كَانَ الْجُثْمَانُ مُسَجَّى عَلَى أَرِيكِتِي، وَكُنْتُ مَشْغُولًا بِالتَّرْتِيبَاتِ الْأَخِيرَةِ، بِمُسَاعَدَةِ إِحْدَى الْخَادِمَاتِ، دَخَلَتْ أُمُّهُ إِلَيَّ مُرْسِمِي. قَالَتْ إِنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَرَى جُثْمَانَ ابْنِهَا. لَمْ أَسْتَطِعْ - فِي الْحَقِيقَةِ - مَنَعَهَا مِنَ الْإِنْتِشَاءِ بِمُصِيبَتِهَا، وَرَفَضِ هَذِهِ التَّعْزِيَةِ الْأَخِيرَةِ، الْكُثْبِيَّةِ. رَجَّيْتُ أَنْ أَذْلَهَا عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي شَنَقَ فِيهِ ابْنُهَا نَفْسَهُ. «أَوَّ! لَا! يَا سَيِّدَتِي؛ فَذَلِكَ سَيَسَبِّبُ فِي أَلَمٍ»، أَجَبْتُهَا. وَإِذْ اسْتَدَارَتْ عَيْنَايَ - عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ - إِلَى خِزَانَةِ الْمَلَابِسِ الْقَاتِلَةِ، لَحِظْتُ - بِتَقَرُّزٍ مَمْرُوجٍ بِالْفَرْعِ وَالْعِظِّ - أَنَّ الْمُسَمَّارَ مَا يَزَالُ مَغْرُوسًا فِي الْإِطَارِ، مَعَ قِطْعَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْحَبْلِ مَا تَزَالُ تَنْدَلِّي. انْدَفَعْتُ بِقُوَّةٍ لَانْتِزَاعِ هَذِهِ الْأَثَارِ الْأَخِيرَةِ لِلْكَارِثَةِ؛ وَعِنْدَمَا كُنْتُ عَلَى وَشِكِ الْإِطَاحَةِ بِهَا إِلَى خَارِجِ

النَّافِذَةِ الْمَفْتُوحَةِ، أَمَسَكَتِ الْمَرْأَةُ الْبَائِسَةَ بِذِرَاعِي، وَقَالَتْ لِي بِصَوْتٍ لَا يُقَاوَمُ: «أَه! سَيِّدِي! اترك لي هذا! أَرْجُوكِ! أَتَوَسَّلُ إِلَيْكِ!». لَا شَكَّ أَنَّ يَأْسَهَا - كَمَا بَدَأَ لِي - أَصَابَهَا بِالْجُنُونِ، إِلَى حَدِّ أَنَّهَا أُغْرِمَتْ الْآنَ بِمَحَبَّةٍ مَا اسْتُخْدِمَ أَدَاةٌ فِي مَوْتِ ابْنِهَا، فَأَرَادَتْ الْاِحْتِفَاطَ بِهِ كَبَقَايَا عَزِيزَةٍ وَرَهْبَةٍ. - وَاسْتَوَلَتْ عَلَى الْمِسْمَارِ وَالْحَبْلِ.

«أَخِيرًا! أَخِيرًا! انْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ. وَلَمْ يَبْقَ سِوَى أَنْ أَعُودَ إِلَى الْعَمَلِ، بِحَيَوِيَّةٍ أَكْثَرَ حَتَّى مِنَ الْمُعْتَادِ، لِأَرْيَحَ - شَيْئًا فَشَيْئًا - هَذَا الْجُثْمَانَ الصَّغِيرَ الَّذِي كَانَ يَتَنَابَّ حَبَايَا عَقْلِي، وَالَّذِي كَانَ شَبَحُهُ يُرْهِقُنِي بِعَيْنَيْهِ الْكَبِيرَتَيْنِ الْمُحَدَّقَتَيْنِ. لَكِنِّي - فِي الْيَوْمِ التَّالِي - تَلَقَّيْتُ مَجْمُوعَةَ رَسَائِلَ، بَعْضُهَا مِنْ سُكَّانِ مَنْزِلِي، بَعْضُهَا الْآخَرُ مِنْ مَنَازِلٍ مُجَاوِرَةٍ؛ وَاحِدَةٌ مِنَ الطَّابِقِ الْأَوَّلِ؛ وَالْأُخْرَى مِنَ الثَّانِي؛ وَالتَّالِيَةُ مِنَ الثَّالِثِ،.. وَهَلُمَّ جَرًّا؛ بَعْضُهَا كُتِبَ بِأَسْلُوبٍ يَمْتَزِجُ بِالْمِزَاحِ، كَأَنَّهُ يَسْعَى إِلَى إِخْفَاءِ صَرَاحَةِ الْمَطْلَبِ تَحْتَ الدُّعَايَةِ الْوَاضِحَةِ؛ وَالرَّسَائِلُ الْآخَرَى بِالِغَةِ الْوَقَاحَةِ وَمَلِيئَةٌ بِالْأَخْطَاءِ الْهَجَائِيَّةِ، لَكِنَّهَا جَمِيعًا تَسْعَى إِلَى الْعَايَةِ نَفْسِهَا، الْحُصُولُ مِنِّي عَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْحَبْلِ الْقَاتِلِ وَالْمُبَارَكِ. وَلَا بُدَّ مِنَ الْقَوْلِ إِنَّ النِّسَاءَ - بَيْنَ الْمُوقِّعِينَ - كُنَّ أَكْثَرَ مِنَ الرِّجَالِ، لَكِنْ - صَدَّقْنِي - فَلَمْ يَكُنِ الْجَمِيعُ يَتَتَمُونَ إِلَى الطَّبَقَةِ الدُّنْيَا وَالْعَامَّةِ. وَقَدْ اخْتَفَضَتْ بِهَذِهِ الرَّسَائِلِ.

«وَهَكَذَا، فَجَاءَتْ، وَمَضَّ بَرِيقٌ فِي عَقْلِي، وَأَدْرَكْتُ سَبَبَ اهْتِمَامِ الْأُمِّ الْكَبِيرِ بِانْتِزَاعِ الْحَبْلِ مِنِّي، وَبِأَيِّ نَوْعٍ مِنَ التَّجَارَةِ^(١) كَانَتْ تُنَوِي تَعْزِيَةَ نَفْسِهَا».

(١) كان ثمة اعتقاد خرافي يُنسبُ إلى حبلِ المشنوق القدرة على منح السعادة وحسنِ الحظ؛ ولهذا كان يتم تقطيعه إلى قطع صغيرة يتم بيعها.

إلهامات

فِي حَدِيقَةٍ جَمِيلَةٍ حَيْثُ كَانَتْ أَشَعَّةُ الشَّمْسِ الْخَرِيفِيَّةِ تَبْدُو كَأَنَّهَا تَتَسَكَّعُ بِاسْتِمْتَاعٍ، وَتَحْتَ سَمَاءٍ مُخْضَوِضَةٍ كَانَتْ تَطْفُو فِيهَا غُيُومٌ ذَهَبِيَّةٌ مِثْلَ قَارَاتٍ مُسَافِرَةٍ، كَانَ ثَمَّةَ أَرْبَعَةِ أَطْفَالٍ وَسِيمِينَ، أَرْبَعَةُ أَوْلَادٍ، ضَجْرِينَ - بِلَا شَكٍّ - مِنَ اللَّعِبِ، يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

قَالَ أَحَدُهُمْ: «بِالْأَمْسِ، اضْطَحَبُونِي إِلَى الْمَسْرَحِ. وَفِي الْقُصُورِ الضَّخْمَةِ وَالْكَثِيبَةِ، الَّتِي تَرَوْنَ فِي أَعْمَاقِهَا الْبَحْرَ وَالسَّمَاءَ، يَتَحَدَّثُ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ بِصَوْتِ رَخِيمٍ، جَادِينَ وَأَيْضًا مُحْزُونِينَ، لَكِنَّهُمْ أَكْثَرُ وَسَامَةِ بِكَثِيرٍ وَأَفْضَلَ هِنْدَامًا مِمَّنْ تَرَاهُمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ. يَتَوَعَّدُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، يَتَوَسَّلُونَ، يَأْسَفُونَ، وَكَثِيرًا مَا يَضَعُونَ يَدَهُمْ عَلَى خَنْجَرٍ مَدْفُونٍ فِي الْحِزَامِ. آه! كَمْ هُوَ جَمِيل! وَالنِّسَاءُ أَجْمَلُ وَأَطْوَلُ بِكَثِيرٍ مِمَّنْ يَأْتِينَ لِيَرَوْنَنَا فِي الْمَنْزِلِ؛ رَغَمَ سِيمَائِهِنَّ الْمُخِيفَةِ بِغُيُونِهِنَّ الْكَبِيرَةِ الْخَاوِيَةِ وَخُدُودِهِنَّ الْمُتَقَدَّةِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَمْنَعُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ حُبِّهِنَّ. وَيَتَنَابُ الْمَرْءُ الْخَوْفَ، وَالرَّغْبَةَ فِي الْبُكَاءِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ سَعِيدٌ.. وَبَعْدَ، فَلَا أَكْثَرَ عَرَابَةً هُوَ أَنَّ ذَلِكَ يَخْلُقُ الرَّغْبَةَ فِي أَنْ تَلْبَسَ مِثْلَهُمْ، وَأَنْ تَقُولَ وَتَفْعَلَ نَفْسَ الْأَشْيَاءِ، وَأَنْ تَتَحَدَّثَ بِنَفْسِ الصَّوْتِ..»

أَحَدُ الْأَطْفَالِ الْأَرْبَعَةِ، وَكَانَ قَدْ كَفَّ - مُنْذُ بَضْعِ ثَوَانٍ - عَنِ الْإِنْصَاتِ إِلَى حَدِيثِ رَفِيقِهِ، وَرَاحَ يَتَأَمَّلُ بِتَحْدِيقَةِ مُدْهِشَةٍ مَا لَا أَدْرِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ فَجْأَةً: «انْظُرُوا،

انظروا، هُناكَ!.. هَلْ تَرَوْنَهُ؟ إِنَّهُ جَالِسٌ عَلَى هَذِهِ الْغَيْمَةِ الصَّغِيرَةِ الْمَعْرُولَةِ، تِلْكَ الْغَيْمَةِ الصَّغِيرَةِ يَلُونِ النَّارِ، الَّتِي تَتَمَشَّى الْهُونَى. هُوَ أَيْضًا، يُقَالُ إِنَّهُ يَرَانَا.

«لَكِنْ، مَنْ هُوَ ذَاكَ؟»، سَأَلَ الْآخَرُونَ.

«الرَّبُّ!»، أَجَابَ بِنَبَرَةٍ يَقِينٍ كَامِلٍ. «أَه! لَقَدْ أَصْبَحَ الْآنَ بَعِيدًا تَمَامًا؛ وَسُرْعَانَ مَا لَنْ نَسْتَطِيعُوا رُؤْيَيْتَهُ. لَا شَكَّ أَنَّهُ يَسَافِرُ، لَزِيَارَةِ جَمِيعِ الْبُلْدَانِ. انظُرُوا، إِنَّهُ سَيَمُرُّ خَلْفَ صَفِّ الْأَشْجَارِ هَذَا الْكَائِنِ تَقْرِيْبًا فِي الْأَفْقِ.. وَالْآنَ يَهْبِطُ خَلْفَ بُرْجِ الْكَنِيسَةِ.. أَه! لَمْ يَعُدْ يَرَى!». وَظَلَّ الطُّفْلُ مُدَّةَ طَوِيلَةٍ مُلْتَفِتًا إِلَى الْجِهَةِ نَفْسِهَا، مُحَدِّقًا فِي الْخَطِّ الَّذِي يَفْصِلُ الْأَرْضَ عَنِ السَّمَاءِ بَعِيْنَيْنِ تَلْتَمِعَانِ بِتَغْيِيرٍ غَامِضٍ عَنِ النَّشْوََةِ وَالْأَسَى.

«أَهُوَ أَبْلَهُ، ذَاكَ، مَعَ إِلَهِهِ الطَّيِّبِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ لِسَوَاهِ أَنْ يَرَاهُ!»، هَكَذَا قَالَ الثَّالِثُ، الَّذِي اتَّسَمَتْ هَيْئَتُهُ الصَّغِيرَةُ بِحَيَوِيَّةٍ وَتَوْفُؤٍ فَرِيدَيْنِ. «أَمَّا أَنَا، فَسَأُخْبِي لَكُمْ كَيْفَ حَدَثَ لِي مَا لَمْ يَحْدُثْ لَكُمْ أَبَدًا، وَمَا هُوَ أَكْثَرُ إِمْتَاعًا مِنْ مَسَرِّحِكُمْ وَعُيُومِكُمْ.. فَمُنْذُ بَضْعَةِ أَيَّامٍ، اضْطَحَبْتَنِي وَالِدَايَ فِي رِحْلَةٍ مَعَهُمَا، وَلَآنَ الْفُنْدُقِ الَّذِي نَزَلْنَا فِيهِ لَمْ يَكُنْ بِهِ مِنَ الْأَسْرِ مَا يَكْفِي لَنَا جَمِيعًا، فَقَدْ تَقَرَّرَ أَنْ أَنَامَ مَعَ مُرَبَّتِي فِي نَفْسِ السَّرِيرِ.. جَذَبَ رِفَاقَهُ لِيَقْتَرِبُوا مِنِّي، وَتَحَدَّثَ بِصَوْتٍ أَكْثَرَ انْخِفَاضًا.. «لِلَّذَلِكَ تَأْثِيرٌ فَرِيدٌ، أَلَّا تَنَامَ وَحِيدًا وَأَنْ تَرْقُدَ فِي نَفْسِ السَّرِيرِ مَعَ مُرَبَّتِي، فِي الظَّلَامِ. وَإِذْ لَمْ أَتُمْ، فَقَدْ تَسَلَّيْتُ - فِيمَا كَانَتْ نَائِمَةً - بِتَمْرِيرِ يَدِي عَلَى ذِرَاعَيْهَا، وَرَقَبَتَيْهَا، وَكَتِفَيْهَا. كَانَتْ ذِرَاعَاهَا وَرَقَبَتُهَا أَضْحَمَ مِمَّا لَدَى النِّسَاءِ الْآخَرَيَاتِ، وَبَشَرَتُهَا كَانَتْ نَاعِمَةً، نَاعِمَةً لِلْغَايَةِ مِثْلَ وَرَقِ الْكِتَابَةِ أَوْ الْوَرَقِ الشَّفَافِ. وَجَدْتُ فِي ذَلِكَ مُتْعَةً كَبِيرَةً حَتَّى إِنِّي كُنْتُ سَأَسْتَمِرُّ فِيهِ طَوِيلًا، لَوْ لَمْ يَتَسَبَّبَنِي الْخَوْفُ، الْخَوْفُ مِنْ إِيْقَاطِهَا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ الْخَوْفُ أَيْضًا مِنْ أَنْبِي لَا أَعْرِفُ مَاذَا بَعْدَ. بَعْدَهَا دَسَسْتُ رَأْسِي فِي شَعْرِهَا الْمُسْتَرْسِلِ عَلَى ظَهْرِهَا، كَثِيفًا مِثْلَ عُرْفٍ، وَكَانَتْ رَائِحَتُهُ أَيْضًا طَيِّبَةً، أَوْ كَذَلِكَ لَكُمْ، مِثْلَ زُهورِ الْحَدِيقَةِ، فِي هَذِهِ السَّاعَةِ. حَاولُوا - عِنْدَمَا تَقْدِرُونَ - أَنْ تَفْعَلُوا مَا فَعَلْتُ، وَسَتَرَوْن!».

وَفِيمَا كَانَ يَزُوي حِكَايَتَهُ، كَانَتْ عَيْنَا الْمُؤَلِّفِ الصَّغِيرِ لِهَذِهِ الرُّوْيَا الْمُدْهِشَةِ

مَشْدُوهُتَيْنِ بَنُوعٍ مِنَ الذُّهُولِ بِمَا مَا يَزَالُ يُحِسُّ بِهِ، وَأَشْعُهُ الشَّمْسِ الْعَارِبَةِ، الْمُنْسَابَةُ عَلَى الْخُصَلَاتِ الْحَمْرَاءِ لِشَعْرِهِ الْأَشْعَثِ، نُضِيبُهُ كَهَالَةٍ كِبَرِيَّتِيَّةٍ مِنَ الْوُجْدِ. كَانَ مِنَ السَّهْلِ التَّكَهُنُ بِأَنَّهُ لَنْ يُضَيِّعَ حَيَاتَهُ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْإِلَهِ وَسَطِ الْغُيُومِ، وَأَنَّهُ كَثِيرًا مَا سَيَعْتَزُّ عَلَيْهِ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى.

وَأَخِيرًا، قَالَ الرَّابِعُ: «تَعْرِفُونَ أَنِّي فَلَمَّا أَحَدُ مُتَعَةٍ فِي الْمَنْزِلِ، وَلَا يَتِمُّ أَبَدًا اضْطِحَابِي إِلَى الْعُرُوضِ، وَالْوَصِيِّ عَلَيَّ شَدِيدُ الْبُخْلِ؛ وَاللَّهُ لَا يَشْغُلُ نَفْسَهُ أَبَدًا بِي وَلَا بِضَجَرِي، وَلَيْسَتْ لَدَيَّ مُرَبِّيَّةٌ جَمِيلَةٌ لِتُدَلِّلَنِي. وَكَثِيرًا مَا يَبْدُو لِي أَنَّ مُتَعَيَّي تَكْمُنُ فِي الْمُضِيِّ دَائِمًا إِلَى الْأَمَامِ، دُونَ أَنْ أَذْرِي إِلَى آيْنٍ، وَدُونَ أَنْ يُزْعِجَ أَحَدٌ نَفْسَهُ بِي، وَأَنْ أَرَى دَائِمًا بِلَادًا جَدِيدَةً. لَا أَحِسُّ بِالسَّعَادَةِ أَبَدًا فِي أَيِّ مَكَانٍ، وَأَطُنُّ دَائِمًا أَنَّنِي سَأَكُونُ أَفْضَلَ فِي مَكَانٍ آخَرَ غَيْرِ هُنَا حَيْثُ أَكُونُ. إِيه، حَسَنًا! فَقَدْ رَأَيْتُ - فِي السُّوقِ الْأَخِيرَةِ بِالْقَرْيَةِ الْمُجَاوِرَةِ - ثَلَاثَةَ رِجَالٍ يَعْيشُونَ مِثْلَمَا أُرِيدُ أَنْ أَعِيشَ. وَأَنْتُمْ لَمْ تُعَيِّرُوا ذَلِكَ انْتِبَاهًا، أَنْتُمْ أَيْضًا. كَانُوا فَارِعِينَ، وَسُودًا تَقْرِبًا، وَمُخْتَالِينَ لِلْغَايَةِ، بِرَغْمِ مِمَّا يَرْتَدُّونَهُ مِنْ أَسْمَالٍ، بِسِيَمَاءٍ مَنْ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إِلَى أَحَدٍ. وَعُيُونُهُمُ الْوَاسِعَةُ الدَّاكِنَةُ كَانَتْ تَلْتَمِعُ تَمَامًا خِلَالَ عَزْفِهِمُ لِلْمُوسِيقَى؛ مُوسِيقَى مُدْهَشَةٍ إِلَى حَدِّ أَنَّهَا تَمْنَحُكَ شَهْوَةَ الرَّقْصِ حِينًا، وَحِينًا شَهْوَةَ الْبُكَاءِ، أَوْ أَنْ تَقُومَ بِالْأَنْثَيْنِ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَأَنَّكَ سَتَضْبِحُ كَالْمَجْنُونِ إِذَا مَا أَطْلَتِ الْاسْتِمَاعَ إِلَيْهَا. كَانَ أَحَدُهُمْ، وَهُوَ يَسْحَبُ قَوْسَهُ عَلَى كَمَانِهِ، يَبْدُو كَأَنَّهُ يَرُوي أَحَدَ الْأَحْزَانِ، وَالْآخَرُ، وَهُوَ يَدُقُّ مِطْرَقَتَهُ الصَّغِيرَةَ عَلَى أَوْتَارِ بَيَانُو صَغِيرٍ مُعَلَّقٍ بِحَبْلٍ فِي رَقَبَتِهِ، يَبْدُو كَأَنَّهُ يَسْخَرُ مِنْ أُنَيْنٍ جَارِهِ، فِيمَا كَانَ الثَّالِثُ يَضْرِبُ - مِنْ آيٍ إِلَى آخَرٍ - صُنُوجَهُ بِقُوَّةٍ هَائِلَةٍ. كَانُوا سُعْدَاءَ بِنَفْسِهِمْ، فَوَاصِلُوا عَزْفَ مُوسِيقَى الْمُتَوَحِّشِينَ هَذِهِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ انْفِصَاصِ الْجُمْهُورِ. وَفِي النَّهَايَةِ، لَمَلَّمُوا مَلَائِمَهُمْ، وَحَمَلُوا حَقَائِبَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ، وَرَحَلُوا. وَأَنَا، لِأَنَّنِي أَرَدْتُ مَعْرِفَةَ آيْنٍ يُقِيمُونَ، فَقَدْ تَبِعْتُهُمْ عَنْ بُعْدٍ، حَتَّى حَافَةِ الْغَايَةِ، حَيْثُ أَدْرَكْتُ أَنَّنِيذُ فَحَسَبَ أَنَّهُمْ لَا يُقِيمُونَ فِي أَيِّ مَكَانٍ.

أَنَّنِيذُ، قَالَ أَحَدُهُمْ: «أَيُنْبَغِي نَصَبُ الْخِيَمَةِ؟»

«الْوَاقِعُ لَا!»، رَدَّ الْآخَرُ، «فَهِيَ لَيْلَةٌ جَمِيلَةٌ لِلْغَايَةِ!»

قَالَ الثَّالِثُ، وَهُوَ يُخْصِي الْحَصِيلَةَ: «هَؤُلَاءِ النَّاسُ لَا يُحْسِنُونَ بِالْمُوسِيقَى، وَزَوْجَاتُهُمْ يَرْفُضْنَ كَالدَّبَّيَّةِ. وَلِحُسْنِ الْحِطِّ، فَسَنَكُونُ فِي النِّمَسَا قَبْلَ مُرُورِ شَهْرِ، حَيْثُ سَنَجِدُ شَعْبًا أَكْثَرَ جَاذِبِيَّةً».

«رُبَّمَا كَانَ الْأَفْضَلُ أَنْ نَذْهَبَ إِلَى إِسْبَانِيَا، لِأَنَّ هَذَا الْمَوْسِمَ يَتَقَدَّمُ؛ فَلْنَهْرَبْ قَبْلَ الْمَطَرِ وَدُونَ أَنْ نُبْلَلَ سِوَى حُلُوقِنَا»، قَالَ أَحَدُ الْاِثْنَيْنِ الْآخَرَيْنِ.

«لَقَدْ تَذَكَّرْتُ كُلَّ شَيْءٍ، كَمَا تَرَوْنَ. ثُمَّ شَرِبْتُ كُلَّ مِنْهُمْ طَاسَةً خَمْرًا، وَنَامُوا وَجِبَاهُهُمْ مُتَّجِهَةً نَحْوَ النُّجُومِ. فِي الْبِدَايَةِ، كَانَتْ لَدَيَّ الرَّغْبَةُ فِي أَنْ أَرْجُوهُمْ أَنْ يَصْطَحِبُونِي مَعَهُمْ وَأَنْ يُعَلِّمُونِي الْعَرْفَ عَلَى آلَاتِهِمْ؛ لَكِنَّ الْجُرْأَةَ لَمْ تُؤَاتِنِي، بَلَا شَكٍّ لِأَنَّهُ مِنْ الصَّعْبِ دَائِمًا أَنْ تُقَرَّرَ أَيُّ شَيْءٍ، وَأَيْضًا لِأَنِّي خِفْتُ مِنَ الْقَبْضِ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُغَادِرَ فَرَنْسَا».

سِيمَاءُ قِلَّةَ الْاهْتِمَامِ مِنَ الرَّفَاقِ الثَّلَاثَةِ الْآخَرِينَ دَفَعَتْني إِلَى التَّفْكِيرِ فِي أَنَّ هَذَا الصَّغِيرَ كَانَ بِالْفِعْلِ غَيْرَ مَفْهُومٍ. أَمَعَنْتُ النَّظَرَ فِيهِ؛ كَانَ فِي عَيْنَيْهِ وَجَبِيْنِهِ مَا لَا أَذْرِي مِمَّا هُوَ مَشْتُومٌ بِصُورَةٍ مُبَكَّرَةٍ وَيَسْتَبْعِدُ التَّعَاطُفَ عُمُومًا، وَيَسْتَشِيرُ - دُونَ أَنْ أَذْرِي السَّبَبَ - تَعَاطُفِي، إِلَى حَدِّ أَنْ وَاتَّنِي، لِإِرْهَةِ، الْفِكْرَةَ الْعَجِيبَةَ أَنِّي يُمَكِّنُ لِي أَنْ أَتَّخِذَ مِنْهُ شَقِيْقًا، مَجْهُولًا.

غَرَبَتِ الشَّمْسُ. وَاللَّيْلُ الْمَهِيْبُ اخْتَلَّ مَكَانَهُ. تَفَرَّقَ الْأَطْفَالُ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يَمْضِي - دُونَ أَنْ يَذْرِي - لَيْسَتْكَمَلْ مَصِيرِهِ، حَسَبَ الظُّرُوفِ وَالْمُصَادَفَاتِ، وَيَتَسَبَّبُ فِي الْفُضِيْحَةِ لِأَقْرِبَائِهِ، مَشْدُودًا إِلَى الْمَجْدِ أَوْ نَحْوِ الْعَارِ.

الصَّوْلَجَان

(١) إلى فرانز ليست

مَا الصَّوْلَجَان؟ حَسَبَ التَّحْدِيدِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالشَّعْرِيِّ، هُوَ رَمْزٌ كَهْنُوتِيٌّ فِي يَدِ
الْكَهَنَةِ وَالْكَاهِنَاتِ فِي احْتِفَالِهِمْ بِالْأُلُوْهِيَّةِ الَّتِي يَقُومُونَ بِدَوْرِ الْخَدَمِ وَالْمُفَسِّرِينَ لَهَا.
أَمَّا مَادِّيًّا، فَهُوَ لَيْسَ سِوَى عَصَا، مُجَرَّدَ عَصَا، عَصَا طَوِيلَةٍ مِنَ الْجُنْجُلِ، دُعَامَةٌ لِلْكُرُومِ،
جَافَّةٌ، صُلْبَةٌ وَمُسْتَقِيمَةٌ. وَحَوْلَ هَذِهِ الْعَصَا، وَبِالْإِعْيَبِ نَزَقَةٌ، تَمَرُّحٌ وَتَلَعُّبُ السَّيْفَانِ
وَالزُّهُورِ، الْأُولَى مُتَلَوِيَّةٌ وَجَبَانَةٌ، وَالْأُخْرَى مَخْنِيَّةٌ مِثْلُ أَجْرَاسٍ أَوْ كُؤُوسٍ مَقْلُوبَةٍ.
وَيَطْفُرُ مَجْدٌ مُدْهَشٌ مِنْ مُرَكَّبِ الْخُطُوطِ وَالْأَلْوَانِ هَذَا، سَوَاءٌ كَانَتْ رَقِيقَةً أَمْ صَارِيحَةً.
أَلَنْ يُقَالَ إِنَّ الْخَطَّ الْمُنْحَنِيَّ وَاللَّوَلِيَّ يُغَارِلَانِ الْخَطَّ الْمُسْتَقِيمَ وَيَرْقُصَانِ حَوْلَهُ فِي
وَلِهٍ صَامِتٍ؟ أَلَنْ يُقَالَ إِنَّ كُلَّ هَذِهِ التَّوْنِجَاتِ الرَّقِيقَةِ، كُلَّ هَذِهِ الْكُؤُوسِ، وَانْفِجَارَاتِ
الرَّوَائِحِ وَالْأَلْوَانِ، تُشَكِّلُ رَقْصَةً «فَانْدَا جُو»^(٢) صُوفِيَّةً حَوْلَ الْعَصَا الْجَامِدَةِ؟ وَعَلَى
الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، فَمَنْ ذَلِكَ الْكَائِنُ الطَّائِشُ الَّذِي يَجْرُؤُ عَلَى تَحْدِيدِ مَا إِذَا كَانَتْ الزُّهُورُ
وَالْكُرُومُ قَدْ خُلِقَتْ مِنْ أَجْلِ الْعَصَا، أَمْ أَنَّ الْعَصَا لَيْسَتْ سِوَى ذَرِيعَةٍ لِإِظْهَارِ جَمَالِ
الْكُرُومِ وَالزُّهُورِ؟ فَالْصَّوْلَجَانُ هُوَ تَمَثُّيلُ اَزْدَوَاجِيَّتِكَ الْمُدْهَشَةِ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الْقَوِيُّ
الْمُبْجَلُ، أَيُّهَا الْكَاهِنُ الْبَاخُوسِيُّ الْعَزِيزُ لِلْجَمَالِ الْعَامِضِ الْمَشْبُوبِ. فَمَا مِنْ حُورِيَّةٍ

(١) فرانز ليست: موسيقارٌ مجريٌّ (١٨١١-١٨٨٦)، كانت «لبودلير» علاقة صداقة به.

(٢) رقصة أندلسية إسبانية، تعتبر رمزًا للحسية.

حَانِقَةً عَلَى بَاخُوسِ الْمَنِيْعِ قَدْ لَوَّحَتْ بِصَوْلَجَانِهَا فَوْقَ رُءُوسِ مُرَافِقِيهَا الْمُتَمِّمِينَ بِمِثْلِ
 الْعُنْفُوَانِ وَالْمِزَاجِيَّةِ اللَّذِينَ تَسْتَشِيرُ بِهِمَا عَبْرِيَّتَكَ عَلَى قُلُوبِ أَشْقَائِكَ . - فَالْعَصَا، هِيَ
 إِرَادَتُكَ، الْمُسْتَقِيمَةُ، الصَّارِمَةُ وَالرَّاسِخَةُ؛ وَالزُّهُورُ، هِيَ نَزْهُةُ خَيَالِكَ حَوْلَ إِرَادَتِكَ؛
 هِيَ الْعُنْصُرُ الْأَثْوَى الَّذِي يَقُومُ بِالِدَّوْرَانِ الْفَاتِنِ حَوْلَ الذِّكْرِ. الْخَطُّ الْمُسْتَقِيمُ وَالْخَطُّ
 الْمُتَعَرِّجُ، النِّيَّةُ وَالتَّعْيِيرُ، صَرَامَةُ الْإِرَادَةِ، وَتَلَوِّي الْكَلِمَةِ، وَحَدَّةُ الْغَايَةِ وَتَنَوُّعُ الْوَسَائِلِ،
 وَالْمَزِيْجُ بِالِغِ الْقُوَّةُ وَالتَّمَاسُكُ لِلْعَبْرِيَّةِ، فَأَيُّ مُحَلِّلٍ سَيَمْتَلِكُ الشَّجَاعَةَ الْمَقِيَّتَةَ عَلَى
 تَقْسِيمِكَ وَتَقْطِيعِ أَوْصَالِكَ؟

لَيْسَتْ الْعَزِيزُ، عَبْرَ الضَّبَابِ، فِيمَا وَرَاءَ الْأَنْهَارِ، وَفَوْقَ الْمُدُنِ الَّتِي تُنْشِدُ فِيهَا
 الْبَيَانُوهَاتُ مَجْدَكَ، وَالْمَطْبَعَةُ تُتَرَجِّمُ حِكْمَتَكَ، أَيْنَمَا تَكُونُ، فِي رَوَائِعِ الْمَدِينَةِ الْأَبَدِيَّةِ
 أَوْ فِي ضَبَابِ الْبُلْدَانِ الْحَالِمَةِ بِالْفُنْصِلِ جَامْبِرِينُوسِ^(١)، مُرْتَجِلًا أَنَاشِيدَ اللَّذَّةِ أَوْ الْأَلَمِ
 الْخَارِقِ، أَوْ تُفْضِي إِلَى الْوَرَقِ بِتَأْمُلَاتِكَ الْمُسْتَعْصِيَةِ، فَيَا مُغْنِي الشَّهْوَةِ وَالْعَذَابِ
 الْأَبَدِيِّينَ، أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ، الشَّاعِرُ وَالْفَنَّانُ، أُحْيِيكَ فِي الْخُلُودِ.

(١) شخصية خيالية في الحكايات الشعبية الفنلندية.

فَلْتَسْكُرُوا!

لَا بُدَّ مِنَ السُّكْرِ دَائِمًا. ذَلِكَ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ: تِلْكَ هِيَ الْقَضِيَّةُ الْوَحِيدَةُ. فَحَتَّى يَنْتَفِيَّ
الْإِحْسَاسُ بِالْعِبَاءِ الرَّهيبِ لِلزَّمَنِ الَّذِي يَقْصِمُ كَاهِلَكُمْ وَيُخْنِكُمْ إِلَى الْأَرْضِ، لَا بُدَّ
لَكُمْ مِنَ السُّكْرِ بِلا هَوَادَّةٍ.

لَكِنْ بِمَ؟ بِالْخَمْرِ، بِالشَّعْرِ أَمْ الْفَضِيلَةِ، كَمَا يَخْلُو لَكُمْ. لَكِنْ فَلْتَسْكُرُوا.

وَإِذَا مَا أَفْقَتُمْ أَحْيَانًا، وَقَدْ خَفَتِ السُّكْرُ أَوْ تَلَاشَى، عَلَى دَرَجَاتٍ سَلَّمَ قَصِيرٍ، أَوْ عَلَى
عُشْبٍ قَنَاقَةٍ أَخْضَرَ، فِي الْوَحْدَةِ الْكَثِيرَةِ لِعُرْفَتِكُمْ، فَلْتَسْأَلُوا الرِّيحَ، وَالْمَوْجَةَ، وَالنَّجْمَ،
وَالْعُصْفُورَ، وَسَاعَةَ الْحَائِطِ، وَكُلَّ مَا يَتَلَاشَى، وَكُلَّ مَا يَتَأَلَّمُ، وَكُلَّ مَا يَدُورُ، وَكُلَّ
مَا يُغْنِي، وَكُلَّ مَا يَنْطِقُ، اسْأَلُوهُمْ مَا السَّاعَةُ الْآنَ؛ وَلَسَوْفَ تُجِيبُكُمُ الرِّيحُ،
وَالْمَوْجَةُ، وَالنَّجْمُ، وَالْعُصْفُورُ، وَسَاعَةُ الْحَائِطِ: «إِنَّهَا سَاعَةُ السُّكْرِ! فَحَتَّى لَا نَكُونَ
عَبِيدَ الزَّمَنِ الشُّهْدَاءَ، فَلْتَسْكُرُوا؛ فَلْتَسْكُرُوا بِلا انْتِهَاءٍ! بِالْخَمْرِ، بِالشَّعْرِ أَوْ الْفَضِيلَةِ،
كَمَا تُحِبُّونَ».

فعلاً :

مائة مَرَّةً فعلاً انبثقت الشَّمْسُ، مُشْرِقةً أو حَزِينَةً، مِنْ هَذَا الدَّنِّ الهَائِلِ لِلْبَحْرِ الَّذِي لَا يُمكنُ لِشُطْطَانِهِ أَنْ تُرَى إِلَّا بِالكَادِ؛ مائة مَرَّةً كَانَتْ تَغُوصُ مِنْ جَدِيدٍ، مُتَلَالِئَةً أَوْ مُكْتَنِبَةً، فِي حَمَامِهَا الْمَسَائِيَّ الهَائِلِ. وَعَلَى مَدَى أَيَّامٍ عَدِيدَةٍ، كَانَ بِمَقْدُورِنَا تَأْمُلُ الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْقُبَّةِ الزَّرْقَاءِ وَفَكَ شَفَرَةَ الْأَبْجَدِيَّةِ السَّمَاءِيَّةِ لِلْأَجْزَاءِ الْمُقَابِلَةِ مِنَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ. كُلُّ مُسَافِرٍ كَانَ يَتَأَفَّفُ. وَيَبْدُو أَنَّ اقْتِرَابَ الْأَرْضِ كَانَ يَزِيدُ مِنْ عَذَابِهِمْ. كَانُوا يَقُولُونَ «مَتَى سَيَكُونُ لَنَا إِذْنٌ أَنْ نَغْطِ فِي نَوْمٍ لَا يُزْعِزُهُ الْمَوْجُ، وَلَا تُزْعِجُهُ رِيحٌ تَهْدِرُ أَعْلَى مِنَّا؟ مَتَى نَسْتَطِيعُ أَكْلَ لَحْمٍ لَيْسَ مُمْلَحًا كَالْعُنْصُرِ الْكَرِيهِ الَّذِي يَحْمِلُنَا؟ وَمَتَى نَسْتَطِيعُ الْهَضْمَ فِي كُرْسِيِّ وَثِيرٍ ثَابِتٍ؟».

مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ كَانُوا يُفَكِّرُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَمَنْ يَتَحَسَّرُونَ عَلَى زَوْجَاتِهِمْ غَيْرِ الْمُخْلِصَاتِ الْعَاسَاتِ، وَدُرِّيَّتِهِمِ الصَّاحِبَةِ. كَانُوا جَمِيعًا مَحْبُولِينَ مِنْ صُورَةِ الْأَرْضِ الْغَائِبَةِ، إِلَى حَدِّ أَنَّهَمْ - فِيمَا أَظُنُّ - كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَكْلِ الْعُشْبِ بِحَمَاسٍ أَكْبَرَ مِنْ حَمَاسِ الْبَهَائِمِ.

وَأَخِيرًا، بَدَتْ عَلَامةٌ لِشَاطِطِي مَا؛ وَرَأَيْنَا - لَدَى اقْتِرَابِنَا - أَنَّهَا أَرْضٌ رَائِعَةٌ، بَاهِرَةٌ. كَانَ يَبْدُو أَنَّ مُوسِيقَاتِ الْحَيَاةِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا فِي عَمَمَةٍ غَامِضَةٍ، وَمِنْ هَذِهِ الشَّوَاطِطِ، الْغَنِيَّةِ بِالْخُضْرَةِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ، كَانَ يَقُوحُ - إِلَى أَمَاكِنَ عَدِيدَةٍ - أَرِيحٌ شَهِيٌّ لِلزُّهُورِ وَالْفَوَاحِي.

وَسَرَّعَانَ مَا أَصْبَحَ كُلُّ مِنْهُمْ مُبْتَهَجًا، وَتَخَلَّى عَنْ مِرَاجِهِ الرَّدِيءِ. كُلُّ الْمُشَاجِرَاتِ
الَّتِي نَشَبَتْ نُسِبَتْ، وَكُلُّ الْأَخْطَاءِ الْمُتَبَادَلَةِ غُفِرَتْ؛ وَالتَّرَاشِقَاتُ التَّقْلِيدِيَّةُ مُحِيتْ مِنَ
الذَّاكِرَةِ، وَالضَّغَائِنُ تَلَاشَتْ كَالدُّخَانِ.

أَنَا وَحْدِي كُنْتُ حَزِينًا، حَزِينًا فَوْقَ التَّصَوُّرِ. وَكَكَاهِنٍ نَزَعُوا عَنْهُ قَدَاسَتَهُ، لَمْ
أَسْتَطِعْ - بِلَا مَرَارَةٍ أَلِيْمَةٍ - الْإِنْفِصَالَ عَنْ هَذَا الْبَحْرِ الْمُغْوِي بِصُورَةٍ مُخِيفَةٍ، هَذَا الْبَحْرِ
الْمُتَقَلِّبِ بِصُورَةٍ لَانْهَائِيَّةٍ فِي بَسَاطَتِهِ الْمُرْعَبَةِ، وَالَّذِي - فِيمَا يَبْدُو - يَنْطَوِي فِي ذَاتِهِ
وَيُمَثِّلُ بِالْأَعْيَبِ، وَتَصَرُّفَاتِهِ، وَغَضَبَاتِهِ وَابْتِسَامَاتِهِ، النَّزَوَاتِ، وَالْعَذَابَاتِ وَالنَّشَوَاتِ
الَّتِي عَاشَتْهَا كُلُّ الْأَرْوَاحِ، وَتَعِيشُهَا، وَسَتَعِيشُهَا!

وَمَعَ قَوْلِ الْوَدَاعِ لِكُلِّ هَذَا الْجَمَالِ بِلَا نَظِيرٍ، كُنْتُ أَحْسُ بِالْحُزْنِ حَتَّى الْمَوْتِ؛
وَلِهَذَا - فَعِنْدَمَا قَالَ كُلُّ مَنْ رَفَاقِي: «أَخِيرًا!» - لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَصْرُخَ بِسَوَى: «فِعْلًا!».

وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَتْ الْأَرْضُ؛ الْأَرْضُ بِكُلِّ صَخَبِهَا، وَأَهْوَائِهَا، وَرَفَاهِيَّتِهَا
وَأَعْيَادِهَا؛ كَانَتْ أَرْضًا غَنِيَّةً وَرَائِعَةً، مُفَعِّمَةً بِالْوَعُودِ، بِمَا كَانَتْ تَبْعَثُ لَنَا مِنْ أَرِيحٍ خَفِيٍّ
لِلْوَرْدِ وَالْمِسْكِ، وَمِنْهَا كَانَتْ تَصِلُنَا مُوسِيقَاتُ الْحَيَاةِ فِي هَمِّهِمَةِ عَاشِقَةٍ.

النوافذ

مَنْ يَنْظُرُ مِنَ الْخَارِجِ، مِنْ خِلَالِ نَافِذَةٍ مَفْتُوحَةٍ، فَلَنْ يَرَى أَبَدًا شَيْئًا شَانَ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى نَافِذَةٍ مُوصَدَةٍ. فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أَكْثَرُ عُمُقًا، وَغُمُوضًا، وَخُصُوبَةً، وَخَفَاءً، وَأَلْقًا، مِنْ نَافِذَةٍ تُضِيئُهَا شَمْعَةٌ. فَمَا يُمَكِّنُ رُؤْيَاهُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ هُوَ - دَائِمًا - أَقْلُ إِثَارَةٍ مِمَّا يَجْرِي خَلْفَ زُجَاجِ نَافِذَةٍ. فَفِي هَذِهِ الْكُوَّةِ الْمُعْتَمَةِ أَوْ الْمُضِيئَةِ تَحْيَا الْحَيَاةُ، تَحْلُمُ الْحَيَاةُ، تُعَانِي الْحَيَاةُ.

فِيمَا وَرَاءَ مَوَاجِاتِ الْأَسْفُفِ، أَلْمَحُ امْرَأَةً نَاضِجَةً، أَذْرَكَتْهَا التَّجَاعِيدُ، فَقِيرَةً، مَحْنِيَّةً دَائِمًا عَلَى شَيْءٍ مَا، وَلَا تَخْرُجُ أَبَدًا. مِنْ وَجْهَهَا وَمَلَابِسِهَا وَإِيمَاءَاتِهَا، مِنْ لَا شَيْءٍ تَقْرِيئًا، أَعَدْتُ صِيَاعَةً تَارِيخِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ، أَوْ - بِالْأُخْرَى - سِيرَتِهَا، وَأَخْيَانًا مَا كُنْتُ أَخْكِيهَا لِنَفْسِي وَأَبْكِي.

وَلَوْ كَانَتْ رَجُلًا فَقِيرًا عَجُوزًا، لَكُنْتُ أَعَدْتُ صِيَاعَةً سِيرَتِهِ بِسُهُولَةٍ تَامَّةٍ.

وَأَنَا، وَأَنَا فَخُورٌ بِأَنِّي عِشْتُ وَعَانَيْتُ فِي الْآخِرِينَ لَا فِي نَفْسِي.

وَقَدْ تَقُولُونَ لِي: «أَوَإِنَّ أَنْ هَذِهِ السَّيْرَةَ هِيَ الْحَقِيقَةُ؟»؛ فَمَا أَهَمِّيَّةُ اخْتِمَالِ أَنْ تَقَعَ الْحَقِيقَةُ خَارِجِي، طَالَمَا أَنَّهَا سَاعَدَتْني عَلَى الْعَيْشِ، وَعَلَى الْإِحْسَاسِ بِأَنِّي كَائِنٌ وَمَادَا أَكُونُ؟

شهوة الرسم

قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ سَيِّئَ الْحِظِّ، لَكِنَّهُ مَحْظُوظٌ ذَلِكَ الْفَنَانُ الَّذِي تُمَرِّقُهُ الشَّهْوَةُ!

أَتَحَرَّقُ لِرَسْمِهَا، تِلْكَ الَّتِي نَادِرًا مَا تَجَلَّتْ لِي وَسَرْعَانَ مَا فَرَّتْ، مِثْلَ شَيْءٍ جَمِيلٍ
يَبْعَثُ عَلَى الْأَسَى وَرَاءَ الْمُسَافِرِ الْمُسْرِعِ فِي اللَّيْلِ. مَا أَبْعَدَ الْوَقْتُ الَّذِي انْقَضَى مُنْذُ
اخْتَفَتِ!

هِيَ جَمِيلَةٌ، وَأَكْثَرُ مِنْ جَمِيلَةٍ؛ إِنَّهَا مُدْهِشَةٌ. فِيهَا يَفِيضُ الْأَسْوَدُ، وَكُلُّ مَا تُوحِي بِهِ
لَيْلِي وَعَمِيقُ. عَيْنَاهَا مَتَاهَتَانِ يُوَمِّضُ فِيهِمَا السَّرُّ فِي غُمُوضٍ، وَنَظَرُهَا تَتَوَهَّجُ كَالْبَرْقِ.
إِنَّهَا انفِجَارٌ فِي الظُّلُمَاتِ.

وَسَيَكُونُ لِي أَنْ أَشَبَّهَهَا بِشَمْسٍ سَوْدَاءَ، إِذَا مَا كَانَ مُمَكِنًا تَصَوُّرُ كَوْكَبٍ أَسْوَدَ يَصُبُّ
الضُّوءَ وَالسَّعَادَةَ. لَكِنَّهَا تَسْتَدْعِي - بِطَوَاعِيَةٍ أَكْبَرَ - التَّفَكِيرَ فِي الْقَمَرِ، الَّذِي وَسَمَهَا -
بِلَاشِكْ - بِتَأْيِيرِهِ الرَّهِيْبِ؛ لَيْسَ قَمَرُ الْغَزَلِيَّاتِ الرَّيْفِيَّةِ الْأَبْيَضِ، الَّذِي يُشْبِهُ رَوْجَةً بَارِدَةً،
بَلِ الْقَمَرِ الْمَشْتُومِ الْمُسْكِرِ، الْمُعَلَّقِ فِي أَعْمَاقِ لَيْلٍ عَاصِفٍ، تَتَدَفَعُهُ الرِّيَّاحُ الرَّائِضَةُ؛
لَيْسَ الْقَمَرُ الْمُسَالِمُ الْكَثُومُ الَّذِي يَزُورُ نَوْمَ الْأَطْهَارِ، بَلِ الْقَمَرُ الْمُنزَوِّعُ مِنَ السَّمَاءِ،
مَهْزُومًا نَاقِمًا، إِلَى حَدِّ أَنْ يُجْبِرَهُ السَّحَرَةُ الثِّيسَالِيُّونَ - بِقَطَاظَةٍ - عَلَى الرَّفْصِ عَلَى
الْعُشْبِ الْمَذْعُورِ!

فِي جَبِينِهَا الصَّغِيرِ تَسْكُنُ الْإِرَادَةُ الْعَنِيدَةُ وَحُبُّ الْإِفْتِرَاسِ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَتَحَتَ هَذَا
الْوَجْهَ الْقَلْبِي، حَيْثُ ثَمَّةٌ مِنْخَارَانِ مُتَحَرِّكَانِ يَسْتَنَشِقَانِ الْمَجْهُولَ وَالْمُسْتَحِيلَ، يَنْفَعِجُرُ

- بِجَمَالِ عَصِيٍّ - الضَّحِكُ مِنْ فَمٍ كَبِيرٍ، أَحْمَرٌ وَأَبْيَضٌ، وَشَهِيٍّ، بِمَا يَنْبَغُ عَلَى الْحُلُمِ
بِمُعْجَزَةِ زَهْرَةٍ رَائِعَةٍ تَتَفَتَّحُ فِي أَرْضِ بُرْكَانِيَّةٍ.

ثُمَّ نِسَاءٌ يُلْهِمْنَ الرَّغْبَةَ فِي غَزْوِهِنَّ وَالْإِسْتِمْتَاعَ بِهِنَّ؛ لَكِنَّ هَذِهِ تَمْنَحُ شَهْوَةَ الْمَوْتِ
الْبَطِيءِ تَحْتَ بَصَرِهَا.

افضال القمر

القَمَرُ، الَّذِي يُمَثِّلُ النَّزْوَةَ فِي ذَاتِهَا، نَظَرَ مِنْ خِلَالِ النَّافِذَةِ فِيمَا كُنْتَ نَائِمَةً فِي مَهْدِكَ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ: «هَذِهِ الطُّفْلَةُ تُعْجِبُنِي».

وَهَبَطَ بِنُعُومَةٍ سُلِّمَهُ الْغَيْمِي، وَدَخَلَ بِلَا صَخَبٍ عَبْرَ النَّوَافِذِ الزُّجَاجِيَّةِ. ثُمَّ تَمَدَّدَ فَوْقَكَ بِالرَّقَّةِ الدَّمِيَّةِ لِأَمْ، وَتَرَكَ أَلْوَانَهُ عَلَى وَجْهِكَ. حَدَفْتَكَ ظَلَّتَا خَضِرًا وَابِنًا، وَخَدَاكَ شَاحِبِينَ بِصُورَةِ مُدْهِشَةٍ. لَكِنَّ عَيْنَيْكَ - خِلَالَ تَأَمُّلِكَ لِهَذَا الزَّائِرِ - اتَّسَعَتَا بِصُورَةِ غَرِيبَةٍ، وَبِرَقَّةٍ بِالْغَةِ، ضَمَّكَ إِلَى صَدْرِهِ فَبَقِيَ لَدَيْكَ دَائِمًا الرَّغْبَةُ فِي الْبُكَاءِ.

وَمَعَ ذَلِكَ - وَبِاتِّسَاعِ فَرْجِهِ - مَلَأَ الْقَمَرُ الْغُرْفَةَ كُلَّهَا كَمُنَاحِ فَوْسُفُورِي، كَشْرَابٍ مُضِيءٍ؛ كَانَ كُلُّ هَذَا الضَّوِّ الْحَيِّ يُفَكِّرُ وَيَقُولُ: «سَتُخَضِّعِينَ أَبَدًا لِتَأْثِيرِ قُبُلَتِي. وَسَتَكُونِينَ جَمِيلَةً عَلَى طَرِيقَتِي. سَتُحِبِّينَ مَا أَحَبُّ وَمَا يُحِبُّنِي: الْمَاءَ، وَالْغُيُومَ، وَالصَّمْتَ، وَاللَّيْلَ؛ الْبَحْرَ الْهَائِلَ وَالْأَخْضَرَ؛ الْمَاءَ الَّذِي بِلَا شَكْلٍ وَمُتَعَدِّدَ الْأَشْكَالِ؛ الْمَكَانَ الَّذِي لَنْ تَطْئِيهِ، وَالْعَاشِقَ الَّذِي لَنْ تَعْرِفِيهِ، وَالزُّهُورَ الْهَرِيَّةَ، وَالْعُطُورَ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَى الْهَذْيَانِ، وَالْقِطْطَ الَّتِي تَنْشِي فَوْقَ الْبَيَاضَاتِ، وَالَّتِي تَتَنُّ كَالنِّسَاءِ، بِصَوْتٍ أَجَشٍّ وَعَذْبٍ!

«وَسَتَكُونِينَ حَبِيبَةً أَحِبَّائِي، وَتَتَلَقَّينَ الْغُرْلَ مِنَ الْمُغَارِلِينَ لِي. سَتَكُونِينَ مَلِكَةً عَلَى الرِّجَالِ ذَوِي الْعُيُونِ الْخَضِرَاءِ مِمَّنْ ضَمَمْتُهُمْ أَيْضًا إِلَى صَدْرِي فِي مُلَاطَفَاتِي اللَّيْلِيَّةِ، وَعَلَى أَوْلَيْكَ الْمُحِبِّينَ لِلْبَحْرِ، الْبَحْرِ الشَّاسِعِ، الصَّاحِبِ وَالْأَخْضَرَ، وَلِلْمَاءِ الَّذِي بِلَا

شَكْلٌ وَمُتَعَدِّدِ الْأَشْكَالِ، وَلِلْمَكَانِ الَّذِي لَنْ يَطَّوَّهُ، وَلِلْمَرَأَةِ الَّتِي لَا يَعْرِفُونَهَا؛ وَلِلزُّهُورِ
الْمَشْتُومَةِ الَّتِي تُشَبِّهُ مَبَاخِرَ دِينَ مَجْهُولٍ، وَالْعُطُورِ الَّتِي تُزَعِّزُ الْإِرَادَةَ، وَالْحَيَوَانَاتِ
الْوَحْشِيَّةِ الشَّهَوَانِيَّةِ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَى جُنُونِهِمْ».

وَلِهَذَا، يَا طِفْلَتِي الْحَبِيبَةَ، اللَّعِينَةَ، الْمُدَلَّلَةَ، فَأَنَا الْآنَ رَاقِدٌ عِنْدَ قَدَمَيْكَ، أَبْحَثُ - فِي
كُلِّ شَخْصِيَّتِكَ - عَنِ انْعِكَاسِ الْأُلُوْهِيَّةِ الْمُخِيفَةِ، عَنِ الْعَرَابَةِ الْعَرَّافَةِ، عَنِ الْمُرْضِعَةِ
الَّتِي تُسَمِّمُ كُلَّ الْمَمْسُوسِينَ.

مِنَ الْحَقِيقَةِ؟

تَعَرَّفْتُ عَلَى فَتَاةٍ مِنْ أَتْبَاعِ الْقُدِّيسِ «بِينْدِيكْت»، كَانَتْ تَمْلَأُ الْجَوَّ بِمَا هُوَ مِثَالِي؛
وَمِنْ عَيْنَيْهَا كَانَتْ تُشِعُّ شَهْوَةَ الْعَظَمَةِ، وَالْجَمَالِ، وَالْمَجْدِ، وَكُلُّ مَا يَدْفَعُ إِلَى الْإِيمَانِ
بِالْخُلُودِ.

لَكِنَّ هَذِهِ الْفَتَاةَ الْإِعْجَازِيَّةَ كَانَتْ أَجْمَلَ بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْ تَعِيشَ طَوِيلًا؛ وَمَاتَتْ بَعْدَ
بِضْعَةِ أَيَّامٍ مِنْ تَعَرُّفِي عَلَيْهَا، وَكُنْتُ أَنَا نَفْسِي مَنْ قَامَ بِدَفْنِهَا، ذَاتَ يَوْمٍ كَانَ الرَّبِيعُ فِيهِ
يَنْفُخُ فِي مُبْخَرَتِهِ حَتَّى فِي الْمَقَابِرِ. كُنْتُ أَنَا مَنْ قَامَ بِدَفْنِهَا، فِي تَابُوتٍ - مُغْلَقٍ عَلَيْهَا
بِإِحْكَامٍ - مِنْ خَشَبٍ مُعَطَّرٍ وَعَصِيٍّ عَلَى الْفَسَادِ كَصَنَادِيقِ الْهِنْدِ.

وَفِيمَا كَانَتْ عَيْنَايَ مَا تَرَا لَانَ مُسَمَّرَتَيْنِ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي تَوَارَى فِيهَا كَنْزِي، إِذَا بِي
أَرَى فَجَاءَةً فَتَاةً صَغِيرَةً تُشَبِّهُ الْفَقِيدَةَ بِصُورَةٍ فَرِيدَةٍ، وَهِيَ تَدْهَسُ التُّرَابَ النَّدِيَّ بِعُنْفٍ
هِسْتِيرِيٍّ وَعَجِيبٍ، وَتَقُولُ مُنْفَجِرَةً بِالضَّحِكِ: «هَا آنَذَا، الْفَتَاةُ الْبِينْدِيكْتِيَّةُ الْحَقِيقَةُ!
إِنَّهَا أَنَا، الْعَاهِرَةُ الْمَعْرُوفَةُ! وَعِقَابًا لَكَ عَلَى حِمَاؤِكَ وَعَمَّاكَ، سَتُحِبُّنِي كَمَا أَنَا!».

لَكِنِّي رَدَدْتُ نَائِرًا: «لَا! لَا! لَا!». وَلِلتَّأَكِيدِ أَكْثَرَ عَلَى رَفْضِي، ضَرَبْتُ الْأَرْضَ بِقُوَّةٍ
إِلَى حَدِّ أَنْ غَاصَتْ سَاقِي حَتَّى الرُّكْبَةَ فِي الْمَدْفَنِ الْجَدِيدِ، وَكَذَّبْتُ فِي شَرَكٍ، ظَلَلْتُ
عَالِقًا - رُبَّمَا إِلَى الْأَبَدِ - بِقَبْرِ الْمِثَالِ.

حصان أصيل

هِيَ قَبِيحَةٌ لِلْغَايَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَهِيَ شَهِيَّةٌ!

الزَّمَنُ وَالْحُبُّ وَسَمَاهَا بِمَخْلَبَيْهِمَا، وَعَلَّمَاهَا بِقَسْوَةِ أَنَّ كُلَّ دَقِيقَةٍ وَكُلُّ قُبْلَةٍ إِنَّمَا تَسْرِقُ مِنَ الشَّبَابِ وَالنَّصَارَةِ.

هِيَ حَقًّا قَبِيحَةٌ؛ هِيَ نَمْلَةٌ، عَنكَبُوتٌ، بَلْ حَتَّى - إِنْ أَحْبَبْتَ - هَيْكَلٌ عَظِيمٌ؛ لَكِنَّهَا أَيْضًا شَرَابٌ، بَلَسَمٌ، وَعِرَافَةٌ! بِاخْتِصَارٍ، فَهِيَ لَذِيذَةٌ.

وَلَمْ يَسْتَطِعِ الزَّمَنُ أَنْ يَكْسِرَ التَّنَاعُمَ الْمُحْتَدِمَ فِي خَطْوِهَا، وَلَا الرَّشَاقَةَ الْمَمْنِيَّةَ لِقَوَامِهَا. وَلَمْ يُفْسِدِ الْحُبُّ عُدُوبَةَ نُكْهَتِهَا الطُّفُولِيَّةَ؛ وَلَا انْتَزَعَ الزَّمَنُ شَيْئًا مِنْ شَعْرِهَا الْعَزِيزِ الَّذِي يَعْبُقُ - فِي أَرِيحَ حُوشِيٍّ - بِكُلِّ الْحَيَوِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ لِلْجَنُوبِ الْفَرَنْسِيِّ: نِيمٌ، إِكْسٌ، آزَلٌ، أَفِينِيُونٌ، نَارَبُونٌ، تُولُوزٌ، الْمُدُنِ الْعَاشِقَةِ السَّاحِرَةِ الْمُبَارَكَةِ بِالشَّمْسِ!

وَعَبْنَا أَنْشَبَ فِيهَا الزَّمَنُ وَالْحُبُّ أَسْنَانَهُمَا الْجَمِيلَةَ؛ فَلَمْ يَنْتَقِصَا شَيْئًا مِنَ السَّحْرِ الْغَامِضِ - لَكِنَّ الْأَيْدِيَّ - لِصَدْرِهَا الصَّبِيَّانِي.

مُسْتَهْلَكَةٌ رُبَّمَا، لَكِنْ لَيْسَتْ مُتَعَبَةً، وَبُطُولِيَّةٌ دَائِمًا، تُوحِي بِتِلْكَ الْأَخْصَنَةِ عَرِيقَةَ الْأَصَالَةِ الَّتِي تَعْرِفُهَا عَيْنُ الْهَوَايِ الْحَقِيقِي، حَتَّى لَوْ كَانَتْ مَشْدُودَةً إِلَى عَرَبِيَّةٍ لِلْإِيجَارِ أَوْ عَرَبِيَّةٍ لِنَقْلِ الْأَحْمَالِ.

وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ، فَهِيَ عَذْبَةٌ لِلْغَايَةِ وَمُتَوَقِّدَةٌ! إِنَّهَا تُحِبُّ كَمَنْ يُحِبُّ فِي الْخَرِيفِ؛ وَيُقَالُ إِنْ مَقْدَمَ الشِّتَاءِ يُشْعِلُ فِي قَلْبِهَا نَارًا جَدِيدَةً، وَإِنَّ خُضُوعَ رِقَّتِهَا لَيْسَ فِيهِ مَا يُرْهَقُ أَبَدًا.

المرأة

يَدْخُلُ رَجُلٌ مُخِيفٌ، وَيَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ فِي الْمِرْآةِ.

- «لِمَاذَا تَنْظُرُ إِلَى نَفْسِكَ فِي الْمِرْآةِ، طَالَمَا أَنَّكَ لَنْ تَرَى فِيهَا إِلَّا مَا يَسُوءُكَ؟»

يُجِيبُنِي الرَّجُلُ الْمُخِيفُ: «- سَيِّدِي، وَفَقًا لِلْمَبَادِيِ الْخَالِدَةِ لِثَوْرَةِ ١٧٨٩، فَإِنَّ الْجَمِيعَ مُتَسَاوُونَ فِي الْحُقُوقِ؛ وَلِهَذَا، فَلَدَيَّ الْحَقُّ فِي النَّظَرِ إِلَى نَفْسِي فِي الْمِرْآةِ؛ بِسُرُورٍ أَوْ بِلَا سُرُورٍ، فَذَلِكَ مَا لَا يَخُصُّ سِوَى ضَمِيرِي».

بِاسْمِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، كُنْتُ - بِلَا شَكٍّ - عَلَى صَوَابٍ؛ لَكِنَّهُ - مِنَ الزَّاوِيَةِ الْقَانُونِيَّةِ - لَمْ يَكُنْ عَلَى خَطَأٍ.

الميناء

الميناء ملأذ ساجر لروح مُتَعَبَةٍ مِنْ صِرَاعَاتِ الْحَيَاةِ. اتَّسَاعُ السَّمَاءِ، وَالْمَعْمَارُ
 الْمُتَحَرِّكُ لِلْغُيُومِ، وَالْوَانُ الْبَحْرِ الْمُتَغَيِّرَةُ، وَوَمِيضُ الْفَنَارَاتِ، هِيَ جَمِيعًا طَيْفُ أَلْوَانِ
 مُنَاسِبٍ - بِصُورَةٍ رَائِعَةٍ - لِإِمْتَاعِ الْعَيْنِ بِلَا مَلَلٍ أَبَدًا. وَالْأَشْكَالُ الْفَارِعَةُ لِلشُّفَنِ، ذَاتِ
 الْعَتَادِ الْمُعَقَّدِ، الَّتِي يَطْبَعُ عَلَيْهَا اضْطِرَابُ الْأَمْوَاجِ ذَبْدَبَاتٍ مُتَنَاعِمَةٍ، تُؤَدِّي إِلَى تَغْذِيَةِ
 الرُّوحِ بِمَذَاقِ الْإِيقَاعِ وَالْجَمَالِ. ثُمَّ هُنَاكَ بِشَكْلِ خَاصٍّ نَوْعٌ مِنَ الْمُتَعَةِ الْغَامِضَةِ
 وَالْأَرُسْتُقَرَاتِيَّةِ لِمَنْ لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ فُضُولٌ وَلَا طُمُوحٌ، فِي التَّأَمُّلِ - وَهُوَ يَتَمَدَّدُ فِي
 الْمَقْصُورَةِ أَوْ يَتَكَيَّ عَلَى حَاجِزِ الْمِينَاءِ - لِكُلِّ حَرَكَاتٍ مَنْ يَزْحَلُونَ وَمَنْ يَعُودُونَ، وَمَنْ
 لَا يَزَالُونَ يَمْتَلِكُونَ قُوَّةَ الْإِرَادَةِ، وَالرَّغْبَةَ فِي السَّفَرِ أَوْ فِي الثَّرَاءِ.

صُورُ لَعَشِيقَاتٍ

فِي صَالُونٍ لِلرَّجَالِ، أَيُّ: فِي غُرْفَةٍ تَدْخِلِينَ مُلْحَقَةً بَبَيْتٍ مَشْبُوهٍ أُنِيقَ، كَانَ ثَمَّةَ أَرْبَعَةٍ رَجَالٍ يُدْخِنُونَ وَيَشْرَبُونَ. لَمْ يَكُونُوا - بِالتَّحْدِيدِ - شُبَّانًا وَلَا عَجَائِزَ، لَا وَسِيمِينَ وَلَا قَبِيحِينَ؛ لَكِنَّهُمْ - سَوَاءٌ كَانُوا عَجَائِزَ أَمْ شُبَّانًا - كَانُوا يَحْمِلُونَ هَذَا السَّمْتَ الَّذِي لَا يَخْفَى لِمُحَنِّكِينَ فِي الْمُتَعَةِ، ذَلِكَ الشَّيْءُ الْمُسْتَعْصِي عَلَى الْوَصْفِ بِمَا لَا أَذْرِي، وَهَذِهِ الْكَاتِبَةُ الْبَارِدَةُ السَّاخِرَةُ الَّتِي تَقُولُ بِوُضُوحٍ: «لَقَدْ عَشْنَا بِقُوَّةٍ، وَتَبَحُّثُ عَمَّا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَحِبَّهُ وَنُقَدِّرَهُ».

طَرَحَ أَحَدُهُمُ الْحَدِيثَ فِي مَوْضُوعِ النِّسَاءِ. وَكَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ تَفَلُّسًا فِيمَا لَوْ لَمْ يَطْرَحْهُ أَصْلًا؛ لَكِنْ ثَمَّةَ مُفَكِّرِينَ لَا يَسْتَنْكِفُونَ - بَعْدَ الشُّرْبِ - مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُتَبَدِّلَةِ. وَبِالتَّالِي، فَمَنْ يَسْتَمِعُ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ فَكَأَنَّهُ يَسْتَمِعُ لِمُوسِيقَى الرَّقْصِ.

«كُلُّ الرَّجَالِ - قَالَ - كَانُوا ذَاتَ يَوْمٍ فِي عُمْرِ الْأَطْفَالِ الْمَلَانِكَةِ. إِنَّهَا الْحِقْبَةُ الَّتِي يَتِمُّ فِيهَا - بِفِعْلِ نَقْصِ الْحُورِيَّاتِ - مُعَانَقَةُ جُذُوعِ السَّنَدِيَّانِ، بِلَا تَفُورَ. تِلْكَ هِيَ الدَّرَجَةُ الْأُولَى مِنَ الْحُبِّ. فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، يَبْدَأُ الْمَرْءُ فِي الْاِخْتِيَارِ. الْقُدْرَةُ عَلَى إِمْعَانِ التَّفَكِيرِ، أَصْبَحَتْ الْآنَ انْحِطَاطًا. انْتَبَذَ يَتِمُّ الْبَحْثُ - بِحَيَمِيَّةٍ - عَنِ الْجَمَالِ. وَبِالنِّسْبَةِ لِي، أَيُّهَا السَّادَةُ، فَأَنَا أَتْبَاهِي بِالْوُصُولِ - مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ - إِلَى الْمَرْحَلَةِ الْحَرَجَةِ مِنَ الدَّرَجَةِ الثَّلَاثَةِ حَيْثُ لَمْ يَعُدِ الْجَمَالُ فِي ذَاتِهِ كَافِيًا لِي، إِنْ لَمْ يُتَبَلَّ بِالْعَطْرِ، وَالْحُلِيِّ، ... إلخ. بَلْ اعْتَرَفَ أَنِّي أَهْفُو أحيانًا - مِثْلَمَا إِلَى سَعَادَةٍ مَجْهُولَةٍ - إِلَى دَرَجَةٍ رَابِعَةٍ مُعَيَّنَةٍ يَنْبَغِي أَنْ

تَسِمَ بِالسُّكُونِ الْمُطْلَقِ. لَكِنِّي - طَوَالَ حَيَاتِي كُلِّهَا، عَدَا عُمُرِ الْأَطْفَالِ الْمَلَائِكَةِ - كُنْتُ أَكْثَرَ حَسَّاسِيَّةً مِنْ جَمِيعِ الْآخَرِينَ نَحَاةَ الْغَبَاءِ الْمُرْعِجِ، وَالْإِتِّدَالِ الْمُثِيرِ لِلْغَيْظِ لَدَى النِّسَاءِ. ذَلِكَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا أَحْبَبْتُ فِي الْحَيَوَانَاتِ، هُوَ سَلَامَةُ بَيْتِهَا. فَتَحَيَّلُوا - إِذَنْ - مَدَى مَا عَانَيْتُ مِنْ عَشِيقَتِي الْأَخِيرَةِ.

كَانَتْ الْابْنَةُ غَيْرَ الشَّرْعِيَّةِ لِأَحَدِ الْأَمْراءِ. وَلَا حَاجَةَ لِلْقَوْلِ إِنَّهَا جَمِيلَةٌ؛ وَإِلَّا - إِنْ لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ - فَلِمَذَا أَخَذُهَا؟ لَكِنَّهَا أَفْسَدَتْ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ الْعَظِيمَةَ بِطُمُوحٍ مُنْحَرِفٍ وَمُشَوَّهٍ. كَانَتْ امْرَأَةً تُرِيدُ دَائِمًا أَنْ تَلْعَبَ دَوْرَ الرَّجُلِ. «أَنْتَ لَسْتَ رَجُلًا! أَو! لَوْ كُنْتُ رَجُلًا! مِنَّا نَحْنُ الْإِثْنَيْنِ، أَنَا الرَّجُلُ!». تِلْكَ كَانَتْ اللَّازِمَةُ الَّتِي لَا تُطَاقُ، الَّتِي كَانَتْ تَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْقَلَمِ الَّذِي لَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَنْ أَرَى سِوَى الْأَغَانِي تَتَطَايَرُ مِنْهُ. أَمَّا إِذَا أَفَلَتَ مِنِّي الْإِعْجَابُ بِكِتَابٍ مَا، أَوْ قَصِيدَةٍ، أَوْ أُوبرَا: «هَلْ تَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ عَمَلٌ رَفِيعٌ جِدًّا؟» - كَانَتْ تَقُولُ فِي الْحَالِ - مَا الَّذِي تَعْرِفُهُ عَنِ الرَّفْعَةِ؟»، وَتَرْوُحُ تُجَادِلُ.

«ذَاتَ يَوْمٍ جَمِيلٍ قَامَتْ بِتَحَوُّلٍ جَذْرِيٍّ؛ بِحَيْثُ وَجَدْتُ بَيْنَ فَمِي وَفَمِهَا - مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ - قِنَاعًا مِنْ رُجَاجٍ. وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ، كَانَتْ بِالْعَةِ التَّزَمَّتْ. فَإِذَا مَا دَفَعْتُهَا - ذَاتَ مَرَّةٍ - فِي لَفْتَةٍ حُبٍّ زَائِدَةٍ قَلِيلًا مَا، يَتَّبِعُهَا التَّشْنُّجُ كَامْرَأَةٍ مُرْهَقَةٍ تَمَّ اغْتِصَابُهَا..

- «كَيْفَ انْتَهَى ذَلِكَ؟»؛ سَأَلَ أَحَدَ الرِّجَالِ الثَّلَاثَةِ الْآخَرِينَ. «فَأَنَا لَمْ أَعْهَدْكَ صَبُورًا هَكَذَا».

أَجَابَ: «إِنَّ اللَّهَ يَضَعُ فِي الدَّاءِ الدَّوَاءَ. فَذَاتَ يَوْمٍ، وَجَدْتُ «مَنِيرَفَا»^(١) هَذِهِ - فِي جُوعِهَا إِلَى الْقُوَّةِ الْمِثَالِيَّةِ - فِي حَالَةٍ حَمِيمِيَّةٍ مَعَ خَادِمِي، وَفِي وَضْعٍ أَجْبَرَنِي عَلَى الْإِنْسِحَابِ خَفِيَّةٍ حَتَّى لَا أَنْسَبَّ فِي إِخْرَاجِهِمَا. وَفِي الْمَسَاءِ، طَرَدْنُهُمَا الْإِثْنَيْنِ، وَدَفَعْتُ لَهُمَا مَتَأَخَّرَاتٍ أَجْرِيَهُمَا».

- «أَمَّا أَنَا - رَدَّ الْمُقَاطِعِ - فَلَا يُمَكِّنُنِي الشُّكُوى إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَالْسَّعَادَةُ أَنْتَ لِتَسْكُنَ عِنْدِي، لَكِنِّي لَمْ أَتَعَرَّفَ عَلَيْهَا. فَفِي الْآوَةِ الْأَخِيرَةِ، مَنَحَنِي الْقَدْرُ مِلْدَاتٍ امْرَأَةٍ كَانَتْ

(١) منيرفا: ربة الحكمة والعلوم في الأساطير الرومانية.

بِالْفِعْلِ الْأَكْثَرِ رِقَّةً، وَطَوَاعِيَّةً، وَإِخْلَاصًا مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَدَائِمًا عَلَى أَهْبَةِ
الِاسْتِعْدَادِ! وَبِلَا حِمَاسٍ! «أُرِيدُهُ، لِأَنَّهُ يُعْجِبُكَ». كَانَ ذَلِكَ رَدَّهَا الْمُعْتَادَ. وَإِذَا مَا
قَرَعَتْ هَذَا الْحَائِطَ أَوْ يَلُوكَ الْأَرِيكَةَ بِالْعَصَا، فَلَنْ تَظْفَرُ مِنْهَا بِتَأْوِهَاتٍ أَكْثَرَ مِمَّا تَظْفَرُ
بِهِ مِنْ صَدْرِ عَشِيقَتِي مِنْ انْدِفَاعَاتِ الْحُبِّ الضَّارِي. وَبَعْدَ عَامٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْمُشْتَرَكَةِ،
اعْتَرَفَتْ لِي بِأَنَّهَا لَمْ تُحَسَّ أَبَدًا بِالْمُنْتَعَةِ. تَفَرَّزْتُ مِنْ هَذِهِ الْمُبَارَزَةِ غَيْرِ الْمُتَكَافِئَةِ، ثُمَّ
تَزَوَّجَتْ هَذِهِ الْفَتَاةَ الْاسْتِثْنَائِيَّةَ. وَفِيمَا بَعْدَ، رَاوَدْتَنِي نَزْوَةً أَنْ أَرَاهَا مِنْ جَدِيدٍ، وَقَالَتْ
لِي - وَهِيَ تُرِينِي سِتَّةَ أَطْفَالٍ جَمِيلِينَ: أَوَ حَسَنًا! يَا صَدِيقِي الْعَرِيزِ، فَالزَّوْجَةُ مَا تَزَالُ
أَيْضًا عَذْرَاءً مِثْلَمَا كَانَتْ عَشِيقَتُكَ». لَا شَيْءَ تَغَيَّرَ فِي هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ. وَأَحْيَانًا مَا أُنَدِمُ
عَلَيْهَا؛ فَقَدْ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَزَوَّجَهَا.

انطَلَقَ الْآخَرُونَ فِي الضَّحِكِ، وَقَالَ الثَّلَاثُ بِدَوْرِهِ:

«أَيُّهَا السَّادَةُ، لَقَدْ عَرَفْتُ مَلَذَّاتِ رُبَّمَا تَغَاضَيْتُمْ عَنْهَا. فَأَنَا أُرِيدُ الْحَدِيثَ عَمَّا هُوَ
كُومِيدِيٌّ فِي الْحُبِّ، الْكُومِيدِيُّ الَّذِي لَا يَتَنَافَى مَعَ الْإِعْجَابِ. فَقَدْ أُعْجِبْتُ بِعَشِيقَتِي
الْأَخِيرَةِ بِأَكْثَرِ مِمَّا اسْتَطَعْتُمْ - فِيمَا أَظُنْ - أَنْ تَكْرَهُوا أَوْ تُحِبُّوا عَشِيقَاتِكُمْ. وَقَدْ أُعْجِبَ
بِهَا الْجَمِيعُ مِثْلِي. وَعِنْدَمَا كُنَّا نَدْخُلُ أَحَدَ الْمَطَاعِمِ، كَانَ الْجَمِيعُ - بَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقَ -
يَنْسُونِ الطَّعَامَ كَيْ يَتَأَمَّلُوهَا. حَتَّى النَّدُلُ وَسَيِّدَةُ الْخَزِينَةِ أَحْسَوْا بِهَذَا الْاِفْتِنَانِ الْمُعْدِي
إِلَى حَدِّ نِسْيَانٍ وَاجِبَاتِهِمْ. بِاخْتِصَارٍ، فَقَدْ عَشْتُ - بَعْضُ الْوَقْتِ - فِي حَالَةِ حَمِيمِيَّةٍ مَعَ
ظَاهِرَةِ حَيَّةٍ. كَانَتْ تَأْكُلُ، وَتَمَضْغُ، وَتَهْرُسُ، وَتَلْتَمِصُ، وَتَبْتَلِغُ، لَكِنْ بِالطَّرِيقَةِ الْأَكْثَرِ حِفَّةً
وَلَا مُبَالَاةً فِي الْعَالَمِ. وَلَوْ قُتِلَ، أَبْقَيْتَنِي فِي حَالَةِ نَشْوَةٍ. كَانَتْ لَدَيْهَا طَرِيقَةُ عَذْبَةٍ،
وَحَالِمَةٍ، إِنْجِلِيزِيَّةٍ وَرُومَانِيَّةٍ فِي قَوْلٍ: «أَنَا جَائِعَةٌ!». وَكَانَتْ تُكْرِّرُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ لَيْلَ
نَهَارٍ، وَهِيَ تَكْشِفُ عَنْ أَجْمَلِ أَسْنَانٍ فِي الْعَالَمِ، يُمَكِّنُ لَهَا أَنْ تُؤَثِّرَ فِيكَ وَتُبْهِجَكَ فِي
آن. - كَانَ بِمَقْدُورِي أَنْ أَكُونَ نَزْوَةً مِنْ عَرْضِهَا فِي الْأَسْوَاقِ كَوَخْشٍ أَكُولٍ. كُنْتُ
أَطْعِمُهَا جَيِّدًا، وَمَعَ ذَلِكَ هَجَرْتَنِي..

- إِلَى مُورِدِ مَوَادِّ غَذَائِيَّةٍ، وَلَا شَكَّ؟

- شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، مُوْظَفٌ مَا فِي إِدَارَةِ التَّمْوِينِ الْعَسْكَرِيَّةِ، كَانَ - بِفِعْلِ مَوَارِدَ

مَشْبُوهَةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ - يُقَدِّمُ رُبَّمَا حِصَّةَ الْعَدِيدِ مِنَ الْجُنُودِ إِلَى هَذِهِ الطِّفْلِ الْبَائِسَةِ.
ذَلِكَ - عَلَى الْأَقْل - مَا ظَنَنْتُهُ..

- «أَمَّا أَنَا - قَالَ الرَّابِعُ - فَقَدْ تَحَمَّلْتُ عَذَابَاتِ بَشِيعَةٍ يَفْعَلُ نَقِيضِ مَا نُوَاخِذُ عَلَيْهِ -
بِشَكْلِ عَامٍ - الذَّائِيَةِ الْأَثْوِيَّةِ. وَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّكُمْ عَلَى صَوَابٍ - أَيُّهَا الْمَحْظُوظُونَ لِلْغَايَةِ -
بِالشَّكْوَى مِنْ نَقَائِصِ عَشِيقَاتِكُمْ!»

قِيلَ ذَلِكَ بِنَبَرَةٍ جَادَّةٍ لِلْغَايَةِ، مِنْ رَجُلٍ لَهُ سَمْتُ رَفِيقٍ وَرَصِينٍ، وَمَلَامِحُ كَهْنُوتِيَّةٍ
تَقْرِبًا، تُشْرِقُ فِيهَا - بِصُورَةٍ كَثِيَّةٍ - عَيْنَانِ بِلَوْنِ رَمَادِيٍّ فَاتِحٍ، عَيْنَانِ تَقُولُ نَظَرْتُهُمَا:
«أَرِيدُ!» أَوْ «لَا بُدَّ!» أَوْ حَتَّى «لَا أَغْفِرُ أَبَدًا!»

«وَكَشَخَصِ عَصِيٍّ كَمَا أَعْرِفُكَ، يَا ج...، وَخَوَافِنِ وَطَائِشِنِ مِثْلَكُمَا، أَنْتُمَا الْاِثْنَيْنِ،
يَا ك وَج...، فَلَوْ أَنَّكُمْ اِزْبَطْتُمْ بِأَمْرَاءَ مَا مِنْ مَعَارِفِي، لَكُنْتُمْ قَدْ قَرَزْتُمْ أَوْ مِتُّم. أَمَّا أَنَا،
فَقَدْ وَاصَلْتُ الْعَيْشَ، كَمَا تَرُونَ. فَلْتَسَخِّلُوا شَخْصًا غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى اِزْتِكَابِ خَطَأٍ فِي
الْإِحْسَاسِ أَوْ الْحِسَابِ؛ تَخَيَّلُوا سَكِينَةً كَثِيَّةً لِلشَّخْصِيَّةِ؛ إِخْلَاصًا بِلاَ اِفْتِعَالٍ أَوْ مُغَالَاةٍ،
رِقَّةً بِلاَ وَهْنٍ؛ وَطَاقَةً بِلاَ غُف. فَقِصَّةُ حُبِّي تُشْبِهُ رِحْلَةً لَا تَنْتَهِي عَلَى سَطْحِ نَقِيٍّ
وَأَمْلَسَ، كَمِرَاةٍ، رَتِيبَ بِصُورَةٍ تَبْعَتْ عَلَى الدُّوَارِ، وَيَعْكِسُ كُلَّ أَحَاسِيْسِي وَإِيْمَاءَاتِي
بِالدَّقَّةِ السَّاخِرَةِ لِشُعُورِي الْعَمِيقِ، إِلَى حَدِّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَادِرًا عَلَى السَّمَاحِ لِنَفْسِي
بِإِيْمَاءَةٍ أَوْ إِحْسَاسٍ أَخْرَقَ دُونَ الْإِذْرَاكِ الْمُبَاشِرِ لِلتَّائِبِ الصَّامِتِ مِنْ قَرِينِي الْمُلَازِمِ
لِي. كَانَ الْحُبُّ يَبْدُو لِي نَوْعًا مِنَ الْوَصَايَةِ. فَكَمْ مِنَ الْحَمَاقَاتِ مَنَعْتَنِي مِنْ اِزْتِكَابِهَا،
وَكَمْ نَدِمْتُ عَلَى عَدَمِ اِزْتِكَابِهَا! وَكَمْ مِنَ الدُّيُونِ سَدَّدْتُهَا رَغَمَ أَنْفِي! لَقَدْ حَرَمْتَنِي مِنْ
كُلِّ الْمَزَايَا الَّتِي كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ أُسْتَفِيدَ بِهَا مِنْ حِمَايَتِي الشَّخْصِيَّةِ. وَبِمَنْهَجٍ بَارِدٍ لَا يُفْهَرُ،
كَانَتْ تَعْتَرِضُ كُلَّ نَزَوَاتِي. وَإِمْعَانًا فِي الرُّعْبِ، فَهِيَ لَمْ تَكُنْ تُطَالِبُ بِعَرْفَانٍ، بَعْدَ مُرُورِ
الْخَطَرِ. وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ مَنَعْتُ نَفْسِي مِنَ الْإِطْبَاقِ عَلَى حَلْقِهَا، صَارِحًا فِيهَا: «فَلْتَكُونِي
إِذَنْ نَاقِصَةً أَيُّهَا الْبَائِسَةُ! لِيُمْكِنَ لِي أَنْ أُحِبَّكَ بِلاَ خُبْثٍ أَوْ غَضَبٍ». وَعَلَى مَدَى سَنَوَاتٍ
عَدِيدَةٍ، كُنْتُ مُعْجَبًا بِهَا، وَالْقَلْبُ مُفْعَمٌ بِالْكَرَاهِيَّةِ. وَفِي النَّهَائِيَّةِ، لَمْ يَكُنْ أَنَا مَنْ مَاتَ!

- أَوْه! - قَالَ الْآخَرُونَ - إِذَنْ فَقَدْ مَاتَتْ؟

- نَعَمْ! فَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُمَكِّنًا أَنْ يَسْتَمِرَّ هَكَذَا. كَانَ الْحُبُّ قَدْ أَصْبَحَ - بِالنِّسْبَةِ لِي -
 - كَابُوسًا مُضْنِيًّا. الْإِنْتِصَارُ أَوْ الْمَوْتُ، كَمَا تَقُولُ السِّيَاسَةُ، كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْخِيَارُ الَّذِي
 فَرَضَهُ عَلَيَّ الْقَدَرُ! فَذَاتَ مَسَاءٍ، فِي غَايَةِ.. عَلَى حَافَةِ بَرَكَةٍ.. بَعْدَ نُزْهَةٍ كَثِيرَةٍ كَانَتْ فِيهَا
 عَيْنَاهَا تَعْكِسَانِ رِقَّةَ السَّمَاءِ، وَحَيْثُ كَانَ قَلْبِي مُنْقَبِضًا مِثْلَ الْجَحِيمِ..

- مَاذَا!

- كَيْفَ!

- مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ؟

- كَانَ ذَلِكَ مَحْتُمًا. كَانَ لَدَيَّ إِحْسَاسٌ زَائِدٌ بِالْعَدَالَةِ يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَضْرِبَ أَوْ أَهِينَ
 أَوْ أَطْرُدَ خَادِمًا لَا مَاخَذَ عَلَيْهِ. لَكِنْ كَانَ يَنْبَغِي التَّوْفِيقُ بَيْنَ هَذَا الْإِحْسَاسِ وَالرُّعْبِ
 الَّذِي يَبْثُهُ هَذَا الْكَائِنُ دَاخِلِي؛ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ هَذَا الْكَائِنِ دُونَ أَنْ أَفْقِدَ احْتِرَامِي لَهُ. فَمَا
 الَّذِي كُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ أَفْعَلَهُ بِهَا، وَقَدْ كَانَتْ كَامِلَةً؟»

نَظَرَ الرَّفَاقُ الثَّلَاثَةَ الْآخَرُونَ إِلَيْهِ نَظْرَةً غَامِضَةً وَبَلِيدَةً إِلَى حَدِّ مَا، كَأَنَّهُمْ يَتَظَاهَرُونَ
 بِعَدَمِ الْفَهْمِ، وَكَأَنَّهُمْ يَقْرَءُونَ ضَمْنِيًّا بِأَنَّهُمْ لَا يُحْسِنُونَ - هُمْ أَنْفُسُهُمْ - بِالْقُدْرَةِ عَلَى
 ارْتِكَابِ فِعْلٍ بِمِثْلِ هَذِهِ الْقَسْوَةِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ تَبْرِيرُهُ كَافِيًا.

بَعْدَهَا، تَمَّ إِحْضَارُ قَتِينَاتٍ جَدِيدَةٍ، لِيَقْتُلُوا الزَّمَنَ - الَّذِي يَنْطَوِي عَلَى حَيَاةٍ بِالْغَةِ
 الْقَسْوَةِ، وَيَعْجَلُوا بِالْحَيَاةِ الَّتِي تَنْسَابُ بِطُءٍ بَالِغٍ.

الرّامي اللطيف

بَيْنَمَا كَانَتْ الْعَرَبَةُ تَخْتَرِقُ الْغَابَةَ، أَوْفَقَهَا بِالْقُرْبِ مِنْ مَوْعٍ رِمَايَةٍ، وَهُوَ يَقُولُ إِنَّهُ سَيَكُونُ مُمْتَعًا لَهُ أَنْ يُطْلَقَ بِضَعِ رَصَاصَاتٍ لِقَتْلِ الزَّمَنِ. فَقَتَلَ ذَلِكَ الْوَحْشَ، أَلَيْسَ الشَّاعِلُ الْأَكْثَرُ عَادِيَّةً وَمَشْرُوعِيَّةً لَدَى الْجَمِيعِ؟ - وَقَدَّمَ بِلُطْفٍ يَدَهُ إِلَى زَوْجَتِهِ الْعَزِيزَةِ، الشَّهِيَّةِ، وَالْمَقِيَّتَةِ، إِلَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْغَامِضَةِ الَّتِي يَدِينُ لَهَا بِالْكَثِيرِ مِنَ الْمَلَذَّاتِ، وَالْكَثِيرِ مِنَ الْعَذَابَاتِ، وَرُبَّمَا أَيْضًا بِنَصِيبٍ وَافٍ مِنْ عِبْقَرِيَّتِهِ.

رَصَاصَاتٌ كَثِيرَةٌ طَاشَتْ بَعِيدًا عَنِ الْهَدَفِ الْمُفْتَرَضِ؛ بَلْ غَاصَتْ إِحْدَاهَا فِي السَّقْفِ؛ وَعِنْدَمَا ضَحِكَتِ الْمَخْلُوقَةُ السَّاحِرَةُ بِحِمَاقَةٍ، سَاحِرَةً مِنْ رُغُونَةِ زَوْجِهَا، اسْتَدَارَ إِلَيْهَا فَجَاءَةً، وَقَالَ: «رَاقِبِي هَذِهِ الدُّمِيَّةَ، هُنَاكَ، إِلَى الْيَمِينِ، الَّتِي تَشْمَخُ بِأَنْفِهَا فِي الْهَوَاءِ، وَالَّتِي تَحْمِلُ سِيمَاءَ مُتَعَجِّرَةٍ. حَسَنًا! يَا مَلَائِكِي الْعَزِيزِ، إِنِّي أَنْصَوْرُهَا أَنْتِ». وَأَغْمَضَ الْعَيْنَيْنِ وَضَغَطَ عَلَى الزِّنَادِ. قُطِعَتْ رَأْسُ الدُّمِيَّةِ تَمَامًا.

بَعْدَهَا، وَهُوَ يَنْحِنِي إِلَى زَوْجَتِهِ الْعَزِيزَةِ، الشَّهِيَّةِ، الْمَقِيَّتَةِ، مَعْبُودَتِهِ الْمَحْتَوَمَةِ الْقَاسِيَةِ، وَيُقَبِّلُ يَدَهَا بِاحْتِرَامٍ، أَصَافَ: «آه! يَا مَلَائِكِي الْعَزِيزِ، كَمْ أَشْكُرُكَ عَلَى بَرَاعَتِي!»

الحساء والشُحْب

كَانَتْ مَحْبُوبَتِي الْمَخْبُولَةُ الصَّغِيرَةُ تُقَدِّمُ لِي الْعَسَاءَ، وَعَبْرَ النَّافِذَةِ الْمَفْتُوحَةِ لِغُرْفَةِ
الطَّعَامِ كُنْتُ أَتَأَمَّلُ الْهِنْدَسَاتِ الْمِعْمَارِيَّةَ الْمُتَحَرِّكَةَ الَّتِي صَنَعَهَا اللَّهُ مِنَ الْأَبْخَرَةِ،
وَالْأَبْنِيَّةِ الرَّائِعَةِ غَيْرِ الْمَحْسُوسَةِ. كُنْتُ أَقُولُ لِنَفْسِي، خِلَالَ تَأْمُلِي: «كُلُّ هَذِهِ الرُّؤْيَى
الْخَارِقَةِ جَمِيلَةٌ تَقْرِيبًا بِقَدْرِ جَمَالِ عَيْنِي مَحْبُوبَتِي الْجَمِيلَةِ، الْمَخْبُولَةِ الْوَحْشِيَّةِ الصَّغِيرَةِ
ذَاتِ الْعَيْنَيْنِ الْخَضِرَاوَيْنِ».

وَفَجَاءَتْ تَلَقَّيْتُ ضَرْبَةً عَنِيفَةً بِقَبْضَةٍ عَلَى ظَهْرِي، وَسَمِعْتُ صَوْتًا أَجَشَّ سَاحِرًا،
صَوْتًا هِسْتِيرِيًّا كَأَنَّ الْخَمَرَ قَدْ أَبَحَهُ، صَوْتٌ مَحْبُوبَتِي الصَّغِيرَةِ الْعَزِيزَةِ: «أَلَنْ تَتَنَاوَلَ
الآنَ حِسَاءَكَ، أَيُّهَا التَّابِعُ الْمُقَدَّسُ لِتَابِعِ الشُّحْبِ؟»

سَاحَةُ الرَّمَايَةِ وَالْمَقْبَرَةِ

مَشْهَدُ الْمَقْبَرَةِ، حَانَةٌ. - «لَا فِتْنَةَ فَرِيدَةً»، - قَالَ لِنَفْسِهِ صَاحِبُنَا الْمُتَنَزِّهَ، - «لَكِنَّهَا مَصْنُوعَةٌ جَيِّدًا لِتُثِيرَ الظَّنَّ! بِالتَّأَكُّدِ، فَصَاحِبُ هَذِهِ الْخَمَّارَةِ يَعْرِفُ كَيْفَ يُقَدِّرُ «هُورَاس»^(١) وَالشُّعْرَاءَ مِنْ تَلَامِيذَةِ أَبِيقُورٍ. بَلْ رُبَّمَا يَعْرِفُ الرَّهَافَةَ الْعَمِيقَةَ لِقُدَمَاءِ الْمُضَرِّيِّينَ، الَّذِينَ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ مَادُوبَةً جَيِّدَةً بِالنَّسْبَةِ لَهُمْ دُونَ مُومِيَاءَ، أَوْ دُونَ رَمُزٍ مَا يُوجِي بِقِصَرِ الْحَيَاةِ».

دَخَلَ، فَشَرِبَ كَأْسَ بَيْرَةِ أَمَامَ الْمَقَابِرِ، وَدَخَنَ بِبُطْءٍ سِيَجَارًا. ثُمَّ دَفَعَتْهُ الْفَانْتَازِيَا إِلَى الْهُبُوطِ فِي هَذِهِ الْمَقْبَرَةِ، الَّتِي كَانِ الْعُشْبُ فِيهَا طَوِيلًا وَمُغْرِيًا، وَحَيْثُ كَانَتْ الشَّمْسُ الْقَوِيَّةُ طَاغِيَةً.

وَفِي الْوَاقِعِ، فَقَدْ كَانَ الضُّوءُ وَالْحَرَارَةُ فِيهَا مُتَوَقَّدَيْنِ، وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ الشَّمْسَ السَّكَرَانَةَ كَانَتْ تَتَمَرَّغُ بِكُلِّ قَامَتِهَا عَلَى سَجَادَةٍ مِنْ زُهُورٍ رَائِعَةٍ تَغْتَذِي مِنَ الْخَرَابِ. كَانَ صَخْبٌ هَائِلٌ لِلْحَيَاةِ يَمْلَأُ الْعُجُو - حَيَاةَ الْكَائِنَاتِ بِالْغَةِ الصَّغَرِ - وَتَقَطُّعُهُ عَلَى فِتْرَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ فَرَقَعُهُ طَلْقَاتٍ نَارِيَّةٍ فِي مِيدَانِ رَمَايَةِ مُجَاوِرٍ، كَانَتْ تُدَوِّي مِثْلَ انْفِجَارَاتٍ سِدَادَاتٍ زُجَاجَاتِ الشُّمْبَانِيَا فِي دَوِيِّ سِيْمْفُونِيَّةٍ خَفِيَّةٍ.

أَتَيْدُ، تَحْتَ الشَّمْسِ الَّتِي كَانَتْ تُشْعِلُ رَأْسَهُ، وَفِي مَنَاخٍ مِنْ رَوَائِحِ الْمَوْتِ

(١) شاعر لاتيني ينتمي إلى القرن الأول قبل الميلاد، وكان يتبنَّى فلسفة «أبيقور» اليوناني (٣٤١-٢٧٠ ق.م.) التي تقوم على أن الاستمتاع بملذات الحياة هو شكل من الحكمة المستندة على اليقين من أن الموت يكمن في انتظارنا.

المُخْتَدِمَة، سَمِعَ صَوْتًا يُغْمِغِمُ تَحْتَ الْقَبْرِ الَّذِي جَلَسَ فَوْقَهُ. كَانَ هَذَا الصَّوْتُ يَقُولُ: «مَلْعُونَةٌ أَهْدَأُكُمْ وَبَنَادُكُمْ، أَيُّهَا الْأَحْيَاءُ الصَّاحِبُونَ، الَّذِينَ لَا تَكْتَرِثُونَ كَثِيرًا بِالمَوْتِ وَرَاحَتِهِم السَّمَاوِيَّةَ! مَلْعُونَةٌ طُمُوحَاتُكُمْ، مَلْعُونَةٌ حِسَابَاتُكُمْ، أَيُّهَا الْفَائِزُونَ الْمُتَعَجِّلُونَ الَّذِينَ تَأْتُونَ لِدِرَاسَةٍ فَنَ الْقَتْلِ بِجَوَارِ حَرَمِ المَوْتِ! وَلَوْ عَلِمْتُمْ مَدَى سُهُولَةِ الحُصُولِ عَلَى الثَّمَنِ - شَأْنِ سُهُولَةِ بُلُوغِ الهَدَفِ، وَكَمْ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ، عَدَا المَوْتِ، بَاطِلٌ - لَمَا أَجْهَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ كَثِيرًا، أَيُّهَا الْأَحْيَاءُ الْمُجِدُّونَ، وَلَقَلَّيْتُمْ كَثِيرًا مِنْ إِزْعَاجِكُمْ لِنَوْمٍ مَنْ أَصَابُوا الهَدَفَ مِنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ، الهَدَفُ الْحَقِيقِيُّ الْوَحِيدَ لِلْحَيَاةِ الْكَرِيمَةِ!».

فُقدَانُ الهَالَةِ

«إيه! ماذا! أأنت هُنا، يَا عَزِيزِي؟ أَفِي مَكَانٍ رَدِيءٍ، أَنْتَ! أَنْتَ، مَنْ لَا يَحْتَسِي إِلَّا الْخُلَاصَةَ! أَنْتَ، مَنْ لَا يَأْكُلُ إِلَّا طَعَامَ الْآلِهَةِ! فِي الْحَقِيقَةِ، ذَلِكَ مَا يُمَاجِئُنِي».

- «عَزِيزِي، أَنْتَ تَعْرِفُ رُغْبِي مِنَ الْأَخْصِنَةِ وَالْعَرَبَاتِ. فَمُنْذُ بُرْهَةٍ، وَفِيمَا كُنْتُ أَعْبُرُ الشَّارِعَ الْكَبِيرَ، عَلَى عَجَلٍ بَالِغٍ، وَأَنَا أَتَقَافُزُ فِي الْوَحْلِ، عَبْرَ هَذِهِ الْفَوْضَى الْمُتَحَرِّكَةِ الَّتِي يَصِلُ الْمَوْتُ خِلَالَهَا عَلَى عَجَلٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ فِي آنٍ وَاحِدٍ، انْزَلَقْتُ هَالَتِي عَنْ رَأْسِي - مَعَ حَرَكَةٍ مُفَاجِئَةٍ - إِلَى وَحْلِ الطَّرِيقِ. لَمْ تَوَاتِنِي الشَّجَاعَةُ عَلَى اسْتِعَادَتِهَا. وَرَأَيْتُ أَنَّ فُقدَانِ شَارَاتِي سَيَكُونُ أَقَلَّ سُوءًا مِنْ تَحْطِيمِ عِظَامِي. وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ - قُلْتُ لِنَفْسِي - فَسُوءُ الْحِظِّ أَمْرٌ طَيِّبٌ مِنْ بَعْضِ النَّوَاجِي. فَيُمْكِنُنِي الْآنَ أَنْ أَتَجَوَّلَ مَجْهُولَ الْهَوِيَّةِ، وَأَنْ أَقُومَ بِأَفْعَالٍ وَضِيعَةٍ، وَأَنْغَمِسَ فِي الْفُجُورِ شَأْنَ الْبُسْطَاءِ. وَهَذَا أَنْدَا - مِثْلَكَ تَمَامًا - كَمَا تَرَى!».

- كَانَ عَلَيْكَ عَلَى الْأَقَلِّ أَنْ تَقُومَ بِالْإِعْلَانِ عَنْ هَذِهِ الْهَالَةِ، أَوِ الْمُطَالَبَةِ بِهَا عَنْ طَرِيقِ مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ.

- يَمِينًا! لا. فَأَنَا بِحَالٍ طَيِّبَةٍ هُنَا. وَأَنْتَ الْوَحِيدُ الَّذِي تَعْرِفَ عَلَيَّ. وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، فَالْوَقَارُ يَضْجُرُنِي. ثُمَّ إِنِّي أَفَكَّرُ فِي مَرَحٍ كَيْفَ أَنَّ أَحَدَ الشُّعْرَاءِ الرَّدِيثِينَ سَيَلْتَقِطُهَا وَيَضْعُمُهَا بِوَقَاحَةٍ عَلَى رَأْسِهِ. فَإِنَّ تَسْعِدَ أَحَدًا، يَا لَهَا مِنْ بَهْجَةٍ! وَخَاصَّةً إِذَا مَا كَانَ شَخْصًا يَدْفَعُنِي إِلَى الضَّحِكِ! فَلْتَفَكَّرْ فِي «س» أَوْ «ص»! هَا! كَمْ سَيَكُونُ ذَلِكَ طَرِيفًا!».

الآنسة «بستوري»

مَا إِن بَلَغْتُ طَرْفَ الصَّاحِيَّةِ، تَحْتَ أَضْوَاءِ الْغَارِ، حَتَّى أَحَسَسْتُ بِذِرَاعِ تَنْسَلٍ بِرِقَّةٍ
تَحْتَ ذِرَاعِي، وَسَمِعْتُ صَوْتًا يَهْمِسُ فِي أُذُنِي: «هَلْ أَنْتَ طَيْبٌ، يَا سَيِّدِي؟»
نَظَرْتُ؛ كَانَتْ فَتَاةٌ طَوِيلَةً، قَوِيَّةً، ذَاتَ عَيْنَيْنِ وَاسِعَتَيْنِ، تَضَعُ زِينَةً خَفِيفَةً، وَشَعْرَهَا
يَتَمَازَجُ فِي الرِّيحِ مَعَ أَشْرَاطِ قُبَعَتِهَا.

- «لَا؛ لَسْتُ طَيِّبًا. دَعِينِي أَمْضِي».. «أُوهِ! لَا! أَنْتَ طَيْبٌ. فَذَلِكَ مَا أَرَاهُ جَيِّدًا.
تَعَالَ إِلَى بَيْتِي. فَسَتَكُونُ سَعِيدًا مَعِي، هَيَّا!» - «بِالتَّأَكِيدِ، سَأَرَاكَ، لَكِنْ فِيمَا بَعْدَ، بَعْدَ
الطَّيِّبِ، يَا لِلشَّيْطَانِ!».. «آه، آه!، قَالَتْ، وَهِيَ مَا تَزَالُ مُعَلَّقَةً فِي ذِرَاعِي، مُنْفَجِرَةً فِي
الضَّحِكِ، أَنْتَ طَيْبٌ مُضْحِكٌ، وَقَدْ عَرَفْتُ الْكَثِيرِينَ مِنْ هَذَا النُّوعِ. هَيَّا».

أَحْبَبُ الْعُمُوضِ بِشَغَفٍ، لِأَنَّ لَدَيَّ أَمَلًا دَائِمًا فِي كَشْفِهِ. وَلِهَذَا تَرَكْتُ نَفْسِي أَنْسَاقَ
وَرَاءَ هَذِهِ الرَّفِيقَةِ، أَوْ - بِالْأُخْرَى - وَرَاءَ هَذَا اللَّغْزِ الْمُفَاجِئِ.

سَأَغْفِلُ وَصَفَ الْكُوخِ؛ فَيُمْكِنُ الْعُثُورُ عَلَيْهِ لَدَى الْعَدِيدِ مِنْ قُدَامَى الشُّعْرَاءِ
الْفَرَنَسِيِّينَ الْمَشْهُورِينَ. أَمَّا التَّفْصِيلَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي لَمْ يَرَهَا «رِنِّييه»^(١)، فَتَكْمُنُ فِي
صُورَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ لِأَطْيَاءَ مَشَاهِيرَ كَانَتْ مُعَلَّقَةً عَلَى الْجُدْرَانِ.

كَمْ تَذَلَّلْتُ! نَارٌ كَبِيرَةٌ، وَبَيْذٌ دَافِئٌ، وَسِيَّجَارٌ وَمَعَ تَقْدِيمِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الطَّيِّبَةِ،

(١) ماثوران رينيه (١٥٧٣-١٦١٣)، أحد مؤلفي الهجائيات.

وإِشْعَالِهَا سِجَارًا لِي بِنَفْسِهَا، قَالَتْ لِي الْمَخْلُوقَةُ الْمُضْحِكَةُ: «فَلْتَصَرَّفْ كَأَنَّكَ فِي بَيْتِكَ، يَا صَدِيقِي، عَلَى رَاحَتِكَ. فَسَوْفَ يُذَكِّرُكَ ذَلِكَ بِالْمُسْتَشْفَى وَبِالزَّمَنِ الْجَمِيلِ لِلشَّبَابِ. - آه!، فَأَيْنَ إِذَنْ شَابَ شَعْرُكَ؟ فَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ، مُنْذُ أَمِدٍ لَيْسَ بِبَعِيدٍ، عِنْدَمَا كُنْتُ طَالِبًا دَاخِلِيًّا لَدَى ل... وَأَذْكُرُ أَنَّكَ أَنْتَ مَنْ كَانَ يُسَاعِدُهُ فِي الْعَمَلِيَّاتِ الْخَطِيرَةِ. فَهُوَ رَجُلٌ يُحِبُّ التَّقْطِيعَ، وَالشَّقَّ، وَالْقَصَّ! وَكُنْتُ أَنْتَ مَنْ يُنَاوِلُهُ الْأَدَوَاتِ وَالْخُبُوطَ وَالْإِسْفِنْجَ. - وَعِنْدَمَا تَنْتَهِي الْعَمَلِيَّةُ، كَانَ يَقُولُ بِفَخْرٍ، وَهُوَ يَنْظُرُ فِي سَاعَتِهِ: «خَمْسَ دَقَائِقَ، أَهْيَا السَّادَةُ!» - آه! فَأَنَا أَذْهَبُ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَأَعْرِفُ جَيِّدًا هَؤُلَاءِ السَّادَةَ».

بَعْدَ بَضْعِ ثَوَانٍ، وَقَدْ رَفَعَتِ الْكُلْفَةَ مَعِي، اسْتَعَادَتِ تَرْزِيمَتَهَا، وَقَالَتْ لِي: «أَنْتَ طَبِيبٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ، يَا قِطِّي؟»

هَذِهِ اللَّازِمَةُ الْمُسْتَعْصِيَّةُ عَلَى الْفَهْمِ دَفَعَتْنِي إِلَى الْقَفْزِ عَلَى قَدَمَيَّ: «لَا!»، صَرَخْتُ فِي غَضَبٍ.

- جَرَّاحٌ، إِذَنْ؟

- لَا! لَا! عَلَى الْأَقْلَ، كَيْلًا أَقْطَعَ رَأْسَكَ! يَا فَنِينَةَ التَّقْدِيسِ الْمُقَدَّسَةِ لِلْقُدِّيسِ «مَآكَرِيل»!..!

- انْتَظِرْ، عَاوَدَتْ، وَسَتَرَى».

وَأَخْرَجَتْ مِنْ دُولَابٍ حِزْمَةً أَوْرَاقٍ، لَمْ تَكُنْ سِوَى تَجْمِيعِ لُصُورٍ أَطِبَّاءَ ذَلِكَ الزَّمَنِ الْمَشَاهِيرِ، مَطْبُوعَةً بِالْحَفْرِ عَلَى يَدِ «مُورَان»^(١)، وَكَانَ يُمَكِّنُ رُؤْيَهَا مَعْرُوضَةً مُنْذُ سَنَوَاتٍ عَلَى رَصِيفِ «فُولْتِير».

- «هَآكَ! أَلَمْ تَتَعَرَّفْ عَلَى ذَاكَ؟»

- نَعَمْ! إِنَّهُ «س». فَقَدْ كَانَ اسْمُهُ أَسْفَلَ الصُّورَةِ عَلَى آيَةِ حَالٍ؛ لَكِنِّي كُنْتُ أَعْرِفُهُ بِصُورَةِ شَخْصِيَّةٍ.

(١) فنان معروف ورد ذكره في كتاب «صالون ١٨٤٥» لبودليير

- كُنْتُ أَعْرِفُهُ جَيِّدًا! وَذَٰكَ! إِنَّهُ «س»، الَّذِي كَانَ يَقُولُ فِي مُحَاصَرَاتِهِ، عِنْدَمَا يَتَحَدَّثُ عَنْ «س»: «هَٰذَا الْوَحْشُ الَّذِي يَحْمِلُ فِي وَجْهِهِ سَوَادَ رُوحِهِ!». ذَلِكَ أَنَّ «س» لَمْ يَكُنْ مُتَّفِقًا مَعَهُ فِي وَجْهِهِ النَّظَرِ! كَمْ ضَحِكُوا مِنْ ذَلِكَ فِي الْمَدْرَسَةِ، فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ! أَلَا تَتَذَكَّرُ ذَلِكَ؟- هَاكِ، هَا هُوَ «ص»، الَّذِي كَانَ يَشِي إِِلَى الْحُكُومَةِ بِالْمُتَمَرِّدِينَ الَّذِينَ كَانَ يُعَالِجُهُمْ فِي مُسْتَشْفَاهُ. كَانَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الْهِيَاجِ الشَّعْبِيِّ. كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِهَٰذَا الرَّجُلِ الْوَسِيمِ قَلْبٌ صَعِيفٌ؟- وَهَٰهُوَ «ض»، طَبِيبٌ إِنْجِلِيزِيٌّ شَهِيرٌ؛ أَمْسَكْتُ بِهِ فِي رِخْلَتِهِ إِلَى بَارِيسَ. لَهُ سَيِّمَاءُ آنِسَةٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟.

وَعِنْدَمَا كُنْتُ أَلْمَسُ حِزْمَةً مَرْبُوطَةً، مَوْضُوعَةً أَيْضًا عَلَى الْمِنْصَدَةِ الصَّغِيرَةِ، قَالَتْ: «انْتَظِرْ قَلِيلًا؛ فَذَلِكَ هُمُ الطَّلَبَةُ الدَّاخِلِيُّونَ، وَتِلْكَ الْحِزْمَةُ هُمُ الْخَارِجِيُّونَ».

وَفَرَدَتْ - فِي شَكْلِ مَرْوَحَةٍ - مَجْمُوعَةً مِنَ الصُّوَرِ الْفُوتُوغَرَفِيَّةِ، الَّتِي تُمَثِّلُ وُجُوهَهَا أَكْثَرَ شَبَابًا.

«عِنْدَمَا نَلْتَقِي مَرَّةً أُخْرَى، سَتُعْطِينِي صُورَتَكَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ، يَا عَزِيزِي؟

لَكِنِّي» - قُلْتُ لَهَا، وَأَنَا أَوَاصِلُ بِدَوْرِي فِكْرَتِي الثَّابِتَةِ - لِمَاذَا تَظُنِّينَ أَنِّي طَبِيبٌ؟

- ذَلِكَ أَنَّكَ لَطِيفٌ وَلَبِيقٌ لِلْغَايَةِ مَعَ النِّسَاءِ!

- «مَنْطِقُ فَرِيد»! قُلْتُ لِنَفْسِي.

- آه! فَأَنَا قَلَّمَا أُخْطِئُ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ عَرَفْتُ مِنْهُمْ عَدَدًا كَبِيرًا. كَمْ أَحِبُّ هَؤُلَاءِ السَّادَةِ، إِلَى حَدِّ أَنِّي - حَتَّى عِنْدَمَا لَا أَكُونُ مَرِيضَةً - أَذْهَبُ أَحْيَانًا لِأَرَاهُمْ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا كَيْ أَرَاهُمْ. وَهُنَاكَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ لِي بِرُودٍ: «لَسْتُ مَرِيضَةً أَبَدًا!». لَكِنْ هُنَاكَ آخَرِينَ مِنْهُمْ يَفْهَمُونَنِي، لِأَنِّي أَبْدِي لَهُمُ الْمَوَدَّةَ.

- وَعِنْدَمَا لَا يَفْهَمُونَكَ..؟

- أَجَل! فَحَيْثُ أَنِّي أَرَعَجْتُهُمْ بِلَا طَائِلٍ، فَإِنِّي أَتْرُكُ عَشْرَ فَرَنِكَاتٍ عَلَى الْمِدْفَاقَةِ. -

إِنَّهُمْ لَيَقُونَ وَمُرْهُفُونَ، هَؤُلَاءِ الرَّجَالُ! - لَقَدْ اكْتَشَفْتُ فِي «بَيْتِي»^(١) طَالِبًا دَاخِلِيًّا صَغِيرًا، جَمِيلًا كَمَلَاكِ وَمُهَذَّبًا! وَيَعْمَلُ بِجِدٍّ - هَذَا الصَّبِيُّ الْبَائِسُ! قَالَ لِي زُمَلَاؤُهُ إِنَّهُ مُفْلِسٌ، لَأَنَّ وَالِدِيهِ فَقِيرَانِ وَلَا يَسْتَطِيعَانِ إِزْسَالَ شَيْءٍ إِلَيْهِ. وَهُوَ مَا مَنَحَنِي الثِّقَةَ. فَفِي النِّهَايَةِ، فَأَنَا امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ، حَتَّى وَلَوْ لَمْ أَكُنْ شَابَّةً تَمَامًا. قُلْتُ لَهُ: «فَلْتَأْتِ لِرَآئِي، لَتَأْتِ كَثِيرًا لِرَآئِي. وَمَعِيَ، لَا تَقْلَقْ؛ فَلَسْتُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمَالِ». لَكِنَّكَ تُدْرِكُ أَنِّي جَعَلْتُهُ يُدْرِكُ ذَلِكَ بِطَرِيقٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ لَمْ أَقُلْ لَهُ ذَلِكَ بِفِظَازَةٍ؛ فَقَدْ كُنْتُ خَائِفَةً مِنْ إِهَاتِهِ، هَذَا الطِّفْلُ الْعَزِيزُ! - آه حَقًّا! أَتَصَدَّقُ أَنِّي كَانَتْ لَدَيَّ رَغْبَةٌ غَرِيبَةٌ لَمْ أَجِرْهُ عَلَى الْإِفْصَاحِ عَنْهَا لَهُ؟ - كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ يَأْتِيَ لِرَآئِي وَمَعَهُ حَقِيقَتُهُ الطَّبِيعَةُ وَمُتَزَرُّهُ، حَتَّى وَلَوْ بِقُبْعَةٍ دَمٍ عَلَيْهِ!».

قَالَتْ ذَلِكَ بِطَرِيقَةٍ حَمِيمَةٍ لِلْغَايَةِ، مِثْلَمَا يَقُولُ رَجُلٌ مُرْهَفٌ لِمِثْلَةٍ يُحِبُّهَا: «أَوْدُدُ أَنْ أَرَكَ بِالثُّوبِ الَّذِي كُنْتَ تَرْتَدِينَهُ فِي ذَلِكَ الدَّوْرِ الشَّهِيرِ الَّذِي أَبْدَعْتَهُ».

وَبِالنَّحَاحِ، سَأَلْتُهَا: «أَسْتَطِيعِينَ تَذَكُّرَ الْفَتْرَةِ وَالْمُنَاسِبَةِ اللَّتَيْنِ تَوَلَدَ خِلَاكُمَا دَاخِلَكِ هَذَا الْوَلَعُ الْفَرِيدُ؟»

بِصُعُوبَةٍ جَعَلْتُ نَفْسِي مَفْهُومًا؛ وَأَخِيرًا نَجَحْتُ. لَكِنَّهَا حَيَنَئِذٍ أَجَابَتْنِي بِسِمَاءَ بِالْغَةِ الْأَسَى، بَلْ - وَبِقَدْرِ مَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَتَذَكَّرَ - وَهِيَ تُشِيحُ بَعِيدًا بِعَيْنَيْهَا: «لَا أَذْرِي.. لَا أَتَذَكَّرُ».

فَإِنَّهُ غَرَائِبَ لَا يَعْتَرُ الْمَرْءُ عَلَيْهَا فِي مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ، عِنْدَمَا يَعْرِفُ التَّجَوَّالَ وَالنَّظَرَ؟ فَالْحَيَاةُ تَحْفَلُ بِالْوَخُوشِ الْبَرِيَّةِ. - سَيِّدِي، يَا إِلَهِي! أَنْتَ، الْخَالِقُ، أَنْتَ، السَّيِّدُ؛ أَنْتَ الَّذِي خَلَقْتَ الْقَانُونَ وَالْحُرِّيَّةَ؛ أَنْتَ، الْمُهَيِّمُ الْمُسَيِّطِرُ عَلَى الْأَفْعَالِ، أَنْتَ، الْقَاضِي الَّذِي يَغْفِرُ؛ أَنْتَ الْمُفْعَمُ بِالذَّوَافِعِ وَالْأَسْبَابِ، وَرُبَّمَا كُنْتَ أَنْتَ مَنْ بَثَّ فِي رُوحِي شَهْوَةَ الرُّعْبِ حَتَّى تَهْدِي قَلْبِي، مِثْلَمَا الشِّفَاءُ عَلَى طَرَفِ النَّصْلِ؛ سَيِّدِي، فَلَتَكُنْ رَحِيمًا، فَلَتَكُنْ رَحِيمًا بِالْمَجَانِينِ وَالْمَجْنُونَاتِ! أَيُّهَا الْخَالِقُ! أَيُمْكِنُ أَنْ تُوجِدَ وَخُوشَ فِي عِيُونِ ذَلِكَ الْوَحِيدِ الَّذِي يَعْرِفُ سَبَبَ وَجُودِهِمْ، وَكَيْفِيَّةَ خَلْقِهِمْ، وَكَيْفَ كَانَ يُمَكِّنُ أَلَا يُخَلِّقُوا؟

(١) مستشفى باريستي كبير، في ذلك الحين.

أَيُّ مَكَانٍ خَارِجِ الْعَالَمِ^(١)

هَذِهِ الْحَيَاةُ مُسْتَشْفَى تَتَمَلَّكُ فِيهَا كُلَّ مَرِيضٍ الرَّغْبَةُ فِي تَغْيِيرِ السَّرِيرِ. فَهَذَا يُرِيدُ
الْمُعَانَاةَ أَمَامَ الْمَدْفَاةِ، وَذَلِكَ يَظُنُّ أَنَّهُ سَيُشْفَى بِجَوَارِ النَّافِذَةِ.

وَمَا يَبْدُو لِي هُوَ أَنَّنِي سَأَكُونُ بِحَالٍ أَفْضَلَ دَائِمًا هُنَاكَ حَيْثُ لَا أَكُونُ الْآنَ، وَمَسْأَلَةُ
الْإِنْتِقَالِ هَذِهِ هِيَ مِمَّا أَنَا قِشَّةٌ مَعَ رُوحِي بِلَا انْتِهَاءٍ.

«قُولِي لِي، يَا رُوحِي، يَا رُوحِي الْبَائِسَةِ الْخَامِدَةَ، كَيْفَ تَرَيْنَ السُّكْنَى فِي «لَشُبُونَةِ»؟
لَا بُدَّ أَنَّ الْجَوَّ هُنَاكَ دَافِئٌ، وَأَنَّكَ سَتَنْتَعِشِينَ فِيهَا كَعِظَاءَةٍ. فَتِلْكَ الْمَدِينَةُ عَلَى حَافَةِ
الْمَاءِ؛ وَيُقَالُ إِنَّهَا مَبْنِيَّةٌ مِنَ الرُّخَامِ، وَإِنَّ النَّاسَ فِيهَا لَدَيْهِمْ كَرَاهِيَةٌ لِلْمَزْرُوعَاتِ، إِلَى
حَدِّ أَنَّهُمْ يَقْطَعُونَ جَمِيعَ الْأَشْجَارِ. فَهِيَ هِيَ مَشْهُدٌ طَبِيعِيٌّ وَفَقْ مَزَاجِكُ؛ مَشْهُدٌ يَتَشَكَّلُ
مِنَ الضُّوئِ وَالْمَعْدِنِ، وَالسَّائِلِ الَّذِي يَعْكِسُهُمَا!».

رُوحِي لَا تُجِيبُ.

«وَطَالَمَا أَنَّكَ تُحِبِّينَ الاسْتِرْخَاءَ كَثِيرًا - مَعَ رُؤْيَا الْحَرَكَةِ - أَفَلَا تُرِيدِينَ السُّكْنَى
فِي هَوْلَنْدَا، تِلْكَ الْأَرْضِ الْمُبْهَجَةِ؟ فَقَدْ تَسْتَمْتِعِينَ فِي هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي طَالَمَا أُعْجِبْتُ
بِصُورِهِ فِي الْمَتَاحِفِ. مَا رَأَيْتُكَ فِي «رُوتردام»، وَأَنْتِ الَّتِي تُحِبِّينَ غَابَاتِ الصُّوَارِي،
وَالسُّفُنَ الْمَشْدُودَةَ بِالْمَرْسَاةِ عِنْدَ أَسْفَلِ الْمَنَازِلِ؟»

(١) العنوان في الأصل باللغة الإنجليزية ANYWHERE OUT OF THE WORLD.

رُوحِي تَظَلُّ خَرَسَاءَ.

«أَفَرُبَّمَا بَاتَا فَيَا^(١) هِيَ الَّتِي تُبْهِجُكَ أَكْثَرُ؟ فَسَنَجِدُ فِيهَا - مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى - رُوحَ أُورُبَّا مُقْتَرِنَةً بِالْجَمَالِ الْاسْتِوَائِيِّ».

لَا كَلِمَةً. - فَهَلْ مَاتَتْ رُوحِي؟

«فَهَلْ بَلَغْتَ إِذَنْ ذَلِكَ الْحَدَّ مِنَ الْخُمُولِ الَّذِي لَا تَسْعَدِينَ مَعَهُ إِلَّا فِي اغْتِلَالِكَ؟ فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَلَنَهْرُبَ إِلَى الْبِلَادِ الشَّيْهَةِ بِالْمَوْتِ. - سَأُمْسِكُ بِزِمَامِ الْأُمُورِ، أَيْتُهَا الرُّوحُ الْبَائِسَةُ! سَنَحْزِمُ حَقَائِبَنَا إِلَى ثُورِنِيَا. فَلَنَمْضِ حَتَّى إِلَى الْأَبْعَدِ، إِلَى الطَّرَفِ الْأَقْصَى مِنَ الْبَلْطِيقِ؛ بَلْ أَبْعَدَ حَتَّى مِنَ الْحَيَاةِ، لَوْ كَانَ ذَلِكَ مُمَكِنًا؛ فَلَنَعِشَ فِي الْقُطْبِ. فَهَنَّاكَ، لَا تُلَامِسُ الشَّمْسُ الْأَرْضَ إِلَّا بِصُورَةٍ مَائِلَةٍ، وَالتَّبَدُّلَاتُ الْبَطِيئَةُ لِلضَّوِّ وَالظَّلَامِ تُلْغِي التَّنَوُّعَ وَتَزِيدُ مِنَ الرَّتَابَةِ، شَبْهَ الْعَدَمِ هَذَا. هُنَاكَ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْخُذَ حَمَامَاتِ ظَلَامٍ طَوِيلَةٍ، فَيَمَّا الْفَجْرُ الشَّمَالِيُّ يُرْسِلُ إِلَيْنَا - لِيُرْفَهُ عَنَّا - بَاقَاتِهِ الْوَرْدِيَّةَ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ، كَانِعَكَاسَاتِ أَلْعَابِ نَارِيَّةٍ فِي الْجَحِيمِ!».

أَخِيرًا، تَنْفَجِرُ رُوحِي وَتَصْرُخُ بِحِكْمَةٍ فِي وَجْهِي: «لَيْسَ الْمُهِمُّ الْمَكَانُ! لَيْسَ الْمُهِمُّ الْمَكَانُ! طَالَمَا أَنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ خَارِجَ هَذَا الْعَالَمِ!».

(١) حَالِيًا، العاصمة الأندونيسية «جاكارتا».

فَلَنَصْرَعَ الْفُقَرَاءُ !

عَلَى مَدَى خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا كُنْتُ مَعْتَزِلًا فِي غُرْفَتِي، مُحَاطًا بِالْكَتُبِ الشَّائِعَةِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ (كَانَ ذَلِكَ مُنْذُ سِتَّةِ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ عَامًا)؛ أَغْنِي الْكَتُبُ الَّتِي تَتَنَاوَلُ فَنَّ جَعَلَ النَّاسِ سُعْدَاءَ، وَحُكَمَاءَ وَأَغْنِيَاءَ فِي أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً. كُنْتُ أَسْتَوْعِبُ آنَذَاكَ - بَلْ أَلْتِهِمْ - كُلَّ خُزَعْبَلَاتٍ مُقَاوِلِي السَّعَادَةِ الْعُمُومِيَّةِ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا، - هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْصَحُونَ الْفُقَرَاءَ بِأَنْ يَكُونُوا عِبِيدًا، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُقْنِعُونَهُمْ بِأَنَّهُمْ جَمِيعًا مُلُوكٌ غَيْرُ مُتَوَجِّهِينَ. - فَلَا عَجَبَ إِذْنِ أَنْ كُنْتُ بِالتَّالِي فِي حَالَةٍ تُشَارِفُ الدُّوَارَ أَوْ الْبَلَاهَةَ.

وَكَانَ يَبْدُو لِي أَنِّي أُحِسُّ بِيَذْرَةٍ غَامِضَةٍ - مَحْبُوسَةٍ فِي أَعْمَاقِ عَقْلِي - لِفِكْرَةٍ تَسْمُو عَلَى كُلِّ مَأْثُورَاتِ الْعَجَائِزِ الَّتِي تَصَفَّحْتُ مُؤَخَّرًا قَامُوسَهَا. لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ سِوَى فِكْرَةٍ فِكْرَةٍ، شَيْءٍ مَا غَامِضٍ تَمَامًا.

وَخَرَجْتُ بِظَمٍّ عَظِيمٍ. ذَلِكَ أَنَّ الْمَذَاقَ الْمَشْبُوبَ لِلْقِرَاءَاتِ الرَّدِيئَةِ يُؤَلِّدُ حَاجَةً مُقَابِلَةً إِلَى انْتِعَاشٍ وَهَوَاءٍ طَلَقَ.

وَفِيمَا كُنْتُ عَلَى وَشِكِّ دُخُولِ حَائَتِي، مَدَّ لِي شَحَاذٌ قُبْعَتَهُ، بِإِحْدَى تِلْكَ النَّظَرَاتِ الَّتِي لَا تُنْسَى، وَالَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَقْلِبَ الْعُرُوشَ، لَوْ كَانَ لِلرُّوحِ أَنْ تَرْغِزَ الْمَادَّةَ، وَلَوْ كَانَ لِنَظَرَةٍ مُنَوِّمٍ مِغْنَاطِيْسِي أَنْ تُنْضِجَ الْكُرُومَ.

فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ، سَمِعْتُ صَوْتًا يُوشِوشُ فِي أُذُنِي، صَوْتًا أَغْرِفُهُ جَيِّدًا. كَانَ صَوْتٌ

مَلَائِكَةُ طَيْبٍ أَوْ شَيْطَانٍ طَيْبٍ يَضْحِكُنِي فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَطَالَمَا أَنَّ «سُقْرَاطَ» كَانَ لَهُ شَيْطَانُهُ الطَّيِّبُ، فَلَمْ لَا يَكُونُ لِي مَلَائِكَةُ الطَّيِّبِ، وَلَمْ لَا يَكُونُ لِي الشَّرَفُ - مِثْلَ سُقْرَاطَ - لِلْحُصُولِ عَلَى شَهَادَةِ جُنُونِي، مُوقَّعَةً مِنْ «لُولُو» الْبَارِعِ أَوْ «بِيلَارْجِي» الْخَبِيرِ.

فَثَمَّةُ ذَلِكَ الْفَارَقُ بَيْنَ شَيْطَانِ سُقْرَاطَ وَشَيْطَانِي، وَهُوَ أَنَّ شَيْطَانَ «سُقْرَاطَ» لَا يَتَجَلَّى لَهُ إِلَّا مِنْ أَجْلِ النَّهْيِ وَالتَّحْذِيرِ وَالْمَنْعِ، فِيمَا شَيْطَانِي يُقَدِّمُ النَّصْحَ وَالْإِفْتِرَاحَ وَالْإِقْنَاعَ. فَسُقْرَاطُ - هَذَا الْبَائِسُ - لَمْ يَكُنْ لَدُنْهِ سِوَى شَيْطَانٍ تَحْرِيمِي؛ أَمَّا شَيْطَانِي فَهُوَ تَوْكِيدِي عَظِيمٌ، هُوَ شَيْطَانُ الْفِعْلِ، أَوْ شَيْطَانُ الصَّرَاحِ.

هَكَذَا، وَشَوْشَ لِي صَوْتُهُ: «لَا تَسَاوَى مَعَ غَيْرِهِ إِلَّا مَنْ يَسْتَطِيعُ الْبَرْهَنَةَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْحُرِّيَّةَ إِلَّا مَنْ يَعْرِفُ الْقُوَرَ بِهَا».

وَمِنْ فَوْرِي، قَفَزْتُ عَلَى الشَّحَاذِ. وَبِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ قَبْضَتِي أَعْلَقْتُ لَهُ عَيْنًا، سُرْعَانَ مَا أَصْبَحَتْ - فِي ثَانِيَةٍ - مُتَفَتِّحَةً مِثْلَ كُرَّةٍ. وَكَسَرْتُ أَحَدَ أَظْفَارِي وَأَنَا أَهْشَمُ سِتِّينَ لَهُ، وَإِذْ لَمْ أَحْسِ بِمَا يَكْفِي مِنَ الْقُوَّةِ، حَيْثُ وُلِدْتُ مُرْهَفًا وَلَمْ أُمَارِسْ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، بِمَا يَسْمَحُ لِي بِأَنْ أَضْرَعَ هَذَا الْعَجُوزَ بِسُرْعَةٍ، أَمْسَكْتُ بِهِ بِيَدِي مِنْ يَاقَةِ نَوْبِهِ، وَبِالْأُخْرَى قَبَضْتُ عَلَى عُنُقِهِ، وَرُحْتُ أَضْرِبُ رَأْسَهُ بِقُوَّةٍ فِي الْحَائِطِ. وَلَا بُدَّ مِنَ الْاعْتِرَافِ بِأَنِّي مَسَحْتُ مُسَبِّحًا الْمُنْطِقَةَ بِلَمْحَةٍ عَيْنٍ، وَتَأَكَّدْتُ مِنْ أَنِّي - فِي هَذِهِ الضَّاحِيَةِ الْمَهْجُورَةِ - سَأَكُونُ لَوْقَتٍ كَافٍ بِمَنَائِي عَنْ مَنَالِ أَيِّ فَرْدٍ مِنَ الْبُولِيسِ.

وَإِذْ طَرَحْتُ هَذَا السُّتَيْيَّ الْمُتَهَالِكَ أَرْضًا - بَعْدَ ذَلِكَ - بِرُكْلَةٍ فِي ظَهْرِهِ، قُوَّةٍ بِمَا يَكْفِي لِتَحْطِيمِ عِظَامِهِ، التَّقَطَّتْ غُصْنُ شَجَرَةٍ كَبِيرًا كَانَ مَرْمِيًّا عَلَى الْأَرْضِ، وَضَرْبَتُهُ بِقُوَّةٍ عَيْنِدَةٍ لَطَبَاخٍ يُرِيدُ تَلْيِينَ شَرِيحَةِ لَحْمٍ.

وَفَجْأَةً، - يَا لِلْمُعْجِزَةِ! يَا لَفَرَحَةِ الْفِيلَسُوفِ الَّذِي يَتَحَقَّقُ مِنْ امْتِنَازِ نَظَرِيَّتِهِ! - رَأَيْتُ هَذَا الْهَيْكَلَ الْعَظِيمِي الْعَتِيقَ يَسْتَدِيرُ، وَيَتَشَامَحُ بِحَيَوِيَّةٍ لَمْ يَخْطُرْ لِي بِيَالٍ وَجُودُهَا فِي آلَةٍ خَرِبَةٍ عَلَى هَذَا النُّحُو الْفَرِيدِ، وَبِنَظَرَةٍ كَرَاهِيَّةٍ بَدَتْ لِي قَالُ خَيْرٍ، قَفَزَ فَوْقِي هَذَا اللَّصُّ الْمُتَهَدِّمُ وَوَرَّمَ لِي عَيْنَيَّ الْاِثْنَتَيْنِ، وَهَشَّمَ لِي أَرْبَعَ أَسْنَانَ، وَبَغَضَنِي الشَّجَرَةَ نَفْسِهِ أَوْ سَعَنِي ضَرْبًا مُبْرَحًا. فَيَفْضُلُ عِلَاجِي الْحَيَوِيَّ، أَعَدْتُ لَهُ الْكِبْرِيَاءَ وَالْحَيَاةَ.

أَتَيْدُ، وَجَّهْتُ إِلَيْهِ إِشَارَاتٍ وَاضِحَةً لِيُذْرِكَ أَتِّي اعْتَبَرْتُ الْمُنَاقَشَةَ مُتَّهِمَةً، وَإِذْ كُنْتُ
 أَنَّهُضُ بِرِضَاءٍ فَيَلْسُوفُ رُؤَايِي ^(١)، قُلْتُ لَهُ: «سَيِّدِي، أَنْتَ نَدُّ لِي! فَلْتَمْنَحْنِي شَرَفَ
 اقْتِسَامِ مُحَفَظَتِي مَعَكَ، وَتَذَكَّرْ، أَنَّكَ إِذَا مَا كُنْتَ حَقًّا مُجَبًّا لِلْبَشَرِ، فَيَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ
 تُطَبَّقَ عَلَى جَمِيعِ إِخْوَانِكَ - عِنْدَمَا يَطْلُبُونَ مِنْكَ صَدَقَةً - النَّظَرِيَّةَ نَفْسَهَا الَّتِي كُنْتُ آسِفًا
 عَلَى تَجَرِّيهِهَا فَوْقَ ظَهْرِكَ».

أَقْسَمَ لِي إِنَّهُ وَعَى نَظَرِيَّتِي، وَإِنَّهُ سَيُنْفِذُ نَصَائِحِي.

(١) نسبة إلى الفلسفة الرواقية.

الكلاب الطيبة

(١) إلى السيد جوزيف ستيفنز

لَمْ يَحْدُثْ لِي أَبَدًا أَنْ خَجَلْتُ - حَتَّى أَمَامَ الْكُتَّابِ الشُّبَّانِ لِهَذَا الْقَرْنِ - مِنْ إِعْجَابِي
«بُوفُون»^(٢)؛ لَكِنْ لَيْسَتْ رُوحُ هَذَا الرَّسَامِ لِلطَّبِيعَةِ الْبَازِخَةِ هِيَ مَا سَادَعُوهَا الْيَوْمَ
لِمُعَاوَنَتِي. لَا

بَلْ سَأَفْضَلُ اللُّجُوءَ إِلَى «سِتِيرِن»^(٣)، لِأَقُولَ لَهُ: «فَلْتَهَيِّطْ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ اضْعِدْ لِي
مِنْ حُقُولِ الْفِرْدُوسِ، لِتُلْهِمَنِي أَنْشُودَةً جَدِيرَةً بِكَ، إِكْرَامًا لِلْكَلَابِ الطَّيِّبَةِ، الْكِلَابِ
الْبَائِسَةِ، أَيُّهَا الْمُهَرِّجُ الْعَاطِفِي، الْمُهَرِّجُ الْاسْتِثْنَائِي! فَلْتَعُدْ مُنْفَرَجَ السَّاقَيْنِ مُمْتَطِيًا
هَذَا الْحِمَارَ الشَّهِيرَ الَّذِي يَصْحَبُكَ دَائِمًا فِي ذَاكِرَةِ الْأَجْيَالِ اللَّاحِقَةِ؛ وَخَاصَّةً أَنَّ هَذَا
الْحِمَارَ لَا يَنْسَى أَنْ يَحْمِلَ - بِرِقَّةٍ، مُتَذَلِّيَّةٍ بَيْنَ شَفَتَيْهِ - حَلْوَى الْمَعْكُورُونَ!»

ابْتَعِدِي عَنِّي يَا رَبَّةَ الْفَنِّ الْأَكَادِمِيَّةِ! فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا أَفْعَلُهُ بِهَذِهِ الْعُجُوزِ الْمُتَزَمِّتَةِ.
إِنِّي أَبْتَهِلُ إِلَى الرَّبَّةِ الْاعْتِيَادِيَّةِ، الْمَدِينِيَّةِ، الْحَيَوِيَّةِ، لِتُسَاعِدَنِي عَلَى الْإِنْشَادِ لِلْكَلَابِ

(١) رسام بلجيكي، تعرف عليه «بودلير» خلال رحلته البلجيكية، وهو الذي أهدى الصُدرية - المذكورة في نهاية القصيدة - إلى «بودلير». والقصيدة نُحِيلُ إلى إحدى لوحاته.

(٢) بوفون: جورج لويس لوكليرك، كونت بوفون (١٧٠٧ - ١٧٨٨) باحث فرنسي في التاريخ الطبيعي قبل دارون بمائة عام، وصاحب موسوعة «التاريخ الطبيعي» (٤٤ مجلدًا) التي نشرت بين عامي ١٧٤٩ و١٧٨٨

(٣) كاتب إنجليزي اجتذب الجمهور برواياته ذات النبرة الهجائية والمزلية، ومن بينها «حياة وأفكار السيد تريستان شاندي» (١٧٦٧).

الطَّيِّبَةِ، الْكِلَابِ الْبَائِسَةِ، الْكِلَابِ الْمُلوَّثَةِ بِالْأَوْحَالِ، تِلْكَ الَّتِي يُبْعِدُهَا الْجَمِيعُ، كَأَنَّهَا مَوْبُوءَةٌ وَمُصَابَةٌ بِالْقَمَلِ، عَدَا الْفَقِيرِ الَّذِي تَرْتَبِطُ بِهِ، وَالشَّاعِرِ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِنَظَرَةِ أَخَوِيَّةٍ.

أَفْ لِلْكَلْبِ الْمُتَجَمِّلِ، هَذَا الْمَغْرُورِ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ، الدَّانِمَرَكِيِّ، مِنْ فَصِيلَةٍ «كِنَج شَارلِز»، أَوْ «كَارلَان» أَوْ كَلْبِ صَنِيدٍ، الْمَزْهُوُّ بِنَفْسِهِ إِلَى حَدٍّ أَنْ يَرْمِيَ بِنَفْسِهِ بِلَا حَيَاءٍ عَلَى سَاقِي أَوْ رُكْبَتَيْ الزَّائِرِ، كَأَنَّهُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ إِثَارَتِهِ لِلْإِعْجَابِ، صَاحِبًا كَطْفَلٍ، أَحْمَقَ كَمَتَاةٍ مَاجَنَةٍ، وَأَخْيَانًا فَظًّا وَوَقِحًا كَخَادِمٍ! أَفْ بِالذَّاتِ لِهَذِهِ الْأَفَاعِي ذَاتِ الْأَقْدَامِ الْأَرْبَعِ، الْمُرْتَعِدَةِ وَالْمُتَبَطِّلَةِ، الَّتِي تُدْعَى سُلُوفِيَّةً، وَالَّتِي لَا تَمْلِكُ فِي مِنْخَارِهَا الْمُدَبِّبَ مِنْ حَاسَةِ الشَّمِّ مَا يَكْفِي لِتَقْنَعِي أَثَرِ صَدِيقٍ، وَلَا فِي رَأْسِهَا الْمُسَطَّحِ مَا يَكْفِي مِنْ ذِكَاةٍ لِتَلْعَبَ الدُّومِينُو!

إِلَى الْوَجْرِ، بِكُلِّ هَذِهِ الطُّفِيلِيَّاتِ الْمُتَعَبَةِ!

فَلْيَعُودُوا إِلَى وَجْرِهِم، الْحَرِيرِيِّ الْوَثِيرِ! فَأَنَا أَتَشَدُّ لِلْكَلْبِ الْمُلوَّثِ بِالْأَوْحَالِ، الْكَلْبِ الْبَائِسِ، الْكَلْبِ الْمُتَشَرَّدِ، الْكَلْبِ الْمُتَسَكِّعِ، الْكَلْبِ الْمُهَرَّجِ، الْكَلْبِ الَّذِي تَخْفُزُ الضَّرُورَةُ غَرِيزَتَهُ بِصُورَةٍ رَائِعَةٍ، شَانَ غَرِيزَةِ الْفَقِيرِ وَالْبُوهِيمِيِّ وَالْبَهْلَوَانِ، تِلْكَ الْأُمُّ الطَّيِّبَةُ، تِلْكَ الرَّاعِيَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلْمَهَارَاتِ!

أَتَشَدُّ لِلْكِالِبِ الْمَشْهُومَةِ، سَوَاءَ تِلْكَ الَّتِي تَهِيمُ، وَحِيدَةً، فِي الْمَجَارِي الْمُلوْتِيَةِ لِلْمُدُنِ الْكُبْرَى، أَمْ تِلْكَ الَّتِي تَقُولُ لِلرَّجُلِ الْمَهْجُورِ، بِعَيْنَيْنِ مُرْهَفَتَيْنِ تَرِفَانِ: «خُذْنِي مَعَكَ، فَرُبَّمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَصْنَعَ مِنْ بُؤْسَيْنَا نَوْعًا مِنَ السَّعَادَةِ!».

«إِلَى أَيْنَ تَمْضِي الْكِالِبُ؟»، قَالَهَا ذَاتَ يَوْمٍ «نِيسْتُورُ رُوقِلَان»^(١) فِي صَفْحَةٍ خَالِدَةٍ لَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ نَسِيَهَا، وَلَمْ يَعُدْ سِوَايَ - أَنَا وَسَانَتِ - يِفْ رُبَّمَا - مَنْ يَتَذَكَّرُهَا حَتَّى الْيَوْمِ.

إِلَى أَيْنَ تَمْضِي الْكِالِبُ، أَتَسْأَلُونَ، أَيُّهَا الْأُنَاسُ الْغَافِلُونَ؟ إِنَّهَا تَمْضِي إِلَى شُؤْنِهَا.

(١) أحد أدباء زمن «بودلير» الفرنسيين.

لِقَاءَ لِلْعَمَلِ، لِقَاءَ لِلْحُبِّ. وَعَبْرَ الصَّبَابِ، عَبْرَ الثَّلُوجِ، عَبْرَ الْأَوْحَالِ، تَحْتَ الْقَيْظِ
الْلَّاهِبِ، تَحْتَ الْمَطَرِ الْمُنْهَمِرِ، يَمْضُونَ، يَعُودُونَ، يَخْبُونَ، يَمُرُّونَ تَحْتَ السَّيَّارَاتِ،
مُسْتَشَارِينَ بِفِعْلِ الْبَرَاغِيثِ، وَالْوَلَعِ، بِالْحَاجَةِ أَوْ الْوَاجِبِ. مِثْلَنَا، يَسْتَقِظُونَ بَاكِراً،
وَيَسْعُونَ وَرَاءَ قُوَّتِهِمْ أَوْ يَرْكُضُونَ إِلَى مَلَذَّاتِهِمْ.

بَعْضُهُمْ يَنَامُ فِي إِحْدَى خَرَابَاتِ الضَّاحِيَةِ، وَيَأْتِي - فِي سَاعَةٍ مُحَدَّدَةٍ، كُلُّ يَوْمٍ -
لِيَسْتَجِدِّي صَدَقَةً أَمَامَ مَطْبِخِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ؛ وَآخَرُونَ يَهْرَعُونَ - جَمَاعَاتٍ - مِنْ
أَكْثَرِ مِنْ خَمْسَةِ أَمَاكِنَ، لِيَتَفَاسَمُوا الْوَجِبَةَ الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُمْ بِرُ بَعْضِ الْعَذَرَاتِ فِي
السُّتَيْنِ، اللَّائِي مَنْحَنَ قُلُوبَهُنَّ الْخَلِيَّةَ لِلْحَيَوَّانَاتِ، لِأَنَّ الرِّجَالَ الْحَقَمَى لَمْ يَعُودُوا
يُرِيدُونَهَا.

وَأَخَرُونَ - كَعَبِيدِ آيَقِينَ - أَصَابَهُمُ الْحُبُّ بِالْجُنُونِ، يَتْرُكُونَ - فِي أَيَّامٍ مُعَيَّنَةٍ -
مُقَاطَعَتَهُمْ لِيَأْتُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، يَتَفَافِزُونَ حَوَالِي سَاعَةٍ، حَوْلَ كَلْبَةٍ جَمِيلَةٍ، مُهْمَلَةٍ قَلِيلاً
مَا فِي زِيَّتِهَا، لَكِنَّهَا ذَاتُ أَنْفَةٍ وَتَعْتَرِفُ بِالْجَمِيلِ.

وَهُمْ جَمِيعًا فِي غَايَةِ الدَّقَّةِ، بِلَا مُفَكَّرَاتٍ، بِلَا مُذَكَّرَاتٍ، بِلَا حَقَائِبِ.

أَتَعْرِفُونَ الْبَلَجِيكِيَّ الْكُسُولَ، وَتُعَجَّبُونَ مِثْلِي بِكُلِّ هَذِهِ الْكِلَابِ النَّشِيطَةِ الْمُقْتَرِنَةِ
بَعَرِيَةِ الْجَزَارِ، وَبَايَعَةِ اللَّبَنِ، أَوْ الْخَبَّازِ، وَالَّتِي تُشْهَدُ - بِبَنَاجِهَا الظَّافِرِ - عَلَى الْمُتَمَتِّعَةِ
الْمُتَرَفِّعَةِ الَّتِي تُحَقِّقُهَا مِنْ مُنَافَسَةِ الْأَحْصَنَةِ؟

هَآ هُمَا اثْنَانِ يَتَمَيَّانِ إِلَى نِظَامٍ أَكْثَرَ تَحَضُّراً! فَلْتَسَمَحُوا لِي بِأَنْ أَخَذَكُمْ إِلَى غُرْفَةِ
الْبَهْلَوَانِ الْعَاثِبِ. سَرِيرُهُ مِنْ خَشَبٍ مَطْلِي، بِلَا سَتَائِرَ، وَأَعْطِيَتْهُ مُتَهَدَّلَةٌ مُلَوَّنَةٌ بِالْبَقِ،
وَكُرْسِيَّانِ مِنَ الْقَشِ، وَمَدْفَأَةٌ مِنْ مَعْدِنٍ، وَآلَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ أَوْ اثْنَتَانِ مُعْطَلَتَانِ. آه! يَا لِلْآثَاثِ
الْحَزِينِ! لَكِنْ انظُرُوا، أَرْجُوكُمْ، إِلَى هَاتَيْنِ الشَّخْصِيَّتَيْنِ الدَّكَيْتَيْنِ، اللَّتَيْنِ تَرْتَدِّيَانِ
مَلَاسَ بَاذِيخَةٍ وَمُمَزَّقَةٍ فِي آيٍ، وَسَعْرُهُمَا مُصَفَّفٌ مِثْلُ «التَّرُوبَادُورِ»^(١) أَوْ الْعَسْكَرِيِّينَ،

(١) التروبادور: طائفة من الشعراء الغنائيين والشعراء الموسيقيين الذين اشتهروا في جنوب فرنسا من القرن
الحادي عشر إلى النهاية الثالث عشر.

الَّذِينَ يَخْرُسُونَ - بِانْتِبَاهِ السَّحَرَةِ - الْعَمَلِ بِلاَ عُنْوَانٍ الَّذِي نَضَجَ عَلَى الْمِدْفَأَةِ الْمُشْتَعَلَةِ،
وَالَّذِي تَنْتَصِبُ فِي مُتَنَصِفِهِ مِلْعَقَةٌ طَوِيلَةٌ، مَغْرُوسَةٌ كَأَحَدِ الصَّوَارِي الْهَوَائِيَّةِ الَّتِي تُعْلِنُ
أَنَّ الْمُبْنَى قَدْ اكْتَمَلَ.

الَيْسَ عَدْلًا أَلَّا يُرْمَى بِهِذَيْنِ الْمُمَثِّلَيْنِ الْغُيُورَيْنِ إِلَى الشَّارِعِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَا قَدْ انْتَحَمَا
مِعْدَتَيْهِمَا بِحِسَاءٍ دَسِمٍ وَقَوِي؟ أَلَنْ تَتَسَامَحُوا مَعَ بَعْضِ الْحَسِيَّةِ لَدَى هَذَيْنِ الشَّيْطَانَيْنِ
الْبَائِسَيْنِ اللَّذَيْنِ يُوَاكِهَانِ طَوَالَ الْيَوْمِ لَامْبَالَةَ النَّاسِ وَمَظَالِمَ مُدِيرِ يَسْتَوَلِي عَلَى
النَّصِيبِ الْأَكْبَرِ، وَيَلْتَهُمْ وَخَذَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَلْتَهُمْ أَرْبَعَةُ مُمَثِّلِينَ مِنَ الْحِسَاءِ؟

كَمْ مِنْ مَرَّةٍ تَأَمَّلْتُ، مُبْتَسِمًا وَمُتَأَثِّرًا، كُلَّ هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةِ مِنْ دَوِي الْأَرْبَعِ، الْعَبِيدِ
الْمُجَامِلِينَ، الْخَاضِعِينَ أَوْ الْمُخْلِصِينَ، الَّذِينَ يُمَكِّنُ لِلْقَامُوسِ الْجُمْهُورِيِّ أَيْضًا أَنْ
يَعْتَبِرَهُمْ رَسْمِيِّينَ، لَوْ كَانَ لِلْجُمْهُورِيَّةِ - الْمَشْغُولَةِ تَمَامًا بِسَعَادَةِ الْبَشَرِ - أَنْ تَمْلِكَ
الْوَقْتَ لِمُرَاعَاةِ شَرَفِ الْكِلاَبِ!

وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ فَكَّرْتُ فِي احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةُ فِي مَكَانٍ مَا (فَمَنْ يَذَرِي، فِي نِهَائِهِ
الْمُطَافِ؟)، كَمُكَافَأَةٍ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الشَّجَاعَةِ، مِثْلَ هَذَا الصَّبْرِ وَالْمَشَقَّةِ، فِرْدَوْسٍ
خَاصٍّ لِلْكِلاَبِ الطَّيِّبَةِ، الْكِلاَبِ الْبَائِسَةِ، الْكِلاَبِ الْمُلَوَّنَةِ بِالْأَوْحَالِ وَالْمَهْجُورَةِ.
«فَسُوِيدِنِيزْ»^(١) يُؤَكِّدُ عَلَى وُجُودِ فِرْدَوْسٍ لِلْأَتْرَاكِ وَآخَرٍ لِلْهُولَنْدِيِّينَ!

فَرَعَاةُ «فِرْجِيل» وَ«ثِيُوقْرِيط» كَانُوا يَنْتَظِرُونَ - كَجَائِزَةٍ عَلَى أَغَانِيهِمُ الْمُتَبَادَلَةِ - قِطْعَةً
جُبْنٍ جَيِّدَةٍ، أَوْ نَايَا مِنْ لَدَى أَحْسَنِ الصَّنَاعِ، أَوْ عِزَّةَ ذَاتِ ضُرُوعٍ مُمْتَلِئَةٍ. أَمَّا الشَّاعِرُ
الَّذِي أَتَشَدُّ لِلْكِلاَبِ الطَّيِّبَةِ فَقَدْ تَلَقَّى - كَمُكَافَأَةٍ - صَدْرِيَّةً جَمِيلَةً، ذَاتَ لَوْنٍ غَنِيٍّ وَبَاهِتٍ
فِي أَنْ، يَدْفَعُ إِلَى التَّفْكِيرِ فِي شُمُوسِ الْخَرِيفِ، وَفِي جَمَالِ النِّسَاءِ النَّاضِجَاتِ، وَفِي
أَصْيَافِ «سَانَ مَارْتَان».

وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِمَّنْ كَانُوا مَوْجُودِينَ فِي حَانَةِ شَارِعِ «فِيلَا - إِرْمُوزَا» سَيَنْسَى بِأَيِّ نَزَقٍ

(١) إيمانويل سويدنبرج (١٦٨٨ - ١٧٩٢): فيلسوف سويدي، اشتهر في العصر الرومانتيكي، وكان له تأثير
كبير على «بلزاك» و«نيرفال» و«بودلير».

خَلَعَ الرَّسَامُ صَدْرِيَّتَهُ إِكْرَامًا لِلشَّاعِرِ، حَيْثُ أَذْرَكَ تَمَامًا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الرَّفْعَةِ وَالشَّرَفِ أَنْ
يُنْشَدَ لِلْكِلاَبِ الْبَائِسَةِ.

هَكَذَا عَرَضَ عَاهِلٌ إِيْطَالِيٌّ مِهِيْبٌ، فِي الْأَيَّامِ الْخَوَالِي، عَلَى أَرِيْتَانِ^(١) الرَّائِعِ أَنْ
يَخْتَارَ إِمَّا خَنْجَرًا مُرْصَعًا بِالْأَحْجَارِ الْكَرِيْمَةِ، أَوْ عَبَاءَةً قَصْرٍ، مُقَابِلَ سُوْنَاتَا بَدِيْعَةٍ أَوْ
قَصِيْدَةٍ هَجَائِيَّةٍ مُدْهِشَةٍ.

وَكُلَّ مَرَّةٍ يَرْتَدِي فِيهَا الشَّاعِرُ صَدْرِيَّةَ الرَّسَامِ، كَانَ مَشْدُوْدًا إِلَى التَّفْكِيرِ فِي الْكِلاَبِ
الطَّيِّبَةِ، الْكِلاَبِ الْفَلَاسِفَةِ، فِي أَصْيَافِ سَانِ مَارْزَتَانِ، وَفِي جَمَالِ النِّسَاءِ فِي اكْتِمَالِ
النُّضْجِ.

(١) شاعر إيطالي (١٤٩٢-١٥٥٥)، مؤلف «حوارات» التي تتسم بالإبداع الحر.

مَلاحقُ ووَشائِقُ

مشروعات مقدمة «أزهار الشر»^(١)

(١)

تمر فرنسا بمرحلة من السوقية. فباريس، مركز وإشعاع الحماقة الكونية. فالبرغم من موليير وبيرانجيه، لم نكن أبدًا لنظن أن فرنسا ستمضي بهذه السرعة الفائقة في طريق التقدم. مسائل الفن، أرض مجهولة. الرجل العظيم أحرق. استطاع كتابي أن يفعل خيرًا. لا أثبتس لذلك. واستطاع أن يفعل شرًا. ولا أبتهج بذلك.

هدف الشعر. هذا الكتاب لم يؤلف من أجل نسائي وبناتي أو شقيقاتي. لقد أسندوا إليّ كلّ الجرائم التي حكيتها. تسلية للكراهية والاحتقار. شعراء الرثاء أوغاد. غير أن الشاعر لا ينتمي لأية جهة. وإلا، فسيصبح إنسانًا عاديًا. الشيطان. الخطيئة الأصلية. رجل صالح. لو شئت، لأصبحت نديم الطاغية؛ حب الله أصعب من الإيمان به. وعلى العكس، فبالنسبة لأناس هذا القرن، فالإيمان

(١) أراد «بودلير» كتابة مقدمة للطبعة الثانية، فالثالثة، من «أزهار الشر».. يوضح فيها غاياته التي أسيء فهمها وقت المحاكمة، مع الانتقام من الصحفيين الذين سخروا منه، فضلًا عن عرض لمناهجه الفنية. وكان مشروع المقدمة الأولى مخصصًا للرّد على «فيو» الذي تهجم على «بودلير» بشراسة في مقال له في «لوروفي» (١٥ مايو ١٨٥٨).. فيما كان المشروع الرابع من أجل الطبعة الثالثة. وفيما بعد المحاكمة وضع «بودلير» تصورًا لهذه الطبعة بحيث تضم «شهادات التعاطف» التي قدّمها عدد من الكتاب المعاصرين له. وقد تحقّق هذا التصور في طبعة ما بعد الوفاة (١٨٦٨). ولكن كل هذه «المشروعات» لم تصل إلى شكلها النهائي. وقد قام مالا سي - ناشر «بودلير» - بتجميع هذه المشروعات، لتنشر ضمن السيرة الذاتية «لبودلير» التي كتبها أسيلينو عام ١٨٦٨، ثم في أعمال لاحقة.

بالشيطان أصعب بكثير من حُبِّه. الكل يخدمونه ولا أحد يؤمن به. عظمة الشيطان السامية.

روحٌ من اختياري. الديكور. هكذا هي الجِدَّة. النقش. دورقِي. عصر النهضة. جيران دي نرفال. كلنا مشنوقون أو قابلون للشنق.

لقد وضعتُ بعض البذاءات لأرضي م.م. الصحفيين. لقد بدّوا جاحدين.

(٢)

ليس من أجل نسائي، وبناتي وشقيقتي، كُتِبَ هذا الكتاب؛ ولا أيضًا من أجل نساء وبنات أو شقيقات جاري. إنني أترك هذه المهمة لأولئك الذين لهم مصلحة في مزج الأفعال الجميلة باللغة الجميلة.

أعرف أن العاشق الولهان للأسلوب الجميل يعرض نفسه لكرهية الجمهور. ولكن ما من احترام إنساني، ولا أي حياء زائف، ولا أي توافق، ولا أي قبول عالمي باستطاعته أن يرغمني على الكلام بلهجة هذا العصر الفريدة، ولا على خلط الخبر بالفضيلة.

شعراء مشهورون تقاسموا منذ أمدٍ بعيد أكثر الأقاليم ازدهارًا في المجال الشعري.

لقد بدا لي ذلك سارًا، بل ممتعًا أكثر لأن المهمة كانت أصعب، وهي استنباط الجمال من الشَّرِّ. هذا الكتاب، عديم الفائدة أساسا وفي منتهى البراءة، لم يُؤلَّفْ لهدف آخر غير تسلّيتي وممارسة ذوقي المولع بالعقبات.

قال بعضهم لي إن هذه الأشعار يمكنها أن تؤذي؛ فلم أبتهج بذلك. وآخرون، من ذوي الأرواح الطيبة، قالوا إنها قد تفعل خيرا؛ وذلك لم يحزني. خوف بعضهم وأمل الآخرين أذهلاني على حد سواء، ولم يؤديا إلا إلى التأكيد لي - مرة أخرى - على أن هذا القرن قد نسي المفاهيم الكلاسيكية المتعلقة بالأدب.

وعلى الرغم من محاولات الإنقاذ التي قام بها بعض المُدَّعين المشهورين لحماقة الإنسان الطبيعية، فلم أكن لأصدق أبدًا أن وطننا استطاع السير بمثل هذه السرعة في طريق التقدم.

لقد بلغ هذا العالم حدًا من السوقية التي تمنح الإنسان الروحي عنفًا في العاطفة رغما عنه. لكن هناك قوقعات محظوظة لا يطالها السم ذاته.

في البداية كانت لديّ نية الرد على عدد من الانتقادات، وفي نفس الوقت تفسير بعض المسائل بالغة البساطة، والتي أعتمها بشكل كامل الضوء الحديث: ما الشعر؟ ما غايته؟ التمييز بين الخير والجميل؛ والجمال في الشر؛ ماذا يحقق الإيقاع والقافية في الإنسان ذي الاحتياجات الأبدية للرتابة والتماثل والمفاجأة؛ استنباط الأسلوب من الموضوع؛ وعن الزهو وخطر الإلهام، إلخ... إلخ؛ لكن الطيش تملكني فقرأت هذا الصباح بضع صحف عامة؛ فجأة، حلت عليّ لا مبالاة بثقل عشرين ضغط جويّ، وتوقفت أمام عدم الأهمية الفظيعة لشرح أي شيء لأي كان. فمن يعرفون يخمنون أفكار، أما من لا يستطيعون أو لا يريدون الفهم، فسوف أكدّس لهم الشروح بلا جدوى.

ش. ب.

(٢)

- كيف يمكن للفنان الارتقاء إلى أصالة متوازنة، بسلسلة من الجهود المعينة؟ كيف يتماس الشعر مع الموسيقى بعروض تغوص جذوره إلى ما هو أعمق مما تشير إليه أية نظرية كلاسيكية؟

الشعر الفرنسي يمتلك عروضاً غامضاً ومجهولاً، مثل اللغة اللاتينية والإنجليزية؛ لماذا يعجز كل شاعر، لا يعرف بالتحديد كم تتضمن كل كلمة من القوافي، عن التعبير عن أي فكرة كانت؟

إن الجملة الشعرية يمكنها أن تقلد (ومن هنا تتماس مع الفن الموسيقي وعلم الرياضيات) الخط الأفقيّ، والخط المستقيم الهابط، والخط المستقيم الصاعد؛ فبإمكانها الصعود عمودياً إلى السماء، بلا لهات، أو الهبوط رأسياً إلى الجحيم بسرعة أي ثقل؛ ويمكنها اتباع اللولب، ووصف القطع المكافئ، أو التعرج الذي يشكل سلسلة من الزوايا المتراكمة؛

يرتبط الشعر بفنون الرسم، والطبخ والتجميل بإمكانية التعبير عن كل إحساس

بالعدوبة أو المرارة، بالغبطة أو الذعر، من خلال المزاجية بين اسم ما وصفة ما، التماثل أو التناقض؛

مستندًا إلى مبادئ ومسلحًا بالعلم الذي أتولى تعليمه له في عشرين درسا، كيف يصبح كل إنسان قادرا على تأليف تراجيديا لن تكون أكثر إثارةً للاستهجان من أخرى، أو نظم قصيدة بطول ضروري لتصبح مملة كأية قصيدة ملحمية معروفة.

مهمة صعبة هي الارتقاء نحو هذه الفطور السماوي! لأنني أنا نفسي، رغم الجهود الحميدة، لم أستطع مقاومة شهوة إعجاب المعاصرين لي، كما تشهد على ذلك - في بعض المقاطع الموضوعية كالخضاب - المجاملات الوضيعة الموجهة للديموقراطية، وحتى بعض البذاءات الموجهة لدفعي للاعتذار عن كآبة موضوعي.

لكن س.س. الصحفيين، إذ بدوا ناكرين للجميل تجاه مداعبات من هذا النوع، فقد محوت آثارها، بقدر الإمكان، في هذه الطبعة الجديدة.

إنني أقترح، للتحقق من جديد من امتياز منهجي، تطبيقه قريبا خلال الاحتفال بمباهج الإيمان ونشوات المجد العسكري، التي لم أعرفها قط.

ملاحظة على الانتحالات - توماس جراي. ادجار بو (٢ مقطع). لونجفيلو (٢ مقطع). ستاس. فرجيل (قصيدة أندروماك كلها). أسخيل. فيكتور هوغو.

(٤)

(للمزج ربّما مع الملاحظات القديمة)

إذا ما كان ثمة مجدّ ما في ألا أكون مفهومًا، أو أن أكون مفهومًا بدرجة محدودة، فيمكنني القول بلا فخر، إنني - بهذا الكتاب الصغير - قد اكتسبته واستحقته بضربة واحدة.

هذا الكتاب، وقد قدّم مرات متعددة متتالية لناشرين مختلفين كانوا يرفضونه برعب، وإذ حُوكم وبُتر، عام ١٨٥٧، في أعقاب نوع من سوء الفهم بالغ الغرابة، ليتجدد ببطء، ويتنامى ويتقوى خلال بضع سنوات من الصمت، ليختفي من جديد، بفضل لا مبالاتي، هذا الإنتاج المخالف لربة شعر الأيام الأخيرة، ليتأجج مرّة

أخرى يبضع لمسات جديدة وعنيفة، يتجرأ اليوم وللمرة الثالثة على مواجهة شمس الحماسة.

ليس خطئي؛ هو خطأ ناشر ملحاح يظنّ نفسه قويا بما يكفي لمواجهة التقزز العام. «هذا الكتاب سيبقى طوال حياتكم وصمة»، ذلك ما كان يتوقعه لي، منذ البداية، أحد أصدقائي وهو شاعر كبير. بالفعل، فكل مغامراتي أعطته الحق حتى الآن. لكنني أتمتع بإحدى الشخصيات المحظوظة التي تستمد البهجة من الكراهية، والتي تتمجد في الاحتقار. ومزاجي المُولع - بصورة شيطانية - بالحماسة يجعلني أجد ملذّات خاصة في تحريف البهتان. طاهراً كما الورق، بسيطاً كالماء، مدفوعاً إلى الورع مثل مقدّمة القربان، غير مؤذ كضحية، لن يزعجني أن أدعى ماجناً، سكيراً، ملحدًا وقاتلاً.

ويدّعي ناشري أنه ستكون هناك بعض الفائدة، لي وأيضاً له، في تفسير سبب وكيفية تأليفي لهذا الكتاب، وماذا كانت غايتي وأدواتي، ونيتي ومنهجي. عمل نقدي كهذا سيكون له - بلا شك - فرصة ما في تسلية الأرواح المحبّة للبلاغة العميقة. من أجل هؤلاء ربّما سأكتبه فيما بعد وأطبعه في عشر نسخ. لكن، بتدقيق أكبر، ألا يبدو واضحاً أن ذلك سيكون مهمة بلا جدوى تماماً، بالنسبة للبعض كما للبعض الآخر، بما أن البعض يعرفون أو يتوقعون وأن الآخرين لن يفهموا أبداً؟ وحتى نبثّ في الناس المعرفة بعمل الفن، فلدي خوف هائل من التفاهة، وأخشى - في هذا المجال - أن أتساوى مع هؤلاء الطوباويين الذين يريدون، بفرمان، جعل كل الفرنسيين أغنياء وأفاضل بضربة واحدة.

ثم إن أفضل حُجّة لي، العليا، هي أن ذلك يضجرني ولا يعجبني. فهل نقود الجموع إلى ورشات الأزياء والديكور، إلى مقصورات الممثلين؟ هل نعرض للجمهور، الشغوف اليوم، اللامبالي غداً، آلية الأشياء؟ هل نشرح له التنقيحات والتغيرات غير المنتظرة في التدريبات، وإلى أي مدى تمتزج الغيرة والإخلاص بالعناوين والشعوذة الضرورية في خليط الكتاب؟ هل نكشف له كل الخرق، والخضاب، والبكرات، والسلاسل، والحشرات، والتجارب المتسخة، باختصار كل البشاعات التي تشكل قداسة الفن؟

من ناحية أخرى، فذلك ليس مزاجي اليوم. ليست لديّ الرغبة في الإثبات، ولا

الإدهاش، ولا التسلية، ولا الإقناع. لديّ أعصابي، وأبخرتي. إنني أطمح إلى راحة مطلقة وليلة مستمرة. وكمشدد للشهوات المجنونة للخمر والأفيون، لا أظماً إلا إلى شراب مجهول على الأرض، لا تستطيع حتى الصيدلية السماوية تقديمه لي؛ شراب لا يحتوي على الحياة، ولا على الموت، ولا الإثارة، ولا العدم. وأملّي الوحيد اليوم هو عدم المعرفة، عدم التعليم، عدم الرغبة، عدم الإحساس، والنوم، وأيضاً النوم. أمل شائن ومقزز، لكنه صادق.

على الرغم من ذلك، وانطلاقاً من ذوق سام يعلمنا عدم الخوف من مناقضة أنفسنا قليلاً، فقد جمعت، في نهاية هذا الكتاب الكريه، شهادات تعاطف بعض الناس الذين أقدرهم حق التقدير، حتى يتمكن القارئ المحايد من استنتاج أنّي لا أستحق إطلاقاً العقاب، وأنّني - بعد استطاعتي كسب محبة بعضهم - فإن قلبي، مهما قيل فيما لا أدري من ممسحة مطبوعة، لا يملك ربّما «قبح وجهي الفظيع».

أخيراً، وبكرم غير معهود، من قبل س.س.س. النقاد...

بما أن الجهل في تزايد...

إنني أفضح بنفسني أشكال التقليد...

مشروعات خاتمة «أزهار الشر»^(١)

(١)

رَاضِي الْقَلْبِ، صَعَدْتُ الْجَبَلِ
حَيْثُ أَسْتَطِيعُ تَأْمُلُ الْمَدِينَةَ بِكُلِّ اتِّسَاعِهَا،
الْمُسْتَشْفَى، وَالْمَاخُورِ، وَالْمَطْهَرِ، وَالْجَحِيمِ، وَالسَّجْنِ،

حَيْثُ كُلُّ فَاحِشَةٍ تَزْدَهْرُ مِثْلَ زَهْرَةٍ.
تَعْرِفُ جَيِّدًا، أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، يَا رَاعِي مِخْتَبِي،
أَنْبِي لَمْ أَمْضِ إِلَيْ هُنَاكَ لِأَسْفَحَ الدَّمْعَ سُدًى؛

بَلْ كَفَّاسِقٍ عَجُوزٍ لِعَشِيقَةٍ عَجُوزِ،
كُنْتُ أُرِيدُ السُّكْرَ بِالْعَاهِرَةِ الْكَبِيرَةِ

(١) أجمع محققو أعمال «بودلير» المحدثون على الخطأ الذي ارتكبه «بانفيل» و«أسيلينو» - خلال إعدادهم لطبعة أعمال بودلير بعد الوفاة - بوضع مشروع الخاتمة الأول في نهاية «سأم باريس»، وهو ما تكرر - استنادًا على ذلك - في طبعات لاحقة لـ «سأم باريس». وكان مشروع الخاتمة مكتوبًا من أجل «أزهار الشر». وفي شهر مايو ١٨٦٠، كتب «بودلير» الخاتمة على نحو ما أشار إليه «بوليه - مالاسي»: «إنني أعمل في أزهار الشر. وخلال بضعة أيام، ستكون لديك باقتك، والقصيدة الأخيرة أو الخاتمة، الموجهة إلى مدينة باريس ستدهشك أنت نفسك، إذا ما أوصلتها إلى نهاية جيدة (في مقاطع ثلاثية فخيمة). لكن المشروع ظل غير مكتمل.

الَّتِي يُجَدِّدُ سِحْرُهَا الْجَهَنَّمِيَّ شَبَابِي بِلَا أَنْتِهَاءَ.

وَسَوَاءُ مَا إِذَا كُنْتَ مَا تَزَالِينَ نَائِمَةً فِي مَلَأَاتِ الصَّبَاحِ،
ثَقِيلَةً، قَاتِمَةً، مَرْكُومَةً، أَوْ كُنْتَ تَتَبَخَّرِينَ
فِي غُلَالَاتِ الْمَسَاءِ مُرَيَّنَةً بِجَدَائِلِ الذَّهَبِ الرَّائِعِ،
فَإِنِّي أُحِبُّكَ، أَيُّهَا الْعَاصِمَةُ الشَّائِنَةُ!
وَهَكَذَا - أَيُّهَا الْعَاهِرَاتُ وَقُطَاعُ الطُّرُقِ -
تُقَدِّمُونَ مَلَذَّاتٍ لَا يُدْرِكُهَا الْبَشَرُ الْعَادِيُّونَ.

(٢)

هَادِنًا كَرَجُلٍ حَكِيمٍ وَرَقِيقًا مِثْلَ مَلْعُونٍ، قُلْتُ:
أُحِبُّكَ، يَا جَمِيلَتِي، يَا سَاحِرَتِي...
كَمْ مِنْ مَرَّةٍ...
فُجِرْتُ بِلَا عَطَشٍ، وَعَشِقْتُكَ بِلَا رُوحٍ، وَشَهَوْتُكَ لِلْإِنْبَهَائِيِّ،
مُشْهَرَّةً فِي كُلِّ مَكَانٍ، حَتَّى فِي الشَّرِّ نَفْسِهِ...
قَنَابِلُكَ، خَنَاجِرُكَ، انْتِصَارَاتُكَ، اخْتِفَالَاتُكَ،
صَوَاحِيكَ الْكَئِيبَةِ،
فَنَادِقُكَ الْمُؤَنَّنَةِ،
حَدَائِقُكَ الْمَلِيئَةُ بِالْأَهَاتِ وَالْدَسَائِسِ،
مَعَابِدُكَ الَّتِي تَقِيءُ الصَّلَاةَ عَلَى وَقَعِ الْمَوْسِيقَى،
يَأْسُكَ الطُّفُولِي، وَالْعَابِكِ الْعَجُوزِ الْمَجْنُونَةِ، وَإِحْبَاطَاتُكَ،
وَالْعَابِكِ النَّارِيَةِ، وَانْفِجَارَاتُ الْبَهْجَةِ،

الَّتِي تَدْفَعُ السَّمَاءَ إِلَى الضَّحِكِ، بِكُمَاءٍ وَمُظْلِمَةٍ.

إِثْمُكَ الْجَلِيلُ مَنْشُورٌ فِي الْحَرِيرِ،
وَفَضِيلَتُكَ الْمُضْحِكَةُ، لَدَى النَّظَرَةِ التَّعَسَةِ،
عَذْبَةً، مُتَشَبِّهَةً فِي بَدَخٍ مُتَشِيرٍ.
مَبَادِئُكَ الْمَصُونَةُ وَقَوَائِنُكَ الْمُحْتَقَرَةُ،
نُصْبُكَ الشَّامِخَةُ الَّتِي يَغْلُقُ بِهَا الضَّبَابُ،
قِيَابُكَ الْمَعْدِنِيَّةُ الَّتِي تُشْعِلُهَا الشَّمْسُ،
مَلِكَاَتُ مَسْرَحِكَ بِصَوْتِهِنَّ السَّاحِرِ،
نَوَاقِيسُ الْخَطَرِ، مَدَافِعُكَ، الْأُورِكُسْتِيرَا الَّذِي يَصُمُّ الْأَسْمَاعَ،
بَلَاطُكَ السَّحَرِيُّ الْمُتَنَظِّمُ فِي قِلَاعٍ،
خُطَبَاؤُكَ الصَّغَارُ، دَوُو التَّفْخِيمِ الْبَارُوكِيِّ
مُبَشِّرِينَ بِالْحُبِّ، فَبَالُو عَائِكَ الْمُتَخَمَّةُ بِالدَّمِ،
الْمُنْدَفِعَةُ إِلَى الْجَحِيمِ مِثْلَ أَنْهَارٍ أُورِينُوك^(١)،
حُكَمَاؤُكَ، وَمُهَرَّجُوكِ الْجُدُدُ دَوُو الْأَسْمَالِ الْقَدِيمَةِ.
أَيْتُهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُكْتَسُونَ بِالذَّهَبِ، وَالْأَرْجَوَانِ وَالْيَاقُوتِ،
يَا أَنْتُمْ، فَلْتَكُونُوا شُهُودًا عَلَى أَنْنِي قُمْتُ بِوَاجِبِي
كَكِيمِيَّائِي رَائِعٍ وَكَرُوحٍ مُقَدَّسَةٍ.
لَأَنْنِي اسْتَخْلَصْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ الْجَوْهَرِ،
أَعْطَيْتَنِي طِينِكَ فَصَنَعْتُ مِنْهُ الذَّهَبَ.

(١) أورينوك: نهر في «فتزويلا»، يصبُّ في الأطلنطي.

وثائق محاكمة «أزهار الشر»

١-ردود فعل الصحافة على «أزهار الشر»

يوم ٥ يوليو ١٨٥٧ (بعد عشرة أيام من صدور «أزهار الشر»)، نُشر مقال جوستاف برودان في «الفيجارو Le Figaro»، ليلفت انتباه وزارة الداخلية إلى كتاب بودلير. وفي المقال، يقول الكاتب:

«قرأت الكتاب، ولا أملك حُكمًا لإعلانه، ولا قرارًا لاتخاذهِ؛ لكن ها هو رأي لا نية مسبقّة لديّ لفرضه على أحد.

لم يشهد المرء أبدًا إهدارًا - بمثل هذا الجنون - لمثل هذه القدرات الرفيعة. فثمة لحظات يتشكك المرء فيها بالحالة العقلية للسيد بودلير؛ ولحظات أخرى لا يعتري المرء فيها أي شك: إنه، في معظم الأوقات، التكرار الرتيب والعمدي للألفاظ نفسها، والأفكار نفسها.. والقبيح في ذلك يقترن بالدنيء؛ والمنفر في ذلك يبلغ التّين. فأبدًا لم ير المرء قضم، بل مضغ كل هذه الأثناء في مثل هذه الصفحات القليلة؛ أبدًا لم يشهد المرء استعراضًا مماثلًا للشياطين، والأجنّة، والأبالسة، واليرقانات، والققط والهوام.

فهذا الكتاب مستشفى مفتوحة لكل العاهات العقلية، وكل انحلالات القلب؛ وليت ذلك كان من أجل علاجها، لكنها مستعصية».

وفي ١٤ يوليو، في «المونيتور Le Moniteur» (لسان حال الحكومة)، نشر مقال متحمس بقلم إدوارد تييري:

«فلتفترضوا فانتازيا مشئومة تفتقر إلى خيالات الراوي الأمريكي، مخيلة تمضي

على مستوى تخيلاتها نفسها المشوشة؛ فلتفترضوا دفيئةً من زجاج مخصصة لخدمة حديقة الشتاء، في قصر من قبيل قصر الأمير بروسبيرو، على سبيل المثال، في أعقاب سبع قاعات تضيئها - من جانب الممر - نوافذها الوهاجة. الدفيئة هي قصر آخر. والسيد، الذي قام ببنائه وفقاً لمزاجه الغريب، لم يشأ أن يجمع فيها النباتات النادرة، والزهور التي تمتع الحواس بالشم والروح بالنظر، وأوراق شجرٍ لخضرةٍ عذبة وفضية، والنخيل الجميل، والمراوح الكبيرة، والبيارق الطويلة الطافية، والزينات المائلة على نباتات الأنثيل. فطبيعة الباسيفيك قدمت - منذ أمد بعيد - نماذجها الأغنى. لقد أراد معرفة ما يمكن أن تقدمه الطبيعة القاتلة. أراد تنمية النباتات المميتة والتي تحمل شارة الشر في أشكالها الكثيبة. لقد بحث عن اللحاء الذي يقطر عصارةً خطيرة، والظلال التي تبث الدُّوار والحمى. خلق مستنقعات مغطاة بكل أشكال الزبد، وكل أشكال الرغوة، وكل أشكال الثفل، وكل اللآلئ المخضرة في الفساد النباتي. أعد أماكن وضعية ومخوفة، حيث الذباب بألف لون يطن ويتخذ ببشاعة حركة التنفس في بطن حيوانات ميتة. ومن طرف إلى آخر من هذه الحديقة المفزعة، تحتضن حرارةً كثيبة - في آن - العفن والروائح النافذة، المختلطة، بحيث تهتاج الروائح وتخشى الحواس المبهورة من أن تروق لها العدوى. ومع ذلك، ينبثق من كل ناحية ازدهار خارق، ونباتات متسلقة رائعة، وقوة إنتاج لا تخطر ببال، وأشكال بشعة وفاتنة، وألوان برق مشثوم سببته بجانبها أي لون آخر. لقد حقق سيد المكان جنة عدن الجهنمية. فيها يتنزه الموت مع شقيقته الشهوة، الشبيهين تماماً، والعين متحيرة في تحديد ما يجذبها وما يصددها. إن سلالة الأفعى القديمة تزحف قاتلةً في الممرات، وفي الوسط، شجرة المعرفة تنفث دفقةً أخيرةً تنفجر بمعجزة من جذعها المصعوق.

إنني أسعى لتقديم انطباع عن الكتاب، وأحاول أن أكون مفهومًا أكثر من سعبي إلى شرح فكري. فهذه الحلقة تخاطب الجميع. وكتاب مثل «أزهار الشر» لا يخاطب كل من يقرأون الحلقة. فهل أقدم عنه فكرةً أكثر تحديداً؟ هل أربط بين الشكل واستلهام شكل أدبي معين؟ نعم، وسأربط بينه وبين القصيدة الغنائية التي كتبها ميرابو في حصن فانسان. فيه أحياناً الجرأة، والهلوسة الكثيبة، والجماليات الرائعة، ودائماً الحزن. هو الحزن الذي يبرره ويغفره. ولا يبتهج الشاعر إزاء مشهد الشر. إنه يرى الرذيلة في مواجهته، لكن كعدوٍّ يعرفه جيداً ويتصدى له. ولا أدري ما إذا كان ما يزال يخشاه،

أم كفَّ عن خشيته؟ لكنه يتحدث بمرارة شخص مهزوم يحكي انكساراته. وهو لا يتستر على شيء أبدًا. ولم ينس شيئًا. ووقت أن كان الأدب المكشوف يحكي للعامة سلوكيات الحياة البوهيمية، ومغامرات بارونة آنج ومغامرات مارجريت جوتييه، فقد جاء في أعقاب الرواة المُسلِّين ليقدم بدوره القصيدة الغزلية عبر الحقول، والقصيدة الريفية بجوار حيوان ميت، أو في خدر العاهرة القتيلة، وبعده لن يأتي أحدٌ أبدًا. لقد كتب الحقيقة الأخيرة. إنه لم يكذب على نفسه. لم يكذب على أحد. ولـ «أزهار الشر» رائحة مُدوِّخة. وقد استنشقتها، دون أن يفشي ذكرياته. إنه يحب نشوتها وهو يتذكرها، لكنها نشوة حزينة بما يبعث على الخوف. وهو من ناحية أخرى لا يهتم، من ناحية أخرى لا يشكو، إنه حزين. وكتابه يفتقر إلى ضوء لينيره، نوع من خرافة لتحديد الإدراك فيه. فلو أنه استدعى «الكوميديا الإلهية»، عمل دانتى، ولو أن آثمه الأكثر اجترأ كانوا قد وُضِعُوا في إحدى حلقات «الجحيم»، فإن نفس لوحة «السحاقيات» ما كانت تحتاج إلى تنقيح لأن العقاب كان سيصبح قاسيًا تمامًا. وفضلاً عن ذلك، وبذلك أختتم، فقد كنت قد ربطت بين ميرابو ومؤلف «أزهار الشر»، وأربط بينه وبين دانتى، لأؤكد أن الفلورنسي القديم كان سيتعرف أكثر من مرة - لدى الشاعر الفرنسي - على جموحه، وحديثه المرعب، وصوره القاسية، وجرس شعره الفولاذي. لقد سعيت إلى امتداح شارل بودلير، فكيف كان لي أن أمتدحه بشكل أفضل؟ إنني أترك كتابه وموهبته في ظل رعاية دانتى الصارمة.

ولن أتحدث كثيرًا عن «دونيس». لقد كُتِبَ «أزهار الشر» مرةً، كرائعة عن الواقع الوحشي، كتاب ذو أسلوب بالغ العظمة وضراوة رفيعة، كُتِبَ (عندما أمكن كتابته)، ولا نبذاه من جديد.

وفي اليوم التالي، رد «جورنال بروكسيل Journal de Bruxelles» الكاثوليكي بمقال بلا توقيع، بالغ العنف على نحو ما يشهد عليه هذا المقطع:

«... تحدثت لكم مؤخرًا عن «السيدة بوفاري»، هذا النجاح الفضائحي، التي تمثل - في آن - عارًا أدبيًا، ونكبةً أخلاقية، وعَرَضًا مَرَضِيًّا اجتماعيًا. هذه الرواية البشعة - «السيدة بوفاري» - هي كتاب من الوَرَع بالمقارنة بكتاب شعر صدر هذه الأيام،

بعنوان «أزهار الشر». والمؤلف هو السيد بودلير، الذي ترجم إدجار بو، والذي - منذ عشر سنوات - يُعرَف بأنه إنسان عظيم في أحد تلك المتنديات الصغيرة، التي تنطلق منها قاذورات الصحافة البوهيمية والواقعية. ولا شيء يمكن أن يعطيكم فكرةً عن سلسلة الفظاعات والقذارات التي يضمها هذا الكتاب. وأصدقاء المؤلف مذعورون من ذلك ويسرعون إلى إعلان الفشل، خوفاً من تدخل البوليس: إن الدعاوى نفسها ليست ممكنةً بالنسبة لقلم أمين. ومن هنا، وبفعل شعور بالقرف، أقوى من كل شيء، فسيفلت السيد بودلير من سوط الناس الذين يحترمون أنفسهم...»

٢- ملاحظات بودوير إلى محاميه، شيه ديستانج

ينبغي تقديم الكتاب في كُله، وما ينجم عنه بالتالي من أخلاقية مرعبة.

فلا أملك بالتالي أن أهني نفسي على هذا التساهل الذي لم يُجرّم سوى ١٣ قصيدة من بين ١٠٠. فهذا التساهل مميت، بالنسبة لي. ولدى تفكيري في هذا الكل المتكامل لكتابي، قلت للسيد قاضي التحقيق:

خطئي الوحيد كان اعتمادي على الذكاء العام، وعدم كتابة مقدمة كان لي أن أسجل فيها مبادئي الأدبية، وأبرز المسألة بالغة الأهمية الخاصة بالأخلاق (انظر، فيما يتعلق بالأخلاق في الأعمال الفنية، الرسائل الرائعة للسيد أونوريه دي بلزاك إلى السيد هيوليت كاستيل، في جريدة «لا سومين La Semaine».

والكتاب، بالقياس إلى الانخفاض العام للأسعار في المكتبات، ذو سعر مرتفع. وهي حقاً ضمانة هامة. فأنا لا أخاطب إذن العامة.

وهناك تقادم بالنسبة لاثنتين من القصائد المُجرّمة: «ليسبوس»، و«إنكار سان - بيير»، اللتين نُشرتتا قبل وقت طويل دون مقاضاة.

ولكنني أدّعي، في حالة ما إذا أُجبرْتُ على الاعتراف ببعض الأخطاء، أن هناك نوعاً من التقادم العام. وبمقدوري أن أشكّل مكتبةً من الكتب الحديثة التي لم تتعرض للمقاضاة، والتي لم تستنشق، مثل كتابي، رعب الشر. ومنذ حوالي ٣٠ عامًا، يتمتع الأدب بحرية يُراد فجأةً معاقبتها في شخصي. فهل هذا عادل؟

هناك أخلاقيات متعددة. هناك الأخلاقية الإيجابية والعملية التي يجب أن يخضع لها الجميع.

لكن هناك أخلاقية الفنون. وهي مختلفة تمامًا، وأثبتتها الفنون جيدًا منذ بداية العالم.

وهناك أيضًا أنماط متعددة من الحرية. هناك الحرية الخاصة بالعبري، وهناك حرية محدودة للغاية بالنسبة للسوقة. أفلا يملك السيد شارل بودلير الحق في الاحتجاج بالاجتراعات المباحة لبيرانجيه (الأعمال الكاملة المجازة)؟ فالموضوع الذي يؤاخذ عليه شارل بودلير قد تناوله بيررانجيه من قبل. فماذا تفضلون: الشاعر الحزين أم الشاعر المبتهج الصفيق، الرعب في الشر أم المزاح، الندم أم الوقاحة؟ (قد لا يكون صائبًا استخدام هذه الحجة بإفراط).

أكرر أن أي كتاب ينبغي تقويمه في كله.

سأواجه التجديف باندفاعات نحو السماء، والفحش بزهور أفلاطونية. منذ بداية الشعر، ألّفت كل الأعمال الشعرية هكذا. لكنه كان مستحيلًا - بوجه آخر - تأليف كتاب مكرس لتمثيل احتياج العقل في الشر.

والسيد وزير الداخلية، في سخطه من قراءة مديح يُطْرِي كتابي في «المونيتور» (Le Moniteur)، اتخذ كل الاحتياطات كيلا تتكرر هذه الواقعة المزعجة.

لقد حمل السيد دورقيي (وهو كاتب كاثوليكي تمامًا، استبداديّ وليس موضع شك) مقالاً عن «أزهار الشر» إلى «لو بييه» (Le Pays) التي يرتبط بها؛ وقيل له إن تعليمه حديثة قد منعت الحديث عن شارل بودلير في «لو بييه» (Le Pays).

والواقع أنني قد أعربت - منذ بضعة أيام - للسيد قاضي التحقيق عن خشيتي من أن صخب المصادرة قد يُجمّد الإرادة الطيبة للأشخاص الذين سيجدون شيئاً جديراً بالثناء في كتابي. وأجابني السيد القاضي (شارل كاموسا بيسورول): سيدي، كل العالم له الحق - بشكل كامل - في الدفاع عنك في جميع الصحف بلا استثناء.

ولم يجرؤ السادة مديرو «لا رُوَفي فرانسيز» (La Revue Francaise) على نشر مقال السيد شارل أسيلينو، أكثر الكتاب حكمة واعتدالاً. وقد استعلم هؤلاء السادة من وزارة الداخلية (!)، التي أجابتهم بأن ثمة خطورة عليهم من نشر هذا المقال.

هكذا، تعسف السلطة والعراقيل المساهمة في المنع!

إن العهد النابليوني الجديد ينبغي أن يبحث عن مشاهير الأدب والفن، بعد مشاهير الحرب. فما هذه الأخلاق مفتعلة الحياء، المتزمتة، النكدة، ومن لن يميل إلى ما ليس بأقل من خلق متآمرين حتى داخل النظام الهادئ للحالمين؟ هذه الأخلاق ستصل إلى القول: من الآن فصاعدًا لن نؤلف سوى كتب مسلية، نستخدم في إثبات أن الإنسان قد وُلد طيبًا، وأن جميع الناس سعداء.

- نفاق مقيت!

(انظر موجز استجابي، وقائمة القصائد المُجرّمة).

٣.مرافعة السيد بينار

وكيل النائب العام الإمبراطوري

مقاضاة كتاب على إهانة الأخلاق العامة هي دائماً أمرٌ حسّاس. فإن لم تنجح المقاضاة، فسوف يتحقق نصرٌ ما للمؤلف، كأداة ارتقاء تقريباً؛ فهو يتصر، وقد اتخذ إزاء نفسه مظهر الاضطهاد. وأضيف أن المؤلف - في الدعوى الراهنة - يجيء إليكم محمياً من قِبَل كُتّاب ذوي شأن، ونقاد جادين تُعقد شهادتهم مهمة النيابة العامة.

وعلى الرغم من ذلك، فلن أتردد - سادتي - في الوفاء بها. فليس الرجل هو من نحاكمه، إنه كتابه؛ وليست نتيجة المقاضاة هي ما يشغلني، بل هي - فحسب - مسألة معرفة ما إذا كانت (المقاضاة) مؤسسة.

وشارل بودلير لا ينتمي إلى أية مدرسة. إنه لا يتبع إلا نفسه. ومبدأه، نظريته، هي تصوير كل شيء، تعرية كل شيء. لقد نبش الطبيعة الإنسانية في خباياها الأكثر حميمية؛ ولتحقيق ذلك، يستخدم نبرات قوية مؤثرة، ويبالغ في ذلك وخاصة في تلك الجوانب البشعة؛ ويضخم منها فوق الحد، من أجل خلق الانطباع، الإحساس. هكذا يقوم - كما يمكن أن يقول - بنقيض ما هو كلاسيكي، ما هو تقليدي، الرتيب بصورة خاصة والذي لا يخضع إلا لقواعد مصطنعة.

والقاضي ليس ناقدًا أدبيًا بالمرّة، مدعواً لإعلان موقفه من الأنماط المتعارضة في تقويم الفن والحكم عليه. إنه ليس قاضي المدارس (الفنية) بالمرّة، لكن المُشرّع أوكل إليه مهمةً محددة. لقد رصد المُشرّع في قوانيننا جريمة إهانة الأخلاق العامة،

وعاقب هذه الجريمة بعقوبات معينة، ومنح السلطة القضائية سلطاً تقديرياً لمعرفة ما إذا كانت هذه الأخلاق قد أُهينَت، وما إذا كان قد تم تجاوز الحد. فالقاضي حارسٌ لا ينبغي له أن يدع الحدودَ مباحة. تلك هي مهمته.

وهنا، في القضية الراهنة، أُنْبِغِي على النيابة العامة التفريط في اليقظة؟ ها هي الدعوى. وكى نحللها، فلنذكر مقطوعات مستقاة من هذا الديوان لا نستطيع عبورها دون اعتراض.

أقرأ، في الصفحة ٥٣، القصيدة ٢٠، التي تحمل عنوان «الجواهر»، وأرصد فيها ثلاث مقطوعات تشكل - بالنسبة للناقد الأكثر تسامحاً - الرسم الشهواني، المهين للأخلاق العامة:

وَذَرَاعَاهَا وَسَاقَاهَا، فَخَذَاهَا وَحِقْوَاهَا،
النَّاعِمُونَ كَمَا يَفْعَلُ الزَّيْتُ، مُتَمَاوِجِينَ كَبَجَعَةٍ،
كَانُوا يَمُرُّونَ أَمَامَ نَاطِرِي الْبَصِيرِينَ الْهَادِثِينَ؛
وَبَطْنُهَا وَتَدْيَاهَا، عَنَاقِيدُ خَمْرِي،

كَانَتْ تَتَقَدَّمُ، أَكْثَرَ غُنْجًا مِنْ مَلَائِكَةِ الشَّرِّ،
لَتُرْجِعَ الرَّاحَةَ الَّتِي اسْتَكَانَتْ إِلَيْهَا رُوحِي،
وَلَتُرِيحَهَا عَنْ صَخْرَةِ الْكِرِيْسَالِ
الَّتِي كَانَتْ جَالِسَةً عَلَيْهَا، هَادِثَةً مُنْفَرِدَةً.

بَدَأَ لِي أَنِّي أَرَى، فِي صُورَةٍ جَدِيدَةٍ،
أَفْحَادَ أَنْثِيُوبٍ مُتَّحِدَةٍ بِجَذْعِ صَبِيٍّ أَمْرَدٍ،
وَقَوَامُهَا كَانَ يَدْفَعُ إِلَى الْبُرُوزِ بِخَوْضِهَا.

وَعَلَى هَذِهِ الْمِسْحَةِ مِنَ الشُّقْرَةِ وَالْبُتِّي كَانَ الْخَضَابُ رَائِعًا!

وفي صفحة ٧٣، في القصيدة ٣٠ التي تحمل عنوان «ليثيه»، أرصد لكم هذه المقطوعة الختامية:

سَأَمْتَصُّ، لَأَغْرِقَ صَغِيَّتِي،
نَبَاتَ السَّلْوَى وَالشُّوْكَرَانَ الطَّيِّبَ
مِنَ الْأَطْرَافِ السَّاحِرَةِ لِهَذَا الصَّدْرِ الْقَاسِيِ
الَّذِي لَمْ يَخْبِسْ دَاخِلَهُ قَلْبًا أَبَدًا.

وفي القصيدة ٣٩، «إلى تلك المبتهجة للغاية»، صفحة ٩٢، ماذا تظنون بهذه المقطوعات الثلاث التي يقول فيها المحب لعشيقتة:

هَكَذَا أُرِيدُ، ذَاتَ لَيْلَةٍ،
عِنْدَمَا تَدُقُّ سَاعَةُ الشَّهْوَةِ،
أَنْ أَزْحَفَ بِلَا صَوْتٍ، كَجَبَّانٍ،
نَحْوُ كُنُوزِ جَسَدِكَ،

لَأَهْدَبَ جَسَدَكَ الْمُبْتَهَجِ،
لَأَجْرَحَ صَدْرَكَ الْمُتَسَامِحِ،
وَأَرْتَكِبَ فِي خَضْرِكَ الْمَذْهُولِ
جُرْحًا كَبِيرًا وَغَائِرًا،

وَأَيُّهَا الْعُدُوْبَةُ الْمُدَوِّخَةُ!
عَبَّرَ هَذِهِ الشِّقَاوِ الْجَدِيدَةِ،
الْأَكْثَرَ صَحَابًا وَجَمَالًا،
أَبْثَّ فِيكَ سُمِّي، يَا أُخْتِي!

ومن صفحة ١٨٧ إلى صفحة ١٩٧، القصيدتان ٨٠ و ٨١ بالعنوانين: «ليسبوس» و«النساء الملعونات»، ينبغي قراءتهما بكاملهما. ففيهما ستجدون - في تفاصيلهما - السلوكيات الأكثر حميمية للسحاقيات.

وفي صفحة ٢٠٦، تبدأ القصيدة ٨٧، بعنوان «تحولات مصاصة الدماء»، بهذه الأبيات:

مَعَ ذَلِكَ، فَالْمَرْأَةُ، مِنْ فَمِهَا الْفَرَاوَلَةُ،
مُتَلَوِّيةٌ كَأَفْعَى عَلَى الْجَمْرِ،
وَهِيَ تَدْعُكَ يَدَيْهَا فِي حَدِيدِ حَمَالَةٍ صَدْرِهَا،
كَانَتْ تَدْعُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمُشْبَعَةَ بِالْمِسْكِ تَنْسَابُ:
- «أَنَا، لَدَيَّ شَفَّةٌ رَطْبَةٌ، وَأَعْرِفُ
عِلْمَ ضَيَاعِ الشُّعُورِ الْقَدِيمِ فِي أَعْمَاقِ سَرِيرِ.
أُجَفِّفُ كُلَّ الدُّمُوعِ عَنْ تَدْبِيِ الظَّافِرَيْنِ،
وَأَذْفَعُ الْعَجَائِزَ إِلَى الصَّحِكَ كَالْأَطْفَالِ.
وَلَمَنْ يَرَانِي عَارِيَةً بِلاَ حِجَابٍ، فَإِنِّي أَحْتُلُّ مَكَانَ
الْقَمَرِ، وَالشَّمْسِ، وَالسَّمَاءِ وَالنُّجُومِ!
فَأَنَا، يَا خَادِمِي الْعَزِيزِ، خَبِيرَةٌ بِالشَّهَوَاتِ،
عِنْدَمَا أَخْنُقُ رَجُلًا فِي ذِرَاعِي الْمُفْرِعَتَيْنِ،
أَوْ حِينَمَا أَتْرُكُ صَدْرِي لِلْعَصَّاتِ،
خَجُولَةً وَفَاجِرَةً، هَشَّةً وَصُلْبَةً،
حَتَّى أَنَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الْمُشْبَعَةِ بِالْإِثَارَةِ،
سَيَلَعُنُ الْمَلَائِكَةُ الْخَائِرُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَجْلِي!»

ولا شك أن بودلير سيقول إنه قد فعل النقيض - في المقطوعة التالية - بكتابة هذه الأبيات الأخرى:

وَعِنْدَمَا امْتَصَّتْ كُلَّ النُّخَاعِ مِنْ عِظَامِي،

وَاسْتَدَرْتُ بِتَرَاخٍ إِلَيْهَا

لَأَمْنَحَهَا قُبْلَةً حُبٍّ، لَمْ أَرِ سِوَى

قُرْبِيَّةٍ ذَاتِ أَجْنَابٍ لِرِجَّةٍ، مَلَأَى بِالصَّدِيدِ!

بحُسن نية، أظنون أنه يمكن قول كل شيء، تصوير كل شيء، تعرية كل شيء، بشرط الكلام بعد ذلك عن الاشتمزاز الناجم عن الفجور وتصوير الأمراض التي تعاقبه؟

سادتي، أعتقد أنني قد ذكرت ما يكفي من المقاطع لتأكيد وجود إهانة للأخلاق العامة. فإما أن الإحساس بالحياء لا وجود له، وإما أن الحد الذي يفرضه قد تم التعدي عليه بوقاحة.

والأخلاق الدينية ليست موضع احترام أكبر من الأخلاق العامة. وسأرصد في هذه النقطة الثانية: «إنكار سان - بير»، القصيدة ٩٠، صفحة ٢١٧ - «هابيل وقايل»، القصيدة ٩١، صفحة ٢١٩ - «ابتهاالات شيطان»، القصيدة ٩٢، صفحة ٢٢٢ - «خمر القاتل»، القصيدة ٩٥، صفحة ٢٣٥

فالخصومة من أجل إنكار يسوع، وقايل ضد هابيل، والاستناد إلى الشيطان ضد القديسين، وجعل القاتل يقول: «إنني أسخر من إبليس ومن المائدة المقدسة، مثلما من الله، ليس ذلك تجميعاً لفجور اللغة الذي يرر قرار قاضي التحقيق؟ نعم: لقد أوجب إحالة بودلير إلى قضاة الجُنح على إهانة هذه الأخلاق المسيحية العظيمة التي تمثل - في الواقع - الأساس الراسخ الوحيد لسلوكياتنا العامة. ولتبرير هذه الإحالة، ومرافقة الجدل العام بين المنع والدفاع، كانت القرائن كافية وكانت القرائن متحققة. لكن، بعد التفسيرات المتضاربة لجلسة المحكمة، أليكم اليقين الضروري للإدانة على هذا الأمر الثاني؟ إنكم تفضلون لو أن بودلير، ذلك العقل المعذب، الذي أراد تقديم الغريب بدلاً من التجديف، قد امتلك الوعي بهذه الإهانة.

إهانة الأخلاق العامة، تلك التي أعتقد أنها قد اتضحت بصورة دامغة، لأقوم - بهذا الصدد - بالرد على كل الدفوع. والدفْع الأول الذي سيوجه ضدي سيكون كالتالي: الكتاب حزين، والعنوان وحده يقول إن المؤلف إنما أراد تصوير الشر وهددهاته المضللة، من أجل الوقاية منه. ألا يُسمَّى أزهار الشر؟ فلتروا فيه حينئذٍ إرشادًا بدل أن تروا فيه إهانة.

إرشاد! قلت هذه الكلمة تَوًّا. لكنها - هنا - ليست الحقيقة. ألا تعتقدون أن زهورًا معينة ذات رائحة مُدَوِّخة ستكون طيبة في الاستنشاق؟ فالسم الذي تحمله لا ينفصل عنها، إنه يصعد في الرأس، يُسَكِّر الأعضاء، ينتج القلق، والدوار، ويمكن أيضًا أن يقتل.

إنني أصور الشر بكل نشواته، لكن أيضًا بكل ويلاته ومخازيه، فلتقولوا! فليكن؛ لكن كل هؤلاء القراء الذين تكتبون لهم، لأنكم طبعتم عدة آلاف من النسخ تبيعونها بسعر منخفض، هؤلاء القراء الكثيرين من كل طبقة، من كل عُمر، من كل ظرف، هل سيأخذون الترياق الذي تحدثون عنه بكثير من اللطف؟ حتى بالنسبة لقرائكم المثقفين، لأناسكم الناضجين، أعتقدون أنهم سيتوفرون على كثير من الحاسبات الباردة التي توازن بين الشيء ونقيضه، واضعةً الثقل إلى صف العيار، الممثلة للعقل، والمخيلة، والحواس المتزنة بصورة فائقة؟ فالمرء لا يريد الاعتراف بذلك، فهو يتوفر على غطرسة زائدة في ذلك - لكن الحقيقة، ها هي: إن الإنسان دائمًا - إلى هذا الحد أو ذاك - عاجز، وإلى هذا الحد أو ذاك هش، وإلى هذا الحد أو ذاك مريض، حاملًا بالأولى عبء سقطته الأصلية، إلى حد أنه يريد التشكيك فيها، أو نفيها. وإذا ما كانت تلك هي طبيعته الدفينة إلى حد أنها لم تبرأ بفعل جهود صارمة ونظام قوي، فمَن لا يعرف كم هو سهل أن يميل إلى النزق الشهواني، دون أن ينشغل بالإرشاد الذي يريد المؤلف بثه فيه.

وبالنسبة لهؤلاء ممن ليسوا معوزين ولا متقرزين أيضًا، فهناك دائمًا انطباعات منحرفة قابلة للجَنِّي في لوحات مشابهة. فأيًا ما كانت تبعات الفوضى، التي قد يستند إليها بعض القراء في هذا الصدد، فإنهم يفتشون بوجه خاص صفحات هذا الكتاب عن: المرأة العارية، وهي تجرب أوضاعًا أمام العاشق المفتون (القصيصة ٢٠)؛ - الفاجرة الشرسة التي تصب الكثير من اللهب، ولا يمكن - شأن الستيكس

- معانقتها تسع مرات (القصيدة ٢٤، بلا إشباع)؛ - العذراء الحمقاء، التي تنثر تنورتها وصدرها المدبب ذو الحلمات الساحرة («الليثية» القصيدة ٣٠)؛ - المبتهجة للغاية التي يعاقب عشيقها جسدها المرح، فاتحاً فيه شفاهاً جديدة (القصيدة ٣٩)؛ - السفينة الجميلة، حيث صُوِّرت المرأة بصدر منتصر، مثير، وترس مدرع برءوس وردية، فيما الساقان، تحت أذيال الثوب التي تطاردها، تعذب الرغبات وتستثيرها (القصيدة ٤٨)؛ - المتسولة صهباء الشعر، التي تُعَرِّي شرائطها سيئة اللصق الصدر البازغ تَوًّا، وذراعاها - كي تعرى - تقومان بالابتهاال، وهما تطاردان الأصابع المزعجة (القصيدة ٦٥)؛ - «ليسبوس»، حيث الفتيات ذات العيون العذبة، يداعبن، في أجسادهن العاشقة، الثمار الناضجة لبلوغهن (القصيدة ٨٠)؛ - «النساء الملعونات» أو «السحاقيات» (القصيدة ٨١ و ٨٢)؛ - «التحولات» أو مصاصة الدماء التي تخنق رجلاً في ذراعيها المخمليتين، تاركة العضات في نصفه العلوي على الفراش المفرط في الاهتياج، فيما كان الملائكة الخائرون يلعنون أنفسهم من أجلها (القصيدة ٨٧). في هذه القصائد المتعددة، حيث يبذل المؤلف ما في وسعه لتحريف كل موقف كأنه يقوم بمراهنة على تقديم مدركات لمن لا يدركون، سادتي، أُنتم القضاة، لا تملكون سوى الاختيار. والاختيار سهل، لأن الإهانة هي تقريباً شاملة.

ويُقَدِّم لي دفعٌ ثانٍ، بالإشارة إلى كتب في الماضي مهينة تماماً للأخلاق العامة، ولم تتم مقاضاتها. وأرد بأن السوابق المماثلة لا تقيد - في القانون - النيابة العامة، وبأن هناك - في الواقع - مسائل مناسبة تفسر غالباً الامتناع وتبرره. هكذا، لن تتم مقاضاة كتاب لا أخلاقي لا يمتلك أية فرصة لقراءته أو فهمه: فإحالته إلى القضاء ستكون إرشاداً للجمهور إليه، وربما ضمان نجاح ما له ذات يوم ما كان ليحققه بدون ذلك.

لكن تحفظ النيابة العامة هذا لن يمنع الانقلاب ضده في اليوم التالي. على نحو آخر، ففاعليته لن تكون حرة. وإذا ما ازدادت لا أخلاقية الأعمال (الأدبية والفنية)، فينبغي دائماً أن تستطيع معاقبة الآفة، دون لوم النيابة العامة على عدم مقاضاتها من قبل. وبدون ذلك، فستكون النتيجة النهائية هي عدم العقاب المطلق، الذي أنزل إلى حدٍّ ما.

لقد رددتُ على الدفع، سادتي، وأقول لكم: فلتنتفضوا - بإصدار حكم - ضد هذه

الميول المتنامية، لكن الثابتة، ضد تلك الحمى الضارة التي وصلت إلى كل رسم، إلى كل وصف، إلى كل قول، كأن جريمة إهانة الأخلاق العامة قد أصبحت ملغية، وكأن الأخلاق لم يعد لها وجود.

لقد كانت للوثنية مخازيها التي سنثر عليها مترجمة في أطلال المدن المدمرة، بومبي وهيركولانوم. أمّا في المعبد، في المكان العام، فتماثيلها تتمتع بعري طاهر. وفنانوها يمتلكون عقيدة الجمال التشكيلي؛ إنهم يقدمون الأشكال المتناغمة للجسد الإنساني، ولا يعرضونه علينا ذليلاً أو مرتعساً في عناق الفجور. لقد كانوا يتمتعون باحترام الحياة الاجتماعية.

وفي مجتمعنا المشبع بالمسيحية، فليكن لدينا - على الأقل - هذا الاحترام.

وأضيف أن الكتاب ليس ورقة بسيطة تضيع وتُنسى مثل الصحيفة. فعندما يصدر الكتاب، فذلك من أجل أن يبقى؛ إنه يسكن مكتباتنا، ومنازلنا، كنوع من اللوحة. فإذا ما تضمن تلك الرسوم الفاحشة التي تفسد من لم يعرفوا بعد الحياة، وإذا ما استثار الفضول السيئ، وإذا ما كان أيضاً القفل بالنسبة للحواس الضجرة، فإنه يصبح خطراً ثابتاً دائماً، بخلاف هذه الصحيفة اليومية التي نتصفحها في الصباح، وتُنسى في المساء، ولا يتم تجميعها إلا نادراً. وأعرف جيداً أننا لن نطالب بالبراءة إلا إذا طلبنا منكم استنكار الكتاب في بعض الحثيات الملموسة تماماً. ولن تملكوا، يا سادتي، هذه التنازلات غير المتبصرة. فلن تنسوا أن الجمهور لا يرى إلا النتيجة النهائية. فإذا ما كان ثمة براءة، فسيظن الجمهور أن الكتاب معفي عنه بصورة كاملة؛ إنه سرعان ما ينسى الحثيات، وإذا ما تذكرها، فسيعتبرها مُفندة بفعل الكلمة الأخيرة للحكم. ولا يملك القاضي أن يحذر شخصاً ما من العمل (الفني)، وسيعرض اللوم بعيد عن التوقع، ولم يعتقد أنه يستحقه، وهو اللوم على تناقضه.

فلتسامحوا إذن مع بودلير، الذي يمثل طبيعة قلقة وبلا توازن. ولتفعلوا ذلك مع الناشرين الذين يحتمون بالمؤلف. لكن فلتقدّموا - بإدانة بعض قصائد الكتاب على الأقل - إنذاراً أصبح ضرورياً.

٤- مرافعة الدفاع

للسيد جوستاف شيه ديستانج

شارل بودلير ليس وحده الفنان العظيم والشاعر العميق متقد الموهبة الذي تشبث عضو النيابة العامة المحترم بأن يقدم له بنفسه تكريماً عاماً.

فضلاً عن ذلك، فهو رجل أمين، ولذلك فهو فنان واثق... وعمله (الفني)، تأمله طويلاً... إنه نتاج أكثر من ثمانية أعوام من العمل؛ لقد حمّله، وأنضجّه في عقله، بحب، مثلما تحمل المرأة بين ذراعيها طفل حنانها...

والآن ستدركون الأسى الحقيقي والألم العميق لهذا الشخص المخلص والواثق، الذي كان بمقدوره - هو أيضاً - أن يضع على صدر كتابه: «ها هو كتاب من الصدق»، والذي يراه مهملاً، ويؤوّل - أمامكم - باعتباره نقيضاً للأخلاق العامة والأخلاق الدينية.

فهل يمكن - بجدية - أن تكون نواياه موضع شك؛ أيمكنكم التردد لحظة فيما يتعلق بالغاية التي استهدفها والنتيجة التي قصدتها؟ لقد استمتعتم إليه بنفسه منذ دقيقة، بالتفسيرات بالغة الصراحة التي قدمها لكم، ولا بد أنكم دُهلتم وانفعلتم بهذه الاحتجاجات من رجل أمين.

لقد أراد أن يرسم كل شيء، كما قلتم أيتها النيابة العامة؛ أراد أن يُعرّي كل شيء، ونبش الطبيعة الإنسانية في خباياها الأكثر حميمية؛ بنبرات قوية مؤثرة، وبالغ في ذلك وخاصةً في جوانبها البشعة، مضخماً منها فوق الحد... - حذارٍ من الحديث هكذا، سأقول للسيد وكيل النيابة: هل أنتم متأكدون، بأنفسكم، من عدم المبالغة بعض الشيء

في أسلوب وطريقة بودلير، من عدم تشويه المذكرة وعدم الوصول بها إلى السواد؟ لكن في النهاية، لا بأس؛ ذلك هو منهجه وتلك طريقته؛ فأين يكمن الخطأ، أرجوكم، من وجهة نظر الاتهام، أين الخطأ، وبشكل خاص أين يمكن أن تكمن الجريمة، إن كان من أجل استهجانها يضخم من الشر، وإذا ما كان يرسم الرذيلة بنبرات قوية ومؤثرة فذلك لأنه يريد أن يثبت فيكم كراهيةً أعمق لها، وإذا ما كانت ريشة الشاعر تجعل لكم من كل ما هو قبيح رسمًا مفزعًا، بالتحديد لتقدم لكم فيه المفزع..؟

قيل لكم عن حق، سادتي، إن القاضي ليس بناقد أدبيّ أبدًا، وإنه ليس له أن يحكم على الأنماط المتعارضة لإدراك وإنتاج الفن، وليس له أن يحكم بين مدارس الأسلوب؛ ولذلك، ففي مسائل من هذه الطبيعة، فليس الشكل هو ما ينبغي فحصه، بل العمق؛ وسنغامر بقوة بالوقوع في الخطأ وعدم تحقيق عدالة جيدة ومنصفة، إذا ما تركنا أنفسنا ننجر ببضعة تعبيرات، مضخمة وعنيفة، متناثرة هنا وهناك، دون الذهاب إلى عمق الأشياء، دون البحث عن الغايات الصادقة، دون إدراك جيد تمامًا للعقلية التي تبث الحياة في الكتاب. بهذا الصدد، لديكم - كما قلت لكم - إفادات واحتجاجات الرجل، الذي ينبغي مقارنته بكرامته الكاملة؛ وطالما أن المقصود هو الغايات، فلديكم أيضًا شيء آخر، الكتاب نفسه.

وأولاً، فالشاعر يبادركم بعنوانه، الذي يحتل مكانه، في الصدارة، ليعلن عن طبيعة وجنس العمل: إنه الشر الذي سيعرضه عليكم، نباتات الأماكن الموبوءة، ثمار النباتات السامة، كما يقول لكم عنوانه، - مثل عنوان «الجحيم»، المقصود بعمل دانتي - لكنه سيعرض عليكم كل ذلك لاستهجانها، ليقدم لكم فيه الرعب، ليثبت فيكم كراهيته والتقزز منه.

وبعد العنوان، أقرأ المفتاح؛ ففيه كل فكر المؤلف، فيه كل عقل الكتاب، فلنقل إنه عنوان ثانٍ، أكثر وضوحًا من الأول ويفسره، يعلق عليه وينمي:

يَقَالُ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِغْرَاقِ الْأَشْيَاءِ الْمَقِيَّتَةِ

فِي آبَارِ النَّسِيَانِ وَالْقَبْرِ الْمُسَوَّرَيْنِ،

وَأَنَّهُ يَفْعَلُ الْكِتَابَاتِ فَإِنَّ الشَّرَّ الْمُسْتَتَارَ مِنْ جَدِيدٍ

سَيُصِيبُ أَخْلَاقَ الدُّرِّيَّةِ؛
لَكِنَّ الْمَعْرِفَةَ لَيْسَتْ أَبَدًا أُمَّ الرَّذِيلَةِ
وَالْفَضِيلَةَ لَيْسَتْ ابْنَةُ الْجَهْلِ.

(ث. أجريبا دوبيني،
المأساويون، الكتاب الثاني)

فالفكر العميق للمؤلف ستجدونه، واضحًا بدقة أكبر، في الأبيات الأولى؛ فهو
يخاطب بها القارئ كتحذير، وها هو ما يقول:
الْحَمَاقَةُ، وَالْخَطَا، وَالْخَطِيئَةُ، وَالشُّحُّ
تَحْتَ أَرْوَاحِنَا وَتَسْتَوْلِي عَلَى أَجْسَادِنَا،
وَنُغْذِّي نَدَامَاتِنَا الْمَحْبُوبَةَ،
مِثْلَمَا يُغْذِّي الشَّحَّادُونَ هَوَاهُم.

خَطَايَانَا عَنِيدَةٌ، وَنَدَمُنَا بَلِيدٌ؛
وَنَذْفَعُ ثَمَنًا بَاهِظًا لَاعْتِرَافَاتِنَا
وَنَعُودُ مُبْتَهَجِينَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُوَحِّلِ،
مُعْتَقِدِينَ أَنَّ دُمُوعًا زَهِيدَةً تَغْسِلُ أَوْسَاحَنَا.

هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يُمَسِّكُ بِالْخُيُوطِ الَّتِي تُحَرِّكُنَا!
فَنَجِدُ الْفِتْنَةَ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَقِيَّتَةِ؛
وَنُنْهَدِرُ كُلَّ يَوْمٍ خُطْوَةً إِلَى الْجَحِيمِ،
بِلَا هَلَعٍ، عَبْرَ الظُّلُمَاتِ الْآسَةِ.

فلتحولوا ذلك إلى نثر، سادتي، ولتلغوا القافية والوقفات، ولتبحثوا عما يكمن

في عمق هذه اللغة القوية المصوّرة، وأية غايات تتخفى فيها؛ ولتقولوا لي إن كنا لم نسمع قطّ هذه اللغة نفسها تتساقط من أعلى الجسد المسيحيّ، ومن شفاه بعض المبشرين المتحمسين؛ فلتقولوا لي إن كنا لن نعثر على نفس الأفكار، وربما أحياناً نفس التعبيرات في عظات بعض آباء الكنيسة الصارمين القساة.

ها هو إذن برنامجه، إذا ما كان لي أن أستخدم هذه الكلمة؛ إنها الحرب المعلنة على رذائل وسفالات الإنسانية، وكلعنة موجهة إلى كل المخازي التي

تَحْتَلُّ أَرْوَاحَنَا وَتَسْتَوْلِي عَلَى أَجْسَادِنَا،

إنه ساخط لأن

خَطَايَانَا عَنِيدَةٌ، وَنَدْمُنَا بَلِيدٌ؛

وتلك حقاً لغة صادرة من رجل أخلاق يقف، في هذه الصفحة الأولى، ليدخل في تواصل مع القارئ، فيفصح بقسوة

الْحَمَاقَةِ، وَالْخَطَا، وَالْخَطِيئَةِ، وَالشُّحِّ

ها هو كل ما يريد ملاحظته، كل ما يريد معاقبته في أبيات منتقمة، وليس بالتأكيد من أجل مشاعر مشابهة لما ستدينونه.

أكان ذلك إذن من أجل المنهج المستخدم، من أجل الأسلوب الذي لجأ إليه؟ من أجل ما سأسميه طريقته؟ رسمُ الرذيلة، لكن الرسم بألوان عنيفة؛ - سأقول، إن شئتم، بألوان مبالغ فيها، - لإبراز ما ينطوي عليه مما هو قبيح وكره، ذلك هو الأسلوب.

إنه - بالتأكيد - قديم قدم العالم، ولا شك أن بودلير ليس له فضل اختراعه؛ فهو ينتمي إلى كل العصور وكل الآداب؛ وكل الكتاب العظام، كل الشعراء، كل الناثرين، كل رجال الأخلاق قد استخدموه، كل الخطباء الدنيويين وكل الخطباء المقدسين استعملوه؛ هذا الأسلوب ليس شيئاً آخر سوى العبد السكران المُقَدَّم إلى الشباب الإسبرطي في استعراض لبث الرعب من السُّكر في قلوبهم.

وفي المسرح، أنرى شيئاً آخر؟ أتعرفون مسرحيةً وحيدة لا يعرضون لكم فيها الإنسان الشرير الذي يُرسم لكم بأكثر الألوان سواداً، التي تبث فيكم الكراهية له،

الغادر باختصار الذي لا يفوت العناية الإلهية أن تصفحه في النهاية؟ صحيح أنه من أجل إبراز دناءته بصورة أفضل وزيادة نفور المتفرج، لا يفوت أبدًا معارضته بالرجل الشريف، الرجل الفاضل الذي ينتصر؛ وذلك ما ندعوه بالرديلة المعاقبة والفضيلة المكافأة: فما هو هذا الأسلوب سادتي، إن لم يكن هو أسلوب بودلير؟ وإذا ما استخدم هكذا على الدوام وفي كل مكان ومن قبل الجميع، فذلك لأننا لم نجد بعد وسيلة أفضل لتقويم الإنسان.

وهناك كاتب كان بارعًا بلا شك في ذلك، وسلطانه يمثل شيئًا ما قديمًا، - مولير، - ألم يكتب في مقدمته لطرطوف:

إن أجمل السمات في أخلاق جادة لهي أقل قوة، في الغالب الأعم، منها في الهجاء؛ وليس هناك ما يشذب غالبية الناس بأفضل من تصوير عيوبهم؟

تحدثت عن مولير وعن طرطوف. فهل أنا بحاجة إلى تذكّر المصير الذي انتظر هذه الرائعة الإبداعية لدى ظهورها، ومؤامرة المنافقين، والمعركة الرهيبة التي كان عليه أن يخوضها للوصول إلى تقديم المسرحية: «سيدي الرئيس الأعظم لا يريد سوى تمثيلها»، قالها المؤلف الخالد... واليوم لم نعد نفهم هذه العقبات، ونددهش من هذه المقاومة؛ فنحن ندرك جيدًا

إِنَّ أَدْعِيَاءَ الْإِيمَانِ يُشَبِّهُونَ أَدْعِيَاءَ الشَّجَاعَةِ

وأنه ينبغي، تحت طائلة أخذ العملة الزائفة شأن الجيدة، التمييز بين النفاق والإخلاص؛ إننا نصفق جميعًا للملاحم الدامية التي جلدتها شخصية مقبلة لطرطوف ما في أبيات رائعة...

وهو مولير أيضًا الذي يضيف في مقدمته: أيمن أن نخشى من أن الأشياء المقيمة بصورة عامة ستترك تأثيرًا في العقول، وأنني أحولها إلى أشياء خطيرة بدفعها إلى ارتقاء خشبة المسرح؛ وأنها تكتسب سلطة من فم مجرم؟ ليس هناك أدنى احتمال لذلك، ولا بد من القبول بكوميديا طرطوف، أو إدانة كل الكوميديات...

كل ذلك، سادتي، أهى أفكار عامة؟ أهى - من جانبى - مُقبّلات بلا جدوى، طالما
أنا جميعاً نتبّنى رأي مولير؟

لكن، إذن، لماذا تقاضون بودلير؟ إنه الأسلوب نفسه الذى يستخدمه؛ إنه يعرض
عليكم الرذيلة، لكنه يعرضها عليكم مقبّية؛ يرسمها لكم بألوان منفرة، لأنه يزدرىها
ويريد أن يجعلها مُزدرأة، لأنه يكرهها ويريد أن يجعلها مكروهة، لأنه يحتقرها ويريد
أن تحتقرها.

وطالما أنا نبحث هنا مسألة الأسلوب الأدبى، فهل تسمحون لى بذكر بضعة
سطور لبزاك، كتبها فى رسالة لم تنشر ضمن أعماله، رغم أنها بالغة الأهمية:

إضفاء الطابع الأخلاقى على عصره هو الغاية التى ينبغى أن يستهدفها كل كاتب،
والأقل أن يكون سوى مُسلٍّ للناس؛ لكن ألدَى النقد أساليب جديدة للدلالة على
الكتاب الذين يتهمهم باللاأخلاقية؟ الواقع أن الأسلوب القديم قد ارتكز على عرض
مصدر الألم. فالشخص المُغوي هو مصدر الألم فى العمل الشاهق لريتشاردسون.
ولتروا دانتي. فالفرديوس، شأن الشعر، شأن الفن، شأن العذوبة، شأن القتل، أسمى
من الجحيم. الفرديوس لا يُقرأ أبداً، إنه الجحيم الذى أسر المخيلات فى كل العصور.
ياله من درس! أليس رهيباً؟... بماذا سيجيب النقد؟ وأخيراً أفلم يكن فينيون المرهف
القديس خائفاً من اختراع المشاهد الخطرة من تيلياماك؟ فلتحدّفوها؛ فإذا بفينيون
يصبح بيركان، وخاصة فى الأسلوب؛ فمن يُعيد قراءة بيركان؟ لا بد من براءة أعوامنا
الاثنى عشر حتى نتحمّله.

إن الأعمال العظيمة تبقى بفعل جوانبها الانفعالية. والواقع أن الانفعال هو
التجاوز، هو الشر. إن الكاتب قام بخطيئته - بصورة نبيلة - إذ، فيما يتناول هذا العنصر
الجوهري فى كل عمل أدبى، فإنه يواكبه بدرس عظيم. والعمل (الفنى) اللاأخلاقى -
بصورة عميقة - فى تقديرى، هو الذى تتم فيه مهاجمة أسس المجتمع عن رأي قبلى،
حيث يتم تبرير الشر، وحيث يتم تقويض الملكية والدين والعدالة...

فلتفترضوا شخصاً عبقرىً يحقق الانتصار المستحيل بعمل درامى مليء
بالأشخاص الشرفاء. فهذه المسرحية لن تُعرض مرتين...

(وبعد استعادته للنصوص الأكثر قابلية للإدانة، من «أزهار الشر»، يختتم المرافعة):

وماذا! وبعد كل ما قلت لكم، أستدينون بودلير؟ ستدينونه بعد اقتباسات أخرى كثيرة استطعت القيام بها وستجدون في ملفي مجموعة منها ما تزال غير مكتملة، لكن منسوخة بإخلاص؟ ستجدون فيها من رابليه، وبرانثوم الذي «صدم كثيرًا من السيدات الشريفات...»؛ لكنني استطعت الاقتباس من كل مكان! لافونتين وأناشيده، موليير، فولتير وأناشيده الثرية، روسو الذي تنطوي اعترافاته على مقاطع بذیئة، بومارشيه، «من بين كل الأشياء الجادة بدا الزواج أكثرها هزلية». لكن إذا ما تجرأت، إذا ما استطاعت الأنسنة هنا أن تجد مكانها، فأسألك وأستدعي وأستند إلى مونتسكيو: «آه! مونتسكيو، ما الذي ستقوله روحك العظيمة، إذا ما بُعثت لسوء حظك، وقد رأيت بودلير «أزهار الشر» يحاكمون على انتهاك الأخلاق العامة، أنت الذي كتبت معبد جنيد والرسائل الفارسية...؟»؛ ما الذي سيقوله لامارتين الذي كتب «سقوط ملاك»، وبلزاك مع عمله «فتاة بعينين من ذهب»، وجورج صاند مع «ليليا»...؟
إنني أتوقف، سادتي، ولا أريد أن أفرط طويلا في وقتكم.

لقد قلت لكم ما الذي كانه بودلير، وماذا كانت مقاصده؛ وأوضح لكم منهجه وأسلوبه الأدبي، وجعلتكم ترون مطولا لأشياء في عمله الذي تجرأ في العمق وفي الشكل، في التعبير وفي الفكر، إلا ما يطبعه ويعيد طباعته كل يوم أدبنا؛ ولدي الثقة في أنكم لا تريدون صفع هذا الإنسان المهذب وهذا الفنان العظيم وأنكم سترونه في نهايات المحاكمة بصورة بسيطة وواضحة.

٥- الحكم

فيما يتعلق بجريمة التعدي على الأخلاق الدينية؛

حيث إن التهمة لم تثبت، يُحكم للمتهمين برفض الدعوى؛

وفيما يتعلق بتهمة التعدي على الأخلاق العامة والسلوك الحميد،

حيث إن خطأ الشاعر، في الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه وفي السبيل الذي سلكه، مهما كان الجهد الذي بذله في الأسلوب، وأياً ما كان الاستنكار الذي يسبق أو يلي لوحاته، لم يَمَحُ الأثر الكثيب للوحات التي يقدمها للقارئ، والذي يقود بالضرورة - في القصائد المتهمة - إلى استثارة الحواس بفعل واقعية فظة وخادشة للحياة؛

وحيث إن بودلير وبوليه - مالاسي ودي برواز قد ارتكبوا جريمة انتهاك الأخلاق العامة والسلوك الحميد؛ كالآتي: بودلير بنشر، وبوليه - مالاسي ودي برواز بنشر وبيع وتوزيع العمل المعلنون: أزهار الشر، في باريس وألنسون، وهو الذي يحتوي على مقاطع وتعبيرات بذئية أو لا أخلاقية؛

وأن المقاطع المقصودة موجودة بالقصائد التي تحمل أرقام ٢٠ و ٣٠ و ٣٩ و ٨٠ و ٨١ و ٨٧ من الديوان؛

وبالاطلاع على المادة ٨ من قانون ٢٦ مايو ١٨٢٩؛

وبالاطلاع أيضاً على المادة ٤٦٣ من قانون العقوبات؛

إدانة بودلير بغرامة ٣٠٠ فرنك؛ وبوليه - مالاسي ودي برواز بغرامة ١٠٠ فرنك؛

الأمر بمصادرة القصاصد التي تحمل أرقام ٢٠ و ٣٠ و ٣٩ و ٨٠ و ٨١ و ٨٧ من
الديوان؛

إدانة بودلير وبوليه - مالاسي ودي برواز متضامين بدفع ١٧ فرنك و ٣٥ سنتيم
كأتعاب نقدية، فضلاً عن ٣ فرنكات للبريد. ما عدا أتعاب تبليغ الحكم الحالي إلى
بوليه - مالاسي، ولا أتعاب لإلقاء القبض إن وجدت؛

تحديد عام كمدة سجن مقابل المبلغ المطلوب يمكن تطبيقها على بودلير؛

قصر العدالة، الخميس ٢٠ أغسطس ١٨٧٥

٦- رسالة بودلير إلى الامبراطورة^(١)

٦ نوفمبر ١٨٥٧

سيدتي،

لا بد من كل زهو خارق لشاعر كي يتجرأ على شغل اهتمام جلالتكم بقضية صغيرة شأن قضيتي. فقد كان من سوء حظي أن أُدِنْتُ على ديوان من الشعر بعنوان «أزهار الشر»، دون أن تحميني - بما يكفي - صراحة عنواني المرعبة. لقد ظننتُ أنني أكتب عملاً جميلاً وعظيماً، وصريحاً بشكل خاص؛ وقد تم الحكم عليه بأنه مبهم بما يكفي للحكم عليّ بإعادة تكوين الكتاب وحذف بعض القصائد (ست من مائة). وينبغي القول إنني قد عوملتُ - من جانب القضاء - بكياسة رائعة، وإن أطراف الحكم أنفسهم ينطوون على معرفة بنواياي الرفيعة والخالصة. لكن الغرامة، وضخامة التكاليف اللامعقولة بالنسبة لي، تتجاوز قدرات الفقر مضرب الأمثال للشعراء. ومتشجعاً بكثير من شواهد التقدير التي تلقيتها من أصدقاء من ذوي المكانة الرفيعة، ومقتنعاً - في الوقت نفسه - بأن قلب الإمبراطورة مفتوح للشفقة على كل المصائب، الروحية والمادية، فقد صُغْتُ - بعد تردد وخجل استمر عشرة أيام - مشروع التماس كل رأفة كريمة لجلالتكم ورجاء التدخل من أجلي لدى السيد النائب العام. وتفضلوا، سيدتي، بقبول ولاء مشاعر الاحترام العميق التي يشرفني معها أن أكون الخادم والتابع، بالغ التفاني والطاعة، لجلالتكم،

شارل بودلير

١٩ رصيف فولتير

(١) في أعقاب هذه الرسالة، تم تخفيض الغرامة على بودلير من ٣٠٠ إلى ٥٠ فرنك.

ملاحق «سأم باریس»

مشروعات، خُطط، عناوين

١- سأم باريس

قصائد للإنجاز

أشياء باريسية

[سهلة: مشطوبة]

١- العجوز القصير الزنديق

٢- ساحة البريد

٣- مرثية القبعات

٤- الدجاجة السوداء

٥- نهاية العالم

٦- من أعلى هضبة شومون^(١)

٧- أربعاء الرماد

٨- الشاعر والمؤرخ

٩- أوريسست وبيلا

١٠- السَّكَّيران

١١- أطباء الأمراض العقلية

(١) هضبة تُشرف على باريس.

- ١٢ - الفيلسوف في المهرجان
١٣ - عيوب البورتريه
١٤ - السمكة الحمراء
١٥ - سرقة الفرسان
١٦ - أناشيد كنسية
١٧ - على شرف الراعي لي (٤ نوفمبر)
١٨ - مذبح مولوخ
١٩ - بخمسة صولات
٢٠ - المُغوي الحانوتي
٢١ - قاعة الشهداء
٢٢ - رجل الألماس
٢٣ - القوّاد العجوز
٢٤ - قبل النضج
٢٥ - أرغن البربرية
٢٦ - البكماء الصماء
٢٧ - توزيع الطعام
صعلوك باريسي ؟
٢٨ - الجحيم في المسرح
٢٩ - الزائرة الرقيقة
٣٠ - الكوليرا في الأوبرا^(١)

(١) عنوان أحد أعمال الحفر للفنان ريثيل.

٣١- كآبة

٣٢- حانة بوكاج

٣٣- ليالي الأعراس

٣٤- خادع نفسه أو مرتكب المحارم

دراسة الأحلام

٣٥- أعراض الخراب

٣٦- بداياتي

٣٧- العودة إلى المدرسة

٣٨- شُقق مجهولة

٣٩- مشاهد طبيعية بلا أشجار

٤٠- الحُكم بالإعدام

٤١- الموت

٤٢- الساحرة

٤٣- احتفال في مدينة مهجورة

٤٤- قصر على البحر

٤٥- السلالم

٤٦- سجين في فنار

٤٧- رغبة

رموز وأخلاقيات

٤٨- جحود الأبناء

٤٩ - حديث يان هي^(١)

٥٠ - الوهم المقدس

لا ندم ولا أسف [٥١: مشطوبة]

٥١ - أبو هول الروكوكو

٥٢ - الصلاة العظيمة

٥٣ - أناشيد لوسيان^(٢) الأخيرة

٥٤ - صلاة الفريسي

صلاة المسبحة

لا تغضبوا أرواح الموتى

سام باريس

للإنجاز

٤٨ - (تكرار) لا تُغضبوا أرواح الموتى

٤٨ - (للمرة الثالثة) صلاة المسبحة

٤٨ - إلى الفلاسفة هواة الحفلات التنكرية

٤٩ - المُغوي الحانوتي

٥٠ - الدجاجة السوداء

٥١ - ساحة البريد

٥٢ - عيوب البورترية (بورترية أبي)

٥٣ - نهاية العالم

(١) «يان هي» (Jan Hus) (١٣٦٩-١٤١٥): شخصية شهيرة في التاريخ التشيكي، عارض الكنيسة الكاثوليكية.

(٢) شاعر لاتيني (القرن الأول قبل الميلاد). مؤلف قصيدة طويلة عن معارك الحرب الأهلية في روما.

- ٥٤ - أطباء الأمراض العقلية (مشاركة رديئة. قنصلية كونية)
- ٥٥ - السمكة الحمراء
- ٥٦ - قاعة الشهداء
- ٥٧ - رجل الألماس
- ٥٨ - ليالي الأعراس (التجارب. الأحذية الجديدة. الصلاة).
- ٥٩ - القوَّاد العجوز
- ٦٠ - قبل النضج
- ٦١ - السَّكَّيران
- ٦٢ - أرغن البربرية
- ٦٣ - مذبح مولوخ
- ٦٤ - البكماء الصمَّاء
- ٦٥ - سرقة الفرسان (جامعو تحف. مهووسون. بورتريهات مهووسة بالسرقة ذات نظارات [هكذا])
- ٦٦ - مريثة القبعات
- ٦٧ - أربعاء الرماد
- ٦٨ - توزيع الطعام
- ٦٩ - احتفال في مدينة مهجورة (باريس في الليل، في حقبة حرب إيطاليا)
- ٧٠ - العجوز القصير الزنديق
- ٧١ - أناشيد كنسية (... In exitû Israel... ponam inimicos tuos...)
- ٧٢ - خادع نفسه أو مرتكب المحارم
- ٧٣ - طالب الزواج المدغشقري (ذكرى عاودتني في باريس، من دمية شمعية (قصة))

- ٧٤ - ثعبان البُوا (استلهام من الهند) (قصة)
- ٧٥ - أوريست وبيلاذ
- ٧٦ - بخمسة صولات
- ٧٧ - انقلاب مفاجئ للريح
- ٧٨ - حقد مُشيع (حكاية فوشير، ربما قصة)
- ٧٩ - الأب المنتظر (ثياب المجنون واللعبة، ربما قصة)
- ٨٠ - الصعلوكة (في باريس)
- ٨١ - على شرف الراعي لي (البليارد)
- ٨٢ - جحود الأبناء (الطيور) (تجربة)
- ٨٣ - الحلم النذير (ربما قصة)
- ٨٤ - حانة بوكاج (ذكرى من الشباب، بالرائحة واللون والنسيم العليل)
- ٨٥ - الشاعر والمؤرخ (كارلايل وتينيسون)
- ٨٦ - أعراض الخراب
- ٨٧ - بداياتي
- ٨٨ - العودة إلى المدرسة
- ٨٩ - شُقق مجهولة (أماكن معروفة ومجهولة، لكن يتم معرفتها من جديد. شُقق متربة. انتقالات. كُتب يتم العثور عليها من جديد)
- ٩٠ - قصر على البحر
- ٩١ - مشاهد طبيعية بلا أشجار
- ٩٢ - الساحرة
- ٩٣ - السلالم (دُوار. منحنيات كبيرة. أناس متشابكون. فَلَكَ ضبابي في الأعلى والأسفل)

- ٩٤ - سجين في فنار
- ٩٥ - الحكم بالإعدام. (خطأ نسيته، لكنني اكتشفته فجأة من جديد، منذ الإدانة)
- ٩٦ - الموت
- ٩٧ - الوهم المقدس
- ٩٨ - كآبة
- ٩٩ - رغبة تصنيف
- ١٠٠ - حلم سقراط أشياء باريسية
- ١٠١ - حديث يان هي حلم
- ١٠٢ - لا ندم ولا أسف؟ رموز وأخلاقيات
- ١٠٣ - أناشيد لوسيان الأخيرة مراتب أخرى يتم البحث عنها
- ١٠٤ - أبو هول الروكوكو
- ١٠٥ - الزائرة الرقيقة
- ١٠٦ - الكوليرا في حفل تنكري
- ١٠٧ - [الصلاة العظيمة: مشطوبة] الإحصاء والمسرح (الجحيم في المسرح)
- ١٠٨ - في كل مكان، خارج العالم أي [مشطوبة]
- ١٠٩ - [الصلاة العظيمة]
- ١١٠ - فلنصرع الفقراء (أنجزت)
- ١١١ - الكلاب الطيبة (أنجزت)
- ١١٢ - صلاة الفريسي

قصائد سهلة الإنجاز

ساحة البريد

مرثية القبعات

من أعلى هضبة شومون

نهاية العالم

مذبح مولوخ

أعراض الخراب

الحديث الأخير ليان هي

[حلم سقراط: مشطوب]

الدجاجة السوداء

أطباء الأمراض العقلية

أربعاء الرماد

خادع نفسه أو مرتكب المحارم

العجوز القصير الزنديق

بخمسة صولات

أوريست وبيلا

الشاعر والمؤرخ

الوهم المقدس

الرجل ذو العقرب

التعذيب بالشعوذة

مفارقة الصدقة

١- قصائد نشر

(للحرب الأهلية)

المدفع يدوي، الأعضاء تتطاير... أنات الضحايا وعويل الكهنة يُسمع... ها هي الإنسانية التي تبحث عن السعادة.

٢- قصائد نشر

يان هي (تحليل لأحاديثه الأخيرة).

الأرملة الكبيرة المكتتبة أمام حديقة موزار.

الفقراء أمام مقهى جديد.

أحلامي.

الكوميديا في الإقليم.

المدرسة.

الموت.

الخواء. (شعور بالخواء اللانهائي).

الحكم بالإعدام بسبب خطأ منسي (شعور بالرعب. لا أناقش الاتهام. خطأ كبير

بلا تفسير في الحلم). شقق مجهولة، فقراء لكن نبلاء وشاعريون.

البهلوان العجوز.

مرثية القبعات. زهور في الصحراء. شعر توماس جراي.

٣. ملاحظة لـ «مرثية القبعات»

قبعة. سطح أملس.

معطف. سطح متغضن أو مثنى.

المرور (انطلاقاً من الجهة التي لم تعد تتركز على الرأس).

الجزء التالي يُسمَّى قاع أو تجويف، يُصَفَّف عندما يُزَيَّن بـثنيات أنبوبية.

شرائط. ملتصقة أو شرائط صغيرة.

ريش، قباب، حواف.

محيط الرأس، بالريش أو الزهور.

مانتينون، نوع من منديل من الدانتيل، متوافق مع القبعة، وغارق في الجزء الأعلى في الشرائط.

ماري ستيوارت، شكل بحواف منخفضة، شكل عربي، شكل قوس قوطي.

قبعة لافالير (موضة قديمة)، بريشتين تلتقيان في الراء.

قبعة روسية. حافة.

القبعة الصغيرة تحمل خصلة ريش أو جناح.

زهرة (وردة) موضوعة على ماري لويز.

قبعة الصيادين، بباقة.

قبعة لوجفيل هي قبعة لافالير بريشة وحيدة تتجرجر وتضرب الفضاء.

طاقيّة أسكتلندية، من الصوف والحرير في شكل رباعي، بحلية شعر، ومشبك فضي وريشة نسر أو غراب.

زينات: ثنيات، كشكشات، انحرافات، حواش.

أثاث محل الموضة:

ستائر موسلين أو حرير أبيض موحد. أرائك. مرآة متحركة سطحها صقيل

متحرك. مرايا بيضاوية أو مائلة. منضدة كبيرة بيضاوية مع فطر ذي سيقان طويلة. معمل الجنيات. شغل نظيف.

هيئة عامة: نداوة، إضاءة، بياض، حيوية لون الردة.

شرائط، زخارف نسائية، أقمشة التل، شاش، موسلين، ريش، إلخ...

القبعات تدفع إلى التفكير في الرأس، ولها سيماء قاعة عرض الرؤوس. ذلك أن كل قبعة، بحكم شخصيتها، تستدعي رأساً وتجعلها مرئية في عيني العقل. رؤوس منفصلة.

أي حزن في النزق المنعزل! شعور مؤلم بالخراب المرح. صرخ للبهجة وسط الصحراء. النزق في الهجران.

صانعة قبعات الضاحية، شاحبة، مصابة باليرقان، قهوة بالحليب، مثل بائعة تبغ عجوز.

٤- وصف تحليلي لنقش بارز لبؤالي

وسط مجموعة من الأشخاص المختلفين الهابطين على عجل، امرأة محاطة بأطفالها ترتمي على عنق مسافر يضع طاقية من قطن. يوم بارد في باريس. صغير يشب على قدميه من أجل معانقته.

عن بُعد أكبر، مسافر آخر يُحمّل حقائبه على كلابات وكيل.

في المقدمة، إلى اليسار، متسول يمد قبعته إلى شخص عسكري يضع قبعة بريش أصفر، ضابط الحظ، نحيل مثل بونابرت، وحارس وطني يحاول معانقة بائعة شهية تحمل طبق معروضات؛ تقاوم برخاوة.

إلى اليمين، سيد، والقبعة في يده، يتحدث إلى امرأة تمسك بطفل؛ قرب هذه المجموعة، كلبان يتضاربان. بؤالي، ١٨٠٣

٥- قصائد ليلية

رسالة شخص مغرور

خليط من التشدق المخلص والتشدق المتهمك.

ثمة أيام أحس فيها بالقوة البالغة إلى حد أنني...
الكرة الأرضية.

٦- أعراض الخراب

أبنية هائلة، أبنية بلا ملاط، الواحد فوق الآخر. شقق، غرف، معابد، قاعات عرض، سلالم، أمعاء عوراء، مقصورات، قناديل، نافورات، تماثيل. - تصدعات، سحالي. رطوبة ناجمة عن خزان ماء يقع بالقرب من السماء. - كيف نحذر الناس، والأهم؟ - فلنحذر أذكى الناس في آذانهم.

في الأعلى تمامًا، عمود يقرقع وطرفاه يتبادلان الموقع. لا شيء أيضًا انهار. لا أستطيع العثور من جديد على المخرج. أهبط، ثم أصعد. برج. - متاهة. لم أستطع الخروج أبدًا. أقيم إلى الأبد في مبنى سينهار، مبنى نخره مرض سري. - أحسب داخلي، لأسلي نفسي، هل ستكون كتلة بالغة الضخامة من الحجر، من الرخام، من التماثيل، من الجدران، التي سترطم بالتبادل، ستكون ملطخة للغاية بهذا الحشد من الرؤوس، والأجساد الإنسانية والعظام المفتتة. أرى أشياء رهيبة للغاية في الحلم، إلى حد أنني أريد أحيانًا ألا أنام بعد ذلك، إذا تأكدت من ألا يعتريني تعب فادح.

(٧)

الموت كجلاد

الظهور الأول للكوليرا في حفل تنكري في باريس، ١٨٣١

الموت كصديق

هبات الجنيات

البحاثون

إلى هوساي

العنوان

الإهداء

إلى كات... [مشطوبة]

بلا ذيل ولا رأس. ملائم لك. ملائم للقارئ. نستطيع أن نقطعه أينما نشاء، لي حلم يقظتي، ولك المخطوط، وللقارئ قراءته. وأنا لا أعلق رغبتني الجامحة على خيط لا متناهٍ من حبكة زائدة.

بحثت عن عناوين. الـ ٦٦ على الرغم من أن هذا العمل نصير الحياة وتقلب المشاعر [كان يمكن: مشطوبة] يمكنه أن يندفع حتى الشارة السحرية ٦٦٦ بل حتى ٦٦٦

وذلك ما يعتبر... [مشطوبة] ذلك ما يعتبر أفضل من حبكة من ٦٠٠٠ صفحة. فلائكن إذن راضيًا باعتدالي.

من منّا لم يحلم بنثر فريد وشعري لترجمة حركات العقل الغنائية، وتموجات حلم اليقظة، وانتفاضات الوعي؟

كانت نقطة انطلاقي ألويزيوس برتران. فما فعله بالنسبة للحياة القديمة والتصويرية، كنت أريد فعله بالنسبة للحياة الحديثة والمجردة. وانطلاقاً من المفهوم، [أدرك أنني] قد صنعت شيئاً آخر غير ما أردت تقليده. ذلك الآخر كان يكبر، لكنه يذلني، أنا الذي أعتقد أن على الشاعر دائماً أن يفعل ما يريد تماماً.

ملحوظة عن الكلمة الشهيرة.

في النهاية، مقاطع صغيرة

كل الشعبان.

إلى كاتران

التوقيع

البقية قريباً.



شهادات

١. مقتطفات من مقالات غير منشورة

كتب باري دورفيي مدافعاً عن بودلير:

[...] في الواقع، هناك من دانتي في مؤلف أزهار الشر، لكن من دانتي حقبة ساقطة، دانتي ملحد وحديث، دانتي فيما بعد فولتير، في زمن لا يتضمن شيئاً من سان - توماس. فشاعر هذه الأزهار، التي تجرح الصدر الذي تستقر عليه، ليست له الهيئة العظيمة لسلفه الجليل، وذلك ليس خطأه. إنه ينتمي إلى حقبة مضطربة، متشككة، ساخرة، عصبية، تتلوى في الآمال المضحكة للتحويلات أو التناسخات، ليس لديه إيمان الشاعر الكاثوليكي العظيم الذي كان يمنحه الهدوء الوقور للأمان في كل عذابات الحياة. وسمه شعر «أزهار الشر»، باستثناء بعض القصائد النادرة التي انتهت فيها اليأس إلى التجمد، هي الاضطراب، هي الاحتياج، هي النظرة المتشنجة، لا النظرة الصافية الواضحة - بصورة قاتمة - لرائي فلورنسا. فربة شعر دانتي قد رأت - بصورة حالمة - الجحيم، فيما ربة «أزهار الشر» تستنشقه بأنف منقبضة مثل أنف حصان تستنشق قبلة! إحداهن تأتي من الجحيم، والأخرى تذهب إليه. وإذا ما كانت الأولى أكثر وقاراً، فإن الأخرى ربما أكثر تأثيراً. فليس لديها الملحمة الرائعة التي تسمو عالياً بالخيال، وتهدي من مخاوفه في السكينة التي يعرف العباقرة الاستثنائيون أن يكسوها أعمالهم الأكثر اتقاداً. فلديها - على النقيض - وقائع مفزعة نعرفها وتقززنا بأكثر مما يسمح بالسكينة الفادحة للاحتقار. ولم يشأ السيد بودلير أن يكون في كتابه «أزهار الشر» شاعراً هجائياً، وقد كانه مع ذلك، عدا الخلاصة والتعليم، بأقل احتياج روحي، باللعنات والصرخات. إنه كاره الحياة الأثيم، وكثيراً

ما نتخيل - في القراءة - لو كانت لدى تيمون الأثيني عبقرية أرشيلوك، لكان بمقدوره الكتابة عن الطبيعة الإنسانية وإهانتها وهو يصفها.

إننا لا نستطيع ولا نريد أبدًا أن نقبس من الديوان موضوع الدراسة، وإليك السبب: فأية مقطوعة مقتبسة لا تملك سوى قيمتها المنفردة، ولا ينبغي اللبس فيها، في كتاب السيد بودلير؛ فكل شعر يمتلك، بالإضافة إلى نجاح التفاصيل أو غنى الفكر، قيمة هامة للغاية للكل وللموقف الذي لا ينبغي أن نسمح له بالضياح بالتقطيع. والفنانون الذين يرون الخطوط تحت بذخ وازدهار اللون يدركون جيدًا أن ثمة معمارًا سرّيًا هنا، تخطيطًا محسوبًا من قبل الشاعر، تأمليًا وقصديًا. و«أزهار الشر» ليست في المنظومة مجرد قصائد متتالية مثل الكثير من القصائد الغنائية، مبعثرة حسب الإلهام ومجموعة في ديوان بلا مبرر سوى إعادة تجميعها. فذلك أقل شعرية من عمل شعري يمتلك أقصى وحدة قوية. ومن منظور الفن والإحساس الجمالي، فإنها تفقد آنئذ الكثير بعدم انتظامها في النظام الذي ربّتها فيه الشاعر الذي يعرف ما يفعل. لكنها تفقد ميزة كبيرة من منظور التأثير الأخلاقي الذي أشرنا إليه في بداية هذا المقال.

وكتب شارل أسيلينو:

ليس لديّ سوى القليل مما أقول عن التشكيل لدى السيد شارل بودلير. فهو غالبًا رائع؛ وأحيانًا ما يسمح أيضًا بالجسارة، والتهاون، والعنف الذي يفسر الطبيعة العفوية لإلهامه.

وجملته الشعرية ليست - كما جملة تيودور دي بانفيل، على سبيل المثال - التطوير الكبير والهادئ لفكرة رئيسة في ذاتها. فما ينجم - لدى أحدهما - عن ولع خبير وقوي بالشكل هو نتاج - لدى الآخر - لكثافة وعفوية العاطفة. وحيث إنني ذكرت تيودور دي بانفيل، فسأستعيد ما سبق أن قلته منذ عام، هنا، فيما يتعلق بعمله «أودليت»: «من بين مبدئين كبيرين قرّصًا في بداية هذا القرن، البحث عن الشعور الحديث وتجديد اللغة الشعرية، تمسك السيد بانفيل بالثاني». وأنا أحتفظ بالأول، في تقديري، للسيد شارل بودلير.

٢. شهادات منشورة للمعاصرين لبودليير

السيد بودليير - من بين كل الرومانتيكيين المتأخرين - هو من يمتلك الشكل. وعلى الرغم من أن لديه كاليدوسكوب^(١) في رأسه مع الكلمات: الشؤم، الشيطان، الشك، النكبة والعفن، إلا أن لديه ركنا من الذكاء يقاوم الاختلالات التي يلزم بها نفسه بصورة ميكانيكية.

إد. دورانت

مقال بجريدة «الفيجارو» (Figaro)

(١٣ نوفمبر ١٨٥٦)

السيد بودليير هو في عمق الأخدود الذي عكف عليه السيد فلوبيير. إنه يؤثّر على الغاية الثانية التي ينبغي أن يحث إليها الخطى أدبٌ لا تعرقه حتى آداب الفن، إن لم توجد آداب الأخلاق.

ج. ج. ويز

مقال في «روفي كونتومبورين»

(Revue Contemporaine) (١٥ يناير ١٨٥٨)

صراحةً، ذلك (أزهار الشر) يمتعني ويفتني. لقد وجدت وسيلة لتجديد شباب الرومانتيكية. أنت لا تشبه أحدًا آخر (وتلك أولى السمات جميعًا). وأصالة الأسلوب تنتج من التصور. والجملة مفعمة بالفكرة، إلى حد التصدّع. إنني أحب فظاظتك مع

(١) آلة أنبوية تضم مرايا مركزة، حيث تولّد الأشياء الصغيرة الملونة - الموجودة معها في الأنبوب - رسومًا مختلفة الألوان والأشكال عند الحركة. قاموس المنهل.

رهافة اللغة التي تبرزها، مثل زخارف دمشقية على سيف قاطع (...). والخلاصة، فإن ما يمتعني قبل كل شيء في كتابك، هو أن الفن يهيمن عليه (...). إنك منبع كالرخام ونافذ كضباب إنجلترا.

ج. فلوير

رسالة إلى بودلير (١٣ يوليو ١٨٥٧)

لقد تلقيتُ، سيدي، رسالتك وكتابك الجميل. إن الفنَّ مثل زرقة السماء، ذلك المجال اللامحدود: لقد برهنتم على ذلك. وأزهار شركم تشع وتألّق كالنجوم. فاستمروا. إنني أهتف براقوا! بكل قواي لعقلكم النشط.

فيكتور هوجو

رسالة إلى بودلير (٣٠ أغسطس ١٨٥٧)

على عكس عدد كبير للغاية من القصائد الغنائية الراهنة، المشغولة بذاتيتها وانطباعاتها الصغيرة البائسة، فإن شعر السيد بودلير هو أقلُّ بوحًا بإحساس فردي من التصور الصارم لعقله.

ج. باربي دورثي

مقال عن بودلير، رفضت نشره صحيفة

«لو بيي» (Le Pays) (٢٤ يوليو ١٨٥٧)

مقالتكم عن تيوفيل جوتييه، سيدي، هي إحدى تلك الصفحات التي تحفز الفكر بقوة. قيمة نادرة، تدفع إلى التفكير: موهبة المصطفين وحدهم. ولم تخطئ في إدراك بعض الخلاف بينك وبينني. إنني أفهم فلسفتك كلها (لأنك، شأن كل شاعر، تنطوي على فلسفة)؛ وأنا أفعل ما هو أكثر من فهمها؛ إنني أقرُّ بها؛ لكنني أحفظ بفلسفتي. فلم أقل أبدًا: الفنُّ من أجل الفن؛ بل كنتُ دائمًا أقول: الفن من أجل التقدم. في العمق، هو الشيء نفسه، وعقلك أكثر نفاذًا من ألا تحس بذلك. إلى الأمام! فهناك كلمة التقدم؛ وهناك أيضًا صيحة الفن. وكل فعل الشعر يكمن هنا.

فما الذي تفعله إذن عندما تكتب هذه الأشعار المدهشة: الشيوخ السبعة والعجائز القصيرات، التي أهديتها لي وأشركك عليها؟ ماذا تفعل؟ أنت تسير. أنت تمضي

إلى الأمام. وأنت تهب سماء الفن ما لا أدري من شعاع جنازتي. أنت تخلق رعشة جديدة.

فيكتور هوجو

رسالة إلى بودلير (٦ أكتوبر ١٨٥٩)

«أزهار الشر» ليست إطلاقاً عملاً فنياً يمكن النفاذ إليه بدون معرفة. فلسنا هنا في عالم التفاهة الكونية. فعين الشاعر تغوص في دوائر جهنمية ما تزال غير مستكشفة (...). وعذابات الشعور، والفظاظات والانحطاطات الاجتماعية، وأتات اليأس الوبيلة، والسخرية والازدراء، كله يمتزج بقوة وتناغم في هذا الكابوس الدانتي المثقوب هنا وهناك بمنافذ مضيئة من خلالها تطلع الروح نحو السلام والبهجة المثاليين. واختيار وترتيب الكلمات، والحركة العامة والأسلوب، تتوافق جميعاً في التأثير الناتج.

لو كونت دي ليل

مقال في «روفي إيريويين»

(Revue européenne)

(١ ديسمبر ١٨٦١)

إنني بحاجة لأن أقول لك كم كانت «أزهار الشر» هذه - بالنسبة لي - أزهار خير تسحرني؛ وأيضاً كم أجذك ظالماً لهذه الباقية، المعطّرة بعذوبة بالغة بروائح ربيعية، حين منحتها هذا العنوان غير اللائق بها، وكم أني تمنيت لكم أن تضجروا أحياناً مما لا أدري من فيوض مقبرة هاملت.

ألفريد دي فيني

رسالة إلى بودلير (٢٧ يناير ١٨٦٢)

ليس سهلاً كما نظن أن نثبت للأكاديميين والسياسيين ورجال الدولة كم من قصائد رائعة للغاية، في «أزهار الشر»، بالنسبة للموهبة والفن؛ وأن نوضح لهم أن «البهلوان العجوز» و«الأرامل» - في قصائد النثر الصغيرة للمؤلف - هما دُرّتان، وأن السيد بودلير - على وجه العموم - قد وجد وسيلة بناء كُشك غريب، مزين

بقوة، معذب بقوة - في طرف لغة أرض مشهورة بأنها لا تصلح للسكنى فيما وراء حدود الرومانتيكية المعروفة - لكنه فاتن وغامض، حيث نقرأ لإدجار بو، وتتم تلاوة سوناتات ساحرة، وحيث تتحقق النشوة مع الحشيش، حتى نفطن بعد ذلك (...). هذا الكشك الفريد المجهول بالترصيع من أصالة مكثفة ومركبة تلفت الأنظار منذ أمد إلى الحد الأقصى من كامتشاتكا الرومانتيكية، أُسمي ذلك «جنون بودلير».

سانت - بيغ

الاثنين، ٢٠ يناير ١٨٦٢؛

حلقة من جريدة «كونستيتيونيل»

(Constitutionnel).

«انتخابات قادمة في الأكاديمية»

٣- شهادات تالية لعصر بودلير

السيد شارل بودلير، مؤلف كتاب من الشعر صنع ضجّة مؤسفة، توفي بالأمس، في أعقاب مرض استمر عدة أعوام (...). كان يتمتع بالموهبة (...). وشأن كثيرين غيره، فقد كان - في حياته وفي أعماله - ألعوبةً لضلالات عقله.

لويس فيو

«أونيڤير» (Univers) (١٨٦٧)

كان كاتبًا مرموقًا وشاعرًا عظيمًا، لا حاجةٌ كُبرى لتأكيد ذلك. فالنقاء الرائع لأسلوبه، وشعره المتألق، الراسخ والسلس، وخياله القوي والبارع، وقبل كل شيء ربما، الحساسية المرفهة دائمةً، العميقة غالبًا والقاسية التي تشهد عليها أضعف أعماله، تضمن لشارل بودلير مكانةً ضمن الأمجاد الأدبية الأكثر صفاءً لهذا الزمن، إذا ما وضعنا جانبًا بلزاك وهوجو، بطبيعة الحال.

بول فيرلين

أعمال منشورة بعد الوفاة (١٨٦٧)

كثيرًا ما تم اتهام بودلير بالغرابة القصدية، والأصالة الإرادية التي تتحقق بأي ثمن، وبشكل خاص التكلف (...). فهناك أناس متكلفون بصورة طبيعية. والبساطة ستكون بالنسبة لهم تصنعًا خالصًا ونوعًا من التكلف المعكوس (...). والأفكار الأكثر تركيبية، الأكثر رهافة، الأكثر كثافة هي تلك التي تظهر لهم قبل الآخرين. إنهم يرون الأشياء من زاوية منفردة تغير المظهر والمنظور. ومن بين جميع الصور، فإن أكثرها غرابةً، أكثرها شذوذًا، أكثرها بُعدًا عن الموضوع المطروح بصورة فانتازية تذهلهم

على نحو خاص (...). وكان لدى بودلير عقلٌ صُنع هكذا، وهنا - حيث أراد النقد أن يرى العمل، والجُهد، والمغالاة وذروة الرأي القَبلي - لم يكن ثمة سوى التفتح الحر والسهل للشخصية.

توفيل جوتيه

كلمة في صدر الطبعة الثالثة من

«أزهار الشر» (ص ١٤، ١٨٦٧)

في زمن لا يقوم الشعر فيه إلا برسم المظهر الخارجي للكائنات والأشياء، توصل (بودلير) إلى التعبير عما يستعصي على التعبير، بفضل لغة قوية كثيفة امتلكت - أكثر من غيرها - تلك القوة الرائعة لثبيت الحالات المَرَضِيَّة الهاربة، المرتبكة، للعقول المنهكة والأرواح الحزينة، بصحة تعبير غريبة.

ج - ك هوسمان

بالعكس (١٨٨٤)

ستكون البودليرية إذن، باختصار، الجهد الأعلى للأيقورية الثقافية والشعورية. إنها تزدري المشاعر التي توحى بالطبيعة البسيطة. الأكثر عذوبة، هي الأكثر ابتكارًا، الأكثر قصدية بصورة بارعة. غاية الغاية ستكون التوليف بين الحسية الوثنية والصوفية الكاثوليكية، أو بين تمرد العقل وعواطف الورع (...). هكذا يتم الوصول إلى شيء ما مبتكر بصورة رائعة.

جول لوميتز

«جورنال دي ديبا»

(Journal de Débats) (١٨٨٧)

يحس بودلير بروح باريس الكادحة. لقد أحس بشعر الضاحية، وأدرك عظمة الصغار، وأوضح ما يكمن من نُبل أيضًا في جامع خِرَق مخمور (...). فلتلاحظوا كم هو كلاسيكيّ وتقليديّ شعر بودلير، كم هو مُفَعَّم.

أناتول فرانس

الحياة الأدبية (١٨٩١)

كان شاعرًا، وأعترف أنه - من أجل رصد حالات معينة للروح المعاصرة - قد توصل إلى شعر فذٍّ، ذي كثافة في الذبذبة، وشهوة في الإيحاء، وقوة إغواء فريدة ومنحرفة على السواء.

ف. بروننير

تقييم الشعر الغنائيّ (١٨٩٣)

فكرة بودلير الفريدة، هي فكرة الموت. والشعور الفريد لبودلير هو شعور الموت. ففيه يفكر دائمًا وفي كل مكان، ويراه في كل مكان، ويشتهيهِ دائمًا؛ ومن هنا يخرج من الرومانتيكية (...).

الفنان قوي. إنه يسعى إلى الكمال، ويتوصل إليه أكثر من مرة، كادحًا، مرهفًا، نثرًا أحيانًا، مغرورًا غالبًا. إنه يحب الأشكال البسيطة، المفعمة، الراسخة، والشعر المتحرر، ذا المغزى، الرنان.

ج. لانسون

دليل الأدب الفرنسيّ (١٨٩٤)

عندما نعيد قراءة «أزهار الشر»، ندرك أن الكتاب - وهو أحد أعظم الكتب في القرن التاسع عشر - كان المحور الذي دار حوله الشعر الفرنسيّ بصورة لا تُقاوم (...).

ولم يكن هناك في القرن التاسع عشر شاعر ذو عقلية كاثوليكية على هذا النحو العميق كما بودلير، ولا كان هناك متأمل مثله.

ألفريد بوازا

«لُو كوريسْبُونْدُو» (Le Correspondant) (١٩١٧)

بقدر ما ستكون هناك، في عالمنا الحديث، أرواح مأخوذة بالمثل الأعلى في أجساد هشة محمومة، وقلوب ماضوية في أبدان مشبوبة، وعقول صافية منعزلة بين المادية والأيدولوجيا، وبقدر ما سيتنازع الملاك والشيطان على الأرض، فإن شارل بودلير، شاعر أزهار الشر، سليل شاتوبريان، وبايرون، وباسكال، ودانتى، وسفر الجامعة،

سيعيش كإحدى العبقريات النادرة التي جسدت - على النحو الأكثر إثارةً للشجن -
الآلام الأبدية للضمير، والعذابات الأبدية للمصير الإنساني.

جونزاج دي رينولد
شارل بودلير (١٩٢٠)

بودلير - على العكس من الرومانتيكية - يستوقفني بشخصيته الكلاسيكية، الرصينة،
وقدّم شكله الشعري، والدأب في صياغة شعر فرنسي كالشعر اللاتيني إلى حدّ ما
(...). إنه ربما شاعر القرن التاسع عشر الذي كان لإنسان القرن الثامن عشر - المولود
مسيحيًا وفرنسيًا - أن يجد نفسه معه على مستوى واحد بسرعة.

ألبير ثيوديه
شعر ستيفان مالارميه
(ص ٤٥٧، ١٩٢٦)

إنه هو «بودلير» من حدّد بعناية جغرافيا وجوده بتصميمه على ممارسة أشكال
بؤسه في مدينة كبيرة، ورفضه كل الاغترابات الواقعية، ليتابع بصورة أفضل في غرفته
التهربات الخيالية، إنه هو من أحلّ التنقل محلّ الرحلات، مقلدًا الهروب - أمامه هو
نفسه - بالتغيرات الدائمة لمحلّ الإقامة، ومن لم يقبل - وهو جريح حتى الموت -
بمغادرة باريس (...)، هو أيضًا من أراد شبه هزيمته الأدبية وهذا الانعزال المتألق
والبائس في عالم الأدب. وفي هذه المدينة الموصدة، الصارمة، يبدو أن حادثة، أو
تدخلًا من الصدفة كان سيسمح بالتنفس، ومنح راحة لمعذب نفسه.

ج. - ب. سارتر
بودلير (١٩٤٧)

الجوهري في «أزهار الشر» هو الترجمة المقلقة لتجربة حياة. تجربة رتابة الأيام،
والعزلة، والعذاب. تجربة هذه المسيرة البطيئة نحو النهاية المحتومة، نحو الموت.
تجربة الزمن، ووطأته التي تسحقنا، ومحاولاتنا للهرب منها، لإحباطها. لكن ما من
اعتراف بهزيمة خائفة. فبودلير يقبل بالحياة في عالم عبثي وقاس. إنه يقبل بأن
تكون السماء خاوية. وإذا ما رأى أن لعنة الوجود قد تضاغت إلى ما لا نهاية بفعل

الوعي، فإنه يؤكد - بلا خوف - أن هذا الوعي في الشر هو أيضًا مجد الإنسان.
أنطوان آدم
مقدمة أزهار الشر (١٩٦٠)

يكفي أن نقارن «أزهار الشر» بأشهر الأعمال في الحقبة الرومانتيكية لنذكر أصالته القصوى. ليس فقط لأنه قطع علاقته بتراث القصائد الطويلة، والتدفقات الغنائية، والنبوءة الأخلاقية أو الاجتماعية. فتلك كانت قد أصبحت - كما قال بودلير بمناسبة الحديث عن «بو» - استحضارًا سحريًا، مشعوذًا. فهو لم يعد يخاطب - إلى حد كبير - الذكاء. فيإيقاعاته، وبالتوليف الخبير للكلمات وجرسها، كان يخلق بصورة مباشرة داخلنا حالة من الحساسية، وكان يولّد ويلون الحلم. كان قد أصبح موسيقى.
أنطوان آدم

الأدب الفرنسي، لاروس (١٩٦٨)

غريبًا عن الرومانتيكية بالأمس مثلما عن الوضعية اليوم، فإن بودلير - على الرغم من ذلك، وبثقة - حديث. لكن حيثما كان سانت - بيف يكتفي برسم الحياة المعاصرة والمبتذلة، حتى في أكثر مظاهرها قذارة، فإنه يؤلف «لوحات باريسية» مثقلة بالدلالات الأخلاقية أو النفسية تعيد القارئ من الشيء المرئي إلى ما «يريد» ذلك الشيء «قوله»، على نحو ما سيقول مالارميه. فحتى الواقعية - في «أزهار الشر» - رمزية. ألا يحتوي الفجر الكئيب للضواحي على شعر شأن غروب استوائي؟ وحنين الشاعر إلى مكان آخر، «لا يهم أين خارج العالم»، لم لم يولد من رؤى مألوفة كالمفاتن الغرائبية؟ وإن تبد الإجابة اليوم بدهية، فلبودلير فضل كبير في امتلاكنا هذه البدهية.

م. ف. جويار

تاريخ الأدب الفرنسي، كولان (١٩٧٠)

إهداءات

أزهار الشر (١٨٦١)

إهداء: رفض تيوفيل جوتييه النسخة الأولى من الإهداء، والتي كانت - من وجهة نظره - مشوبة بالإفراط في التركيز «على الجانب المارق من الكتاب». وها هو النص:

إلى سيدي وصديقي

الأعز الأجل تيوفيل جوتييه

بالرغم من أنني أرجوك القيام بدور عراب «أزهار الشر»، فإنني أعتقد أنني سأكون ضالاً تماماً، غير جدير تماماً باسم شاعر حين أتخيل أن هذه الزهور العليقة تستحق رعايتكم النبيلة. أعرف أن في الأقاليم الأثرية للشعر الحقيقي، ليس الشعر مثل الخير، وأن القاموس البائس للكآبة والجريمة يمكن أن يبرر رد فعل الأخلاق، مثلما يؤكد المجذّف الدين. لكنني أردت، بقدر ما كان بداخلي، آملاً الأفضل ربما، أن أقدم الاحترام العميق لمؤلف «البرتوس» و«كوميديا الموت» و«إسبانا»، إلى الشاعر المعصوم، إلى ساحر اللغة الفرنسية، الذي أعلن نفسي، بكثير من الإباء والتواضع، الأوفى له، والأكثر احتراماً، والأكثر حرصاً عليه من بين مريديه.

شارل بودليير

إلى القارئ: نُشرت - للمرة الأولى - في «روفي دي دو موند» (Revue de deux mondes)، في الأول من يونيو ١٨٥٥، عدا المقطع الخامس، الذي حل محله

سطر من النقاط. وفي طبعة ١٨٦٨ من الديوان، حملت القصيدة عنوان «تقديم».

- إيليس المعظم، إشارة إلى هيرمس، سيد السّحر الذي يعزى إليه عادةً هذا الاسم. وقد استخدم بودلير كلمة (Trismégiste) التي كان يوصف بها هيرمس، وتعني - حرفياً - «المعظم ثلاثاً» أو «ثلاثي العظمة». وهي الصفة التي كان قدماء اليونانيين يطلقونها على هيرمس، أو على الإله المصري «تحت»، وهو إله متعدد الأشكال، يسيطر على تحولات الطبيعة.

- هو الشيطان: كان بودلير مسكوناً دائماً بفكرة الشيطان. يكتب إلى فلوبر: «طول الوقت، كنت مسكوناً باستحالة حساب أفعال أو أفكار مفاجئة معينة للإنسان دون فرضية تدخل قوة شريرة وخارجية عنه».

السطر ٢١ - ٢٤ (١٨٥٥): فِي رُؤُوسِنَا الْمُنْحَرِفَةِ، كَمِلْيُونِ دُودَةٍ مَعْوِيَةٍ،^(١)

يَنْجَمُهُرُ، وَيُعْنِي وَيُعْرِبِدُ حَشْدٌ مِنَ الْجِنِّ،

وَعِنْدَمَا نَتَنَفَّسُ، يَتَوَعَّلُ الْمَوْتُ فِي رِثَائِنَا،

كَنْهَرٍ، مَعَ الْأَنَاتِ الصَّمَاءِ.

سأم ومثال

١ - بركة: السطر ٣٨ (١٨٥٧): طَالَمَا يَرَانِي جَمِيلَةً وَيُرِيدُ أَنْ يَعْبُدَنِي

السطر ٤٠ - ٤١ (١٨٥٧): الَّتِي كَانَتْ تُوجِبُ التَّجْمِيلَ وَالتَّحْلِيَّ كَثِيرًا بِالذَّهَبِ،

وَأُرِيدُ أَنْ أَسْكُرَ بِالنَّارِ دِينَ

السطر ٧١ (بروفة ١٨٥٧): الَّتِي تَرَصَّعَتْ بِبَيْدِكَ،

٢ - طائر القطرس: لا بد أن لهذه القصيدة شكلاً أولياً كتبه بودلير لدى عودته من رحلته

(١) الرقم المحصور بين قوسين يمثل تاريخ النسخة؛ والكلمات المشددة - بالبطء الأسود - هي الكلمات «الأصلية» في تلك النسخة، قبل تعديل، أو تغيير بودلير لها إلى الصيغة النهائية الواردة بهذه الترجمة.

البحرية إلى جزيرة بوربون بالمحيط الهندي عام ١٨٤١، قبل أن يعود إليها - حيث نُشرت للمرة الأولى في أبريل ١٨٥٩ - مع إضافة المقطع الثالث لها.

٣ - سُمُو: انظر النسخة الأولى من هذه القصيدة ضمن «قصائد الشباب»، التي تبتدئ بـ «عَالِيَا هُنَاكَ».

٤ - تجاوبات: حظيت هذه القصيدة باهتمام خاص من النقاد، باعتبارها تأسيسًا للمدرسة الرمزية في الشعر الفرنسي. وفي «صالون ٦٤٨١»، يكتب بودلير: «إنني أجد تماثلاً واتحاداً عميقاً بين الألوان، والأصوات، والروائح».

٥ - العصور العارية: السطر ٩ - ١٠ (بروفة ١٨٥٧):

ذُبَّةً، قَلْبُهَا مُنْسَابٌ بِالْحَنَانِ الْعَمِيمِ،
كَانَتْ تُعَلِّقُ الْكُونُ ...

السطر ١٢ (١٨٥٧): أَنْ يَفْخَرَ بِالْوَانِ الْجَمَالِ الَّتِي كَانَتْ الْمَلِكُ عَلَيْهَا.

السطر ١٦ (بروفة ١٨٥٧): فِي الْأَمَاكِينِ الَّتِي يُمَكِّنُ فِيهَا أَنْ يَرَى

السطر ١٩ - ٢٢ (١٨٥٧): لَدَى مَرَأَى اللَّوْحَةِ السَّوْدَاءِ الْمُفْعَمَةِ بِالرُّعْبِ

لِمُسُوحٍ يَسْتُرُهَا ثَوْبٌ؛

وُجُوهٌ خَائِبَةٌ وَأَبْشَعُ مِنْ أَقْنَعَةٍ؛

لِكُلِّ هَذِهِ الْأَجْسَادِ الْبَائِسَةِ، الضَّامِرَةِ، الرَّخْوَةِ أَوْ

ذَاتِ الْكُرُوشِ،

السطر ٢٥ - ٢٦ (١٨٥٧): لِهَذِهِ النِّسَاءِ

يَنْخُرُهُنَّ وَيَغْتَذِي بِهِنَّ الْعَارُ، وَلِهَذِهِ الْعَذَارَى

٦ - الفنارات: السطر ٢٧ (بروفة ١٨٥٧):

بِعَجَائِزِ أَمَامِ الْمَرَايَا مَعَ عَذَارَى عَارِيَاتِ

السطر ٤٣ (بروفة ١٨٥٧): هِيَ هَذِهِ الصَّرْخَةُ الَّتِي تُولَدُ مِنْ جَدِيدٍ ...

(١٨٥٧): هِيَ هَذَا الْعَوِيلُ الطَّوِيلُ الْمُنْسَابُ مِنْ عَصْرِ إِلَى عَصْرِ

٧ - رَبَّةُ الشَّعْرِ العَلِيلَةُ: السطر ٣ (١٨٥٧ و ١٦٨١): يَأْتِي بُوْدَلِيرُ بِالْفِعْلِ فِي صِيغَةِ الْمَذْكُرِ (réfléchi)، بَيْنَمَا الْفَاعِلُ مُؤَنَّثٌ (La folie)؛ حَيْثُ فَضَّلَ بُوْدَلِيرُ الْخَطَأَ - فِي التَّوَافُقِ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْفَاعِلِ - عَلَى إِضَافَةِ «قَدَمٍ» زَائِدٍ إِلَى وَزْنِ الْبَيْتِ. وَفِي طَبْعَةِ ١٨٦٨، يَتِمُّ تَغْيِيرُ الْفِعْلِ وَالصِّيغَةِ النَحْوِيَّةِ إِلَى النَحْوِ الْحَالِيِّ.

٨ - رَبَّةُ الشَّعْرِ الدَّنِيئَةُ: ثَمَّةُ مَقَارِبَةٍ بَيْنَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ وَقَصِيدَةِ «لَيْسَتْ لَدَيَّ كَعَشِيقَةٍ»، ضَمِنَ «قَصَائِدُ الشَّبَابِ».

٩ - الرَّاهِبُ الْفَاسِدُ: ثَمَّةُ نَسْخَةٍ أَصْلِيَّةٍ لِلْقَصِيدَةِ تَرْجَعُ إِلَى ١٨٤٢ - ١٨٤٣. وَقَدْ نُشِرَتْ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي «لُو مِيسَاجِيه دِي لَاسُوْمِبْلِيه» (Le Messenger de l'Assemblée)، فِي ٩ أَبْرِيلِ ١٨٥١، بِعَنْوَانِ «الْأَعْرَافِ» (العَنْوَانُ الَّذِي كَانَ بُوْدَلِيرُ يَنْوِي تَسْمِيَةَ دِيَوَانِهِ بِهِ).

العَنْوَانُ: فِي رِسَالَةٍ إِلَى آنْسِيل - صَدِيقِ بُوْدَلِيرِ - بِتَارِيخِ ١٠ يَنَآيِرِ ١٨٥٠، كَانَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ تَحْمِلُ عَنْوَانَ «الْقَبْرِ الْحَيِّ».

السطر ٥ (١٨٥١): فِي تِلْكَ الْأَزْمَانِ حِينَ كَانَ لَدَى الْمَسِيحِ مُؤَوَّنُهُ،

١٠ - الْعَدُو: نُشِرَتْ - لِلْمَرَّةِ الْأُولَى - فِي «رُوْفِي دِي دُو مُونْد»، فِي الْأَوَّلِ مِنْ يُونِيُو ٥٥٨١.

١١ - الشُّؤْمُ: هَذِهِ الْقَصِيدَةُ مُؤَلَّفَةٌ - وَفَقًّا لِإِشَارَاتِ بُوْدَلِيرِ نَفْسِهِ - مِنْ تَرْجُمَةِ مَقْطُوعَتَيْنِ مِنَ اللُّغَةِ الْإِنْجَلِيزِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَجِيدُهَا؛ الْأَوَّلَى لِلُونْجِفِيلُو، مِنْ قَصِيدَةِ «تَرْنِيمَةُ الْحَيَاةِ»، مِنْ دِيَوَانِهِ «أَصْوَاتُ اللَّيْلِ» (١٨٣٩):

الْفَنُّ طَوِيلٌ وَالزَّمَنُ يَفِرُّ،
وَقُلُوبُنَا، رَغْمَ أَنَّهَا قَوِيَّةٌ وَجَسُورَةٌ،
تَدُقُّ كَطَبُولٍ مَكْتُومَةٍ
مَارَشَاتٍ جَنَائِزِيَّةٍ إِلَى الْمَقْبَرَةِ

والثانية لتوماس جراي، «مرثية كُتبت في فناء كنيسة ريفية» (١٧٥١):

جَوَاهِرُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَنْقَى شُعَاعِ صَافٍ
تَكْشِفُ عَنْ كُھُوفِ الْمُحِيطِ الْمُظْلِمَةِ بِلَا أَغْوَارِ.
زُھُورٌ كَثِيرَةٌ تُولَدُ لِتَضَرَّجَ بِالْحُمْرَةِ فِي السَّرِّ
وَتُبَدِّدُ عُدُوبَتَهَا عَلَى الْهَوَاءِ الْقَاحِلِ.

وثمة مخطوط أصلي للقصيدة يرجع إلى عام ١٨٥٢

والبيت الرابع تقليد لهيوقراط، على نحو ما تذكر ملاحظة مكتوبة بالمخطوط.

العنوان (١٨٥٢): الفنان المجهول.

السطر ١٢- ١٣ (١٨٥٢): وَزُھُورٌ كَثِيرَةٌ تُرِيقُ فِي السَّرِّ

أَرِيجَهَا الْعَذَبَ مِثْلَ نَدَمٍ

١٢- الحياة السابقة: نُشرت للمرة الأولى في «روفي دي دو موند» في الأول من يونيو

١٨٥٥

السطر ١٠ (١٨٥٥): وَسَطَ اللَّازِزِ وَرَدٍ، وَالبَحْرِ وَالرَّوَّاحِ

١٣- ارتحال الغجر: ثمة مخطوط أصلي للقصيدة يرجع إلى عام ١٨٥٢. والقصيدة

مستلهمه من لوحة حفر للفنان جاك كاللو (Callot)، أحد كبار فناني الحفر في

عصره، حيث كان موضوع «الغجر» أحد موضوعاته الواقعية الرئيسة. انظر

اللوحة في نهاية ترجمة القصيدة.

السطر ٥ (١٨٥٢): ... تَحْتَ أَسْلِحَتِهِمُ الثَّقِيلَةِ [مشطوبة].

السطر ٩- ١٠ (١٨٥٢): وَمِنْ أَعْمَاقِ قَصْرِه الْمُخْضَوْضِرَةِ يُضَاعِفُ

الصَّرْصَارَ،

حِينَ يَرَاهُمْ يَمُرُّونَ، مِنْ أَنْشُودَتِهِ؛

وفي نسخة براكمون (١٨٥٧)، صحح بودليير أيضًا السطر ١٢ إلى:

تَسْتَمِدُّ الْمَاءَ مِنَ الْأَحْجَارِ ...

١٤ - الإنسان والبحر: نُشرت للمرة الأولى في «روفي دي باريس» (Revue de Paris)، في أكتوبر ١٨٥٢، تحت عنوان «الإنسان الحُر والبحر».

السطر ١٠ (١٨٥٢ و ١٨٥٧): فَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْرِكُ أَعْمَاقَ...

١٥ - دون جوان في الجحيم: نُشرت للمرة الأولى في «لارتيست» (L'Artiste) (٦ سبتمبر ١٨٤٦)، موقعةً باسم بودليير دوفايي، بعنوان «غير النادم». وقد أجرى بودليير تعديلات على هذه النسخة.

وكان بودليير مطلعًا - بطبيعة الحال - على مسرحية موليير عن دون جوان، وقصيدة بايرون، وحكاية هوفمان، ولوحة ديلاكروا التي تحمل عنوان «غرق دون جوان». وقد امتد استلهام جوانب من سيرة دون جوان إلى الأدب الروسي، مع «الضيف الحجري» لبوشكين.

السطر ٦ - ٨ (١٨٤٦): كَانَتْ عَذْرَاوَاتٌ يَتَلَوْنَ تَحْتَ السَّمَاءِ السَّوْدَاءِ،

وَمِثْلَ قَطِيعِ طَوِيلٍ مِنْ ضَحَايَا الْقَرَايِينِ،

كُنَّ يُجَرِّحْنَ وَرَاءَهُ عَوِيلاً كَبِيراً.

السطر ١٣ (١٨٤٦): وَبِصُورَةٍ حَزِينَةٍ فِي حِدَادِهَا

١٦ - عقاب الغطرسية: نُشرت للمرة الأولى في مجلة «لو ماجازان دي فامي» (Le Magasin des Familles)، يونيو ١٨٥٠، مع قصيدة «خمر المُخْلِصِينَ» (= «روح الخمر»).

وتستند القصيدة إلى حكاية ترجع إلى العصور الوسطى، تتعلق بالكاهن سيمون دي تورناي، الذي أبدى - في خاتمة موعظة عامة - غبطته بكشفه لأسرار الثالوث المقدس، ليفقد بعدها النطق والعقل.

السطر ٤ (١٨٥٠): بَعْدَ أَنْ مَسَّ الْقُلُوبَ

السطر ٦ (١٨٥٠): وَحَتَّى بَعْدَ أَنْ اكْتَشَفَ إِلَى الْأُمَجَادِ السَّمَاءِيَّةِ

السطر ١١ (١٨٥٠ و ١٨٥٧): لَقَدْ حَمَلْتُكَ إِلَى الْأَعَالِي!

السطر ١٤ (١٨٥٠): أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ مُثِيرٍ لِلسُّخْرِيَةِ.

١٧ - الجَمال: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي فرانسيز» (La Revue Française)،
في ٢٠ أبريل ١٨٥٧

السطر ١٠ (روفي فرانسيز والطبعة الأولى):

الَّتِي قِيلَ إِنَّنِي أَسْتَعِيرُهَا مِنَ الصُّرُوحِ الشَّامِخَةِ،

السطر ١٣ (روفي فرانسيز والطبعة الأولى):

مِرَاتَيْنِ صَافِيَتَيْنِ تَجْعَلَانِ النُّجُومَ أَجْمَلَ:

١٨ - المِثال: نُشرت - للمرة الأولى - في «لو ميساجيه دي لاشومبليه»، في ٩ أبريل
١٨٥١

السطر ٥ (١٨٥١): أَتْرُكُ لِحَافَارِنِي، مُنْشِدِ الْأَنِيمَا،

السطر ١٣ - ١٤ (١٨٥١): الَّتِي تَنَامِينَ بِسَكِينَةٍ فِي وَضْعٍ غَرِيبٍ

وَمَقَاتِنِكَ مُهَيَّأَةً لَأَفْوَاهِ الْعَمَالِقِ!

١٩ - العملاقة: قد ترجع هذه القصيدة - تاريخيًا - إلى عام ١٨٤٣ يكتب بودلير:
«في الطبيعة وفي الفن، فإنني أفضل دائمًا - فيما لو افترضنا التساوي في القيمة
- الأشياء الضخمة عن غيرها جميعًا؛ الحيوانات الضخمة، المشاهد الطبيعية
الضخمة، السفن الضخمة، والأناس الضخام، والكنايس الضخمة... إلخ.
(...) إنني أعتقد أن الحجم ليس اعتبارًا بلا أهمية من منظور الجمال» (صالون
١٨٥٩).

٢٠ - القناع: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي كونتومبرين» (La Revue
contemporaine)، في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٩ وقد رأى بودلير التمثال في أتيليه
إرنست كريستوف، وكان يحمل اسم «الكوميديا الإنسانية»، وكتب عنه بحماس
في الجزء المخصص للنحت بكتابه «صالون ١٨٥٩». وقد استعاد كريستوف
الموضوع نفسه فيما بعد في تمثال كبير من الرخام، أسماه «القناع»، ويزين حاليًا
حديقة التويليري بباريس.



كريستوف، الكوميديا الإنسانية

السطر ١٢ (١٨٥٩): يَقُولُ بِتَبَرَةٍ ظَافِرَةً:

السطر ٢٠ (١٨٥٩): - لَكِنَّ كَلَّا لَقَدْ كَانَ قِنَاعًا، زَخْرَفَةً مِنْ كَارْتُون،

٢١ - ترنيمة إلى الجمال: نُشِرَتْ - للمرة الأولى - في «لاريسست»، في ١٥ أكتوبر ١٨٦٠

السطر ٤ (١٨٦٠): وَذَلِكَ سَبَبُ إِمْكَانِيَّةِ تَشْبِيهِكَ بِالْحَمْرِ.

السطر ٢٠ (١٨٦٠): يَبْدُو كَمُحْتَضِرٍ يُرَبِّتُ عَلَى ضَرِيحِهِ.

٢٢ - عِطْر غَرَائِبِي: القصيدة - مع القصيدتين التاليتين - من استلها «جين دوغال»، حبيبة بودلير.

٢٣ - خُصْلَةُ الشَّعْرِ: نُشِرَتْ - للمرة الأولى - في «لا روفي فرانسيز»، في ٢٠ مايو ١٨٥٩

٢٤ - مثل حَشْدٍ مِنَ الدِّيدَانِ: إحدى قصائد الشباب، على الرغم من أنها لم تنشر إلا عام ١٨٥٧

٢٥ - أَيُّهَا الْخِزْي السَّامِي: واحدة من أقدم قصائد بودلير، ملهمتها هي سارة الملقبة

بلوشيت؛ وهي عاهرة يهودية صغيرة بالحي اللاتيني، كان بودلير يتردد عليها في
مراهقته. انظر «قصائد الشباب»، وخاصة «ليست لديّ كعشيقة».

٢٦ - بلا إشباع: استلهاهم من «جين دوغال»، وكتبت في صيف ١٨٤٢ أو ١٨٤٣

٢٧ - امرأة عقيم: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روئي فرانسيز»، في ٢٠ أبريل
١٨٥٧، بعنوان «سوناتا». وهي مستلهمة من «جين دوغال». ويرى البعض أنها
الجزء المباشر لـ «هيرودياذ» لمارمييه.

٢٨ - الأفعى الراقصة: السطر ٣ (١٨٦٨): مِثْلُ نَجْمَةٍ مُتَمَاوِجَةٍ،

السطر ٣١ (١٨٥٧): عِنْدَمَا يَصَاعِدُ لُعَابُكَ اللَّذِيذَ

٢٩ - جثة: قصيدة قديمة، لكنها ساهمت بقوة في تشكيل أسطورة بودلير.

٣٠ - من الأعماق صرخت: العنوان مُستمدّ من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس،
المزمور ١٣٠ وقد نُشرت - للمرة الأولى - في «لو ميساجيه دي لاشومبليه»،
في ٩ أبريل ١٨٥١، بعنوان «بياتريس». لكن بودلير فضل - فيما بعد - منح هذا
العنوان لقصيدة أخرى تالية. وفي الأول من يونيو ١٨٥٥، نشرها بودلير في
«روئي دي دو موند»، بعنوان «السأم».

السطر ٥ (١٨٥١): ... ثَلَاثَةُ شُهُورٍ (وكذلك السطر التالي من القصيدة).

السطر ١١ (١٨٥١): وَهَذَا اللَّيْلُ الْقَدِيمُ ...

٣١ - مَصَاصَةُ الدَّمَاءِ: نُشرت - للمرة الأولى - في «روئي دي دو موند»، في الأول من
يونيو ١٨٥٥

السطر ٣ (١٨٥٥): أَأَنْتِ، مِثْلَ قَطِيعٍ بِشَعٍ

٣٢ - كجثة ممددة: قصيدة قديمة، من إلهام سارة الملقبة بلوشيت.

السطر ٨ (بروفة ١٨٥٧): وَذِكْرَاهُ الْعَطِرَةُ تُؤَجِّجُنِي.

٣٣ - ندم متأخر: نُشرت - للمرة الأولى - في «روئي دي دو موند»، في الأول من يونيو
١٨٥٥ ويبدو أن «جين دوغال» هي ملهمة هذه القصيدة التي يبدو فيها تأثير
شعراء عصر الباروك وعصر النهضة.

السطر ٦ (١٨٥٥): ... سِحْرٌ حَيٍّ،

السطر ١١ (١٨٦٦): خِلَالَ تِلْكَ اللَّيَالِي الطَّوِيلَةِ ...

٣٤ - القط: نُشرت - للمرة الأولى - في «جورنال دالنسون» (Journal d'Alençon)،
في ٨ يناير ١٨٥٤

٣٥ - مبارزة: نُشرت - للمرة الأولى - في «لارتيست» (L'Artiste)، في ١٩ سبتمبر
١٨٥٨. ويشير بعض النقاد إلى استناد القصيدة على عناصر بيوجرافية، لكن مع
استفادتها - في الوقت نفسه - من العناصر الوصفية للوحة رقم ٦٢ من «نزوات»
جويا، التي احتفى بها بودلير - بشكل خاص - في «صالون ١٨٥٩».

٣٦ - الشرفة: السطر ٢٩ (بروفة ١٨٥٧): حِينَمَا اغْتَسَلْتُ ...

٣٧ - الممسوس: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي فرانسيز» (La Revue
Française)، في ٢٠ يناير ١٨٥٩ وتنتمي هذه القصيدة - شأن «الشرفة» -
إلى سلسلة قصائد «جين دوغال». والسطر الأخير - في نسخة روفي فرانسيز -
مُسْتَمَد من رواية «الشیطان العاشق» لكازوت (١٧٧٢)، حيث نجد، في الرواية،
كلمة «الممسوس» كصفة للبطل الذي لم يكن «سوى أداة بين يدي الشيطان».
ويتساءل بودلير، في «صواريخ»: «أليست للشياطين هيئاتٌ حيوانات؟ فجَمَل
كازوت، - جمل وشیطان وامرأة» (Baudelaire, *Fusées*, XI, *ŒUVRES*)
(COMPLÈTES, p.396).

السطر ٢ (١٨٥٨): يَا شَمْسَ رُوحِي

٣٨ - طيف: ثمة مخطوط أصلي للقصيدة يحمل تاريخ مارس ١٨٦٠؛ وقد نُشرت -
للمرة الأولى - في «لارتيست» (L'Artiste)، في ١٥ أكتوبر ١٨٦٠

١ - الظلمات: السطر الأول بالمخطوط ونسخة «لارتيست» (L'Artiste):

وَفِي هَيْئَتِهِ الطَّائِثَةِ ...

السطر ١٤ من طبعة ١٨٦٨: إِنَّهَا هِيَ! كَثِيبَةٌ ...

٣-الإطار: السطر ٥ بالمخطوط:

هَكَذَا الْمَرَايَا، وَالْأَحْجَارُ، وَالْمَعَادِنُ، وَالطَّلَاءُ

السطور ٩ - ١٤:

بَلْ يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَحْيَانًا إِنَّهُ كَانَ يَظُنُّ
أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَهْفُو إِلَى حُبِّهِ؛ كَانَ يُغْرِقُ
فِي قِبَلَاتِ السَّاتَانِ وَالْكَتَّانِ،

جَسَدَهُ الْعَارِي الْجَمِيلَ، الْمُفْعَمَ بِالْأَزْيَعِاشَاتِ،
وَيَبْطِئُ أَوْ فَجَاءَهُ، فِي كُلِّ حَرَكَاتِهِ،
كَأَنَّهُ يُبْدِي الْجَمَالَ الطُّفُولِيَّ لِلْقَرْدِ.

٤ - الصورة الشخصية: السطور ١٢ - ١٤، بالمخطوط:

كَفَرَوِيٍّ سَكْرَانٍ، أَوْ جُنْدِيٍّ مُرْتَرَقٍ
يَضْرِبُ الْجُدْرَانَ، وَيُلَطِّخُ وَيَحْتَكُ
بِجَمَالِ هَشٍّ، فِي ثَوْبٍ مِنْ حَرِيرٍ.

٣٩ - كظل أثر زائل: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي فرانسيز»، في ٢٠ أبريل ١٨٥٧، بعنوان «سوناتا». ويمكن اعتبار هذه القصيدة - التي استُخدمت فكرتها كثيرًا في قصائد الحب بعصر النهضة، وخاصةً لدى «رونسار» - بمثابة قصيدة الختام لسلسلة القصائد المستلهمة من «جين دو قال».

السطر ٣ - ٤ (في «لا روفي فرانسيز»، والطبعة الأولى من «أزهار الشر»):

وَكَسَفَيْنِي تَدْفَعُهَا رِيَّاحُ شَمَالِيَّةٍ كُبْرَى،
دَفَعَ إِلَى الْعَمَلِ ذَاتَ مَسَاءٍ الْأَذْهَانَ الْإِنْسَانِيَّةَ،

السطر ١٣ (بروفة ١٨٥٧):

الْأَغْنِيَاءَ الْفَانِينَ الَّذِينَ يُسَمُّونَكَ شَقِيقَتَهُمْ

٤٠ - نفس الشيء دائماً: تفتتح هذه القصيدة سلسلة القصائد المستلهمة من «أبولوني ساباتييه»، التي التقى بها بودلير عام ١٨٤٢ في فندق بيمودان، لدى الرسام بواسار. وقد تلقت «الرئيسة» - الصفة التي كان يطلقها عليها أصدقائها - سبع قصائد من بودلير، من ديسمبر ١٨٥٢ إلى مايو ١٨٥٤: «إلى تلك المبتهجة للغاية»، «تعاكس»، «الفجر الروحي»، «اعتراف»، «الشعلة الحية»، «طيفها يتراقص كشعلة»، «ترنيمه». وتتضمن طبعة ١٨٥٧ من «أزهار الشر» ستاً من هذه القصائد.

٤١ - كلها: إحدى القصائد المستلهمة من السيدة ساباتييه، وفقاً لرسالة بودلير إليها في ١٨ أغسطس ١٨٥٧: «كل الأشعار الواردة فيما بين صفحة ٨٤ و صفحة ١٠٥ (من «أزهار الشر») تخصك».

٤٢ - طيفها يتراقص كشعلة: ترد القصيدة ضمن رسالة غير موقعة، موجهة إلى السيدة ساباتييه، في ١٦ فبراير ١٨٥٤
السطر ١١ (١٨٥٤):

طَيْفُهَا يَسِيرُ مُتْرَاقِصًا كَشُعْلَةٍ

٤٣ - الشعلة الحية: ترد ضمن رسالة غير موقعة، موجهة إلى السيدة ساباتييه، في ٧ فبراير ١٨٥٤
السطر ٤ (الرسالة وطبعة ١٨٥٧):

وَهُمَا تُعَلِّقَانِ نَظْرَتَيْ عَلَى نِيرَانِهِمَا الْمَاسِيَّةِ

٤٤ - تعاكس: أرسلت هذه القصيدة إلى السيدة ساباتييه - بلا توقيع، ولا عنوان - في ١٣ مايو ١٨٥٣

٤٥ - اعتراف: أرسلت هذه القصيدة إلى السيدة ساباتييه - بلا توقيع، ولا عنوان - في ٩ مايو ١٨٥٣

السطر ٣٠ (في نسختي ١٨٥٣ و ١٨٥٧):

بِمَا يُشْبِهُ عَمَلًا مُبْتَدَلًا

السطر ٣٧ (نسخة ١٨٥٣): التَّمَسُّتُ

السطر ٣٩ (نسخة ١٨٥٣): وَهَذَا الْبَوُّحُ الْغَرِيبُ الَّذِي تَمَّ الْهَمْسُ بِهِ

٤٦ - الفجر الروحي: إحدى القصائد المرسلة إلى السيدة ساباتييه، في فبراير ١٨٥٤، مصحوبةً بجملة باللغة الإنجليزية: «بعد ليلة من المتعة والأسى، كل روعي لك».

السطر ٤ (نسخة ١٨٥٤)، (= السطر ٣ من ترجمتنا هذه):

مِنَ النَّعَاسِ الْغَيْبِيِّ

السطر ٨ (نسخة ١٨٥٤):

هَكَذَا، أَيُّهَا الشَّكْلُ السَّمَائِيُّ،

٤٨ - قارورة العطر: القصيدة الختامية لسلسلة قصائد السيدة ساباتييه.

السطر ٣ (نسخة ١٨٥٧): وَأَحْيَانًا عِنْدَمَا نَفْتَحُ خِرَازَنَةً مِنَ الشَّرْقِ

السطر ٦ (نسخة ١٨٥٧): مُتَشَمِّمَةً رَائِحَةَ قَرْنٍ، عَنْكَبُوتِيَّةً وَسَوْدَاءَ،

السطر ١٦ (نسخة ١٨٥٧): إِلَى هُوَّةٍ فِيهَا الْهَوَاءُ مُنْعَمٌ بِالرَّوَائِحِ الْإِنْسَانِيَّةِ،

٤٩ - السُّمُّ: أولى القصائد المستلهمة من ماري دوبران، الممثلة «المرأة ذات العينين

الخضراوين»، التي ارتبط بها بودلير في غضون ١٨٥٤ - ١٨٥٥

السطر ٧ (نسخة ١٨٥٧): يَطْرَحُ مَا لَا حُدُودَ لَهُ

٥٠ - سماء غائمة: إحدى القصائد المستلهمة من ماري دوبران.

السطر ٣ (نسخة ١٨٥٧): الْعَذْبَةُ، الرَّقِيقَةُ وَالْقَاسِيَةُ، بِالتَّنَاوُبِ

٥١ - القِطُّ: السطر ٣ (نسخة ١٨٥٧):

قِطُّ جَمِيلٌ، أَبِيٌّ وَسَاحِرٌ.

السطر ٧ (نسخة ١٨٥٧): ... دَائِمًا عَذْبٌ وَعَمِيقٌ،

السطر ١٩ (نسخة ١٨٥٧): ... بِصُورَةٍ أَعَمَّقُ

٥٢ - السفينة الجميلة: مستلهمة من ماري دوبران. والتغيرات التالية مستمدة من بروفة «أزهار الشر»، طبعة ١٨٥٧:

السطر ١ (وهو ما ينطبق أيضًا على السطر ١٣):

أَوْدُ أَنْ أَصِفَ لِكَ، حَتَّى تَعْرِفِيهَا،

السطر ١٨: صَدْرُكَ الْهَادِي وَالْأَبْيُ خِرَانَةٌ جَمِيلَةٌ

٥٦ - الدعوة إلى السفر: نُشرت - للمرة الأولى - في «روفي دي دو موند»، في الأول من يونيو ١٨٥٥ وتنتهي القصيدة إلى سلسلة القصائد المستلهمة من ماري دوبران. وثمة قصيدة - في «سام باريس» - تحمل نفس العنوان.

٥٧ - بلا تكفير: نُشرت - للمرة الأولى - في «روفي دي دو موند»، في الأول من يونيو ١٨٥٥، بعنوان «إلى الجميلة ذات الشعر الذهبي»، في إشارة إلى ماري دوبران، التي كانت تمثل هذا الدور - عام ١٨٤٧ - في مسرحية عن عالم الجان بنفس العنوان. والإشارات التي قد تبدو غامضة في القصيدة تتضح بالإحالة إلى المسرحية.

٥٥ - أغنية الخريف: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي كونتومبرين» (La Revue contemporaine)، في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٩ وكانت القصيدة مهداةً إلى م. د، أي ماري دوبران.

٥٦ - إلى عذراء: لاحظ ج. بوميه (J. Corti، Dans les chemins de Baudelaire، ١٩٤٥) أن عام كتابة هذه القصيدة - ١٨٥٩ - هو العام نفسه الذي رحلت فيه ماري دوبران عشيقة بودلير إلى مدينة نيس مع الشاعر تيودور دي بانفيل. وهي - بالتالي - القصيدة التي تختتم سلسلة القصائد البودليرية المستلهمة من ماري دوبران.

٥٩ - سيزينيا: يرجع مخطوط القصيدة إلى عام ١٨٥٨ أو ١٨٥٩؛ وهي مستلهمة من إليزا نيري، صديقة السيدة ساباتيه.

السطر ٢ (المخطوط): وَهِيَ تَعْبُرُ الْغَابَةَ أَوْ

السطر ٧ (المخطوط): عَيْنُهَا وَوَجْتُهَا مُشْتَعِلَتَانِ

السطر ١١ (المخطوط): وَكَبِيرٌ يَاؤُهَا، الشَّغُوف

السطر ١٣ (المخطوط): وَدَائِمًا مَا يَحْتَفِظُ قَلْبُهَا الرَّهِيْفُ وَالْأَيُّ

٦٠ - فرانسيسكا ماي لود: في نص الطبعة الأولى من «أزهار الشر»، ونصها في «البقايا»، أرفق بودلير القصيدة بالملاحظة التالية:

«ألا يبدو للقارئ - كمالي - أن لغة الحقبة الانحطاطية اللاتينية الأخيرة، - كآهة رفيعة لشخص قوي، قد تحول الآن وتأهب للحياة الروحية، - هي صالحة بصورة فريدة للتعبير عن العاطفة التي أدركها وأحس بها العالم الشعري الحديث؟ إن الصوفية هي القطب الآخر لهذا المحب الذي لم يعرف كاتول وعصبته - من الشعراء الحيوانيين السطحيين بصورة خالصة - منه سوى قطبه الحسي. في هذه اللغة الرائعة، فإن الانحراف اللغوي والبربرية ترفضان - فيما يبدو لي - الهفوات الإجبارية لعاطفة تنسى وتسخر من القواعد. فالكلمات - بمفهوم جديد - تكشف الرعونة الفاتنة لبرابرة الشمال، في ركوعهم أمام الجمال الروماني. ألن تلعب التورية ذاتها، عندما تجتاز هذه التتمات المتحدقة، دور الجَمال الوحشي والباروكي للطفولة؟».

٦١ - إلى سيدة خلاسية: مخطوط ضمن رسالة إلى السيد أوتار دي براجار، في ٢٠ أكتوبر ١٨٤١ ومخطوط القصيدة بلا عنوان؛ ونُشرت - للمرة الأولى - في «لاريتست»، في ٢٥ مايو ١٨٤٥

والقصيدة واحدة من أقدم قصائد «الأزهار»، وهي أولى القصائد التي نشرها باسمه (متبوعًا بلقب والدته): بودلير دوفايي.

السطر ٢ (مخطوط ١٨٤١): فَقَدْ رَأَيْتُ فِي خُلُوةٍ مِنْ أَشْجَارِ التَّمْرِ الْهِنْدِيِّ الْعَبْرِيَّةِ

(نسخة ١٨٤٥): فَقَدْ رَأَيْتُ تَحْتَ ظِلِّ كَبِيرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ التَّمْرِ الْهِنْدِيِّ الْعَبْرِيَّةِ

(نسخة ١٨٥٧): فَقَدْ عَرَفْتُ تَحْتَ ظِلَّةٍ مِنْ أَشْجَارِ خَضِرَاءٍ مُدْهَبَةٍ

٦٢ - حزينة وثائفة: نُشرت - للمرة الأولى - في «روفي دي دو موند»، في الأول من يونيو ١٨٥٥. ولم يتوصل محققو أعمال بودلير إلى هوية «أجاث» الوارد اسمها في السطر الأول.

السطر ٧ (١٨٥٥): فَأَيُّ شَيْطَانٍ مَنَحَ الْبَحْرَ، - الْمُغْنِي الْفَظْ

السطر ٢٣ - ٢٤ (١٨٥٥): وَالْكَمَانَاتِ الْمَحْتَضِرَةِ خَلْفَ...

مَعَ أَبَارِيقِ الْخَمْرِ...

٦٤ - سوناتا الخريف: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي كونتومبرين»، في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٩. ولا يعرف أحد هوية «مارجريت الباردة».

السطر ١٣ - ١٤ (نسخة ١٨٥٩): أَلَسْتُ، مِثْلِي، شَمْسًا شِتَائِيَّةً،

يَا شَاحِبِيَّتِي، يَا حَبِيبَتِي مَارْجِرِيتَ الْبَارِدَةِ؟

٦٦ - القلوط: نُشرت - للمرة الأولى - في «لو كورسير» (Le Corsaire)، في ١٤ نوفمبر ١٨٤٧ وكانت هذه القصيدة محل دراسة رومان ياكوبسون وكلود - ليفي ستروس (L'Homme, janvier-avril 1962). وقد تولد عن مقالهما الكثير من المقالات التالية عن القصيدة نفسها، ومن بينها مقال لرائد البنيوية التوليدية لوسيان جولدمان (تُرجم إلى العربية) وهنري ميشونيك: Un poème est lu: Chant d'automne de Baudelaire, Pour la poétique III, Gallimard (1973).

٦٧ - البُوم: نُشرت - للمرة الأولى - في «لو ميساجيه دي لاشومبليه»، في ٩ أبريل ١٨٥١

السطر ٣ (١٨٥١): كَمْعَبُودَاتٍ مِنْ قَارِ

السطر ١٣ (١٨٥١): يَحْمِلُ كَثِيرًا...

٦٨ - الغليئون: في طبعة ١٨٥٧ من «أزهار الشر»، تأتي هذه القصيدة في نهاية قسم «سأم ومثال».

٦٩ - الموسيقى: يطور بودلير - في هذه القصيدة - المفهوم الذي عرضه في رسالته إلى فاجنر، في ١٧ فبراير ١٨٦٠: «كثيراً ما انتابني إحساسٌ ذو طَبِيعَةٍ بِاللَّغَةِ الْغَرَابَةِ، هُوَ الزَّهْوُ وَالبَهْجَةُ بِإِذْرَاكِ، بِالْإِسْتِسْلَامِ لِاخْتِرَاقِ وَاجْتِنَاحِ شَهْوَةٍ حَسِّيَّةٍ حَقًّا تَشْبَهُ شَهْوَةَ التَّخْلِيقِ فِي الْهَوَاءِ أَوْ التَّجَوُّلِ فِي الْمَاءِ».

السطر ٣ (١٨٥٧): ... فِي أَثِيرِ نَقْيٍ،

السطر ٥ - ٨ (١٨٥٧): الصَّدْرُ فِي الْأَمَامِ وَنَافِخًا رِثْيَ

فِي شِرَاعٍ قَوِيٍّ،

أَصْعَدُ وَأَهْبِطُ ظَهَرَ جِبَالٍ كَبِيرَةٍ

مِنْ مَاءٍ هَادِرٍ؛

السطر ١٢ - ١٣ (١٨٥٧): عَلَى الْهُوَّةِ الْكَثِيبَةِ

تُهْدِهْدُنِي، وَفِي أَحْيَانٍ أُخْرَى الْمِرَاةُ الْهَادِئَةُ، الْكَبِيرَةُ

٧٠ - قبر: عنوان القصيدة - في طبعة ١٨٦٨ - «قبر شاعر ملعون».

٧١ - نقش خيالي: نُشرت - للمرة الأولى - في «لو بريزو» (Le Présent)، في ١٥

نوفمبر ١٨٥٧، بعنوان «نقش لمورتيمر». وقد ظل هذا العنوان موضع بحث

للتعرف على مصدر إلهام القصيدة، إلى أن اكتشف ف. ليكي، عام ١٩٥٣

(French Studies, avril) اللوحة المقصودة، وهي لوحة حفر «الموت على

حصان شاحب»، لجوزيف هاينز (١٧٦٠ - ١٨٢٩)، التي نفذت عام ١٧٨٤

حسب رسم لمورتيمر.

كما كشفت طبعة «أزهار الشر»، المحققة على يدي ج. بومييه وك. بيشوا -

الصادرة عام ١٩٥٩ - عن وجود نسختين آخرين من هذه القصيدة، في شكل

أغنية.

السطر ١٢ - ١٣ (نسخة ١٨٥٧): مَقْبَرَةٌ كَثِيبَةٌ فِي الْأَفْقِ الشَّاسِعِ

حَيْثُ تَحْتَشِدُ، فِي ضِيَاءِ شَمْسٍ بَارِدَةٍ وَذَابِلَةٍ

٧٢ - الميت المبتهج: نُشرت - للمرة الأولى - في «لو ميساجيه دي لاشومبليه» (Le Messenger de l'Assemblée)، في ٩ أبريل ١٨٥١، بعنوان «السأم».

السطر ٦ (١٨٥١): بَدَلًا مِنْ قَبُولِ ...

٧٣ - برمبل الكراهية: نُشرت - للمرة الأولى - في «لو ميساجيه دي لاشومبليه» (Le Messenger de l'Assemblée)، في ٩ أبريل ١٨٥١

السطر ٧ (نسخة ١٨٥١ ونسخة ١٨٥٧):

... تَمْدِيدِ ضَحَايَاهُ،

السطر ٨ (نسخة ١٨٥١ ونسخة ١٨٥٧):

وَتَهْيِيجِ أَجْسَادِهِمْ لِيَسْتَنْزِفُوهَا

(نسخة ١٨٦٨):

وَبَعَثِ أَجْسَادِهِمْ لِيَسْتَنْزِفُوهَا

السطر ٩ (١٨٥١): ... فِي أَعْمَاقِ مَغَارَةٍ،

٧٤ - الجَرَسُ المشروخ: نُشرت - للمرة الأولى - في «لو ميساجيه دي لاشومبليه» (Le Messenger de l'Assemblée)، في ٩ أبريل ١٨٥١، بعنوان «السأم».

السطر ٢ (١٨٥١): أَنْ تَشْعُرَ بِجَوَارِ النَّارِ

السطر ١٢ (١٨٥١) (=السطر ١١-١٢ من هذه الترجمة): يُحَاكِي عَوِيلِ ..

٧٥ - سأم (شهر بلفيوز...): نُشرت - للمرة الأولى - في «لو ميساجيه دي لاشومبليه» (Le Messenger de l'Assemblée)، في ٩ أبريل ١٨٥١

السطر ١ (١٨٦١): عَلَى كُلِّ الْحَيَاةِ

السطر ٧ (١٨٥١ و ١٨٥٧): وَطَيْفُ شَاعِرِ

٧٦ - سأم (لديّ الكثير...):

السطر ١٤ (١٨٥٧): يَرْتَشِفُ الْأَرِيحَ الْقَدِيمَ لِقَارُورَةٍ عَطِرٍ مَفْتُوحَةٍ.

السطر ١٦ (بروفة ١٨٥٧): تَحْتَ الْعِبَاءِ الْأَوَّلِ لِلْسَّنَوَاتِ الثَّلَاثَةِ

السطر ١٧ (النسخة الأولى): الضَّجْرُ، ابْنُ الْفُتُورِ الْكَيْبِ،

وفي رسالة بتاريخ ٢٥ أبريل ١٨٥٧، طلب بودلير من بوليه - مالاسي الناشر أن يُجِل محل السطر السابق: الضَّجْرُ، ثَمَرَةُ الْفُتُورِ الْكَيْبِ؛ وأضاف: «هذا التصحيح، التافه في الظاهر، ذو قيمة بالنسبة لي».

السطر ٢٢ (بروفة ١٨٥٧): ... الْعَالَمُ الْفُضُولِي،

٧٧ - سَام (أنا شبيه بملك...):

السطر ٧ - ٨ (انظر «موت بطولي» في «سَام باريس»).

٧٨ - سَام (حين تثقل السماء...):

السطر ١٤ (بروفة ١٨٥٧):

وَتَطْرُدُ أَيْنًا طَوِيلًا إِلَى السَّمَاءِ

السطر ١٧ - ١٩ (بروفة ١٨٥٧):

وَعَرَبَاتُ مَوْتِي كَبِيرَةٌ، بِلَا طُبُولٍ أَوْ مُوسِيقَى

تَمُرُّ فِي حَشْدٍ بَعْمَقٍ رُوحِي؛ وَالْأَمَلُ

الْهَارِبُ نَحْوَ سَمَاوَاتٍ أُخْرَى، وَالْعَذَابُ الْمُسْتَبِدُّ

(١٨٥٧):

وَعَرَبَاتُ مَوْتِي قَدِيمَةٌ، بِلَا طُبُولٍ أَوْ مُوسِيقَى،

تَتَّالَى بِبُطْءٍ فِي رُوحِي؛ وَالْأَمَلُ

نَائِحًا مِثْلَ مَهْزُومٍ، وَالْعَذَابُ الْمُسْتَبِدُّ

٧٩ - وسواس: ثمة مخطوطان لهذه السوناتا. الأول، أُرسِل إلى بوليه - مالاسي في

رسالة بتاريخ ١٠ فبراير ١٨٦٠، ويحمل كتقديم البيتين ٨٩ - ٩٠ من «بروميثيوس

مقيدا» لأسخيلوس: «ضَحِكُ بِلَا حَصْرِ لِلْأَمْوَاجِ الْبَحْرِيَّةِ».

٨٠ - مذاق العدم: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي فرانسيز»، في ٢٠ يناير ١٨٥٩

السطر ١١ - ١٢ (١٨٥٩): وَالزَّمَنُ يَحُطُّ عَلَيَّ دَقِيقَةً دَقِيقَةً،
مِثْلَمَا تَفْعَلُ الثَّلُوجُ عَلَى جَسَدِ يَابَسٍ؛

٨١ - كيمياء الألم: نُشرت - للمرة الأولى - في «لارتيست»، في ١٥ أكتوبر ١٨٦٠

٨٣ - المعذَّب نفسه: يبدو أن هذه القصيدة ليست سوى الجزء الثاني من خاتمة مفترضة «لأزهار الشر»، كان بودلير قد تعهد بها لفيكتور دي مارس - سكرتير «روفي دي دو موند» - في ٧ أبريل ١٨٥٥، وقام بتحليلها له في ذلك الحين: «دعيني أسترح في الحب. - لكن لا، - فالحب لن يريحني. - فالبراءة والطيبة مقززتان. - وإذا ما أردت أن ترضيني وتجددني الشهوات، فلتكوني قاسية، كاذبة، فاجرة، نذلة ولصة؛ وإن لم تريدي ذلك فسأصرعك، بلا غضب. ذلك أني الممثل الحقيقي للتهكم، ومرضي من جنس يستعصي على العلاج بصورة مطلقة».

٨٤ - بلا دواء: نُشرت - للمرة الأولى - في «لارتيست»، في ١٠ مايو ١٨٥٧

السطر ٣٤ (بروفة ١٨٥٧): أَرَادَ بُولِيَه - مَالِاسِي لِبُودَلِيرَ أَنْ يَكْتُبَ «لِقَلْب».. لكن بودلير أجابه على «البروفة»: «لا فلتترك فالقلب. فيا له من حديث ثنائي بحيث يستخدم قلب فاسد من نفسه مرآة! قلب مع القلب المرأة، أي حديث ثنائي كئيب!».

٨٥ - ساعة الحائط: نُشرت - للمرة الأولى - في «لارتيست»، في ١٥ أكتوبر ١٨٦٠

في نهاية قسم «سأم ومثال»، تحل هذه القصيدة محل «الغليون»، طبعة ١٨٦١، مؤكدة تشاؤمية هذا القسم.

لوحات باريسية

٨٦ - مشهد طبيعي: نُشرت - للمرة الأولى - في «لو بريزو»، في ١٥ نوفمبر ١٨٥٧

العنوان (١٨٥٧): «مشهد طبيعي باريسي». وحذف الصفة في ١٨٦١ ناتج عن المكانة التمهيدية التي تشغلها هذه القصيدة في «لوحات باريسية»، القسم الذي تمت كتابته خصيصًا للطبعة الثانية من «أزهار الشر».

السطر ٤ (١٨٥٧): أَغَانِيهَا الشَّجِيَّةُ الَّتِي تَحْمِلُهَا

السطر ٢١-٢٦ (١٨٥٧):

وَالِهَيَاجُ الشَّغْبِي سَيَكُونُ جَمِيلًا أَنْ يَعْصِفَ عَلَى نَافِذَتِي،
لَنْ أَرْفَعَ الدَّجِينَ عَنْ مَكْتَبِي،
وَلَنْ أَتَحَرَّكَ بَعْدُ مِنَ الْمَقْعَدِ الْوَثِيرِ الْعَتِيقِ
حَيْثُ أُرِيدُ مِنْ أَجْلِ نَعَشٍ صَغِيرِ
(لَاكِبْدَ مِنْ فِتْنَةٍ مَوْتَانَا فِي خُلُوتِهِمُ الْمُظْلِمَةِ)
تَأْلِيفَ بَيْتَيْنِ بِنُفْثَانِ الدُّخَانِ مِثْلَ مَجَامِرِ الْعُطُورِ.

٨٧ - الشمس: في طبعة ١٨٥٧، كانت هذه القصيدة تالية لـ «بركة»، متبوعة - في ١٨٦١ - بـ «طائر القطرس».

٨٨ - إلى متسولة صهباء الشعر: ثمة مخطوط للقصيدة بلا تاريخ، لكنه سابق على مخطوط ١٨٥٢ وهذه الفتاة نفسها التي ألهمت بانثيل مقطوعة من «رواسب كِلْسِيَّة» (١٨٤٦): «إلى مغنية شوارع»، رسمها إميل دوروي (متحف اللوفر).
كَأَنَّا يُرْصَدُونَ.. عُشْكَ النَّدَى!: كناية فرنسية عن «الفرج».

العنوان (١٨٥٢): الثوب المثقوب للمتسولة الصهباء.

السطر ١٠ - ١١ (المخطوط غير المؤرخ، ١٨٥٢، ١٨٥٧):

مِنْ مُخَادَعَةٍ لِلْحَبِيبِ

تَرْتَدِّي مَدَاسَهَا الْمَخْمَلِي

السطر ٢٣ (المخطوط غير المؤرخ):

تَذِيكَ الْأَبْيَضَ كَالْحَلِيبِ

(١٨٥٢، ١٨٥٧):

صَدْرُكَ الْأَكْثَرُ بَيَاضًا مِنَ الْحَلِيبِ.

السطر ٢٦ (المخطوط غير المؤرخ، ١٨٥٢): وَسَيَخْتَلِسْ

السطر ٢٧-٢٨ (المخطوط غير المؤرخ): وَتَطْرُدَانِ بِضَرْبَاتٍ يَقْظَةً

الْأَصَابِعِ الثَّائِرَةِ

السطر ٢٩ (المخطوط غير المؤرخ، ١٨٥٢): جَوَاهِرٍ مِنْ

السطر ٣٥ (المخطوط غير المؤرخ، ١٨٥٢، ١٨٥٧): وَيَخْسُدُونَ حِذَاءَكَ

السطر ٣٧ (المخطوط غير المؤرخ، ١٨٥٢): غِلْمَانٌ مُتَشَمُّمُونَ
لِلْمُصَادَفَاتِ

(١٨٥٧): غُلَامٌ مُكَرَّرٌ صَدِيقٌ لِلصُّدْفَةِ.

السطر ٣٨ (المخطوط غير المؤرخ، ١٨٥٢): وَسَادَةٌ عِظَامٌ وَنُسُخٌ مِنْ رُؤَسَاءِ

السطر ٣٩ (المخطوط غير المؤرخ): كَانُوا يُلْحُونَ عَلَى الْمُتَعَةِ

السطر ٤٦ (المخطوط غير المؤرخ): عَشَاءٌ مَا قَدِيمًا مَرَمِيًا

(١٨٥٢): كِسْرَةٌ مَا قَدِيمَةٌ مَرَمِيَّةٌ

السطر ٥٠ (المخطوط غير المؤرخ، ١٨٥٢):

إِلَى أَغْطِيَةِ الرَّأْسِ الْقَدِيمَةِ بِسِتَّةِ سُو

(بروفة ١٨٥٧): خُزْ عِبَلَاتٍ بَعِشْرِينَ سُو

السطر ٥١ (المخطوط غير المؤرخ): أَنَا، لَا أَسْتَطِيعُ، فَاعْذِرْنِي!

٨٩- البجعة: أرسلت هذه القصيدة إلى فيكتور هوجو، ضمن رسالة بتاريخ ٧ ديسمبر

١٨٥٩: «ها هي أبيات كتبت لك وفيها أفكر بك. ولا ينبغي تقييمها بعينيك

القاسيتين، بل بعينيك الأبويتين... وما كان هاماً بالنسبة لي هو أن أقول على عجل

كل ما يمكن أن تحويه واقعة، صورة، من إichاءات، وكيف أن رؤية حيوان متألم

تدفع العقل نحو كل الكائنات التي نجبها، الغائبة والتي تعاني..»

وقد رد فيكتور هوجو في ١٨ ديسمبر ١٨٥٩: «.. شأن كل ما تفعل، سيدي، فبجعتك هي فكرة. وشأن كل الأفكار الحقيقية، فهي تتمتع بأعماق. هذه البجعة في التراب لديها، تحتها، من المهاوي أكثر مما لدى بجعة مياه بحيرة «جوب» بلا عمق. وهذه المهاوي نستشفها في شعرك المفعم - من ناحية أخرى - بالرعشات والاختلاجات».

وكانت القصيدة - عام ١٨٦٠ - يتصدرها مفتتح: «على حافة مجرى ماء كان يشبه السيموا» (انظر السطر الرابع من القصيدة). وهو الشطرة الثانية لبيت شعري في «الإنياذة» لفرجيل، الذي يروي - في النشيد الثالث - سيرة نفي أندروماك إلى «إيبير»، حيث قامت - من أجل البكاء على هيكتور - بإعادة تشكيل المشهد الطروادي مع نسخة طبق الأصل من نهر السيموا الذي كان يروي مدينة طروادة.

السطر ٦ (١٨٦٠): كَارُوسِيلُ الشَّاسِعِ هَذَا

السطر ١٦ (١٨٦٠): زَوْبَعَةٌ قَدْرَةٌ..

السطر ٢٥، قارن بـ «التحولات» لأوفيد، الكتاب الأول: «رفع الخالق جبين الإنسان وأمره بتأمل السموات...».

٩٠ - الشيوخ السبعة: أرسلت هذه القصيدة - مع قصيدة «العجائز القصيرات» - إلى فيكتور هوجو، في ٢٧ سبتمبر ١٨٥٩، الذي رد على بودلير في ٦ أكتوبر ١٨٥٩ بجملته الشهيرة: «أنتم تمنحون سماء الفن ما لا أدري من أشعة جنائزية. إنكم تخلقون رعدة جديدة..»

هَذَانِ الشَّبَحَانِ الْبَارُوكِيَّانِ: نسبة إلى عصر الباروك في الفن (من منتصف القرن ١٦ إلى أوائل القرن ١٨)، ويتسم بالغرائبية والإفراط في التعقيد.

وللقصيدة ثلاثة مخطوطات تنتمي إلى عام ١٨٥٩: أ، ب، ج. والعنوان - في المخطوطات الثلاثة - هو «أشباح باريسية».

السطر ٢ (أ، ب): الْأَشْبَاحُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ تَعْلُقُ (في الجمع) بِالْمَارِ؛

السطر ٥ (أ): ذَاتَ صَبَاحٍ، يَا لَهُ مِنْ فَجْرٍ! وَيَا لَهُ مِنْ شَارِعٍ كَثِيبٍ!

السطر ٦ (أ، ب): الَّتِي يَزِيدُ مِنْ ارْتِفَاعِهَا الصَّبَابُ،

السطر ٨ (أ): دِيكُورٌ كَثِيبٌ شَبِيهٌ ...

السطر ١٥ (أ، ب): وَيُمْكِنُ لِمَلْبَسِهِ ...

السطر ١٨ (أ، ب): وَنَظَرُهُ كَانَتْ تُضَاعِفُ

السطر ٣٣ (أ، ب): فَأَيَّةُ مُؤَامَرَاتٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ كُنْتُ عُرْصَةً لَهَا؟

السطر ٣٦ (أ، ب): هَذَا الْعَجُوزُ الْبَيْعُ

السطر ٤١ (أ): يَتَّبِعُنِي عَذَابٌ حِينَ أَفْكُرُ فِي الثَّامِنِ!

(ب): يَتَّبِعُنِي رُغْبٌ حِينَ أَفْكُرُ فِي الثَّامِنِ!

السطر ٤٢ (أ): فَالْتَّاسِعِ! الْمُمْكِنِ، الْمُحْتَمَلِ، الْوَيْلِ!

السطر ٤٣ (أ): أَرَدْتُ تَهْرِيبَ هَذَا الْأَبِ الْأَبْدِيِّ مِنْ نَفْسِهِ

السطر ٤٧ (أ، ب): ... وَعَقْلِي حَائِرٌ وَمُسَوِّشٌ،

السطر ٣٩-٥٢ (أ): التَّمَسَّ عَقْلِي عَبَثًا قُوَّتَهُ؛

أَحْبَطْتُ الْحُمَى - فِي تَلَاُعِهَا - مُحَاوَلَاتِهِ،

وَرَأَحَتْ رُوحِي تَتَرَاقَصُ، (دَائِمًا) تَتَرَاقَصُ مِثْلَ سَفِينَةٍ

بِلَا صَوَارٍ، فِي بَحْرِ جَمُوحٍ وَبِلَا ضِفَافٍ!

(ب): (الصيغة التالية مشطوبة بكاملها):

بِلَا جَدْوَى تَمَامًا التَّمَسَّ عَقْلِي قُوَّتَهُ؛

بَدَّدَ الْهَدْيَانُ، فِي تَلَاُعِهِ مُحَاوَلَاتِهِ،

وَرَأَحَتْ رُوحِي تَتَرَاقَصُ، تَتَرَاقَصُ، مِثْلَ سَفِينَةٍ

بِلَا صَوَارٍ (هكذا)، فِي بَحْرِ أَسْوَدَ، صَخْمٍ وَبِلَا ضِفَافٍ.

(ج): (النسخة المخطوطة):

بِلَا جَدْوَى تَمَامًا حَاوَلَ عَقْلِي امْتِلَاكَ الرِّمَامِ؛

بَدَّدَتِ الْعَاصِيفَةُ فِي تَلَاغُبِهَا، مُحَاوَلَاتِهِ،

وَرَاخَتِ رُوحِي تَتَرَاقَصُ، تَتَرَاقَصُ، كَصَنْدَلٍ بِإِسْ

بِلَا صَوَارٍ (هكذا)، فِي بَحْرِ أَسْوَدَ، ضَخْمٍ وَبِلَا ضِغَافٍ.

وربما استند هذا الوصف لحالة الهلوسة - جزئيًا - إلى أحد مشاهد مسرحية «ماكبت» لشيكسبير، حيث يرى الملك القتال - بفعل تدخل الساحرات - أشباح الملوك الثمانية الآخرين، مصحوبين ببيانكو:

وَوَاحِدٌ آخَرُ! سَابِعُ! لَنْ أَرَى آخَرِينَ:

وَمَعَ ذَلِكَ فَالْثَامِنُ يُظْهَرُ... إلخ.

٩١ - العجائز القصيرات: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روفاي كونتومبرين»، في ١٥ سبتمبر ١٨٥٩، ثم في الشعراء الفرنسيون، مختارات إ. كريبيه، الجزء الرابع، ١٨٦٢

وقد اعترف بودلير لفليكتور هوجو - في رسالة أرفق بها هذه القصيدة و«الشيوخ السبعة» - أنه كان يحاول تقليد طريقته في الكتابة. وأضاف: «لقد رأيت أحيانًا في معارض الرسم تلاميذ بؤساء كانوا ينسخون أعمال أساتذتهم. وأحيانًا ما كانوا يضعون - بصورة جيدة أو رديئة - في هذه الأعمال المقلدة، بلا معرفة منهم، شيئًا ما - عظيمًا أو تافهًا - من ذواتهم الخاصة. وهنا سيكون ربما (ربما!) العذر عن اجترائي».

العنوان (١٨٥٩): أشباح باريسية.

السطر ٢٥ (١٨٦٢): وَعِنْدَمَا أَلْحَظُ...

السطر ٢٩ - ٣٢: غير منشور في نص «لا روفاي كونتومبرين».

السطر ٣٧ (١٨٦٨): فَرَأَسَاكَاتِي الْقَدِيمَةَ...

السطر ٣٩ (١٨٦٢): الرَّاحِلُ، وَخَدَهُ، يَتَذَكَّرُ،

السطر ٤٨ (١٨٦٢): كُلُّهُنَّ كُنَّ يَصْنَعْنَ نَهْرًا بِتَجْمِيعِ دُمُوعِهِنَّ!

السطر ٥٣ (١٨٥٩): ... الْمَعْزُوفَاتِ الْمُدَوِّيَّةِ بِالنَّحَاسِ،

السطر ٧٥ (١٨٦٢): كَأَنِّي، أَنَا، أَبُوكُن ...

٩٢ - العميان: نشرت - للمرة الأولى - في «لارتيست»، في ١٥ أكتوبر ١٨٦٠

السطر ١٢-١٣ (١٨٦٠): بَاحِثَةً عَنِ الْمُتَعَةِ بِوَحْشِيَّةٍ،

أَمَّا أَنَا، أَجْزَجِرُ نَفْسِي أَيْضًا

٩٣ - إلى عابرة: نُشرت - للمرة الأولى - في «لارتيست»، في ١٥ أكتوبر ١٨٦٠

السطر ٦ (١٨٦٠): وَأَنَا، مُرْتَعِدًا مِثْلَ مَهْوُوسٍ، احْتَسَيْتِ

السطر ١٠ (١٨٦٠): جَعَلْتَنِي نَظْرَةً مِنْهُ أَتَذَكَّرُ وَأُولَدُ مِنْ جَدِيدٍ،

٩٤ - الهيكل العظمي الكادح: ١٥ ديسمبر ١٨٥٩، ضمن مخطوط رسالة إلى بوليه -

مالاسي. ونُشرت - للمرة الأولى - في «لا كوزوري» (La Causerie)، في ٢٢

يناير ١٨٦٠

٩٥ - غسق المساء: ثمة مخطوط أصلي للقصيدة يحمل تاريخ ١٨٥٢ وقد نُشرت

عام ١٨٥٥، في كتاب «فونتانبلو» (Fontanbleau) - تكريماً لس. ف. دنكور،

المسئول عن حماية غابة فونتانبلو. وأُرسلت القصيدة - ضمن رسالة - إلى

فيردينان ديزنوييه المسئول عن تجميع الديوان الخاص بالتكريم: «غويوي

ديزنوييه، تطلبون مني شعراً لكتابكم الصغير، شعراً عن الطبيعة، أليس كذلك؟

عن الغابات، والسنديان الكبير، والخضرة، والحشرات، - والشمس، بدون

شك؟ لكنكم تعرفون جيداً أنني غير قادر على التأثر بالنباتات، وأن روحي

متمردة على هذا الدين الفريد الجديد، الذي سيمتلك دائماً، فيما يبدو لي،

ليكون روحياً تماماً، ما لا أدري من صدمة (Shocking). ولن أؤمن أبداً بأن روح

الآلهة تسكن النباتات (بيت شعري لفليكتور دي لابراد)، ومع ذلك، فإن كانت

تسكنها، فسأنشغل بذلك بصورة بين بين، وأعتبر روحي ذات قيمة أعلى بكثير

من روح الخضراوات المقدسة. وعلى الرغم من ذلك فقد فكرت دائماً فيما إذا

كان في الطبيعة، المزدهرة متجددة الشباب، شيءٌ ما محزن، فظٌّ، قاسٍ، - شيءٌ ما

لا أدريه يقارب الوقاحة. ومع استحالة إرضائك الكامل وفقاً للشروط الصارمة

للبرنامج، أرسل لك قصيدتين شعريتين، تمثلان تقريباً شكل أحلام اليقظة التي تداهمني ساعات الغسق. ففي عمق الغابة، المحبوسة تحت هذه القباب الشبيهة بقباب الكنائس والكاتدرائيات، أفكر في مدننا المذهلة، والموسيقى الخارقة التي تناسب فوق الذرى تبدو لي ترجمةً للعويل الإنساني».

٩٦ - المقامرة:

السطر ٢ - ٤ (١٨٥٧):

- جِبَاهُ ذَاتُ طِلَاءٍ، مَصْبُوعَاتُ الرُّمُوشِ عَلَى نَظَرَاتٍ حَادَّةٍ، -

تَمْضِي مُهْتَزَّةً إِلَى آذَانِهِنَّ النَّحِيلَةَ

تَكْتَكُّ قَاسِيَةً وَجَارِحَةً لِبِنْدُولٍ؛

السطر ٢١ - ٢٣ (١٨٥٧): وَقَلْبِي ازْتَاعَ مِنْ حَسَدِ الْإِنْسَانِ الْبَائِسِ

الَّذِي يَرْكُضُ بِلَهْفَةٍ إِلَى الْهََاوِيَةِ الْفََاغِرَةِ،

و، ثَمَلًا بِدَمِهِ،

٩٧ - رقصة جنائزية: الأول من يناير ١٨٥٩، مخطوط أصلي، ضمن رسالة إلى

ألفونس دي كالون. وقد نُشرت - للمرة الأولى - في «روفي كونتومبرين»، في

١٥ مارس ١٨٥٩

والقصيدة مستلهمة من «عمل تحضيريّ» لإرنست كريستوف، تمثال صغير أبدى بودلير أسفه على غيابه عن صالون ١٨٥٩، ووصفه في أحد مقالاته التي خصصها للصالون: «فلتتخللوا هيكلًا أنثويًا كبيرًا على أهبة الاستعداد للذهاب إلى حفلٍ ما. ومع وجهها الزنجي المسطح، وابتسامتها بلا شفاء ولا لثة، وعينها التي ليست سوى ثقب مليء بالظلمة، فإن الشيء الرهيب كان امرأةً جميلةً بسماء من تبحث بغموض في الفضاء عن الساعة الشهية للموعد أو الساعة المهيبة لمحفل السبت المقدس في المزولة اللامرئية للقرون. نصفها الأعلى الذي شرّحه الزمن، ينطلق في دلال من صدريتها، وباقية يابسة من رأسها، وكل هذه الفكرة الفاجعة تنتصب على قاعدة من تنورة خشنة باذخة.

فلتسمحوا لي - من أجل الاختصار - أن أورد مقتطفًا منظومًا حاولت فيه لا رسم، بل تفسير المتعة الرهيفة التي ينطوي عليها هذا التمثال الصغير، تقريبًا مثلما يخربش قارئ مدقق بالقلم في هوامش كتابه؛ (ثم يورد الأبيات الاثني عشرين الأولى من القصيدة).

وفي رسالة إلى ألفونس دي كالون، مدير «روفي كونتومبرين»، في ١١ فبراير ١٨٥٩، يكتب بودلير: «رقصة جنائزية ليست شخصًا، فهي استعارة. ويبدو لي أنه لا ينبغي استخدام حروف البداية الكبيرة فيها. استعارة معروفة، تعني: إن قطار العالم يقوده الموت».

٩٨ - عشق الكذب: مارس ١٨٦٠، مخطوط أصلي. نُشرت - للمرة الأولى - في «روفي كونتومبرين»، في ١٥ مايو ١٨٦٠
العنوان (في المخطوط): الديكور.

وثمة مفتتح تصدر النص في المخطوط مثلما في «روفي كونتومبرين»:

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كَانَتْ تَتَمَتَّعُ أَيْضًا بِهَذِهِ الرَّوْعَةِ الْمُسْتَعَارَةِ الَّتِي كَانَتْ
تَسْهَرُ لَهَا عَلَى تَلْوِينٍ وَتَزْيِينٍ وَجْهَهَا لِتَرْمِيمِ أَعْوَامٍ مِنَ الْمَهَانَةِ الْعَصِيَّةِ عَلَى
التَّرْمِيمِ.

ويرد تحت هذه الأبيات - في المخطوط - اسم وحيد: راسين، فيما يرد - في «روفي كونتومبرين» - : راسين، أتالي.

السطر ١٠ - ١١ (المخطوط): تُتَوَّجُهَا الذِّكْرَى السَّمَاوِيَّةُ، كَصَرْحٍ قَدِيمٍ ثَقِيلٍ،
وَقَلْبُهَا، الْمَخْدُوشُ مِثْلَ الْخَوْخَةِ،
مِثْلَ جَسَدِهَا، نَاضِجٌ لِلْحُبِّ الْبَارِعِ.

٩٩ - لم أنس: ترجع هذه القصيدة إلى فترة الصبا السعيدة لبودلير، أي الفترة التي سبقت الزواج الثاني لأمه. وخلال تلك الفترة القصيرة التي ظلت فيها أرملة، كانت تسكن - مع ابنها - في الصيف، في منزل يقع على نهر السين (شارع شارل ديغول حاليًا).

وقد كتب بودلير إلى أمه عن هذه القصيدة، في ١١ يناير ١٨٥٨: «لم تلاحظي إذن وجود قصيدتين في «أزهار الشر» تتعلقان بك، أو - على الأقل - تلميحيتين (هكذا) إلى تفاصيل حميمة من حياتنا القديمة، من فترة الترميل تلك التي خلفت لديّ ذكريات فريدة وحزينة، الأولى: لم أنس... والأخرى التي تليها: الخادمة ذات القلب الطيب... وقد تركت هاتين القصيدتين بلا عنوان ولا إشارات واضحة لأن الرعب يتملكني من تعهير الأشياء الحميمة للعائلة».

١٠٠ - الخادمة ذات القلب الطيب: في «قلبي عاريًا»، يكتب بودلير هذه الصلاة: «لا تعاقبني في أمي ولا تعاقب أمي بسببي. - أوصيك خيرًا بروحي أبي ومارييت. - فلتمنحني القدرة على القيام بواجبي في الحال كل يوم وعلى أن أصبح بذلك بطلاً وقديسًا».

السطر ٣ (١٨٥٧): وَكَانَ عَلَيْنَا حَقًّا أَنْ نَأْتِي لَهَا

السطر ١٣ (١٨٥٧): وَفَرَارَ الْأَبْدِيَّةِ، بِلا

السطر ١٦ (١٨٥٧): كَانَتْ تَأْتِي لِلْجُلُوسِ فِي الْمَقْعَدِ الْوَتِيرِ،

١٠١ - ضباب وأمطار: السطر ١ (بروفة ١٨٥٧): يَا ثِمَارَ الْخَرِيفِ ...

السطر ٤ (١٨٥٧): ... وَقَبْرَ ضَبَائِي.

١٠٢ - حلم باريسي: ثمة مخطوطان بتاريخ مارس ١٨٦٠: أ و ب.

السطر ١ (أ): بِهِذَا الْمَشْهَدِ الرَّائِعِ،

السطر ٢ - ٣ (أ): الَّذِي لَمْ يَشْهَدْ إِنْسَانٌ أَبَدًا

مِثْلًا لَهُ، هَذَا الصَّبَاحِ،

(ب): كَمَا لَمْ يَشْهَدْهُ أَبَدًا إِنْسَانٌ،

١٨٦٨: الَّذِي لَمْ تَرَهُ أَبَدًا عَيْنُ إِنْسَانٍ،

السطر ٩ (أ، ب): وَكَفَنَانِ مَحْمُورٍ بِعَبْقَرِيَّتِهِ،

السطر ٢٣ (أ، ب): ... حُورِيَّاتِ مَاءِ عِمْلَاقَةٍ،

١٠٣ - شفق الصباح: ثمة مخطوط (١٨٥٢)؛ نسخة «فونتانبلو» تكريما لس. ف. دنكور (١٨٥٥).

العنوان (المخطوط): شققا المدينة الكبيرة. - الصباح.

السطر ١٧ (١٨٥٥): ... فِيهَا وَسْطَ الْجُوعِ وَالْبُخْلِ

السطر ٢١ (١٨٥٢-١٨٥٥): وَحَمَمَ ضَبَابٌ ثُلُجِيٌّ الْأُبْنِيَّةَ،

الخمير

١٠٤ - روح الخمير: في سبتمبر ١٨٤٤، ورد البيت الأول من القصيدة كمفتتح لـ «أغنية الخمير»، إحدى مقطوعات «رواسب كلسية» لتيودور دي بانفيل.

نُشرت - في يونيو ١٨٥٠ - في «لو ماجازان دي فامي». وفي ٢٧ سبتمبر ١٨٥١، نشرت في «لا ريببليك دي بيل» (La République du Peuple).

العنوان (١٨٥٠): أشعار العائلة - خمير الشرفاء.

السطر ٢ (١٨٥٠، ١٨٥١): سَأَسْؤُقُ لَكَ، يَا حَبِيبِي

السطر ٩ (١٨٥٠): ... بِبَهْجَةٍ قُضَوَى عِنْدَمَا

السطر ١٠ (١٨٥١): فِي حَلْقِ رَجُلٍ مُنْهَكٍ مِنَ الْعَمَلِ

السطر ١١ (١٨٥٠، ١٨٥١): وَصَدْرُهُ الْأَمِينُ قَبْرٌ دَافِيٌّ

السطر ١٣ (١٨٥١): أَلَا تَسْمَعُ لَازِمَاتِ يَوْمِ الْأَحَدِ تَرِنَ

السطر ١٧ (١٨٥٠، ١٨٥١): سَأُشْعِلُ عَيْنِي رَوْجَتِكَ الْحَنُونِ،

السطر ٢٢ - ٢٤ (١٨٥٠، ١٨٥١):

مِثْلَ الْحَبَّةِ الْخُضْبَةِ الَّتِي تَسْقُطُ فِي شَقِّ الْمَحْرَاثِ،

وَمِنْ اتِّحَادِنَا سَبُولُ الدُّشْعَرِ

الَّذِي سَيَرْقَى نَحْوَ اللَّهِ مِثْلَ فَرَاشَةٍ كَبِيرَةٍ.

١٠٥ - خمير جامعي الخرق: المخطوط (أ)، الذي يحمل توقيع شارل بودلير، هو

الأقدم بلا شك. وهناك المخطوط (ب) - الذي يرجع إلى ١٨٥٢ - ويضم ٢٤ بيتاً من القصيدة. وفي ١٥ نوفمبر ١٨٥٤، نُشرت القصيدة في Jean Raisin, revue joyeuse et vinicole (نص المخطوط (ب)، مع بعض التغييرات المشار إليها فيما بعد).

ولأن القصيدة خضعت لتعديلات هامة، فإننا نورد - فيما يلي - النص الكامل للمخطوطين:

(أ)

فِي عُمُقِ هَذِهِ الْأَحْيَاءِ الْكَثِيَّةِ الْمُؤَلِّمَةِ،
حَيْثُ تَعِيشُ بِالْآلَافِ عَائِلَاتٌ مَقْرُورَةٌ،
أَحْيَانًا مَا تَرَى، عَلَى الضَّوِّ الْكَابِي لِلْقَنَادِيلِ
الَّتِي تُعَذِّبُهَا رِيحُ اللَّيْلِ فِي زُجَاجِهَا،
جَامِعَ خَرَقٍ يَعُودُ بِصُورَةٍ مَائِلَةٍ،
مُتَخَبِّطًا، مُتَلَاطِمًا، كَعَامِلٍ زُجَاجٍ،
وَحُرًّا، دُونَ انْشِغَالٍ بِعَسَسٍ كَثِيبِينَ،
يَصُبُّ رُوحَهُ وَحِيدًا وَسَطَ الظُّلُمَاتِ.
حَشْدٌ مُتَحَسِّرٌ فِي نَظَرَاتِهِ الْخَائِبَةِ.
وَهُوَ، يَرْمِي إِلَى الْأَشْيَاءِ بِكَلِمَاتٍ مُتَقَطَّعةٍ،
شَبِيهَةٍ بِتِلْكَ الَّتِي كَانَ الْإِمْبَرَاطُورُ الْمَهْزُومُ
أَمَامَ الْمَوْتِ يُطْلِقُهَا مِنْ حَنْجَرَتِهِ الْمُحْتَضِرَةِ.

حَقًّا، فَجَمِيعُ هَؤُلَاءِ النَّاسِ مَحْنِيُونَ تَحْتَ وَطْأَةِ الْفَضَلَاتِ

وَأَرْبَالَ عَفْنَةٍ تَرْمِيهَا بَارِسُ،
مُنْهَكِينَ مُثْقَلِينَ بِالْهُمُومِ الْمَنْزِلِيَّةِ،
مَطْحُونِينَ بِالْعَمَلِ وَمُعَذِّبِينَ بِالزَّمَنِ،
لَدَيْهِمْ سَاعَةٌ لَيْلِيَّةٌ فِيهَا، مُفْعَمِينَ بِالْأَوْهَامِ،
وَالرُّوحُ مُضَاءٌ يَرُوءَى غَرِيبَةً،
يَمْضُونَ وَهُمْ يَفْوَحُونَ بِرَائِحَةِ الْخَمْرِ،
يَقُودُونَ جَيْشًا وَيَكْسِبُونَ مَعَارِكَ،
مُقْسِمِينَ أَنْ يَجْعَلُوا شَعْبَهُمْ دَائِمًا سَعِيدًا.
لَكِنْ لَا أَحَدٌ رَأَى أَبَدًا الْمَآثِرَ السَّامِيَةَ الْمَجِيدَةَ،
الْإِنْتِصَارَاتِ الصَّاخِبَةِ وَالْاِخْتِفَالَاتِ الْبَازِيخَةِ،
الَّتِي تَتَوَهَّجُ آتِيذٌ فِي أَعْمَاقِ رُؤُوسِهِمْ،
أَجْمَلَ مِمَّا لَمْ يَحْلُمَ بِهَا أَبَدًا الْمُلُوكُ.
هَكَذَا يُهَيِّمَنَّ الْخَمْرُ بِأَفْضَالِهِ،
وَيَحْنَجِرَةَ الْإِنْسَانُ يُغْنِي مَآثِرَهُ.
هِيَ عَظَمَةُ الطَّيْبَةِ لَدَى مَنْ يَدُلُّ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ،
مَنْ مَنَحَنَا حَقًّا النَّوْمَ الْعَذْبَ،
وَشَاءَ إِضَافَةَ الْخَمْرِ، ابْنِ الشَّمْسِ،
لِتَذِفَتْهُ الْقُلُوبُ وَتَسْكِينِ الْعَذَابِ
لَدَى كُلِّ التُّعَسَاءِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي صَمْتٍ.

(ب)

عَلَى الضَّوءِ الْكَابِي لِأَحَدِ قَنَادِيلِ الشَّوَارِعِ
الَّتِي تُعَذِّبُهَا رِيحُ اللَّيْلِ فِي زُجَاجِهَا
فِي عُمُقِ هَذِهِ الْأَحْيَاءِ الْكَثِيَّةِ الْمُؤَلِّمَةِ
الَّتِي تَزْخَرُ بِالْآلَافِ مِنَ الْعَائِلَاتِ الْمَقْرُورَةِ،

كَثِيرًا مَا يَرَى الْمَرْءُ جَامِعَ خِرَقٍ يَأْتِي، هَارًا رَأْسَهُ،
مُتَعَثِّرًا، مُرْتَظِمًا بِالْجُدْرَانِ مِثْلَ شَاعِرٍ،
وَدُونَ أَكْثَرِاثٍ بِالْمُخِيرِينَ الْكَثِيبِينَ،
وَهُوَ يَصُبُّ قَلْبَهُ كُلَّهُ فِي الْهَوَاءِ الصَّامِتِ.

حَقًّا، فَهَؤُلَاءِ النَّاسُ الْمُتَنَهِّكُونَ بِالْهُمُومِ الْمُنْزِلِيَّةِ،
الْمَطْخُونُونَ بِالْعَمَلِ، الْمُعَذَّبُونَ بِالزَّمَنِ،
وَالظَّهَرُ مَحْنِيٌّ، مَجْرُوحِينَ تَحْتَ وَطْأَةِ الْفَضَلَاتِ
وَأَزْبَالِ عَفْنَةِ تَرْمِيهَا بَارِيسُ،

يَعُودُونَ وَهُمْ يَقْوَحُونَ بِرَائِحَةِ بَرَامِيلِ الْخَمْرِ،
يَقُودُونَ جَيْشًا وَيَكْسِبُونَ مَعَارِكَ.

يُقْسِمُونَ أَنْ يَجْعَلُوا شَعْبَهُمْ دَائِمًا سَعِيدًا
وَيَتَّبِعُونَ عَلَى حِصَانٍ مَصَائِرَهُمُ الْمَجِيدَةَ

هَكَذَا عَبَّرَ الْإِنْسَانِيَّةَ الطَّائِشَةَ
يَأْتِي الْخَمْرُ بِالذَّهَبِ مِثْلَ بَاكْتُولٍ جَدِيدٍ؛
وَبِحَنْجَرَةِ الْإِنْسَانِ يُعْنَى مَآثِرُهُ،
وَيُهَيِّمُنُ بِأَفْضَالِهِ كَالْمُلُوكِ الطَّيِّبِينَ.

لِتَهْدِئَةَ الْقَلْبِ وَتَسْكِينِ الْعَذَابِ
لَدَى كُلِّ الْأَبْرِيَاءِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي صَمْتٍ،
مَنْحَهُمُ اللَّهُ حَقَّ النَّوْمِ الْعَذْبِ؛
وَأَضَافَ الْخَمْرَ، ابْنَ الشَّمْسِ الْمُقَدَّسِ.

١٠٦ - خمر القاتل: قصيدة قديمة، ألقاها بودلير خلال عشاء مع أصدقائه عام ١٨٥٣
واقترح عليه الممثل تريسورو كتابة مسرحية في فصلين، وهو المشروع الذي لم
يحققه بودلير، على الرغم من أنه وضع خطة للمسرحية بعنوان «السكير».

السطر ٤ (١٨٥٧): كَانَتْ دُمُوعُهَا

السطر ٣١ (١٨٥٧): ... فِي كَيْلَالِيهِ الدَّيْنِيَّةِ

١٠٧ - خمر المنعزل: ما تزال هوية «أدلين» - الوارد اسمها في السطر ٦ - غير معروفة.
ويرجح بيشوا - في تحقيقه لـ «أزهار الشر» - أن الاسم ربما ورد لضرورة
القافية.

١٠٨ - خمر المحبين: السطر ٢ (بروفة ١٨٥٧):

بِلاَ شَكِيمَةٍ، بِلاَ مِهْمَازٍ، بِلاَ سَرَجٍ أَوْ لِحَامٍ،

السطر ٦ - ٧ (بروفة ١٨٥٧) = السطر ٦ - ٨ من هذه الترجمة:

بِالدُّوَارِ الْقَاهِرِ،

خِلَالَ زُرْقَةِ الصَّبَاحِ

السطر ٩ (بروفة ١٨٥٧): مُسْتَسْلِمِينَ لِلْأَنْجَرِافِ عَلَى جَنَاحِ

أزهار الشر

١٠٩ - الدمار: عند نشرها أول مرة - في «روفي دي دو موند»، في الأول من يونيو ١٨٥٥ - كانت هذه القصيدة تحمل عنوان «الشهوة». وقد ربط بعض النقاد بينها وبين رواية «شهوة» لسانت - بييف.

السطر ١١ (١٨٥٥): سُهوب السَّامِ،

١١٠ - شهيدة: السطر ٤ (١٨٥٧): تَسْتَرْسِلُ كَطَيَّاتِ كَسُولَةٍ،

السطر ٢٧ - ٢٨ (١٨٥٧): وَحَامِلَةُ الْجَوَارِبِ، مِثْلَ عَيْنٍ يَفِظَةُ، تُورِضُ
وَتُحَدِّقُ بِنَظَرَةٍ مُتَأَلِّفَةٍ كَالْمَاسِ.

السطر ٣٩ (بروفة ١٨٥٧): ... وَالْخَضِرُ اللَّذَنُ

١١١ - نساء ملعونات: في طبعة ١٨٥٧ من «أزهار الشر»، كانت هذه القصيدة مسبوقةً بأخرى تحمل نفس العنوان، وأُدينت خلال محاكمة الديوان، لكنها موجودة فيما يلي، في «البقايا». على الرغم من ذلك، تم التحفظ عليها من قِبَل النيابة العامة، فيما كان القضاة متسامحين بشأنها.

١١٢ - الشقيقتان الطيبتان: السطر ٢ (١٨٥٧):

سَخِيَّتَانِ بِالْقُبُلَاتِ، قَوِيَّتَانِ فِي الصِّحَّةِ،

١١٣ - ينبوع الدم: ثمة مخطوط أصلي، بتاريخ ١٨٥٢

السطر ٢ (١٨٥٢): ... فِي دَفَقَاتِ هَادِئَةٍ.

السطر ٩ (١٨٥٢): خُمُورًا جَيِّدَةً

السطر ١١ (١٨٥٢): لَكِنَّ الْخَمْرَ تَجْعَلُ الرُّؤْيَةَ ...

السطر ١٤ (١٨٥٢): ... إِلَى هَذِهِ الْفَتَيَاتِ الْمُقَرَّرَاتِ!

١١٤ - صورة رمزية:

السطر ٣ (بروفة ١٨٥٧): سِهَامُ الْحُب ...

السطر ٧ (بروفة ١٨٥٧) = السطر ٨ في هذه الترجمة:

فِي مَرَجِهِمَا الْحَزِينِ (أَوْ الْقَاسِي)...

١١٥ - بياتريس: يتساءل بودلير - في المسودات - عن الطريقة الصحيحة لكتابة الاسم «بياتريس»: «فلتلاحظوا أن (Béatrice) فرنسية، و (Beatrice) إيطالية، وأن بياتريس هنا هي - بصورة إجبارية - إيطالية، أي الربة، عشيقه الشاعر». والمقصود: «بياتريس»، حبيبة دانتي.

- «طيف هاملت»: إشارة إلى الانتقاص من قيمته، حيث كان هاملت - هو نفسه - ممثلاً، في جانب من مسرحية شيكسبير. وهكذا يكون الشاعر - لدى الشياطين - ظلاً لممثل يؤدي دوراً مُسبق الإعداد.

السطر ٢٣-٢٥ (١٨٥٧): كَانَ بِمَقْدُورِي - وَكَبِيرَيَّايِ بَارْتَقَاعِ الْجِبَالِ
الَّذِي كَانَ يَتَلَقَّى بِلَا هَزَّةٍ صَدْمَةً مِائَةً شَيْطَانًا! -
أَنْ أُدِيرَ يَبْرُودِي رَأْسِي السَّامِيَّةَ،

١١٦ - رحلة إلى سيثيريا: ثمة مخطوط أصلي للقصيدة بتاريخ ١٨٥٢ وقد نُشرت القصيدة في «روفي دي دو موند»، في الأول من يونيو ١٨٥٥

وفي هامش المخطوط، كتب بودلير: «نقطة انطلاق هذه القصيدة بضعة أبيات لجيرار (دي نرفال) سيكون جيداً العثور عليها». والعمل المقصود لنرفال هو «رحلة إلى سيثيريا»، المنشور في «لارتيست» من ٣٠ يونيو إلى ١١ أغسطس ١٨٤٤؛ ويحكى نرفال فيه أنه خلال سيره على طول ساحل «سيريجو» (سيثيريا القديمة)، لمح مشنقة بثلاثة فروع.
والعنوان هو عنوان لوحة لواتو.

السطر ١ (١٨٥٢): قَلْبِي، كَعُصْفُورٍ، كَانَ يُحَلِّقُ فِي فَرَحٍ
(١٨٥٥، ١٨٥٧): قَلْبِي كَانَ يَتَبَخَّرُ مِثْلَ مَلَاكٍ فَرِحَ،

السطر ٤ (١٨٥٢): كَعُصْفُورٍ يَسْكُرُ بِشَمْسٍ سَاطِعَةٍ،

السطر ١٥-١٦ (١٨٥٢، ١٨٥٥): حَيْثُ كُلُّ الْقُلُوبِ الْفَانِيَةِ فِي الْعِشْقِ

تَتْرُكُ تَأْثِيرَ الْبُخُورِ عَلَى حَدِيقَةٍ مِنْ زُهُورِ

السطر ٢٢ (١٨٥٢، ١٨٥٥): حَيْثُ الْكَاهِنَةُ الشَّابَّةُ شَارِدَةٌ وَسَطَ الزُّهُورِ

السطر ٢٤ (١٨٥٢، ١٨٥٥، وبروفة ١٨٥٧): فَاتِحَةً ثَوْبَهَا إِلَى نَسَائِمٍ وَاهِيَةٍ؛

السطر ٣٠-٣١ (١٨٥٢): كَانَتْ تَلْتَهُمْ بِاهْتِجَاجٍ جُذْمَانٌ مَشْنُوقٍ نَاضِجٍ،

وَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ يَغْرِسُ مِنْقَارَهُ الْمُلُوثَ حَتَّى الْعَيْنَيْنِ

السطر ٣٥-٣٦ (١٨٥٢): أَصْبَحَ عُضْوُ الْجِنْسِ مَلْدَاتِهِمْ

وَقَدْ خَصَّاهُ الْجَلَادُونَ فِي قَسْوَةٍ.

السطر ٤٣ (١٨٥٢): عَنْ مُعْتَقَدَاتِكَ الْقَدِيمَةِ

السطر ٤٥ (١٨٥٢، ١٨٥٥، وبروفة ١٨٥٧):

أَيُّهَا الْمَشْنُوقُ الْبَائِسُ الْأَبْكَمُ، عَذَابَاتُكَ عَذَابَاتِي!

السطر ٥٨ (١٨٥٢): غَيْرِ مِشْقَةٍ مُقَرَّرَةٍ (هكذا) شَنَقْتَ صُورَتِي.

١١٧ - الحب والجمجمة: نُشرت - للمرة الأولى - في «روفي دو دو موند»، في الأول من يونيو ١٨٥٥ وتمثل القصيدة وصفاً ما للنقوش المحفورة على قاعدة القنديل.

السطر ٩ (١٨٥٥): الْكُرَّةُ الْمُتَمِجَّةُ وَالْهَشَّةُ

تمرد

١١٨ - إنكار سان - بيير: تعتمد القصيدة على القصة الواردة بالأناجيل الأربعة. وثمة مخطوط أصلي للقصيدة بتاريخ ١٨٥٢ ونشرت - للمرة الأولى - في «روفي دي باريس». وقد وضع بودلير - في صدر قسم «تمرد» من طبعة ١٨٥٧ لـ «أزهار الشر» - الملاحظة التالية: «من بين القصائد التالية، فإن أكثرها تميزاً قد نشرت من قبل في إحدى المجموعات الرئيسة بباريس، حيث لم تُعتبر - من قِبَل أرباب

العقول - إلا كما هي حقًا: معارضة لبراهين الجهل والخوف. ومخلصًا لبرنامجه المؤلم، فقد احتاج مؤلف «أزهار الشر»، كممثل بارع، إلى تعويد عقله على كل الصوفيات مثلما على كل المفاسد. وهذا الإعلان حسن النية لن يمنع بلا شك الانتقادات التزيهة من وضعه ضمن رجال لاهوت الرعاع واتهامه بأنه أسف على مخلصنا يسوع المسيح، على الضحية الأبدية الطوعية، وهو دور مُدَّع، دور لأتيلان نصير للمساواة ومخرب. وأكثر من واحد سيوجهون بلا شك إلى السماء أفعال الفضائل المألوفة للفريسي: «الشكر لك، يا رب، على أنك لم تسمح بأن أكون مثيلاً لهذا الشاعر الشائن!».

وقدم أنطوان آدام (Les Fleurs du Mal, Garnier 1959) تفسيرًا تاريخيًا للقصيدة يقوم على أساس إزالة الوهم المتولدة من انقلاب ٢ ديسمبر ١٨٥١

السطر ٣ (المخطوط): كَطَاغِيَّةٌ شَرِّهِ لِلْحَمِّ..

«روفي دي باريس»: كَطَاغِيَّةٌ مُتْرَعٌ بِاللَّحْمِ

السطر ٤ (المخطوط): ... لِتَجْدِيفِنَا الْمُخْزَنَ.

«روفي دي باريس»: لِتَجْدِيفِنَا الْكَيْبَ.

السطر ٢٢ (المخطوط وروفي دي باريس):

عِنْدَمَا كُنْتُ قَدْ أَتَيْتَ لِتُحَقِّقَ ...

السطر ٢٣ (المخطوط): عِنْدَمَا وَطَأْتُ، (امْتَطَيْتَ: مشطوبة) مُتَبَوِّئًا

١١٩ - هايبيل وقايل: تعرضت شخصيتا هايبيل وقايل - وفقا لنسخة «العهد القديم» - لإعادة تأويل واسعة ومكثفة خلال الحقبة الرومانتيكية الفرنسية، على نحو ما فعل بلزاك وجيرار دي نرفال. ورصد أنطوان آدام (١٩٥٩) «أنه طالما جعل من قايل مترحلاً ومن هايبيل مقيماً، فذلك ما يعني - بالضبط - عكس ما يقول به «سفر التكوين»؛ فالحديد رمز هايبيل العامل، وينبغي تفسيره بأنه نصل المحراث، والحربة هي رمز قايل الصيد. ويعلن بودلير انتصار التمرد العمالي».

السطر ١٢ (بروفة ١٩٥٧): تَصْرُخُ مِنَ الْجُوعِ مِثْلَ كَلْبٍ بَائِسٍ.

السطر ١٥ - ١٦ (بروفة ١٨٥٧): يَا جِنْسَ قَائِلٍ، فِي (كَهْفٍ: مشطوبة)...

(فَلْتَكْمِلْ مَصِيرَكَ الْأَخِيرَ: مشطوبة)

فَلْتَرْتَجِفْ مِثْلَ ابْنِ آوَى عَجُوزًا!

السطر ١٧ - ٢٠ (١٨٥٧): يَا جِنْسَ هَائِلٍ، فَلْتَسْكَثِرْ بِلَا خَوْفٍ!

فَحَتَّى النُّقُودُ تُنْجِبُ ذُرِّيَّةَ.

يَا جِنْسَ قَائِلٍ، وَقَلْبُكَ مُشْتَعِلٌ،

فَلْتُطْفِئِ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْقَاسِيَّةَ.

١٢٠ - ابتهالات الشيطان: السطر ٨ (بروفة ١٨٥٧، الصيغة الأولى مشطوبة):

الْمُوَاسِي الْقَوِي لِلْأَلَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ

(١٨٥٧): الطَّيِّبُ الْحَبِيبُ لِلْعَذَابَاتِ ...

السطر ١٠ (١٨٥٧): يَا مَنْ، حَتَّى لِلْمُحْتَقَرِينَ، تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ الْمَلْعُونَةِ

السطر ١٦ (١٨٥٧): أَنْتَ الَّذِي تَسْتَطِيعُ مَنْعَ تِلْكَ النَّظَرَةِ

السطر ٢٢ (١٨٥٧): ... تَعْرِفُ التَّرْسَانَةَ السَّرِيَّةَ

السطر ٢٨ (١٨٥٧): أَنْتَ الَّذِي تَذْهِنُ بِالْبَلْسَانِ وَالزَّيْتِ الْعِظَامِ الْعَجُوزِ

السطر ٣٤ - ٣٥ (بروفة ١٨٥٧): أَنْتَ الَّذِي تَضَعُ تَوْقِيعَكَ، أَيُّهَا الْمُتَوَاطِئُ

الْبَارِعِ،

عَلَى جَبِينِ الصَّيْرِ فِي الْوَعْدِ الْقَاسِيِ،

السطر ٣٨ (بروفة ١٨٥٧): حُبَّ الْجَرْحِ، إِيْمَانًا بِالْخَرَقِ،

صلاة: هذا العنوان الفرعي ورد في طبعة ١٨٦١

الموت

لم يكن هذا القسم الأخير من «أزهار الشر» يتضمن - في طبعة ١٨٥٧ -

غير ثلاث قصائد. وفي طبعة ١٨٦١، يتغير هذا القسم بصورة جذرية، على ما تشهد به قصيدة «الرحلة»: فالمعرفة المسبقة بالهاوية الأخيرة تملأ بالأس الحياة الحاضرة، التي تفتقر - من جانبها - إلى الكثير من الأسس حتى تمنح أي سند لحلم اليقظة بوجود آخر.

١٢١ - موت المحبّين: نُشرت - للمرة الأولى - في «لو ميساجيه دي لاشومبليه»، في ٩ أبريل ١٨٥١

السطر ٣ (١٨٥١): وَزُهُورٌ عَظِيمَةٌ فِي أَحْوَاضِ زُهُورٍ،

السطر ١٠ - ١١ (١٨٥١): سَتَبَادُلُ آهَةٌ وَحِيدَةٌ،

وَمِثْلُ وَفَضَّةٍ بَرَقَ تَفِيضُ الْوَدَاعِ؛

السطر ١٢ (١٨٥١): إِلَى أَنْ يَأْتِيَ مَلَاكٌ

السطر ١٣ (١٨٥١): يَأْتِي لِيُحْيِي، فِي إِخْلَاصٍ وَرِعَايَةٍ،

١٢٢ - موت الفقراء: ثمة مخطوط أصلي للقصيدة بعنوان «الموت»، يحمل تاريخ ١٨٥٧

السطر ١ (١٨٥٢، ١٨٥٧): هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي يُعْزِي وَالْمَوْتُ الَّذِي يَمْنَحُ الْحَيَاةَ؛

السطر ٢ (١٨٥٧): الَّذِي يُثِيرُنَا وَيُسْكِرُنَا، مِثْلَ إِكْسِيرِ سَمَاوِي،

السطر ٦ (١٨٥٢): هُوَ الْمِصْبَاحُ الْمُتَوَهِّجُ فِي

١٢٣ - موت الفنانين: نشرت - للمرة الأولى - في «لو ميساجيه دي لاشومبليه»، في ٩ أبريل ١٨٥١ وهي نسخة مغايرة تماماً للنص المنشور في طبعتي ١٨٥٧ و١٨٦١ من الأزهار. وها هو النص القديم كاملاً:

لَا بُدَّ مِنَ الْمَسِيرِ طَوِيلًا وَسَحْقِ الْحَصَى

فِي الْجِبَالِ وَالْوُدَيَانِ وَاسْتِزَافِ دَابَّتِهِ

لِلْعُثُورِ عَلَى مَلَاذٍ فِيهِ الطَّيِّعَةُ الطَّيِّبَةُ

تَدْعُو فِي النَّهْيَةِ الْقَلْبَ إِلَى الْيَمَاسِ الرَّاحَةِ.

لَا بُدَّ مِنْ اسْتِهْلَاكِ جَسَدِهِ فِي أَشْغَالٍ غَرِيبَةٍ،
مِنْ عَجَنِ الْكَثِيرِ مِنَ الطِّينِ الْمُلَوَّثِ بَيْنَ يَدَيْهِ،
قَبْلَ الْإِلْتِقَاءِ بِالشَّخْصِ الْمِثَالِيِّ
الَّذِي تُفْعِمُنَا رَغْبَتُهُ الْكَثِيرَةُ بِالْأَهَاتِ.

هُنَاكَ مَنْ لَمْ يَعْرِفُوا أَبَدًا مَعْبُودَهُمْ،
وَهَؤُلَاءِ النَّحَاتُونَ الْمَلَاعِينُ الْمُؤَسُّومُونَ بِالْعَارِ،
الَّذِينَ يَمُضُونَ فِي تَمْزِيقِ صُدُورِهِمْ وَجِبَاهِهِمْ،
لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِمْ إِلَّا أَمَلٌ وَحِيدٌ يُعْزِيهِمْ كَثِيرًا،
هُوَ الْمَوْتُ، الَّذِي يُحَوِّمُ مِثْلَ شَمْسٍ جَدِيدَةٍ،
مَا سَيَدْفَعُ أَزْهَارَ عُقُولِهِمْ إِلَى التَّفَتْحِ.

١٢٤ - نهاية النهار: نُشِرت في (elcèiS °XIX ud euveR)، في الأول من يناير ٧٦٨١.

١٢٥ - حلم شخص فضولي: تعرف بودلير على نادار عام ٤٤٨١. وفي رسالة إلى ناشره بوليه - مالاسي، يقول بودلير: «أعطيت السنوات مساء أمس إلى نادار، وقد قال لي إنه لم يفهم منها أي شيء؛ لكن ذلك يرجع بلا شك إلى الكتابة، وستجعلها حروف المطبعة أكثر وضوحًا».

من ناحية أخرى، يكتب بودلير عن نادار: «نادر، التعبير الأكثر إدهاشًا عن الحيوية.. إنني غيورٌ منه عندما أراه ينجح تمامًا في كل ما ليس بالمجرد»،

(Baudelaire, *Mon cœur mis à nus*, XXIX, *ŒUVRES COMPLÈTES*, Édition Robert Laffont, Paris, 1999, p. 417).

وهناك مخطوطان للقصيدة (أ)، (ب)، يرجعان إلى ١٨٦٠

العنوان (أ): حلم الفضولي . الإهداء: إلى السيد فيلكس نادار .

السطر ١ - ٢ (أ): أَتَعْرِفُ، مِثْلِي، الْأَكَمَ الْعَذْبَ،

وَكَثِيرًا مَا يُقَالُ عَنْكَ: «يَا لَهُ مِنْ رَجُلٍ فَرِيدٍ!»؟

(أ): صيغة مشطوبة: هَلْ عَرَفْتَ، قُلْ لِي، الْأَكَمَ الْعَذْبَ

وَكَانَ يُقَالُ عَنْكَ: «...»

(ب): أَتَعْرِفُ، مِثْلِي، الْأَكَمَ الْعَذْبَ؟

وَكَثِيرًا مَا يُقَالُ عَنْكَ: «يَا لَهُ مِنْ رَجُلٍ فَرِيدٍ!»؟

السطر ٩ (أ): كُنْتُ كَالطُّفُولَةِ، الشَّرْهَةِ

السطر ١٠ (أ)، صيغة مشطوبة: وَالَّذِي يَكْرَهُ السَّتَارَةَ

السطر ١١ - ١٣ (أ): لَكِنْ إِذَا بِفِكْرَةٍ غَرِيبَةٍ أَرْعَبْتَنِي:

كُنْتُ مَيِّتًا، يَا لِلْمُعْجَزَةِ، وَالْفَجْرِ الرَّهِيبِ

كَانَ قَدْ لَفَّنِي.. «مَاذَا؟ أَقُولُ لِنَفْسِي آتِنِي، أَلَيْسَ غَيْرُ هَذَا؟»

١٢٦ - الرحلة: في فبراير ١٨٥٩، كتب بودلير هذه القصيدة الطويلة، التي «تبث الرعب في الطبيعة، وفي هواة التقدم بالذات»، على نحو ما أُسْرَ إلى أسيلينو في ٢٠ فبراير من العام نفسه. وهناك نسخة ترجع إلى ١٥ فبراير ١٨٥٩، تقريبًا، من مطبعة بلاكار في أونفلير، التي كان بودلير يقيم فيها في ذلك الحين. وتمثل القصيدة ختام طبعة ١٨٦١ من الأزهار.

وقد كان مكسيم دي كام من كبار الرَحَّالَةِ، لكنه كان - من ناحية أخرى - مشهورًا بأنه المنشد المطلق للتقدم. وفي رسالته إلى دي كام - التي ضمت القصيدة - كتب بودلير إليه: «إن أزعجتك النبرة البايرونية (نسبةً إلى الشاعر الإنجليزي بايرون) بصورة منهجية لهذه القصيدة الصغيرة، وإذا ما صُدمت - على سبيل المثال - بدعاباتي ضد التقدم، أو باعتراف الرحالة بأنه لم ير سوى التفاهة، أو في النهاية بأي شيء، فلتخبرني دون حرج..»

وفي نسخة بلاكار، يضم القسم الرابع كلاً من الأجزاء الرابع والخامس والسادس من نص طبعة ١٨٦١ الذي لم يكن مؤلفاً إلا من ستة أقسام عام ١٨٥٩

- أكل اللوتس المعطر: في قصيدة «المقامر الكريم» - في «سأم باريس» - يستحضر بودلير الغبطة التي يستشعرها كل من يأكل اللوتس.

- فلتسبح إلى حبيبك إليكترا: كان بودلير يحب التشبه بأوريس، حتى تهدئه شقيقته المتخيلة إليكترا. ففي نهاية الإهداء الوارد بـ «فراديس اصطناعية»، يكتب بودلير: «سترى، في هذه اللوحة رحالةً كثيلاً ومنعزلاً مغموراً في اللجة المائجة للجماهير، مرسلاً قلبه وفكره إلى إليكترا بعيدة كانت تجفف مؤخراً جبينها المستحم في العرق وترطب شفيتها اللتين جعلتهما الحمى شبيهتين بالرق؛ وستنبأ بعرفان أوريس آخر كثيراً ما كنت تسهر على كوابيسه».

٤

السطر ٦٣ (بلاكار): ... رَغْبَةً مُتَّقَدَةً
السطر ٦٥ (بلاكار): الْمَشَاهِدُ الطَّبِيعِيَّةُ الْأَنْدَى

٦

السطر ٩١ (بلاكار): وَالرَّجُلُ، السَّيِّدُ النَّهْمُ،
السطر ٦٩ (بلاكار): وَالشَّعْبُ الْهَآوِي لِلْسَّوْطِ الْمُتَوَحِّشِ؛

٧

السطر ١١٣ (بلاكار): أَيْنَبِغِي الْبَقَاءُ؟ أَمْ الرَّحِيلُ؟
السطر ١١٦ (بلاكار): ... هُنَاكَ (أَرْوَاحُ، صُجُرٌ، شُهَدَاءُ - ثلاثة بدائل مشطوبة) رَاكِضُونَ ...
السطر ١٣٥ (بلاكار): صِيغَةُ مَشْطُوبَةٍ: لِتَهْدِيَةِ قَلْبِكَ ...

البقايا (١٨٦٦)

في فبراير أو مارس ١٨٦٦، أصدر بوليه - مالا سي، في بروكسيل، «بقايا شارل بودلير»، في ٢٦٠ نسخة، بغلاف لفيليسيان روب. ويتضمن الديوان «تنبيه من الناشر»، بقلم بوليه - مالا سي، والقصائد الست المُدانة قضائياً، مع ست عشرة قصيدة مختلفة، إضافةً إلى «فرانيسكا ماي لود».

وكان بودلير متردداً - بشأن اختيار العنوان - بين ثلاثة عناوين: فُتات، صفحات متبقية، البقايا.

وقد أُدين الديوان من قبل محكمة الجُنج بمدينة «ليل»، في ٦ مايو ١٨٦٨

١ - غروب الشمس الرومانتيكية: كُتبت هذه القصيدة عام ١٨٦٢، لتُستخدم خاتمةً لكتاب «متفرقات مستمدة من مكتبة رومانتيكية صغيرة» لشارل أسيلينو، ديسمبر ١٨٦٦ كما نُشرت القصيدة في «لو بولفار» (Le Boulevard)، في ٢١ يناير ١٨٦٢، قبل نشرها في الكتاب.

والعنوان في «متفرقات..» أسيلينو: شمس غاربة. سوناتا - ختام.

- الليل القاهر (سطر ١٠): ذلك فيما يبدو تشخيص بودلير للحالة القائمة للأدب، وقت كتابة القصيدة.

- ضَفَادِعٌ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ وَحَلَزُونَاتٍ بَارِدَةٍ (السطر الأخير): إشارة إلى الكتاب - الأعداء لبودلير.

السطر ٣ (١٨٦٢، ١٨٦٣): سَعِيدٌ أَيْضًا ذَلِكَ الَّذِي

قصائد مدانة محذوفة من «أزهار الشر»

٢ - ليسبوس: نُشرت عام ١٨٥٠، ضمن «شعراء الحب»، مختارات لجوليان لومير.

السطر ٨ (١٨٥٠): وَالَّتِي تَمْضِي، مُتَأَوِّهَةً

السطر ٤٤ (١٨٥٠): لِلصَّحِكَاتِ السَّاطِعَةِ الْمَمْزُوجَةِ ...

السطر ٤٧ (١٨٥٠): ذِي عَيْنٍ مُخْلِصَةٍ وَوَائِقَةٍ،

السطر ٥٦ - ٦٠ (١٨٥٠): عَنْ سَافُو الرُّجُولِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عَاشِقَةً وَشَاعِرَةً،

الْأَجْمَلَ مِنْ فِينُوسٍ فِي شُحُوبِهَا الْكَيْبِ،

الَّتِي لَا تَضَاهِي عَيْنُهَا الزَّرْقَاءَ هَذِهِ الْعَيْنَ السَّوْدَاءَ

الَّتِي تُبْرِقُشُ الْمَدَارَ الْغَامِضَ الَّذِي خَطَّتُهُ السَّعَادَةُ.

عَنْ سَافُو الرُّجُولِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عَاشِقَةً وَشَاعِرَةً.

السطر ٧٠ (١٨٥٠، ١٨٥٧): عَنْ سَافُو الَّتِي مَاتَتْ

السطر ٧٣ (١٨٥٠): فَهِيَ تَسْمَعُ كُلَّ لَيْلَةٍ الْآيِنَ الْخَوَّارَ

٣ - نساء ملعونات:

السطر ٤١ (بروفة ١٨٥٧): آتِيذٍ، وَهِيَ تُعِيدُ رَفَعَ السَّرَاسِ

السطر ٩٤ (بروفة ١٨٥٧): أَبْخَرَةٌ فَاسِدَةٌ خَطِرَةٌ

السطر ٩٥ (١٨٥٧، ١٨٤٦) = السطر ٩٤ في هذه الترجمة: تَمْتَدُّ ...

٤ - ليثيه: قصيدة مستلهمة - في الغالب - من جين دوفال.

السطر ١٠ (١٨٥٧): فِي رُقَادٍ مُرِيبٍ مِثْلَ الْمَوْتِ،

٥ - إلى تلك المبتهجة للغاية: ثمة مخطوط للقصيدة ضمن رسالة بلا توقيع إلى

السيدة ساباتييه، في ٩ ديسمبر ١٨٥٢ وقد كتب إليها بودلير: «الشخص الذي

كُتِبَ له هذه الأبيات، سواء أعجبته أم أزعجته، حتى لو كانت ستبدو له بلهاء

تمامًا، أتوسل إليه بكل تواضع ألا يريها لأي أحد. فالمشاعر العميقة لها حياة لا

يريد انتهاكه. وغياب التوقيع أليس عَرَضًا لهذا الحياء؟ وَمَنْ كتب هذه الأبيات

في إحدى حالات حلم اليقظة، حيث كثيرًا ما يضع فيها صورة المرأة التي تمثل

الذات التي أحبها حقًا بعمق، دون أن يخبرها أبدًا، والتي سيُكِنُّ لها دائمًا أَرْهَفَ

الشعور...».

وفي «البقايا»، استدعى البيت الأخير - حسب الصيغة النهائية - أن يعلق

الناشر بالملاحظة التالية: «لقد اعتقد القضاة أنهم اكتشفوا معنى دمويًا وإباحيًا -

في آن - في المقطعين الأخيرين. إن رصانة الديوان كانت تستبعد دعايات من هذا القبيل. لكن السُّم الذي يعني السَّام أو الكآبة كان فكرةً أبسط من أن يدركها القانونيون الجنائيون. فلعل تفسيرهم السفلسي (نسبةً إلى مرض السفلس الجنسي) أن يبقِيهم خارج الشعور!.

السطر ٦: مُضِيٌّ بِالْعَافِيَةِ

السطر ١١: فِي أَرْوَاحِ الشُّعْرَاءِ

السطر ١٨: أُجْرِجِرُ فِيهَا عَدَائِي،

السطر ٢٧: نَحْوَرَوَائِعِ

السطر ٢٣ = السطر ٢٤ من هذه الترجمة: أَيَّتُهَا الْعُدُوْبَةُ الشَّهِيَّةُ!

السطر ٣٦: أَبْتُ فِيكَ دَمِي

٦ - الجواهر: في نسخة لم يتم العثور عليها، لكن ي. - ج لو دانتيك أشار إليها، أضاف بودلير مقطعاً يعبر فيه عن «الأمنية التي أضمرتها الذات في الخلفية، والتي لا تتجلى في القصيدة إلا كرجبة تشكيلية». ويمكن مقارنة «الجواهر» بلوحات ديلاكروا، وخاصةً لوحة «المرأة ذات الببغاء» (متحف الفنون الجميلة بمدينة ليون).

السطر ٢٦: يدفعنا إلى التفكير في لوحة «أنثيوب» لكورييج (متحف اللوفر).

٧ - تحولات مصاصة الدماء: ثمة مخطوط أصلي يرجع إلى عام ١٨٥٢

العنوان (١٨٥٢): قربة الشهوة.

السطر ٣ (١٨٥٢): وَهِيَ تُعَذِّبُ فَخَذَهَا بِحَدِيدٍ مَشْدَاتِهَا،

السطر ٥ (١٨٥٢): نَعَمْ، لَدَيَّ ...

السطر ١١ (١٨٥٢): وَأَنَا بَارِعَةٌ لِلْعَايَةِ فِي الشَّهَوَاتِ،

السطر ١٢ (١٨٥٧): ... فِي ذِرَاعِي الْمَخْمَلِيَّتَيْنِ،

السطر ٢٥-٢٦ (١٨٥٢): كَانَتْ تَضْطَجِعُ فِي ارْتِبَاكِ بَقَايَا هَيْكَلٍ عَظْمِي،
يَصْدُرُ مِنْهَا صَوْتُ دَوَّارَةِ هَوَاءٍ.

غزليات

٨ - النافورة: نُشرت في «لا بوتيت روفي» (La Petite Revue)، في ٨ يوليو ١٨٦٥؛
وفي «لو بارناس كونتومبوران» (Le Parnasse contemporain)، ١٣ مارس
١٨٦٦

اللازمة (١٨٦٥): تنويع مذكورة في ملاحظة:

بَاقَةُ الْمَاءِ الَّتِي تُهْدِدُ
وُزُودَهَا الْأَلْفُ
الَّتِي يَعْبُرُهَا الْقَمَرُ
بِأَضْوَائِهِ
تَسَاقُطُ مِثْلَ وَابِلٍ
مِنْ دُمُوعٍ كَبِيرَةٍ.

السطر ١٦ (لو بارناس كونتومبوران): بَرَقَ الشَّهَوَاتِ الْحَيِّ

السطر ١٨ (تنويع مشار إليها في ملاحظة): نَحْوَ الْقَبَابِ الزَّرْقَاءِ الْمَسْحُورَةِ.

اللازمة الختامية، السطر ٣ (١٨٦٥): حَيْثُ الْقَمَرُ الْمُبَارَكُ

٩ - عينا برت: ثمة نسخة أصلية مؤرخة: «بروكسيل، ١٨٦٤». ولا معرفة بهوية
«برت». وقد رسم لها بودليير ثلاثة بورتريهات، من بينها واحد - صورة جانبية
للوجه - أرفقت به هذه الجملة والإهداء بالتاريخ نفسه: «وعندما كنت أنظر إلى
الغيوم عبر النافذة المفتوحة، خلال العشاء، قالت لي: هيّا فلتتناول حساءك
سريعًا، يا تاجر الغيوم المقدس!

إلى حمقاء صغيرة مفرعة، ذكرى من أحرق كبير كان يبحث عن فتاة للتبني،
وما درس أبدًا شخصية برت، ولا قانون التبني».

١٠ - ترنيمة: ثمة مخطوط أصلي للقصيدة، ضمن رسالة موجهة إلى السيدة ساباتييه،

بتاريخ ٨ مايو ١٨٥٤، حيث يقول بودلير في الرسالة: «أنتِ بالنسبة لي لا أكثر النساء فتنةً فحسب، من بين كل النساء، بل أيضًا أغلى وأثمن الخرافات. - إنني أناني، وأنا أستخدمك (...)).»

السطر ١١ (١٨٥٤): مَبْخَرَةٌ مَلِيَّةٌ دَائِمًا تَشْتَعِلُ

السطر ١٨ - ٢٠ (١٨٥٤): الَّتِي صَبَّتْ عَلَيَّ الْبُهْجَةُ وَالْعَافِيَةُ،

سَلَامًا فِي الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ،

فِي الشَّهْوَةِ الْأَبَدِيَّةِ!

١٢ - الوحش: كل التنويعات التالية مستمدة من المخطوط:

السطر ١٨: فَأَجِدُ لَا أَعْرِفُ أَيَّ مَذَاقٍ (هكذا).

- القرع (سطر ٢٢): سأل بودلير ناشره بوليه - مالا سي عن المعاني التصويرية لمثل هذه الكلمة: «أيمكن أن تنطبق مجازيًا على كل التواءات مثل الأثداء والأرداف وبشكل عام السمينة؟».

السطر ٢٤: عِظَامُ نَحْرِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ: عنوان كتاب في السحر منسوب إلى الملك سليمان.

السطر ٥٠: كتب بودلير في البداية، ثم شطب:

(بَشَرْتُكَ الْمُشْعِرَةَ لَهَا رِقَّتُهَا!)

السطر ٦٤، ملاحظة: «في الاحتفال بالقداس الأسود. كم أن هؤلاء الشعراء مؤمنون بالخرافات! (ملاحظة للناشر)».

السطر ٦٦: إِنَّنِي مَغْمُومٌ بِصُورَةِ شَيْطَانِيَّةٍ بِالْعَةِ

نقوش

١٤ - أبيات لبورترية: في رسالة إلى شامفلوري، بتاريخ ٢٥ مايو ١٨٦٥، كتب له بودلير: «لقد أردت أن أقول إن العبقرية الهجائية لدوميه لا علاقة لها أبدًا بالعبقرية الشيطانية: جيدٌ أن يقال ذلك، في زمن شهد استبدال بورترية شخصيات معينة - يسوع المسيح على سبيل المثال - بأغبياء متفعين...»

وفي اليوم التالي، كتب بودلير إلى شامفلوري رسالة أخرى تضمنت النص النهائي للقصيدة؛ وقد نشرت في «تاريخ الكاريكاتير الحديث»، لشامفلوري، في نوفمبر ١٨٦٥

وفي «البقايا»، كانت القصيدة مرفقةً بالملاحظة التالية: «كُتبت هذه المقاطع الشعرية لبورترية السيد دوميه، المحفور وفقاً للميدالية الرائعة للسيد باسكال، وأعيد طبعه في الجزء الثاني من «تاريخ الكاريكاتير» للسيد شامفلوري، حيث أعاد هذا الكاتب الحق إلى الرسام بالبرهان المتوقد. (ملاحظة من الناشر)».

السطر ١١ - ١٢ (رسالة ٢٥ مايو): تَحْتَ السَّوْطِ الْحَيِّ لِأَيِّكُتُو
الَّذِي يُمَزِّقُهُمْ وَيُثْلِجُنَا.

السطر ١٤ (الرسائل): ... الطَّاقَةُ الْوَحْشِيَّةُ؛

١٥ - لولا دي فالونس: ثمة مخطوط أصلي يرجع إلى عام ١٨٦٢، وحفر أصلي مستمد من لوحة لمانيه: في الأسفل أبيات بودلير. ولولا دي فالونس راقصة شهيرة في ذلك الحين.

وفي «البقايا»، رافقت القصيدة هذه الملاحظة: «تم تأليف هذه الأبيات لتُستخدم كنقش في بورترية رائع للأنسة لولا، راقصة الباليه الإسبانية، للسيد إدوارد مانيه الذي تسبب في فضيحة، شأن كل لوحات الفنان. - وربة إلهام شعر السيد شارل بودلير هي محل شبهة بصورة عامة، إلى حد أنه التقى بنقاد الحانة ليكتشف معنى إباحياً في الجوهرة الوردية والسوداء. ونحن نعتقد أن الشاعر إنما أراد ببساطة القول إن جمالاً ذا شخصية ظلامية ولعوب في آن كان يدفع إلى الحلم بوحدة الوردية والظلام (ملاحظة من الناشر)». وقد كتب الملاحظة بودلير.

وكان بعضهم قد قام بتأويل كلمة «الجوهرة» بمعنى مزدوج ينطوي على ما يشير الشبهة أخلاقياً.

١٦ - عن «لو تاس سجيناً»: ثمة مخطوط للقصيدة يرجع إلى فبراير ١٨٤٤، موقع باسم بودلير - دوفايي.

وبالإضافة إلى مسرحية «توركواتو تاسو» لجوته (١٧٩٨)، فقد كتب بايرون - شاعر الرومانسية الإنجليزية - «مراثي تاس»، باعتباره سلفاً للشعراء الملعونين، حيث مثلت القصيدة تجسيداً نموذجياً للشاعر الغارق في الاكتئاب والجنون. وهناك ثلاث لوحات لديلاكروا والكثير من الرسوم التحضيرية حول موضوع «لو تاس»، الذي كان مشغولاً به في الفترة ١٨٢٣ - ١٨٢٧. وكانت لدى بودلير - المعتاد على زيارة أتيليه الفنان - فرصة مشاهدة هذه الأعمال.

السطر ١ - ٣: الشاعِرُ فِي الزَّنَانَةِ، سَيِّءُ الْهِنْدَامِ، سَيِّءِ النَّعَالِ،

مُمَرِّقًا تَحْتَ أَقْدَامِهِ مَخْطُوطًا بَالِيًا،

يَقِيسُ بِنَظَرَةٍ يُشْعِلُهَا الْجُنُونُ

السطر ٨: وَالْهَلْعُ الطَّوِيلُ يُحِيطُ بِهِ.

السطر ٩ - ١٤: هَذَا السَّجِينُ الْكَنِيبُ، الْمَمْرُورُ وَالْمَوْبُوءُ،

الَّذِي يَعْكَفُ عَلَى صَوْتِ الْأَحْلَامِ،

الَّتِي تُدَوِّمُ حُشُودَهَا، مُهْتَاجَةً خَلْفَ أُذُنِهِ،

هَذَا الْكَادِحُ الْفَقْطُ، الَّذِي يُصَارِعُ دَائِمًا وَيَسْهَرُ،

هُوَ رَمْزُ رُوحٍ، وَأَحْلَامٍ قَادِمَةٍ،

يَسْجِيئُهُ الْمُمَكِّنُ بَيْنَ جُذُرَانِهِ الْأَرْبَعَةِ!

قصائد متنوعة

١٧ - الصوت: نُشِرَتْ - لِلْمَرَّةِ الْأُولَى - فِي «رُوْفِي كُونْتومبورين»، فِي ٢٨ فِبرَاير ١٨٦١؛

وَفِي «لَارْتِيست»، الْأَوَّلُ مِنْ مَارِس ١٨٦٢؛ وَفِي «لُو بَارْناس كُونْتومبوران» فِي

١٣ مَارِس ١٨٦٦

السطر ١٤ (١٨٦١): أَجِيبُ هَذَا الصَّوْتِ الْجَمِيلَ: نَعَمْ،

(١٨٦٢): «فِي الْحَالِ وَدَائِمًا!» صَحْتُ. فَاتَّيذْ

السطر ١٨ (لو بَارْناس): ... وَحُوشًا فَرِيدَةً،

١٨ - غير المنتظر: نُشرت القصيدة في «لو بولفار»، في ٢١ يناير ١٨٦٣، مع الإهداء التالي: «إلى صديقي باري دورفي». وكان دورفي قد اختتم مقاله الشهير عن «أزهار الشر» بهذه الجملة: «بعد أزهار الشر، لم يكن هناك أمام الشاعر سوى أمرين يقوم بهما ليصبح واضحًا: إما أن يطلق الرصاص على نفسه... أو أن يكون مسيحيًا!». وقد ردت القصيدة - إلى حدٍّ ما - على ما يقترحه باري.

السطر ٢ (المخطوط، و١٨٦٣): يَقُولُ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ شِفَامَهَا...

السطر ١٣ - ١٤ (المخطوط، و١٨٦٣):

أَعْرِفُ، أَفْضَلَ مِنَ الْجَمِيعِ، شَخْصًا شَهَوَانِيًّا
يَتَنَاءَبُ نَهَارًا وَلَيْلًا

السطر ٢٦ (ملاحظة في «البقايا»): «انظر - فيما يتعلق بالقداس والأرداف - «الساحرة» لميشليه، و«دراسة منفردة للشيطان» لشارل لواندر، و«طقس السحر الرفيع» لإليفا ليفي، وبشكل عام كل المؤلفين الذين يتناولون الشعوذة ودراسة الشيطان والضحك الشيطاني. (ملاحظة من الناشر)».

السطر ٣٠ (١٨٦٣): أَنَّ يَسْحَرَ الْمَرْءَ مِنَ السَّيِّدِ وَيَخْدَعَهُ وَهُوَ مَعِي،

السطر ٤٥ (المخطوط، و١٨٦٣): مَنْ تَقُولُ قُلُوبُهُمْ: «مُبَارَكُ سَوْتُكَ،

١٩ - الفدية: ثمة مخطوط أصلي للقصيدة، يرجع إلى عام ١٨٥٢. وقد أضاف بودلير فيه، بين قوسين، على الصفحة فيما بعد العنوان، هذه الجملة: «تذكر «الاشتراكية المعتدلة» ما ينطبق بشكل خاص على المقطع الخامس»، المحذوف آنثذ من الطباعة (مقطع يرجع إلى قصيدة السنوات ١٨٤٨ - ١٨٥٠):

لَكِنْ يَجِبُ أَلَّا يُرْمَى مِنْ أَجْلِ لَاشَيْءٍ،
مَنْ يَصْلُحُ لِدَفْعِ ثَمَنِ الْعُبُودِيَّةِ،
إِنَّهُمْ سَيَزِيدُونَ مِنْ حِصَّةِ
الْحُرِّيَّةِ الْعُمُومِيَّةِ.

٢٠ - إلى امرأة من مالابار: نُشرت في «لارتيست»، في ٣١ ديسمبر ١٨٤٦ (موقعةً باسم بيير دي فاني). وربما كتبت القصيدة خلال إقامة بودلير في جزيرة موريشيوس، لدى أسرة أوتار دي براجار. وقد استلهمها الشاعر من امرأة في مالابار اسمها دوروتيه، شقيقة مضيفه بالرضاع. وثمة مقارنة بينها وبين قصيدة «إلى سيدة خلاسية»، فيما سبق.

العنوان (١٨٤٦): إلى هندية.

السطر ٢ (١٨٤٦): أَكْثَرَ امْرَأَةٍ بَيْضَاءَ كَبِيرَاءَ

السطر ٤ - ٥ (١٨٤٦): عَيْنَاكَ الْوَاسِعَتَانِ الْهِنْدِيَّتَانِ أَكْثَرُ سَوَادًا مِنْ جَسَدِكَ.

فِي الْمُنَاخَاتِ الْحَارَّةِ الزَّرْقَاءِ حَيْثُ جَعَلَكَ رَبُّكَ تُوَلَّدِينَ،

السطر ١٢ (١٨٤٦): نَعَمَاتٍ عَذْبَةٍ مَجْهُولَةٍ؛

السطر ٢٣ - ٢٤ (١٨٤٦): إِلَى أَنْ تَأْسِفِي عَلَى أَوْقَاتِ فَرَاغِكَ الْعَذْبَةِ الصَّادِقَةِ،

إِذَا مَا كَانَ عَلَيْكَ وَمَشْدُ الْخَضِرِ الْوَحْشِيِّ يَغْتَالُ
ضُلُوعَكَ

السطر ٢٧ (١٨٤٦): وَالْعَيْنُ تَائِهَةٌ بَاحِثَةٌ فِي ضَبَابِنَا الشَّاسِعِ

السطر ٢٨ (١٨٤٦): عَنِ الْأَشْبَاحِ الْمُتَنَائِرَةِ لِأَشْجَارِ جُوزِ الْهِنْدِ الْمَحَلِّيَةِ.

في عام ١٨٤٦، كانت القصيدة تُختتم بالأبيات الستة التالية، مفصولة عن السطر الأخير الحالي بسطر من البياض:

حُبُّ الْمَجْهُولِ، عَصِيرُ التُّفَاحِ الْعَتِيقِ،

الضِّيَاعُ الْقَدِيمُ لِلْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ،

أَيُّهَا الْفُضُولُ، دَائِمًا سَتَدْفَعُهُمْ

إِلَى الْهَجْرَانِ مِثْلَمَا تَفْعَلُ الطُّيُورُ، هَذَا الْجُحُودُ،

مِنْ أَجْلِ سَرَابٍ بَعِيدٍ وَسَمَاوَاتٍ أَقْلَ ازْدِهَارًا،

لِلْبَيْتِ الَّذِي عَطَّرَتْهُ نُعُوشُ آبَائِهِمْ.

هزليات

٢١ - عن بدايات أمانة بوشْتِي: كانت أمانة بوشتي ترقص في بروكسيل في سبتمبر ١٨٦٤، دون تحقيق النجاح الذي كان يتمناه لها بودلير، الذي كتب عنها: «... إنها ترفرف عند شعب يمكن فيه لكل امرأة أن تسحق مليون بيضة بإحدى قدميها التي تشبه قدم فيل».

وقد نشرت القصيدة في «لا في باريسيين» (La vie parisienne)، في الأول من أكتوبر ١٨٦٤، ثم في «لا بوتيت روفي»، في ٣١ مايو ١٨٦٥
السطر ٢ (١٨٦٤): ... تِلْكَ سِنْسِكْرِيَّة.

السطر ٤ (١٨٦٥): ملاحظة «شارع مشهور ببروكسيل».

٢٢ - إلى السيد أوجين فروميتان: يقدم المخطوط هذا الإهداء المشطوب: «إلى السيد فروميتان،

فيما يتعلق بشخص مزعج كان يدعي أنه صديق فروميتان، ودوبيني، وفلاهو، وفاريني، وكورو، والعالم كله، والذي أمسك بتلابيبي، على نحو لم أره قط، في حانة جلوب (في بروكسيل)، لمدة ثلاث ساعات ونصف، لأسمع تاريخه».

٢٣ - حانة مرحلة: السطر ٥ (البقايا): هذا السطر مصحوب بملاحظة في الهامش من الناشر: «الخبث حيلة ظاهرة، حيث يعرف العالم كله أن السيد مونسلية يتخذ حرفة حُب الورد والمرح بهوس (...).».

إضافة من الطبعة الثالثة

لأزهار الشر (١٨٦٨)

أوضحنا - في موضع سابق - أن شارل أسيلينو وتيودور دي بانقيل هما من قاما بالإشراف على الطبعة الثالثة من «أزهار الشر»، بعد وفاة بودلير. وقد تضمنت ٢٥

قصيدة غير منشورة بالطبعة الثانية: إحدى عشرة قصيدة من «البقايا»، وإحدى عشرة أخرى من الدوريات المختلفة، وثلاث قصائد من المخطوطات.

١ - نبذة لكتاب مُدان: نشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي أوروبيين» (La Revue européenne)، ١٨٦١. وهي قصيدة كُتبت - على الأرجح - لتفتح الطبعة الثالثة من «أزهار الشر» التي كان بودلير يزعم إصدارها.

٢ - إلى تيودور دي بانفيل: على الرغم من التاريخ الذي يرافق القصيدة (١٨٤٢) في طبعة ١٨٦٨، فثمة مبرر للاعتقاد أنها ترجع إلى عام ١٨٤٥، حيث أُرِفقت برسالة بودلير إلى بانفيل في ٦ يوليو ١٨٤٥، عقب محاولة بودلير الانتحار بأيام. وكان بانفيل من استخرج هذه القصيدة من مراسلات بودلير إليه، وأدرجها في الطبعة الثالثة من «أزهار الشر»، بعد وفاة بودلير.

٣ - غليون السلام: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي كونتومبورين»، في ٢٨ فبراير ١٨٦١ والقصيدة ترجمة لجزء من «أغنية هياواتا» للونجفيلو (بوسطن ١٨٥٥)، كان قد طلب ترجمتها المؤلف الموسيقي ستوبييل، ثم تخلّى عن فكرة استخدامها.

٤ - صلاة وثني: نشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي أوروبيين»، في ١٥ سبتمبر ١٨٦١

- أُنْغِنِي مِنْ فُولاذ (السطر ٨): كان هوراس يزعم أن قصائده أكثر ديمومة من الفولاذ.

السطر ٩ - ١٠ (١٦٨١): أَيْتُهَا الشَّهْوَةُ! فَلْتَكُونِي أَيْضًا مِلَكَّتِي!

فَلْتَتَّخِذِي شَكْلَ جَنِيَّةٍ بَحْرٍ

٥ - الغطاء: ثمة مخطوط يحمل توقيع ش. بودلير، بتاريخ ١٨٦١

٦ - اختبار منتصف الليل: نُشرت القصيدة - للمرة الأولى - في «لو بولشار»، في الأول من فبراير ١٨٦٣ وقارن بقصيدة «نهاية النهار» فيما سبق من «أزهار الشر»، وقصيدة «في الواحدة صباحًا» من «سأم باريس».

الإهداء (١٨٦٣): إلى جميع أصدقائي.

السطر ١٠ (١٨٦٣): الْأَجْدَرُ بِالْحُبِّ مِنْ بَيْنِ كُلِّ آلِهَةٍ

السطر ٢٧ - ٢٩ (١٨٦٣): نَحْنُ، كَاهِنَ الْقِيَارِ،

بِجُبْنٍ بِالْبَغِ، حَتَّى نَنْسَى،

جَمَالَ الْأَشْيَاءِ الْكُتَيْبَةِ،

٧ - غزلية حزينة: نُشرت - للمرة الأولى في «روفي فانتايزيست» (Revue fantaisiste)،
في ١٥ مايو ١٨٦١

السطر ١٩ (١٨٦١): وَأَظُنُّ أَنَّ جَسَدَكَ يَسْتَضِيءُ

٨ - النذير: نشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي أوروبين»، في ١٥ سبتمبر ١٨٦١

٩ - العاصي: نُشرت - للمرة الأولى - في «لا روفي أوروبين»، في ١٥ سبتمبر
١٨٦١

١٠ - بعيداً عن هنا: نُشرت - للمرة الأولى - في «روفي نوفيل» (Revue nouvelle)، في
الأول من مارس ١٨٦٤

و«دوروتيه» - في هذه القصيدة - هي دوروتيه نفسها في «دوروتيه الجميلة»
الواردة بـ«سأم باريس». وقد تعرف عليها بودلير في جزيرة بوربون. وهي امرأة
أخرى غير «امرأة من مالابار»، التي تعرف عليها بودلير في جزر موريشيوس.

١١ - الهاوية: نُشرت - للمرة الأولى - في «لارتيست»، في الأول من مارس ١٨٦٢
وفي العلاقة مع هذه القصيدة، يكتب بودلير في «مذكرات شخصية»: «في
الأخلاق كما في الفيزيقا، لديّ دائماً الإحساس بالهاوية، لا هاوية النوم
فحسب، بل أيضاً هاوية الفعل، والحلم، والذكرى، والرغبة، والأسف، والندم،
والجميل، والعدد... إلخ.

لقد ربيت هيسيري بمتعة ورعب. والآن لديّ دائماً الدُّوار، واليوم ٢٣
يناير ١٨٦٢، خضعت لإنذار فريد، فقد أحسست بريح جناح البلاهة تمر بي»؛
(Baudelaire, ŒUVRES COMPLÈTES, p.401).

في نسخة عام ١٨٦٢، كانت القصيدة تحمل إهداء: إلى تيوفيل جوتييه.

السطر ١٠ (١٨٦٢): مُمْتَلِئَةٌ بِرُغْبٍ غَامِضٍ ...

١٢ - نواح إيكاروس: نُشرت القصيدة - للمرة الأولى - في «لو بولفار»، في ٢٨ ديسمبر ١٨٦٢

مفتتح (١٨٦٢):

جَوَاهِرُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَنْقَى شُعَاعِ صَافٍ
تَكْشِفُ عَنْ كُھُوفِ الْمُحِيطِ الْمُظْلِمَةِ بِلَا أَغْوَارِ.
زُھُورٌ كَثِيرَةٌ تُولَدُ لِتَتَضَرَّجَ بِالْحُمْرَةِ فِي السَّرِّ
وَتُبَدِّدُ عُذُوبَتَهَا عَلَى الْهَوَاءِ الْقَاحِلِ.

توماس جراي، «مرثية كُتبت في فناء كنيسة ريفية» (١٧٥١)

١٣ - تأمل: نشرت - للمرة الأولى - في «لا روئي أوروبيين»، في الأول من نوفمبر ١٨٦١

١٤ - القمر المُهان: نُشرت - للمرة الأولى - في «لارتيست»، في الأول من مارس ١٨٦٢

بقية أزهار الشر

١ - فُتات: هذه الشذرات نسخت بدقة من قِبل بودلير، لتصبح صالحةً للاستخدام ذات يوم، بلا شك. وقد تمت استعادة بعضها في أشكال معدلة، ضمن سياقات شعرية أخرى.

قصائد الشباب

١ - عاليًا هناك...: قصيدة تتعلق برحلة قام بها بودلير في جبال بيرينيس. والعنوان الذي وضعه لها - لمدة طويلة - هو «التنافر»

٢ - ليست لديّ كعشيق: نُشرت - للمرة الأولى - في «باري ألو - فورت» (Paris à l'eau-forte)، في ١٧ أكتوبر ١٨٧٥، عدا الأبيات ١٩ - ٢٤، التي ستُستعاد في

النشر الثاني للقصيدة، في «لا جين فرانس» (La Jeune France)، يناير - فبراير ١٨٨٤

٣ - (إلى سانت - بيف): مخطوط ضمن رسالة موجهة إلى سانت - بيف. وقد كتب بودلير في الرسالة:

«سيدي،

قال ستاندال في موضع ما - هذا، أو تقريبًا -:

إنني أكتب من أجل عشرة أرواح قد لا أراها أبدًا، لكنني أعشقها دون أن أراها. وهذه الأقوال، سيدي، ليست مبررًا ممتازًا للمزعجين، وأليس واضحًا أن كل كاتب مسئول عن التعاطف الذي يستثيره؟
هذه الأبيات كتبت من أجلك..»

وفي ١٥ مارس ١٨٦٥، يكتب بودلير إلى سانت - بيف من بروكسيل: «بالتأكيد أنت على صواب؛ فجوزيف ديلورم هو أزهار شر الأرق. والتشابه مجيد بالنسبة لي. وستكون من الطيبة بحيث لا تجد ذلك مهينًا لك».

٤ - أيتها المرأة النبيلة: كتبت في ١٨ أكتوبر ١٨٤٤. والقصيدة غير مكتملة.

٥ - في ألبوم السيدة إميلي شوفالييه: نُشرت في «أعمال ما بعد الوفاة»، ١٩٠٨ ويحتمل بعض المحققين أن تكون مقطعًا في قصيدة أخرى كان بودلير يزمع كتابتها للديوان الذي كان يخطط له بعنوان «السحاقيات» (١٨٤٥ - ١٨٤٧).

والسيدة إميلي شوفالييه هي زوجة أحد المساعدين في الصحيفة الهجائية «لو كورسير - ساتان» (Le Corsaire-Satan)، التي كان بودلير يكتب فيها من عام ١٨٤٥ إلى ١٨٤٨

٦ - (إلى هنري إينار): كتب بودلير هذه القصيدة خلال دراسته بالمدرسة الملكية بليون (١٨٣٩).

٧ - وأأسفاه!: كُتبت خلال مرحلة الدراسة بالمدرسة الملكية بليون. وقد نُشرت لأول مرة على يد هنري إينار، الذي كان راعي بودلير بالمدرسة.

٨ - أختي العزيزة: كتب بودلير هذه القصيدة إلى زوجة أخيه غير الشقيق (ألفونس).
وقد أُرِفقت بالرسالة التي بعث بها إليه في ٣١ ديسمبر ١٨٤٠

قصائد بلجيكية

- ١٧ - كلمة كوفييه: إِنِّي أَرْمِي إِلَيَّ الْكِلاَبَ لِسَانِي! : دلالة على الاستسلام اليائس.
- ٢١ - موت ليوبولد الأول: قَسَمَ الْقَاضِي الْعَظِيمُ لِسَلَامٍ أَوْرُوبًا: اللقب الذي سُمِّي به
ليوبولد من قِبَلِ البلاهة السياسية الفرنسية.
- (سَأَقْسُرُ لَكُمْ هَذَا الْمَجَاز): البيت موجه إلى البلجيكيين.

سَام بَاريس

إهداء: نُشِرَ الإهداء في «لا بريس» (La Presse) عام ١٨٦٢، وأعيد نشره في
الطبعة الأولى من «سَام بَاريس» التي صدرت بعد وفاة بودلير. راجع مشروع الإهداء
في ملاحق «سَام بَاريس».

- «أرسين هوساي» (Arsène Houssaye): مدير «لابريس» (La Presse)،
و«لارتيست» (L'Artiste) اللتين نشر فيهما بودلير عددًا كبيرًا من قصائد «سَام
باريس».

- «جاسبار الليلي» (Gaspard de la Nuit): ديوان من قصائد النشر لألويزيوس
برتران؛ وقد نُشِرَ عام ١٨٤٢ - بمقدمة كتبها «سانت - بوف» أهم نقاد ذلك الزمن -
بعد عام من وفاة مؤلفه. وقد استمد منه «رافيل» أحد أعماله الموسيقية. لمزيد من
التفصيل حول هذا الديوان، ومكانته الإبداعية في تأسيس قصيدة النثر الفرنسية،
ومؤلفه، انظر: سوزان برنار، قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن، ترجمة
راوية صادق، مراجعة وتقديم رفعت سلام، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٨

٩ - بائع الزجاج السّيء: ساهمت هذه القصيدة في منح بودلير شخصية «الغندور» (Dandy)
التّهكمي القاسي؛ كتب يقول: «لقد نسبوا إليّ كل الجرائم التي كنتُ أحكيها».

١١ - الزوجة الوحشية والعشيقة الصغيرة: الواقعة مستمدة من عرض واقعي بأحد العروض العامة.

١٣ - الأراميل: يقول فوفينارج - في كتابه تأملات «في البؤس الخفي»: «الأرض مغطاة بأرواح قلقة تعذبها بلا رحمة حتى الموت قسوة ظروفهم والرغبة في تغيير أقدارهم. وضوضاء العالم تحول دون التفكير في هذه النزعات السرية التي تدفع الناس إلى تجاوز حدود الفضيلة. وبالنسبة لي، فإنني لا أدخل أبدًا حديقة اللوكسمبورج أو الحدائق العامة الأخرى، كيلا تحيط بي كل أنواع البؤس الأصم التي تثقل كاهل الناس.. ففيما يتجمع ويتصادم حشد من الرجال والنساء بلا حماس في الممشى العريض، فإنني ألتقي في المماشي المقفرة ببؤساء يهربون من حياة السعداء ورجالا عجائز يخفون عار فقرهم، وشبانًا يبقِيهم ضلال المجد بعيدين عن خرافاتهم، ونساء حكم عليهم قانون الضرورة بالعار، وأشخاصًا طموحين يُجمعون على التهور غير المُجدي للخروج من الظلام.. وأحيانًا ما أريد اقتحام عزلاتهم.. إلخ».

٢٢ - غسق المساء: من أولى القصائد المنشورة من «سأم باريس» عام ١٨٥٥ والنص الأول لهذه القصيدة بالغ الاختلاف عن النص الأخير لها:

«حُلُولُ اللَّيْلِ كَانَ دَائِمًا بِالنَّسْبَةِ لِي شَارَةً عَلَى اخْتِفَالِ دَاخِلِي، وَخَلَاصًا مِنْ عَذَاب. وَسَوَاءَ فِي الْغَابَاتِ أَوْ فِي شَوَارِعِ مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ، فَإِنَّ إِظْلَامَ النَّهَارِ وَنَقَاطَ النُّجُومِ أَوْ الْقَنَادِيلِ يُضِيءُ رُوحِي.

لَكِنْ لَدَيَّ صَدِيقَيْنِ يَدْفَعُهُمَا الْغَسَقُ إِلَى الْمَرَض. أَحَدُهُمَا يَتَنَكَّرُ آتِيذَ لِكُلِّ عِلَاقَاتِ الصَّدَاقَةِ وَالْكِيَاسَةِ، وَيُعَامِلُ بِفَظَاطَةٍ وَحْشِيَّةٍ أَوَّلَ قَادِم. وَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقْدِفُ بَدَجَاجَةٍ مُمْتَازَةٍ رَأْسَ رَئِيسِ عُمَالِ أَحَدِ الْقَنَادِقِ. فَمَقْدِمُ الْمَسَاءِ يُفْسِدُ أَجْمَلَ الْأَشْيَاءِ.

أَمَّا الْآخَرُ، فَمَا إِنْ يَسْتَسْلِمَ النَّهَارُ حَتَّى يُصْبِحَ أَكْثَرَ خُشُونَةً، أَكْثَرَ كَابَةً، أَكْثَرَ نَكْدًا. فَفِيمَا يَكُونُ حَلِيمًا خِلَالِ النَّهَارِ، يُصْبِحُ قَاسِيًا فِي الْمَسَاءِ؛ - وَلَيْسَ ذَلِكَ مُوجَّهًا ضِدَّ الْآخَرِينَ فَحَسْبُ، بَلْ أَيْضًا ضِدَّ نَفْسِهِ الَّتِي تُمَارِسُ بِكَثْرَةٍ هَوَسَهَا الْغَسَقِي.

الْأَوَّلَ مَاتَ مَجْنُونًا، عَاجِزًا عَنِ التَّعَرُّفِ عَلَى زَوْجَتِهِ وَابْنِهِ؛ وَحَمَلَ الثَّانِي دَاخِلَهُ فَلَقَّ عَدَمَ الرِّضَاءِ الدَّائِمِ. وَالْعَتَمَةُ الَّتِي تَبَعَتْ بِالضَّوءِ فِي رُوحِي تَبَعَتْ بِالظُّلْمَةِ فِي رُوحِهِ. - وَلَيْسَ مِنَ النَّادِرِ أَبَدًا أَنْ نَرَى السَّبَبَ الْوَاحِدَ يُسِفِرُ عَنْ تَبِيعَتَيْنِ مُتَنَاقِضَتَيْنِ، وَذَلِكَ مَا يُحِيرُنِي وَيُدْهِشُنِي دَائِمًا».

٢٣ - العزلة: نُشرت - لأول مرة - مع «غسق المساء» عام ١٨٥٥ ونسختها الأولى مختلفة بصورة كبيرة أيضًا عن النسخة النهائية:

«كَانَ يَقُولُ لِي أَيْضًا - الثَّانِي - إِنَّ الْعُزْلَةَ سَيِّئَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلإِنْسَانِ، وَذَكَرَ لِي فِيمَا أَظُنُّ أَقْوَالًا لِأَبَاءِ الْكَنِيسَةِ. صَحِيحٌ أَنَّ رُوحَ الْقَتْلِ وَالِدَّعَارَةِ تَتَوَهَّجُ بِصُورَةٍ رَائِعَةٍ فِي حَالَاتِ الْعُزْلَةِ؛ وَالشَّيْطَانُ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْأَمَاكِنِ الْمُقْفِرَةِ.

لَكِنَّ هَذِهِ الْعُزْلَةُ الْمُغْوِيَّةُ لَيْسَتْ خَطِرَةً إِلَّا عَلَى تِلْكَ الْأَرْوَاحِ الْمُتَبَطِّلَةِ وَالشَّارِدَةِ الَّتِي لَا يَحْكُمُهَا فِكْرٌ قَوِيٌّ فَعَالٌ. فَهِيَ لَيْسَتْ سَيِّئَةً بِالنِّسْبَةِ لِرُوبُنُسُونِ كُرُوزُو؛ فَقَدْ أَحَالَتهُ إِلَى شَخْصٍ مُتَدَيِّنٍ، جَسُورٍ، بَارِعٍ؛ طَهَّرَتْهُ، وَأَرْشَدَتْهُ إِلَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ قُوَّةُ الْفَرْدِ.

أَلَيْسَ «لَابْرُوِير» هُوَ مَنْ قَالَ: «أَلَيْسَتْ نَعَاسَةٌ كُبْرَى إِلَّا أَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَكُونَ وَحِيدًا؟» وَهَكَذَا، فَالْعُزْلَةُ مِثْلُ الْغَسَقِ؛ فَهِيَ جَيِّدَةٌ وَسَيِّئَةٌ، إِجْرَامِيَّةٌ وَشَافِيَّةٌ، مُحْرِقَةٌ وَمُهِدَّةٌ، حَسَبَ اسْتِخْدَامِنَا، وَحَسَبَ اسْتِخْدَامِنَا لِلْحَيَاةِ.

أَمَّا الْبَهْجَةُ، - الْوَلَايِمُ الْأَخَوِيُّ الرَّائِعَةُ، وَلِقَاءُ الرِّجَالِ الْفَاتِنَةِ الَّتِي تُلْهِمُهَا مُتَعَةٌ مُشْتَرَكَةٌ فَلَنْ تَمْنَحَ أَبَدًا مَا يُقَارَنُ بِمَا تُحَقِّقُهُ الْعُزْلَةُ، الَّتِي تُعَانِقُ وَتَسْتَوْعِبُ - بِلَمَحَةِ عَيْنٍ - كُلَّ تَسَامِيٍّ مَشْهُدٍ طَبِيعِيٍّ. فَلَمَحَةُ الْعَيْنِ هَذِهِ أَخْضَعَتْ لَهَا مُمْتَلَكَاتِ فَرْدِيَّةٍ لَا تَقْبَلُ التَّصَرُّفَ».

٢٤ - المشروعات: وهنا أيضًا، تختلف كثيرا النسخة الأخيرة من القصيدة - المعتمدة في هذه الترجمة - عن النص الأول المنشور عام ١٨٥٧:

«كَمْ سَتَكُونِينَ جَمِيلَةً، فِي ثَوْبٍ مَلَكِيٍّ، مُتَعَدِّدِ الْقَطْعِ وَمُتَرَفٍّ، إِذْ تَهْبِطِينَ، خِلَالَ جَوْ أُمْسِيَّةٍ جَمِيلَةٍ، دَرَجَاتٍ قَصِيرٍ مَرْمَرِيَّةٍ، نَحْوَ مَرْوَجٍ وَبُحَيْرَاتٍ كُبْرَى!

لكن مَا جَدَوِي هَذَا الدِّيكُورِ الْفَاتِنِ؟ أَحْمَقُ! فَقَدْ نَسِيتُ أَنَّي أَكْرَهُ الْمُلُوكَ
وَقُصُورَهُمْ. - لَا، فَلَيْسَ فِي قَصْرِ أُرِيدُ أَنْ أَمْتَلِكْ وَأَنْعَمَ بَوَدِّكَ! فَفِيهِ لَنْ نَكُونَ
فِي بَيْتِنَا. وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، فَهَذِهِ الْجُدْرَانُ الْمَنْقُوشَةُ، الْمَزِينَةُ بِالشَّرَاطِطِ، الْفِطَّةُ،
الْبَاهِرَةُ مِثْلَ رِجَالِ عَسْكَرَيْنِ، تُشَبِّهُ رُوحَ الْمَلِكِ الْكَبِيرِ، الَّذِي لَا يَمْلِكُ رُكْنَا وَاحِدًا
لِلْحَمِيمِيَّةِ. - هُنَا، لَا مُلْتَقَى مِنْ جَدِيدٍ؛ وَعَلَى هَذِهِ الْجُدْرَانِ الْمُغَطَّةِ بِالذَّهَبِ لَا
أَرَى مَكَانًا لِمَسْمَارٍ وَاحِدٍ لِتَعْلِيْقِ صُورَتِكَ.

آه! أَعْرِفُ جَدِّدًا أَتَيْنَ أُرِيدُ أَنْ أُحِبَّكَ بِلَا انْتِهَاء! - عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، فِي كُوخِ
خَشَبِيٍّ جَمِيلٍ، تَلْفَهُ الظَّلَالُ! وَفِي الْجَوِّ أَرِيحُ زَيْتَ جُوزِ الْهِنْدِ يَطْفُو، وَفِي كُلِّ
مَكَانٍ رَائِحَةُ مِسْكِ لَا تُوصَفُ؛ فِي الْأُفُقِ، أَطْرَافُ الصَّوَارِي الَّتِي تَدْفَعُهَا مَوْجَةُ
خَفِيفَةٌ إِلَى رَسْمِ مُنْحَنِيَّاتٍ فِي الْهَوَاءِ بِبُطْءٍ؛ وَحَوْلَنَا، فِيمَا وَرَاءَ الْعُرْفَةِ الصَّامِتَةِ،
الْمُعْتَمَةِ، الْمُفْعَمَةِ بِالْوُرُودِ وَالْحَصِيرِ، مَعَ أَثَابٍ نَادِرٍ مِنْ طَرَارِ الرُّكُوكِ الْبُرْتَعَالِيِّ،
مِنْ خَشَبِ الْجُزْرِ حَيْثُ سَتَسْتَرِيحِينَ فِي رِقَّةٍ تَمَامًا، فِي رَخَاوَةٍ تَمَامًا، فِي الْهَوَاءِ
الطَّلَقِ تَمَامًا، وَأَنْتِ تَدْخِينِ الطَّبَاقَ الْمَمْزُوجَ بِالْأَفْيُونِ وَالسُّكَّرِ، - فِيمَا وَرَاءَ
الشُّرْفَةِ، هُنَاكَ صَحْبُ الطُّيُورِ وَلَعَطُ زَنْجِيَّاتٍ رَهِيْفٍ.

لكن لَا! لِمَاذَا هَذَا الْإِخْرَاجُ الْكَبِيرُ؟ - فَلَسَوْفَ يُكَلِّفُ الْكَثِيرَ مِنَ الذَّهَبِ،
وَالذَّهَبُ لَا يَرْقُصُ إِلَّا فِي جُبُوبِ الْحَمَقَى الَّذِينَ لَا يَذَرُكَوْنَ الْجَمَالَ. وَالْمُنْتَعَةُ
تَكْمُنُ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِينِ هُنَا، عَلَى بُعْدِ خُطَوَتَيْنِ، فَهِيَ تَكْمُنُ فِي أَوَّلِ فُنْدُقِ
نُصَادِفُهُ، فِي فُنْدُقِ الصَّدَقَةِ، الْخِصْبِ بِالسَّعَادَةِ. نَارٌ عَظِيمَةٌ، آيَةٌ خَزَوِيَّةٌ جَذَابَةٌ
عَلَى الْجُدْرَانِ، عَشَاءٌ مَقْبُولٌ، نَبِيذٌ كَثِيرٌ، وَسَرِيرٌ شَاسِعٌ بِمِثْلَةِ خَشِنَةِ نَوْعَا مَا،
لِكِنَّهَا جَدِيدَةٌ.

الْحُلْمُ! الْحُلْمُ! دَائِمًا الْحُلْمُ اللَّعِينُ! - إِنَّهُ يَقْتُلُ الْفِعْلَ وَيَلْتَهُمُ الزَّمَنُ! - الْأَحْلَامُ
تُهْدِي لِزُهرَةِ الْوَحْشِ الْمُفْتَرِسِ الَّذِي يَهْتَاجُ دَاخِلَنَا. إِنَّهُ سُمُّ يَهْدِيهِ، لَكِنَّهُ يُغَذِّيهِ.

٢٥ - دُورُوتِيَّةُ الْجَمِيلَةِ: كَانَ بُوْدَلِيرُ يَرِيدُ - فِي الْأَصْلِ - كِتَابَةَ الْقَصِيدَةِ مَنْظُومَةٍ. وَقَدْ قَامَ
شَارِبَنْتِيرُ بِنَشْرِهَا فِي «رُوْفِي نَاسِيُونَالِ إِيهِ إِيْتَرَانْجِيرِ» (Revue internationale et étrangère)، فِي ١٠ يُونِيو ١٨٦٣. وَيَلْفَتُ الْإِنْتِبَاهَ - فِي هَذَا الصَّدَدِ - الْإِحْتِجَاجُ
التَّالِي لِبُوْدَلِيرِ، الْمَوْجَّهَ إِلَى شَارِبَنْتِيرِ:

«لقد قلت لك: فلتحذف القصيدة بكاملها، إن لم تعجبك فاصلة في القصيدة، لكن لا تحذف الفاصلة؛ فلها مبررها للوجود.

لقد قضيتُ حياتي كلها في تعلُّم بناء الجملة، وأقول، بلا خشية من الضحك مني، أن ما أسلمه إلى أية مطبعة هو مكتمل بصورة ممتازة.

فهل فكرت حقًا في أشكال جسدها، في أن يكون لها تعبير مرادف لظهرها المفرج وثديها المدبب؟ - وخاصةً عندما تكون المسألة متعلقةً بالجنس الأسود في المناطق الشرقية؟

هل تعتقد أنه من غير الأخلاقي أن نقول إن فتاةً ناضجةً في الحادية عشرة من عمرها، عندما نعرف أن «عائشة» (التي لم تكن زنجيةً مولودةً في خط الاستواء) كانت أصغر آتشد من زوجها محمد؟

إنني أريد، سيدي، أن أشكر لك من قلبي حسن الاستقبال لي؛ لكنني أعرف ما أكتب، ولا أحكي سوى ما رأيت».

٣٠ - الحبل: كان مانيه قد تسبب - قبل نشر القصيدة بقليل - في فضيحة لوحته «غداء على العشب». وقام بودلير بالدفاع عنه في مواجهة التهجمات التي تلقاها، مؤكدًا على «حادثة» مانيه. ومن الأرجح أن بطل الحكاية هو الطفل ألكسندر الذي عمل كموديل للفنان بين عامي ١٨٥٨ و ١٨٦١

٤١ - الميناء: يقول بودلير في «صواريخ ٨»: «هذه السفن الكبيرة والجميلة، المتأرجحة على نحو لا يبين (متمايلةً) على المياه الهادئة، هذه السفن القوية، بسيماء البطالة والحنين، ألا تريد أن تقول لنا بلغة صامتة: «متى سننتقل إلى السعادة؟»؛ وفي فقرة لاحقة: «إذا ما اعتاد شخصٌ ما على الخمول، وحلم اليقظة، والكسل، إلى حد التأجيل الدائم إلى الغد للأشياء الهامة، وإذا ما أيقظه شخصٌ آخر ذات صباح بلسعة هائلة بالسوط، وظل يسوطه بلا رحمة، إلى أن يعمل بفعل الخوف - طالما أنه لا يستطيع العمل عن رغبة - أفلن يكون صاحب السوط صديقه حقًا، صاحب فضل عليه؟» (Baudelaire, *Fusées, ŒUVRES COMPLÈTES*).

(p.393-393).

٤٣- الرامي الأنيق: في «صواريخ ١١»، يكتب بودلير: «رجل يذهب للرماية بالمسدس مصطحباً معه زوجته... يضبط وضع دمية، ويقول لزوجته: أتخيل أنها أنت... - يُغمض عينيه ويصيب الدمية. - ثم يقول، وهو يقبل يد رفيقته: ملاكي الغالي، كم أشكرك على براعتي» (Baudelaire, *Fusées, (ŒUVRES) COMPLÈTES*, p 396).

٤٦- فقدان الهالة: في «صواريخ ١١»، يكتب بودلير: «فيما كنت أعبّر الشارع، وفيما عمدتُ إلى شيء من العَجَلَة لتفادي السيارات، انفصلت هالتي وسقطت في طين الرصف. كان لديّ لحسن الحظ الوقت لالتقاطها، لكن هذه الفكرة التعيسة انزلت بعد لحظة إلى عقلي، باعتبارها شؤماً؛ ومنذ ذلك الحين لم تشأ الفكرة أن تطلق سراحني؛ لم تسمح لي بأية راحة طوال اليوم» (Baudelaire, *Fusées, (ŒUVRES) COMPLÈTES*, p 395).

٤٩- فلنصرع الفقراء: رفضت نشرها «روفي ناسيونال إيه إترانجير»، ونُشرت - لأول مرة - في الطبعة الأولى لسأم باريس الصادرة بعد وفاة بودلير، ١٨٦٩

قاموس المصطلحات والأعلام

١- المصطلحات

هيمنت الرومانتيكية على المشهد الأدبي الفرنسي منذ بدايات القرن التاسع عشر، مرتبطةً بقامات شاهقة من قبيل فيكتور هوجو، ألكسندر دوما (الأب)، شاتوبريان، لامارتين، جيرار دي زيرفال، ألفريد دي موسييه، شارل نوديه، تيوفيل جوتييه، وألفريد دي فيني. كانت الهيمنة شاملة، في المسرح والشعر والرواية النثرية. وسيتواصل تأثير الرومانتيكية - حتى أواخر القرن التاسع عشر - على المدارس الأدبية والفنية اللاحقة.

و«الرومانتيكية» (Romantisme): تيار أدبي أوروبي ظهر خلال القرن الثامن عشر في إنجلترا وألمانيا - ثم في فرنسا وإسبانيا خلال التاسع عشر - كرد فعل ضد الانتظام الكلاسيكي الذي اعتُبر بالغ الصرامة، والعقلانية الفلسفية للقرون السابقة. وتتميز الرومانتيكية بتأكيد استخدام الـ«أنا»، للإعلان عن الاستناد إلى التجربة الشخصية، والكف عن ذلك البُعد التخيلي الشائع في القصائد والروايات. كما تتسم الرومانتيكية بشهوة استكشاف كل احتمالات الفن من أجل التعبير عن نشوات وفورانات القلب والروح؛ كرد فعل من الشعور ضد العقل، وإعلاء من الفانتازي، وبحث عن الهرب والنشوة في الحلم، عن المَرَضِي والسامي، عن الغرائبي والماضوي.

ويتم إطلاق مصطلح الرومانتيكية في فرنسا على حركة أدبية كبيرة بدأت حوالي عام ١٨٢٠، وستواصل حتى ١٨٥٠ وهذا المصطلح يحدد فنًا يهيمن فيه الخيال والحساسية على كل القدرات الأخرى للعقل.

وتمتد الرومانتيكية الفرنسية إلى الرواية التاريخية، والرواية العاطفية والأساطير التقليدية والوطنية، و«الرواية السوداء» (أو القوطية)، والنزعة الغنائية، والعاطفية، وتصوير مشاهد العالم الطبيعي، والرجل العادي، والنزعة الغرائبية، والاستشراقية، مؤسسة لشخصية البطل الرومانتيكي. وقد لعبت التأثيرات الأجنبية دورًا في ذلك، وخاصة تأثيرات شيكسبير، ووالتر سكوت، وبايرون، وجوته، وشيللر.

وللرومانتيكية الفرنسية مثلها المتعارضة مع مثل الكلاسيكية والوحدات الكلاسيكية، لكنها تعبر أيضًا عن الإحساس بخسارة عميقة لأبعاد العالم السابق على الثورة، في مجتمع تسيطر عليه - في زمنها - النقود والشهرة أكثر من الشرف.

وترتكز الرومانتيكية الفرنسية على مجموعة من الأفكار الأساسية تتعلق بخواء العالم، بعد أن سرت العقلانية والحضارة من الإنسان أوهامه، مما يؤدي إلى الكآبة واختلاط المشاعر والإحساس بالفقدان والخسارة والضياع.

كان هوجو هو العبقرية الشامخة للمدرسة الرومانتيكية ورائدها المعترف به، سواء في المسرح أو الشعر أو الرواية. وحوله كان ألفريد دي فيني المتشائم، وتيوفيل جوتييه المُخلص للجمال ومبدع نظرية وحركة «الفن للفن»، وألفريد دي موسيه رمز الكآبة في الحركة الرومانتيكية. وفيما انطلق الثلاثة من الشعر أساسًا، إلا أنهم كتبوا أيضًا الرواية والقصة القصيرة، وحقق موسيه نجاحًا كبيرًا بمسرحياته. أما ألكسندر دوما (الأب)، فقد عكف على كتابة الرواية المؤسسة على التاريخ، وكان بروسبير ميريميه وشارل نوديه معلمين في الرواية القصيرة. وقد ارتبطت الرومانتيكية بعدد من الصالونات والجماعات الأدبية والثقافية. لكن الحركة الرومانتيكية انطوت - سياسيًا - على المتناقضين، الليبرالي «ستاندال»، والمحافظ «شاتوبريان» والاشتراكية «جورج صاند».

في أعقابها.. جاءت «الواقعية» (Réalisme)، التي تمثل محاولة تصوير الحياة والمجتمع المعاصرين. ويرتبط تنامي الواقعية بالتطور العلمي (وخاصة علم الأحياء - البيولوجيا)، والعلوم الاجتماعية والتاريخ، وبتنامي النزعة الصناعية والتجارية. وليست «الواقعية» بالضرورة مضادة للرومانتيكية؛ فالرومانتيكية الفرنسية كثيرًا ما أكدت على «الإنسان العادي» والموقع الطبيعي للأحداث (مثل قصص الفلاحين لجورج صاند)، واهتمت بالقوى والفترات التاريخية.

تُحدّد الواقعية عمومًا باعتبارها انشغالاً بالحقيقة أو الواقع، ورفضًا لغير العملي والتخيلي. ولكن المصطلح يُستخدم - بشكل عام - للدلالة على تشكيلة كبيرة من المعاني، حيث يعتمد الاختيار بينها على سياق الاستخدام.

وتشير الواقعية إلى حركة ثقافية في منتصف القرن التاسع عشر، بجذورها الفرنسية. فقد كان القرن التاسع عشر - المُسمّى القرن الوضعي - هو عصر الإيمان بالمعرفة المستمدة من العلم والمناهج العلمية الموضوعية التي يمكن أن تحل جميع المشاكل الإنسانية.

وفي الفن، تبدّى هذه الروح واضحةً في الرفض واسع النطاق للذاتية الرومانتيكية والخيال لصالح الوصف المُحايت والموضوعي للعادي، للعالم المرئي - وهو تغير كان واضحًا في الرسم. والتفكير الموضوعي واضح أيضًا في جميع التطورات الفنية التي حدثت بعد الخمسينيات - من دخول العناصر الواقعية إلى الفن الأكاديمي، والتأكيد على ظاهرة الضوء، إلى تطور التصوير الفوتوغرافي، وتطبيق تقنيات جديدة في العمارة والبناء.

ولا تضع الواقعية - في اعتبارها - تقليد المنجزات الفنية الماضية، بل التصوير الصادق والآني للنماذج التي تقدمها الطبيعة والحياة المعاصرة للفنان. وهكذا، عُرض بقوة افتعال الكلاسيكية والرومانتيكية في الفن الرومانتيكي، ووجدت ضرورة إدخال المعاصر إلى الفن تأييدًا قويًا؛ حيث تم التشديد على فكرة أن الناس العاديين وممارسات الحياة اليومية جديرة بأن تكون موضوعات للفن. وحاول الفنانون الواقعيون تصوير حيوات ومظاهر ومشاكل وعادات وأخلاقيات الطبقة الوسطى والدنيا، والتركيز على غير الاستثنائي، العادي، المتواضع، وغير المُزَيّن.

وقد ظهرت الواقعية في فرنسا في أعقاب ثورة ١٨٤٨، لتعبر عن ميل إلى الديموقراطية، ورفض للتراث الفني القديم، فيما ركز الفنانون التشكيليون على اكتشاف مفاهيم علمية جديدة للرؤية، ودراسة التأثيرات البصرية للضوء. وتضم الواقعية الفرنسية في الرسم روزا بونير، جوستاف كورييه، أونوريه دوميه، إدجار ديجا، فانتان - لاتور، إدوارد مانيه، فضلًا عن «مدرسة باربيزون» التي لجأت إلى الريف الفرنسي، وأدارت ظهرها لباريس، لتصوير الطبيعة والحياة الريفية مباشرةً

وبصورة أمينة، ومن بين روادها كاميل كورو، شارل - فرانسوا دوييني، جان - فرانسوا ميليه، بير - إيتين - تيودور روسو.

وروايات ستاندا (من قبيل «الأحمر والأسود» و«دير بارما») تتناول قضايا معاصرة، فيما تستمد أفكارها وشخصياتها من الحركة الرومانتيكية. ويُعتبر «أونوريه دي بلزاك» أبرز ممثل للواقعية في الرواية الفرنسية. وروايته «الكوميديا الإنسانية» - سلسلة هائلة من حوالي مائة رواية - هي أكبر عمل طموح لكاتب روائي، بما تمثل من تأريخ معاصر كامل لشعبه.

والكثير من روايات هذه الحقبة - بما فيها روايات بلزاك - كانت تنشر أولاً مسلسلةً في الصحف، وهي تقدم الجانب الخفي من حياة المدينة، الجريمة، ومخبري البوليس، وعصابات الجريمة، مثلما في روايات أوجين سو. وظهرت اتجاهات مماثلة في الميلودرامات المسرحية لنفس الحقبة.

وفي ستينيات القرن، كثر حديث النقاد عن «الطبيعية» الأدبية؛ ليشيروا بالمصطلح - بصورة عمومية - إلى الروائيين الذين يختارون موضوعاتهم من حياة الطبقات العاملة، ويصورون البؤس والشروط القاسية للحياة الحقيقية. وقد اتخذ الكثيرون من الكتاب «الطبيين» مواقف راديكالية ضد تساهلات الرومانتيكية، واجتهدوا في استخدام المصطلحات القاموسية والعلمية في رواياتهم (ظل إميل زولا يزور مناجم الفحم فترةً طويلةً من أجل روايته «جيرمينال»، وكان فلوير شهيراً في تنقيبه لسنوات عن تفاصيل تاريخية معينة). وقد تولّى هيوليت تين تأسيس فلسفة للطبيعية، حيث كل كائن إنساني - وفقاً له - محكوم بالقوى الوراثية والمحيط والزمن الذي يعيش فيه.

وكثيراً ما يتم إطلاق «الطبيعية» على رائعة فلوير «السيدة بوفاري» (١٨٥٧) - التي تكشف النتائج المأساوية للرومانتيكية على زوجة طبيب بالأقاليم - وروايته «التربية العاطفية» والقصص القصيرة لجي دي موباسان، على الرغم من أن أيّاً من الكاتبين لم يكن يخلو من التهكم الكوميدي أو نزوع رومانتيكي معين. ورومانتيكية فلوير واضحة في روايته «إغواء سانت أنطوان»، والمشاهد الباروكية والغرائبية لقرطاج القديمة في «سلامبو»؛ فيما استمد موباسان عناصر من الرواية القوطية. وهذا التوتر

بين تصوير العالم المعاصر بكل جهامته، والتهكم المتحرر، واستخدام صور وأفكار رومانتكية سيؤثر على الرمزيين، وتستمر فاعليته حتى القرن العشرين.

والطبيعية أكثر ارتباطاً بروايات إميل زولا، حيث النجاح أو الفشل الاجتماعي لفرعين من عائلة يتم تفسيره بالقوانين الوراثية والفيزيكية والاجتماعية. وتضم قائمة الطبيعيين كتاباً من قبيل ألفونس دوديه وجوريس - كارل هوسمان وإدموند دي جونكور وشقيقه جول دي جونكور وبول بورجيه.

وفي هذا السياق المتلاطم، ارتفع شعار «الفن للفن» (l'art pour l'art). وقد أسس هذا الاتجاه في فرنسا تيوفيل جوتييه (١٨١١ - ١٨٧٢). لكنه لم يكن أول من استخدم المصطلح، الذي يظهر في كتابات بنجامين كونستانت وإدجار آلان بو، وخاصةً في مقالته الشهيرة «المبدأ الشعري». لكن جوتييه كان أول من تبنى الجملة وحولها إلى شعار في مواجهة من يعتقدون أن قيمة الفن تكمن في خدمته لأهداف تربوية أو أخلاقية. وأكد أصحاب هذا الاتجاه على أن قيمة الفن تكمن فيه كفن، وأن المساعي الفنية تبرر نفسها دون أن تكون بحاجة إلى تبرير أخلاقي.

في هذا المناخ، ظهرت «البارناسية» (Parnasse)؛ وهي حركة شعرية ظهرت في فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نادت بـ«ارتقاء» الفن الشعري إلى البارناس من حيث أنزله لامارتين. وقد نُشر المصطلح عام ١٨٦٦، عندما نشر ألفونس لومير مختارات شعرية بعنوان «البارناس المعاصر».

وتمثل هذه الحركة ردّاً فعل على التساهلات العاطفية للرومانتيكية المحتضرة. وقد انحازت إلى اللاشخصانية، ورفضت - بشكل قطعي - الالتزام الاجتماعي أو السياسي للفنان. والفن - بالنسبة للبارناسيين - ليس نافعاً أو فاضلاً، وغايته الوحيدة هي الجمال. إنها نظرية «الفن للفن» لتيوفيل جوتييه. وتعيد الحركة الاعتبار للعمل الدءوب والدقيق للفنان، بالتعارض مع الإلهام المباشر للرومانتيكية، فيما تستخدم الاستعارة المستمدة من النحت للإشارة إلى مقاومة «المادة الشعرية». وفي عام ١٨٦٣، حدد إيميل ليتريه الشعر باعتباره «فن صياغة أعمال بالشعر».

وينتمي إلى البارناسية لوكونت دي ليل، تيودور دي بانفيل، كاتول منديس، سَللي برودوم، بول فيرلين، جوزيه ماري دي هيريديا، فرانسوا كوبيه، تيوفيل جوتييه.

ومن بعد، تأتي الحركة «الانحطاطية» (Decadent). وقد أُطلقت «الانحطاطية» في القرن التاسع عشر - في أوروبا، وخاصةً في فرنسا - من قِبل النقاد المُعادين، على عدد من كتاب نهاية القرن، ثم تبناها هؤلاء الكتاب أنفسهم بعد انتصارهم على المعارضين. وهم كتاب مرتبطون بالرمزية، يُعلنون من شأن الصنعة على حساب النظرة الرومانتيكية الساذجة للطبيعة. وقد تأثر بعض هؤلاء الكتاب بتراث أعمال جوته وبشعر وروايات إدجار آلان بو.

ويرجع مفهوم الانحطاط إلى القرن الثامن عشر، وخاصةً إلى مونتسكيو؛ وقد استخدمه النقاد كمصطلح بعدما استخدمه ديزيري نيزار ضد فيكتور هوجو والرومانتيكيين عمومًا. والتقط المصطلح جيلٌ متأخر من الرومانتيكيين كشارة فخر وعلامة على رفضهم لما يعتبرونه «تقدمًا» مبتذلًا. وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، أشار مجموعة من الكتاب إلى أنفسهم باعتبارهم انحطاطيين. والرواية الكلاسيكية لهذه المجموعة هي «ضد الطبيعة» لجوريس - كارل هيوسمان، وكثيرًا ما يتم اعتبارها أول عمل انحطاطي عظيم، على الرغم من أن آخرين يُصنفون هذا الوصف على أعمال بودلير. وفي بريطانيا، فإن الاسم الرائد المرتبط بهذه النزعة هو أوسكار وايلد.

وتُعتبر الانحطاطية الآن بمثابة انتقال من الرومانتيكية إلى الرمزية. وكثيرًا ما اختلطت الرمزية بالحركة الانحطاطية. وعلى الرغم من أن جماليات الرمزية والانحطاطية يمكن أن تتشابه في بعض الحالات، إلا أن الحركتين تظلمان تميزتين. وينتمي إلى الانحطاطية - وفقًا للتقديرات الأدبية المتفاوتة - شارل بودلير، جيرار دي نرغال، رامبو، جيل باربي دورفيي، أوسكار وايلد، ج - ك هيوسمان، فيليسيان روب، جي دي موباسان، أوديلون ريدون، كونت دي لوتريامون، إدوارد مونش، جوستاف مورو، أوجست فييه دي ليل - آدم، جورج رودنباخ، أوكتاف ميربو.

لكن مع نشر جان موريا «البيان الرمزي» عام ١٨٨٦، تأسس مصطلح الرمزية الذي لم يكن الوسط الأدبي الجديد قد استخدمه، ليشمل أعمال ستيفان مالارمي وبول فيرلين وبول فاليري وجوريس - كارل هيوسمان وآرثر رامبو وجول لافورج وجان موريا وجوستاف كان وألبير سامين وجان لورّا وريمي دي جورمو وبير لويس وتريستان كوربيير وهنري دي رينيه ودي ليل - آدم وستيوارت ميريل ورينيه غيل وسان - بولو، على الرغم من التباعد أحيانًا بين المشروع الأدبي لكل منهم عن الآخرين.

و«الرمزية» (Symbolisme): حركة أدبية وفنية ظهرت في فرنسا وبلجيكا حوالي عام ١٨٨٠، كرد فعل على الطبيعية والحركة البارناسية.

في «بيان أدبي»، المنشور عام ١٨٨٦، يحدد جان موريا هذا النسق الجديد بأنه «عدو التلقين، والخطابة، والحساسية الزائفة، والوصف الموضوعي؛ فالشعر الرمزي يسعى إلى إلباس الفكرة بشكل مرهف..» والشعراء الرمزيون يصبغون أعمالهم بتوجهات ميتافيزيقية، بصوفية ما. وتتناقص أهمية الموضوع على الرغم من ذلك، كأنه مجرد ذريعة أو أداة. ويُركّز كثير من الفنانين الرمزيين على نقل الصورة المادية في واقع مجرد.

وقدم جورج - ألبير أورييه، في «ميركير دي فرانس» (١٨٩١)، تحديدًا لمفهوم الرمزية: «ينبغي على العمل الفني أن يكون - أولاً - ذا نزعة مثالية، طالما أن مثله الأعلى الفريد سيكون التعبير عن الفكرة، بحيث تعبر الرمزية - ثانيًا - عن هذه الفكرة في شكل، بحيث تكتب - ثالثًا - أشكالها وإشاراتهما وفقًا لنمط من الإدراك العام، الموضوعي - رابعًا - بحيث لن يُعتبر الموضوع أبدًا فيه موضوعًا بقدر ما سيكون إشارة مُدرّكة من قبل الذات، و- خامسًا - فعلى العمل الفني أن يكون زخرفيًا».

وتستند الرمزية على مجموعة من الأفكار الرئيسة من بينها انتظار ما لا يُعرف، والنعاس (حيث تنام الأميرة، لكن الطبيعة أيضًا تنام)، والنبرة المعتدلة واللون المعتدل، والصمت (فالصمت فضيلة، إذ يحمل في ذاته الوعد بعودة الملاك، الرسول)، والكآبة؛ ولا ينبغي التوقف عند المظهر (فلا بد من تناوب بسيط نحو الماوراء)، وشهوة الغيرية، الشيء الآخر.

ومن أهم الشعراء الذين يُنسبون إلى الرمزية: شارل بودلير، ورامبو، وفيرلين، ومالارمي، وألبير سامان، وريمي دي جورمون، ألفريد جاري، جوستاف كان، جول لافورج، موريس مائترلنك، ستوارت ميريل، ألبير موكل، جان موريا، هنري دي رونييه، بول فاليري، إميل فير هاييرين، جورج رودنباخ. أما أهم الرسامين الرمزيين فهم جوستاف مورو، وجوستاف - أدولف موسّا، وأوديلون ريدون، وبير بوفي دي شافان، وجيمس ويستلر. وفي الموسيقى، كلود ديبوسي وإريك ساتي.

ويشترك الرمزيون في أفكار توازي جماليات شوبنهاور، ومفاهيم الإرادة والقدرية

والقوى اللاواعية. وكثيرًا ما استخدموا موضوعات الجنس (مثل العاهرات)، والمدينة، والظواهر غير العقلانية (الهذيان والأحلام والمخدرات). ونبرة الرمزية بالغة التنوع، واقعية أحيانًا، خيالية، أو تهكمية، رغم أن الرمزيين - على العموم - لم يشددوا على الأفكار الأخلاقية أو الروحية. وفي الشعر، استخدم الرمزيون الإيحاء الرهيف بدلًا من التقرير (كانت البلاغة عدوًّا)، واستدعاء حالات ومشاعر معينة بسحر اللغة والأصوات المتكررة وموسيقية الشعر والإبداع العروضي. وقد استكشف بعض الرمزيين استخدام «القصيدة الحرة». وكان لأعمال فاجنر تأثير عميق على توجهاتهم الفنية.

٢- الأعلام

آسيلينو، شارل (Charles Asselineau) (١٣ مارس ١٨٢٠ - ٢٥ يوليو ١٨٧٤): كاتب فرنسي، من أعماله الهامة «الحياة المزدوجة» (١٨٥٨) و«الساق» (١٨٥٨)، و«جسيم المكتبة» (١٨٦٠)، و«مزيج مستمد من مكتبة رومانتيكية صغيرة» (١٨٦٦).

إنجر (Jean Auguste Dominique Ingres) (٢٩ أغسطس ١٧٨٠ - ١٤ يناير ١٨٦٧): فنان تشكيلي فرنسي ينتمي إلى «الكلاسيكية الجديدة». درس على يد «جاك - لويس ديڤيد» بباريس لمدة أربع سنوات، ليفوز بالجائزة الكبرى عام ١٨٠١ بلوحته «سفراء أجاممنون في خيمة أخيل».

كان يبحث عن الشكل الأنقى للموديل. وفي عام ١٨٠٢، عرض «فتاة بعد الاستحمام»، ثم «بورترية القنصل الأول» عام ١٨٠٤ وقد أربكت أعماله الجمهور. فقد كان واضحاً أن الفنان يمتلك الموهبة، وصفاء الخط، وقوة المرجع الأدبي؛ لكنه كان يسعى إلى أن يكون فريداً واستثنائياً. عقب عودته من روما (١٨٠٨)، انتهى أنجر من لوحة «أوديب وأبو الهول»، وبدأ العمل في «فينوس أناديومين» التي ستكتمل بعد أربع سنوات، وتُعرض في ١٨٥٥ وقد تلت هذه الأعمال مجموعة من البورترية. وفي ١٨١١، انتهى أنجر من «جوبيتر وثيريس» و«انتصار رومولوس على أكرون» و«فرجيل يقرأ الإنيادة».

وستُعرض «الجارية» - لوحته الشهيرة - مع عدد آخر من الأعمال في صالون باريس ١٨١٤. وقد تزايدت شهرته عندما نفذ سودر - عام ١٨٢٦ - لوحته «الجارية الكبيرة» طباعياً، وهي التي كانت موضع احتقار من الفنانين والنقاد عام ١٨١٩،

لتصبح جماهيرية، ويصبح بمثابة رائد مدرسة. ولكنه عندما أنهى لوحته الكبيرة «استشهاد سانت سيمفوريان»، استُقبلت بنفس التشكك واللامبالاة، إن لم يكن بعدائية. وسافر إلى روما، حيث أنهى هناك عددًا من اللوحات، عُرض بعضها في فرنسا خلال غيبته، ولقيت اهتمامًا كبيرًا، فاستُقبل لدى عودته - عام ١٨٤١ - باهتمام. وحين عُرضت لوحته «النبع» في لندن (١٨٦٢)، والتي كانت مُنجزَةً من قبل، تجدد الإعجاب العام به.

ومن أهم أعماله التالية «موليير ولويس التاسع» (١٨٥٨) و«الحمام التركي» (١٨٥٩)؛ ومن الأعمال الدينية «العذراء والتبني» (١٨٥٨)، و«العذراء المُتوجة» و«العذراء والطفل». ويتنمي أنجر إلى الكمال الكلاسيكي الجديد، لكن معالجاته التصويرية التي حيرت معاصريه هي الآن موضع استحسان، كبرهان على حسية مكبوتة، تجد تعبيرها في الأرابيسك القوطي للخط ولمسات الجسد الصافية.

بانفيل، تيودور دي (Théodore de Banville) (١٤ مارس ١٨٢٣ - ١٣ مارس ١٨٩١): شاعر فرنسي، ورائد المدرسة البارناسية. كرّس نفسه لحب الجمال، وعارض - في آن - الشعر الواقعي والتدفقات الرومانتيكية للمشاعر، حيث أكد دائمًا على النقاء الشكلي للفعل الشعري.

نشر ديوان «المنفيون» عام ١٨٦٧، وأهداه إلى زوجته التي كان يعتبرها أفضل أعماله. وهو أحد كبار الشخصيات المؤثرة في العالم الأدبي، وكتب مسرحي، وشاعر من الجيل الثاني للحركة الرومانتيكية وناقد أدبي. وكان محل إعجاب وتقليد غالبًا من جيل كامل من الشعراء الشبان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومجلته «البارناس المعاصر» (Le Parnasse contemporain) هي التي عرفت رامبو على شعر عصره، وقد بعث إليها رامبو بعدد من قصائده. وارتبط الشاعران معًا بعلاقة وطيدة إلى أن كتب رامبو إلى بانفيل - في مايو ١٨٧١ - رسالته الشهيرة بعنوان «الرائي» معربًا فيها عن اختلافه مع بانفيل.

وفي عام ١٨٧٢، انفصل بانفيل - بعمله «مقالة صغيرة عن الشعر الفرنسي» - عن التيار الرمزي. وينشر عملاً كل عام بامتداد الثمانينيات من القرن، ويتوفى في باريس بعد قليل من نشر روايته الوحيدة «مارسيل راب».

وقد انشغل بانفيل - في أعماله - بمسألة الشكل الفني، واستخدم كافة الإمكانيات الثرية للشعر الفرنسي. واشترك مع آسيلينو في إصدار الطبعة الثالثة من «أزهار الشر» لبودلير بعد وفاته.

من أهم أعماله «قصائد غنائية وأناشيد بهلوانية» (١٨٥٧)، «المنفيون» (١٨٦٧)، «الغرييون» (١٨٦٩)، «مقالة صغيرة في الشعر الفرنسي» (شعر - ١٨٧٢)، «ست وثلاثون أنشودة غنائية مرحة» (١٨٧٣)، «حكايات للنساء» (١٨٨١)، «ذكرياتي» (١٨٨٢)، «حكايات بطولية» (١٨٨٤)، «رسائل خرافية وسقراط وزوجته» (١٨٨٥)، «القُبلة» (١٨٨٨).

وقد كتب عنه بودلير - في «صواريخ ٩» - «بانفيل بالتحديد ليس مادياً؛ إنه تنويري. وشعره يمثل الأوقات السعيدة».

برتران، الويزيوس (Louis Jacques Napoléon Bertrand, dit Aloysius **Bertrand**) (١٨٠٧ - ١٨٤١): شاعر فرنسي، يُعتبر مبتدع قصيدة النثر، ومؤلف «جاسبار الليلي» (١٨٤٢) الذي نُشر بعد وفاته.

تربى في «ديجون»، التي لجأ إليها والده بعد تقاعده من البوليس، حيث أمضى برتران معظم حياته فيها، وعثر على إلهامه في شوارع وآثار المدينة. ولدى وفاة والده، يصبح كبير العائلة والمسئول عن أمه وأخته. أسس صحيفة «لوبروفنسيال» عام ١٨٢٨، وتردد على الأوساط الأدبية في باريس؛ لكن الإحساس بالخجل من فقره وكبرياءه منعه من إيجاد مكان له ضمن مجموعة الرومانتيكيين الباريسيين.

وفي ديجون، يؤسس جريدة أخرى عام ١٨٣٠، حيث يقدم نفسه كجمهوري أصيل، وهو ما أثار عليه عداوات وجهاء المدينة. كتب أيضًا أعمالاً للمسرح، دون نجاح يُذكر. ويقرر - عام ١٨٣٣ - الإقامة بباريس، حيث يعيش حياة بائسة لقروي هامشي. وإذ لا تفهمه أسرته، يلجأ آنئذ إلى الحلم، إلى ماضٍ غابر، بعيداً عن العالم الحديث، ويكرس حياته لكتابة «جاسبار الليلي». وينتهي بالفوة بالسل الرئوي في باريس.

وكان صديقه ديفيد دانجر - الذي عثر عليه بالصدفة في المستشفى وهو يُحتضر - هو الشخص الوحيد الذي رافق جثمانه إلى المقبرة. وهو الذي سيقوم بنشر

«جاسبار الليلي»، الذي لم ينجح مؤلفه قَطُّ في نشره خلال حياته. لكن هذه الطبعة ستكون مليئة بالأخطاء. وفي عام ١٩٢٥، تصدر طبعة جديدة وفقًا للمخطوط الأصلي، مع تصحيح الأخطاء. ولن يمكن طبع الكتاب وفقًا للمخطوط وإرادة المؤلف إلا ابتداء من عام ١٩٩٢، تاريخ حصول المكتبة الوطنية الفرنسية على المخطوط الكامل الأصلي.

وكشاعر ملعون خلال حياته، فسيصبح ملهمًا لشارل بودلير، الذي سيعترف بأبوة «جاسبار الليلي» لديوانه «سأم باريس»، فيما سيلهم السيراليين في القرن التالي. وقد وضع رافيل قصائد «أوندين» و«المشتقة» وخاصة «سكاربو» - من «جاسبار الليلي» - في قالب موسيقي لآلة البيانو.

وقد نشر له - غير «جاسبار الليلي» - «الدفتر التذكاري الفانتازي»، قصائد ووقائع ومقالات. مسرحيات غير منشورة ومراسلات، نشرها برتران جيجان (١٩٢٣)؛ و«الأعمال الشعرية. الشهوة ومقطوعات متفرقة»، (١٩٢٦)؛ ثم «الأعمال الكاملة» (٢٠٠٠).

بلزاك، أونوريه دي (Honoré de Balzac) (٢٠ مايو ١٧٩٩ - ١٨ أغسطس ١٨٥٠):
روائي فرنسي، أسس - مع فلوير - الواقعية في الأدب الأوروبي. وعمله الأساسي - المجموع تحت عنوان «الكوميديا الإنسانية» - يمثل بانوراما عريضة للمجتمع الفرنسي خلال الفترة ١٨١٥ - ١٨٤٨

وقد بدأ نتاج بلزاك الأدبي بلوحات سردية عن موضوعات أدبية واجتماعية متنوعة. وصدر له «مشاهد من الحياة الخاصة» عام ١٨٢٩ (حكايات مكتوبة من خلال عين صحفي)، حيث لقي تجاوبًا كبيرًا، وعثر فيه بلزاك على صوته الخاص. وتقدم روايته «الأب جوريو» حكاية الملك لير في باريس العشرينيات، ليهاجم مجتمعًا لا يعرف من الحب سوى حب المال. وقد قامت رواياته على رؤية التراتبات الاجتماعية والسياسية للنظام القديم وقد حلت محلها أرستقراطية مزعومة للمحابة، والمحسوبة والثروات التجارية، وحيث «الكهانة الجديدة» لرجال المال تملأ الفراغ الذي خلفه انهيار الدين النظامي. «لم يتركوا للأدب سوى السخرية في عالم انهار»، كما لاحظ في مقدمة أحد أعماله.

ومن أعماله الأقصر، أصدر «الأوهام الضائعة» (١٨٤٣)، و«مباهج ومآسي العشيقات» (١٨٤٧)، و«العم بون» (١٨٤٧)، و«العمة بيت» (١٨٤٨).

وكان بلزك يكتب لمدة ١٥ ساعة يوميًا، مع عدد بلا حصر من أكواب القهوة السوداء. ويتألف عمله الصرحيّ «الكوميديا الإنسانية» من ٩٥ عملاً مكتملاً (قصص، وروايات ومقالات تحليلية) و٤٨ عملاً غير مكتمل (أو لا وجود سوى لعنوانه)، دون أن يتضمن مسرحياته الخمس أو مجموعة حكاياته الساخرة «حكايات طريفة» (١٨٣٢ - ١٨٣٧). ومن بين أعمال «الكوميديا الإنسانية»: «جوبسيك» (١٨٣٠ - رواية قصيرة)، «أوجيني جرانديه» (١٨٣٣)، «الأب جوريو - ١» (١٨٣٥)، «الأوهام الضائعة» (١: ١٨٣٧؛ ٢: ١٨٣٩؛ ٣: ١٨٤٣)، «العمة بيت» (١٨٤٦)، «مباهج ومآسي العشيقات» (١٨٤٧). أما في مجال المسرح، فقد كتب بلزك «كرومويل» (١٨٢٠)، «موارد كينولا» (١٨٤٢)، «بامبلا جيرو» (١٨٤٣)، «زوجة الأب» (١٨٤٨)، «ميركاديه أو العامل» (١٨٤٨).

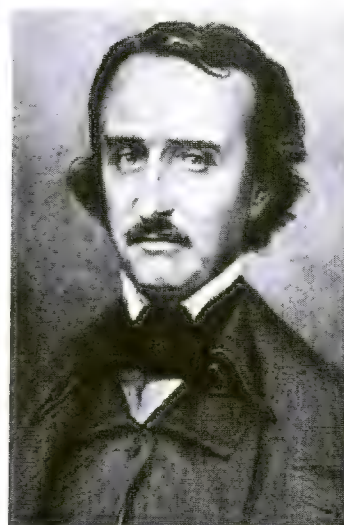
بعد وفاته، تم الاعتراف به كأحد آباء الواقعية في الأدب. وعمله الصرحي «الكوميديا الإنسانية» يمثل محاولة لفهم وتصوير وقائع الحياة لدى بورجوازية فرنسا المعاصرة، حيث الطبقة والمال والطموح الشخصي هم اللاعبون الأساسيون. لقد قاد الرواية الأوروبية بعيدًا عن تأثيرات والتر سكوت ومدرسة جوته، بكشف إمكانية رواية الحياة الحديثة بصورة حيوية. وقد تأثر به مباشرة موباسان وفلوبير وزولا، من الجيل التالي له، فيما اعترف مارسيل بروس بتأثيره عليه. لقد أدخل بلزك «السياق الاجتماعي» إلى الرواية، ذلك السياق الذي لم يدركه الرومانتيكيون الذين عكفوا على العالم الداخلي للفرد.

بُو، إدجار آلان (Edgar Allan Poe) (١٩ يناير ١٨٠٩ - ٧ أكتوبر ١٨٤٩): شاعر وقصاص ومسرحي وناقد وكاتب أمريكي، من رواد الحركة الرومانتيكية الأمريكية.

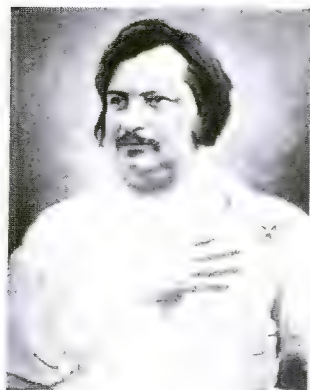
اشتهر بكتاباتاته التي تنزع إلى الغموض والسوداوية، فيما يُعتبر من أوائل كتاب القصة القصيرة الأمريكيين، ومؤسس الرواية البوليسية والقصص العلمية. وقد توفي في الأربعين من عمره، عن مرض غير معروف.



تيودور دي بانفيل



إدجار آلان بُو



أونوريه دي بلزاك



شارل آسيلينو

التحق بجامعة فرجينيا عام ١٨٢٦، لكنه لم يستمر بها سوى عام واحد. وفي العام التالي أصدر ديوانه الأول مستخدماً اسماً مُستعاراً. أمضى عامين كعسكري بالجيش الأمريكي، لكنه ترك الخدمة. وعام ١٨٢٩، يصدر ديوانه الثاني. وبعد عامين، في ظل حياة مرتبكة، يصدر ديواناً ثالثاً. لكنه يتجه - بعد ذلك - إلى النشر، وخاصةً القصة القصيرة. وقد منحته جريدة محلية جائزة عام ١٨٣٣ عن قصته «المخطوط الذي عُثر عليه في زجاجة». عمل مساعدًا لرئيس تحرير جريدة محلية، لكنه فُصل بعد أسبوعين لتكرار سُكره، ليعود إلى بالتيمور، فيتزوج سرًا ابنة عمه التي تبلغ من العمر ١٣ عامًا.

وفي ١٨٣٨، ينشر رائعته «حكاية آرثر جوردون بيم». وفي العام التالي، ينشر مجموعته القصصية «حكايات الغرائبي والأرابيسك»، في جزئين، التي تمثل مَعلمًا في تاريخ الأدب الأمريكي. في يناير ١٨٤٢، أصيبت زوجته بالسل. وبدأ بُو في الانغماس في الخمر بشراهة تحت وطأة وضعها الصحي. وفي ٢٩ يناير ١٨٤٥، نُشرت قصيدته الشهيرة «الغُراب» بإحدى الصحف، وتوفيت زوجته في يناير ١٨٤٧

وفي ٣ أكتوبر ١٨٤٩، عُثر عليه في أحد شوارع بالتيمور محمومًا، وتوفي بالمستشفى بعد أربعة أيام، وهو في الأربعين من عمره.

في مقالته الهامة «المبدأ الشعري»، يؤكد بُو أنه لا وجود لشيء اسمه قصيدة طويلة، طالما أن غاية الفن هي الجمالي، الذي يؤثر على المتلقين، حيث لا يتجاوز أمد التأثير المدة الزمنية اللازمة لقراءة قصيدة، أو مشاهدة عمل درامي أو تشكيلي.

وأسس بُو لمذهب «الفن للفن»، قبل صياغة المصطلح، انطلاقًا من أن العمل الفني لا علاقة له بالأخلاق، وعليه التركيز أساسًا على إنتاج تأثير فني جميل، وأن على القصيدة أن تُكتب «من أجل القصيدة».

ومن أهم أعماله الشعرية «حلم داخل حلم» (١٨٢٧)، و«الأعراف» (١٨٢٩)، و«إسرافيل» (١٨٣١)، و«الدودة المنتصرة» (١٨٣٧)، و«الغُراب» (١٨٤٥)؛ ومن أعماله القصصية «سقوط منزل أوشر» (١٨٣٩)، «جرائم قتل شارع

مورج» (١٨٤١)، «قناع الموت الأحمر» (١٨٤٢)، و«القلب المليء بالقصص» (١٨٤٣)، «الليلة الثانية بعد الألف لشهر زاد» (١٨٥٤)، «السقوط في الفوضى» (١٨٥٠).

بيرليوز (Hector Louis Berlioz) (١١ ديسمبر ١٨٠٣ - ٨ مارس ١٨٦٩): موسيقار رومانيكي فرنسي، اشتهر بـ«السيمفونية الفانتازية»، التي قدمت للمرة الأولى عام ١٨٣٠، وبلحنه الجنائزي لعام ١٨٣٧ لكنه - من ناحية أخرى - ألف حوالي ٥٠ أغنية للعزف على البيانو. ارتبط مبكرًا بالحركة الرومانتيكية الفرنسية، وكان من بين أصدقائه فيكتور هوجو وألكسندر دوما وبلزاك. وكتب عنه جوتيه «هكتور بيرليوز يبدو لي أنه يشكل مع هوجو وديلاكروا الثالث المقدس للفن الرومانتيكي». تزوج بممثلة أيرلندية ألهمته «السيمفونية الفانتازية»، وكان فرانز ليست وهنريش هايني شاهدي الزواج، لكن الطلاق تم بعد ٩ سنوات. وعام ١٨٣٠، بعد عام من أولى سيمفونيته، مُنح «جائزة روما»، حيث أقام فيها لعامين للدراسة.

وطوال حياته، كان مشهورًا بقيادته للأوركسترا أكثر من كونه مؤلفًا موسيقيًا. لكن موسيقاه تعتبر بالغة الأهمية من زاوية تطوير الشكل السيمفوني، والتوزيع الموسيقي، والتصوير الموسيقي للأفكار. وهو ما جعله يبدو «حديثًا» للغاية في عصره. وكثيرًا ما كان النقاد يعتبرونه - مع فاجنر وليست - الثالث المقدس للرومانتيكية التقدمية بالقرن التاسع عشر. ولكنه - على الرغم من ذلك - لم يؤيد ثورة ١٨٤٨، وانتقدها بقسوة، بحديثه عن «الجماهير الحمقاء البشعة».

وثمة الكثير من المؤثرات الأدبية على مؤلفات بيرليوز. فقد تأثر - في تأليفه «السيمفونية الفانتازية» - بكتاب «اعترافات مدمن أفيون إنجليزي» لتوماس دي كوينزي، واستمد سيمفونيته «لعنة فاوست» من «فاوست» لجوته، و«هارولد في إيطاليا» من «تشايلد هارولد» لبايرون، و«روميو وجولييت» من مسرحية شيكسبير الشهيرة، واستند - في عمله الأوبرالي الشاهق «الطرواديون» - على فرجيل في «الإنيادة».

وقد استثارت موسيقى بيرليوز غير التقليدية الوسط الأوبرالي والموسيقى الراسخ، مما ألقى عليه أعباء مالية وشعورية كبيرة، حيث كان عليه أن يدفع أجور

العازفين والمؤدين المتضخمة مع الأعداد الضخمة التي يستخدمها في أعماله، مما أدى به إلى استخدام قدراته الصحفية كناقد موسيقي لإعالة نفسه، بالتأكيد على أهمية الدراما والتعبيرية في الأعمال الموسيقية. وبالتالي فقد خلف من الأعمال النقدية «أمسيات مع الأوركسترا» (١٨٥٢) و«مذكرات» (١٨٧٠)، و«بحث في التوزيع الموسيقي والأوركسترا الحديث» (١٨٥٢).

جوتييه، تيوفيل (Théophile Gautier) (٣١ أغسطس ١١٨١ - ٢٣ أكتوبر ١٨٧٢): شاعر وروائي ورسام وناقد فني فرنسي. يلتقي مبكراً مع جيرار دي نرفال، ويكشف عن ميله الخاص إلى الشعراء اللاتينيين «الانحطاطيين»، «الغرائبيين». يشكل مع أصدقائه الفنانين «المنتدى» الشهير، ويكرس نفسه للرسم. وفي يونيو ١٨٢٩، يساهم لقاءه بفيكتور هوجو «الأستاذ» في حثه على الاتجاه إلى الأدب. وفي ٢٨ يوليو، يصدر ديوانه «أشعار»، في يوم انتفاضة باريس نفسه، فيمر الديوان في صمت. وتكشف قصائده الأولى عن شاعر شاب يمتلك طرائق القدماء، وإذ يعي ميراثهم، يحاول إثبات أصالته من خلال شكل صارم ولغة محددة دقيقة.

وبعد ثلاثة أعوام، يعيد جوتييه إصدار قصائده الأولى في ديوان جديد بعنوان «البرتوس»، اسم بطل قصيدة طوبلة؛ نص فانتازي، شيطاني وتصويري. وستجلى قدراته عام ١٨٣٣، في سلسلة من الروايات التي تركز على حياة فنانين وكتاب «المنتدى». في هذا العمل الباروكي، يصبح جوتييه الشاهد الواضح والتهكمي على هذه «الحماقات الثمينة للرومانتيكيين».

عام ١٨٣٦، يصبح صحفياً لأسباب مالية، ويصدر رواية «الآنسة دي موبان» التي تتحول إلى فضيحة، فيعد رواية جديدة - «القبطان فراكاس»، التي لن ينتهي منها إلا بعد ثلاثين عاماً - ونصوصاً مختلفة، وحكايات وقصصاً تُنشر بين عامي ١٨٣٧ و ١٨٦٦، من بينها «ليلة كليوباترا» و«رواية النقود» و«أريا مارسيللا».

وفي جريدة «لا بريس La Presse»، يقوم جوتييه في البداية بالنقد الفني (وصلت كتاباته إلى أكثر من ألفي صفحة ومقالة)، حول الغرائبي، وتاريخ الرسم، والرسم الحديث، والفن الحديث في أوروبا، وتاريخ الفن الدرامي منذ ٢٥ عاماً، وكنوز

الفن في روسيا، وتاريخ الرومانتيكية، وذكريات أدبية. وفي عام ١٨٣٨، صدر ديوانه «كوميديا الموت»، بالغ الاختلاف عما سبقه. وتحت تأثير شيكسبير وجوته ودانتي، نحت فيه جوتيه بحوية الهيكل العظمي للموت. وفي ١٨٣٩، يستسلم جوتيه للمسرح، ويكتب «دمعة الشيطان» ثم «القبعة المسحورة»، و«فانتازيات»، وأناشيد رعوية وحكايات جان». وفي ٢٨ يونيو ١٨٤١، يُعرض له باليه «جيزيل» بنجاح ساحق.

وضمن جولاته الخارجية يقوم بزيارة إلى مصر عام ١٨٦٢، بعد إسبانيا وتركيا والجزائر. وإلى جانب أعماله النقدية، فقد احتفظ جوتيه دائماً بتفضيله الشعر. وفي ١٨٥٢، تصدر الطبعة الأولى من «طلاء وعقيق»، وهو ديوان سيظل موضع إثراء بقصائد جديدة في طبعاته التالية حتى ١٨٧٢ وفي هذه الفترة، سيصبح جوتيه بمثابة عميد مدرسة ثقافية وإبداعية، ويعلن بودلير بنوته له (يهدي له «أزهار الشر» حيث يصفه في الإهداء بأنه «الشاعر المعصوم»)، ويهدي له بانثيل قصائده. وينضم إلى الأكاديمية الفرنسية في ١٨٦٦. وفي ليلة ٢٣ أكتوبر ١٨٧٢، يتوقف قلبه عن الخفقان، ليشيعه هوجو ومالارميه وبانثيل.

ومن أعماله «سيرة ذاتية» و«الموت العاشق» (١٨٣٦) و«نادي الحشاشين» و«قدم المومياء» (رواية - ١٨٤٠)، و«صاحبة المقهى» (حكاية فانتازية - ١٨٣١)، و«أريا مارسيللا، ذكرى من بومبي» (رواية - ١٨٥٢)، و«عالم روحاني» (رواية فانتازية - ١٨٦٦).

جيز، قونستنتين (Constantin Guys) (٣ ديسمبر ٢٠٨١ - ٢٩٨١): مراسل حربي، ورسام بالألوان المائية، ورسام صحفي للجرائد الفرنسية والإنجليزية. وصفه بودلير - في مقال خصصه لأعماله الفنية - بأنه «رسام الحياة الحديثة».

دورفيي، جول - أميديه باربي (Jules-Amédée Barbey d'Aureville) (٢ نوفمبر ١٨٠٨ - ٣٢ أبريل ١٨٨٩): روائي وقصاص فرنسي، تخصص في نوع من الحكايات الغامضة التي تبحث في القوى الخفية. وكان له تأثير حاسم على كتاب من قبيل أوجست فييه دي ليل - آدم وهنري جيمس ومارسيل بروست.

في الخمسينيات، أصبح الناقد الأدبي لصحيفة «لو بَي» (Le Pays). كان يتبنّى

آراء كاثوليكية متطرفة، فيما كان يتناول موضوعات بالغة الفداحة، متخذًا سمت الأرستقراطي، ومُلمحًا إلى ماضٍ غامض. وقد وجه كتاباته ضد النمط الاجتماعي والأرستقراطي لنورماندي.

ومن بين أعماله «عشقة عجوز» (١٨٥١)، التي هوجمت وقت صدورها باعتبارها لا أخلاقية، «المسحورة» (١٨٥٤)، «الشياطينات» (١٨٧٤)، مجموعة من القصص القصيرة، تحكي كل منها قصة امرأة ترتكب فعلاً عنيفًا، أو جريمة، أو تقوم بانتقام.

دوفال، جين (Jean Duval): ملهمة بودلير وعشيقته، منذ التقيا عام ١٨٤٢ كانت ممثلةً تسكن في باريس، وتُوصف بأنها بوهيمية. ألهمته عددًا من قصائد «أزهار الشر»، من بينها «خصلة الشعر» و«الأفعى الراقصة» و«الشرفة» و«عطر غرائبي» و«جثة» و«ندم متأخر».

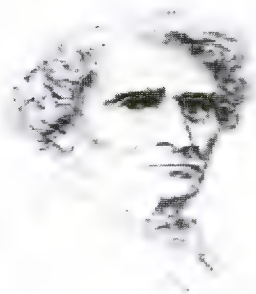
دوما، ألكسندر (الأب) (Alexandre Dumas) (٢٤ يوليو ١٨٠٢ - ٥ ديسمبر ١٨٧٠): كاتب فرنسي اشتهر برواياته التاريخية العديدة، المعتمدة على المغامرات، والتي جعلته أكثر الكتاب الفرنسيين انتشارًا في العالم.

بدأ دوما نشاطه الأدبي بكتابة المقالات للصحف والمسرحيات للمسرح. وفي ١٨٢٩، عُرضت مسرحيته الأولى «هنري الثالث وحاشيته» بنجاح جماهيري كبير. وفي العام التالي، لقيت مسرحيته الثانية «كرستين» نجاحًا مماثلًا، ليُصبح قادرًا ماليًا على أن يمتهن الكتابة. وفي ١٨٣٠، شارك في الثورة التي أطاحت بالملك شارل العاشر وأحلت محله دوق أورليانز (الذي سبق لدوما أن عمل في مكتبته).

وبعد كتابته لعدة مسرحيات ناجحة، وجه جهوده نحو الرواية. فتحت إلحاح الصحف على كتابته روايةً مسلسلّة، أعاد كتابة مسرحياته روائيًا ليقدّم أول رواية له عام ١٨٣٨، بعنوان «الكابتن بول». ومن ١٨٣٩ إلى ١٨٤١، جمّع دوما - بمساعدة عدد من الأصدقاء - مجموعة من ثمانية أجزاء من المقالات حول أشهر المجرمين والجرائم في التاريخ الأوروبي، وساعده بعض هؤلاء الأصدقاء في



تيوفیل جوتییہ



هیکتور بیرلیوز



باری دورژیئی



ألكسندر دوما (الأب)

وضع الخطوط العامة لحبكة «الكونت دي مونت كريستو» و«الفرسان الثلاثة»، وبعض الروايات الأخرى، فيما كان دومًا يحول الخطة العامة إلى سرد روائي، تفصيلي حوارى، ويكتب الفصول الختامية.

وقد عادت عليه كتاباته بأموال طائلة، لكنه كان - بسبب إسرافه على النساء والحياة المرفهة - مدينًا دائمًا. وفي ١٨٥١، هرب إلى بروكسيل من دائنيه، ومن هناك سافر إلى روسيا، وقضى عامين، قبل أن يفكر في البحث عن مغامرة وأفكار لروايات جديدة، ليجد نفسه - عام ١٨٦١ - متورطًا في القتال من أجل توحيد إيطاليا، ولا يعود إلى باريس إلا عام ١٨٦٤

وعلى الرغم من نجاح دوما وعلاقاته الأرستقراطية، فإن دمه المختلط - جدته كانت من العبيد - سيظل يؤرقه طول حياته. وفي عام ١٨٤٣، كتب رواية قصيرة بعنوان «جورج» تتناول بعض القضايا المتعلقة بالأصل العرقي، وآثار الاستعمار.

وتضم قائمة رواياته «الفرسان الثلاثة» (١٨٤٤)، «بعد عشرين عامًا» (١٨٤٥)، «الفيكونت براجلون» (١٨٤٧)، «الكونت دي مونت كريستو» (١٨٤٥ - ١٨٤٦)، «الملكة مارجو» (١٨٤٥)، «فارس البيت الأحمر» (١٨٤٥)، «سيدة مونسورو» (١٨٤٦)، «الحراس الخمسة والأربعون» (١٨٤٧)، «التوليبي السوداء» (١٨٥٠)، «الملاك بيتو» (١٨٥٣)، «لصوص الذهب» (بعد ١٨٥٧).

أما في مجال المسرح، فقد كتب «هنري الثالث وحاشيته» (١٨٢٩)، «أنطوني» (١٨٣١)، «كين» (١٨٢٦). كما ألف «القاموس الكبير للمطبخ» الذي نشر بعد وفاته عام ١٨٧٣ كما تضم قائمة أعماله في الرحلات «انطباعات رحلة: في سويسرا» (١٨٣٤)، «عام في فلورنسا» (١٨٤١)، «من باريس إلى كاديكس» (١٨٤٧)، «القوقاز» (١٨٥٩)، «انطباعات رحلة: في روسيا» (١٨٦٠).

دوميه، أونوريه (Honoré Daumier) (٢٦ فبراير ١٨٠٨ - ١٠ فبراير ١٨٧٩): رسام ونحات ورسام كاريكاتير فرنسي، من كبار فناني عصره. بدأ حياته الفنية برسم لوحات لناشري الأعمال الموسيقية، ورسوم للإعلانات، بعد إتقانه لتقنيات

الطباعة الليثوجراف، وعدد من الأعمال غير الموقعة للناشرين، وكشف عن تحمس كبير للأسطورة النابليونية.

وخلال حكم لوي فيليب، التحق بالصحيفة الكوميديّة «الكاريكاتير»، مركزًا سخرته على مهازل البرجوازية وفساد القانون. ورسمه الكاريكاتيري للملك كعملاق أدى به إلى السجن ستة شهور في ١٨٣٢ وبعدها توقفت الصحيفة عن الصدور، لكن مؤسسها سرعان ما أسس صحيفة جديدة، واصل فيها دومييه رسومه الكاريكاتيرية الساخرة من البرجوازية.

لكن لوحات دومييه المطبوعة بالليثوجراف - التي تم تجميعها عام ١٩٠٤ - لا تقل عن ٤ آلاف لوحة، فيما يُعتبر أحد رواد المدرسة الطبيعية في الرسم، وإن لم تلقَ لوحاته نجاحًا إلا قبل وفاته بعام، عندما جمع دوران - رويل أعماله للعرض في قاعاته، وكشف مدى موهبة الرجل الذي كان يوصف بأنه «مايكل انجلو الكاريكاتير». ووقت العرض، كان دومييه كافيًا، ويعيش في منزل صغير اشتراه له الفنان كورو. وكتب عنه بودلير أنه «واحد من أهم الشخصيات، ولن أقول فحسب في الكاريكاتير، بل أيضًا في الفن الحديث».

دي فيني، ألفريد (Alfred Victor, comte de Vigny) (٢٧ مارس ١٧٩٧ - ١٧ سبتمبر ١٨٦٣): شاعر وكاتب مسرحي وكاتب فرنسي. التحق بالحرس الإمبراطوري عام ١٨١٥، ورُقّي إلى رتبة «رائد - كابتن» عام ١٨٢٣، وأُرسل إلى الجبهة خلال الحرب مع إسبانيا؛ لكنه قدّم استقالته عام ١٨٢٨

بدأ كتابة الشعر عام ١٨١٥، وصدر ديوانه الأول «قصائد» عام ١٨٢٢؛ وفي عام ١٨٢٦، أصدر له طبعةً جديدةً مزودة بعنوان «قصائد عتيقة وحديثة». وفي عام ١٨٣٧، أضاف إليه عددًا آخر من القصائد الجديدة.

وفي المجال الروائي، كتب «٥ مارس»، رواية تاريخية قادتته مثاليته إلى تنميق الأحداث فيها، بما يتوافق مع نسق مسبق الإعداد؛ وأصدر كتابين من النصوص، «ستيللو» (١٨٣٢) و«عبودية وعظمة عسكرية» (١٨٣٥)؛ وقد اختير عضوًا بالأكاديمية الفرنسية عام ١٨٤٥ لكن سنواته الأخيرة سيقضيها في عزلة، إلى أن يُتوفى في باريس بمرض السرطان بعد عام من المعاناة الجسدية. وكتابه الشعري

الثاني «الأقدار»، الذي نُشرت قصائده الرئيسة في «روفي دي دو موند» (Revue des deux mondes) - لن يصدر إلا بعد وفاته، عام ١٨٦٤ أما «مذكرات شاعر» - وهو كتاب من المذكرات الشخصية والملاحظات والتأملات - فسينشر عام ١٨٦٧

ومن بين جميع الرومانتيكيين، ليس هناك من هو أكثر شخصانية من فيني؛ ففي غالبية قصائده، يعبر عن «أنا» مترفعة وغيورة. وهو أحياناً موسى، وأحياناً شمشون، وأحياناً ثالثاً يسوع نفسه. وأجمل قصائده تمثل مجموعة من الرموز. وفي التعبير عن مشاعره، يضفي عليها قيمة ودلالة عامة، بفصلها عن ذاته ليتمكن له بذلك الحديث عن شخصيته. والعزلة، ولا مبالة الناس، وخيانة المرأة، ولا مبالة الطبيعة، وصمت الألوهية إزاء آلامنا، والاعتزال الرواقي، هي الأفكار المهيمنة على هذا الشاعر الفيلسوف.

وأهم أعماله: «الحفل الراقص» (١٨٢٠)، «قصائد» (١٨٢٢)، «إلوا، أو شقيقة الملائكة» (١٨٢٤)، «قصائد عتيقة وحديثة» (١٨٢٦)، «٥ مارس» (١٨٢٦)، «ماريشال الحبر» (١٨٣١)، «ستيللو» (١٨٣٢)، «الأعمال الكاملة» (١٨٨٣) - (١٨٨٥)، «دافني» (١٩١٢).

ديلاكروا، أوجين (Eugène Delacroix) (١٧٩٨ - ١٨٦٣): أحد كبار الرسامين الرومانتيكيين الفرنسيين بالقرن التاسع عشر، حيث استطاع تجاوز التكوين الكلاسيكي للوحة لتحويلها إلى «استعارة» أو «مجاز» تشكيلي. وتكشف أعماله عن تمكن رفيع من اللون، يتجلى في لوحة «موت ساردانابال»، على سبيل المثال، التي تنطوي على مزج راق للألوان، فيما يمتزج الفانتازي والكارثي والإيروتيكي في أعماله.

وقد اهتمت أعماله بتناول أحداث واقعية («معجزة شيو» و«الحرية تقود الشعب»)، وإن لم يغفل المجال الديني من اهتماماته، على الرغم من إعلانه الإلحاد. وقد ألهمت أعماله الكثير من الرسامين اللاحقين، من قبيل فان جوخ.

ومن أهم أعماله «دانتي وفرجيل في الجحيم» (١٨٢٢)، «بورترية أسباسي» (حوالي ١٨٢٤)، «شابة يتيمة في المقبرة» (١٨٢٤)، «مشاهد مجازر شيو»

(١٨٢٤)، «اليونان على أطلال ميسولونغي» (١٨٢٦)، «موت ساردانابال» (١٨٢٧ - ١٨٢٨)، «الحرية تقود الشعب» (١٨٣٠)، «نساء الجزائر في منزلهن» (١٨٣٤)، «صراع يعقوب مع الملاك» (١٨٥٥ - ١٨٦١)، «بورترية لشويان» (١٨٣٨).

دي ليل، لوكونت (Charles-Marie-René Leconte de Lisle) (٢٢ أكتوبر ١٨١٨ - ١٧ يوليو ١٨٩٤): شاعر فرنسي ينتمي إلى الحركة البارناسية. اجتذب ديوانه الأول «فينوس ميلو» عددا من الأصدقاء كان غالبيتهم مخلصين للأدب الكلاسيكي. وفي ١٨٨٦، انتُخب عضواً بالأكاديمية الفرنسية خلفاً لفيكتور هوجو. صدر ديوانه «قصائد عتيقة» في ١٨٥٢، و«قصائد وأشعار» في ١٨٥٤، و«طريق الصليب» (١٨٥٩)، «قصائد بربرية» - في شكلها الأول - عام ١٨٦٢، و«قصائد تراجيدية» عام ١٨٨٤، فيما صدر بعد وفاته «قصائد أخيرة» (١٨٩٩) و«قصائد أولى ورسائل حميمة» (١٩٠٢).

كما نشر عدداً من الترجمات الرفيعة لهوميروس وثيوقريطيس وهيزيود وأيسخيلوس وسوفوكليس وإيروبديدس وهوراس.

وتتكشف الحركة البارناسية في لوكونت دي ليل. فشعره صاف، رنان، مُتقن، وصحيح الإيقاع كلاسيكياً، مفعم بالطابع المحلي الغرائبي، والأسماء الحوشية، والبلاغة الواقعية. وتمثل البرودة نوعاً من التمييز الفني التي تكاد تحول كل شعره إلى رخام، على الرغم من النيران الكامنة في القلب. وتنطوي قصائده على ملمح ملحمي، مع رتبة مترفعة لمفهوم فريد عن الحياة والكون. فهو يرى العالم مثلما وصفه بايرون «خطأً فاضحاً مجيداً»، ولا يريد سوى أن يقف مستقلاً قليلاً عن الجمهور، متأملاً في ازدياد. والأمل، بالنسبة له، لا يعدو أن يكون ذلك اليقين اليائس. وعلاقته الوحيدة موجهة إلى الموت، «الموت السماوي»، الذي سيضم أطفاله إلى صدره.

دي موسيه، ألفريد (Alfred Louis Charles de Musset) (١١ ديسمبر ١٨١٠ - ٢ مايو ١٨٥٧): شاعر وكاتب مسرحي وروائي فرنسي.

ينتمي إلى أسرة ميسورة، ومثقفة. كان جده شاعراً، وأبوه متخصصاً في روشو

وقام بنشر أعماله. وعمره ١٧ عامًا، يبدأ في التردد على المحافل الثقافية، ويميل إلى سانت - بيف وفيني، ويرفض تملق «الأستاذ» فيكتور هوجو. وبعد تجريب نفسه في الطب، والحقوق، والرسم، وعزف البيانو، يصبح واحدًا من أوائل الرومانتيكيين الفرنسيين. وفي العشرين من عمره، تبدأ شهرته الأدبية مترافقةً بسمعة شخصية تمزج الأناقة بالترفع. وعام ١٨٣٠، يجرب موسيه نفسه في المسرح. ولكن بعد ردود فعل مسرحيته «ليلة فينيسية»، يقول المؤلف «وداعًا لمعرض الوحوش، وإلى وقت طويل» حتى ١٨٤٧ وفي ديسمبر ١٨٣٢، يظهر العرض الأول لـ «عرض في كرسي وثير»، الذي يتكون من دراما «الكأس والشفاه» وكوميديا «بم تحلم الفتيات؟»، وحكاية شرقية «نامونا». ويعبر موسيه في هذا العمل عن التوتر الأليم - الذي يهيمن على العمل - بين الفجر والطهارة.

وعامي ١٨٣٣ - ١٨٣٤، هو العاشق المتيّم بجورج صاند، التي يسافر معها إلى إيطاليا، والتي ستلهمه «لورنزا شيو»، عمل درامي رومانتيكي سيكتبه عام ١٨٣٤ وينشر آنثذ «حكايات من إسبانيا وإيطاليا». لكن موسيه يسقط مريضًا لتصبح جورج صاند عشيقه لطيبه. وعندما يعود إلى باريس، يدفع بمسرحياته إلى العرض: «الثرى»، «لا مزاح مع الحب»، «لا ينبغي القَسَم بلا شيء»، ويكتب قصصًا نثرية و«اعترافات طفل القرن»، روايته الوحيدة، المهداة إلى جورج صاند. وبين ١٨٣٥ و ١٨٣٧، يؤلف موسيه رائعته الغنائية «الليالي (ليالي مايو، وأغسطس، وأكتوبر، وديسمبر)»، التي تتشابك فيها خيوط الألم والحب والإلهام. لقد أسس وطور موسيه نوعًا من ازدواج الشخصية.

يُمنح وسام الشرف في ١٨٤٥ ومثل بلزاك، يتم اختياره عضوًا بالأكاديمية الفرنسية عام ١٨٥٢ من أهم أعماله: «إلى أُمي» (١٨٢٤)، «إلى الأنسة زوي دويران» (١٨٢٦)، «حلم، مدمن الأفيون الإنجليزي» (١٨٢٨)، «قصائد أولى» (١٨٢٩ - ١٨٣٥)، «حكايات من إسبانيا وإيطاليا، إبراء الشيطان، ليلة فينيسية» (١٨٣٠)، «الكأس والشفاه، نامونا» (١٨٣١)، «عرض في كرسي وثير» (١٨٣٢)، «لا مزاح مع الحب» (١٨٣٤)، «أشعار جديدة» (١٨٣٦ - ١٨٥٢)، «العشيقتان، كآبة، أمسية ضائعة» (١٨٤٠)، «حكايات» (١٨٤٨)، «الذبابة» (١٨٥٣)، «حكايات» (١٨٥٤)، «بنات لوط» (مجهولة التاريخ).

روب، فيليسيان (Félicien Rops) (٧ يوليو ١٨٣٣ - ٢٣ أغسطس ١٨٩٨): رسام ورجل طباعة ورسام صحفي وفنان حفر بلجيكي.

قام - خلال إقامته بباريس - برسم كتابات عظماء الكتاب من قبيل تيوفيل جوتييه وألفريد دي موسيه ومالارميه وشارل دي كوستيه، وأيضاً بودلير. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل طويلاً مغموراً في الظل، لكنه ظل محتفظاً بعلاقاته الأدبية حتى وفاته.

سانت - بيغ، شارل أوجستين (Charles Augustin Sainte-Beuve) (٢٣ ديسمبر ١٨٠٤ - ١٣ أكتوبر ١٨٦٩): ناقد أدبي، وإحدى القامات الرئيسة في تاريخ الأدب الفرنسي. وُلد في بولندا، ودرس الطب في باريس. وابتداءً من ١٨٢٤، بدأ كتابة المقالات الأدبية للصحف، وفي ١٨٢٧ - من خلال كتابته لقراءة نقدية لأحد دواوين فيكتور هوغو - ارتبط الاثنان بعلاقة وثيقة.

أصبح عضواً بالأكاديمية الفرنسية عام ١٨٤٥ وخلال الغليان الأوروبي في ١٨٤٨، كان يُلقى محاضرات في «لييج» البلجيكية عن «شاتوبريان ومجموعته الأدبية». عندما عاد إلى فرنسا (١٨٤٩)، بدأ نشر سلسلة مقالاته «أحاديث الاثنين». وعندما أصبح لوي نابليون إمبراطوراً، عين سانت - بيغ أستاذاً للشعر اللاتيني في «كوليج دي فرانس»، لكن الطلاب المعادين للإمبريالية تهاجموا عليه، فاستقال. وأصبح نائباً بالبرلمان (١٨٦٥)، حيث ركز دوره على المطالبة بحرية الحديث والصحافة.

ويقوم منهجه النقدي على ضرورة فهم السيرة الذاتية للفنان من أجل فهم أعماله. ومن أهم أعماله «لوحة الشعر الفرنسي في القرن السادس عشر» (١٨٢٨)، «حياة وأشعار وأفكار جوزيف ديلاورم» (١٨٢٩)، «العزاءات» (١٨٣٠ - شعر)، «شهوة» (١٨٤٥ - رواية)، «بورت - رويال» (١٨٤٠ - ١٨٥٩)، «أيام الاثنين» (١٨٥١ - ١٨٧٢)، «أحاديث يوم الاثنين» (١٨٥١ - ١٨٦٢)، «أيام اثنين جديدة» (١٨٦٣ - ١٨٧٠).

سُو، أوجين (Joseph Marie Eugène Sue) (٢٠ يناير ١٨٠٤ - ٣ أغسطس ١٨٥٧):



ألفريد دي فيني



أونوريه دوميه



ألفريد دي موسيه



أوجين ديلاكروا

روائي فرنسي. استفاد من خبراته البحرية التي أمدها بمادة رواياته الأولى، ومن بينها «كيرنوك، اللص» (١٨٣٠)، و«السمندل» (١٨٣٢)، التي كُتبت في ذروة الحركة الرومانتيكية. وبأسلوب شبه تأريخي، كتب «جان كافالييه» من أربعة أجزاء (١٨٤٠) و«لوتريامون» من جزئين (١٨٣٧).

وقد تأثر بقوة بالأفكار الاشتراكية المعاصرة له، والتي حفزت أشهر أعماله «أسرار باريس» (عشرة أجزاء، ١٨٤٢ - ١٨٤٣)، و«اليهودي التائه» (عشرة أجزاء، ١٨٤٤ - ١٨٤٥)، التي وزعت على نطاق جماهيري واسع.

وكتب بعدها «الخطايا السبع الرئيسة» (١٦ جزءاً، ١٨٤٧ - ١٨٤٩)، و«أسرار الشعب» (١٨٤٩ - ١٨٥٦)، التي منعها الرقابة عام ١٨٥٧ والكثير غيرها.

وقد نفى نتيجة احتجاجه على انقلاب ٢ ديسمبر ١٨٥١، وهو ما مثل حافزاً جديداً لإنتاجه بصورة واضحة.

شاتوبريان (François-René, vicomte de Chateaubriand) (٤ سبتمبر ١٧٦٨ - ٤ يوليو ١٨٤٨): كاتب وسياسي فرنسي. ينتمي إلى إحدى العائلات الأرستقراطية العريقة. مُنح رتبة «رائد - كابتن» وهو في التاسعة عشرة من عمره. ولدى إقامته بباريس - عام ١٧٨٨ - ابتدأ حياته الأدبية بكتابة قصائد في «تقويم ربات الشعر».

ولدى قيام الثورة الفرنسية، يتعد عن فرنسا إلى «العالم الجديد». يجول طوال عام في غابات أمريكا الشمالية، وهو يحيا مع السكان الأصليين، ويُعد قصيدته «الناشز». ويعود عام ١٧٩٢، فيلتحق بجيش المهاجرين، ويصاب في المعركة، ويُنقل محتضراً إلى جيرسي، لتكون نهاية عمله العسكري.

يعيش في لندن في حالة فقر، فيُضطر إلى إعطاء دروس للغة الفرنسية والقيام بترجمات للمكتبات. وهناك ينشر - عام ١٧٩٧ - عمله الأول «دراسة للثورات القديمة والحديثة في علاقتها بالثورة الفرنسية»، حيث يعبر عن أفكار سياسية ودينية مغايرة للأفكار التي سيتبناها فيما بعد. ولدى عودته إلى فرنسا عام ١٨٠٠، يدير «ميركير دي فرانس» (Mercure de France) لعدة أعوام، وينشر في هذه الجريدة (١٨٨١) «أتالا»، عمل إبداعي أصيل سيثير الإعجاب في كل مكان. وفي الفترة

نفسها، يكتب «رونيه»، عمل مستمد من كآبة حالمة، سيصبح نموذجًا للكتاب الرومانتيكيين. وفي هذا العمل، يرصد الحب الطاهر لكن العنيف والمشوب الذي ربطه بأخته لوسيل، التي لقبها - في الرواية - بـ«الساحرة». وفي العام التالي، ينشر «عبقرية المسيحية» الذي يؤشر على العودة إلى الدين بعد الثورة.

وخلال عام ١٨٠٦، يقوم بجولة إلى اليونان وآسيا الصغرى وفلسطين ومصر، للإعداد لملمحة مسيحية. ولدى عودته، عكف على كتابة «الشهداء»، نوع من ملحة نثرية لن تُنشر إلا عام ١٨٠٩ والملاحظات التي جمعها الكاتب خلال رحلته ستشكل مادة كتابه «رحلة من باريس إلى القدس» (١٨١١). وفي العام نفسه، انتخب شاتوبريان عضوًا بالأكاديمية الفرنسية، ولكنه - إذ انتقد في خطاب الاستقبال ممارسات معينة للثورة - لم يُسمح له بشغل مقعده.

وتلاطمت به التغيرات السياسية صعودًا وهبوطًا، خلال السنوات العشر التالية، فعُين وزيرًا ثم أقيل، واتجه إلى المعارضة، ثم عُين وزيرًا لفرنسا ببرلين ثم سفيرًا في إنجلترا، فوزيرًا للخارجية، فالمعارضة من جديد بعد طرده من المنصب، فإلى السفارة الفرنسية في روما، فالاستقالة، فالعودة مديرًا ظهره تمامًا للسياسة، معتزلاً في بيته. وفكره وممارساته السياسية تبدو مليئة بالتناقضات، حيث كان يريد في آن واحد أن يكون صديق الملكية الشرعية والحرية، مدافعًا بالتبادل عنهما.

ويُعتبر شاتوبريان أب الرومانتيكية في فرنسا. فوصفه للطبيعة، وتحليله لمشاعر الأنا، تحولاً إلى نموذج لجيل الكتاب الرومانتيكيين.

شامفلوري (Jules François Félix Fleury-Husson Champfleury) (١٨٢٠ - ١٨٨٩): روائي وصحفي وناقد أدبي فرنسي، ومُنظر للحركة الواقعية. انتقل إلى باريس عام ١٨٤٣ من ليون، مسقط رأسه، والتقى ببودلير. وفي العام التالي بدأ كتابة النقد الفني لجريدة «لارتيست» (L'Artiste). وكان من أوائل من دعموا فلوير بمقال نقدي نُشر عام ١٨٤٨

وعام ١٨٥٠، دافع عن أعمال «إل جريكو»، وساهمت كتاباته في انتشار أعمال «جوستاف كوربيه»، وجعلها موضع جدل عام لجرأتها في تصوير مشاهد الحياة

العادية، وخاصةً خلال إشرافه على تحرير دورية «الواقعي» بين عامي ١٨٥٦ و١٨٥٧

فاجنر، ريتشارد (Wilhelm Richard Wagner) (٢٢ مايو ١٨١٣ - ١٣ فبراير ١٨٨٣): مؤلف موسيقي، وقائد أوركسترا، ومُفكر موسيقي وكاتب ألماني كبير، اشتهر بصورة أساسية بأعماله الأوبرالية (أو «الدrama الموسيقية» كما كان يسميها).

ومؤلفات فاجنر، وخاصةً أعماله الأخيرة، مميزة بنسيجها الطبّاق، ونزعتها اللونية الغنية، وتناغماتها وتوزيعها الموسيقي، والاستخدام الدقيق للأفكار المهيمنة المتكررة: أفكار مرتبطة بشخصيات ومواطن أو عناصر حبكة معينة. وقد جسدت اللغة الموسيقية اللونية لدى فاجنر - بصورة مبكرة - التطورات الأخيرة في الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية. لقد حوّل الفكر الموسيقي من خلال فكرته عن «العمل الكلي». وأثر مفهومه للفكرة المهيمنة المتكررة والتعبير الموسيقي الكلي على الكثيرين من مؤلفي موسيقى أفلام القرن العشرين.

في عمر العشرين، كتب فاجنر أولى أوبراته (Die Feen)، التي قلّد فيها أسلوب كارل ماريافون ويبر، ولن يتم تقديمها إلا بعد نصف قرن، بعد وفاة مؤلفها بقليل. وتولّى القيادة الموسيقية في بعض دور الأوبرا، حيث قام بكتابة أوبرا جديدة تستند إلى مسرحية شكبير «دقة بدقة»، والتي تم تقديمها عام ١٨٣٦، دون استكمال مدة العرض.

وفي عام ١٨٣٩، اضطر فاجنر وزوجته إلى الفرار إلى لندن، هرباً من الدائنين، بعد أن تراكت الديون عليه. وستلهم رحلة الهروب فاجنر في تأليف «الألماني الهارب». وسيقضي عامي ١٨٤٠ و ١٨٤١ في باريس، على كتابة المقالات وإدارة الأوبرات لمؤلفين آخرين. لكنه يعود إلى درسدن عام ١٨٤٢ ليقدّم أوبراه (Rienzi) التي قوبلت بنجاح كبير، ليقرر الإقامة فيها. وهناك كتب وقدم «الهولندي الطائر» و«تانهاوزر». وفي ١٨٤٩، يُضطر فاجنر إلى الهروب من جديد إلى باريس ثم زيورخ، هرباً من الملاحقة السياسية بعد قمع انتفاضة مايو بدرسدن التي أيدها، ليقضي الاثني عشر عاماً التالية في المنفى.

وقبل الانتفاضة، كان فاجنر قد أنهى «لوينجرين»، ليلح على صديقه فرانز

ليست لتقديمها في غيابه، وهو ما يحدث للمرة الأولى في أغسطس ١٨٥٠ وفي الأعوام التالية، سيقع فاجنر على فكر شوبنهاور، الذي سيعتبره فيما بعد أهم حدث في حياته، وسيتبناه بنزعه التشاؤمية، ويدفعه إلى كتابة «تريستان وإيزولده»، باستلهم علاقته بالشاعرة ماتيلده ويزيندونك، التي فُتن بها من طرف واحد. وبعد انهيار العلاقة (١٨٥٨)، باكتشاف زوجة فاجنر لرسالة منه إلى ماتيلده، ترك فاجنر زيورخ وحيداً إلى فينيسيا، وفي العام التالي، إلى باريس ليشرف على إنتاج نسخة جديدة من «تانهاوزر» (١٨٦١).

وتشهد حياة فاجنر انعطافاً درامية باعتلاء الملك لودفيج الثاني عرش بافاريا وهو في الثامنة عشرة من عمره (١٨٦٤)، والذي كان مغرمًا منذ صباه بأوبرات فاجنر، فيتم استدعاؤه إلى ميونيخ، حيث قام الملك بتسديد ديونه المزمنة، ووضع برنامجاً لتقديم أوبراته. وفي الوقت نفسه، وقع فاجنر في غرام «كوزيما» زوجة قائد الفرقة التي قدمت «تريستان وإيزولده» أول مرة، وهي ابنة غير شرعية لصديقه الموسيقار فرانز ليست، الذي لم يوافق على العلاقة التي أسفرت عن ابنة غير شرعية لفاجنر منها أُسميت «إيزولده»، فيما أشهرت الفضيحة في ميونيخ، فاضطر الملك إلى مطالبته بمغادرة ميونيخ، حيث أسكنه صديقه الملك في فيلا بجوار بحيرة لوسيرن السويسرية. وحينما انتهى فاجنر من أوبراه (Die Meistersinger)، استطاعت عشيقته إقناع زوجها بالطلاق، وتزوج فاجنر بها في ١٨٧٠، وهو الزواج الذي سيدوم حتى وفاته، ويسفر عن ابنة جديدة وابن يسمى سيغفريد.

وفي ١٨٧٧، سافر فاجنر إلى إيطاليا، حيث بدأ كتابة «بارسيفال» أوبراه الأخيرة، التي استغرقت أربع سنوات في التأليف، خلالها كتب سلسلة مقالات عن الدين والفن. وقد أكمل «بارسيفال» في يناير ١٨٨٢، فيما كان الممرض قد داهمه بشدة بنوبات من «الخُنْاق». لكنه سيتوفى (١٨٨٣) بأزمة قلبية.

فلوبير، جوستاف (Gustave Flaubert) (١٢ ديسمبر ١٨٢١ - ٨ مايو ١٨٨٠): من أهم رواد الاتجاه الواقعي في الرواية الفرنسية والأوروبية عامة. وقد تعرض للمحاكمة على روايته «السيدة بوفاري»، باعتبارها عملاً مخللاً بالأداب العامة، من قبل نفس النائب العام الذي حاكم - في العام نفسه - بودلير على ديوانه «أزهار الشر».



اوجین سُو



سانت - بیف



شاتو بریان



ریشارد فاجنر

هرب من الخدمة العسكرية وقام بدراسة الحقوق عام ١٨٤١، لكنه تخلى عنها عام ١٨٤٤ بفعل أزماته العصبية الأولى. ويبدأ الكتابة في تلك الفترة (قصص، والنسخة الأولى من رواية «التربية العاطفية»). يشارك في ثورة ١٨٤٨ ويكتب - بين مايو ١٨٤٨ و ١٨٥٢ - النسخة الأولى من «إغواء سانت أنطوان». وبين عامي ١٨٤٩ و ١٨٥٢، يقوم برحلة طويلة إلى الشرق مع ماكسيم دي كام، يزور خلالها مصر والقدس والقسطنطينية وإيطاليا.

خلال صيف ١٨٥١، يبدأ كتابة «السيدة بوفاري»، ويواصل العمل فيها ٥٦ شهرًا. وفي نهاية ١٨٥٦، تُنشر الرواية في إحدى الصحف، ثم - في أبريل ١٨٥٧ - تصدر في كتاب، وتصبح موضع محاكمة دون أن يُدان.

في بداية سبتمبر ١٨٥٧، يبدأ كتابة «سلامبو»، ويسافر إلى قرطاج من أجل البحث عن وثائق للرواية، التي تصدر عام ١٨٦٢

عام ١٨٦٤، يعيد كتابة «التربية العاطفية»، التي تصدر في نوفمبر ١٨٦٩. ينشر «إغواء سانت أنطوان»، في بداية أبريل ١٨٧٤، ويواصل إنتاجه الأدبي مع ثلاثة أعمال في أبريل ١٨٧٧: «قلب بسيط» و«أسطورة سانت جوليان لوسبيتالييه» و«هيروديا».

ويُعتبر فلوبيير أحد عظماء الرواية في القرن التاسع عشر، وخاصة مع «السيدة بوفاري» و«التربية العاطفية». ويقع فلوبيير بين الجيل الرومانتيكي والجيل الطبيعي (زولا وموباسان، الذي يعتبره بمثابة أستاذ له).

فيرلين، بول (Paul Marie Verlaine) (٣٠ مارس ١٨٤٤ - ٨ يناير ١٨٩٦): شاعر فرنسي ينتمي إلى الحركة البارناسية. يشارك - عام ١٨٦٦ - في إصدار «البارناس المعاصر» (Parnasse contemporain)، وينشر «قصائد زحلية». يتبدى في شعره تأثير بودلير، فيما يتجلى - مع ذلك - التوجه نحو التعبير، نحو الإحساس، والذي يميز أفضل قصائده. عام ١٨٦٩، تؤكد هذا التوجه «حفلات غزلية»، فانتازيات تستلهم القرن الثامن عشر لوائتو.

وخلال أحداث كومونة باريس، يدافع عن الكومونة، ويغادر باريس مع زوجته - بعد قمع الكومونة - خوفًا من الانتقام منه. وبعد عودته إلى باريس بقليل

وإقامته لدى أهل زوجته، ينشق آرثر رامبو في حياته. يهجر فيرلين زوجته ويرحل برفقة الشاعر الشاب إلى إنجلترا فبلجيكا. وهي الرحلات التي سيكتب خلالها الجزء الأكبر من ديوانه «أغنيات عاطفية بلا كلام». وفي ١٨٧٣، وخلال مشاجرة ببروكسيل، يصيب رامبو بطلقة من مسدسه، ويتم الحكم عليه بعامين حبسًا، يقضيهما في بروكسيل ومون. وخلال سجنه، تحصل زوجته على حكم بالانفصال الجسدي. ويعود - في السجن - إلى الكاثوليكية. ومن هذا الوقت، ربما، تبدأ فكرة ديوانه «تعقل»، الذي سيستفيد - مع ديوانيه «قديمًا وحديثًا» (١٨٨٤) و«بالتوازي» (١٨٨٨) - من جانب كبير من قصائد الديوان المولود ميتًا. ولدى الإفراج عنه، يعود من جديد إلى إنجلترا، ثم إلى ريثيل حيث يعمل مدرّسًا.

عام ١٨٨٣، ينشر في صحيفة «لوتيس»، الحلقة الأولى من «الشعراء الملعونون» (مالارمي، تريستان كورييه، آرثر رامبو)، بما يساعد على منحه مزيدًا من الشهرة. ومع مالارمي، يتم اعتباره معلمًا وسلفًا للشعراء الرمزيين والانحطاطيين. وفي العام التالي، ينشر «قديمًا وحديثًا»، الذي يؤشر على عودته إلى صدارة المشهد الأدبي، رغم أن الديوان يضم قصائد مؤلفة في وقت سابق. وفي العام نفسه، في «بالعكس»، يحتفظ له هيوسمان بمكان رفيع في البانثيون الأدبي. وفي ١٨٨٦، يغرق - وسط تزايد شهرته - في أسوأ حالة فقر، دون أن تفيده أعماله الأدبية سوى في توفير لقمة عيش فحسب. وفي ١٨٩٤، يتم تتويجه «أميرًا للشعراء» في باريس (وعمره ٥٢ عامًا).

ومن بين أعماله الشعرية: «قصائد زحلية» (١٨٦٦)، «الأصدقاء» (١٨٦٧)، «حفلات غزلية» (١٨٦٩)، «أغنيات عاطفية بلا كلام»، «تعقل» (١٨٨٠)، «قديمًا وحديثًا» (١٨٨٤)، «الحب» (١٨٨٨)، «بالتوازي» (١٨٨٩)، «إهداءات» (١٨٩٠)، «نساء» (١٨٩٠)، «ظلال» (١٨٩١)، «سعادة» (١٨٩١)، «أغنيات لها» (١٨٩١)، «مراث» (١٨٩٣)، «إبيجرامات» (١٨٩٤)، «أعمال منسية» (١٩٢٦ - ١٩٢٩). أما أعماله الثرية، فتضم «الشعراء الملعونون» (١٨٨٤)، «لويز لوكليرك» (١٨٨٦)، «ذكريات أرملة» (١٨٨٦)، «سجوني» (١٨٩٣)، «اعترافات» (١٨٩٥).

كورو، جان - بابتيست كاميل (Jean-Baptiste Camille Corot) (٢٦ يوليو ١٧٩٦ -

٢٢ فبراير ١٨٧٥): رسام فرنسي للمشاهد الطبيعية. وتُحِيل أعماله إلى الكلاسيكية الجديدة، فيما تسبق إبداعات الانطباعية. وعنه قال كلود مونيه: «هناك أستاذ وحيد هنا - كورو. ونحن لا شيء بالقياس له، لا شيء». وإسهامه في رسم الشخص لا يقل أهمية؛ فديجا يفضل شخصه على مشاهد الطبيعة، والشخص الكلاسيكية ليكاسو تدين بالكثير لكورو.

في مرحلته الأولى، كان يرسم بصورة تقليدية و«ضيقة» - بتدقيق بالغ، وخطوط واضحة، وتحديد مطلق للأشياء. لكن بعد عامه الخمسين، تغيرت طرائقه لتتجه إلى استلهاهم القوة الشعرية. وفيما بعد ١٨٦٥، أصبحت طريقته في الرسم شاهداً على الأستاذية والشعر. وفي سنواته العشر الأخيرة، أصبح «الأب كورو» للحلقات الفنية الباريسية، باعتباره واحداً من أعظم رسامي المشاهد الطبيعية الذين عرفهم تاريخ الفن.

وقد شارك دائماً في صالون باريس. وفي ١٨٤٦، منحه الحكومة صليب وسام الشرف، ورُفِّي إلى ضابط في العام التالي. وفي ١٨٧٤، قبل قليل من وفاته، مُنح الميدالية الذهبية. وفي سنواته الأخيرة، كسب كثيراً من لوحاته، التي كانت محل طلب كثيف. وفي ١٨٧٢، اشترى منزلاً أهده إلى أونوريه دوميه - الرسام الشهير - الذي كان آنذاك كفيفاً، بلا مصدر رزق، ولا بيت. كما منح أرملة «ميه» - الرسام - ١٠ آلاف فرنك لرعاية أطفالها.

ومن أهم أعماله «صباح» (١٨٥٠)، «ماكبث» (١٨٥٩)، «البحيرة» (١٨٦١)، «الشجرة المكسورة» (١٨٦٥)، «قصيدة رعوية - ذكرى من إيطاليا» (١٨٧٣)، «بييليس» (١٨٧٥).

كورييه، جوستاف (Jean Désiré Gustave Courbet) (١٠ يونيو ١٨١٩ - ٣١ ديسمبر ١٨٧٧): رسام فرنسي قاد الحركة الواقعية في الفن التشكيلي في القرن التاسع عشر بفرنسا. تتوزع أعماله على تكوينات الشخص، والمشاهد الطبيعية، ومشاهد البحر. كان يؤمن أن مهمة الفنان هي السعي وراء الحقيقة، بما يساعد على إزالة التناقضات وأشكال الخلل الاجتماعية. والواقعية لديه لا تعني كمال الخط والشكل، بل التناول الخشن والعفوي للرسم، الذي يوحى بملاحظات مباشرة. وقد صور فظاظ الحياة، وتحدى بذلك الأفكار الأكاديمية المعاصرة عن

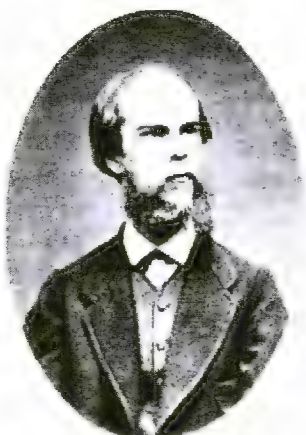
الفن التي أطلقت على توجهه «عقيدة القُبْح». ويشارك معه - في الواقعية - أونوريه دوميه، وجان - فرانسوا ميه.

بدأ الرسم بأعمال مستلهمة من أدباء عصره، فرسم «جارية» استلهامًا من كتابات هوجو، و«ليليا» التي تمثل جورج صاند، لكنه سرعان ما هجر هذا التوجه. وقام - في ١٨٤٧ - برحلة إلى هولندا، أكدت اعتقاده بأن على الفنانين أن يصوروا الحياة حولهم، مثل رمبرانت وهال.

ومن أعماله الأولى، رسم نفسه في لوحة «الرجل ذو الغليون» و«صورة شخصية» لنفسه، وقد رفضهما صالون باريس، فيما أنشد فيه النقاد الشبان - الواقعيون والرومانتيكيون الجدد - المدائح. وفي ١٨٤٩، كان قد أصبح مشهورًا، وأنتج لوحات من قبيل «بعد الغداء في أورنان» - التي منحها صالون باريس ميدالية - و«وادي اللوار». ومن أهم أعماله «جنازة في أورنان»، لوحة تسجل جنازة ودفن عمه الأكبر عام ١٨٤٨، حيث أصبحت أولى روائع الأسلوب الواقعي. وقد أثارت اللوحة جلبة بين النقاد والجمهور، حيث تصل إلى ١٠ × ٢٢ بوصة، وتصور طقسًا عاديًا بمقياس لم يكن مستخدمًا إلا في الموضوعات الدينية أو الملكية. وفي النهاية، أصبح الجمهور أكثر اهتمامًا بالمعالجة الواقعية الجديدة، وفقدت الرومانتيكية شعبيتها، فيما أدرك كوربيه أن «جنازة أورنان كانت - في الحقيقة - جنازة الرومانتيكية».

وقد عرض كوربيه لوحته الصرحية «ستوديو الفنان» في «صالون المرفوضين» عام ١٨٥٥ استعارة لحياته كرسام، باعتبارها مغامرة بطولية، حيث يحيط به أصدقاؤه ومعجبهوه، ومن بينهم بودلير. وفي نهايات الستينيات، رسم كوربيه مجموعات متزايدة من الأعمال الإيروتيكية، ذروتها «أصل العالم» (١٨٦٦)، التي تصور العضو الأنثوي، و«النائمون» (١٨٦٦)، التي تصور امرأتين عاريتين نائمتين في السرير؛ وهي اللوحات التي مُنعت من العرض العام.

وقد أسس كوربيه - عام ١٨٧٠ - «اتحاد الفنانين» لنشر الفن بصورة حرة بلا رقابة. وقد ضم الاتحاد أندريه جيل، أونوريه دوميه، كورو، أوجين بوتيه، جيل دالو، ومانيه. وأدّى رفضه لصليب وسام الشرف، الذي منحه له نابليون الثالث،



بول فيرلين



جوستاف فلوير



الفونس لامارتين



جوستاف كورييه

إلى ازدياد شعبيته بين معارضي النظام. وقد تُوفِّي في هولندا من جراء مرض في الكبد.

لامارتين، ألفونس (Alphonse Marie Louise Prat de Lamartine) (٢١ أكتوبر ١٧٩٠ - ٢٨ فبراير ١٨٦٩): كاتب وشاعر وسياسي فرنسي. اشتهر بقصيدته «البحيرة» التي تسترجع سيرة حب مشبوب، مستندة على بعض عناصر سيرته الذاتية. كان قديرًا في استخدامه للأشكال الشعرية الفرنسية. كما أنه إحدى الشخصيات الأدبية الفرنسية القليلة التي مزجت بين الكتابة والوظيفة السياسية.

عمل بالسفارة الفرنسية بإيطاليا من ١٨٢٥ إلى ١٨٢٨ وانتخب عام ١٨٢٩ عضوًا بالأكاديمية الفرنسية، فيما انتُخب نائبًا بالبرلمان عام ١٨٣٣، وكان مسئولًا عن الحكومة خلال ثورة ١٨٤٨، فيما كان وزير خارجية لمدة ثلاثة شهور من العام نفسه. وقد لعب - من خلال عمله الحكومي - دورًا هامًا وإيجابيًا في إلغاء العبودية، وإلغاء عقوبة الإعدام، وإقرار حق العمل للمواطنين.

ويُعتبر لامارتين أول شاعر رومانتيكي فرنسي، واعترف بتأثيره الهام فيرلين والحركة الرمزية. ومن أهم أعماله «تأملات شعرية» (١٨٢٠)، «تناغمات شعرية ودينية» (١٨٣٠)، «حول السياسة العقلانية» (١٨٣١)، «رحلة إلى الشرق» (١٨٣٥)، «جوسلين» (١٨٣٦)، «سقوط ملاك» (١٨٣٨)، «جينيفيف، قصة خادمة» (١٨٥١)، «الرؤى» (١٨٥٣)، «تاريخ ثورة ١٨٤٨» (١٨٤٩).

ليست، فرانز (Franz Liszt) (٢٢ أكتوبر ١٨١١ - ٣١ يوليو ١٨٨٦): عازف بيانو ومؤلف موسيقي مجري شهير خلال أوروبا كلها طوال حياته، وخاصةً بعزفه المنفرد وبراعته الرفيعة. ويعتبر حاليًا أحد عظماء عازفي البيانو، إن لم يكن أعظمهم في التاريخ الموسيقي.

ارتبط بالفكر الرومانتيكي، وهو مبدع «القصيد السيمفوني» والغناء مع البيانو. درس وعزف في فيينا وباريس. وتشمل مؤلفاته للبيانو «رابسوديات مجرية»، «سوناتا للبيانو من مقام ب صغير»، واثنين من «كونشيرتو للبيانو». والكثير من مؤلفاته للبيانو تمثل تحديًا لأهمهر العازفين. وهو أيضًا مؤلف للموسيقىات

الكورالية والقصائد السيمفونية والأشكال الأوركسترالية الأخرى، فضلاً عن مؤلفاته لآلة الأرغن.

وكانت موسيقاه محبوبة بفضل خصائصها التناغمية والعاطفية وهارمونيتها الغنية. وقد كتب الكثير من أغاني الحب الموجهة للمرأة.

ليل - آدام، كونت دي فييه (Comte de Villiers de l'Isle-Adam) (٧ نوفمبر ١٨٣٨ - ١٩ أغسطس ١٨٨٩): كاتب رمزي فرنسي.

في بداياته، شجعه بودلير على قراءة أعمال إدجار آلان بو، ليصبح بودلير وبو أهم مؤثرين في أسلوب الشاعر القادم في مرحلة نضجه. وصدر عمله الأول «قصائد أولى» عام ١٨٥٩، فلا يتجاوز دائرة أصدقائه ومعجبيه. وكتاباته - ذات الأسلوب الرومانتيكي - يغلب على حيكته الطابع الفانتازي، وملئة بالغموض والرعب. ومن أهمها مسرحية «أكسيل» (١٨٩٠) التي نُشرت بعد وفاته وتُعتبر أهم أعماله، ورواية «حواء الغد» (١٨٨٦)، ومجموعة القصص القصيرة «حكايات قاسية» (١٨٨٣). وكان يؤمن أن الخيال ينطوي على جمال أكثر مما ينطوي عليه الواقع نفسه.

كما تتضمن قائمة أعماله «إيزيس» (١٨٦٢)، وهي رواية لم تكتمل، «إيلين» (١٨٦٥)، مسرحية نثرية، «مورجان» (١٨٦٦)، مسرحية نثرية، «التمرد» (١٨٧٠)، مسرحية من فصل واحد، «العالم الجديد» (١٨٨٠)، مسرحية، «الحب الأسمى» (١٨٨٦)، قصص، «الهروب» (١٨٨٧)، مسرحية من فصل واحد، «حكايات قاسية جديدة» (١٨٨٨)، قصص).

مانيه، إدوارد (Édouard Manet) (٢٣ يناير ١٨٣٢ - ٣٠ أبريل ١٨٨٣): رسام فرنسي، أثار عمله «غداء على العُشب» و«أوليمبيا» جدلاً واسع النطاق، ومثلاً نقطة انطلاق للفنانين الشبان الذي سيخلقون الانطباعية، فيما يمثلان الآن معلمين هامين لتأسيس الفن الحديث، حيث اجتازت أعماله الهوة الفاصلة بين الواقعية والانطباعية.

زار ألمانيا وإيطاليا وهولندا، حيث تشبع بتأثيرات الألماني فرانتز هالز، والأسباني ديجو فيلاسكوز وجويا. وقد بنى مانيه الأسلوب الواقعي الذي بادر

به كورييه، ليرسم المتسولين والمغنين والغجر والناس في المقهى وصراع الثيران. وقدم القليل من الرسوم الدينية، الأسطورية أو التاريخية. وتمثل لوحة «موسيقى في التويليري» نموذجًا مبكرًا لأسلوب مانيه، المستلهم من هالز وفيلاسكويرز.

وقد رُفضت لوحته «غداء على العُشب» من صالون باريس عام ١٨٦٣، لكنه قام بعرضها في «صالون المرفوضين»، خلال العام نفسه، والذي ضم جميع اللوحات المرفوض عرضها (وصل عدد اللوحات التي رفضها صالون باريس إلى أكثر من ٤ آلاف لوحة). وقد أثار الجدل في لوحته، تجاور رجال يرتدون ثيابهم الكاملة مع امرأة عارية تمامًا، فضلًا عن المعالجة المختصرة التي تشبه «الإسكيتش»، وهي سمة تميز أعمال مانيه عن كورييه.

وقد اقتبس مانيه لوحة «فِينُوس أوربينو» لتيتيان (١٥٣٨)، ليقدم لوحته «أوليمبيا» (١٨٦٣)، امرأة عارية على طريقة التصوير الفوتوغرافي القديم، لكنها تضع بعض عناصر الزينة النسائية الصغيرة، مما كثف الإحساس بغيرها. وهذا الجسد الحديث لفِينُوس نجيل، على نقيض المقاييس السائدة؛ امرأة نحيلة ليست جذابة في ذلك الحين، بدون أي نزوع مثالي في الرسم. وتبدو - في اللوحة - خادمة مكتملة الثياب، لتحقيق تناقض ما بين الاثنين، على نحو لوحة «غداء على العشب». وقد اعتبرت اللوحة صادمة أيضًا بفعل الطريقة الجريئة التي تنظر بها «أوليمبيا» إلى المتفرج، فيما خادمتها تقدم لها وروداً من أحد المعجبين، ويدها تخفي عانتها، حيث الإحالة إلى الطهارة التقليدية ساخرة، بلا تواضع أو حياء.

وقد اعتبرت أعماله «حدثية مبكرة» بفعل التحديد الداكن للشخص، الذي يشد الانتباه إلى سطح اللوحة؛ واعتُبر أسلوبه الخشن واستخدامه لأسلوب الإضاءة الفوتوغرافية بمثابة «حدثية»، وتحدُّ لأعمال عصر النهضة التي قام مانيه بتحديثها. وعلى العكس من الانطباعيين - الذين كان صديقاً لهم - كان مانيه يؤمن بإصرار بضرورة أن يسعى الفنانون الحديثون إلى المشاركة في «صالون باريس»، لا إهماله. وعلى الرغم من أن أعماله قد أثرت بقوة على الانطباعيين إلا أنه رفض المشاركة في معارضهم، لأنه لم يشأ النظر إليه كممثل لهوية جماعة، ولرفضه معارضتهم لصالون باريس. ولكنه أيضًا تأثر بالانطباعيين، وخاصةً مونيه، وإلى

حدّ ما موريسو، وهو ما تبدّى في استخدام مانيه للألوان الفاتحة، فيما استبقى على كُتل الأسود، التي تميزه.

وقد منحته الحكومة الفرنسية «وسام الشرف» عام ١٨٨١ ومن أهم أعماله الأخيرة رسومه في ترجمة مالارمييه لـ «الغراب» لإدجار آلان بو (١٨٧٥)، و«بار في فولي - برجير» (١٨٨١ - ١٨٨٢). وفي عام ٢٠٠٠، بيعت إحدى لوحاته بما يزيد عن ٢٠ مليون دولار أمريكي.

مالارمييه، ستيفان (Stéphane Mallarmé) (١٨ مارس ١٨٤٢ - ٩ سبتمبر ١٨٩٨): شاعر فرنسي طوّر تجربة الشعر الفرنسي في القرن التاسع عشر، بالاستناد إلى بودلير، وأسس لتوجهات شعرية جديدة. من أهم أعماله الشعرية «هيروديداد»، «أصيل إله الريف» (١٨٧٦)، «قبر لإدجار آلان بو وبودلير وفيرلين»، «رمية نرد» (١٨٩٧) الذي قدم فيه تصوّرًا طباعياً غير مسبوق يحقق نوعاً من الجدل بين النص المكتوب وفضاء الصفحة.

تستند توجهاته الشعرية إلى دفع الصور والتماثلات والتجاوبات لاستدعاء الينابيع الخفية للكلمات، وعدم تسمية الأشياء بل الإيحاء بها. وفي عمله الهام «الكتاب»، الذي لم يكتمل، سعى إلى تحديد مهمة الشاعر في كتابة العمل الذي سيُخضع الصدفة لإمبراطورية العقل الإنسانية.

وهو صاحب إنجاز شعري طموح وبالع التركيب إلى حد الغموض، ورائد شعر جديد امتد تأثيره حتى الوقت الراهن.

ولدى قراءته هيجل، اكتشف مالارمييه أن «السماء» إذا ما كانت قد «ماتت»، فإن العدم هو نقطة انطلاق تفضي إلى «الجميل» والمثال». وستجواب مع هذه الفلسفة شعريةً جديدة تقوم على القوة السحرية للكلمة. وقد خلق مالارمييه - من خلال الإيقاع، وتركيب الجملة والمفردات النادرة - لغة تُعيد إحياء «الغائب من كل الباقات».

وتصبح القصيدة عالمًا منغلّقًا على نفسه يتولد معناه من الصوتيات. يُفعم الشعر باللون والموسيقى وثراء الإحساس، وكل الفنون من أجل تحقيق المعجزة. فمع

مالارميه، يصبح «الإحياء» أساس الشعرية المضادة للواقعية، ويصنع من الرمزية انطباعية أدبية.

وفي نهاية الخمسينيات من القرن التاسع عشر، يؤلف قصائده الأولى، ويجمعها تحت عنوان «بين الجُدران»، وهي نصوص ما تزال مستلهمة بقوة من فيكتور هوجو، وتودور دي بانثيل وأيضاً جوتييه. وكان اكتشافه «أزهار الشر» لبودلير - عام ١٨٦٠ - علامة فارقة ومؤثرة على أعماله المبكرة.

ويطرح - عام ١٨٥٥ - «التفسير الأورفي للأرض»، وعام ١٨٦٥، يكتب «أصيل إله الريف»، الذي كان يأمل أن يقدمه على «المسرح الفرنسي»، لكن يتم رفضه. وفي العام التالي، تُداهم مالارميه حالة من الشك المطلق تستمر أربعة أعوام. وينشر قصيدته الأولى التي لا تحتوي على علامات ترقيم - «فلتدخلني في تاريخك» - عام ١٨٦٦

وفي ١٨٦٧، يبدأ في نشر قصائده النثر، ويبدأ - في ١٨٦٩ - كتابة «إيجيتور»، حكاية شعرية وفلسفية، لم يُكمل كتابتها، تؤثر على نهاية فترة عجزه الشعري التي بدأت عام ١٨٦٦

ويلتقي في السبعينيات برامبو، ثم مانيه، حيث يتخذ موقفاً مسانداً له ضد رفض أعماله آنذاك من قبل صالون ١٨٧٤، فزولا ويصدر مالارميه مجلة «الموضة» لثمانية أعداد. ويتعرض لرفض جديد - في يوليو ١٨٧٥ - لنشر طبعته الجديدة من «أصيل إله الريف»، التي تصدر رغم ذلك في العام التالي، مع رسوم مانيه. يلتقي بهوجو عام ١٨٧٨، وينشر في العام التالي عملاً عن الأسطورة: «الآلهة القديمة». وعام ١٨٨٠، يسقط مريضاً.

في ١٨٨٣، ينشر فيرلين المقال الثالث من «الشعراء الملعونون» المخصص لمالارميه، ليصدر كتاب فيرلين في العام التالي، شأن كتاب جوريس - كارل هيوسمان، «بالعكس»، حيث الشخصية الرئيسية تكن إعجاباً مشوباً بقصائد مالارميه. وهما عملان ساهما في نقاهة الشاعر.

وتصدر النسخة النهائية من «أصيل إله الريف» عام ١٨٨٧ وفي العام التالي، تُنشر ترجمته لقصائد إدجار آلان بو. ويُصاب من جديد بالروماتيزم الحاد في

١٨٩١، فيقلل من ساعات عمله. يلتقي بأوسكار وايلد وبول فاليري الذي يصبح ضيفاً دائماً على صالون مالارميه الأدبي. وفي هذه الفترة، يبدأ كلود ديوسي تأليف مقطوعته «مفتتح لأصيل إله الريف»، التي قُدمت في ١٨٩٤ ويتقاعد في نوفمبر ١٨٩٣، فيقدم محاضرات أدبية في كامبريدج وأكسفورد في العام التالي.

وفي ١٨٩٨، يقف مالارميه في صف إميل زولا الذي ينشر - في صحيفة «لورور» في ١٣ يناير - مقاله «إني أتهم» دفاعاً عن الرائد ألفريد ديوسي. يصاب بتشنجات في البلعوم في ٨ سبتمبر ١٨٩٨ يوصي زوجته بتدمير كل أوراقه وملاحظاته: «ليس هناك تراث أدبي...»، وفي اليوم التالي يتوفى.

من أعماله الهامة: «أصيل إله الريف» (١٨٧٦)، «الكلمات الإنجليزية» (١٨٧٨)، «الآلهة القديمة» (١٨٧٩)، «اليوم قصائد نثر» (١٨٨٧)، «صفحات» (١٨٩١)، «أوكسفورد، كامبريدج، الموسيقى والأدب» (١٨٩٥)، «هذيانات» (١٨٩٧)، «رمة نرد لا تلغي الصدفة» (١٨٩٧)، «أشعار» (١٨٩٩ - بعد الوفاة)، «شعر الظرف» (١٩٢٠ - بعد الوفاة)، «إيجيتور» (١٩٢٥ - بعد الوفاة)، «حكايات هندية» (١٩٢٧ - بعد الوفاة).

أما ترجماته، فتضم «الغراب» لإدجار آلان بو، مع رسوم مانيه (١٨٧٥)، و«نجمة الجنيات» للكاتبة و.س. إلفينستون هوب (١٨٨١)، و«قصائد» لإدجار آلان بو (١٨٨٨)، و«الساعة العاشرة» لـ م. وستلر (١٨٨٨).

ميريميه، بروسبير (Prosper Mérimée) (٢٨ سبتمبر ١٨٠٣ - ٢٣ سبتمبر ١٨٧٠): كاتب مسرحي، ومؤرخ، وباحث آثار، وقصاص فرنسي. وإحدى قصصه هي أساس أوبرا «كارمن».

درس القانون، واللغات اليونانية والإنجليزية والإسبانية والروسية. وهو أول مترجم لكثير من الأعمال الأدبية الروسية في فرنسا. كان يعشق الصوفية والتاريخ والغرائبي، وتأثر بالرواية التاريخية لوالتر سكوت، والمسرح السايكولوجي لألكسندر بوشكين. والكثير من قصصه تمثل أحداثاً غامضة تقع في أماكن أجنبية، وخاصةً إسبانيا وروسيا.

وفي ١٨٣٤، عُين في منصب المفتش العام للآثار التاريخية. وقد نشر عددًا من تقاريره الرسمية - في هذا المجال - ضمن أعماله المنشورة. كان صديقاً لكونتيسة

مونتيغيو في إسبانيا (١٨٣٠)؛ وعندما أصبحت ابنتها إمبراطورة فرنسا «أوجيني» (١٨٥٣)، أصبح نائبًا بالبرلمان.

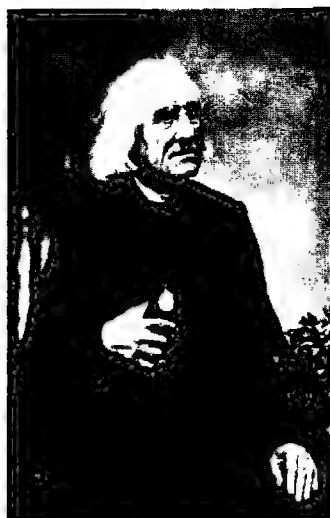
ومن بين أعماله «كرومويل» (١٨٢٢ - مسرحية)، ولم تنشر، ولا وجود لأية نسخة لها. وقد أحس ميريميه أن تشابهاتها مع السياسة الفرنسية المعاصرة بالغة الوضوح، فقام بتدمير المخطوط؛ و«مسرح كلارا جازول» (١٨٢٥)، و«لا جوزلا» (١٨٢٧)، أناشيد غنائية تنطوي على أفكار صوفية مختلفة، و«تأريخ زمن شارل التاسع» (١٨٢٩)، وهي رواية عن حياة البلاط الفرنسي خلال زمن مذابح سانت بارتولوميو (١٥٧٢)؛ و«ماتيو فالكون» (١٨٢٩)، قصة قصيرة عن رجل كورسيكي عليه أن يقتل ابنه باسم العدالة، وقد تحولت إلى أوبرا روسية؛ «موزاييك» (١٨٣٣)، مجموعة قصص قصيرة معظمها سبق نشره في «روفي دي باريس» بين ١٨٢٩ و ١٨٣٠؛ و«فينوس إيل» (١٨٣٧)، حكاية فانتازية مرعبة عن تمثال برونزي يعود إلى الحياة؛ و«ملاحظات الرحلات» (١٨٣٥ - ١٨٤٠)، و«كولومبا» (١٨٤٠)، أولى رواياته القصيرة الشهيرة، عن فتاة كورسيكية تجبر شقيقها على ارتكاب جريمة قتل؛ و«كارمن» (١٨٤٥)، رواية قصيرة شهيرة تقدم فتاة غجرية غير مخلصة يقتلها جندي يحبها (حولها الموسيقار «جورج بيزيه» إلى أوبرا في ١٨٧٥)؛ «لوكيس» (١٨٦٩)، قصة رعب تجري وقائعها في أوروبا الشرقية عن رجل نصف دب نصف إنسان يستمتع بإقامة الولايم من اللحم البشري؛ «الغرفة الزرقاء» (١٨٧٢)، و«رسائل إلى مجهولة» (١٨٧٤)، نُشر بعد وفاته.

ميشليه، جول (Jules Michelet) (٢١ أغسطس ١٧٩٨ - ٩ فبراير ١٨٧٤): مؤرخ فرنسي. كشف كتابه «مقدمة في التاريخ العالمي» (١٨٣١) عن نهج بالغ الاختلاف عن سابقيه، وأسلوب أدبي قوي مترافق مع مقدرة رفيعة على رصد التزامن التاريخي. وفي أوائل الثلاثينيات، بدأ عمله الصرحي، الرئيس، «تاريخ فرنسا» الذي سيستغرق منه ٣٠ عامًا. لكنه رافقه مع كتب أخرى كثيرة، من قبيل «أصول القانون الفرنسي».

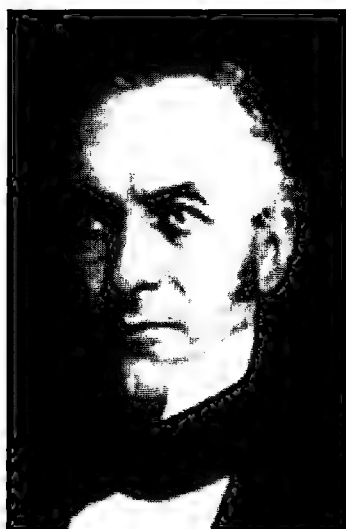
وفي ١٨٣٩، نشر «التاريخ الروماني»، فيما نشر محاضراته في كتابي «عن



إدوارد مانيه



فرانز ليست



بروسير ميريميه



ستيفان مالارميه

الكاهن، والمرأة والعائلة» و«الشعب». وخلال الأعوام التالية، عكف على تأليف «تاريخ الثورة الفرنسية» الذي يمثل أهم أعماله. وبعده، أصدر «نساء الثورة» (١٨٥٤)، و«الطائر» (١٨٥٦) عن التاريخ الطبيعي، و«الحشرة»، ثم «الحب» (١٨٥٩)، وهو من أكثر كتبه شعبية، و«المرأة» (١٨٦٠)، كنقد شامل للأدب والشخصية الفرنسية. وبعده أصدر «البحر» (١٨٦١)، كعودة إلى التاريخ الطبيعي، ف«الساحرة» (١٨٦٢). وفي ١٨٦٤، أصدر «إنجيل الإنسانية»، كتأريخ عام للآديان، ثم «الجبيل» (١٨٦٨) آخر حلقة في سلسلة التأريخ الطبيعي.

وأخيراً، في ١٨٦٧، انتهى من كتاب عُمره - «تاريخ فرنسا» - في تسعة عشر جزءاً، ابتداءً من التاريخ المبكر لفرنسا وصولاً إلى القرن الثامن عشر وانفجار الثورة، من خلال الوثائق والمخطوطات والقوانين.

نرغال، جيرار دي (Gérard de Nerval) - اسمه الحقيقي جيرار لافروني (٢٢ مايو ١٨٠٨ - ١٦ يناير ١٨٥٥)؛ شاعر وكاتب ومترجم فرنسي، من رواد المدرسة الرومانتيكية.

تعرف بتيوفيل جوتييه وفكتور هوجو، وكان أحد الأعضاء البارزين في الجماعات الثقافية والبوهيمية في تلك الحقبة. تبنى رؤية مثالية للمرأة، في شكل «الأم الضائعة» أو «المرأة المثالية»، التي تمتزج فيها - في آن - سمات مريم العذراء وإيزيس وملكة سبأ. وابتداءً بعام ١٨٤١، تعرض لنوبات من العته ستفضي به إلى مصحة الدكتور بلانش. وفيما بين المصحة والرحلات الخارجية (ألمانيا، والشرق الأوسط، وبلجيكا، وهولندا، ولندن)، سيقضي سنوات ١٨٤٤ - ١٨٤٧، مع كتابة الروايات والأعمال الأوبرالية، وترجمة أشعار هينريش هايني الذي كان صديقه. ويشهد في سنواته الأخيرة انحداً روحياً ومادياً، وكتابة روائعه الرئيسية في نفس الوقت: «سيلفي» و«أوريليا» (١٨٥٣ - ١٨٥٤). لكنه سينتهي بشنق نفسه.

وكان لإلحاح نرغال على دلالة الأحلام تأثير كبير على الحركة السيريالية ومارسيل بروست ورونيه دو مال.

ترجم «فاوست» وأعمالاً أخرى لجوته ١٨٢٨، وأطرى جوته الترجمة، واستخدم الموسيقار برليوز مقاطع من الترجمة في عمله «لعنة فاوست». من أهم

أعماله: «رحلة إلى الشرق» (١٨٥١)، الذي تُرجم إلى العربية وصدر في القاهرة، «ليالي أكتوبر»، «بنات النار» (قصص قصيرة تضم ملحقا بقصائد تحت عنوان «الخرافات»)، «أوريلي» (سيرة ذاتية خيالية، كتب فيها «أحلامنا هي حياة ثانية»، التي أثرت كثيرًا على الحركة السيربالية)، «رحلات وذكريات». أما درة أعماله فهي «سيلفي»؛ سيرة ذاتية مُقنَّعة، يُعيد فيها نرغال بضمير الأنا - من وراء الراوي المصطنع - تكوين ذكريات الطفولة وسعيه سدّى إلى سعادة بسيطة مُعزّية.

وتتضمن أعماله الأخرى: «الخيماي» (مسرحية - ١٨٣٩)، «مشاهد من الحياة الشرقية» (١٨٤٦ - ١٨٤٧)، «ماركيز فايول» (١٨٤٩)، «الشیطان الأحمر» (١٨٥٠)، «عربة الأطفال» (مسرحية - ١٨٥٠)، «لورلي، ذكريات من ألمانيا» (١٨٥٢)، «المضيئون» (١٨٥٢)، «بنات النار، أنجيليك، سيلفي، جيمي، إيزيس، إيميلي، أوكتافي، باندورا، الخرافات» (١٨٥٤)، «نزاهات وذكريات» (١٨٥٤)، «أوريليا أو حلم الحياة» (١٨٥٥).

نوديه، شارل (Charles Nodier) (٢٩ أبريل ١٧٨٠ - ٢٧ يناير ١٨٤٤): كاتب فرنسي، في الأدب والسياسة. وقد سجن لعدة شهور، لهججه على نابليون. خلال تجواله، كتب «رسام سالزبورج، مذكرات لعواطف قلب يعاني، متبوعة بتأملات عزلة» (١٨٠٣)، حيث يمثل البطل تنويعًا على شخصية «فيرتر» لجوته (آلام فيتر)، ويهفو إلى إعادة نظام الأديرة لتوفر ملاذًا من متاعب العالم. وفي ١٨١١، يصبح مديرًا لجريدة «تليجراف أوفيسيال» التي تصدر بالفرنسية والألمانية والإيطالية والسلوفينية. وفي ١٨٢٤، عُين في مكتبة الأرسينال، وانتخب عضوًا بالأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٣، فيما منح وسام الشرف عام ١٨٤٣، قبل وفاته بعام.

لكن العشرين عامًا التي قضاها بالمكتبة هي الأهم والأجدى في حياة نوديه، حيث كان لديه مقر يجمع ويدرس فيه الكتب النادرة؛ فيما تجمعت حوله مجموعة من الأدباء الشبان الموهوبين، الذين يسمون رومانتيكيي ١٨٣٠. ويعترف فيكتور هوجو وألفريد دي موسيه وسانت - بيغ بدينهم تجاهه. وكان بالغ الإعجاب بجوته وشيكسبير.

وأفضل وأكثر أعماله تميزًا يتألف جزئيًا من حكايات قصيرة ذات شخصيات

فاتنازية إلى هذا الحد أو ذاك، وجزئيًا من مقالات شبه بيبليوجرافية، شبه سردية، أقرب إلى نصوص توماس دي كوينسي. وأفضل نماذج هذا النمط الأخير، منشورة بكتابه «مزيج مستمد من مكتبة صغيرة» (١٨٢٩). وتمثل «سمارًا، أو شياطين الليل» (١٨٢١) أفضل نماذج أعماله الحكائية، فضلاً عن «تريليبي أو شيطان أرجيل» (١٨٢٢)، و«تاريخ ملك بوهميا وقصوره السبعة» (١٨٣٠)، و«الطلاسم الأربعة وأسطورة الأخت بياتريس» (١٨٣٨).

هوجو، فيكتور (Victor Hugo): (٢٦ فبراير ١٨٠٢ - ٢٢ مايو ١٨٨٥)؛ شاعر وروائي ومسرحي وكاتب فرنسي. يعتبر أهم كتاب الحركة الرومانتيكية الفرنسية في القرن التاسع عشر.

فيما بدأ حياته بتوجهات بالغة المحافظة، فقد تحول فيما بعد إلى اليسار السياسي، وأصبح مؤيدًا قويا للترعة الجمهورية. وتشترك أعماله مع غالبية القضايا السياسية والاجتماعية والتيارات الفنية في عصره. وبعد أن سيطر نابليون الثالث على مقاليد البلاد، وأسس نظام حكم معاديًا للبرلمانية (١٨٥١)، أعلن هوجو علانيةً أن نابليون «خائن لفرنسا». ونظرًا لخوفه على حياته، فقد فر هوجو إلى بروكسيل، ثم استقر في جزيرة جيرنسي في منفى اختياري سيطول حتى ١٨٧٠ واصل فيه إصدار منشوراته المعادية للنظام.

ترك هوجو تسع روايات. كتب الأولى - «بَيج - جارجال» - وهو في السادسة عشرة من عمره، والأخيرة - «ثلاثة وتسعون» - وهو في الثانية والسبعين. وتخللت أعماله الروائية كافة مراحل عمره، وكافة الأنماط، وكل التيارات الأدبية لعصره، دون اختلاط أبدًا بأحد آخر. والكثير من أعماله عصية على التصنيف القاطع إلى هذه المدرسة أو تلك، في الكتابة الروائية.

والرواية - لدى هوجو - ليست نوعًا من «التسلية»، فهي - دائمًا تقريبًا - في خدمة نقاش فكري. ويخوض أبطاله - مثل أبطال التراجيديات - صراعًا مع الضغوط الخارجية، وقدّر عنيد أحيانًا منسوب إلى المجتمع، وأحيانًا مع قوى الطبيعة.

وفي السادسة والعشرين من عمره، وضع هوجو - في مقدمته الشهيرة

لـ«كرومويل» - الأساس لجنس أدبي جديد: الدراما الرومانتيكية، أعاد خلالها وضع القواعد الراسخة للمسرح الكلاسيكي موضع اتهام، وطرح الأفكار الرومانتيكية حول المشهد: تعدد الشخصيات، والأماكن، ومزيج من النبرات - السوقية والمصطنعة، الرفيعة والغرائبية - ليضع بذلك مزيداً من الحياة في مسرح بالغ الافتعال. وستحقق مسرحيته «هيرناني» الشهرة له وتحتل مكانة مؤكدة في المسرح الحديث.

ويمر هوجو - في الأعوام التالية - بمصاعب مادية وإنسانية، قبل أن يقرر، مع ألكسندر دومو، إنشاء قاعة مخصصة للدراما الرومانتيكية. وعام ١٨٣٤، يؤثر فيه بقوة إخفاق إحدى مسرحياته، فيدير ظهره للمسرح. لكنه سيعود إلى كتابة المسرح - ابتداءً من ١٨٦٦ - بسلسلة بعنوان «مسرح في حرية».

في عامه العشرين، ينشر هوجو «الأناشيد»، ديوان يسمح باستشفاف التوجهات القادمة: العالم المعاصر، التاريخ، الدين، ودور الشاعر، بشكل خاص. وفيما سيلي، ستتخلص كلاسيكيته، وتزداد في المقابل رومانتيكيته. وقد طبع من الديوان الأول ٤ طبعات في ست سنوات.

وفي ١٨٢٨، يجمع هوجو كل إنتاجه الشعري السابق تحت عنوان «أناشيد وقصائد غنائية». جداريات تاريخية، واستلهامات من الطفولة؛ لكن الشكل ما يزال تقليدياً على الرغم من أن الشاعر الشاب يتحرر في الوزن والتقاليد الشعرية. وهذا العمل يسمح بالتنبؤ بالتطور اللاحق الذي سيدوم طوال حياته. ويتباعد الشاعر عن الاهتمامات السياسية المباشرة، لينحاز - بعض الوقت - إلى «الفن للفن». وينطلق في «الشرقيات» عام ١٨٢٩ (عام صدور روايته «اليوم الأخير لمحكوم عليه بالإعدام»).

في «أوراق الخريف» (١٨٣١) و«أناشيد الغسق» (١٨٣٥) و«الأصوات الداخلية» (١٨٣٧)، حتى «الأشعة والظلال» (١٨٤٠)، يرسي هوجو الأفكار الرئيسية لشعر غنائي، فيه الشاعر «روح ذات ألف صوت»، يخاطب المرأة، والله، والأصدقاء، والطبيعة، والقوى المسئولة عن المظالم في هذا العالم. ويمس هذا الشعر الجمهور لأنه يتماس - ببساطة ظاهرة - مع الأفكار الشائعة؛ وعلى الرغم



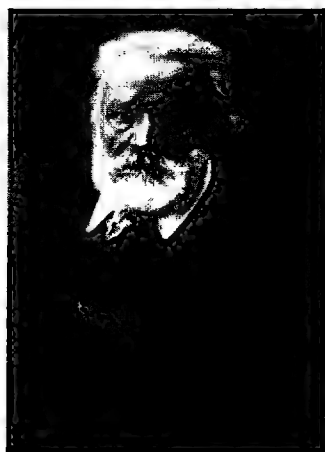
جيرار دي نرفال



چول ميشليه



أرسين هوساي



فيكتور هوجو

من ذلك، فلم يستطع هوجو مقاومة نزوعه إلى الملحمي والعظيم، حيث الشاعر مغروس في التاريخ الإنساني. ولن يخرج هوجو منه أبدًا في كل أعماله.

وفي المنفى، تبدأ مرحلة من الإبداع تتسم بثرائها، وأصالتها، وقوتها. ففيه، ستولد قصائد من أشهر ما كُتب في اللغة الفرنسية، وخاصة في «العقوبات» و«ملحمة القرون». فـ«العقوبات» - الصادر في ١٨٥٣ - هو شعر رسالة، لفضح «جريمة» نابليون الثالث «البائس»: انقلاب ٢ ديسمبر. متنبئًا بالتعاسات التي تنتظر نابليون الثالث، يعتمد هوجو إلى القسوة، والتهكم من أجل معاقبة «المجرم». ويتسم الشكل بالثراء الكبير في الاعتماد على العنصر الخرافي والملحمي، فيما يتخلله من أغان أو مرثا. لكن هوجو هو أيضًا شاعر الأزمنة الأفضل؛ في «ستيللا»، يتخذ الشاعر نبرات شبه دينية. أما رائعته «أسطورة القرون»، فهي مُركب لا يقل عن تاريخ العالم في ملحمة صدرت عام ١٨٥٩: الإنسان الصاعد من الظلمات إلى «المثل الأعلى»، ذلك الارتقاء البطيء والأليم للإنسانية نحو التقدم والنور.

هوساي، أرسين (Arsène Housset dit Houssaye) (٢٨ مارس ١٨١٥ - ٢٦ فبراير ١٨٩٦): أديب وصحفي فرنسي، ارتبط بتيوفيل جوتييه وجيرار دي نرغال، ورأس تحرير جريدة «لارتيست» (L'Artiste) عام ١٨٤٣، حيث كان يتلقى أعمال الأدباء الشبان مثل تيودور دي بانفيل وهنري مورجيه وشارل مونسلية وشامفلوري وشارل بودلير. كما عمل بصحف أخرى مثل «لابريس» (La Presse).

أهداه بودلير «سأم باريس». وقد أسفرت طريقة نشر القصائد في «لابريس» عن توتر العلاقة بين الاثنين، لأن هوساي كان يسعى إلى حذف بعض القصائد التي يمكن أن تصدم القراء، مؤجلًا النشر بدعوى أن بودلير قد أرسل إليه قصائد سبق نشرها من قبل في الدوريات. وانتهت المشكلة بفسخ العقد بين الطرفين، مما أوقع بودلير - المدين ماليًا دائمًا - في أزمة مالية حادة.

عُيِّن - بين عامي ١٨٤٩ و١٨٥٦ - مديرًا للكموميدي فرانسيز، فأدخل في برنامجه أعمال فيكتور هوجو وألكسندر دوما (الأب) وألفريد دي موسييه وفرانسوا بونسار. وتتوافق إدارته للمسرح مع فترة ازدهار ملحوظ للمسرح الفرنسي.

وقد نشر عددًا من الأعمال في مختلف الأجناس الأدبية. نشر - في الرواية - «فضيلة روزين» و«الشقيقات الثلاث» و«الآنسة مارياني»؛ وفي المسرح، «نزوات الماركيزة» و«كوميديا النافذة» و«جولييت وروميو»؛ وفي الشعر، «الشعر في الغابات» و«سيمفونية العشرين من العمر» و«مائة سوناتا وواحدة»؛ فضلاً عن مقالات في تاريخ الفن والنقد، والمذكرات («الاعترافات»).

للمترجم

أعمال شعرية

- ورده الفوضى الجميلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧
- إشراقات رفعت سلام (طبعة غير كاملة، القاهرة ١٩٨٧؛ الطبعة الكاملة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢)
- إنها ثومى لي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٣؛ سلسلة «نوافذ»، القاهرة ١٩٩٦؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥
- هكذا قلتُ للهاوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣
- إلى النهار الماضي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨
- كأنها نهاية الأرض، مركز الحضارة العربية، القاهرة ١٩٩٩
- حجرٌ يطفئ على ماء، «الدار» للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٧

دراسات

- المسرح الشعري العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦
- بحثاً عن التراث العربي: نظرة نقدية منهجية، دار الفارابي، بيروت ١٩٩٠؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠؛ ٢٠٠٦

ترجمات

- بوشكين: الغجر .. وقصائد أخرى، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨٢

- ماياكوفسكي: غيمة في بنطلون.. وقصائد أخرى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٨٥؛ طبعة مزيّدة: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٨
- كبر شويك: الإبداع القصصي عند يوسف إدريس، دار شهدي، القاهرة ١٩٨٧؛ طبعة كاملة: دار سعاد الصباح القاهرة والكويت ١٩٩٣
- ليرمونتوف: الشيطان.. وقصائد أخرى، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة ١٩٩١؛ دار «نفرو»، القاهرة ٢٠٠٨
- يانيس ريتسوس: اللذة الأولى (مختارات شعرية)، الملحقة الثقافية اليونانية، القاهرة ١٩٩٢؛ دار الينابيع، دمشق ١٩٩٧
- هذه اللحظة الرهيبة (قصائد من كرواتيا)، المركز المصري العربي للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٧
- يانيس ريتسوس: البعيد (مختارات شعرية شاملة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧
- سوزان برنار: قصيدة النثر من بودلير حتّى الآن (مراجعة وتقديم)، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٨/٢٠٠٠
- جريجوري جوزدانيس: شعرية كفاقي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩
- دراجو شتامبوك: نجومٌ منطفئةٌ على المنضدة، المجلس الأعلى للثقافة (بعنوان «لغة التمزق»)، القاهرة ٢٠٠١؛ دار «نفرو»، القاهرة ٢٠٠٨

عن المترجم

رفعت سلام شاعر ومترجم وباحث، يعد من رموز شعر السبعينات في مصر منذ أسس مع عدد من مجاليه مجلة «إضاءة ٧٧» التي أحدثت صدى ثقافيا مازال موضوعا للجدل حتى الآن. له سبعة دواوين شعرية كان آخرها «حجر يطفو على الماء» (٢٠٠٨)، كما ترجم أعمال بودلير ورامبو وبوشكين وغيرهم إلى اللغة العربية. وقد حصل عام ١٩٩٣ على جائزة «كفاقي» للإبداع الفني.

شارل بودليير

يضمّ هذا الكتاب - ولأول مرة باللغة العربية - الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر الفرنسي الأشهر شارل بودليير (١٨٢١-١٨٦٧) أبو الحداثة الشعرية بكل ما تعنيه من تمرد على القصيدة الكلاسيكية شكلاً ومضموناً. والذي أطلق سحرته اللاذعة ضد كل أشكال القيم الراسخة. حتى أن المحاكم الفرنسية منعت قصائد من ديوانه الأشهر «أزهار الشر» لأنها رأت منافاتها للأخلاق الاجتماعية والدينية. لقد انتصر بودليير دائماً للخطيئة التي تعبّر عن الضعف الإنساني. على حساب «الفضيلة» و«الأخلاق المصطنعة» التي تكبل الإنسان بسياج من القهر. ترك بودليير قبل رحيله ديوانين هما: «أزهار الشر» و«سأم باريس». وعدداً كبيراً من القصائد المتفرقة. وكذا ترجمة لأعمال «إدجار آلان بو» رائد القصة الأمريكي. وبعض الكتابات النقدية المهمة.



دار الشروق
www.shorouk.com

تصميم الغلاف عمرو الكفراوي